أسس الجيوبولتيكا

مستقبل روسيا الجيوبولتيكي

الكسندر دوغين

أسس الجيوبولتيكا

مستقبل روسيا الجيوبولتيكي

تعريب وتقديم

الدكتور عماد حاتم

دار الكتاب الجديد المتحدة

عنوان الكتاب الأصلي

ОСНОВЫ ГЕОПОЛИТИКИ

نشر هذا الكتاب لأول مرة باللغة الروسية سنة 1999، موسكو، أركتوغيا تستنتر

أوتوستراد شاتيلا ـ الطيونة، شارع هادي نصر الله ـ بناية فرحات وحجيج ـ طابق 5.
خليوي: 933989 ـ 3 ـ 00961 ـ هاتف وفاكس: 542778 ـ 1 ـ 00961 – ص.ب. 14/6703 بيروت ـ لبنان.
بريد إلكتروني: szrekany@inco.com.lb – الموقع على الشبكة www.oeabooks.com

ألكسندر دوغين
أسس الجيوبولتيكا   تعريب: د. عماد حاتم
720ص، 17 × 24 سم
ردمك: (رقم الإيداع الدولي) ISBN 9959-29-218-7
رقم الإيداع المحلي: 2004/5933

ترجم هذا الكتاب إلى اللغات التالية: الجورجية والصربية والرومانية والتركية والعربية وبشكل جزئي: الإيطالية والفرنسية والإنكليزية والإسبانية والفارسية والأفغانية

الطبعة الأولى: حزيران/يونيو/الصيف 2004 إفرنجي

توزيع دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية: زاوية الدهماني، السوق الأخضر،
هاتف: 4448750 ـ 4449903 ـ 3338571 . 21 . 00218 ـ فاكس: 4442758 . 21 . 00218. – ص.ب: 13498،
طرابلس ـ الجماهيرية العظمى ـ oeabooks@yahoo.com

تقديم

قبل عام واحد من غروب شمس القرن الماضي صدرت عن دار «أركتوغيا ـ تسنتر» في موسكو الطبعة الثالثة من كتاب «أسس الجيوبولتيكا»، «مستقبل روسيا الجيوبولتيكي» لمؤلفه ألكسندر دوغين. ويصف المؤلف عمله بقوله: «الكتاب ـ أول مؤلَّف تعليمي باللغة الروسية في علم الجيوبولتيكا. عرضت فيه بمنهجية وتفصيل أسس الجيوبولتيكا، نظريتها وتاريخها. كما إنه يغطي ميداناً واسعاً من المدارس والرؤى الجيوبولتيكية والقضايا العملية. ولأول مرة تصاغ العقيدة الجيوبولتيكية لروسيا.

إنه الدليل الذي لا بديل عنه بالنسبة لجميع من يتخذون القرارات في الميادين الأعظم أهمية في الحياة السياسية الروسية ـ من السياسيين وأصحاب المشاريع، والاقتصاديين والمصرفيين والدبلوماسيين والمحللين وعلماء السياسة ومن في حكمهم».

والكتاب غني بموضوعاته وبجدّة الآفاق التي يرتادها المؤلف وتخريجاته التي تجمع بين الرؤية المعاصرة والمعطيات التاريخية البعيدة وتأسيس الأطروحات السياسية أحياناً على خليط طريف من الخصائص الإتنية والمعتقدات الدينية والتكوين الروحي للأفراد والشعوب، يضاف إلى هذا طرافة تقسيم الكتاب والعناوين الكثيرة التي تشير إلى الأبواب والفصول والمقالات في كل فصل، كما تنعكس طرافته في النصوص المترجمة التي يختارها المؤلف من الأصول الأوروبية، يضاف إلى ذلك كله عشرات الخرائط الجيوبولتيكية والمسرد الذي يختم الكتاب وقد تضمن عدداً وافياً من المصطلحات المتعلقة بهذا العلم الجديد ـ الجيوبولتيكا. وهذا ما يدفعنا إلى القول بأن فهم الكتاب لن يكون كاملاً إلا بقراءته

في ترجمة(*) متأنّية جادة، معزّزة بالشروح والهوامش؛ والكتاب يقع في مقدمة وثمانية أبواب نستعرضها في ما يلي:

(*) في السابع والعشرين من أيار من العام قبل الماضي 2002 وفي معهد «بيت الحكمة» في جامعة «آل البيت» بالمملكة الأردنية الهاشمية حيث كان المترجم يعمل أستاذاً في كلية الآداب عقدت «حلقة نقاشية» بعنوان «الجيوبولتيكا في عالم متغير: نموذج روسيا الجديدة» شارك فيها المعهد الدبلوماسي في عمان، وكانت بالنسبة للمترجم مناسبة للتعرف على كتاب «أسس الجيوبولتيكا»، وقد تقدم في الحلقة النقاشية بمداخلته حول الكتاب وتفضلت بنشرها مجلة «قضايا استراتيجية» (دمشق، العدد 11، 2002 ص 200 ـ 207) ثم تلقى المترجم تكليفاً من «دار الكتاب الجديد المتحدة» بنقل الكتاب إلى اللغة العربية تمهيداً لنشره.

وانطلاقاً من القناعة بأن الترجمة هي نقل المعنى من اللغة المنقول عنها إلى اللغة المنقول إليها نقلاً دقيقاً أميناً وبلغة فصيحة وأسلوب سائغ رصين نأمل في أن نكون قد وفقنا إلى نقل «أسس الجيوبولتيكا» إلى اللغة العربية بالدقة العلمية المطلوبة دون أي استثناء للمواقف التي نتحفظ عليها أو نرى فيها رأياً آخر. وحاولنا في سبيل ذلك تذليل الصعوبات التي اعترضت سبيل الترجمة ومنها تطويع بعض مصطلحات العلم الجديد والمصطلحات التي دخلت اللغة الروسية بعد البيريسترويكا، والتعامل مع التركيبة الخاصة للجملة عند المؤلف وولعه باستعارة مفردات من الانجليزية والألمانية ثم إغفاله تقديم بيان بالمختصرات التي استخدمها في كتابه على الرغم من خدمته الجيدة للكتاب بتعزيزه بالخرائط المطلوبة وبالمسرد المفصل بشرح المصطلحات الجيوبولتيكية الواردة فيه. وترجمنا كل مفردة بما رأيناه ملائماً في العربية باستثناء كلمة «المؤَسْلَمين» التي وُصف بها الترك في بعض الأماكن بمعنى . . . «الذين أدخلوا في الإسلام» فترجمناها بالمسلمين.

أما الحواشي والشروح التي وردت في هوامش الكتاب والتي ربما نكون قد أكثرنا منها سواء من حيث العدد أو طول النصوص في بعضها فقد سبّبتها ـ في رأينا ـ طبيعة الكتاب والآفاق المتنوعة التي ارتادها المؤلف والتي يتأسس كثير منها على معلومات لا يعرف القارىء عنها إلا القليل أو قد لا يعرف أي شيء. وإذا استثنينا المتخصصين فإن معلوماتنا عن التاريخ الأوروبي والعلاقات الدولية والتاريخ الحديث لدول كالصين والهند ـ متواضعة إلى حد كبير. أما روسيا فلا يبدو تاريخها فقط مجهولاً بل وجغرافيتها أيضاً. وهذا بمجموعه ما دفعنا إلى تقديم هذه الأعداد من الحواشي ـ الإضاءات التي تنير المصطلح، الشخصية الانسانية، الحادثة التاريخية، الاتجاه الفكري، الظاهرة الطبيعية، المنطقة، الجزيرة، النهر وما إلى ذلك بما نرى أن السياق يحتاج إليه وفي محاولة إلى الاختصار قدر الإمكان إلا في بعض المواضع. واعتمدنا في هذه الحواشي على عدد من المراجع الدقيقة كان في طليعتها «المعجم الموسوعي» الصادر في طبعته الرابعة عن «سوفيتسكايا اينتسيكلابيديا» في موسكو عام 1987. =

تستقل المقدمة بتعريف هذا العلم الجديد ـ الجيوبولتيكا الذي يفترض ـ بسبب طابعه التركيبي استدعاء عدد كبير من العلوم ليؤكد من خلال ذلك على أنه علم لا يقارن بالعلوم المفردة بل بمنظومات العلوم. وإذا كانت الماركسية وليبيرالية آدم سميث تطرحان مقولة «الاقتصاد مصيراً» فمقولة الجيوبولتيكا هي «التضريس الجغرافي مصيراً» ذلك أن الجغرافيا والمدى المكاني يلعبان فيها الدور الذي تلعبه النقود والعلاقات الإنتاجية في الماركسية والليبيرالية، وإليها ـ إلى الجغرافيا والمكان ـ تنتهي الخطوط المؤسسة للوجود البشري، وبهذا المفهوم تعرض الجيوبولتيكا ثبوتيتها في مسألة تفسير الماضي وفعاليتها اللامتناهية في تنظيم الحاضر وتصميم آفاق المستقبل. ذلك أن العنصر الأساسي في الجيوبولتيكا هو الإنسان المحدَّد بالمدى المكاني، الذي نشأ وتكوّنت اشتراطتيه ضمن خصوصية مميّزة هي التضاريس الجغرافية للمكان وهذا ما تجسده بصفة خاصة التجليات الكبرى للإنسان كالدول والإتنيات والثقافات والحضارات الكبرى وما إلى ذلك. وإذا كان ارتباط الفرد بالاقتصاد أمر بيّن وكانت الاقتصادية مفهومة بالنسبة للبشر الاعتياديين مثلما هي مفهومة بالنسبة لمرجعيات السلطة الأمر الذي جعلها ـ حسبما يرى المؤلف ـ تحقق شعبية واسعة وتؤدي مهمة تعبوية تصل إلى درجة إشعال الثورات المؤسسة على استقطاب الجماهير البشرية، فإن ارتباط الإنسان بالمكان والأطروحة الأولى للجيوبولتيكا، لا يظهر بصفة ملموسة إلا على بعد معين من الإنسان الفرد، ولهذا السبب لم تتحول الجيوبولتيكا بعد إلى ايديولوجيا، أو بكلمة أدق إلى «ايديولوجيا جماهيرية» فمنطلقاتها الأساسية وموضوعاتها وَقْف على المرجعيات العاملة على القضايا ذات المدى الواسع

= ويسرّنا بهذه المناسبة أن نتقدم بصادق الشكر إلى الأستاذ الدكتور سهيل فرح الذي قرأ «أسس الجيوبولتيكا». باللغتين الروسية والعربية، وبكل المسؤولية الخلقية والعلمية، وساهمت ملاحظاته القيّمة في تدقيق عدد من المصطلحات العلمية وفي المطابقة بين الأصل والترجمة. كما نتوجه بالشكر العميق إلى أسرة العاملين في دار الكتاب الجديد المتحدة، ممن بذلوا في طبع وإخراج هذا الكتاب جهوداً صادقة لا يعرف أهميتها وحجمها إلاّ من واكب هذا العمل منذ بدايته وإلى أن رأى النور.
أما موقفنا من الكتاب فقد بسطناه على صفحات هذا «التقديم» الذي حاولنا أن نضمّنه أهم ما اشتمل عليه الكتاب وأهميته بالنسبة للقارىء العربي، بالإضافة إلى رأينا في جملة من المسائل التي تمت الإشارة إليها ومناقشتها بما وسعنا من الدقة والتفصيل.

كالتخطيط الاستراتيجي والسنن الاجتماعية ذات المستوى الكوني وما إلى ذلك.

ولهذا السبب يؤكد المؤلف على أن الجيويولتيكا ـ هذا العلم الجديد ـ هي وجهة نظر السلطة، هي علم السلطة ـ ومن أجل السلطة. ويكشف تاريخها بطوله على أن من عكفوا على دراستها كانوا دون استثناء ممن شاركوا في حكم الدول والأمم، أو ممن يهيئون أنفسهم للقيام بتلك الأدوار. فهي تمثل في العالم المعاصر «دليل رجل السلطة» وبكلمة أدق هي كتاب السلطة يقدّم ملخصاً ينبغي وضعه في الحساب عند اتخاذ القرارات الكونية المصيرية ـ كعقد التحالفات وشن الحروب، والقيام بالإصلاحات أو الاجراءات الاقتصادية والسياسية على مستوى واسع، ويختم المؤلف تعريفه بهذه الكلمات الثلاث:

ـ «الجيوبولتيكا ـ علم الحكْم».

وقبل أن يشرع المؤلف في شرح هذه الأطروحة الجديدة في كتابه يؤسس لذلك بمناقشة فكرة صميمية مؤداها أن الصراع الانساني أمر طبيعي مركوز في صلب الوجود الكوني. والصراع الذي يسوقه المؤلف مثالاً يختلف عما هو مألوف في هذا المضمار كالصراع الإتني أو الطبقي أو القائم على الرغبة في الاستئثار، ويصوره مكنوناً في التركيبة الأولى للبناء الكوني تعبر عنه ثنائية «التيلوروكراتيا» و «التالاسوكراتيا»، القوتين البرية والبحرية مجسَّدتين في عفوية البر (الثابت الصلب) وعفوية البحر (السائل الجاري) ، واستعراض هذه الثنائية والصراع الكونيين يقرّب المؤلف من الهاجس الأساسي الذي يخترق صفحات الكتاب الطويلة، وهو ضرورة الخروج من دائرة «القطب الواحد» الذي آل إليه العالم بعد انهيار الاتحاد السوڤياتي والبحث عن الطريق التي يمكن أن تؤدي إلى ذلك. فالقوتان اللتان خاضتا الصراع على مدى القرن العشرين هما روسيا، الأوراسيا (القوة البرية) والعالم الغربي الذي يسميه بـ «الأطلسي« (القوة البحرية). وما برحت قدرات هاتين القوتين في تعاظم حتى اتخذت صيغة الرعب النووي الذي فرض عليهما إما نقل المواجهة إلى خارج الأرض (حرب النجوم) وأما أن يفني أحدهما الآخر، وتواصل الصراع على هذه الصورة حتى انتهى لصالح القوة البحرية التي لا تزال تحقق انتصاراتها، ويترادف ذلك بتطلع تلك القوة إلى فرض هيمنتها ورؤاها و«عولمتها» على العالم وإقرار «أحادية القطب» على الصعيد الدولي بينما يرى المؤلف أن هزيمة القوة البرية ليست إلا ظاهرة مؤقتة تعود الأوراسيا بعدها إلى رسالتها القارية التي تتخذ صيغة

جديدة تأخذ في الحسبان جميع العوامل الجيوبولتيكية الجديدة وتحقق انتصارها، وهو ما يحاول المؤلف توكيده من خلال أبواب الكتاب التالية:

يخصص المؤلف البابين الأول والثاني من كتابه لدراسة الجيوبولتيكا من خلال جهود أكبر العلماء المؤسسين لهذا العلم وما جاؤوا به من نظريات، فيتوقف أمام المدرسة العضوية الألمانية التي أسسها ف. راتسيل وقوانينه السبعة التي طبقها على التوسع الترابي للدّول وكانت مترافقة مع بدايات الاستعمار الغربي ثم يتحدث عن ر. تشيلّين وف. ناومن اللذين أكسبا أفكار راتسيل ملامحها التطبيقية وعن دور العالم والسياسي الانجليزي هـ. ماكيندر الذي قرأ خارطة العالم البرية ـ البحرية قراءة جيوبولتيكية دقيقة وأدرك موقع الأوراسيا فيها فسماها «المحور الجغرافي للتاريخ» الكوني، فكان لهذا السبب حريصاً على الحيلولة دون توحد القوى الأوراسية، ويواصل المؤلف دراسة منظّري القوة البحرية الأمريكيين الذين أعانتهم سياسة بلادهم على تطبيق نظرياتهم على الواقع العملي ومن هؤلاء أ. ماهان ون. سبيكمان منظّرَي سياسة الهيمنة الأمريكية على المناطق الساحلية وإغلاق منافذ الأوراسيا على الآماد البحرية، ثم يستعرض نظرية ك. هاوسهوفر المتعلقة بإقامة الحلف القاري «برلين ـ موسكو ـ طوكيو» وكيف حُرف هذا التوجه حتى تحول إلى حرب ضد روسيا أيام هتلر. ويلتفت بعد ذلك إلى أعمال العالم الكبير ك. شميدت ونظريته المتعمقة حول المواجهة بين القوتين البرية والبحرية واللتين استعار لهما اسمي هولتين ورد ذكرهما في «العهد القديم» وهما: بهيموت ولوياثان، ثم يقدم المؤلف بعد ذلك نظرات الأوراسيين الروس ـ ب. سافيتسكي ومريديه حول الأوراسيا وما يسمى «بؤرة التطور» وخصوصية روسيا ومفهوم «الايديوكراتيا» الجديد ويشير إلى «الفرادة العرقية الروسية» التي تمثل تذاوب الغابة بالسهب، انصهار العنصرين السلافي والتركي مؤكداً على طرافة هذا الطرح وجرأته.

وتتوالى في الباب الثاني المخصص للنظريات الجيوبولتيكية المعاصرة أعدادٌ من الأسماء المعاصرة ـ د. ماينن‍ع ، ب. كوين. ك. غرين، هـ. كيسنغر والآراء المرتبطة بها كما يبسط المؤلف نظرية ص. هنتينغتون حول «صدام الحضارات» وف. فوكوياما حول «نهاية التاريخ» وجيوبولتيكا ج. أتّالي ، ويتطرق إلى العولمة، مفهومها وخلفياتها ليتحدث بعد ذلك عن «العولمة ما بعد الكارثية» للبروفيسور سانتورو، وبعد أن يعرض مفهوم «الجيوبولتيكا التطبيقية». الداخلية (مدرسة ايف

لاكوست) فالالكترونية يعلن بأن «الجيوبولتيكا التطبيقية ليست جيوبولتيكا» «لكنه ينظر بكل التعاطف والاحترام إلى جيوبولتيكا اليمينيين الجدد التي اتفقت مع المسار العام لفكر الألمان «القاريين» في فترة ما قبل الحرب، وقد عبرت عنها أطروحة «أوربا ذات الرايات المئة» لألين دي بينوا و«أوروبا من ڤلاديڤوستوك إلى دبلن» لجان تيريار، ونظرية النمساوي ي. فون لوهاوزن المتفقة مع أفكار هاوسوفر، ورؤية كارلو تيراتشانو القائلة بروسيا + الإسلام = إنقاذ أوروبا، وهي تتناغم في مجموعها مع توجه هؤلاء اليمينيين الجدد إلى «وحدة القارة الأوروبية» لتتحول قطباً يمكن أن يقف في وجه القطب الأطلسي الواحد. أما نظرية ل. غوميليوف المتعلقة بالأوراسيا كبؤرة تطور خصبة ملائمة لتشكلات إتنية وثقافية جديدة يتميّز بينها الاتنوس الخاص الذي كونه التذاوب السلافي ـ التركي ونظرته إلى الاندفاعية ورؤيته الطريفة إلى التجدد الإتني وآليته فتدخل بمجموعها جزءاً صميمياً في رؤى «الأوراسيين الجدد» التي ترى في أوروبا قوة قارية محتملة تتكامل مع قوى أخرى، إسلامية وغير اسلامية، لتكوّن الحلف الاستراتيجي القوي الذي يواجه الأطلسية ويفرض ثنائية القطبين أو تعددية الأقطاب.

وهكذا تتنوع النظريات وتتعدد ويأتي من ينتقد سابقه أو يصوبه أو يكمل طريقه، وتستوقفنا طرافة هذه النظريات وحدة بعض المواقف فيها. ومع ذلك، فلا بد وأن تختزن ذاكرة القارىء، نتفاً من فلسفة الجيوبوليتكي الأوروبي الأول ف. راتسيل. ابن القرن التاسع عشر والمتوفى في مطلع القرن العشرين، والذي واكبت حياته المد الاستعماري الأوروبي فرأى أن الدول الكبرى تعيش خلال تطورها إحساساً بالميل إلى التوسع الجغرافي في حدوده القصوى والذي يتدرّج حتى يشمل الكرة الأرضية كلها ما لم يلق من يتصدى له ويوقفه. يضاف إلى ذلك القانون السادس من قوانين ف. راتسيل في التوسع وينص على أن «الباعث على التوسع يأتي من الخارج ، إذ إن الدولة تثار للتوسع على حساب الدولة (أو الأراضي) ذات الحضارة الأدنى» فاتهم بأنه يقدّم «الدليل المرشد للأمبرياليين» الذي ساروا على «قوانينه. . . ولا يزالون». فهل انتبهت الشعوب المستضعفة إلى أن تجعل من «قوانين راتسيل» «الدليل المنبّه للمستضعفين» فتتحالف وتستعد لمواجهة الشر. إذ أن راتسيل، على ما يبدو، كتب قوانينه في القرن التاسع عشر لتطبق في بداية القرن الحادي والعشرين!

وهناك نقطة أخرى تستوقف النظر وهي أن هذا العلم ـ الجيوبولتيكا يكاد يكون وقفاً على الدول العظمى أو ما فوق العظمى إذ «إن الثنائية الجيوبولتيكية المؤسسة لا تمس الثانويين على مستوى الدول إلا بطريقة غير مباشرة، وتأثير هذه الدول على مسيرة المواجهة الكونية غير ذي شأن». ولهذا ينتسب أكبر ممثلي هذا العلم إلى ألمانيا وانجلترا وأمريكا وروسيا وفرنسا (أي الدول الفاعلة على المستوى الكوني). أما من وجدوا في دول كإيطاليا واسبانيا وبلجيكا ورومانيا فلم يكن لهم ذلك التأثير المطلوب. ومن اللافت للنظر ما يشير إليه المؤلف في مقالة «مصائر العلماء مصائر الدول» حيث يفصل بين نوعين من العلماء: من لقوا الأذن الصاغية في بلادهم التي عاملتهم بكل تفهم واحترام، فنهضوا بها وأوصلوها إلى أعلى عتبات الهيمنة والتوسع الكونيين (بريطانيا وأمريكا) وبين من لم يجر الإصغاء إليهم إلا قليلاً كما في فرنسا وألمانيا أو انحدر تعامل بلادهم معهم حتى الحضيض كما في روسيا. ولهذا حققت دول الغرب «السيطرة العالمية» «بينما دفعت ألمانيا سقوطها من التاريخ لمدة نصف قرن ثمناً لإهمالها أطروحات الجيوبولتكيين. أما الاتحاد السوڤياتي... فهبط تأثيره العالمي حتى الصفر وتقلصت مساحته بشدة وتحول اقتصاده ووسطه الاجتماعي إلى أطلال».

ويكمل المؤلف تعريف الجيوبولتيكا في خاتمة الباب السادس من كتابه فيصفها بأنها «علم علماني... دَنِسٌ، دنيوي». وفي عبارة تالية يلطف وصفه بالقول «ولهذا يمكننا القول إن الجيوبولتيكا تشغل وضعا بينياً بين العلم التقليدي («الجغرافيا المقدسة») وبين العلم الدنس». فهل يراد من ذلك الوصف استمرار تبرير مسلك الأقوياء الذين ما اعتدّوا خلال مسيرة التاريخ إلا بالقوة. وكان الاستعماريون في كل مرحلة من التاريخ الحديث يخرجون تحت ستار نظرة جديدة. وهكذا، وتحت شعارات «المجال الحيوي» و «تحضير الهمج» و «الرسالة التحضيرية» و «الحماية» و «الانتداب» وسواها أبيدت شعوب. فهل أُدرجت «الجبرية الجيوبولتيكية» في هذه القائمة اليوم واعتمدت ستاراً للنشاط الاستعماري بداية من مطلع القرن الحادي والعشرين؟!

في البابين الثالث والرابع، ويعدّ الأول منهما «تمهيداً» للثاني تطرح تأملات المؤلف حول موضوع وحيد هو روسيا، فيجري التوكيد على الـ **Heartland** الذي

يضاعف، في رأى المؤلف، من فرادة تلك البلاد. أما الخلاص من الوضع القائم فيراه المؤلف في «تجميع الإمبراطورية» الروسية السابقة واستباق ما يخشى حدوثه في المستقبل: كأن تقوم الصين بقفزة يائسة نحو الشمال أو تتحرك أوروبا باتجاه الأراضي الروسية الغربية، أو يتجه المعسكر الإسلامي نحو التكامل مع آسيا الوسطى.

وانطلاقاً من أطروحة «ليس للروس دولة الآن» ينتقل المؤلف إلى مناقشة «مشروعية ما بعد الإمبراطورية» والتي تطبق الآن على البلدان التي ظهرت على أنقاض الاتحاد السوفيتي ويشير بمرارة ممزوجة بالسخرية إلى تطبيق هذه «المشروعية» فيما مضى على المستعمرات والدومينيونات السابقة وبموجبها انتقلت غالبية المستعمرات الانجليزية، الاسبانية، الفرنسية، والهولندية السابقة إلى سيطرة الولايات المتحدة. كما جرى تطبيقها على الدول الأفريقية خلال عملية ما يسمى بـ «تصفية الاستعمار». ويسترسل المؤلف في شرح طبيعة الشعب الروسي، امتداده على خارطة العالم، تكوينه الإتني والتاريخي، أفقه اللاهوتي، لينتهي إلى مناقشة قضية يؤكد على أنها لا تقبل المساومة وهي ضرورة إيجاد «الإمبراطورية الروسية» فالفيدرالية نظام مرفوض في رأيه، وروسيا لم تعرف ما يسمى بـ «الدولة ـ الأمّة» ولا «الدولة الجهويّة» ولا الاتحاد السوڤياتي كان دولة من هذه الأنماط، وعلى عدد كبير من الصفحات، وبحظ كبير من التفصيل ينتقد الآلية الحكومية، ـ «القيصرية» منها و «السوفياتية» ويستعرض وجوه الخطأ في كل من النظامين. ومن الأخطاء السابقة يستنبط القواعد الأساسية للامبراطورية الأوراسية الجديدة التي ينبغي أن تقام دفعة واحدة كإمبراطورية، وأن تبدأ من الأساس بريئة من كافة وجوه النقص والضعف التي أودت بكل من النظامين ـ القيصري والسوڤياتي. وعلى هذه الأرضيّة يقدم ما يمكن أن يسمى المنطلقات أو البرامج المؤسسة لقيام هذه الإمبراطورية من ذلك أن تقيم التحالفات التي تسمح لها بمد حدودها البحرية حتى أطول مدى، وأن تبتعد عن المادية والإلحاد وتولي الجانب الروحي الأهمية القصوى، وأن تسلك منهج المرونة في تسيير الاقتصاد وتتحاشى الخصخصة والرسملة، وأن تسير في اتجاه أخلاقي انساني ديموقراطي وتعتمد مبدأ الاستقلال الذاتي، الثقافي منه واللغوي والاقتصادي والحقوقي بالنسبة لكل من الإتنيات والأعراف والشعوب الداخلة في الإمبراطورية... والكاتب لا يخفي أمله في أن

تكون الإمبراطورية أوراسية قارية عظمى وفي أن تصير عالمية في المستقبل، وهو ما يفسّر قوله في ختام مقالة: «نحو امبراطورية أوراسية جديدة»: «فمعركة الروس من أجل السيادة على العالم لم تنته بعد».

أما التطبيق «الجيوبولتيكي» الذي يقترحه المؤلف لدعم الإمبراطورية الجديدة فيتمثل في المحاور التي يرسمها لتؤسس مع الإمبراطورية الأوراسية ذلك التكتل الهائل الذي يخوض غمار الصراع مع الأطلسية بنجاح وهي:

1 ـ المحور الغربي، موسكو ـ برلين:

يرى المؤلف في أوروبا الوسطى منطقة شديدة التجانس ويمكنها أن تترك أثراً شديداً على جنوب القارة ـ ايطاليا واسبانيا. أما بريطانيا فلا يراها إلا قاعدة عائمة للولايات المتحدة، ولذلك يحوّلها إلى «كبش فداء» لا مندوحة من التضحية به وإبعاده وتشجيع الحركات الانفصالية لدى القوميات الايرلندية والسكوتلندية والويلزية فوق الجزيرة. وإذا كانت فرنسا أطلسية التوجه دوماً، حسبما يرى المؤلف، فإن نظرته الجديدة إليها تؤسس على قاعدة توجه فرنسي آخر يعود إلى الخط النابوليوني الذي رأى في أوروبا وحدة قارية واحدة وهو ما جسّدته سياسة ديغول الذي تحالف مع ألمانيا سعياً إلى إقامة الكونفيدرالية الأوروبية في مواجهة الولايات المتحدة الامريكية، ثم يذكّر المؤلف بأعمال المفكرين الاوروبيين السابقين الذين طالما أشاروا إلى الطبيعة الخاصة لوحدة أوروبا. كما يذكّر بحرص الدول الغربية الاستعمارية، عبر التاريخ، على غرس الحواجز الوقائية ـ عبر مجموعة دويلات ـ بين روسيا وألمانيا للحيلولة دون قيام الحلف الروسي الألماني بالإضافة إلى غرس الكراهية المتبادلة بينهما. ويرى أن التكامل بين هذين الشعبين ـ ضرورةٌ تفرضها اللحظة الراهنة والتي تبدو ألمانيا فيها عملاقاً اقتصادياً لكنها قزم سياسي، بينما تبدو روسيا عملاقاً سياسياً لكنّه كسيح اقتصادي ويمكن لكل من الدولتين أن تتكامل مع الأخرى. ويصل المؤلف إلى القول بأن على روسيا أن تكون مستعدة لإعادة منطقة كاليننغراد (بروسيا الشرقية سابقاً) إلى ألمانيا في سبيل تدعيم هذا التكامل وبخاصة أن تلك المنطقة تمثل ـ برأيه ـ رمزاً إقليمياً قد يؤدي إلى حرب يقتتل فيها الأشقاء «الروس والألمان». ويختم المؤلف هذه المقالة بكلمة مأثورة لبسمارك تقول: «لا عدوّ لألمانيا في الشرق». ويتمنّى على الحكام الروس إقرار شعار مقابل يقول: «ليس

لروسيا في الأقاليم الغربية وفي وسط أوروبا إلا الأصدقاء».

2 ـ المحور الثاني، موسكو ـ طوكيو:

يرى المؤلف أن سياسة «الإمبراطورية الأوراسية» نحو الشرق تطرح مجموعة من التأملات التي يبدأها بالحديث عن الهند التي أخذت منذ تحرّرها بالبحث عن «الطريق الثالث» مثلما أظهرت ميلاً إلى الاتحاد السوفياتي وهو ما يشجع المؤلف على عقد التحالف معها. لكن ضعف الهند الاقتصادي وتواضع مستواها التقني يزهّدان المؤلف في هذا التحالف، فلا يسند للهند إلا دور المخفر الأمامي للأوراسيا بينما يشير إلى ما تتفرد به تلك البلاد من ثقافة روحية يمكن أن تساعد على تفسير التوجهات الميتافيزيقية للامبراطورية الأوراسية.

ينتقل المؤلف بعد ذلك إلى الصين، ويفترض لا مندوحة الاختيار بينها وبين اليابان حليفاً للأوراسيا، ليقول بعد ذلك إن التاريخ قد أثبت أن الصين لا اليابان كانت جيوبولتيكياً القاعدة الأهم للأنجلوساكسونية في القارة الأسيوية بينما دأبت اليابان على إقامة العلاقات مع دول المحور الأوروبي . ثم يتحدث بشيء من التفصيل عن أهم القوى الفاعلة على المستوى العالمي وهي ـ الغرب الأقصى (أمريكا انجلترا، فرنسا وبعض الدول الأوروبية) فأوروبا الوسطى فروسيا فإقليم المحيط الهادي ومركزه اليابان، وعن علماء الجيوبولتيكا السابقين وهم يحذّرون دوماً من أنّ أكبر خطر تتعرض له الأطلسية هو قيام تحالف الأقاليم الثلاثة: أوروبا، روسيا والمحيط الهادي. ومن أجل الحيلولة دون ذلك أثيرت النزاعات الروسية ـ الألمانية والروسية ـ اليابانية عبر التاريخ مثلما زرعت الكراهية والأحقاد المتبادلة التي يجب أن تزال الآن لإرساء محور موسكو ـ طوكيو، فهو وحده القادر ـ برأي المؤلف ـ لا على أن يضعف الأطلسية فحسب بل وعلى أن يقضي عليها. ويرى أن الأمور ممهدة لتحقيق ذلك فاليابانيون لن ينسوا الإبادة الذرية التي تعرّضوا لها ولا الاحتلال السياسي لبلادهم. ولن تجد روسيا لنفسها حليفاً أفضل من اليابان ويمكنهما معاً أن يحققا تكاملاً فريداً يتوفر فيه لليابان الاستقلال السياسي والنظام العسكري الاستراتيجي والمواد الطبيعية التي لا تنتهي، كما تتوفر لروسيا التقنية العالية الجودة والإمكانات المالية الضخمة، ويمكنهما معاً تطوير سيبيريا وحل مشاكلها، كما يمكن للعلاقات المنغولية ـ اليابانية القائمة على وحدة الأرومة

والأصل العرقي والروحي أن تلعب دورها في تحقيق هذا التقارب. وحرصاً على ذلك يمكن لروسيا أن تعيد لليابان جزر الكوريل التي تعدّ تذكيراً بالمذابح الحمقاء التي اختلقها الأطلسيون.

3 ـ المحور الثالث، موسكو ـ طهران:

ويرى فيه المؤلف تحالفاً قارياً مهماً يقوم أيضاً على مبدأ وجود العدو الأطلسي المشترك. والعالم الاسلامي يعاني، حسب رأي المؤلف، من التوزّع في عدّة اتجاهات: ـ الاتجاه الأصولي الإيراني ـ التيار العلماني التركي، ـ التيار العروبي، (وتدعو إليه سوريا، العراق، سابقاً ـ السودان ـ وإلى حد ما ـ مصر والسعودية) ـ التيار الأصولي السعودي الوهابي، وأخيراً ـ صور مختلفة للاشتراكية الإسلامية، وكتلك النماذج القريبة من العروبية في مفهومها اليساري. وإذ يسقط المؤلف من حسابه التيارين الثاني والرابع يرى إنه لا يتبقى سوى تيارين هما «الأصولية الإيرانية» و «العروبية في صيغتها اليسارية». وأول ما يناقشه المؤلف هو التيار الأصولي الايراني، ويسارع إلى إعلان المكسب الثمين الذي تحققه الأوراسية من خلال محور موسكو ـ طهران وهو: تأمين خروج روسيا إلى البحار الدافئة، والذي ظلت تسعى إليه خلال قرون طويلة ويحال بينها وبين تحقيقه. ويشرح المؤلف حرص روسيا على بلوغ المياه الدافئة وحرص الأطلسيين على منعها من ذلك سواء عن طريق الشواطىء الجنوبية للقارة عبر المحيط الهندي أو عن طريق البوسفور والدردنيل أو حتى جبل طارق، تلك المناطق التي بقيت ردحاً طويلاً من الزمن تحت السيطرة الأطلسية. أما النقطة الثانية وتتعلق بحل مشاكل آسيا الوسطى، وهو ما لا يمكن أن ينهض به التوجه السعودي حسب رأي المؤلف ـ ولا البانتوركي بسبب توجههما الأطلسي، كما لا يمكن أن ينهض به التيار العروبي لأن شعوب آسيا الوسطى ـ تركيّة اللغة. وبذلك يتبقى التوجه الموالي لإيران والذي يمكنه استبعاد ما قد يحدث من تناقض بين القبول بروسيا وبين القناعة الدينية الاسلامية ويجعل منهما توجهاً جيوبولتيكياً واحداً نحو موسكو ونحو إيران في وقت واحد. وبهذا يمكن للمؤازرة الإيرانية أن تساعد روسيا على حل مشاكلها الجيوبولتيكية مع دول آسيا الوسطى كما يمكنها من أن تقيم ذلك التشكل الإسلامي المتجانس استراتيجياً والمتلوّن من الناحيتين الإتنية والثقافية والمرتبط بالإمبراطورية الأوراسية.

كما أن بمقدور إيران أن تلعب دورها بالنسبة لنقطة أخرى مهمة تتعلق بالمصالح الإتنية الروسية وحقوق الأقليات بالنسبة لكافة أراضي آسيا الوسطى. بينما لا تؤخذ مصالح تركيا في الحسبان سواء في القوقاز أو في آسيا الوسطى، بل وإن المؤلف يلمح إلى مناصرة بعض القوى الانفصالية داخل تركيا وفي الوقت نفسه يعرض على هذه الدولة إمكانية التمدد جنوباً.

أما الخط الثاني للتحالف الأسيوي من الجنوب والذي يسميه المؤلف بالعروبي (البانعربي) فيشمل جزءاً من آسيا الوسطى والشمال الأفريقي، وهو تكتل مهم جداً من أجل السيطرة على الشواطىء الجنوبية الغربية لأوروبا الغربية. فقد بسط الأطلسيون سيطرتهم على الشرق الأدنى والشمال الأفريقي بغية فرض ضغطهم السياسي والاقتصادي على أوروبا. أما تطبيق تكاملية المشروع العروبي مع الإمبراطورية الأوراسية فالمؤلف يسند تنفيذه إلى القوى الأوروبية (وبخاصة ألمانيا) كما يؤكد أفضلية أن يعهد إلى القوى الأوروبية المعنية بمشاريع «أوروأفريقيا» التي تمثل قارة واحدة لا قارتين. كما إن على الإمبراطورية الأوروبية التغلغل جنوباً بالاعتماد على التكتل العروبي وعلى أفريقيا حتى الصحراء لتتوضع استراتيجياً بعد ذلك على سطح القارة بأكملها. أما فيما وراء حدود أفريقيا العربية فيستحسن وضع مشروع مفصل متعدد الاتنيات يعيد ترتيب أفريقيا السوداء وفقاً للمظهر القومي الاتني والثقافي لا وفقاً للمقياس «ما بعد الاستعماري» المتناقض الذي تجسّده الدول الافريقية المعاصرة. وهذا المشروع القومي البانأفريقي (غير العروبي) يمكن أن يكون الإضافة الجيوبولتيكية لخطّة التكامل العروبية.

وإذا كان ما يسميه المؤلف بخصوصية الصيغة الشيعية الآرية للإسلام الإيراني سيحول دون الاستحسان العربي الشامل لأنموذج الأصولية الإيرانية، فهو يقترح أن يتطلع المشروع العروبي إلى إقامة تكتله المستقل المعادي للأطلسية ـ تكون أقطابه الأساسية: العراق - سابقاً - وليبيا وفلسطين المحررّة: (وسوريا أيضاً وفقاً لشروط محددة). ولا يوضح المؤلف لماذا يستثني سوريا بالقوسين ولا طبيعة «الشروط المحدّدة» المطلوبة، لكنه يوضح خصوصية الدول المشاركة بأنها تلك الأقطار العربية التي تعي بصورة أوضح الخطر الأمريكي، والتي ترفض بصورة أكثر جذرية من الآخرين أنموذج السوق الرأسمالية المسمى بالغرب. أما بالنسبة لمصر والجزائر والمغرب فالأمور ستكون مختلفة حسب رأي المؤلف، وذلك لأن القوى

الحاكمة الموالية للأطلسية في تلك الحكومات لا تعبر عن التوجهات القومية لشعوبها ولن تتمكن من ضبط الأمور في بلادها إلى ما لا نهاية. ثم يكرر ضرورة أن يعهد بمهمة تطبيق انضمام المشروع العروبي للامبراطورية الأوراسية إلى برلين أو لأوروبا على العموم. أما الهاجس المباشر لروسيا في العالم الاسلامي فيجب أن تكون إيران دون سواها، وهو ما قد يشير إلى توجه جديد في السياسة الروسية نحو العالم العربي والإسلامي. ويقترح المؤلف لتحقيق ذلك استخدام تأثير روسيا التقليدي على النظم «اليسارية» ذات التوجه العروبي والعراق - سابقاً - وليبيا بالدرجة الأولى، من أجل التقريب بين الدول العربية وإيران وتحقيق النسيان الأسرع للنزاع الإيراني ـ العراقي الذي افتعله الأطلسيون وغذّوه.

وهكذا فإن القسم المخصص لروسيا يتضمن مجموعة معتبرة من الرؤى والأفكار المقترنة أيضاً بالأحلام في الوصول بروسيا إلى المستوى الذي تستطيع فيه إقامة الأحلاف التي أشرنا إليها والارتقاء إلى مستوى القطب الذي يواجه الأطلسية فينتصر عليها. والمؤلف يرى السبيل إلى ذلك في تحقيق النقاط التالية:

الأولى: تجميع الأمبراطورية: وقد يبدو ذلك غريباً بالنسبة لعصرنا الحاضر لكن المؤلف يعود بنا إلى الإمبراطوريات السابقة ليؤكد على أن الوحيدة التي بقيت مستمرة حتى الفترة المتأخرة هي الإمبراطورية السوڤياتية التي قضى عليها الأطلسيون وليس من المستحيل إعادتها. يضاف إلى هذا أن التوجه إلى إقامة التكتلات الكبرى صار السمة الجامعة للقرن العشرين، بل إن المؤلف يختم الفصل الرابع من الباب الرابع بمقالة «امبراطورية الإمبراطوريات الكثيرة» ويكرر فيها الدعوة إلى هذا التضامن الهائل الاتساع والذي يمكن أن يضم الإمبراطوريات الثلاث ـ أوروبا الغربية، المحيط الهادي وآسيا الوسطى، ويترك للهند والعالم العروبي والاتحاد البانافريقي وحتى للصين وسواها من الآماد الكبرى فرصة الانضمام إليه على أساس مبدئي عام يحظر خدمة المصالح الجيوبولتيكية الأطلسية، والخروج من الحلف الاستراتيجي المشترك وإلحاق الأذى بالأمن القاري. ولهذا تفتح الأبواب لقبول من يرغب في الانضمام لهذا التكتل مع احتفاظه بكل مقدمات وجوده الانساني المتميّز ـ العرقي والثقافي والديني وما إلى ذلك.

الثانية: العودة إلى الدين والقومية: وتطبيق التربية الدينية التي تعدّ الأجيال بطريقة مخالفة لما سار عليه الاتحاد السوڤياتي. وتتداخل هذه النقطة لدى المؤلف

مع نقطة أخرى تتعلق بضمور الزيادة السكانية الديموغرافية لدى الروس بالمقارنة مع «شعوب الجنوب العاصفة النمو». وتشف في ثنايا هذه الدعوة أفكار التقليدية السلاڤيانوفيلية الأرثوذكسية والروح «المحافظة» التي يقوم على أساسها الالتزام الخلقي وترسخ القومية وتبنى التقاليد التي تفخر «التالاروكراتية» بالعناية بها ورعايتها. وتستوقفنا كلمات المؤلف، هذا الصوت «الجديد» وهو يهيب بقومه في عبارات متناثرة إذ يقول: «يجب الايحاء لجميع الروس بأن هوية كل شخص بمفرده هي مقدار ثانوي مفتلذ من الهوية القومية. وعلى الروس أن يعوا أنهم قبل كل شيء أرثوذكسيون، وفي المرتبة الثانية روس وليسوا إلا في المرتبة الثالثة بشراً»، «الأسمى من كل شيء ـ الوعي الارثوذوكسي للأمة ككنيسة، ثم الوعي الواضح للاّانفصالية، لكلية وشمولية ووحدة الجهاز الروسي الإتني الحي المكون ليس فقط من الأحياء بل ومن الأجداد ومن الأجيال القادمة، وأخيراً، وفي المرتبة الأخيرة: معاناة الشخصية المحدَّدة كوحدة نووية مستقلة» يجب «إضفاء الروح الكنسية الشاملة على الروس وتحويل كافة المؤسسات الثقافية إلى امتداد للكنيسة الواحدة» «بمثل هذه الطريقة الراديكالية فقط يمكن للروس أن يعودوا بصورة واقعية إلى أحضان الكنيسة المكنونة في أساس وجودهم القومي التاريخي» «إن حقيقة الانتماء إلى الأمة الروسية يجب أن تتم معاناتها على أنها أمر نخبوي، ترف حياتي مستحيل، شمم أنتروبولوجي علْوي، والدعوة إلى هذه الاستثنائية القومية (دون أي مسحة مهما صغرت من رُهاب الأجانب أو من الشوفينية يجب أن تكون محور التربية السياسية للشعب». وقبل أن يتحدث المؤلف عن الجوانب العملية لتشجيع النسل والزيادات المطلوبة للمواليد يقول: «كل أسرة تشارك في المسرحية الدينية القومية عندما تنجب طفلاً روسيا، إذ تشارك في البناء الروحي للشعب كله» «يجب أن يفهم الأطفال على أنهم ثروة قومية مشتركة، تعبير عن الطاقات المكنونة لشعب عظيم. الطفل الروسي يجب أن يفهم في البداية على أنه روسي ثم على أنه طفل».

الثالثة: وتتعلق بالآفاق العسكرية للامبراطورية: فإلى فرادة روسيا من حيث توسطها القاري ومساحاتها اللامتناهية وتاريخها الإمبراطوري العديد القوميات يضيف المؤلف فرادة أخرى هي توفر الأسلحة الاستراتيجية والقدرة على ضرب العدو وهذا ما يعد ـ في رأى المؤلف ـ حماية لأي حلف تشارك فيه روسيا، الأمر

الذي يدفعه إلى دحض كل اقتراحات تحويل الصناعة الحربية الاستراتيجية والاستعاضة عنها بالسلاح «الجهوي» بذريعة عجز أي دولة في العالم عن تطوير أسلحتها في الاتجاهين ـ الاستراتيجي والتقليدي معاً (وهو ما يفسر عدم أهلية الأمريكيين في حروب النزاعات الجهوية بدءاً من ڤيتنام وانتهاء بالصومال ويوغوسلاڤيا وما عاشته روسيا خلال حربها في أفغانستان). ومن هنا يتضح إصرار المؤلف على أن تبقى بلاده من حيث الأسلحة الاستراتيجية «دولة فوق العظمى» ويرى في ذلك منفعة حتى على الصعيد الاقتصادي «فالسبيل الأسهل للحصول على» كميات أوفر من السلع، الجيدة ليس تحويل الصناعات الحربية إلى صناعة الحلل بل مواصلة وتعزيز صنع حاملات الطائرات والغواصات النووية. وعند توفر الضمانة السياسية في الخصوص يمكن لبضع غواصات نووية أن تحمل لروسيا بلداناً بكاملها ذات صناعة متطورة ومن طريق سلمي صرف بينما يؤدي تحويل الصناعات الحربية إلى صناعة للغسالات بروسيا إلى خسارة اقتصادية تستحيل معالجتها».

الرابعة: وتتعلق بالآفاق الاقتصادية للامبراطورية: ويمهد المؤلف لدراستها بتخصيص فصل لدراسة التقنية والموارد الروسية ووفرة الخامات الطبيعية الروسية التي تباع في السوق العالمية وفقاً لسياسة الإغراق، وعند الانتقال إلى تحديد الخط الاقتصادي الذي ستسير عليه البلاد يصرف المؤلف اهتمامه عن خياري المركزية السوڤياتية والليبيرالية الأطلسية. ويسمي خطه الاقتصادي بـ «الطريق الثالث» القائم على المركزية من حيث الاستراتيجية السياسية وعلى الشراكة في أوسع صورها من الناحية الاقتصادية. وعلى صفحات طويلة يشرح مزايا ذلك الطريق ويسوق في سبيل ذلك نظريات وآراء عدد كبير من العلماء الذين عرفهم تاريخ الاقتصاد الأوروبي والأمريكي وأثبت التاريخ صحتها.

عنوان الفصل الأول من الباب الخامس ـ «الجيوبولتيكا الداخلية لروسيا مرتبطة بمهمتها الكونية» يعكس نظرة المؤلف بل ونظرة الروس إلى أنفسهم كشعب ذي رسالة وذي مهمة كونية، فـ «في حالة روسيا يستحيل التجرد عن وزنها العالمي» و«هذا الطابع يحدد زاوية النظر نحو قضاياها الجيوبولتيكية الداخلية» «روسيا الحالية ترث في وقت واحد خط العاصمتين السلاڤيتين (كييف وڤلاديمير) وخط محطات قيادة جنكيز خان السهوبية» فإذا ما أضفنا إلى ذلك انفتاح

بطرسبرج على البلطيق وتوسطية موسكو بين المناطق الجغرافية السياسية اقتربنا من فهم الطبيعة الروسية وطبيعة تضاريسها الجغرافية وسياسة المركز والأطراف على أرضها.

يقوم المؤلف بتوصيف المحاور الداخلية للاشعاعات الجيوبولتيكية التي تربط موسكو بأطراف المدى الروسي الشاسع الأبعاد ويبدأ بتحليل «الشمال» فيدخل بالقارىء عالماً «جديداً» غنياً بالأسماء وبالمعلومات المتعلقة بطبيعة التضاريس والسكان وما يكتنف المنطقة من المشاكل. ويتحول المؤلف إلى جغرافي يعرّف بالمناخ والأنهار والثروات الطبيعية ويستعرض تاريخ المنطقة وتطلعاتها الاتنية وما تعانيه من تخلخل سكاني، وينتقل بالقارىء من الأركتيكا الروسية إلى جمهورية ياقوتيا (ساخا) إلى اللينالاند التي لا يخفي جزعه من كون «القوى المعادية ستحاول لدى سنوح الفرصة الأولى، الخروج بكل هذه المنطقة الضعيفة الارتباط بالمركز من تحت السيطرة الأوراسية» وينهي كلامه بالإعلان التالي: «الشمال ـ إنه المستقبل، إنه المصير».

وعندما يتناول المؤلف الشرق يبسط أمام قارئه المساحات الهائلة للبوفولجييه والأورال وسيبيريا وبريموربيه والألتاي كما يبسط الحضور الإسلامي فيها مرتبطاً بالاتنوس التركي، وظهور النزعة الانفصالية بدرجات متفاوتة القوة بين البشكير والتتار، إلا أنها تستوقف المؤلف الذي يفرد صفحات لموضوع الحيلولة دون «الانفصالية التركية ـ الاسلامية» فيتحدث عن دور نوعين من التكامل ـ العرضاني (وفق خطوط العرض) والطولاني (وفق خطوط الطول) ودور كل منهما في الوصول إلى التلاحم أو التخلخل السكانيين. أما إغراءات منطقة اللينالاند التي تجعلها مطمعاً للأطلسيين فتجعل المؤلف ينصح بعدم الركون إلى الإجراءات العسكرية وحدها، بل يقدم مجموعة من المقترحات الأخرى مشيراً إلى أن من غير المستبعد أن يطرح نفسه السؤال حول نقل عاصمة الأوراسيا بكاملها إلى هذه المناطق «العاصمة التي لم تكن ولم تظهر بعد، عاصمة الألف عام الجديدة».

وبهذا التفصيل والحماسة يتحدث المؤلف عن الجنوب لا في حجمه الروسي بل الأوراسي الواسع، وبهذا يمتد من البلقان حتى منغوريا. وفي الحديث عنه تتداخل أمام أعيننا أعداد من المشاكل كمسألة أوكرانيا والبحر الأسود وقزوين

فـ «الخارج القريب» في آسيا الوسطى وينتقل منه إلى مجالات أبعد نحو الشرق فـ «العودة الجيوبولتيكية لروسيا إلى أفغانستان أمر لا مفر منه ، وقد حددته الجغرافيا نفسها مسبقاً» وهكذا تتجه الخطوط إلى باداخشان فالصين فما هو أبعد من ذلك. واللّافت للنظر أن المؤلف يصرّ في حديثه عن باداخشان على «الصيغة الأكثر هندأوروبية في الإسلام» وعلى أن هذه الدولة «تشكل في المنظور الإتني هنوداً اعتنقوا الاسلام» وهذا ما يعيدنا إلى نظرته نحو ما يسميه بـ «الاسلام في صيغته الايرانية» وكل ذلك محكوم ـ في تصورنا ـ بنقطتين: ـ أولاهما هذه النظرة الضيقة إلى آرية الايرانيين ومسلمي تلك المناطق الذين نجلّ تفكيرهم الديني عن الانسياق خلف دعاوى العنصرية والعرقية التي يؤكد عليها المؤلف والتي أبطلها الاسلام وحاربها في مجموع حربه ضد كل صور التمايز بين البشر إلا على أساس العمل الصالح، والثانية أن نظرة المؤلف مشوبة في حد ذاتها بنظرته إلى تاريخ المسيحية وما حدث بين كنيستيها ـ الشرقية والغربية من قطيعة لم يصل المسلمون إلى مثلها ولا نحسب أنهم يصلون.

وإذا كان المؤلف قد تحدث عن الجانب الشرقي تحت عنوان «تحدي الشرق» فقد اتخذ حديثه عن الغرب عنوان «تهديد الغرب»، ويفتتحه المؤلف بفصل «غرْبان» أحدهما أوروبا والآخر الغرب الأطلسي. وإذا كانت السياسة التي ينبغي تطبيقها على الغرب الثاني تقوم على «بث الفوضى الجيوبولتيكية في الواقع الأمريكي عن طريق التشجيع، وبكل فعالية، لجميع حركات المخالفة في الرأي ـ الفئات المتطرفة، العنصرية، الطائفية التي تزعزع الاستقرار في العمليات السياسية الداخلية في الولايات المتحدة» فأوروبا، على العكس من ذلك، يجب أن تشجع على إقامة وحدتها وأن يجري العمل على إقامة تحالف باريس ـ برلين. فالمهمة الأهم ـ في رأي المؤلف ـ هي تخليص أوروبا من نفوذ الولايات المتحدة ومن تعزيز علاقات التكامل معها.

وتحتل دول ما يسميه المؤلف «بالنطاق الصحي» مساحة معتبرة من الحديث عن الغرب وقد تمت صياغة هذا «النطاق» من طرف «شعوب ودول صغيرة حاقدة ولا مسؤولة تاريخياً، ذات مطالب متهوسة وارتباط عبودي بالغرب التالاسوكراتي» (ص 388) ويسمي المؤلف مجموعة شعوب الدول البينية التي عملت خلال التاريخ على تدمير التشكلات القارية الإمبراطورية الكبرى كالإمبراطورية الروسية والنمساوية

ـ المجرية. والاتحاد السوفياتي؛ وهي تثير لدى المؤلف تأملات مستفيضة تتسم بالاندفاع والسخط بسبب ما تلحقه من أضرار بجاراتها الدول الكبرى، ثم يشرح دور الأطلسية في تشجيع وتقوية هذه الدول البينية وهو ما سنعود إليه بعد قليل.

والأهمية التي يكتسبها الباب السادس من كتاب أ.دوغين تتمثل في كونه أقرب إلى «التطبيق العملي» الحي على ما كان المؤلف قد قدّمه في دراسته هذه تحت عنوان «التحليل الأوراسي». والباب طويل وسنكتفي بالتوقف عند بعض فصوله: فالأول من هذه الفصول يحمل عنواناً غريباً «جيوبولتيكا الأرثوذكسية» ولكن يسوّغه منطق الجيوبولتيكا التي تتضافر فيها كافة العوامل التي تكوّن الوجود الانساني. ومن خلال هذا الفصل تنفتح أمام أعيننا طبيعة أحد المذهبين الأكبر من المسيحية ـ المنشأ والتاريخ وأهم المراحل التاريخية. ويعرض ذلك في ضوء عدد من الحقائق التاريخية التي عشناها في علاقاتنا مع الدولة البيزنطية أو مع روسيا أيام الدولة العربية أو عندما كنا جزءاً من الدولة العثمانية، بالإضافة إلى الانعكاسات العقائدية فالسياسية التي تلت القطيعة مع روما، والأحداث التالية لسقوط القسطنطينية وإعلان موسكو نفسها «روما الثالثة» وصولاً إلى حركات تحرر الشعوب الأرثوذكسية وانفصالها عن الدولة العثمانية. وبهذا، ومن خلال ما يكاد يتحول إلى دراسة في المذاهب الدينية، يظهر تاريخ دول أوروبا الشرقية ـ بلغاريا ورومانيا ومولداڤيا واليونان ودول يوغوسلاڤيا السابقة وبولندا في منظور جديد يقنعنا بالدور الكبير للدين كعامل تاريخي فاعل كما تتوالى الصفحات الجديدة من تاريخ هذه الدول الحديث مضافاً إلى الأسس التي تبني عليها أحلامها «الكبرى» كما في الحديث عن «بلغاريا الكبرى» و «رومانيا الكبرى» و «صربيا الكبرى» قبل أن يعصف المد الاستعماري الحديث بكل هذه الأحلام.

ويعدّ الفصل الثالث «المشاكل الجيوبولتيكية في الخارج القريب» أحد أهم الفصول في هذا الباب، ويتضمن الحديث «الثاني» للمؤلف الذي يناقش وبنفس الحرارة والسخط اللذين لمسناهما في الباب السابق، دراسة ما يسمى بدول «النطاق الصحي»، فيحلل طبيعة هذه الدول وتموضعها في العادة بين «تشكلين جيوبولتيكيين كبيرين يمكن لاتحادهما في مدى كبير أن يشكل منافسة خطيرة على الدولة المعنية» أما موقف المؤلف من «استقلال» هذه الدول فيذكر إلى حد بعيد بنظرات فرانس فانون في «معذبو الأرض». يقول أ. دوغين : «لا يمكن الحديث

عن أي نوع من الاستقلال الحقيقي أو الحرية. . . هذا على الرغم من أن «القومية الضيقة» القصيرة النظر قادرة على مستوى ضيق تفكيرها أن تساوي بين هذه التبعية الاستعمارية «للدولة الثالثة»، وبين انتصارات «النضال الوطني التحرري». ثم يقول وكأنه يستبق الزمن منذ نهاية القرن الماضي ويرى إلى هذه الدول وهي تتسابق للانضمام إلى الناتو: «إن دول الخارج القريب» الغربية الطامحة حقاً إلى الاستقلال (وليس «المقضي عليها بالتحرر» بسبب من سياسة موسكو الخيانية) ستختار وفق أقرب الاحتمالات، وبطريقة واعية دور «النطاق الصحي» لخدمة الولايات المتحدة الامريكية» في حين يجب أن يعي مسؤولو هذه البلدان «أن قبول الأنموذج العولمي يعني ما لا يزيد ولا ينقص عن التدمير الكامل والنهائي لذاتيتهم، لهويتهم، للوجه التاريخي لدولهم وأممهم، ونهاية تاريخهم القومي».

ومهما كان موقفنا من هذه الدول فإننا لا نستطيع إلا التسليم بأنها موجودة في الأصل على أراضيها وأن تطلعاتها الوطنية ومذاهبها الدينية قد تكونت ضمن شروط وأسباب معيّنة قد يكون فيها ما يبرر سياسة هذه الدول. لكن الثابت أن غرس هذه الدول علامة من علامات السياسة الانجليزية ثم الأمريكية خلال قرون؛ وقد أثبتت الأحداث مقدار ما يمكن أن تعود به من نفع على المستعمر وما تسببه من أذى لجيرانها، ولهذا فإذا لم توجد هذه الدول بصورة طبيعية يغدو إيجادها أمراً ضرورياً، وهذا ما يستدعي إلى الخاطر صورة الدولة الصهيونية التي زرعتها بريطانيا في أرضنا ثم تعهدتها الولايات المتحدة الامريكية بأسباب البقاء مضافة إلى أفتك الأسلحة.

وفي المقالة الختامية للفصل الثالث من الباب السادس وعنوانها «قطبان على أقل تقدير. . . أو الموت» يشير المؤلف إلى حدة الوضع المعاصر، فإما القبول بالنظام الكوني العالمي الجديد بقيادة الولايات المتحدة وإما التكوين الفوري للتكتل الجيوبولتيكي المناوىء للأطلسية، بل إنه لم يعد مهماً - في رأي المؤلف - بأي صيغة وتحت أي شعار يظهر ذلك التكتل الجديد. المهم أن يظهر، وأن يكون مضاداً للعولمة، ذلك أن المهمة الأساسية للولايات المتحدة الآن، هي الحيلولة دون قيام الخيار الجيوبولتيكي (مهما كان نوع هذا الخيار) المعارض للعولمة. وقد وصل الأمر إلى درجة لا تسمح بالاختيار بين الجيد والأجود، فإذا استطاعت روسيا أن تنهض بتلك المهمة كان خيراً فإذا لم تفلح في ذلك فلتقم بتنفيذها كتلة

أوروبا الوسطى تحت الراية الألمانية أو كتلة آسيا الوسطى تحت راية الثورة الإسلامية، أو فليتصدَّ لإنجاز المهمة العالم العربي أو أمريكا اللاتينية على الرغم من أن هذين العالمين غير مزودين، من الناحية العسكرية، بما يؤهلهما لمواجهة دولة فوق العظمى.

ولعل أهم فصل «تطبيقي» في الكتاب هو «الفصل الخامس من الباب السادس «جيوبولتيكا النزاع اليوغوسلافي» فقد بقيت يوغوسلاڤيا بحاضرها وماضيها «مجهولة» بالنسبة للكثيرين إلى أن نشبت فيها تلك الحرب بين الأشقاء واتخذت الصورة التي يمكن أن تقتنع بضراوتها من خلال أنموذج المذبحة الصربية ـ الكرواتية . وقد عرض المؤلف هذه الحرب بصورتيها الداخلية منها والقائمة على التدخل الخارجي، وذلك من خلال الأنساغ التي تجري في عروق الإخوة المتنازعين وتعبّر عنها العناوين المثيرة الموحية ـ فلا طريقة لفهم هذه الحرب ما لم نفهم «حقيقة الكروات» «حقيقة الصرب» «حقيقة المسلمين اليوغوسلاڤ» «حقيقة المكدونيين» وحقيقة التوجهات الدينية الصميمية المسيطرة على الساحة اليوغوسلافية وحقيقة التوازنات القارية بين الأطراف والأيدي الأجنبية التي أرّثت تلك الحرب لتجني ثمارها. وهكذا تبدو يوغوسلاڤيا في أتون هذه الحرب الفريدة الخلاصةَ الفاجعة لتاريخ أوروبا الطويل الذي خلخلته الصراعات والتدخلات الخارجية، وثمرةَ نزاعات دامت قروناً وتجلت نتائجها في الحربين العالميتين الأولى والثانية قبل أن تتوجها الحربُ الأخيرة في ثمانينيات القرن الماضي. أما أبرز نتيجة يستخلصها المؤلف فتعبر عنها المقالة الأخيرة من الفصل الخامس بعنوان «صربيا هي روسيا» لأن سيناريو حرب قارية كبرى يمكن أن يندلع في روسيا، يدور فوق أنموذج بلد بلقاني صغير، ولجميع القوى الجيوبولتيكية المشاركة في نزاع البلقان نظائرها في روسيا ولكن في أحجام مدوية أكبر إلى درجة لا يمكن مقارنتها. فالكروات والسلوڤينيون الذين يطمحون إلى الدخول في أوروبا لهم نظائرهم الجيوبولتيكيون من الاوكرانيين. . . والنزاع الصربي مع المسلمين شبيه بالمواجهة الروسية الاسلامية الممثلة في آسيا الوسطى وفي القوقاز». ويختم الفصل بمحاولة الإجابة عن سؤال كيف نحول دون وقوع «يوغوسلاڤيا مهولة في روسيا، مريعة بأبعاد مذبحتها الدامية ونتائجها؟»؟.

وقبل أن يغلق المؤلف الصفحة الأخيرة من الفصل السادس يتطرق لعدد من

التصورات حول «الجغرافيا المقدسة» وهو ما سبقت الإشارة إليه ثم يناقش برؤية جديدة بعض المفاهيم التي شاع استخدامها بصفة خاصة قبل انهيار الاتحاد السوڤياتي مثل «وَهْم الشمال الغني»، الذي ليس غنياً بالمعنى المادي إلا في بعض أجزائه، في مواجهة الجنوب الغني بكثير من قناعاته. وفصل «مفارقة العالم الثالث» و«دور العالم الثاني».

يتضمن الباب السابع أربعة من النصوص المؤسسة لعلم الجيوبولتيكا، وهي ترد برؤى وأحجام مختلفة لكنها تغطي موضوعات مهمة في الرؤيتين التاريخية والجغرافية للعالم، وتقدم مادة معرفية متميّزة. ويلفت هـ. ماكيندر نظرنا في مقالته «المحور الجغرافي للتاريخ» بشمولية رؤيته وبتفسيره للتاريخ الاوروبي الطويل من خلال مجموعة من الملاحظات المكثفة الدالّة التي لخّصت قروناً من الحملات المغولية التركية على أوروبا وعلاقات الغزو والتصدي ثم تحقيق الكشوفات الجغرافية في البحار وانعكاس ذلك على مسيرة التاريخ وتلك الملاحظات الهامة التي قدمها بالنسبة لروسيا مع مقارنات ناجحة لما يجري في العصر الحديث ولما يمكن أن يكون عليه المستقبل.

ومع تسجيل احترامنا لآراء هذا العالم والسياسي المميّز نسجل أيضاً موقفنا من هذا الارتباك الذي يتلبس العلماء الاوروبيين عندما يتناولون التاريخ العربي والاسلامي. فـ هـ. ماكيندر يقدم للحروب الصليبية تفسيراً يتجاوز الموضوعية والمقبولية لا لشيء إلا لأن هذه الحرب انتهت ـ عبر فواجع كثيرة ـ بانتصار العرب على الأوروبيين. فالترك السلاجقة ـ برأيه ـ «قضوا على سيطرة السراسين في بغداد ودمشق وظهرت ضرورة إنزال العقوبة بهم على مسلكهم نحو الحجاج المتجهين إلى القدس، هو ذا السبب الذي جعل العالم المسيحي يشهد سلسلة كاملة من الحملات العسكرية المعروفة باسم الصليب المشترك. وعلى الرغم من إنه لم يتسنّ للأوروبيين تحقيق المهمات المطروحة فإن تلك الأحداث قد هزت أوروبا ووحدَتَها». والمؤلف، كما نرى، لا يذكر العرب في سياق هذه الحرب وكأن أرضهم الواسعة قد خلت من سكانها بدخول الغزاة وجنودهم ـ فحوّلها هـ. ماكيندر إلى حرب بين الأتراك والأوروبيين بينما كانت بكل ما فيها ـ بمجرياتها، بالدماء التي سفكت فيها، بمفاهيم الفروسية التي غطتها، بلغتها وبتوجهاتها الدينية حرباً عربية ـ أوروبية شاركت فيها عناصر تركية مسلمة كان لها وجودها لكنها لم

تلعب الدور الذي يحوّل الحرب، ولو في جزيئة منها، إلى حرب تركية ـ أوروبية. وبالإضافة إلى ذلك يصر المؤلف على إلغاء دور العرب وإذا ما اضطر إلى ذلك سماهم بالسراسين. وفي معرض استعراضه للفرق بين السيطرة «السراسينية» والتركية على الشرق يشير بإعجاب شديد إلى إنجازاتهم: «كان السراسين فرعاً من العرق السامي، أقواماً استوطنوا حوضي النيل والفرات والواحات الصغيرة في جنوب آسيا، وباستخدامهم للإمكانيتين اللتين قدمتهما لهم هذه الأرض ـ الخيل والجمال من جهة والسفن من الجهة الأخرى . أقاموا امبراطورية عظمى. وفي مراحل تاريخية مختلفة كان أسطولهم يسيطر على البحر الأبيض المتوسط حتى اسبانيا وعلى المحيط الهندي حتى جزر الملايو».

وتكاد مقالة «الأسس الجغرافية والجيوبولتيكية للأوراسيا» لـ ب. ساڤيتسكي أن تكون استمراراً لمقالة هـ. ماكنيدر فقد اختص روسيا بنصيب معتبر من مقالته المتعمقة المتعلقة بمركزية روسيا في الأوراسيا ودورها التوحيدي بالنسبة لثقافات الشعوب المختلفة وهو ما أظهره تاريخها الطويل الذي يعد بحاضر يمكنه أن يعيد تلك العلاقات السابقة وذلك بأن تستعين روسيا بـ «روابط القربي الاتنوغرافية . . . والتي يرتبط بها عدد من الشعوب الأوراسية مع الأمم الأوراسية. روابط الروس الهند اوروبية، روابط الترك الأسيويين مع آسيا الصغرى وإيران، نقاط التواصل القائمة بين المنغول والأوراسية وكلها يمكن أن تحمل الفائدة لصالح بناء ثقافة عضوية جديدة للعالم الذي، وإن كان قديماً، لكنه لا يزال فتياً يعد بمستقبل عظيم».

أما دراسة جان تيريار «الشيوعية فوق الانسانية» فلعلها الصورة الأفضل للرؤية الجيوبولتيكية للمستقبل الاوروبي، وأول ما يلاحظ فيها هذه الدعوة إلى تكوين الإمبراطورية العظمى «من فلاديڤوستوك إلى دبلن» والدعوة إليها دعوة إلى القوة «فالحياة لا ترحم الضعفاء» و«لا أمة بلا جيش، ولا جيش بلا سلاح ذري . . . وليس ثمة اليوم أي وزن دولي لأمة يقل عدد سكانها عن 200 ـ 300 مليون نسمة»، كما كان تيريار أجرأ من قال بعزل انجلترا عن أوروبا فـ «في حرب 1940 لم تكن فرنسا القارية عدو ألمانيا الذي لا يرحم بل انجلترا البحرية. انجلترا بالذات وعلى مدى خمسة قرون هي العدو الأساسي والرئيس لأوروبا» وهذا ما سيشرح ك.شميت أسبابه في مقالته التي تختم النصوص الأربعة وهي بعنوان

«التوتر الكوني بين الشرق والغرب والمواجهة بين الأرض والبحر».

وفي هذه المقالة يشرح شميدت الصراع بين اليابسة والبحر على أنه جزء من الطبيعة الكونية نفسها، لكن أعظم ما يقدمه في دراسته هو الملابسات والأسباب التي أدت بالجزيرة البريطانية إلى الانفصال عن القارة الأوروبية ثم بدأت بعد ذلك بتحقيق وجودها البحري المجرد، والنتائج التي ترتبت على ذلك وبخاصة بالنسبة للثورة التقنية، وهو بالتالي يشرح قضية مهمة يرد بها على التفرّد الانجليزي المزعوم في حقل الصناعة والإبداع اللذين كانا خلال التاريخ الطويل قسماً بين جميع الشعوب غير أن أسباباً معينة هيأت لبريطانيا فرصة الاستئثار بهذه الظروف.

يميّز المؤلف الباب الثامن الأخير من كتابه بعنوان «بديلاً عن الخاتمة» ويخوض فيه جدلاً مع ك. شميدت وينهي الكتاب بمسرد يقدم فيه تعريفاً بكل من المصطلحات الجيوبولتيكية الكثيرة التي وردت في تضاعيف الكتاب.

وبعد استستلام انجلترا لنداء البحر وتحولها إلى قوة بحرية نقطةً فاصلة في التاريخ الإنساني الحديث الذي اتخذ، على أثر ذلك، مقاييسه ومعاييره الحديثة بالنسبة للنشاطات السلمية والحربية. ولهذا نرى أن من الظلم دراسة الحرب البونية بين قرطاج وروما وهزيمة الأولى وفقاً لمعايير الجيوبولتيكا المعاصرة، وربما كان من الأكثر عدلاً دراستها وفقاً لنظرية صاحب «المقدمة»، ابن خلدون ورؤيته المميزة للتاريخ ومقولة «العصبية»، وتوفر القوة بمقدار توفر الهمجية أو الحضارة وذهابها بمقدار ما يذهب من التوحش ويكتسب من الحضارة، وهذا ما يفسر سقوط طروادة أمام أخيل وسقوط قرطاج المتحضرة أمام روما الفتية ثم سقوط روما نفسها أمام البرابرة. ومن المؤسف أن بعض الأدبيات الأوروبية لا تزال تكرر بتشفٍّ مملّ دعوتها إلى دمار قرطاج، الدعوة التي تكررت مرات في هذا الكتاب، ومنطوق هذه الدعوة مقطوع عن سياقه الذي يقرّب روما لا قرطاج من القوة الغاشمة المدمرة. وهو يعود إلى مجريات الحرب بين المدينتين، و إلى معاهدة زاما التي كبلت قرطاج بالأصفاد، وعندما شكت قرطاج لروما غارات خصمها ماسينيسا المتكررة، أوفدت روما سفارة برئاسة كاتون؛ ولم تنته السفارة إلى شيء سوى سلة من أكواز التين القرطاجي حملها السفير معه لينثرها أمام أعضاء مجلس الشيوخ صائحاً: «ثلاثة أيام فقط تفصلنا عن الأرض التي تنتج هذا التين!» وأتبعها بعبارته المشهورة «يجب أن تدمر قرطاج» التي صارت من بعده تعبيراً عن السبب

الحقيقي لهذه الحرب ولحروب كثيرة فرضها الجشع والسطوة.

وقد كانت روما أول من اعتذر لقرطاج عندما أقامت لهانيبال تمثالاً من المرمر أهدته «إلى أكبر رجل حرب بين قدماء الرجال» (اقرأ Jean Bablyon Emperatrice Emperatrices Syriennes، الطبعة العربية، دمشق دار العلم 1987 ص 62) واعتذرت إليها منظمة اليونيسكو التابعة لهيئة الأمم المتحدة عندما أصدرت عدداً خاصاً من «رسالة اليونيسكو» (يناير 1971) تحت شعار «لا تدمروا قرطاجة» وتحدثت عن تاريخ المدينة وأهميتها وخصائصها الفنية التي عجزت طبقات الركام والملح والحقد التي غطيت بها المدينة عن حجبها أو النيل منها.

لم يَبْق إلا أن يقتنع المتعصبون بأن يتركوا قرطاج لسباتها الأبدي الجليل. وليتذكروا أياديها النبيلة في سفر الرفد الحضاري للمناطق الواسعة التي سيطرت قرطاج عليها وأعانتها على النهوض. فإذا أعماهم التعصب عن ذلك فليتذكروا درس تضحياتها الأخير ومعنى أن يكون الوطن هو الحياة.

* * *

وبالإضافة إلى ما يتضمنه كتاب أ. دوغين من قضايا ومسائل وآفاق واسعة فإنه يشتمل على مسألة أخذت حقها من الترجمة لكننا لا نستطيع إلا أن نوفيها حقها من المناقشة قبل أن نبيّن موقفنا منها. وهذه المسائل هي:

وقد وردت في الصفحات 473 ـ 479 و560 ـ 565 من الكتاب الأصل فكانت مفاجأة تبعث على الدهشة وتثير الظن بل والترجيح بأن تكون هذه الصفحات محمولة، بكيفية ما، على الكتاب لأنها تتعارض في توجهها وفي أسلوبها ومنطقها العام مع السياق العام لكتاب «أسس الجيوبولتيكا» برمته، ومع القيم الانسانية، الخلقية والدينية التي دعا المؤلف بحماسة إلى الأخذ بها والسير على هديها، مثلما تتعارض مع الطبيعة الروحية الروسية ومع «الأرثوذكسية» الروسية والرسالة الروسية التي أكد المؤلف عليها جميعاً بكل اعتزاز، بل ومع «الطبيعة الإمبراطورية» للشعب الروسي الذي تعايش قروناً مع عشرات الشعوب والأعراق والإتنيات واللغات التي ربما قاربت المئة عدداً دون أن تظهر في تاريخه، وحتى في أشد مراحله قتامة وإظلاماً، أية بوادر للعنصرية أو الفوقية العرقية إلى درجة أن ظهرت نظريات تحاول تفسير هذا «التطرف» في اللاعنصرية لدى الروس. وخير شاهد على ذلك الأدب

الروسي الذي كان بتوجهاته الديموقراطية والانسانية وقضاياه الخلقية مرآة للروح النبيلة للشعب الروسي.

تتناول المجموعة الأولى من الصفحات رؤية المؤلف للشمال والجنوب ويعتمد الكاتب فيها أسلوباً تقريرياً يفرض قبول ما يقال على أنه مسلمات لا تحتاج إلى أي شرح أو برهان فمن ذلك قوله: «وآخر بقايا هذه الثقافة البريموردیالية قد اختفت من الواقع الفيزيائي منذ بضع آلاف من السنين، وعلى هذا فإن الشمال في التقليد ـ واقعٌ ما وراء التاريخ وما وراء الجغرافيا، والشيء نفسه يمكن قوله حول العرق الهيبيربوري ـ فهو «عرق لا بالمعنى البيولوجي بل بالمعنى الروحي الصرف». وإذا سلمنا بهذه المنطلقات لا بمعناها البيولوجي بل بالمعنى الروحي سَهُل علينا قبول «إن الطبقة البدئية الأقدم للتقليد تعرض أولوية الشمال على الجنوب، فرمزية الشمال ذات علاقة بالنبع، بالجنة النوردية الأولى، والتي منها تستمد الحضارة الانسانية كلها بدايتها» «أما الفكرة المرتبطة تقليدياً بالشمال فهي فكرة المركز، القطب الراسخ، نقطة الأبدية والتي لا يدور حولها المدى فقط بل والزمن، الدورة. الشمال هو الأرض التي لا تغيب فيها الشمس حتى في الليل، مدى النور، النور الأبدي». ولكن ألا يقول لنا منطق دورة الطبيعة وحركة الشمس والأرض، وبنصيب مماثل من الرجحان بأن الشمال، في الوقت نفسه، هو الأرض التي لا تشرق فيها الشمس حتى في النهار، مدى الظلمة، الظلمة الأبدية. وعلام يجب أن نعتمد عندما يطلب منا التسليم بهذا الموقف الذي ينسحب على قسم كبير من أبناء كوكبنا الأرضي المشترك، والمتعلق بارتباط «الشمال بالروح، بالنور بالطهر، بالكمال، بالوحدة، بالأبدية، أما الجنوب فيرمز إلى شيء مختلف كل الاختلاف، إنه المادية، الظلمة، الاختلاط، الحرمان، الكثرة، الغوص في تيار الزمن والتحول». والقبول بهذه «الحقائق» سيوصلنا على ما يبدو إلى ما يراد من تسويد أحد القطبين على الآخر: فـ «إزاء اعتراف الجنوب بأولوية الشمال تقوم بين هاتين الجهتين من جهات العالم علاقات متناغمة، الشمال يلهم الجنوب . . . . فإذا رفض الجنوب الاعتراف بدأ التنازع المقدس «حرب القارات».

ومع أن تحولات كثيرة حدثت منذ العهود السحيقة فقد «تغلغلت شعوب في الأراضي الجنوبية فأقامت الحضارة النوردية الواضحة التعبير. . . و . . . . تغلغل الجنوبيون أحياناً بكاملها مسافات بعيدة إلى الشمال حاملين معهم طرازهم الثقافي»

و «أعراف الجنوب المعاصرة تمثل خلاصة الاختلاطات الكثيرة العدد من عروق الشمال، ولون البشرة كفَّ منذ زمن بعيد عن أن يكون المظهر المميّز للانتماء إلى هذا العرق الميتافيزيقي أو ذاك» دون سواه، أما إنسان الجنوب فهو «النقيض المباشر للخط النوردي... ينزل في الكوسموس الذي يجلّه ولكن لا يفهمه... ينحني أمام الخارجي ولكن لا الداخلي... عاجز عن الانتقال من الرامز إلى المرموز... إنسان يعيش بالشهوات والاندفاعات ... يضع الروحي أعلى من الروحاني (الذي بكل بساطة لا يفهمه».

وإذا كان من المسلمات المطروحة أن الحضارات النوردية غابت في غياهب العهود السحيقة من الزمن فإنها خلفت «عرق» المعلمين «النورديين» الذي كان يقف عند منابع الديانات والثقافات لشعوب جميع القارات وجميع ألوان البشر فيمكن العثور على آثار العبادة الهيبيربورية عند هنود أمريكا الشمالية والسلافيين القدماء وعند مؤسسي الحضارة الصينية عند السكان الأوائل في المحيط الهادي ولدى الجرمان الشقر الشعور ولدى الشامانات السود في أفريقيا الغربية ولدى الأزديك والمنغول البارزي الوجنات، فليس ثمّة شعب على وجه الأرض لا يملك أسطورة عن «الإنسان الشمسي Sonnenmensch». ومع أن العبارة أسقطت الشعوب السامية من جرد الشعوب التي تأثرت بالنورديين فإنها صادرت الاستقلالية والتفرد الذاتي للجميع دون أن تحدد طقساً معيناً من آثار العبادة الهيبيربورية، فإذا افترضنا أنها عبادة الشمس التي جرى ذكرها قبيل هذه العبارة وفي خاتمتها فإن عبادة الشمس هذه عُرفت حقاً عند معظم الشعوب لكنها ارتبطت بالتفكير الانساني في خلق الكون والاهتداء إلى معرفة من أوجده، لهذا كانت هذه العبادة أقرب إلى الإرادة الذاتية الفطرية من كونها مرتبطة بنقطة معينة لابدّ وأن تكون الشمال. وهذا ما يفسّر نسب الفراعنة أنفسهم إلى رَعْ، الراعي، الشمس «راعية النهار، وقصائد أخناتون وأناشيده المؤثرة إلى معبوده الشمسي وتلقّي حمواربي شريعته عن الإله الشمس الذي انتشرت عبادته في اليمن والشام أيضاً ومنها انتقلت إلى روما عندما «صبّ العاصي في نهر التيبر».

أما المثال الذي يضربه المؤلف على أولوية البطلين النورديين بروميثيوس وهرقل وتميّزهما فلا يخرج عن سياق التكامل المألوف بين الثقافات الانسانية، القديمة منها والحديثة. فليس سرّاً دور البطلين جلجامش البابلي وميلكارت الفينيقي

في صياغة هاتين الشخصيتين. فالأرض السامية رفدت حضارة اليونان والرومان بالكثير بدءاً من «اللوغوس» الذي يتكرر استخدامه في الكتاب ضمن التأملات حول النورديين وحتى الاشراقات الأولى لكريت فجر الحضارة اليونانية وحتى أرحب ميادين الفكر والفن. بل ومن حقنا أن نتساءل، نحن الذين لا نزال نسمي أرسطو «المعلم الأول» ـ وما الذي يتبقى من التراث اليوناني إذا جرّد من الإسهام السامي؟

وبعد مئة صفحة من هذه الصفحات تكتمل الرؤية الجديدة لدى المؤلف وتدرك غايتها في الصفحات 560 ـ 565 إلا أن الخطاب يمضي مستمراً في تقريريته بينما يترك الحديث تدريجيا لرينيه غينون الذي سيصل بنا إلى النتيجة الحاسمة. ومن اللافت للنظر أن المؤلف الذي كان على مدى مئات الصفحات قد حصر الصراع الكوني ضمن ثنائية عنصري الأرض والماء لم يأت على ذكر عنصر النار لا تصريحاً ولا تلميحاً، بينما نجده يسترسل فجأة في الحديث عن «العنصر الذي غيّب عن الأنظار»، النار، التي احتلت مركز الصدارة في الوجود الانساني، الفردي والجماعي «فلما انطفأت النار المقدسة في بيوت البشر، في قلوب البشر، في معابدهم تصاعد زئير لوياثان الأسطوري» وخسرت الأرض في المبارزة مع البحر. ثم يعود المؤلف إلى القضية التي كان ك. شميدت قد ناقشها وانتهى فيها إلى ما يشبه استحالة الاستمرار في هذا البحث فـ «العقبة الوحيدة في هذا السبيل هي استحالة مماهاة الشرق بصفة حادة مع الصراع ضد الأيقونة والغرب من تمجيد الأيقونة». لكن القضية تتخذ بعداً مصيرياً بالنسبة للمؤلف معتمداً في ذلك على رينيه غينون حيث تُحوَّل الأيقونة وقد أضيف إليها ما يسمى بـ «تحطيم التماثيل» إلى «الحدّ» الذي يفصل بين «الحق والباطل» بين وجودين بشريين ينفي كل منهما الآخر (!) ثم نقرأ: «النفور من التصوير وتحطيم التماثيل ليسا من خصائص الشرق بقدر ما هو من خصائص الجنوب»فتتوارد إلى الخاطر صور هذا الشرق العظيم، شرقنا الذي جسّدنا فيه الجمال بالصورة، وبالصورة، عالجنا مرضانا، وبالصورة كتبنا وما زلنا نعالج الصورة والصور حتى حولناها حروفاً تكونت منها الأبجدية، أثمن هدية قدمناها للبشرية، الشرق الذي أبدع منذ فجر التاريخ أكثر الصور والتماثيل تعبيراً عن الإنسان وتجليات وجوده في الحياة، عن تصوراته للآلهة، لحركة الطبيعة منذ أيام التاسيلي حيث «تأبّدت» حركة الحياة في الصورة المنقوشة في الصخر ومروراً بمصر التي وصل الفنان فيها إلى التعامل مع الصخر والخط

واللون وكأنها مادة لينة طوع يديه ووصولاً إلى اليمن والعراق والشام وكلها تعيد صياغة المخلوقات الحيوان والنبات والجماد صوراً وتماثيل تنافس الحياة في حيويتها. وبالإضافة إلى ذلك أقام أبناء الشرق الساميون على أرضهم أوابد الفن المعماري ـ من القصور والمعابد والمدن والأهرامات التي لا تزال تتفرد بأسرارها وتصاغ التفاسير لمجرد الاقتراب من هذه الأسرار أما الأوابد اليمنية فهناك من يربط بعض مبانيها بأقوام ربما جاءت من عوالم أخرى، واختلطت صور الحدائق المعلقة في بابل بين الحقيقة والخيال، ومنذ ثلاثمئة عام بنيت بطرسبرج، إحدى أجمل عواصم العالم، فلقبوها بتدمر الشمال! ثم نقرأ: «يشير غينون . . . إنه لبناء معبد سليمان تمَّ استدعاء المهندس الأكبر من بين الغرباء ويبرهن على أن الحديث كان يدور حول ممثل للتقاليد الهند أوروبية». ليبرهن غينون قدر ما تشاء له براهينه فالنبي «الحكيم» قادر على تمييز الأم الحقيقية الأصلية عن «الأم» الدعيّة الغريبة! ثم نقرأ «غينون يؤكد على أن التقليد السامي ليس تقليداً شرقياً بل أطلسي غربي، وهو في الوقت نفسه بدوي». ثمَّة إذن شيء يبّيت وراء هذا الاصرار على تجريدنا من الأمور الصميميّة في كياننا، من الصورة والأيقونة والتمثال والعمارة. التقليد السامي تقليد بدوي إذن! تلصّق البداوة بأمهر المعماريين في التاريخ الإنساني حتى اليوم، من روّضوا النيل والفرات ودجلة وبنوا أسوار بابل وشادوا أعظم السدود في اليمن وحوّلوا أراضي الشام قمحاً وزيتوناً ووروداً فالجنان تستمد صورتها منها، وشفّت حضارة الاستقرار من أساطير هؤلاء الساميين وملاحمهم القديمة ونصوصهم الأدبية والحقوقية المتعلقة بأدق قوانين ملكية الأرض والمغارسة والبيع والإرث وما كانت نسبة البدو بينهم تفوق عما هي عليه لدى أي شعب آخر. ولكن من الذي تهمّه معرفة الحقيقة في عصرنا العجيب! ثم نقرأ: «غينون في الوقت نفسه يربط الشرق بالشمال إذ يعدّه الوريث التاريخي للتقليد النوردي البدئي» وما هي إلا أسطر قليلة حتى نقرأ: «وعلى القطب المقابل من التاريخ يظهر طبقاً لذلك الجنوب بمعية الغرب (!)، البدو الساميون، ومن شأن غينون أن يسمى هذا المعسكر بـ «المنطلقات الأولى المعادية للتقليد» «بناة المحاكاة الساخرة العظمى» وبهذا تتعطل الحجج والعقلانية وبخطوة بهلوانية يسحب الشرق من تحت أقدام أهل الشرق ليلحق بالشمال، وبقفزة بهلوانية أخرى يسحب الشمال أيضاً ويعطى لنا «دور العامل السامي ـ الغربي والبدوي وفقاً لغينون والجنوبي إذا ما قيّمنا انتشار الساميين

من مواقع الأوراسيا». فما الذي يراد للساميين وقد جردوا من أخصّ خصائص هويتهم ـ من الاستقرار، من البناء والزراعة ووسائل الري وتشييد المدن ومن الصورة والتمثال . . . ومن الإسهام الفاعل في الحضارة الإنسانية؟ ماذا وقد حُوّلوا عن الجهة التي يحتلونها تحت الشمس؟ فهل من العجيب بعد ذلك أن تتداعى كل اللوحة التي رسمها أ. دوغين في كتابه وتنهار وأن ينسحب الصراع بين التيلوروكراتية الروسية والتالاسوكراتية الأطلسية وأن تختفي معالم العولمة والقطب الواحد وتغيب أحلام المؤلف، وأمانيه وأمانينا معه، في إقامة عالم جديد تتعدد فيه الأقطاب وتستعيد الشعوب إنسانيتها التي دعا إليها سياق الكتاب كله، وأن نواجه عند «التصفية النهائية» بمواجهة بين مَن؟ بين «الهندأوروبيين» و «الساميين»! وفي الصفحة الثانية قبل الأخيرة من الكتاب، وبالإضافة إلى بعض الأوصاف المهينة نقرأ ما لا تكاد تصدّقه العين:

«الشمال + الشرق، الأيقونة، الهندأوربيون، النار، البيت، الاستقرار، التقليد واليابسة. هذه قوى نوموس الأرض، أنصار الثقافة والنظام، الذين أجابوا على تحدي النار الفائقة بمجموعات من التقاليد الآرية ـ حتى المسيحية».

الجنوب + الغرب، محاربة الايقونة، الشعوب السامية، الماء، السفينة، البداوة، الحداثة والبحر، حملة الأغلال، الطاقات الأُخروية للفوضى العقلانية، نوموس البحر. لقد ردّوا على تحدي المحيط بوقوفهم إلى جانبه ضد الأرض وضد القضية البروميثيوسية النارية الأقدم، التي تكاد تكون منسية والتي سبقت نوموس الأرض وكامل التاريخ الإنساني.

ذاك ما تفضي إليه المواجهة بمجرد أن جرّد الساميون من الأيقونة (!) والحق إن إنكار الرسم والنحت على الساميين أشبه بتغطية الشمس بالغربال. فما الذي يراد من قلب التاريخ بهذه الصورة؟ ما الغاية الحقيقية من وصفنا بالبداوة والترحل وتجريدنا من شرقنا وحرفنا مسافات بعيدة نحو الجنوب؟ ولم نُتهم بمحاربة التماثيل وتحطيمها وما نُهب منها مما حفظناه في متحف بغداد لوحدْها يقدر بمئات الألوف؟!

* * *

وأخيراً ما الذي يمكن أن نقوله للقارىء العربي وقد «حال الجريض دون القريض» وتلبّدت كل الأجواء بالغيوم.

الكتاب، على أهميته لا يبعث على الكثير من الأمل، بل ويفاجئنا بالعنصرية التي تمخضت عنها صفحاته الأخيرة لكنه مهم مع كل ذلك. وأثبتت الأيام ما تحدث به المؤلف حول ضمور دور الأمم المتحدة حتى خرجت دول التحالف لتخوض حرباً كانت المظاهرات في أمريكا وانكلترا والعالم قد خرجت ضدها حتى قبل أن تشتعل، وعندما تحدث بسخط وانفعال عن دول «الخارج القريب» التي ستتسابق إلى خدمة الأطلسية وقد فعلتْ. وكان جريئاً في نقده لبلاده وصريحاً في توكيده، دون أي مبالاة، على المفاهيم التقليدية للعلاقات الدولية وأحقية الأقوياء دون غيرهم في رسم خرائط الكون. فحتى الهند الدولة ـ القارة الذرية التي قطعت مراحل متقدمة في الصناعات الالكترونية والتي تبني حاملات الطائرات ما شغلت في مخططات أ. دوغين إلا مرتبة ثانوية تفتحها أمامها القدرات الميتافيزيقية لبعض كهنتها؛ كما لم يخصص لوطننا العربي إلا القليل وإن كانت له أهميته.

ومع هذا فلن نقبل بالانحياز إلاّ إلى الفئة المتفائلة بسيادة الحق والخير في المستقبل. الحقيقة دوماً إيجابية، ونحن في حاجة إلى المواجهة مع الذات ومع الواقع الكوني المعاصر العلم الذي يحذرنا من بين دفتي هذا الكتاب وعلى لسان أحد الذي يريدون الخير لبلادهم أن لا أمة بدون قوة، ولا وزن دوليّ لأمة يقل عدد سكانها عن مئتي إلى ثلاثمئة مليون نسمة. ذاك هو قانون الجيوبولتيكا الجديد.

نسجل هذه الكلمات لا لنعبر عن الحسرة أو لنعلن أن الوقت قد تأخر، فكل وقت تستيقظ فيه الإرادة وتستعاد الثقة بالنفس والعزم والتصميم هو الوقت المناسب. ولقد قرع كتاب أ. دوغين ناقوس الخطر وفعل ذلك مؤلفون آخرون من قبله وسيأتي من بعده من يقرع هذه النواقيس ليعلن بصوت أعلى أن العالم بأسره معنيّ ومستهدف من أقصاه إلى أقصاه وأن عليه أن يتأهب ويستعد للتوجّه نحو تعددية الأقطاب.

فهل حان الوقت ولو لقليل من التضامن العربي الصادق بين أجزاء هذه الأمة العظيمة التي تملك مئات آلاف المتخصصين في مختلف ميادين العلم المعاصر، والتي وُضع حتى تاريخها المشترك المجيد في قائمة الأهداف المطلوبة اليوم. لقد آن لنا أن نستعد بكل ما نستطيعه من قوة الإيمان بالله وبأمجاد الأجداد وقوة

التضامن العربي والإرادة الواحدة وبكل ما نستطيعه من رباط الخيل؛ والخيل في العصر الحديث هي التقنية المتطورة والأسلحة الحديثة التي لا يضمن توفرها واستخدامها وتطويرها إلا العلم... العلم المتقدم الحديث.

أ.د. عماد حاتم

2003 /5 /14



مقدمة الطبعة الثالثة

تصدر الطبعة الثالثة من كتاب «أسس الجيوبولتيكا» في صيغة موسعة إلى حد كبير. وقد أضيف إليها كتاب «تفكير عبر المدى»(*) حيث تم عرض التواصل المتبادل بين التصور الجيوبولتيكي والسياقات الإتنية، الثقافية، الدينية، التاريخية والفلسفية. وهذا، في حقيقة الأمر، محاولة لإكساب الجيوبولتيكا طابع العلم الإنساني المؤصَّل، والذي لا يشتمل فقط على الميادين العملية للسياسة والاستراتيجية العالميتين، بل وعلى الطبقات السوسيولوجية والتوجيهية الفكرية للوجود الاجتماعي.

لقد نفدت طبعتا «أسس الجيوبولتيكا» بسرعة ملحوظة. وهو ما يشهد على أن الاهتمام بها يتنامى بشكل متواصل وعلى أن أعداداً متزايدة من البشر ـ من بين الاختصاصيين أو مجرد الفضوليين ـ تطمح إلى التعرف عن كثب على المبادىء المؤصلة لهذه المنظومة العلمية.

وشيئاً بعد شيء يغدو من الأمور الواضحة بالنسبة لأبعد المتشككين غوراً، أن المنهج الجيوبولتيكي، أردنا ذلك أم لم نرده، أخذ يتلمس طريقه، بصفة تدريجية، نحو الفئات الأكثر اتساعاً بين الأوساط الاجتماعية طامحاً إلى أن يغدو الوسيلة التي لا تعوَّض والأكثر أهمية من أجل توضيح ذلك الموقف البالغ التعقيد الذي نلتقي به في روسيا والعالم اليوم.

والحق أن المقاربة العقائدية، والمؤسسة، بصفة استثنائية على تقييم الطبيعة

(*) يشتمل هذا الكتاب على ترجمة «أسس الجيوبولتيكا» فقط. (التحرير).

الاقتصادية للمجتمعات والدول قد شاخت بصورة لم يبق معها أي أمل. فلم يعد ثمة وجود لمعسكرين متعاديين فكرياً يدافعان عن أنموذجين من الاقتصاد متعارضين بصورة جذرية وفي الوقت نفسه لم تختف الحرب الباردة ولا صورها الأكثر حداثة. لم يعد ثمة وجود للدول القوميات التي كانت تقليدية بالنسبة للمئات الأخيرة من السنين، ومع ذلك فالصراعات الدامية تمزق أوصال أوروبا، آسيا والشرق الأوسط. وبدا أن الدين لم يعد يلعب ذلك الدور الذي لعبه في عهد الحملات الصليبية والفتوحات العربية، بيد أن الثورات والانتفاضات والحركات الانفصالية تقوم تحت راية المذاهب الدينية.

إن الإنسانية، وقد خرجت من مؤتمر يالطا للسلام، تقف على عتبة ألفيتها الجديدة أمام واقع جديد لا يفكر بالتطابق مع الأحلام الطوباوية الساذجة لبعض الليبراليين المتسرعين. إن توحيد العالم يتمخّض عن أعداد من القضايا والمشاكل تربو عما تقدمه من إجابات. أما النظم الجاهزة السابقة والأنماط المألوفة للتحليل التقليدي فتشيخ أمام أعيننا.

في مثل هذا الوضع يتوجه الوعي أكثر فأكثر نحو الجيوبولتيكا ـ تلك المنظومة العلمية التي استقرت زمناً طويلاً عند المشارف الطرفية للتحليل العلمي ـ والتي تقدّم، على الرغم من ذلك كله، نظماً مريحة وبسيطة إلى حد الإغراء أحياناً، لتفسير تلك اللوحة الجديدة للعالم والتي يتم تشكيلها على تخوم القرون وآلاف السنين.

الجيوبولتيكا تعيد تركيب المناهج التقليدية المختلفة للبحث ـ من نظرية الحق وحتى علم الثقافة، من السوسيولوجيا وحتى الاستراتيجية العسكرية، من علم الأديان وحتى التحليل الاقتصادي، من الأنطولوجيا وحتى الطب النفسي. ومما لا جدال فيه أن هذه الرحابة في الاشتمال تطالب بكمّ لا يستهان به من التبسيط والتقديرات التقريبية والانتقائية. ولكن ضمن شروط الافتقار الحاد إلى النظريات المعمِّمة، وضمن شروط «نهاية الأيديولوجيات»، التي ظلت ردحاً طويلاً تخدم الإنسانية بوسيلتها التي لا تتبدل لشرح العالم، ويبدو مثل هذا التفسير التركيبي وقد قدّر له النجاح.

والجيوبولتيكا ليست عقيدة جامدة، ليست تجميعاً لحقائق ثبتت صحتها مرة

وإلى الأبد، وتمت البرهنة عليها علمياً ودراستها بشكل مفصَّل. إنها أقرب إلى أن تكون باقة من بداهات أحداس تاريخية توحد بينها متعة الإحساس باللذة المسبقة للتعرف على الواقع ضمن منظور جديد غير مسبوق. ويمكن القول بأن هذه المنظومة تستمد جاذبيتها من تفتّحها بالذات، ومن كونها تنتسب للتطور الخلاق في كافة الاتجاهات، لأنها في طورها الجنيني ولأنها تجتذب الأرواح الحية المتوثبة والعقول الباحثة عن بدائل للمناهج القديمة السائرة إلى الاضمحلال.

وقد لا يكون من المبالغة القول بأننا نعيش فترة ثورة الجيوبولتيكا. فهذه الكلمة لا تغيب عن الأسطر الأولى في الصحف ولا عن شفاه المذيعين. وعلى الرغم من أننا، وعلى نحو ما كانت الأمور عليه في السابق، لا نجد إلاّ القلائل فقط، ممن يضمّنون هذه الكلمة المعنى الذي يحمل في الواقع علاقة بالمسلّمات الانطلاقية الأساسية لمنهج الجيوبولتيكا، فإن الاهتمام الشمولي بها لا يمكن إيقافه. وهذا يعني أن فهمها المدقق الصحيح قادم بالتدريج.

إن الأحداث المأساوية للحروب الجديدة لم تلعب الدور الأخير في النصر النهائي للجيوبولتيكا، فعدوان الأطلسيين على العراق وصربيا والتوجهات الانفصالية على أراضي روسيا الاتحادية أكدت بصورة كاملة جدارة تلك الأنماط التي يعتمد عليها علماء الجيوبولتيكا بصفة أكبر من خلال ترسيخهم لمبدئهم المركزي ـ المواجهة بين الأطلسية والأوراسية، بين التالاسّوكراتيا والتّيلوروكراتيا، بين لوياثان وبهيموت، بين البحر والبر، بين الغرب والشرق، المبدأ المركوز في صلب طبيعة المجال النوعي الثقافي، وعليه فإن القانون الأهم في التاريخ الإنساني هو الحرب العظمى المحتومة بين القارات، والمبارزة المستمرة بين الحضارات وصدامها التكتوني(*).

بعد انتهاء المواجهة الأيديولوجية بين «الاشتراكية» و«الرأسمالية» وبعد وحدة أوروبا وطرح اليورو، وبعد نزع سلاح روسيا من طرف واحد، لم يعد العالم، ويا للأسف، أكثر سلاماً. لم تنخفض فيه نسبة العدوانية. كما لم يتنام حجم العدالة، ولا تقلّصت أحجام المعانيات ولم ينسحب الكذب والنفاق والمصالح الضارية إلى

(*) التكتوني: الحافل بأشد النتائج قسوة. فالتكتونية: عملية التشويه التي تتعرض لها قشرة الأرض محدثة التضاريس (المترجم).

المرتبة الثانية، يقول الفرنسيون: «Plus ca change plus c'est la meme chose» (كلما زاد التبدّل، زاد الأمر بقاء على حاله). والجيوبولتيكيون يرون العالم على هذه الصورة بالذات: تبدلاته وتحوّلاته ومفاصل تطوره وتغيّره لا تمس إلا قشرة الأشياء ويبقى الجوهر على حاله. التقدم التقني لا يحمل معه التقدم الأخلاقي والطبقات القديمة للرّوح لا تتلاشى بغض النظر عن كل زلازل الحداثة.

الجيوبولتيكا من خصائص الإنسان والإنسانية عبر كل مراحل التاريخ ـ ففي صيغ مختلفة، وعلى مستويات مختلفة، ووفقاً لصيغ متفاوتة من التفسير والفهم والتبرير، تتواصل المعركة التي لا تنتهي بين النُظم، العوالم والثقافات، القيمية منها والمعنوية، بين القارات.

لقد ترسخت الديمقراطية ونظام السوق في الشرق، والنزاعات مع الغرب ما امتنعت فقط عن الاختفاء بل إنها تزداد تفاقماً، حتى إن منظري الغرب واستراتيجيوه وقادته أنفسهم ما عادوا يكتمون أن ما يحرُكهم في نهاية المطاف هو الجيوبولتيكا لا الوفاء التجريدي للمعايير «الإنسانية» أو المعتقدات الاقتصادية، بل الدفاع عن المصالح الخاصة الحضارية والاستراتيجية الكبرى، بغض النظر عما إذا كان ذلك يتفق أو لا يتفق مع المسار التاريخي لخصومهم، وذلك في سياق تعاملهم مع أولئك «الآخرين» تعامل الذات مع الموضوع، الرئيس مع المرؤوس والمالك مع الممتلكات.

إن جميع الوثائق الجادة، المعبّرة عن عصرها لدى حكام الغرب تتحدث عن الجيوبولتيكا، الأوراسيا والأطلسية، والمنهج الجيوبولتيكي صار بكل انسيابية وبكيفية ما لا يحتاج إلى برهان. وبدون مجادلات أو مناقشات أو حوارات علمية يتبوأ، من تلقاء ذاته، مكانة الأنموذج التفسيري الأساسي بالنسبة للنّخب المعاصرة، السياسية منها والتحليلية. أحياناً ما يؤخذ الشكل لوحده، وأحياناً ما يكتشف حدس الجذور العميقة للجيوبولتيكا والمدعوة في أحسن الحالات، لتعميم منظومات القيم للتاريخ البشري وتقديم أنموذج دورة تعليمية موجزة حول تطور الحضارة. ويبتعد وعي كافة المكنونات الفلسفية للمنهج الجيوبولتيكي عن أن يتحقق في هذا السياق. لكن الحديث يدور حول زعزعة الأسس. فالمنهج الجيوبولتيكي، وقد صار الأنموذج الأثير للتفسير، يؤدي بطبيعته إلى تبديل مذهل للأقيسة ـ إلى الانتقال من سيطرة الرؤية الزمانية للوجود (والذي على أساسه أقيمت

حضارة العصر الحديث)، إلى التفسير على أساس الرؤية المكانية والتي تعتمد في أساسها على نظام للمنطلقات يختلف كل الاختلاف. فبدلاً من اللوحة التاريخية للعالم والمعتمدة على الأساس المزدوج والتي يسيطر عليها الزمن المحوري فإن الجيوبولتيكا تقدّم نظرة مغايرة بصورة جذرية ـ هي التزامنية، هي بكيفية ما المظهرية، هي بمعنى آخر الميتافيزيقية التي قذفت بها ثقافة الغرب عند فجر العصر الحديث، إن العنصر العتيق الذي يلوح في الجيوبولتيكا، سذاجتها الموهومة لا يحول فقط دون تجريدها من المصداقية، بل ويشير إلى معناها الريادي كنظام طليعي مميّز لما بعد الحداثة، كعلم ذي أفضلية بالنسبة للمجتمع الجديد، ما بعد الصناعي.

تدخل النخبة المثقفة في روسيا بخطئ وئيدة في عملية تمثل التفكير الجيوبولتيكي، بيد أن توتر الحياة والمأساوية المفاجئة لانعطافة التاريخ الجديدة والمعاينات الشديدة الإيجاع، والتي كانت من نصيب بلادنا، والإبهام العدائي الذي يتسم به العالم الخارجي المحيط بنا حيث اختلطت السمات المألوفة (ولو من الناحية النظرية) بعناصر جديدة كل الجدة، سديمية للوهلة الأولى ـ وهذا بمجموعه ما يدفع بهذه النخبة نحو الاتجاه الصحيح. فكلما زاد عدد طبعات وإعادة طبعات النصوص والبحوث الجيوبولتيكية بدا المناخ الثقافي لروسيا أكثر ملاءمة وزادت نسبيّة الدقة لدى تقييم العمليات المثيرة للقلق والجارية خارج بلادنا وفي داخلها.

لقد أثار صدور الطبعتين الأوليين من «أسس الجيوبولتيكا» صدى جاداً في المجتمع الروسي. وعلى الرغم من الاهتمام الواضح فقد كان هناك عدد كبير من التقييمات المنتقدة الحادة. والأرجح وزناً من بينها صاغ حجته الرئيسية في قوله بأن تمثل الروس للمسلّمات الجيوبولتيكية سيؤدي إلى صراع قاس لا مفر منه مع حضارة الغرب، إن التأكيد على الهوية الأوراسية سيناقض، بدون شك وبصورة مباشرة، المصالح الحيوية لعدوّها الاستراتيجي ـ المعسكر الأطلسي. وبعبارة أخرى فإن الكثيرين قد رأوا في النظرة الجيوبولتيكية ما أثار قلقهم من «البيلّيتسزم» و«العسكرية» و«التبشيرية الجديدة» وما إلى ذلك. ويمكن الردّ على هذا بأن النخبة المثقفة في الغرب نفسه تتجه، دون أدنى تردد، في طريق فرض مطابقتها الجيوبولتيكية الخاصبة بها محققة الـ Manifest Destiny الأمريكية بكل الوسائل الممكنة، دون ترفع عن العدوان العسكري المباشر والذي يشهد أنموذجه المثير للتأثير، والمثير للاشمئزاز بما ينطوي عليه من حطّة، في عدوان الناتو على

يوغوسلافيا. وحتى الآن فإن من يستعرض «البيلّيتسزم» و«العسكرية» و«التبشيرية» هو المعسكر الأطلسي، لا المعسكر الأوراسي الذي ينتسب إليه مؤلف «أسس الجيوبولتيكا» وأمام هذا الاستعراض للإرادة الأطلسية ولجبروتها ونزقها فإن الرد المنطقي الوحيد هو العودة إلى المخزون الحضاري الخاص وتجنيد المصادر الاستراتيجية، الاقتصادية، الاجتماعية والثقافية والضرورية لروسيا لكي لا تمحى من التاريخ باليد الحديدية لبُناة «النظام العالمي الجديد». ليست الجيوبولتيكا الأوراسية ساحة للعدوان بل هي خط الدفاع الأخير. إن فرض «الأنا» الحضارية الخاصة محفوف دوماً بالمخاطر، لكن العدول عنه يتكافأ والانتحار التاريخي في معناه. ولهذا فإن منتقدي «أسس الجيوبولتيكا» إما أن يكونوا، من هذه المنطلقات، على درجة بعيدة من السذاجة وإما أن تكون قد أغرتهم، بصورة تثير الريبة، منظومة قيم خصمنا الجيوبولتيكي، فهم لهذا السبب مندفعون، غير موضوعيين، هذا إذا لم نستخدم تعبيراً أقسى.

أما النقطة الأخيرة التي استعملت أكثر من مرة لصالح اتهام المؤلف، فمؤداها أن استعراض الجيوبولتيكا والنظرية الأوراسية، إنما يعكس، في هذه الحالة، الطيف الوطني لمجتمعنا مع تجاهل مواقف الليبراليين، المستغربين الراديكاليين. وهذا التصور منصف ولكن في معنى واحد فقط وهو توكيده الحقيقة الواضحة التالية: إن الإدراك الواسع لخصائص تلك الحضارة والثقافة اللتين ننتسب إليهما، نحن، سكان الأوراسيا، يراكم في أعماقنا الإحساس الوطني والرغبة في تكريس خصوصيتنا، وفرادة كياننا الزماني والمكاني. ومن أوتي القدرة على أن يطوف بنظره في وطننا بكل ما فيه من امتداد في التاريخ والجغرافية، يتعذر عليه أن يبقى بارداً بعيداً عن التحيّز. لكن ليس لهذه الوطنية الأوراسية الأصيلة، المبرّرة، المتفتحة والقائمة على التكامل والمساواة، ما يجمعها مع الصيغ التعصبية الضيقة الشوفينية، ولا مع التطرّف من أي نوع. تعتمد الأوراسية على الوعي الجيوبولتيكي لموقع روسيا ودورها في التاريخ، وهذا هو أساس الرؤية الطبيعية المركزية والتي كان لها أن تكون قيمةً رؤيوية إلزامية فيما لو تغلبت بلادنا على المرحلة الصعبة من اغترابها عن «أناها»، ومثلما لا تستطيع أي قوة سياسية في الغرب، داخلة في مؤسسة قانونية جادة، طامحة إلى القيام بالأدوار المسؤولة لدولها، إنكار الأسس الحضارية المؤسسة للأطلسية (ولهذا فإنها، بغض النظر عن اختلافاتها

الأيديولوجية، تلتقي دوماً عند الهدف الحضاري العام الذي يساهم فيه الجميع ـ «american dream», «manifest destiny»,«american way of life»، ففي روسيا يجب أن يكون الهدف الأوراسي الحضاري بالذات ـ مقياس العافية السياسية، والمسؤولية، وسمو المواقف، ومعيار المركزية. الإحساس الوطني ليس ملاذاً للأوغاد. وعلى الرغم من أنه يمكن، في واقع الحال، أن يبيض صفحة أولئك الذين يلوذون به في نهاية المطاف. الإحساس الوطني هو المعيار الاجتماعي، السياسي والثقافي والذي يعد الحياد عنه مظهراً قبيحاً وبداءة التطرف الحقيقي الاجتماعي والعدَمية والانهيار.

بإلقاء نظرة إلى الوراء نلاحظ أن عدداً كبيراً من النصوص التي تم جمعها في «أسس الجيوبولتيكا» (غالبية المواد المتضمنة في الكتاب الأول من هذه الطبعة كتبت بين عامي 1992 ـ 1996)، قد أكدها بصورة كاملة تطور الأحداث. على الرغم من أنها بدت للكثيرين لحظة طبعها عصيّةً على الحدوث، غير واقعية وموغلة في المأساوية والعنف. وقلائل آمنوا يومذاك بإمكانية أن تقف صربيا في مواجهة مباشرة مع الغرب، إذ بدا ذلك مستحيلاً. وتنبغي الإشارة أيضاً إلى التطابق الكامل لسيناريو البروفيسور سانتورو والذي كان قبل بضع سنوات قد تنبأ في خططه بظهور بؤر لحروب من المستوى المتوسط في أوروبا وبشلل المؤسسات الدولية التقليدية من أمثال منظمة الأمم المتحدة. وعدوان الناتو على يوغسلافيا، متجاوزاً الأمم المتحدة، يمثل للأسف، التوكيد المثير لهذه التشخيصات المحزنة. أذكّر بأن المرحلة التالية يجب أن تكون، وفقاً لرأي المنظرين الأطلسيين، إقرار «الحكومة العالمية» والإدارة الموحدة للغرب على الصعيد الكوني باستخدام تقنيات جديدة بصفة مبدئية.

أصبح من الواضح اليوم أن صلح يالطا قد سقط، وعلى الصعيد العالمي يرتسم واقع جيوبولتيكي مفعم بالشر يُفرد فيه لنا، لبلادنا، لشعبنا، إما مكان من الدرجة العاشرة، وإما يرسم في مكان الأوراسيا «خرق أسود» واحد «انظر كتاب الجيوبولتيكي الأمريكي زبيغنيف بريجنسكي «لعبة الشطرنج الكبرى»».

ما الذي على روسيا أن تفعله في هذه الحالة؟ وفي أي نهج تسير؟ أتندفع في سلسلة لا نهاية من التنازلات؟ أتتورط في هذه الفوضى والانفصالية والخواء والحروب الأهلية؟ أم تضم جميع صفوفها، على الرغم من كل شيء، وتواجه

الشر الذي تم إعداده بصورة متقنة، بإقرارها الطرح الأوراسي الجديد؟ الدرب الجديد؟ دربنا؟.

في الطبعة الجديدة من هذا الكتاب المتخصص في الجيوبولتيكا تطرح قضايا جديدة، وترسم دروب جديدة، وتناقش أوضاع جديدة، وتبذل توصيات جديدة، وتدرس موضوعات جديدة، إلا أن مغزاها لن يفهم بجلاء إلّا بعد استيعاب الجزء التمهيدي منه وتدبّره بشكل صحيح.

الجيوبولتيكا نظام علمي مفتوح، يولد أو ينبعث من جديد. يتضمن آفاقاً واسعة لتكريس القوى الخلاقة للمتخصصين في أكثر الميادين اختلافاً. وهذا الكتاب التعليمي يجب أن يستقبل لا كمجموعة من العقائد الجامعة والمبادىء التي لا يختلّ ثباتها، بل كدعوة إلى التعاون الواسع، إلى المشاركة، إلى الفهم المتعمق، النظري والتطبيقي، لهذا العلم المذهل وتطويره.

لقد أرسيت الأسس وشرحت المبادىء الانطلاقية، لكن ما هذا إلا بداية الطريق، الذي يجب، وفقاً لمنطلق الأشياء، أن يخرجنا من الهوة إلى أنوار السماوات الروسية الجديدة، وإلى الجسد القدسي للأرض الروسية الجديدة.

أ. دوغين. 30 نيسان 1999

جيوبولتيكا العالم العربي

مقدمة الطبعة العربية

1 - على جدول الأعمال - إقامة المدرسة الجيوبولتيكية العربية.

صدور هذا الكتاب باللغة العربية يمثل بالنسبة لي حدثاً بالغ الأهمية. فخريطة العالم تتبدل اليوم بخطى حثيثة، والصيغ الايديولوجية الجاهزة القديمة تختفي أمام أعيننا، وتبرز مشاهد جديدة تطالبنا بردود جديدة ومناهج حل جديدة. ومما لا شك فيه أن العالم العربي على مفترق الطرق اليوم. وقد وجد نفسه في وضع على غاية من التعقيد. فهو مجزأ ومحزز بخطوط التقسيم، ومفعم بعدد كبير من المشاكل الاقتصادية، الاجتماعية، الدينية، السياسية والثقافية. كما تبرز مسألة الهوية العربية بحدّة لم يعرف لها مثيل من قبل.

وبألم مضن يبحث العالم العربي عن مكانه في العالم الجديد. وتجري هذه العملية بصورة دراماتيكية، وهناك سلسلة كاملة من الصدامات العلنية تضفي على هذا البحث طابعاً دراماتيكياً - وراء تطور هذا الموضوع بقلب راجف.

وصار من الصيغ الجاهزة الرائجة في بلدان الغرب - مماهاة العالم العربي بمهد الإرهاب الدولي. وكشاهد على ذلك تقدّم شخصيّتا بن لادن وصدام حسين الموغلتان في الشر، وأحداث الـ 11 من أيلول سنة 2002، والنزاع الفلسطيني - الاسرائيلي الذي لا يتوقف، وانتشار عدد من التيارات الاسلامية الأصولية على صعيد العالم بأسره، ممن يمارسون الإرهاب على أسس قيم دينية خضعت للتفسير. ومما هو واضح بالنسبة للمراقب الحيادي أن إسقاط مثل هذه الشيطانية على العالم العربي ليس إلا اختلاقاً واضحاً ليس له ما يجمعه مع الواقع. لكن

حيرة العرب الداخلية لا تسمح حتى الآن بتقديم أي رد موحد على هذا التحدي. فالعالم العربي مفكك تعصف به التناقضات الداخلية من جهة. ومن جهة أخرى لا تستطيع الحضارة العربية (مثلها مثل أي حضارة تقليدية أخرى) أن تقبل بدون تحفظ، في واقع الحال، معايير العولمة التي تفرضها الولايات المتحدة الأمريكية ودول «الشمال الغني» على شعوب الأرض. وفضلاً عن ذلك يغيب اليوم الجهاز المفاهيمي الملائم للصياغة المناسبة للمواقف الاستراتيجية العالمية - بينما لم تعد كافية الصيغ الايديولوجية الجاهزة للعهد السابق.

ولهذا أرى أن ترجمة هذا الكتاب عمل عظيم جداً. فإدخال المنهجية الجيوبولتيكية في السياق الثقافي - السياسي العربي يبدو لي أمراً أكثر من فعال. فالجيوبولتيكا بالذات تسمح، وبصفة دقيقة وصائبة، بصياغة تلك المشاكل والتحديات الماثلة أمام الانسانية الآن، وبالتوصيف الدقيق للتيارات السارية تحت السطح في السياسة الدولية وبالتقييم الواعي لما يقوم في العادة تحت الستارة الكثيفة للأساطير المعلوماتية وللمصطلحات الجاهزة والتقييمات المتسرعة المتحيزة.

الجيوبولتيكا هي تلك المنظومة العلمية ذات الضرورة الكبرى اليوم بالنسبة للنخب العربية، السياسية منها والاقتصادية والاجتماعية. فالجيوبولتيكا هي اللغة التي تتطابق بدقة مع متطلبات القرن الحادي والعشرين. وستكون بالنسبة للعالم العربي ذات فائدة وفعالية خارقتين للعادة، على الرغم من أنها تتطلب، وبفعل جدة المنهج والمبادىء الانطلاقية الأساسية، جهوداً ذهنية وإبداعية معينة.

إن مئات الألوف من العرب يدرسون اليوم في المؤسسات التعليمية العليا للدول الغربية حيث تدرّس المنهجية الجيوبولتيكية - وإن كان ذلك بصورة مقننة ومع التحفظات - إلا أنها تدرّس. وهذا في حد ذاته عون مشهود. بيد أن هذه المنظومة العلمية، وفق ما ستكون مفهومة من هذا الكتاب، ترتبط إلى حدود مهولة بتلك النقطة الجغرافية التي يوجد دارسها فيها. والجيوبولتيكا موضوعية، إلا أن العالم الجيوبولتيكي ومواقفه محددون مسبقاً بالمكان الذي هو فيه والذي تتحدد فيه هويته روحياً، ثقافياً وسياسياً. وهذا يعني أنه يمكن أن توجد، ويجب أن توجد، المدرسة الجيوبولتيكية العربية الخاصة، والتي يناط بها أن تصوغ المهام الكونية للعالم العربي في مصطلحات جيوبولتيكية وأن ترسم الملامح العامة العربية الجديدة في الظروف التاريخية الجديدة.

وكمؤسس لمدرسة الجيوبولتيكا الروسية أكون مسروراً بصدق إذا ما تقدم كتابي بعونه لإقامة الوعي الذاتي الجيوبولتيكي العربي.

2 - جيوبولتيكا العرق السامي القديمة وأصداؤها في العصر الحاضر

ودون أن أتطلع إلى دور المتخصص في هذه المسائل سأحاول تحديد لحظات انطلاقية معينة في الجيوبولتيكا العربية من خلال الملامح الأكثر عمومية.

لجيوبولتيكا العالم العربي تاريخ ضارب في أعماق التاريخ. ويمكن أن نعد الحقبة الأقدم فيها جيوبولتيكية العرق السامي من آشور القديمة فسوريا وحتى الامبراطورية الفينيقية لعموم البحر الأبيض المتوسط. واستعراض هذه الجيوبولتيكا الموغلة في القدم للشعوب السامية يمكن أن يشكل رواية جذابة ومليئة بالعبر. إذ يمكن الإشارة على الفور إلى أن للمدى الفينيقي قطبين مميزين - البري والبحري. آشور، عدن، موآب ودول شبه الجزيرة العربية تنتسب لما نسميه الجيوبولتيكا «حضارة البر» بينما تقدم الإمبراطورية الفينيقية البحرية أنموذج «التالاسوكراتية» المكتمل. وفضلاً عن ذلك تؤخذ قرطاج بالذات في التعاليم الجيوبولتيكية بصفتها المفهوم الجمعي للتعبير عن «التالاسوكراتية» - «السلطة عن طريق البحر». وعلى هذا تلقى الجيوبولتيكا العربية في الطبقات القديمة جداً من التاريخ واحداً من الأنماط الكلاسيكية للنظام الجيوبولتيكي، قرطاج التي تعدّ أمّ التالاسوكراتيات التالية. في منظور الجيوبولتيكا الارثوذوكسية(*) تعد الولايات المتحدة الامريكية المعاصرة التطوير التاريخي والنمطي للأنموذج القرطاجي بالذات. بل إن مؤسسي المدرسة الجيوبولتيكية الأمريكية كالأميرال ماهان، بروكس آدامس ومن بعدهما نيكولاس سبيكمان كانوا يعون بكل وضوح «الطابع البحري» للأمبراطورية الأمريكية، التي تتسامى إلى نماذج بريطانيا العظمى، هولندا - البندقية وهكذا حتى فينيقيا. وعلى هذا فإن المسيطر الجيوبولتيكي المعاصر - الولايات المتحدة الأمريكية. يعود بنمطه إلى جذور سامية - قديمة. ومن وجهة النظر الجيوبولتيكية ليس في الولايات المتحدة الأمريكية أي شيء «روماني». إنها، على العكس من ذلك، عولمة وتحديث العدو الرئيسي لروما في الحرب البونية. هكذا، وفيما وراء

(*) الأرثوذوكسية تعني هنا: المستقيمة، المبدئية، الصارمة (المترجم).

الأطلسي، بعثت قرطاج، بعد ألفي سنة، من الرماد. والعالم العربي بمعنى محدد يرث الراية القرطاجية من الناحيتين العرقية والمدوية. وربما لهذا السبب يدار حوار العرب مع الولايات المتحدة الأمريكية بمثل هذه الحدة اليوم. وينبغي التوكيد في الوقت نفسه على أن المكونة «الفينيقية» للجيوبولتيكا العربية ليست إلا واحدة فقط من اثنتين. ومن الطبيعي أن الوراثة في هذه الحالة نسبية إلى حد كبير، ويَحْسُن النظر إلى طابعها من وجهة النظر الديالكتيكية إلى حد كبير.

3 - جيوبولتيكا الخلافة

للعالم العربي المعاصر المتطابق إلى حد كبير مع مناطق انتشار الفينيقيين القدماء منبع جيوبولتيكي آخر إلى حد بعيد. فقطب العالم العربي المعاصر هم أحفاد من خرجوا من شبه الجزيرة العربية يحدوهم انتشار الدين الإسلامي. وفي القرن السابع جزّىء العالم السامي ودخلت أجزاء منه في تكونات دولية مختلفة - وبشكل خاص في الأمبراطورية البيزنطية وما إليها. وظهور الدين الإسلامي في الجزء الغربي من شبه الجزيرة العربية صار أساساً لتحول جذري في المدى المكاني العالمي كله. ومما له أهميته بالنسبة للتحليل الجيوبولتيكي أن الإسلام ظهر بين القبائل العربية المترحلة، بين سكان الصحراء الداخلية والتي يمثل تضريسها الجغرافي (بؤرة تطورها) العفوية المحضة لليابسة، المشهد القياسي للتيلوروكراتية. ويستخدم الانجليزي هيلفورد ماكيندر، أحد أوائل علماء الجيوبولتيكا، في لوحته للعالم مصطلحي «قراصنة البر» و«قراصنة البحر»، ويفهم من خلالهما الدفقات المنبعية الثاوية في أساس الأمبراطوريات العالمية الأوسع مدى للتوجهات الجيوبولتيكية المتناقضة. «قراصنة البحر» القراصنة، جوّابو البحار، التجار، المستعمرون وأحفادهم يقيمون الامبراطوريات البحرية، التالاسوكراتيات، أما «قراصنة البر»، الرحالة، المحاربون، المحتلون، - فيقيمون الأمبراطوريات البرية، التيلوروكراتيات. ولهذا المعنى كانت الخلافة التي أقامها محمد وتابعوه، في مولدها ومبناها ونمطها الجيوبولتيكي نتاج «قراصنة البر» بالذات (تماماً مثلما كانت امبراطورية جنكيز خان، التي أرست الأساس للأمبراطورية الروسية، وللتكامل السياسي للأوراسيا بصفة خاصة). والخلافة، لهذه الصورة، انبثقت في العالم السامي، من الأم، القطب الجيوبولتيكي لفينيقيا. وكانت نقيضة فينيقيا، نوعاً من

«روما العربية» (إذا فهمنا من «روما» لا المدنية والحضارة، بل المبدأ الجيوبولتيكي، الصورة القومية للتيلوروكراتيا. والخلافة الأولى هي مقياس العالم العربي المعاصر، منطلقه العرقي والجيوبولتيكي، مثله المتسامي على العالم وأنموذجه. وبنية الخلافة كانت تجمع في ذاتها الأعراف الدينية، الحقوقية، والإتنية، الطقوسية، العقائدية، الأخلاقية وما إليها. وهي في الواقع الأم الجيوبولتيكية للعالم العربي، وهي العالم العربي بمعنى من المعاني. والمصير التالي للشعوب العربية، فتوحات أفريقيا، الشام، فلسطين، البيرينيه، الأناضول، فارس وهكذا حتى آسيا الوسطى، القوقاز والسند وما إلى ذلك - كانت في جوهرها انتشاراً للخلافة مع التكامل في تكوينها للعناصر والممالك الوطنية التي اعتنقت المعايير الأساسية للأسلوب الحضاري العربي - الإسلامي الديني - الثقافي. ومنذ البداية كان العالم الإسلامي بكامله شيئاً ما يشابه الخلافة الموحدة وقد تم توسيعها حتى الأحجام العالمية.

وهذه نقطة مهمة جداً: **فالخلافة هي الأم الجيوبولتيكية للعالم العربي**. وبالذات لأن الإسلام لا يمثل الديانة فقط في مفهومها الغربي المعاصر، بل وأيضاً التعاليم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والإتنية والثقافية، فإن انبعاثه يطرح القضايا الجيوبولتيكية بحدة وقسوة (وبما يشبه الإنذار). والموتيڤات الجيوبولتيكية والدّولتية - السياسية مركوزة في حبة قلب التقليد الإسلامي العائدة عرقياً وحضارياً إلى النظام الانطلاقي للخلافة العربية.

جيوبولتيكا الخلافة عملية حتى يومنا هذه. فصيغة الهوية هذه هي الأكثر وضوحاً ومأموليةً بين جميع الصيغ الأخرى بالنسبة للعالم العربي الذي يفهم كوحدة متكاملة، وهي تتطابق مع الأسس الأصولية والتاريخية والحضارية.

4 - جيوبولتيكا الإسلام

في القرن التاسع انفرطت الخلافة الواحدة، من الناحية الواقعية، إلى عدة دول إقطاعية مستقلة. فمنذ منتصف القرن العاشر وجدت خلافة الفاطميين (909 - 1171) والأمويين في اسبانيا (929 - 1031) والعبّاسيين. وفي هذه العملية من تفسخ الخلافة أخذت تظهر بوضوح أكثر الخصائص المحلية للآماد المحددة، التي توحدت منذ البداية «بنبض الصحراء» وجدّة الإسلام الوليد.

وكان أحد أهم خطوط الانشقاق الخط الذي ترسخ في المراحل المبكرة إلى سنّة (الغالبية العظمى من المسلمين) وشيعة. ومنذ البداية صارت الأقلية الشيعية قطب «جهويّة» الإسلام، اللاعالمية الملطفّة والمرهفة لرسالته الدينية والجيوبولتيكية. ولما كان الشيعة في معظم الحالات المنشقين الأقلية فقد صاغوا لأنفسهم أنموذج الإسلام الجيوبولتيكي البديل بتفسيره لمعنى ومضمون الأمة وبنيتها السياسية - الحقوقية وفقاً لمفهومهم الخاص. وقد حملت الشيعية في داخلها الانفتاح على العنصر الغيبي - التأملي والانجذاب إلى سحر الإماميّة التي اختُصت بامتيازات روحية وسياسية خاصة وصارت تجادل في المشروعية السياسية - الدينية للتطور الخطّي للخلافة. وفي جوهر الحال كان ذاك هو قطب البديل الحضاري في الإسلام.

في الخلافة الفاطمية ثمَّ في إيران الشيعية بعد زمن طويل اكتسب هذا المشروع الجيوبولتيكي الشيعي تعبيره الذي يناقض إسلام الغالبية بدرجة كافية من الشدة. وسياق الصيغة الشيعية التيولوجية من الإسلام يدعو إلى أخذ الخصائص الثقافية المحلية في الحسبان وهو ما ييسر لدخول العناصر الجيوبولتيكية المحلية في السياق الإسلامي.

وعلى أية حال فإن انفراط وحدة الخلافة إلى مكوناتها المتفرقة قد جرف الهوية الانطلاقية للعالم العربي وفتح الباب لدخول العناصر المحلية في السياق العالمي العام، وهو ما ولّد باتحاده مع التعريب الاثني والديني اللوحة الموزاييكية للوحدة نصف المتكاملة، التي استطاعت المكونات المنفصلة فيها أن تجنح بعيداً إلى حد ما عن الأم العربية - الخلافية العامة، منجذبة إلى طاقات جيوبولتيكية أخرى.

والتاريخ الجيوبولتيكي الواقعي للدول والشعوب الإسلامية يقدم لوحة غنية لهذه العملية من التبادل الديناميكي فيما بين العناصر الثقافية والسياسية والدينية، وهو ما كان يشكل اللوحة المتنوعة والشديدة التباين للعالم الإسلامي الواقعي.

ومما يكتسب أهميته بالنسبة لنا أن العالم الإسلامي الذي هو نتاج التوسع الكبير للأنموذج الاتنو - ثقافي الديني - السياسي الوحيد الصورة والموحد منذ البداية والمقترن بالمشروع السياسي والوحيد للجميع (الخلافة العربية) تحول

بالتدريج إلى موزاييك جيوبولتيكي يتكون منه أقسام مختلفة النوع إلى حد ما تولّى القسم الأكبر منها بعيداً عن الأم الأولى. لقد تطابقت جيوبولتيكا العالم الإسلامي تاريخيا واتنو ـ سياسياً مع جيوبولتيكا العالم العربي إلى لحظة معينة صرنا نتعامل بعدها مع نظام جيوبولتيكي أشد تعقيداً وتنوعاً ينبغي فيه مراعاة التأثيرات العديدة الوجوه للعوامل الاتنية والثقافية في اقترانها مع إسقاطات «المدى النوعي».

5 - الامبراطورية العثمانية

بعد احتلال مصر سنة 1517 من قبل الأتراك منح خلفاء القاهرة العباسيون تقليداً للمنتصرين وصارت الأمبراطورية العثمانية البناء الجيوبولتيكي الجديد للعالم الإسلامي وتعبيره السياسي. وبمعنى من المعاني أخذ العثمانيون على عاتقهم رسالة بعث الخلافة، أما في واقع الحال فقد بنيت الدولة العثمانية بطريقة مختلفة كل الاختلاف ونهجت خطاً جيوبولتيكياً مغايراً.

وينبغي القول على الفور إن الترك جاؤوا من السهوب الأوراسية وكانوا في التصنيف الجيوبولتيكي الممثلين الأنموذجيين لـ «قراصنة البر». فالامبراطورية العثمانية في منابعها هي التيلوروكراتية الأنموذجية القائمة على إيقاع البداة - المنتصرين المندفعين. ولكنها كانت، بخلاف الخلافة العربية الأولى، تفتقر بصفة كلية إلى المكوّن الديني - الثقافي العالمي. فما كانت الامبراطورية التركية تصرّ إلا على الوحدة الإدارية للحكم - وفقاً لروح المغول بصفة مطلقة (أو بصفة أدنى، الروس)، أما بالنسبة لما تبقى فاعتمدت على الإسلام الرسمي، وكانت إلى حد كليّ تنظر بتسامح إلى الخصائص الدينية للشعوب والثقافات التي وقعت تحت سيطرتها. و«الخلافة» التركية التي كانت تتطلع إلى الوراثة الشكلية للعباسيين ما كانت امبراطورية توحيدية بل تعدّدية، غير متجانسة ثقافياً، إتنياً واجتماعياً، وليس من قبيل الصدف أن تزدهر في الامبراطورية العثمانية الطرق الصوفية المختلفة التي تشرّبت الثقافات والتقاليد الوطنية المحلية التي أدخلت شكلياً في الإسلام وتم تطويرها بحريّة.

ولم يكن العرب في الامبراطورية العثمانية إلاّ واحداً من المكونات الاتنية إلى جانب غيرهم من المكونات الكثيرة. وليس مصادفةً أن ينظر إلى الحركة الوطنية العربية في القرنين التاسع عشر - العشرين على أنها حركة تحرر وطنية عن

سلطة الأتراك - تقريباً مثلما كانت وسط الشعوب اليوغوسلافية في اليونان والبلقان اللتين وقعتا في وضع مشابه (بفارق وحيد وهو أن المحتلين كانوا يفرضون على المهزومين ديانةً أخرى).

وهكذا فمنذ القرن السادس عشر راح العالم العربي، كشظية من الخلافة الأولى، يتوجه تدريجياً بعد أن جزيء وأخضع إلى صياغة برنامج جيوبولتيكي جديد. وفي القرن التاسع عشر صارت هذه التوجهات تتجسد في نظرية القومية العربية.

6 - ظهور الدول العربية المعاصرة والمشروع العروبي

لم يكن سقوط الامبراطورية العثمانيّة محفزاً فقط بالعمليات الداخلية وبالنضال الوطني - التحرري للشعوب الداخلة فيها بل وبالقوى الخارجية، وبالدرجة الأولى بريطانيا العظمى التي كانت تحلم باستعمار المساحات الواسعة من البحر المتوسط والضرورية بالنسبة لها بهدف السيطرة الجيوبولتيكية على أوروبا.

وقد استخدمت سياسة انجلترا الاستعمارية المد التحرري الوطني لصالحها وساعدت على ظهور الدول العربية المستقلة.

وبعد سقوط الامبراطورية العثمانية أقيمت كافة الدول العربية الجديدة (باستثناء، العربية السعودية) على أساس علماني كشبيه مباشر بالدول الكبرى الأوروبية الغربية الملحدة. والحدود بين الدول العربية المعاصرة تعسّفية بصفة مطلقة. وأسست على ما اصطلح على تسميته بالمشروعية ما بعد الامبراطورية. وهذه الحدود لا تحمل في ثناياها أي مضمون نوعي أو تاريخي: فالشعب الواحد، بنفس الثقافة الواحدة، يعيش كقاعدة عامة على جانبي الحدود. والتاريخ الدولتي لكل واحدة من هذه الدول قصير، لا يملك إلا أهمية بسيطة. والنزاعات بين الدول أقرب إلى المشاجرات منها إلى الحوار بين الثقافات أو الأفكار السياسية أو الحضارات.

إن وعي الطبيعة المصطنعة للدول العربية، وازدياد الاهتمام بالدين الإسلامي، والدخول في العمليات السياسية من طرف الأوساط الاجتماعية التي تواصل حياتها بعفوية ضمن شروط المجتمع التقليدي أدى في مجموعه إلى التخمر

التدريجي للمشروع العروبي كإرادة نحو توحيد العرب في تركيب سياسي واحد.

وللمشروع العروبي صيغتان مبدئيتان: الاشتراكية - الوطنية (وفق أسلوب حزب البعث)، العلمانية المؤسسة على القومية، والدينية (الأصولية) القائمة على فكرة العودة إلى التكاملية التقليدية (وهي موجهة أكثر نحو العربية السعودية، الوهابية وأشباهها). ويتطابق المشروعان في طابع الارادة الجيوبولتيكية: توحيد الدول العربية في مدى سياسي استراتيجي موحد. إلا أن أيديولوجية هذا الاتحاد تتباين بشكل ملموس. فمهما يكن من أمر فإن جيوبولتيكا تكامل العالم العربي تمثل أنموذجاً جذاباً لبناء المستقبل. والاستمالة نحو صيغة هذا المشروع من التركيب الجيوبولتيكي أمر على غاية من الأهمية والملاءمة من حيث التوقيت.

ومن جهة أخرى فإن تراكماً للعطالة التاريخية يحدث بالتدريج ضمن هذه التشكيلات المصطنعة كالدول العربية، فيتكون تاريخياً ما يشبه ضرباً من الهوية الوطنية وهو ما يصوغ من الناحية العملية الأقطاب - موزاييك الجيوبولتيكا المحلية.

7 - حرب الخليج: تحليل جيوبولتيكي

قدم الجنرال النمساوي يورديس فون لوهاوزن، كلاسيكيّ الجيوبولتيكا المعاصرة، مثالاً للتحليل الجيوبولتيكي لحرب الخليج سنة 1991. وهذا التحليل يظهر تطبيق المنهج الجيوبولتيكي على مواقف محدّدة. فعراق صدام حسين يمثل دولة برية تتطلع إلى الاكتفاء الذاتي، ثرية جداً بالنفط وتتطلع إلى تصديره. والعراق Heartland جهوي. ومن خلال إدراك الانجليز لذلك يقيمون في منطقة الشاطىء دولة الكويت الدمية التي توصد الباب أمام العراق وتُحْكم بصفة مباشرة من قبل انجلترا (فالولايات المتحدة فيما بعد). وعندما يسير العراق في خط السياسة الأطلسية (الغربية) لا يكون للرتاج في صيغة الكويت إلا قيمة محدودة. ولكن عندما يحاول العراق أن يخرج إلى السياسة المستقلة تكتسب مسألة السيطرة على الكويت معنى حيويّ الأهمية. والكويت مأهولة بنفس العرب الموجودين في العراق، أما من الناحية الجيوبولتيكية فهذه البقعة أكثر خضوعاً للسيطرة الأطلسية المباشرة. صدام حسين يدخل الكويت لتكون له حرية الوصول إلى الموانىء. وردّاً على ذلك تدخل الجيوش الأمريكية

والأوروبية (مع إغضاء الاتحاد السوفياتي المهدود جيوبولتيكياً) الكويت ثم الجزء الجنوبي من العراق وتقذف بحسين إلى أعماق البلاد. ويدعم الرتاج الكويتي ويقفل العراق القاري، وبعد 11 سنة من الحصار يغدو احتلاله من طرف القوات الأطلسية مهمة تقنية لا أكثر.

وكل الاستنتاجات والاقتراحات الشكلية للحرب لا تعني أي شيء. المضمون الصادق الوحيد هو - خرق التوازن الجيوبولتيكي، الحفاظ عليه أم تغييره.

8 - النزاع العربي - الاسرائيلي

جيوبولتيكا النزاع العربي - الاسرائيلي قضية كبيرة منفصلة. وهي في أشد صورها عمومية توصف هكذا. ثم التفكير بإسرائيل كتكوين معاد لبريطانيا بالاعتماد على اليهود المنحدرين من روسيا. ثم صارت هذه الدولة الوطنية - الاشتراكية العنصرية منطقة اهتمام كل من انجلترا وروسيا (السوفياتية الاشتراكية). ومنذ نهاية الاربعينيات قام الاتحاد السوفياتي باختياره لصالح دعم الجانب العربي وصارت إسرائيل تماهى جيوبولتيكيا مع الغرب. وإلى لحظة معينة - بداية الستينيات - كانت تل أبيب تحاول التوجه بصفة أكبر نحو أوروبا على مثال سياسة فرنسا، وفقط في سنة 1967 تعزّز التأثير الأمريكي فيها بصفة نهائية. صار الاتحاد السوفياتي الأوراسي يدعم جانب الفلسطينيين والعرب على العموم، والولايات المتحدة الامريكية تدعم بصورة مستمرة، إسرائيل كقلعة جهوية للأطلسية.

وحتى لحظة انهيار الاتحاد السوفياتي وسقوط العالم الثنائي القطب كانت أطروحة الانتفاضة تحمل طابعاً أوراسياً صارماً، وكان دعم فلسطين معيار الجيوبولتيكا الأوراسية. ولكن بعد انهيار الاتحاد السوفياتي وانتقال الجيوبولتيكا الروسية من حالة الفعل إلى الاحتمال تبدلت اللوحة كلها. فدعم موسكو لمنظمة التحرير الفلسطينية وعرفات والذي كان مدفوعاً بقوة الاستمرار ثم أخذ يميل بصفة ملموسة نحو الضعف صار يعني أقل بكثير مما كان يعنيه في السابق. كما إن مغزى الدعم الذي تتلقاه إسرائيل من الولايات المتحدة الأمريكية قد ضاع أيضاً إلى بعض الحدود، واتخذ الصراع طابعاً جهوياً تلعب الولايات المتحدة خلاله لا على جانب واحد بل على الجانبين بينما لا يبقى لروسيا التي ضيعت ذاتيتها

الجيوبولتيكية إلا أن تحاكي الولايات المتحدة الأمريكية من الجانبين. (وإلى جانب هذا فقد أخذ ثقل أفعالها يتضاءل بشكل حاد).

وبالإضافة إلى ذلك يغدو أكثر ازدواجية للمعنى التوجّه إلى إقامة الدولة الفلسطينية نفسه. فهو يفقد معناه سواء في المشروع العروبي، مثلما يفقده ضمن مشروع انبعاث الخلافة الإسلامية. وفضلاً عن ذلك ففي عصر تكامل الدول القومية ضمن «آماد كبرى» لا تبشّر إمكانية الدولة الفلسطينية حتى بالوصول إلى مظهرية السيادة. وعلى هذا يغدو الصراع الفلسطيني - اليهودي لا جيوبولتيكياً بقدر ما هو حضاري ويحفّز إلى التحول نحو مسائل دينية - فلسفية أصولية لا توجد لها إجابة مرضية معروفة مسبقاً.

وبالإضافة إلى ذلك فإن النظر إلى الجيوبولتيكا الجهوية لهذه المشكلة البالغة التعقيد يمكن أن يقدم جملة من النتائج المفيدة.

9 - المشروع الأوراسي بالنسبة للعالم العربي.

أتقدم في الختام ببضع كلمات حول الرؤية الأوراسية لمستقبل العالم العربي. ينطلق المشروع الأوراسي من أن الإنسانية في القرن الحادي والعشرين يجب أن تعيش ضمن شروط التعددية القطبية لا وحدة القطب. فالعولمة الوحيدة القطب تحمل في ثناياها خطراً مميتاً على الإنسانية ويجب أن يعلن خيار واقعها في وجهها. ومثل هذا الخيار لا يمكن أن يكون مشروع الحفاظ على الدول القومية السابقة - مثل فرنسا، مصر - لبنان، روسيا، إيران وسواها. ويستحيل على كل دولة من الدول القائمة حالياً (بإستثناء الولايات المتحدة الأمريكية) أن تصل إلى حدود «القطب» بمفردها. وفقط عن طريق التكامل مع مجموع نجوم «الآماد الكبرى» يمكن إقامة التعددية القطبية الحقيقية.

والمشروع الأوراسي للعالم المتعدد الأقطاب يرى 4 أحزمة كونية موزعة على خطوط الطول: الأمريكي، الأورو أفريقي، الأوراسي، الباسيفيكي. وكل حزام يتكون من عدة «آماد كبرى». والعالم العربي يمثل في هذه اللوحة واحداً من ثلاثة «آماد كبرى» للحزام الأورو أفريقي. وعلى شماله يمتد «المدى الكبير» الموحد للاتحاد الأوروبي وإلى جنوبه «المدى الكبير» لأفريقيا السوداء. و«المدى الكبير» للعالم العروبي يمثل المعسكر الذاتي المكتفي بنفسه والموحد حضارياً وثقافياً ودينياً

واقتصادياً واستراتيجياً. وهو يتلقى الدعم التقنو - اقتصادي من الشمال ويدعمّ هذا النبض المتنامي بإتجاه الجنوب الأفريقي عبر الصحراء.

وينبغي الأخذ بعين الاعتبار إزاء ذلك أن المشروع الأوراسي يرى الإسلام القاري (غير العربي) «مدى كبيراً مستقلاً بذاته»، يرتبط تقنياً وفق خطوط الطول بروسيا - الأوراسيا، وهو ما لا يعني بصورة طبيعية احتكاكات مع «المدى الكبير» العربي، وهذه المشاريع الأحزمة و«الآماد الكبرى» تنتمي على فكرة ، إلى جيوبولتيكا المستقبل، ودراستها التفصيلية أمرٌ تنهض به المدارس الجيوبولتيكية الجديدة.

أما كيف تكون صورة المضمون الايديولوجي للمشروع العروبي فأمر يحلّه العرب أنفسهم. والشيء الوحيد الذي يلزم التحذير منه هو أن الافتراض الشديد الشكلية للبواعث الكونية التي تكاد تكون شمولية بالدرجة نفسها لمثل هذا التكامل الذي كثيراً ما نصطدم به في مشاريع الاصوليين والسلفيين والوهابيين الذين يبسطون أنموذج الخلافة ليس فقط على العالم الإسلامي كله (بما في ذلك غير العربي منه) بل وعلى الإنسانية كلها، لا يساعد بصورة واضحة على تحقيق آمال الوحدة العربية في التطبيق. وفضلاً عن ذلك فإن شعارات الأصوليين المبالغة في عدوانيتها ضمن أسلوب Islamic World State يمكن بكل سهولة أن تحول أصدقاء العالم العربي وحلفاءه (والذين ينتسب المؤلف إليهم دون تحفّظ) إلى أمر مختلف تماماً يصل حتى درجة المعادين.

والأمر الأخير: إن أواصر تاريخية كثيرة العدد تجمع بين الروس والعرب. ولكن بالإضافة إلى الماضي هناك المستقبل أمامنا: فأمامنا بناء العالم العادل المتعدد الأقطاب، الذي يحترم تنوع الثقافات والأديان والحضارات. وهذا يعني أن أمامنا أيضاً عدوّاً واحداً هو العولمة، الغرس الكوني للأطلسية. ومن المعروف أن لا شيء يوحّد كالعدو المشترك. ولهذا أتطلع إلى ترجمة كتابي إلى اللغة العربية العريقة على أنها لبنة جديدة في مبنى النضال العظيم لليابسة ضد البحر. وأنا على قناعة من أننا، بالاعتماد على الجيوبولتيكا - سنبني حقاً العالم الجديد الأفضل - العالم العادل، المتحرر من الاستغلال والعنف والنفاق.

أ.غ. دوغين

موسكو 09 . 10 . 03

مدخل

تعريف الجيوبولتيكا

أعمال الممثلين الوفيري العدد لمدارس الجيوبولتيكا، يمكنها، بغض النظر عن اختلافات هؤلاء، بل وتناقضاتهم في كثير من الأحيان، أن توضع ضمن لوحة عامة، تسمح لنا بالحديث عن الموضوع نفسه، على أنه منته ومحدّد. وتتفاوت هذه المجموعات أو تلك من المؤلفين والمعاجم فيما بينها في تحديدها للمادة الأساسية التي يدرسها هذا العلم، وفي مبادئه المنهجية الأساسية، وينطلق هذا التفاوت من الظروف التاريخية مثلما ينطلق من العلاقة الشديدة الاتثاق التي تربط الجيوبولتيكا بالسياسة العالمية، وبقضايا السلطة والأيديولوجيات السائدة. والطابع التركيبي لهذه المنظومة يفترض تضمينها عدداً كبيراً من المواد الأخرى. الجغرافية، التاريخ، علم السكان، الاستراتيجية، الإتنوغرافيا، دراسة الأديان، علم البيئة، الفنون العسكرية، تاريخ الأيديولوجيا، علم الاجتماع وعلم السياسة وما إلى ذلك. وبما أن لمجموع هذه العلوم العسكرية والطبيعية والإنسانية أعداداً كبيرة من المدارس والاتجاهات في حدود ذاتها، لا يعود ثمة مجال للحديث عن ضرب من الصرامة أو أحادية المعنى في الجيوبولتيكا. ولكن ما هو التعريف الذي نعطيه لهذا العلم الغامض والبالغ التعبير والإثارة في الوقت نفسه.

الجيوبولتيكا ـ رؤية للعالم، ومن هذه الزاوية يفضل مقارنتها لا مع العلوم بل مع منظومات العلوم. وهي تقع على مستوى واحد مع كل من الماركسية والليبرالية وما إلى ذلك أي مع تلك النظم التي تفسّر المجتمع والتاريخ، وذلك عن طريق

طرح المعيار الأهم مبدأً أساسياً ثم تربط به كافة الآفاق الأخرى والمتعلقة بالإنسان والتي يصعب حصرها عدداً.

فعلى مستوى واحد تطرح كل من الماركسية[1] والليبرالية في الأساس الجانب الاقتصادي للوجود الإنساني، مبدأ الاقتصاد مصيراً. ومن غير المهم كون هاتين الأيدولوجيتين تنتهيان إلى نتيجتين متناقضتين ـ فيصل ماركس إلى حتمية الثورة المعادية للرأسمالية، بينما يرى أتباع آدم سميث الرأسمالية الأنموذج الأعلى للمجتمع. وفي الحالتين الأولى والثانية يطرح المنهج الموسَّع لتفسير العملية التاريخية، صورة خاصة من السوسيولوجيا، الأنتروبولوجيا والبوليتولوجيا. وعلى الرغم من النقد الدائم لهاتين الصيغتين من «التبسيطية الاقتصادية» من طرف الأوساط العلمية البديلة (التخميّة) فإنهما تبقيان الأنموذجين الاجتماعيين المهيمنين واللذين لا يقوم الناس فقط بتفسير التاريخ على أساسهما بل ويبنون المستقبل، أي يضعون الخطط والتصاميم، يتدبرون ويحققون المنجزات الكبرى التي تمس الإنسانية بأسرها.

على هذه الصورة بالذات تبدو الأمور بالنسبة للجيوبولتيكا، ولكنها، خلافاً للأيديولوجيات الاقتصادية، تقوم على مقولة «التضريس الجغرافي مصيراً» فالجغرافية والمدى المكاني يلعبان في الجيوبولتيكا الدور الذي يلعبه المال والعلاقات الإنتاجية في الماركسية والليبرالية وإليهما تنتهي جميع الآفاق المؤسسة للوجود الإنساني، وهما المنهج المؤسس لتفسير الماضي ويمثلان العاملين الرئيسين للواقع البشري. ينظمان حولهما كافة الجوانب الأخرى للوجود، وعلى نحو ما هو الأمر في الأيديولوجيات الاقتصادية تقوم الجيوبولتيكا على أساس التقريب، التبسيط، اختصار المظاهر الكثيرة التنوع للحياة إلى عدة متغيّرات، ولكن، بغض النظر عن هذا الخطأ المقصود والمكنون في أمثال هذه النظريات فإن الجيوبولتيكا تفرض بطريقة مؤثرة ثبوتيتها في مسألة تفسير الماضي وفعاليتها اللامتناهية في تنظيم الحاضر وتصميم آفاق المستقبل.

وإذا ما واصلنا المقارنة مع الماركسية ومع الاقتصاد السياسي البورجوازي الكلاسيكي أمكننا القول بأنّه على مثال الأيديولوجيين الاقتصاديين الذين يطرحون مقولة «الإنسان الاقتصادي» (homo-economicus) الخاصة تتناول الجيوبولتيكا «الإنسان المدوي» الذي حدده المدى المكاني بصورة مسبقة، والذي نشأ وتكونت

اشتراطيته ضمن خصوصيته المميّزة ـ التضاريس الجغرافية ـ المكان. لكن هذه الاشتراطية تتمثل بصفة خاصة في التجليات الاجتماعية الكبرى للإنسان، في الدول، الاتنيات، الثقافات، الحضارات وما إلى ذلك. إن ارتباط كل فرد بالاقتصاد بيّن في النسب الصغرى، وفي الكبرى. ولهذا فإن الحتمية الاقتصادية مفهومة بالنسبة للناس الاعتياديين وبالنسبة للمرجعيات السلطوية التي تتعامل مع فئات اجتماعية كبرى. وربما لهذا السبب حققت الأيديولوجيات الاقتصادية مثل هذه الشعبية الواسعة وأدت مهمة تعبوية ـ حتى درجة إشعال الثورات القائمة على استقطاب أعداد كبيرة من البشر إلى الأيديولوجيا. وارتباط الإنسان بالمكان ـ هو الموضوعة الأولى للجيوبولوتيكا ـ لا يُرى إلا على بعد معين عن الإنسان الفرد. ولهذا السبب لم تتحول الجيوبولتيكا ـ على الرغم من مقدماتها الأولى ـ إلى أيديولوجيا بذاتها، أو بكلمة أدق إلى «أيديولوجيا جماهيرية». فتخريجاتها وأساليبها وموضوعات دراستها ومنطلقاتها الأساسية ليست مفهومة إلا من طرف تلك المرجعيات الاجتماعية، التي تعمل على القضايا ذات المدى المكاني الواسع ـ التخطيط الاستراتيجي، تدبر السنن الاجتماعية، والتاريخية على المستوى الكوني وما إلى ذلك. ولهذا فإن الجيوبولتيكا تُخصَّص للفئات الاجتماعية ذات العلاقة بالحقائق ذات الطابع التعميمي ـ البلدان والشعوب وما إلى ذلك.

الجيوبولتيكا ـ وجهة نظر السلطة، هي علم السلطة ومن أجل السلطة. وفقط بمقدار اقتراب الإنسان من القمة الاجتماعية تبدأ الجيوبولتيكا فتكشف له معناها وجدواها بينما هي لا تستخدم قبل ذلك إلا كعنصر مجرد. الجيوبولتيكا ـ هي علم الفئات السياسية العليا (الفاعلة منها والبديلة) ويكشف تاريخها بطوله عن أن من شغلوا بأمورها كانوا، وبدون استثناء، أولئك الذين شاركوا في حكم الدول والأمم أو ممن يعدّون أنفسهم لذلك الدور (عندما يتناول الحديث المعسكرات الأيديولوجية البديلة أو المعارضة والتي تمت تنحيتها عن السلطة بقوة شروط تاريخية).

ودون الطموح إلى الصرامة العلمية، فإن الجيوبولتيكا، على مستواها الخاص، تحدد بنفسها ما الذي يكتسب قيمة بالنسبة لها وما لا يكتسب. والعلوم الإنسانية ومواد العلوم الطبيعية لا تُجتذب إلا عندما لا تتناقض مع المبادىء الأساسية للمنهج الجيوبولتيكي. والجيوبولتيكا، بصورة من الصور، تقوم بنفسها

بانتقاء تلك العلوم وتلك التوجهات العلمية التي تبدو مفيدة لها وتعرض عن كل ما عدا ذلك دون اهتمام. وهي في العالم المعاصر تمثل «الدليل الملخص لرجل السلطة» إنها كتاب السلطة الذي يقدَّم فيه ملخص لما يجب وضعه في الاعتبار عند اتخاذ القرارات الكبرى (المصيرية) ـ مثل عقد التحالفات، شن الحرب، القيام بالإصلاحات، البيريسترويكا البنّاءة للمجتمع، تطبيق الإجراءات الاقتصادية والسياسية على مستوى واسع، وما إلى ذلك.

الجيوبولتيكا ـ علم الحكْم.

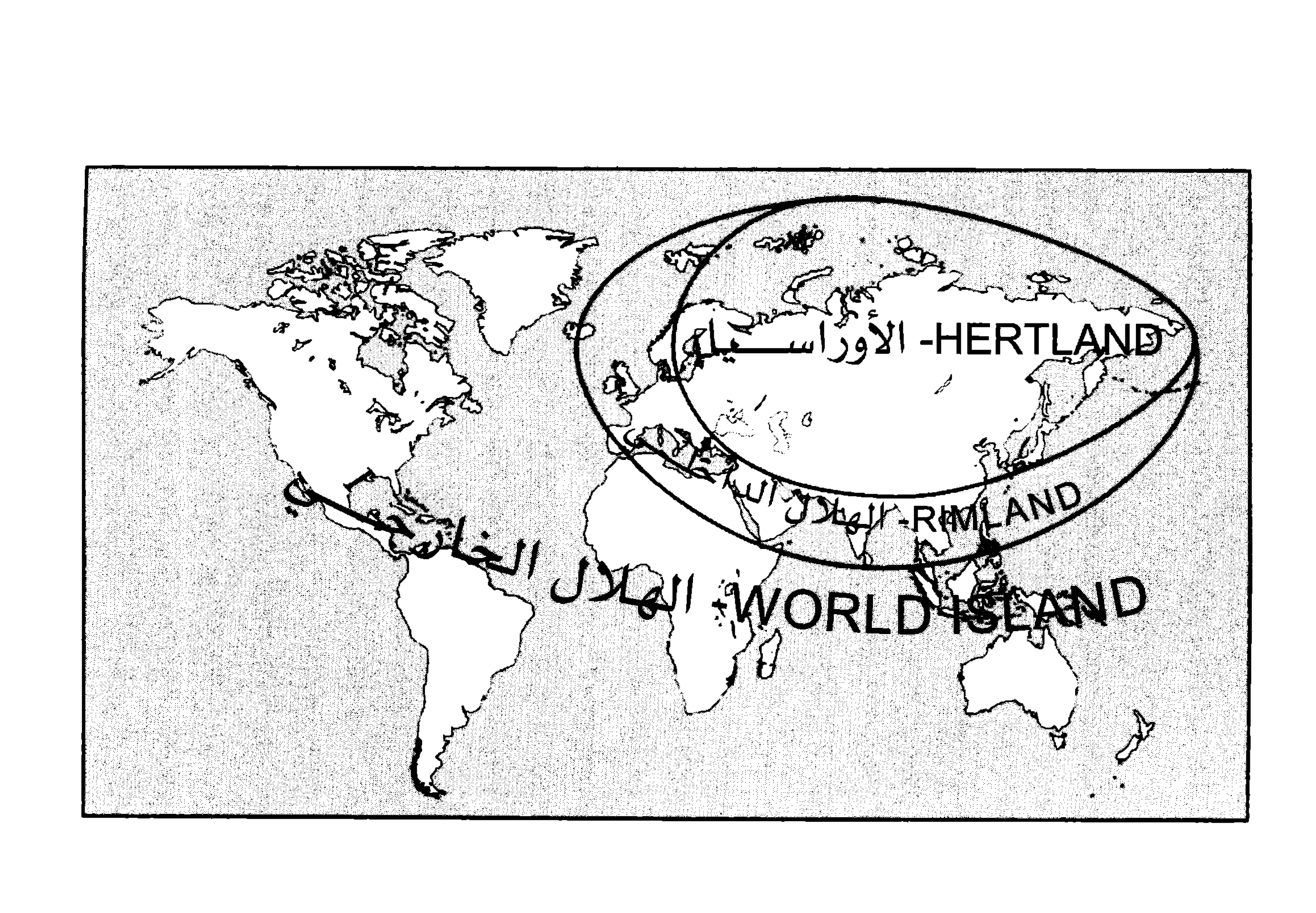
التيلّوروكراتيا والتالاسّوكراتيا

القانون الأساسي للجيوبولتيكا هو إقرار الثنائية المنعكسة في التكوين الجغرافي للكوكب الأرضي وفي النمطية التاريخية للحضارات. وهذه الثنائية تعبر عن نفسها في مواجهة «التيلوروزكراتيا» (القوة البرية) و«التالاسوكراتيا» (القوة البحرية)، وطابع هذه المواجهة يفضي إلى المواجهة بين الحضارة التجارية (قرطاج، أثينا) والحضارة ذات الهيبة العسكرية (روما، سبارطة) إنها، بكلمة أخرى ثنائية «الديمقراطية» و«الأيديوقراطية».

وهذه الثنائية تتخذ منذ البداية صفة العداء، التبادل بين قطبيها المكونين لها على الرغم من أن المستوى يمكن أن يتغير من حال إلى حال. وعلى هذا يمكن لتاريخ المجتمعات البشرية أن يدرس على أنه مكوّن من عفويتين: المائية (السائلة»، «الجارية») والأرضية («الصلبة» «الثابتة»).

ترتبط «التيلوروكراتيا»، «القوة البرية» بثبوتية المكان ورسوخ توجهاته وخصائصه النوعية. أما على المستوى الحضاري فيتجسد ذلك في الاستقرار، في الروح المحافظة في المعايير الحقوقية الصارمة، التجمعات البشرية الكبرى ـ الأسر، القبائل، الشعوب، الدول، الأمبراطوريات. فرسوخ اليابسة يتجسد ثقافياً في رسوخ الأخلاق وثبوتية التقاليد الاجتماعية. والفردية وروح المبادرة غريبتان على الشعوب البرية (والمستقرة منها بصفة خاصة). ومن خصائص هذه الشعوب ـ الروح الجماعية وتراتبية المقامات.

أما «التالاسوكراتيا» القوة البحرية، فتمثل نمطاً لحضارة تقوم على أسس مغايرة. فهو نمط ديناميكي، نشيط الحركة، ميال إلى التطور التقني. ومن أولويّاته


الأوراسيا -HERTLAND
الهلال -RIMLAND
الهلال الخارجي -WORLD ISLAND

ـ التنقل (وبخاصة البحري التجاري)، روح المبادرة الفردية. والفرد فيها كالجزء الأكثر حركية في المجموع، يرفع إلى أسمى قيمة، بينما تجرّف المعايير الخلقية والحقوقية لتصبح نسبية متنقلة، ومثل هذا النمط الحضاري يتطور بحيوية، وبسهولة يبدّل مظاهره الثقافية الخارجية فلا تبقى ثابتاً إلا التشابه الضمني مع التركيبة العامة.

القسم الأكبر من التاريخ الإنساني يجري ضمن بعد محدَّد للتوجهين مع الهيمنة الكونية «للتيلوروكراتيا» فعنصر الأرض (اليابسة) يضغط على منظومة الحضارات في مجموعها، أما عنصر (الماء) (البحر، المحيط) فلا يبرز إلا بصفة جزئية عرضية. والثنائية حتى لحظة محدّدة تبقى، من الناحية الجغرافية، محدَّدة، في المكان ـ سواحل البحار، مصبات وسُرُر الأنهار وما إلى ذلك. وتتطور المواجهة في مختلف مناطق الكرة الأرضية بمستويات متفاوتة من النشاط وفي صيغ مختلفة.

والتاريخ السياسي لشعوب الأرض يستعرض نمواً تدريجياً للصيغ السياسية التي تتعاظم مقاييسها أكثر فأكثر. وهكذا تظهر الدول والأمبراطوريات. وهذه العملية تعني، على المستوى الجيوبولتيكي، ازدياد عامل المدى المكاني في التاريخ الإنساني فطابع التشكلات السياسية الكبرى ـ الدول والأمبراطوريات ـ يعبر عن ثنائية العفويتين بصورة أكثر إثارة للانطباع، عندما يخرج شيئاً فشيئاً حتى مستوى الأنماط الشمولية الحضارية.

في لحظة معينة (العالم القديم) تتشكل لوحة أكثر ثبوتية لقيت انعكاسها في «خارطة ماكيندر». فنطاق التيلوروكراتيا يتماهى بإصرار مع الآماد القارية الداخلية للأوراسية الشمالية الشرقية (والتي تتطابق في خطوطها مع أراضي روسيا القيصرية أو الأتحاد السوفياتي. والتالاسوكراتيا تعرّف بشكل أكثر وضوحاً بأنها المناطق الساحلية لليابسة الأوراسية ومجال البحر الأبيض المتوسط فالمحيط الأطلسي والبحار التي تغسل شطآن الأوراسيا من الجنوب والغرب.

وهكذا تكتسب خارطة العالم هذه الخاصية الجيوبولتيكية:

1 ـ فالآماد ضمن القارية تصبح «قاعدة ثابتة» L'heartland، (أرضاً قلبية) للمحور الجغرافي للتاريخ، الذي يحتفظ بثبوتية الخاصية التيلوروكراتية الحضارية.

2 ـ «الهلال الداخلي أو القاري»، «منطقة الحافة» الـRimland، وتمثل مجال

التطور الثقافي المتسارع، تظهر هنا ملامح «التالاسوكراتيا» على الرغم من أنها تتساوى مع الكثير من التوجهات «التيلوروكراتية».

3 ـ «الهلال الخارجي أو الجزيري»، ويمثل «المجاهل الأرضية» التي لا تفلح معها إلا المواصلات البحرية. ولأول مرة عرّف بنفسه في قرطاج وفي الحضارة التجارية الفينيقية التي كانت تترك آثارها على «الهلال الداخلي» لأوروبا من الخارج.

هذه اللوحة الجيوبولتيكية للتناسب بين التالاسوكراتيا والتيلوروكراتيا تبرز بكامل قوتها عند بدايات العصر الميلادي، بعد مرحلة الحروب البونية(*). لكنها تكتسب معناها بصفة نهائية في مرحلة تحول بريطانيا إلى دولة بحرية كبرى في القرنين السابع عشر والتاسع عشر، وقد أدى عصر الكشوف الجغرافية الكبرى، الذي بدأ منذ نهاية القرن الخامس عشر إلى تحول التالاسوكراتيا النهائي إلى تشكل عالمي مستقل، مقطوع عن الأوراسيا وسواحلها) ومتركز بصفة كلية في العالم الأنجلوساكسوني (انجلترا، أمريكا) والمستعمرات. وهكذا تشكلت «قرطاج»

(*) الحروب البونية (264 ـ 146ق.م) تأسست قرطاج قبل روما بقرون، وكانت قد بسطت حضارتها على غربي المتوسط عندما اشتبكت الحرب بغية الاستئثار بهذه المنطقة؟ ويلخّص المؤرخون مجرياتها في حروب ثلاث: الأولى (264 ـ 241) وبدأت بمعارك بحرية، ولما أنزل الرومان جنودهم على الشاطىء الأفريقي اضطر القرطاجيون لتسليمهم صقلية (دون سراقوزة) والجزر الواقعة بين إيطاليا وصقلية. وبعد ذلك، وبسبب ثورة المرتزقة في قرطاج اضطر أهلها أيضاً لتسليم سردينيا وكورسيكا. الثانية (218 ـ 202 ق.م) وخلالها خرج القرطاجيون للثأر فاقتطعوا مساحة كبيرة من إسبانيا، جعلوها محطة للوثوب على روما. واجتاز هانيبال جبال الألب بجيشه مستعيناً بالأفيال، ودخل سهل البو ودمرّ الجيش الروماني واستعاد صقلية وسردينيا. لكن الرومان احتلوا سراقوزة وتارنيت وقرطاج الجديدة في إسبانيا وحالوا دون اتحاد جيش هانيبال بجيش أخيه أسدربعل الذي جاء لنجدته، وأخرجوا القرطاجيين من إسبانيا. فكان على هانيبال أن يغادر إيطاليا (202ق.م) وفي زاما حقق الرومان أهم انتصاراتهم، ونص الصلح الذي عقد سنة 201ق.م على حصر ممتلكات قرطاج في أفريقيا ومنعها من أن تعلن حرباً دون موافقة روما بالإضافة إلى دفع غرامة باهظة جداً. وظلت روما حريصة على تدمير قرطاج فكانت الحرب الثالثة (149 ـ 146ق.م)، وخلال سنوات الحصار والاحتلال أبدى القرطاجيون بطولات تتجاوز الأساطير، فلما تسنى للرومان قهر المدينة لم يكتفوا بتدميرها وإحراقها بل غمروها بالأتربة والملح. (المترجم).

الرأسمالية والصناعة الأنجلو ساكسونيتين «الجديدة» في صيغة وحيدة ومتكاملة. واكتسبت الثنائية الجيوبولتيكية منذ ذلك الحين صيغاً أيديولوجية وسياسية يمكن التمييز بينها بوضوح.

كانت حرب الخنادق التي خاضتها انجلترا ضد الدول القارية الكبرى ـ الأمبراطورية النمساوية المجرية، ألمانيا وروسيا ـ ذات مضمون جيوبولتيكي ومنذ منتصف قرننا الحالي أصبحت الولايات المتحدة الأمريكية معقل التالاسوكراتيا الرئيسي.

وخلال الحرب الباردة 1946 ـ 1991 حققت الثنائية الجيوبولتيكية الخالدة أحجاماً قصوى فتماهت التالاسوكراتيا مع الولايات المتحدة الأمريكية والتيلوروكراتيا مع الاتحاد السوفياتي.

نمطان كونيان من الحضارة والثقافة وما وراء الأيديولوجيا انسكبا في ارتسامات جيوبولتيكية ـ نهائية يلخصان كل التاريخ الجيوبولتيكي للمواجهة بين العفويتين. ومن المذهل، بالإضافة إلى ذلك، أن هاتين الصيغتين من الثنائية الجيوبولتيكية النهائية قد تطابقتا ـ على المستوى الأيديولوجي مع واقعين لا يتأخران عنهما من الناحية التركيبية ـ أيديولوجية الماركسية (الاشتراكية) وأيديولوجية الليبرالية ـ الرأسمالية.

ويمكننا في هذه الحالة التي أمامنا، أن نتحدث عن التطبيق الواقعي لنمطين من «التصغير»: فالتصغير الاقتصادي أدى إلى مواجهة أفكار سميث وأفكار ماركس، أما الجيوبولتيكي، فإلى توزيع كافة أصقاع الكرة الأرضية إلى مناطق خاضعة للتالاسوكراتيا (لقرطاج الجديدة، الولايات المتحدة الأمريكية) وللتيلوروكراتيا (لروما الجديدة ـ الاتحاد السوفياتي).

والرؤية الجيوسياسية تمثل أنموذج تطور الثنائية العالميّة حتى أحجامها القصوى. **اليابسة والبحر** يبسطان مواجهتهما الأولى على أرجاء العالم كله.

وما التاريخ الإنساني إلاّ تعبير عن هذا الصراع وطريق إلى وسمه بالسمة المطلقة.

هوذا التعبير الأكثر تعميماً عن قانون الجيوبولتيكا الأهم ـ قانون ثنائية العفويتين **البر** في مواجهة **البحر** .

الغائيّة الجيوبولتيكية

حتى لحظة تحقيق الانتصار النهائي للولايات المتحدة في الحرب الباردة كانت الثنائية الجيوبولتيكية ضمن أطرها الغربية التي تطورت بموجبها منذ البداية ـ كان الحديث يدور حول اتخاذ كل من التالاسوكراتيا والتيلوروكراتيا حجمها الأقصى على أصعدة المدى والاستراتيجية والقوة. ونظراً لتطوير الجانبين لقدراتهما النووية بدت نهاية هذه العملية كارثية بالنسبة لبعض الجيوبولتيكيين ـ المتشائمين، إذ كان على القوتين العظميين، وقد انتشرتا على سطح الكرة الأرضية بطولها، إما أن تنقلا مواجهتهما إلى خارج حدود الأرض (نظرية حرب النجوم) وإما أن تفني إحداهما الأخرى (الرعب النووي).

إذا كان طابع العملية الجيبولتيكية الأساسية للتاريخ ـ وهو التوسع الأعظم للتالاسوكراتيا والتيلوروكراتيا ـ واضحاً بالنسبة لهذا العلم. فإن نهايته تبقى تحت التساؤل، فليس ثمة أي نوع من الحتمية في هذا الخصوص.

وعلى هذا فإن الغائية الجيوبولتيكية، أي وعي غاية التاريخ، لا تصل، ضمن المصطلحات الجيوبولتيكية، إلا إلى لحظة بلوغ الثنائية عالميتها وتتوقف عند هذه النقطة، بيد أن بإمكاننا، مع كل ذلك، وعلى المستوى النظري المحض، أن نشتق عدة صيغ افتراضية لتطور الأحداث بعد أن يكون بمقدورنا الإقرار بانتصار أحد هذين النظامين ـ التالاسوكراتيا.

الاحتمال الأول: انتصار التالاسوكراتيا يلغي بصفة نهائية حضارة التيلوروكراتيا. ويهيمن على الكرة الأرضية النظام الليبرالي ـ الديموقراطي المتجانس. وتضفي التالاسوكراتيا على طرازها الأولي الخاص صفة الإطلاق وتغدو النظام الأوحد لتنظيم الحياة البشرية. ولهذا الاحتمال مزيتان: فهو **أولاً**: لا يناقض نفسه منطقياً، لأننا نرى فيه استكمالاً طبيعياً لتيار وحيد الاتجاه (ككل) في التاريخ الجيوبولتيكي ـ من الهيمنة الكاملة **لليابسة** (العالم التقليدي، إلى الهيمنة الكاملة للبحر (العالم المعاصر)، **وثانياً**: إن هذا بالذات ما يجري في الواقع الحالي.

الاحتمال الثاني: انتصار التالاسوكراتيا ينهي دورة المواجهة بين الحضارتين، لكنه لا يبسط أنموذجه على العالم بأسره، بل يكمل ببساطة التاريخ الجيوبولتيكي ناسخاً إشكاليته. ومثلما تبرهن نظريات المجتمع ما بعد الصناعي على استبعاد

التناقضات الأساسية للاقتصاد السياسي الكلاسيكي (والماركسية) في هذا المجتمع، لأن بعض النظريات العولمية تؤكد على أن المواجهة بين اليابسة والبحر سيتم استبعادها على العموم في العالم المقبل. وهذا أيضاً «نهاية التاريخ» إلا أن التطور التالي للأحداث لا يستجيب لمثل هذا التحليل الصارم كما في الاحتمال الأول.

هذان التحليلان كلاهما ينظر إلى هزيمة التيلوروكراتيا على أنها حقيقة واقعة لا رجعة عنها. أما الاحتمالان الآخران فينظران إلى الموضوع نظرة مغايرة.

الاحتمال الثالث: هزيمة التيلوروكراتيا ـ ظاهرة مؤقتة. تعود الأوراسيا إلى رسالتها القارية في صيغة جديدة. وتؤخذ في الحسبان آنذاك العوامل الجيوبولتيكية التي أدت إلى الكارثة والقوى القارية (ستكون للمعسكر القاري الجديد حدود بحرية في **الجنوب** وفي **الغرب**، أي يطبق مبدأ مونرو على الأوراسيا وفي مثل هذه الحالة يعود العالم مجدداً إلى ازدواجية القطبين، ولكنْ بسمة مغايرة وعلى مستوى آخر.

الاحتمال الرابع: (وهو تطوير لسابقه). في هذه المواجهة الجديدة تنتصر التيلوروكراتيا، وتطمح إلى نقل أنموذجها الحضاري الخاص لتطبقه على الكرة الأرضية كلها و«تقفل التاريخ» وفقاً لإيقاعها الخاص ـ من الناحية النمطية يتحول العالم كله إلى **يابسة**، وفي كل مكان تسود «الأيديوكراتيا». كانت الأفكار المتعلقة بـ «الثورة العالمية». وبالسيطرة العالمية للرايخ الثالث(*) هي الاستشراف المسبق لهذا التحول.

وبما أن دور العامل الذاتي والعقلاني في تطوير العمليات التاريخية قد تعاظم، في أيامنا هذه، إلى درجة لم يسبق لها مثيل في الماضي فينبغي النظر إلى هذه الاحتمالات الأربعة لا كإقرار تجريدي للتطور المحتمل للعملية الجيوبولتيكية فقط بل وكمواقف

(*) الرايخ الثالث: (بالألمانية Drittes Reich حرفياً الإمبراطورية الثالثة أو المملكة الثالثة). مصطلح نادت به أجهزة الدعاية النازية الألمانية وتمت استعارته من تعاليم القرون الوسطى الغيبية المتعلقة بالإمبراطوريات الثلاث. «فالإمبراطورية الرومانية المقدسة» و «الإمبراطورية الألمانية 1871 ـ 1918» جسدتا المملكتين السابقتين أما «الثالثة »، «مملكة الألف سنة» فتمثل الأساس الإيديولوجي لطموحات الفاشية التي عدّت نفسها المرحلة الأعلى «الختامية» للتطور. (المترجم).

جيوبولتيكية فعّالة يمكنها أن تتحول إلى توجيه لعمليات ذات بعد كوني.

غير أن الجيوبولتيكا عاجزة في هذه الحالة عن أن تقدم أية صيغة محتومة. وهنا لا يُفضي أي شيء إلا إلى تجميع الاحتمالات التي يرتبط تطبيقها بمجموعة من العوامل التي لا يعود ممكناً زجّها في أطر التحليل الجيوبولتيكي الصرف.

الـ Rimland والمناطق ـ الحدود

يعتمد منهج البحث الجيوبولتيكي بكامله على تطبيق مبادىء الثنائية الجيوبولتيكية الكونية **لليابسة والبحر** على خصائص أكثر محليّة. وعند تحليل أي موقف يبقى الأنموذج الكوني دون غيره الأنموذج الرئيسي والمؤسس. وتلك العلاقات المميّزة بالنسبة للّوحة العامة تتكرر وعلى مستوى أكثر فردية.

بعد استخلاص مبدأي التالاسوكراتيا والتيلوروكراتيا الأساسيين يصبح المبدأ الأساسي التالي هو الـ rimland «منطقة الحافة». إنها المقولة الأساسية المكنونة في صلب البحث الجيوبولتيكي.

تمثل الـRimland المجال المركب الذي يتسم، من حيث الاحتمال بإمكانية أن يكون جزءاً من التالاسوكراتيا أو التيلوروكراتيا. وهو المنطقة المعقدة والزاخرة بالثقافة. كما أن تأثير البيئة البحرية، الماء يثير في «المنطقة الساحلية» التطور الفعال والديناميكي. أما الكتلة القارية فتضغط، وتحمل على إضفاء الصفة البنّاءة على الطاقة فمن ناحية تتحول الـrimland إلى **جزيرة** أو **سفينة** أو تتحول من ناحية أخرى إلى **امبراطورية** أو **منزل**.

على أن الـRimland لا تقتصر على الوسط البيني أو الانتقالي الذي تقوم فيه المواجهة بين نبضين. إنها واقع بالغ التعقيد يتسم بمنطقه المستقل الذي يؤثر بحجم كبير على التالاسوكراتيا وعلى التيلوروكراتيا أيضاً. وصراع التالاسوكراتيا والتيلوروكراتيا على الـ Rimland ليس تنافساً من أجل الاستحواذ على موقع استراتيجي عادي. فالـrimland تستقل بمصيرها الخاص بها وبإرادتها التاريخية الخاصة، والتي لا يمكن أن تحسم خارج الثنائية الجيوبولتيكية الأساسية. الـrimland حرة إلى حد ما في اختيارها لكنها ليست حرة في بنية اختيارها ـ إذ لم يعط لها طريق ثالث غير التالاسوكراتي أو التيلوروكراتي.

وانطلاقاً من هذه الخاصية كثيراً ما يتطابق «الهلال الداخلي» مع منطقة انتشار الحضارة الإنسانية. فالروح المحافظة تهيمن في قلب اليابسة، ويهيمن خارجها تحدّي الفوضى الناشطة.

إن «مناطق الحافة» متوضعة بفعل موقعها أمام حتمية تقديم الردّ على قضية تطرحها الجغرافيا.

الـ Rimland ـ منطقة حدودية، حزام، شريط. وهي في الوقت نفسه ـ حدود. ومثل هذا التركيب يؤدي إلى التعريف الجيوبولتيكي للحدود.

خلافاً للحدود القائمة بين الدول تفهم الجيوبولتيكا هذا المصطلح فهماً مختلفاً، منطلقة في ذلك من الأنموذج الأولي الذي تكون فيه الحدود الأولية والطرز البدئية لكافة أنواع الحدود هي المفهوم المحدّد التاريخي ـ الجيوبولتيكي والثقافي للـ rimland.

والحجم المساحي للمناطق الساحلية هو نتيجة للنظرة إلى اليابسة من الخارج، «من منظور الوافدين البحريين». فالشاطىء بالنسبة لـ «قوى البحر» بالذات **شريط** منبسط في عمق اليابسة. أما بالنسبة لليابسة فالشاطىء، على العكس من ذلك، نهايةً، **خط**.

والحدود كخط (وهي تذكر في القانون الدولي بهذه الصيغة بالذات) ـ واحدة من بقايا «علم القضاء البري» ورثتها الحقوق المعاصرة عن تقاليد موغلة في القدم. وهذه وجهة نظر برية حتى أبعد الحدود.

إلا أن النظرة البحرية، التي تظل خارجيةً من حيث علاقتها باليابسة، ترى في الأراضي الساحلية مستعمرات محتملة، شرائط من الأرض يمكن افتلاذها من باقي الكتلة القارية، وتحويلها إلى قاعدة، إلى مجال استراتيجي. وإلى جانب هذا فإن المنطقة الشاطئية لا تغدو أبداً «ممتلكات» خاصة حتى النهاية؛ إذ يمكن، عند الضرورة، ركوب السفينة والإبحار إلى الوطن، إلى «الجزيرة». فالشاطىء لا يصبح شريطاً إلا على أساس أن القادمين من البحر لا يكونون عند توغلهم في أعماق اليابسة، في مأمن من الخطر إلا في حدود معينة فقط.

وبما أن الجيوبولتيكا تجمع بين كلتا النظريتين إلى المدى البحري والبري فإن الـ rimland يفهم فيها كواقع خاص، كحدود ـ أشرطة، مع الأخذ بعين الاعتبار أن

حجمه النوعي يتحدد بنوعية الحافز المهيمن في القطاع المقصود أبريّ هو أم بحري. إن الشواطىء البحرية الهائلة الاتساع والصالحة للملاحة في الهند والصين ـ خطوط ـ أشرطة ذات أحجام من النوع الأصغر. وللثقافات ذات الصلة توجّه بري واتساع الشرائط الساحلية يميل إلى الصفر، إلى أن تغدو مجرد نهايات لليابسة. أما في أوروبا، وبخاصة في المناطق الساحلية للبحر الأبيض المتوسط فالشرائط العريضة تتوغل بعيداً في أعماق اليابسة. ويتخذ حجمها أوسع مداه. لكن الحديث في الحالتين يتناول الحدود الجيوبولتيكية. وبناء عليه فإن هذه الصفة متقلّبة، تتبدل تبعاً للظروف، من الخط حتى الشريط.

وتطبق الجيوبولتيكا مثل هذه المقاربة أيضاً على تحليل المشاكل الفردية المرتبطة بالحدود. فهي تنظر إلى الحدود بين الدول على أنها «مناطق متغيّرة الأحجام». فهذا الحجم يرتبط ـ في تقلّصه أو انبساطه ـ بالديناميكية القارية العامة. وانطلاقاً منها تبدل هذه المناطق صيغتها ومسارها ضمن الحدود المعطاة. وفي مفهوم «الحدود الجيوبولتيكية» يمكن أن تدخل دول بكاملها. فالفكرة الإنكليزية «للنطاق الصحي» بين روسيا وألمانيا، كانت تفترض مثلاً، إقامة منطقة «محايدة» (نصف مستعمرة، ذات توجه نحو انكلترا) تتكون من دول البلطيق ودول أوروبا الشرقية. وكانت السياسة القارية لروسيا وألمانيا تميل، على العكس من ذلك، إلى تحويل هذه المنطقة إلى خط (بريست ـ ليتوفسك، رابّالو، وفق ميثاق ريبّينتروب ـ مولوتوف). وقد حاول التالاسوكراتيون ـ الأطلسيون أن يوسعوها حتى أبعد حدود ممكنة باختلاق «دول عزقات» (etats- tempons) مصطنعة.

وإلى جانب هذا فإن التالاسوكراتيا الناجزة والتي بلغت ذروة اكتمالها (انجلترا ـ الولايات المتحدة) تطبق في هذه الحالة معياراً مزدوجاً ـ فالتالاسوكراتيون يطمحون إلى جعل حدود جزرهم الخاصة خطوطاً وتوسيع المناطق الشاطئية للأوراسيا حتى الحدود القصوى. ومن المنطقي بالنسبة للجيوبولتيكا القارية أن نطبق بدقة مثل هذا المبدأ في اتجاه معكوس فتصبح: حدود الأوراسيا ـ خطوطاً، وحدود أمريكا ـ شرائط.

إن التشابه مع الـrimland التاريخي كـ«مهد الحضارة» يكشف المغزى البالغ الأهمية «للمناطق ـ الحدود». في حالات أكثر فردية. فعندما تحررت «المناطق الحدودية، من الحاجة إلى تحميل نفسها أعباء أن تكون الحشوة الجغرافية للتاريخ ـ غالباً ما وجهت

طاقاتها نحو الأجواء الثقافية ـ العقلية. وإن الاستخدام الحاذق لهذه الكفاءة الجيوبولتيكية «السهلة» يجسد فن الاستراتيجية الجيوبولتيكية للجانبين المتواجهين.

وإلى هذا فإن «القوى البحرية» بالذات قد أتقنت ذلك حتى حدود الكمال المطلق. إذ كانت تتصرف دوماً على أساس مبدأ الاستنزاف الأقصى والأسرع للمناطق المستعمرة، وهذا ما ميّزها عن الفاتحين البريين الذين كانوا، بعد احتلالهم الأراضي، يشرعون بإعلانها ملكاً لهم، وعليه فإنهم لم يتعجلوا إلى اعتصار كل ما يمكن منها.

الجيوبولتيكا مصيراً

قوانين الجيوبولتيكا ملائمة بصفة خارقة للعادة لتحليل التاريخ السياسي وتاريخ الدبلوماسية والتخطيط الاستراتيجي. ولهذا العلم عدد كبير من الاختراقات المتبادلة مع علم الاجتماع وعلم السياسة والأتنولوجيا والاستراتيجية العسكرية والدبلوماسية وتاريخ الأديان. فهو، بطريقة غير مباشرة، لكنها شديدة الوضوح، يرتبط بالاقتصاد حتى أن بعض علماء الجيوبولتيكا اقترحوا تأسيس علم جديد هو ـ الجغرافيا الاقتصادية. وعلى أية حال فإن العودة إلى الوقائع الاقتصادية أمر ضروري في بعض آفاق المنهج الجيوبولتيكي.

وفي اللحظة الراهنة ـ وأمام ميل جميع أشكال العلوم نحو التركيب، نحو التذاوب، نحو خلق نظم جديدة شديدة الاتساع بين العلوم ونماذج متعددة السياقات ـ تكتشف الجيوبولتيكا أهميتها في ميدان الدراسات النظرية الصرفة كما في ميدان الخطوات التطبيقية لتوجيه العمليات الحضارية المعقدة ـ سواء على مستوى الكوكب الأرضي أم على المستوى الفردي للدول أو تحالفات الدول ـ إنها ـ علم المستقبل، والذي ستدرّس أسسه في أقرب الأوقات لا في المؤسسات والأكاديميات العلمية المتخصصة فقط، بل وفي المدارس الاعتيادية. فبمساعدة التحليل الجيوبولتيكي يمكن التوصل، وبسهولة، إلى فهم أحقاب كاملة من التطور التاريخي للدول والشعوب، وأمام ما يتسم به عصرنا من توسع المساحات الإعلامية يغدو ظهور أمثال تلك المنهجيات المرئية المختصرة ـ أمراً لا مندوحة منه وإلاّ غامر الإنسان بالتضييع النهائي لأية علامات يهتدي بها في هذه الفوضى المتنوعة الأشكال والكثيرة الأبعاد تدفق سيول المعارف المختلفة.

والجيوبولتيكا عون لا يقدر بثمن في أمور الثقافة، ويعتمد بناؤها على أنها المؤهلة، دون غيرها، لتكون المادة العلمية المحورية خلال المرحلة الجديدة من تطور المدرسة.

وبالإضافة إلى ذلك يبدو دور الجيوبولتيكا أكثر حضوراً على الصعيد الاجتماعي الواسع. فمستوى تطور الإعلام، والاجتذاب الفعال للإنسان العادي إلى الاحداث الدائرة على مساحة القارة كلها، «وعولمة» وسائل الإعلام ـ كل هذا يدفع إلى المرتبة الأولى بالتفكير في المدى المكاني من خلال مصطلحات جيوبولتيكية، ذلك التفكير الذي يساعد على «تصنيف» الشعوب والدول والنظم والأديان وفقاً لسلم مبسّط بحيث يغدو مفهوماً، ولو بصورة تقريبية، المعنى الذي يتضمنه حتى أبسط الأخبار المذاعة بالتلفزيون أو بالراديو. فلو استخدمنا الشبكة الجيوبولتيكية الأقرب إلى البساطة ـ الـ **heartland** والـ **rimland** و **World Island** في تفسير أي مادة إعلامية تتعلق بالأحداث العالمية لارتسم أمامنا على التو الأنموذج الموضح الذي لا يطالب بكميات إضافية من المعارف المتخصصة الضيقة. «توسع **الناتو** نحو **الشرق**» يعني من هذا المنطلق «توسيع مساحة الـ**rimland** لصالح التالاسوكراتيا»، «الاتفاق بين ألمانيا وفرنسا على إنشاء قوات مسلحة خاصة أوروبية صرفة»، خطوة في اتجاه إنشاء بنية تيلوروكراتية قارية»، «النزاع بين العراق والكويت»، «سعي دولة قارية إلى إزاحة تشكيل تالاسوكراتي مفتعل يحول دون السيطرة المباشرة على منطقة ساحلية» وهكذا.

وأخيراً حول تأثير المنهجية الجيوبولتيكية على السياسة الداخلية والخارجية إذا كان المغزى الجيوبولتيكي للخطوات المحدّدة للأحزاب والحركات السياسية بالإضافة إلى البُنى السلطوية واضحاً لتمكنا بسهولة من تنسيبها إلى نظام المصالح العالمية، وبالتالي كان سهلاً تشفير أهدافها البعيدة. فالتكامل، مثلاً، بين روسيا والدول الأوروبية (وبخاصة مع ألمانيا) ـ خطوة من طرف القوى التيلوروكراتية (الأوراسيين). ومن هنا يمكننا، وبطريقة آلية، التنبؤ بتعزيز الميول «الأيديوكراتية» («الاشتراكية») داخل البلاد. وعلى العكس من ذلك فإن تقارب موسكو مع واشنطن يعني الخضوع للخط التلاسوكراتي وهو ما يجر وراءه، وبطريقة محتومة، تعزيز مواقف «أساطين السوق» وهلمّ جرّا. وعلى هذه الشاكلة بالذات وفي ضوء القوانين الجيوبولتيكية الداخلية يمكننا بسهولة تفسير العمليات السياسية الداخلية ـ

انفصالية الشعوب داخل روسيا، الاتفاقيات الثنائية أو المتعددة الأطراف فيما بين التشكيلات والمناطق الإدارية المختلفة. وكل حادث يكتسب معنى واضحاً في ضوء الجيوبولتيكا. وهذا المعنى الجيوبولتيكي لا يمكن النظر إليه على أنه الـUltimo ratio(*) بالنسبة للحدث، إلا أنه في كل حالة من الحالات يبدو معبراً على أعلى المستويات، ومفيداً في حقل التحليل والاستشراف.

إن غياب أي نوع من الكتب التعليمية، مهما كان نوعه في يومنا الحالي، دفعنا إلى كتابة وتصنيف هذا الكتاب الذي يعد مدخلاً إلى الجيوبولتيكا كعلم.

(*) Ultima ratio (باللاتينية) الحجة النهائية: الدليل النهائي. (المترجم).

الباب الأول

آباء الجيوبولتيكا ـ المؤسسون

فريدريك راتسيل
الدول ككائنات حية في المدى المكاني

1 ـ 1 التعليم: «المدرسة العضوية» الألمانية:

يمكن عدّ فريدريك راتسيل (1844 ـ 1904) «أب» الجيوبولتيكا. على الرغم من أنه لم يستخدم ذلك المصطلح في أعماله. فقد كتب عن «الجغرافية السياسية» وسميت دراسته الأهم، التي رأت النور عام 1897 بـ «Politische geographie».

أنهى راتسيل جامعة البوليتيكنيك في كازلسروة، حيث استمع إلى محاضرات الجيولوجيا، الباليونتولوجيا، والزوولوجيا(*). وأكمل دراسته في هايدلبرج حيث تتلمذ على البروفيسور إيرنست غيكل (الذي كان أول من استخدم مصطلح «علم البيئة») وقد بنيت الرؤية الفكرية لراتسيل على التطورية والداروينية واصطبغت باهتمامه المعبر عنه بوضوح نحو علم الحياة.

شارك راتسيل في حرب 1870(**) والتي انضم إليها متطوعاً ونال وسام الصليب الحديدي على شجاعته. أما في السياسة فهو يغدو بالتدريج قومياً مؤمناً

(*) الباليونتولوجيا ـ علم الحفريات القديمة، الزوولوجيا ـ علم الحيوان. (المترجم).

(**) حرب 1870 ـ خاضتها فرنسا بغية الاحتفاظ بالهيمنة على أوروبا ضد بروسيا وعدد من الدول الألمانية. وإذا كانت بداية الحرب وحتى هزيمة الجيش الفرنسي في سيدان تحمل بالنسبة لبروسيا معنى تاريخياً وانتهت بوحدة ألمانيا، فقد تحولت بعد ذلك إلى حرب احتلال ونهب من طرف البروسيين الذين قضوا أيضاً على كومونة باريس سنة 1871، العام الذي انتهت فيه الحرب بصلح فرانكفورت. (المترجم).

وينتسب سنة 1890 إلى «الرابطة البانجرمانية» التي أسسها كارل بيترس. ويقوم برحلات كثيرة في أرجاء أوروبا وأمريكا ويضيف إلى دراساته العلمية الطريفة بحوثاً في الأنطولوجيا ويغدو مدرساً للجغرافيا في المعهد التقني بميونيخ، أما في سنة 1886 فينتقل إلى القسم المشابه في لايبزيغ.

في سنة 1876 يناقش راتسيل أطروحته حول «الهجرة في الصين» وفي سنة 1882 تصدر دراسته «الأنتروبوجغرافيا» «Antropogeographie» والتي يصوغ فيها أفكاره الأساسية: العلاقة بين تطور الشعوب والديموغرافيا وبين المعطيات الجغرافية، وتأثير التضريس المكاني على التكوين الثقافي والسياسي للشعوب، وما إلى ذلك.

إلا أن كتابه الأكثر أهمية هو «الجغرافيا السياسية».

1 ـ 2 الدول ككائنات حية:

يبيّن راتسيل في دراسته هذه أن التربة هي المعطى المؤسس الوطيد الذي تدور حوله مصالح الشعوب. وحركة التاريخ محددة مسبقاً بالتربة والأرض. وتلي ذلك نتيجة يستخلصها المؤلف على أساس التطور وهي إن «الدولة كائن حي»، إلا أنه كائن «متجذر في التربة». فالدولة تتكون من السطح الأرضي ومن البعد المساحي ومن وعي الشعب لهما. وعلى هذا ينعكس في الدولة المعطى الجغرافي الموضوعي والوعي الذاتي القومي العام لهذا المعطى، والذي يتم التعبير عنه في السياسة. ويرى راتسيل أن الدولة «الطبيعية» هي التي تجمع بصفة عضوية بين الكميات المتغيّرة للأمة، الجغرافية منها والديموغرافية والاتنو ثقافية.

فهو يكتب:

«ينظر إلى الدول خلال كل مراحل تطورها على أنها كائنات عضوية تحافظ بفعل الضرورة على علاقتها بتربة أرضها، ولهذا يجب أن تدرس من وجهة النظر الجغرافية. وعلى نحو ما تظهر الاتنوغرافيا والتاريخ فإن الدول تتطور على قاعدة تتفاعل معها وتتذاوب بها أكثر فأكثر وتستخلص منها كميات من الطاقة أكثر فأكثر. ولهذا فإن الدول تبدو ظواهر مكانية يوجهها ويحييها هذا المكان ويجب أن تقوم الجغرافيا بوصفها ومقارنتها وقياسها. وتدخل الدول في سلسلة ظواهر تطور **الحياة**

لتغدو الذروة العليا لهذه الظواهر. («الجغرافيا السياسية»[1]).

من هذه النظرة «العضوية» يتضح بجلاء أن راتسيل يفهم التطور الزاحف للدولة على أنه عملية طبيعية حية، شبيهة بنمو الكائنات الحيّة.

ونظرة راتسيل «العضوية» تنعكس أيضاً في علاقته بالمدى (Raum) نفسه، فهذا «المدى» ينتقل من الصفة المادية الكمية إلى صفة أخرى إذ يغدو «**وسطاً حيوياً**»، «**مجالاً حيوياً**» (Lebensraum) نوعاً من «**الوسط الجغرافي البيولوجي**». ومن هنا ينبثق مصطلحان مهمان آخران راتيسل هما «**المعنى المدوي**» (Raumsinn) و«**الطاقة الحياتية**» (Lebensenergie). وهذان المصطلحان متقاربان ويعنيان خاصيّة مميزة لصيقة بالنظم الجغرافية وتحدد مسبقاً التشكل السياسي لهذه النظم في تاريخ الشعوب والدول.

هذه الطروحات جميعاً تعد المبادىء المؤسسة للجيوبولتيكا في تلك الصيغة التي ستتطور بموجبها بعد قليل من الزمن لدى أتباع راتسيل. وعلاوة على ذلك فإن العلاقة بالدولة كـ«جهاز مدوي حي متجذر في التربة». تمثل الفكرة الأساسية والمحور بالنسبة لمنهج الجيوبولتيكا. وهذه النظرة موجهة نحو الدراسة النسيجية لكامل مجموع المظاهر بغض النظر عما إذا كانت تعود إلى الوسط البشري أم غير البشري. فالمجال كتعبير محدّد للطبيعة، للوسط المحيط، ينظر إليه كجسم حي متواصل للأتنوس، إنه مجال من يسكن فيه، وبنية المادة هي التي تحدد أحجام النتاج الغني للفنون.

وبهذا المعنى يكون راتسيل الوريث المباشر لمجموع مدرسة السوسيولوجيا «العضوية» الألمانية، أو التي كان فرديناند تينّيس أبرز ممثليها.

1 ـ 3 Raum ـ التنظيم السياسي للتربة:

القطعة التالية المقتطفة من كتاب «الجغرافيا السياسية» تبين الصورة التي رأى راتسيل من خلالها العلاقة المتبادلة بين الأتنوس والمكان:

«تتشكل الدولة مثل كائن حي مرتبط بجزء محدّد من سطح الأرض وتتطور سماتها طبقاً لسمات الشعب والتربة. أما السمات الأهم فهي الأبعاد، ومكان التوضع والحدود. تلي ذلك أنماط التربة مضافة إلى نوعية النبات

والريّ وأخيراً العلاقة مع بقية خلائط السطح الأرضي، وبالدرجة الأولى مع البحار المتاخمة والأراضي غير المأهولة والتي لا تمثل، للوهلة الأولى، أهمية سياسية خاصة. إن اجتماع هذه السمات كافة يكوّن البلاد (das Land). ولكن عندما يتناول الكلام «بلادنا» ينضاف إلى ذلك كل ما قام الإنسان بإبداعه وكل ما يرتبط بالأرض من ذكريات. وهكذا فإن المفهوم الذي هو، في صورته الأولى، جغرافي صرف يتحول إلى علاقة روحية عاطفية بين سكان البلاد وتاريخهم.

والدولة جهاز حي ليس فقط لأنها تستنطق حياة الشعب فوق تربة ثابتة، بل لأن هذه العلاقة المتبادلة تتقوى بصورة متبادلة لتغدو شيئاً ما متوحداً لا يمكن تصوره بمعزل عن واحد من مكوّنيه الاثنين. والآماد غير المأهولة، غير القادرة على إطعام الدولة هي أرض تاريخية مراح. أما الأراضي المأهولة فهي، على العكس من ذلك، تساعد على تطوير الدولة وبخاصة إذا كانت هذه الآماد مطوّقة بحدود طبيعية. وعندما يحس الشعب بأنه على أرضه بصورة طبيعية فإنه يقوم، وبصفة مستمرة، بإعادة إنتاج نفس السمات التي تنبثق من التربة وتكون هذه السمات مرقونة فيه»[2].

1 ـ 4 قانون التوسع:

النظرة إلى الدولة على أنها جهاز حي افترضت الانصراف عن فكرة «حصانة الحدود» فالدولة كالكائن الحي تولد وتنمو وتموت. وعلى هذا فإن توسعها وتقلصها المكاني عمليتان طبيعيتان مرتبطتان بدورتها الحياتية الداخلية. وفي كتابه «حول قوانين تطور الدولة في المجال» (1901) حدد راتسيل **سبعة قوانين للتوسع**.

1) امتداد الدول يتسع وفقاً لتطور ثقافتها.

2) توسع الدولة في المدى المكاني يترافق مع المظاهر الأخرى، لتطورها: في ميادين الأيديولوجيا، الإنتاج، النشاط التجاري، الإشعاع الجاذب القوي وقوة الدّعوة لديها.

3) تتوسع الدولة من خلال ابتلاعها وتمثّلها للوحدات السياسية الثانوية الأهمية.

4) الحدود ـ هي جهاز متوضع على أطراف الدولة (التي تفهم على أنها جهاز حي).

5) عندما تقوم الدولة بتحقيق توسعها في المدى المكاني، تحاول الاستيلاء على المناطق الأكثر أهمية بالنسبة لتطوّرها: الضفاف، سرر الأنهار، الوديان، وعلى العموم جميع المناطق الغنية.

6) الباعث على التوسع يأتي من الخارج، إذ إن الدولة تُثار للتوسع على حساب الدولة (أو الأراضي) ذات الحضارة الأدنى.

7) الميل العام نحو صهر الأمم الأضعف وتمثّلها يدفع إلى المزيد من زيادة المساحة في حركة تتشرّب نفسها[3].

فليس غريباً أن ينحي الكثيرون من النقاد باللآئمة على راتسيل لأنه ألف «الدليل المرشد للأمبرياليين». وإلى هذا فإنه لم يكن يطمح قطّ إلى تبرير الإمبريالية بأية طريقة من الطرق، على الرغم من أنه لم يخف تأييده للقناعات القومية. كان من المهم بالنسبة له أن يصوغ التصور الذهني من أجل الإدراك الصحيح لتاريخ الدول والشعوب في علاقتها مع المكان، أما على أرضية التطبيق فكان يطمح إلى إيقاظ الـ «Raumsinn» **«الإحساس بالمدى»** لدى قادة ألمانيا الذين كانت المعطيات الجغرافية للعلم الأكاديمي الجاف تبدو لهم، وفقاً لأقرب التقديرات، ضرباً من التجريد المحض.

1 ـ 5 الـWeltmacht والبحر:

مما ترك أثره في نفس راتسيل وإلى حدود ملموسة ـ تعرّفه على أمريكا الشمالية التي درسها جيداً كرّس لها كتابين «خرائط مدن الشمال الأمريكي وحضاراته» (1874) و«الولايات المتحدة الأمريكية الشمالية» (1878 ـ 1880) وقد أشار إلى أن الإحساس بالمدى، متطور لدى الأمريكيين حتى أبعد الحدود لأنهم كانوا قد وضعوا أمام مهمة غزو الآماد «الخالية»، بينما كانت وراء ظهورهم التجربة **«السياسية ـ الجغرافية»** للتاريخ الأوروبي. وبناء على ذلك أنجز الأمريكيون بطريقة واعية الشيء الذي **كان العالم القديم** قد توصل إليه بحدسه وبالتدريج. وهكذا نلتقي لدى راتسيل بالصيغ الأولى لمقولة جيوبولتيكية أخرى ـ مقولة **«الدولة العالمية»**. وقد لاحظ أن الدول

الكبرى تعيش خلال تطورها إحساساً بالميل إلى التوسع الجغرافي في حدوده القصوى، والذي يبلغ تدريجياً مستوى الكرة الأرضية.

وبناء على ذلك كان على التطور الجغرافي أن يصل عاجلاً أم آجلاً إلى طوره القاراتي.

وباستخدام هذا المبدأ المستنبط من التجربة الأميريكية للتوحيد السياسي والاستراتيجي للآماد القاراتية مطبقاً على ألمانيا، كان راتسيل قد تنبأ لها بمصير الدولة العظمى القارية.

كما أنه كان سباقاً إلى موضوع آخر من موضوعات الجيوبولتيكا. ففي كتابه «البحر، مصدر قوة الشعوب» (1900)[4] أشار إلى ضرورة أن تقوم كل دولة عظمى بتطوير قواتها البحرية الحربية. وما حققته بعض الشعوب والدول (انجلترا، اسبانيا، هولندة، وما إلى ذلك) بطريقة عفوية ـ يجب على الدول البرية العظمى أن تحققه بوعيها: فتطوير الأسطول هو الشرط اللازم للاقتراب من وضع «الدولة العظمى العالمية» (weltmacht).

البحر، «والدولة العالمية العظمى» متلازمان لدى راتسيل على الرغم من أن هذا الموضع سيكتسب لدى الجيوبولتيكيين المتأخرين (ماهان، ماكندر، هاوسهوفر، وشميدت بشكل خاص) صيغته النهائية ومركزيته.

وأعمال راتسيل هي القاعدة الضرورية لجميع الدراسات الجيوبولتيكية، ففي هذه الأعمال تعرض، وبصورة مفتوحة، من الناحية العملية، كل المنطلقات التي سترسخ في صلب هذا العلم.

فعلى أساس كتب راتسيل أقام السويدي تشيلّين والألماني هاوسهوفر تعاليمهما. وأخذ أفكاره بعين الاعتبار كل من الفرنسي ڤيدال دي لابلانش، والإنجليزي ماكيندر، والأمريكي ماهان والأوراسيان الروسيان (ب. ساڤيتسكي ول. غوميليوف).

وتجدر الإشارة إلى أن ميول راتسيل السياسية لم تكن أمراً عارضاً. فمن الناحية العملية كان جميع علماء الجيوبولتيكا يتسمون بالشعور القومي الشديد التألق بغض النظر عما إذا كان هذا الشعور قد ظهر في اللبوس الديمقراطي (الجيوبولتيكيان الإنجليزيان ماكيندر وماهان) أو «الأيديوقراطي» (هاوسهوفر، شميدت والأوراسيان).

رودولف تشيلين وفريدريك ناومن
«أوروبا الوسطى»

2 ـ 1 تعريف العلم الجديد:

كان السويدي رودولف تشيلّين (1864 ـ 1922) أول من استخدم مصطلح «الجيوبولتيكا».

كان تشيلّين أستاذ التاريخ والعلوم السياسية في جامعتي أوبسالا وغيتيبورغ. وبالإضافة إلى ذلك شارك بفعالية في السياسة، إذ كان عضواً في البرلمان يتسم بتوجه يفيض بالحب لألمانيا. ولم يكن جغرافياً متخصصاً وكان يعكف على دراسات الجيوبولتيكا التي طور أسسها منطلقاً من دراسات راتسيل (الذي عدّه أستاذه) كقسم من علم السياسة.

وقد عرّف الجيوبولتيكا بما يلي:

«إنها علم الدولة كجسم جغرافي متجسد في المكان»[5].

وبالإضافة إلى «الجيوبولتيكا» اقترح تشيلّين أربعة مصطلحات جديدة، كان عليها في رأيه، أن تكون الأجزاء المكوّنة للعلم السياسي وهي:

ـ الإيكوبولتيكا (دراسة الدولة كقوة اقتصادية).

ـ الديموبولتيكا (دارسة الدوافع الديناميكية التي تُرفد بها الدولة من قبل الشعب، شبيهة بـ «الأنتروجغرافيا» لدي راتسيل).

ـ السوسيوبولتيكا (دراسة الجانب الاجتماعي للدولة).

ـ الكراتوبوليتيكا (دراسة صيغ الحكم والسلطة في علاقاتهما مع قضايا الحقوق والعوامل الاجتماعية ـ الاقتصادية)[6].

إلا أن جميع هذه المواد التعليمية التي طورها تشيلّين بصورة متوازية مع الجيوبولتيكا لم تحقق الاعتراف الواسع، بينما ترسخ مصطلح «الجيوبولتيكا» ثابتاً في أكثر الأوساط تبايناً.

2 ـ 2 الدولة كصيغة للحياة ومصالحُ ألمانيا:

في دراسته الأساسية «الدولة كصيغة للحياة» (1916)[7] طوّر تشيلّين المسلَّمات الواردة في عمل راتسيل. وكان تشيلّين، شأن راتسيل، يرى نفسه تلميذاً «للعضوانية» الألمانية التي ترفض النظرة الآلية إلى الدولة والمجتمع. **ورَفْض التقسيم الصارم لمواد الدراسة إلى موضوعات غير حية (فون) و«ذوات إنسانية» (فعاليّات) يمثل السمة المميّزة لغالبية علماء الجيوبولتيكا**. وفي هذا السياق يندرج مدلول عنوان العمل الأساسي لتشيلّين.

وقد طور تشيلّين مبادىء راتسيل السياسية بتطبيقها على الوضع التاريخي المحدَّد في أوروبا المعاصرة له.

كما أوصل حتى النهاية المنطقية أفكار راتسيل حول«**الدولة القارية**» بتطبيقها على ألمانيا وأظهر أن ألمانيا تمثل في السياق الأوروبي ذلك المدى الذي يمتلك الدينامية المحورية ويناط به أن ينظم باقي الدول الأوروبية من حوله. وقد فسّر تشيلّين الحرب العالمية الأولى على أنها صراع جيوبولتيكي طبيعي نشب بين توسع ألمانيا الديناميكي (دول المحور) وبين من واجهها من دول الأطراف الأوروبية (وخارج الأوروبية)، (الأنتانتا)[*] والاختلاف في الديناميكية الجيوبولتيكية للنمو ـ التنازلي بالنسبة لفرنسا وانجلترا والتصاعدي بالنسبة لألمانيا ـ حدّد مسبقاً التوزع الأساسي للقوة. يضاف إلى ذلك أن المطابقة الجيوبولتيكية بين ألمانيا وأوروبا،

(*) دول الأنتانتا (من الفرنسية Entante ـ اتفاق؛ حلف ثلاثي عقد بين بريطانيا، فرنسا وروسيا القيصرية بين 1904 ـ 1907، وحشد خلال الحرب العالمية الأولى تحالفاً ضد ألمانيا زاد عدد أعضائه عن العشرين دولة (من بينها الولايات المتحدة الأمريكية، اليابان وإيطاليا وسواها. . .) (المترجم).

من وجهة نظره، أمرٌ لا مندوحة منه ولا مردّ له بغض النظر عن الهزيمة المؤقتة في الحرب العالمية الأولى.

وقد رسّخ تشيلّين المبدأ الجيوبولتيكي الذي أقره راتسيل: ـ مصالح ألمانيا (= مصالح أوروبا) وتتناقض مع مصالح أوروبا الغربية (وبخاصة فرنسا وانجلترا). إلا أن ألمانيا دولة **فتية**، والألمان ـ **«شعب فتي»**. (هذه الفكرة المتعلقة بـ «الشعبين الفتين» وكانا يُعدّان الروس والألمان، تعود إلى ف. دستويفسكي، الذي استشهد تشيلّين به أكثر من مرة. وعلى الألمان «الفتيان»، أن يتحركوا بإلهام من «المجال الأوروبي الأوسط»، نحو بناء الدولة القارية ذات البعد الكوني وذلك على حساب الأراضي التي يسيطر عليها **«الشعبان الهرمان»** ـ الفرنسيون والإنجليز. وإلى هذا فإن البعد الأيديولوجي للمواجهة الجيوبولتيكية كان أمراً ثانوياً بالنسبة لتشيلّين.

2 ـ 3 نحو نظرية أوروبا الوسطى:

على الرغم من كون تشيلّين سويدياً وإنه كان يؤكد على تقريب السياسة السويدية من الألمانية فإن تصوراته عن المعنى التكاملي المستقل للمدى الألماني تتطابق تطابقاً تاماً مع نظرية أوروبا الوسطى (Mitteleuropa) لفريدريك ناومن.

قدم ناومن في كتابه «Mitteleuropa» (1915)[8] تشخيصاً يتطابق مع نظرية رودولف تشيلّين. وانطلاقاً من وجهة نظره كان على الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا وشعوب أوروبا الوسطى أن تتوحد وتشكل مجالاً سياسياً ـ اقتصادياً متكاملاً لتحقيق النجاح في منافسة تلك التشكيلات الجيوبولتيكية المنظمة كانجلترا (ومستعمراتها). ومن الطبيعي أن يكون محور هذا المجال ـ هم الألمان.

خلافاً للمشاريع «البانجرمانية»[*] المجردة، لم تكن الـMitteleuropa مفهوماً قومياً بل هي مفهوم جيوبولتيكي صرف تعطى فيه الأهمية الأولى لا للوحدة الأتنية

(*) سيرد في الكتاب عدد من المصطلحات المبتدئة بـ «بان»، وهي بادئة لغوية تعني المؤيد لاتحاد مجموعة ما فالبانجرماني ـ المؤيد لوحدة الجرمان. وقد آثرنا ترك المصطلح على حاله: كالبانآسيوي، البانتوركي باستثناء ما يتعلق بكلمة «عرب» إذ رأينا ترجمة المصطلح بـ «العروبي» ـ (المترجم).

بل لوحدة المصير الجغرافي. وكان مشروع ناوْمَنْ يضع في حسبانه التكامل بين ألمانيا، النمسا، دول الدانوب ثم فرنسا على المدى البعيد.

كما توطد المشروع الجيوبولتيكي بموازيات ثقافية أيضاً. بل إن ألمانيا نفسها صارت، كتشكل روحي، تتماهى مع مفهوم الـ«Mittellage» الروحي أي «الوضع المتوسط». وهذا ما كان آرنڈت قد صاغه منذ عام 1818 بقوله: «**أحلّنا الله في وسط أوروبا، فنحن (الألمان) قلب المنطقة التابعة لنا من العالم**».

ومن خلال تشيلّين وناومن اكتسبت أفكار راتسيل «القارية»، وبطريقة تدريجية، ملامحها الملموسة.

هيلفورد ماكيندر
المحور الجغرافي للتاريخ

3 ـ 1 العالِم والسياسي:

السير هيلفورد ج. ماكيندر (1861 ـ 1947) الشخصية الأوفر تألقاً بين علماء الجيوبولتيكا.

بعد أن أنهى علومه الجغرافية أخذ منذ عام 1887 يعمل في التدريس في أوكسفورد إلى أن عُيّن مديراً للمدرسة الاقتصادية في لندن. وصار بين 1910 ـ 1922 عضو مجلس العموم، وكان بين 1919 ـ 1920 الموفد البريطاني إلى روسيا الجنوبية.

يشتهر ماكيندر بمقامه الرفيع في عالم السياسة الإنجليزية التي ترك تأثيره العميق على توجهاتها الدولية، وبكونه، فضلاً عن ذلك، صاحب المخطط الأجرأ والأكثر ثورية بين مخططات التأويل السياسي لتاريخ العالم.

من خلال مثال ماكيندر تتجلى على أوضح الصور تلك المفارقة الأنموذجية التي تتميز بها الجيوبولتيكا كمادة علمية. فعالم العلم لم يتقبل أفكار ماكيندر بغض النظر عن علو كعبه لا في عالم السياسة فحسب بل وفي الوسط العلمي نفسه. بل إن حقيقة بقائه على مدار نصف قرن تقريباً يشارك بفعالية ونجاح في بناء الإستراتيجية الإنكليزية المتعلقة بالقضايا الدولية على أساس من تأويله للتاريخ السياسي والجغرافي للعالم، لم تستطع إقناع المتشككين بالاعتراف بأهمية الجيوبولتيكا وفعاليتها كمنظومة علمية.

3 ـ 2 المحور الجغرافي للتاريخ:

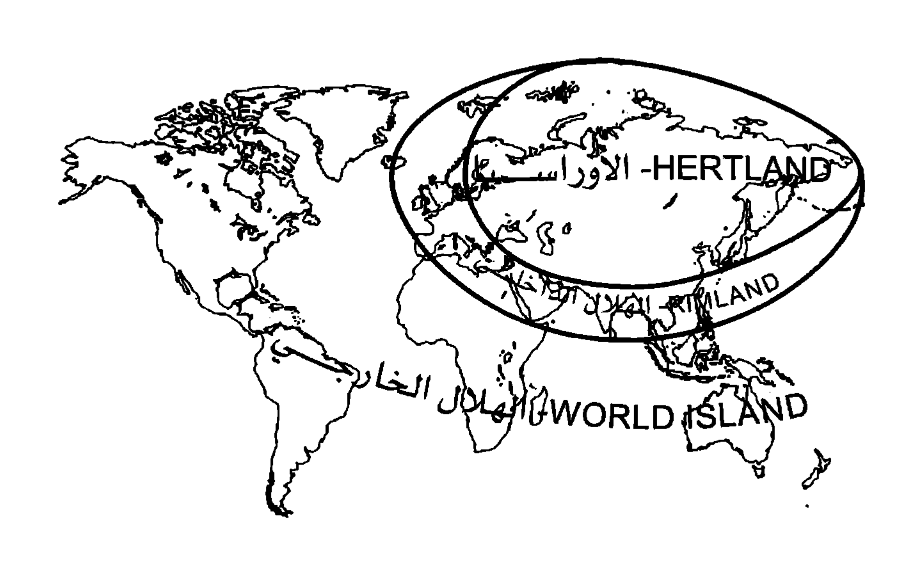
كان أول أعمال ماكيندر وأهمها ـ تقريره حول «المحور الجغرافي للتاريخ»[9] والذي نشر عام 1904 في «المجلة الجغرافية» وفيه عرض المؤلف أساس رؤيته للتاريخ والجغرافيا. تلك الرؤية التي طورها في أعماله التالية، وهذا النص العائد لماكيندر يمكن عدّه النص الجيوبولتيكي الرئيس في تاريخ هذا العلم ـ إذ لم يجر فيه فقط تعميم كافة الخطوط السابقة لتطور «الجغرافيا السياسية»، بل وتمت صياغة القانون الأساسي لهذا العلم.

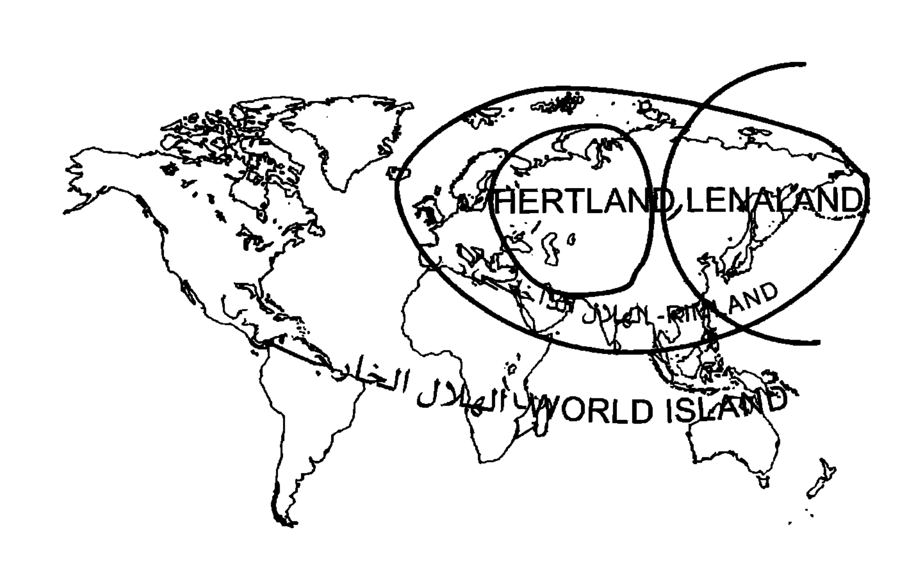
يؤكد ماكيندر على أن الوضع الجيوبولتيكي الأفضل لكل دولة هو الوضع المتوسط المركزي. والمركزية مفهوم نسبي ويمكنها أن تتبدل مع كل سياق جغرافي محدَّد. إلا أن **القارة الأوراسية**، من وجهة النظر الكونية، تقع في مركز العالم ـ ويقع في مركزها ـ «قلب العالم» أو الـ«heartland». فالـHeartland ـ هو تجمّع الكتل القارية للأوراسيا. وهذا هو رأس الجسر الجغرافي الأكثر ملاءمة للسيادة على العالم بأسره.

الـHeartland هو المنطقة الأكثر أهمية في السياق الأعمّ ـ ضمن حدود **الجزيرة العالمية**(World Island). ويدخل ماكيندر في الجزيرة العالمية آسيا، أفريقيا وأوروبا.

وعلى هذا يقوم ماكيندر بتدريج **المدى الكوني** عبر **نظام الدوائر المتحدة المركز**. وفي الوسط بالذات يقوم **المحور الجغرافي للتاريخ أو «المنطقة المحورية»** (pivot area). وهذا المفهوم الجيوبولتيكي متطابق جغرافياً مع روسيا، وذلك الواقع «المحوري» يسمى الـ heartland أي «أرض القلب».

يجيء بعد ذلك: **«الهلال الداخلي أو الحدّي»** (inneror marginal crescent). وهو الطوق المتطابق مع مجالات الحافة في القارة الأوراسية والهلال الداخلي يمثل، وفقاً لنظرية ماكيندر، منطقة حضارة ذات تطور أكثر كثافة. وهو ما يتفق والفرضية القائلة بأن الحضارة ظهرت لأول مرة على ضفاف الأنهار أو البحار أي **«النظرية البوتامية»**. وتنبغي الإشارة إلى أن هذه النظرية تمثل لحظة جوهرية بالنسبة لجميع النظم الجيوبولتيكية. فالتقاطع بين المدارات المائية والبريّة يمثل عاملاً أساسياً في تاريخ الشعوب والدول. وسوف يجري تطوير هذا الموضوع في


الاوراسيا -HERTLAND
الهلال الداخلي -RIMLAND
الهلال الخارجي -WORLD ISLAND


HERTLAND
LENALAND
الهلال الداخلي -RIMLAND
الهلال الخارجي -WORLD ISLAND

المستقبل على يدي شميدت وسبيكمان، إلا أن ماكيندر بالذات كان أول من طرح هذه الصيغة الجيوبولتيكية.

يلي ذلك الدائرة الأبعد نحو الخارج: **الهلال الخارجي أو الجزيري** (outer or insular crescent). وهذه المنطقة **خارجية** بصفة كلية (من الناحيتين الجغرافية والثقافية) بالنسبة للكتلة القارية للجزيرة العالمية (World Island).

يرى ماكيندر أن مسيرة التاريخ محكومة، بطولها، بالعمليات التالية. من مركز الـheartland وباتجاه الأطراف يجري الضغط المستمر لمن يسمون بـ **«قراصنة البر»**. وهو ما تجسد بالصورة الأكثر وضوحاً وملموسية في الغزوات المنغولية. إلا أن الصقالبة، الهون واللان وسواهم سبقوهم إلى ذلك. والحضارات التي تنساب من «المحور الجغرافي للتاريخ» من أعمق أعماق الـ heartland، تحمل في العادة، وفق رأي ماكيندر طابعاً «تسلطياً»، «تراتبياً»، «لا ديمقراطي»، و«لا تجاري». وفي العالم القديم تجسد هذا الطابع في المجتمع الشبيه بسبارطة الدورية أو روما القديمة.

ومن الخارج، من مناطق «الهلال الجزيري» يتحقق ضغط ما يسمى بـ**«قراصنة البحر»** أو «سكان الجزر» على الجزيرة العالمية. إنه ـ الحملات الاستعمارية المنطلقة من خارج المركز الأوراسي والتي تحاول أن توازن فيما بين الدفعات البرية المنطلقة من التخوم الداخلية للقارة. ومن مميّزات حضارة «الهلال الخارجي» الطابع «التجاري» و«الصيغ الديموقراطية» للسياسة. وفي العهود القديمة كانت الدولة الأثينية وقرطاج تتسمان بمثل هذا الطابع.

بين هذين العاملين القطبين الحضاريين ـ الجغرافيين تقع منطقة «الهلال الداخلي» التي كانت بسبب ازدواجيتها وتعرضها الدائم للتأثيرات الثقافية المتناقضة، الأكثر نشاطاً فأصبحت بفضل موقعها بؤرة التطوير الأفضل للحضارة.

من الناحية الجغرافية يدور التاريخ، وفقاً لنظرية ماكيندر، حول المركز القاري. وتظهر تجليات هذا التاريخ بأوضح صورة في مجال «الهلال الداخلي بينما يخيم ضمن الـ heartland القِدَم «المتحجّر» ويسود «الهلال الخارجي» نوع من الفوضى الحضارية.

3 ـ 3 موقف روسيا المفصلي:

أما ماكيندر نفسه فكان يوفق بين اهتماماته ومصالح العالم الأنجلوساكسوني الجزيري أي مصالح «الهلال الخارجي». وفي هذه الحالة كان أساس التوجه الجيوبولتيكي «للعالم الجزيري» يتراءى أمامه في صورة أقصى درجات ضعف الـheartland وأوسع درجات تأثير «الهلال الخارجي» على «الهلال الداخلي». وقد أكد ماكيندر على الأفضلية الاستراتيجية «للمحور الجغرافي للتاريخ» في السياسة العالمية بأسرها وقدّم قانونه الجيوبولتيكي الأهم في الصيغة التالية:

«إن من يسيطر على **أوروبا الشرقية** ومن يسيطر على الـheartland يسيطر على **الجزيرة العالمية** ومن يسيطر على **الجزيرة العالمية** يسيطر على العالم (المثل الديموقراطية والواقع)»[10].

أما على المستوى السياسي فكان ذلك يعني الاعتراف بالدور القيادي لروسيا في المفهوم الاستراتيجي. وقد كتب ماكيندر:

«تحتل روسيا في هذا العالم موقعاً استراتيجياً مركزياً هو الموقع الذي ينسب لألمانيا في أوروبا. وبإمكانها أن تسدد الضربات وأن تستقبلها في الوقت نفسه من كافة الاتجاهات باستثناء الشمال. والتطور النهائي لحركيتها والمرتبط بالسكك الحديدية ليس إلا مسألة وقت» (المحور الجغرافي للتاريخ)[11].

انطلاقاً من ذلك كان ماكيندر يرى أن المهمة الأولى للجيوبولتيكا الأنجلوساكسونية هي الحيلولة دون تشكّل الاتحاد الاستراتيجي القاري حول «المحور الجغرافي للتاريخ» وعليه فإن استراتيجية قوى «الهلال الخارجي» تتمثل في انتزاع أكبر قدر ممكن من الآماد الشاطئية من الـheartland ووضعها تحت سيطرة «الحضارة الجزيرية».

«إن الإخلال بتوازن القوى لصالح «الدولة المحورية» (روسيا ـ المؤلف) والمتمثل في توسعها على حساب الأراضي الحدودية للأوراسيا يسمح باستخدام الموارد القارية، التي لا تحيط بها الأبصار، من أجل بناء الأسطول البحري: ولا يبقى إلا القليل للوصول إلى الامبراطورية العالمية. ويمكن لذلك أن يتحقق إذا ما اتحدت روسيا مع ألمانيا. وتهديد مثل هذا التطور سيجبر فرنسا على الدخول في تحالف مع دول ما وراء البحار.

وبهذا تصبح فرنسا، ايطاليا، مصر، الهند وكوريا قواعد ساحلية تتوجه للرسوّ بها أساطيل الدول الكبرى الخارجية من أجل أن تبدو قوى «المساحة المركزية» في كافة الاتجاهات وتحول بينها وبين تركز كافة قواها لأجل بناء الأسطول الحربي» (المحور الجغرافي للتاريخ)[12].

ومن أطرف الأمور أن ماكيندر لم يكن، بكل بساطة، يبني الفرضيات النظرية، بل وكان يشارك بفعالية في تنظيم دعم «الأنتانتا» الدولي «للحركة البيضاء»[*] التي رأى فيها توجهاً أطلسياً يرمي إلى إضعاف قوة المشاعر المؤيدة للألمان لدى البلشفيك ـ الأوراسيين. فكان بصفته الشخصية يقدم نصائحه لقادة العمل الأبيض محاولاً أن يتحصل على أكبر قدر من الدعم من حكومة انجلترا. فكأنما كان يشهد بعينين متنبئتين لا صلح بريست[**] فقط بل وميثاق روبينتروب ـ مولوتوف أيضاً. . .

وفي سنة 1919 خطّ في كتاب «المثل الديمقراطية والواقع»: «**ما الذي سيحدث لقوى البحر فيما لو قامت القارة العظيمة بالتوحد سياسياً ذات يوم لتصبح أساس الأرمادا[***] التي لا تقهر؟**»[13].

من غير الصعب أن نفهم أن ماكيندر بالذات قد عزّز الجيوبولتيكا الأنجلوساكسونية، التي أصبحت بعد نصف قرن جيوبولتيكا الولايات المتحدة

(*) «الحركة البيضاء» يقصد بها نشاط «البيض» الذين شكلوا التيار الأساسي في الثورة المضادة في روسيا بين 1917 ـ 1922 وقوتها العسكرية والفكرية، وكان قادة هؤلاء من كبار ضباط الجيش القيصري (كورنيلوف، كولتشاك، دنيكين، أليكسييف، ميللر، يوردينتش وڤرانجل) وقدمت لهم «الأنتانتا» عوناً كبيراً. (المترجم).

(**) صلح بريست تم توقيعه بين روسيا السوفياتية وألمانيا وإمبراطورية النمسا والمجر وبلغاريا وتركيا (في 3 ـ 3 ـ 1918 في برست ـ ليتوفسك) تحت ضغط قسوة الأوضاع آنذاك في روسيا وبموجبه ضمت ألمانيا إليها بولندا وأقاليم البلطيق وأقسام من روسيا البيضاء وما وراء القوقاز وحصلت على غرامة بمقدار ستة مليارات مارك، وضمِنَ الصلح لروسيا التفرغ لترسيخ قواعد الدولة السوفياتية الجديدة ثم ألغته بتاريخ 13 ـ 11 ـ 1918. (المترجم).

(***) الأرمادا (من الإسبانية Armada): أسطول أو عمارة بحرية، كما تعني تجمعاً كبيراً لبواخر وطائرات ودبابات تتحرك بتنسيق مشترك. (المترجم).

الأمريكية وحلف شمالي الأطلسي، بالتوجه الأساسي وهو: الحيلولة بأية وسيلة مهما كانت دون إمكانية بناء المعسكر الأوراسي، دون بناء الحلف الاستراتيجي بين روسيا وألمانيا، دون التدعيم الجيوبولتيكي للـheartland وتوسعه. وهكذا لم تتخذ كراهية الغرب الثابتة لروسيا في القرن العشرين طابعاً أيديولوجياً بقدر ما اتخذت الطابع الجيوبولتيكي. وعلى الرغم من الأخذ بعين الحسبان العلاقة التي أكد عليها ماكيندر، بين النمط الحضاري والطابع الجيوبولتيكي لهذه القوى أو تلك فبالإمكان صياغة معادلة تترجم فيها المصطلحات الجيوبولتيكية بسهولة إلى مصطلحات أيديولوجية.

«الهلال الخارجي» ـ الديموقراطية الليبرالية: «المحور الجغرافي للتاريخ» ـ التسلطية اللاديموقراطية؛ «الهلال الداخلي» ـ الأنموذج البيني، المزاوجة بين النظامين الأيديولوجيين.

شارك ماكيندر في الإعداد لمؤتمر ڤرساي(*) والذي تعكس فكرته الجيوبولتيكية جوهر آراء ماكيندر. وقد وضعت تلك الاتفاقية بحيث ترسّخ لأوروبا

(*) صلح ڤرساي: نشير بشيء من التفصيل إلى بنود مؤتمر صلح ڤرساي نظراً لأهميتها بالنسبة لفهم ما يقوله المؤلف. تم توقيع صلح فرساي (وهي بلدة قريبة من باريس) في 28 حزيران 1919 من طرف الدول المنتصرة: الولايات المتحدة، بريطانيا، فرنسا، إيطاليا، اليابان، بلجيكا وسواها من جهة وألمانيا المهزومة من جهة أخرى. وبموجبه أعيدت الألزاس واللورين إلى فرنسا (وفق حدود 1870) ولبلجيكا مالميدي ويبين، ولبولندة بوزنان وأقسام من بوموريا وغيرها من مناطق بروسيا الغربية، واعتبرت مدينة دانتزيغ (غدانسك) مدينة حرة، ووضعت مدينة ميبيل (كلايبيدا) تحت تصرف الدول المنتصرة (ثم ضمت سنة 1923 إلى ليتوانيا). أما مسألة انتماء شليزفيغ، الجزء الجنوبي من بروسيا الشرقية، وسيليزيا العليا، فاتفق على حلها عن طريق الاستفتاء (انتقل القسم الشمالي من شليزفيغ سنة 1920 إلى الدانمرك، وفي سنة 1922 ضم قسم من سيليزيا العليا إلى بولندة وبقيت الأقسام الأخرى المتنازع عليها في أيدي ألمانيا). كما أعطي قسم صغير من الأراضي السيليزية إلى تشيكوسلوفاكيا، وأبقي على الأراضي البولندية على الضفة اليمنى من نهر الأودر جنوبي سيلزيا والقسم الأكبر من سيليزيا العليا ـ في أيدي ألمانيا. وانتقلت السار لمدة 15 عاماً لإدارة عصبة الأمم على أن يقرر مصيرها بعد ذلك عن طريق الاستفتاء. والتزمت ألمانيا بالسهر على استقلال النمسا واعترفت باستقلال تشيكوسلوفاكيا وبولندة. وجرد من السلاح القسم الألماني من الضفة اليسرى لنهر الراين وشريط الضفة اليمنى الذي يزيد عرضه عن الـ 50 كيلو متراً. كما تم تقسيم مستعمرات ألمانيا بين كبار الدول المنتصرة، وحدد جيش ألمانيا البري بـ 100 ألف رجل =

الغربية صفة القاعدة الساحلية للقوى البحرية (العالم الأنجلوساكسوني) وبالإضافة إلى ذلك أُخذ في الحسبان إيجاد دول محصورة من الجانبين تفصل بين الجرمان والسلاف وتحول بكل الطرق دون أن يعقد بينها التحالف الاستراتيجي القاري الذي يحمل كل ذلك الخطر على «الدول الجزيرية» وبالتالي على «الديموقراطية» ومن الأهمية بمكان رصد تطورات تخوم ارتسامات الـheartland في أعمال ماكيندر. فإذا كانت ارتسامات الـheartland في سنتي 1904 و1919 وما يتزامن معهما في مقالة «المحور الجغرافي للتاريخ» وفي كتاب «المثل الديموقراطية والواقع» قد تطابقت لديه في ملامحها العامة مع حدود الإمبراطورية الروسية ثم الاتحاد السوفياتي بعد ذلك فإنه غيّر نظراته سنة 1943 في النص المنشور بعنوان «الكوكب المستدير وغزو العالم»[14]. واقتطع من الـheartland أراضي سيبيريا الشرقية السوفياتية الممتدة وراء اليينيسي. وأطلق على تلك الأرض السوفياتية القليلة السكان اسم «روسيا الـLenaland» على اسم نهر اللينا.

«روسيا الـLenaland تضم: 9 ملايين من السكان يعيش 5 ملايين منهم على طول سكة الحديد التي تخترق القارة من إيركوتسك إلى ڤلاديڤوستوك. أما الأراضي المتبقية فيعيش فوقها ما يقل عن الفرد الواحد لكل 8 كيلومترات مربعة. والثروات الطبيعية لهذه الأرض ـ الأخشاب والمعادن وما إلى ذلك لم تمس بعد من الناحية العملية». (الكوكب المستدير وغزو العالم)[15].

كان عزل ما يسمى الـLenaland عن الحدود الجغرافية للـheartland يعني إمكانية النظر إلى هذه الأرض على أنها منطقة «هلال داخلي» أي كمدىً ساحلي يمكن أن تستخدمه الدول «الجزيرية» ضد «المحور الجغرافي للتاريخ». وماكيندر الذي ساهم مساهمة فعالة في تنظيم تدخل الأنتانتا وفي «الحركة البيضاء» كان، على ما يبدو ، يعدّ سابقة كولتشاك(*) التاريخية، سابقة مقاومته للمركز الأوراسي، أساساً كافياً لاعتبار الأراضي الخاضعة له «منطقة ساحلية» محتملة.

= وأدخلت تقييدات أخرى على تسليح ألمانيا كما التزمت بدفع التعويضات. ومن أهم ما تم الاتفاق عليه ـ تشكيل عصبة الأمم. ولم تصدق الولايات المتحدة الأمريكية على مؤتمر فرساي وفي آب من سنة 1921 عقدت مع ألمانيا معاهدة خاصة تكاد تتفق كلياً مع مقررات مؤتمر فرساي، لكنها لا تتضمن بند تشكيل عصبة الأمم. (المترجم).

(*) كولتشاك ـ الكسندر (1873 ـ 1920) أحد أشهر منظمي الثورة المضادة في روسيا =

3 ـ 4 ثلاث مراحل جيوبولتيكية:

يقسم ماكيندر التاريخ الجيوبولتيكي للعالم إلى مراحل ثلاث[16]:

1) **المرحلة السابقة لكولومبوس**: وفيها كانت الشعوب العائدة لأطراف الجزيرة العالمية، كالرومان مثلاً، تعيش تحت التهديد الدائم لغزو قوى «الأرض القلبية». وهؤلاء بالنسبة للرومان، هم الجرمان، الهون، الآلان والفرس. أما بالنسبة للأويكومينا[*] في العصور الوسطى فهم القبيلة الذهبية[**].

2) **مرحلة كولومبوس**: في هذه المرحلة يخرج ممثلو «الهلال الداخلي» (المناطق الساحلية) لاحتلال المناطق المجهولة على الكوكب الأرضي دون أن يواجهوا بمقاومة جادة في أي مكان.

3) **مرحلة ما بعد كولومبوس**: لم تبق هناك أرض لم يجر غزوها. فالنبض الديناميكي للحضارات محكوم بالتصادم مع اجتذاب شعوب الأرض إلى حرب أهلية على الصعيد العالمي.

إن تقسيم ماكيندر لهذه المراحل وما يتبعه من تحولات جيوبولتيكية يقترب بنا أكثر من التوجهات الأكثر حداثة في الجيوبولتيكا والتي سوف نتعرض لها في جزء آخر من هذا الكتاب.

= وتحويلها إلى حرب أهلية. كان قائد أسطول البحر الأسود بين سنتي 1916 ـ 1917، نال رتبة أميرال سنة 1918، وترأس الحكومة الروسية بين 1918 ـ 1920 ثم أعدم بقرار من اللجنة الحزبية في ايركوتسك. (المترجم).

(*) الأويكومينا (من اليونانية Oikuméne) الجزء المسكون من الأرض. تم وصفها لأول مرة من قبل هيغاتي الميليتي الذي أدخل في مفهوم «المسكونة» أوروبا (باستثناء الشمالية)، شمال أفريقيا، آسيا الصغرى والأمامية والهند. (المترجم).

(**) القبيلة الذهبية: دولة منغولية ـ تترية أسسها الخان باطي بداية الأربعينيات من القرن الثالث عشر، ودخلت تحت سيطرتها أراضي سيبيريا الغربية، خوارزم الشمالية، البولغار على نهر الفولغا، القوقاز الشمالي وصحراء القفجاق، وخضعت لها الإمارات الروسية فكانت تدفع لها الجزية. عاصمتها ساراي ـ باتو ثم ساراي ـ بركة منذ النصف الأول من القرن الرابع عشر. تفتتت في القرن الخامس عشر إلى خانيات سيبيريا وقازان والقرم وآستراخان وسواها. (المترجم).

ألفريد ماهان
القوة البحرية

4 ـ 1 Sea Power:

لم يكن الأمريكي ألفريد ماهان (1840 ـ 1914)، خلافاً لراتسيل وتشيلّين وماكيندر، عالماً بل عسكريّ. ولم يستخدم مصطلح «الجيوبولتيكا»، إلا أن منهج تحليله والنتائج الأساسية التي توصل إليها تتطابق مع الرؤية الجيوبولتيكية الصرف.

قام ضابط الـUnion Navy الأمريكي منذ عام 1885 بتدريس تاريخ الأسطول الحربي في «Naval War Collage» في نيوبورت (رود ـ آيلاند). وفي سنة 1890 نشر كتابه الأول «القوى البحرية في التاريخ» (1660 ـ 1783)[17] والذى أمسى فور صدوره تقريباً نصاً كلاسيكياً في الاستراتيجية العسكرية. وتوالت بعد ذلك، مع بعض فترات الانقطاع، أعماله الأخرى: «تأثير القوة البحرية على الثورة الفرنسية والامبراطورية (1793 ـ 1812)»[18]، «اهتمام أمريكا بالقوة البحرية في الحاضر والمستقبل»[19]، «مشكلة آسيا وتأثيرها على السياسة الدولية»[20] و«القوة البحرية وعلاقتها بالحرب»[21].

وقد كرست جميع كتبه تقريباً لموضوع واحد ـ موضوع **«القوة البحرية»** «Sea Power». فصار اسم ماهان مرادفاً لهذا المصطلح.

ولم يكن ماهان منظراً للاستراتيجية العسكرية فحسب، بل وشارك بفعالية في السياسة. وقد ترك تأثيراً كبيراً بصفة خاصة على السياسيين من أمثال هنري كابوت لودج وتيودور روزفلت. وفضلاً عن ذلك فإننا إذا ما ألقينا بنظرنا إلى ماضي

الاستراتيجية العسكرية الأمريكية على مدار القرن العشرين بطوله رأيناها تقوم على تَطابق مباشر مع أفكار ماهان. يضاف إلى ذلك أن هذه الاستراتيجية إذا لم تحمل للولايات المتحدة الأمريكية النجاح الملموس في الحرب العالمية الأولى فإن تأثيرها كان ظاهراً في الحرب العالمية الثانية، أما الانتصار في الحرب الباردة مع الاتحاد السوفياتي فقد عزز نجاح استراتيجية **القوة البحرية**.

4 ـ 2 الحضارة البحرية = حضارة تجارية:

يرى ماهان أن التجارة هي الأداة الأولى للسياسة. وعلى الأعمال العسكرية أن تقتصر على تأمين الشروط الأفضل لإقامة الحضارة التجارية الكونية. وهو يرى الدورة الاقتصادية في نقاط ثلاث:

1) الإنتاج (تبادل السلع والخدمات عبر الطرق المائية).

2) الملاحة (التي تحقق هذا التبادل).

3) المستعمرات (التي تحقق تداول السلع على المستوى العالمي)[22].

ويرى ماهان أن تحليل موقف الدولة ووضعها الجيوبولتيكي يجب أن يتم على أساس بنود ستة:

1 ـ الموقع الجغرافي للدولة، انفتاحها على البحار، إمكانية إجراء الاتصالات البحرية مع الدول الأخرى، مدى امتداد الحدود البرية، القدرة على بسط السيطرة على المناطق الهامة استراتيجياً، قدرة الدولة على تهديد أراضي العدو بأسطولها.

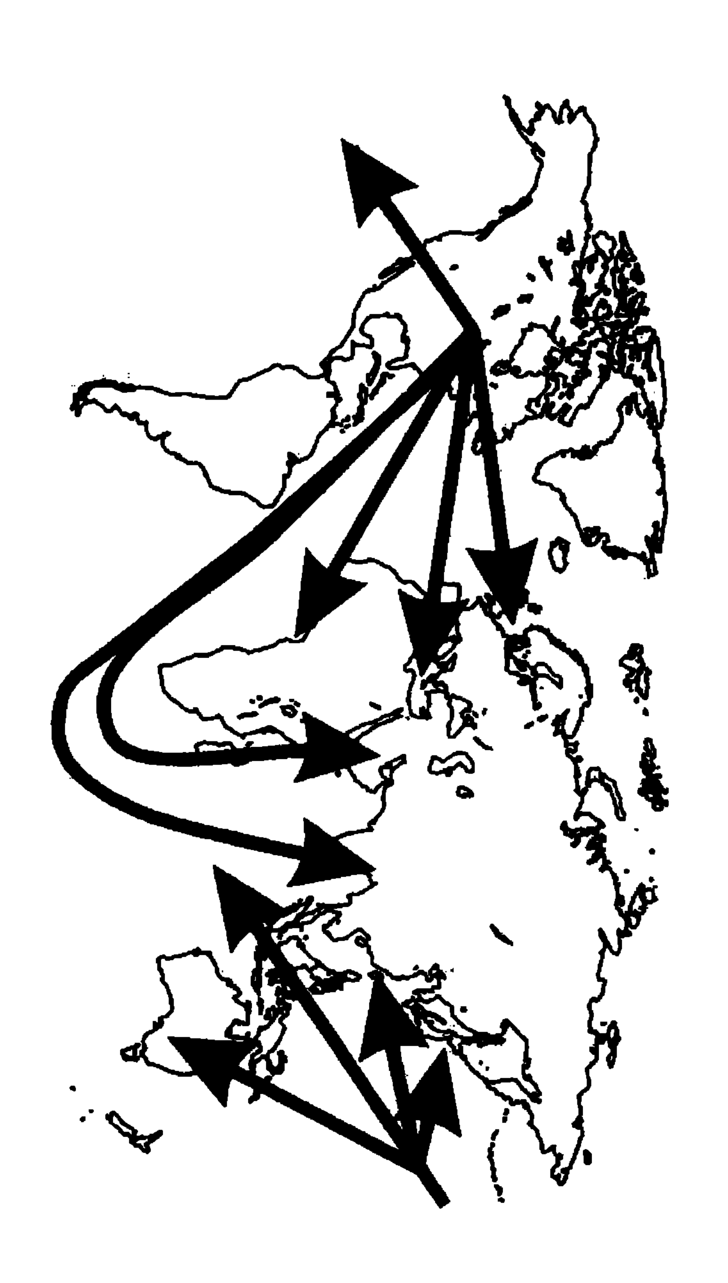
2 ـ الهيئة الفيزيائية للدولة أي هيئة الشطآن البحرية وإعداد الموانىء المتوضعة عليها فبهذا يرتبط ازدهار التجارة الاستراتيجية الدفاعية.

3 ـ امتداد مساحة الأراضي. وهي تعادل امتداد الخط الساحلي.

4 ـ العدد الإحصائي للسكان. ويكتسب هذا أهمية بالنسبة لتقييم قدرة الدولة على بناء السفن وخدمتها.

5 ـ الطابع القومي. مقدرة الشعب على العمل بالتجارة، إذ إن القوة البحرية تعتمد التجارة السلمية والواسعة.





6 ـ الطابع السياسي للإدارة: وبه ترتبط إعادة توجيه أفضل المصادر الطبيعية والبشرية نحو إنشاء القوة البحرية القادرة»[23].

يتبين من هذا الجرد أن ماهان يقيم نظريته الجيوبولتيكية منطلقاً بصفة استثنائية، من القوة البحرية ومصالحها. وكانت قرطاج القديمة أنموذج القوة البحرية بالنسبة لماهان، أما من الناحية التاريخية الأقرب إلينا ـ فهي انجلترا القرنين السابع عشر فالتاسع عشر.

ومفهوم «القدرة البحرية» يعتمد في نظر ماهان على حرية «التجارة البحرية»، أما الأسطول البحري ـ الحربي فلا دور له سوى ضمان تحقيق هذه التجارة. ويمضي ماهان خطوة أبعد من ذلك إذ يعدّ **«القوة البحرية»** نوعاً خاصاً من الحضارة (فيتجاوز بذلك آراء كارل شميدت)، الحضارة الأسمى والأكثر فعالية فهي إذن المهيّأة للسيادة العالمية.

4 ـ 3 إخضاع الولايات المتحدة الأمريكية للعالم manifest destiny:

لقيت أفكار ماهان قبولاً في جميع أنحاء العالم وتركت أثرها على عدد كبير من الاستراتيجيين الأوروبيين. حتى إن ألمانيا القارية، البرية الطرق، تبنّت في شخص الأميرال تيربيتس ـ أطروحات ماهان وأخذت تطور أسطولها بفعالية. وفي سنتي 1940 و1941 صدر لماهان كتابان في الاتحاد السوفياتي.

إلا أن الكتابين كانا مخصصين بالدرجة الأولى لأمريكا والأمريكيين. وكان ماهان من أشد أنصار مقولة الرئيس مونرو (1758 ـ 1831) الذي أعلن عام 1823 مبدأ اللاتدخل المتبادل بين أمريكا وأوروبا، كما ربط تنامي قوة الولايات المتحدة بتوسعها الترابي فوق الأراضي الممتدة بجوارها. وكان ماهان يرى أن لأمريكا **«مصيراً بحرياً»** وأن هذا هو Manifest destiny (المصير المعلن)[24] ويتجسد في مرحلته الأولى في التكامل الاستراتيجي لمجموع القارة الأمريكية ثم في تحقيق السيطرة العالمية.

وعلينا أن نؤدي واجب الاحترام لما يكاد يسمى بالرؤية التنبؤية لماهان. ففي أيامه لم تكن الولايات المتحدة قد خرجت بعد إلى مجموعة الدول العالمية المتقدمة، وفوق ذلك لم يكن قد ظهر بعد «نمطها الحضاري البحري». فمنذ سنة



1905 كان ماكيندر في مقالته «المحور الجغرافي للتاريخ» قد أدرج الولايات المتحدة في عداد «الدول البرية»، الداخلة في سياق «الهلال الخارجي» كمجرد استمرار استراتيجي نصف استعماري لأنجلترا البحرية. وكتب يقول:

«منذ هنيهة صارت الولايات المتحدة الأمريكية دولة شرقية. وهي تؤثر على ميزان القوى في أوروبا لا بطريقة مباشرة بل عبر روسيا»[25].

لكن قبل 10 سنوات من ظهور نصّ ماكيندر هذا كان الأميرال ماهان قد تنبأ لأمريكا بالذات بمصير كوني، أن تصبح دولة بحرية قيادية تترك أثرها على مصائر العالم.

وقد أكد ماهان في كتابه: «اهتمام أمريكا بالقوة البحرية» أن على أمريكا، لكي تصبح دولة عالمية، أن تنجز الأمور التالية:

1) التعاون بفعالية مع الدولة البحرية البريطانية العظمى.

2) إقامة العراقيل في وجه الطموحات البحرية الألمانية.

3) المراقبة اليقظة للتوسع الياباني في المحيط الهادي ومقاومته.

4) تنسيق العمليات المشتركة مع الأوروبيين ضد شعوب آسيا[26].

ورأى ماهان مصير الولايات المتحدة لا في أن تشارك بطريقة سلبية في السياق العام لدول الأطراف في «الهلال الخارجي» بل في أن تلعب الدور القيادي في العلاقات الاقتصادية، الاستراتيجية وحتى الأيديولوجية.

وبصورة مستقلة عن ماكيندر توصل ماهان إلى نفس النتائج المتعلقة بالخطر الأكبر على الحضارة البحرية. ويتمثل هذا الخطر في دول الأوراسيا القارية ـ في الدرجة الأولى، روسيا والصين؛ وفي الثانية ألمانيا. وكان الصراع مع روسيا، مع هذه الكتلة القارية المتواصلة **للإمبراطورية الروسية** الممتدة من غربي **آسيا الصغرى** وحتى خط الطول الياباني في **الشرق**، يمثّل بالنسبة للقوة البحرية المهمّة الاستراتيجية المستديمة.

وقد نقل ماهان إلى المستوى العالمي مبدأ «الأناكوندا»، الذي استخدمه الجنرال الأمريكي مك ـ كليلان في الحرب الأهلية في الشمال الأمريكي خلال سنوات 1861 ـ 1865. ويتجسد هذ المبدأ في حصار الأراضي المعادية من البحر وعبر الخطوط الساحلية، وهو ما يؤدي تدريجياً إلى الاستنزاف الاستراتيجي

للعدو. وبما أن ماهان كان يرى أن جبروت الدولة يتحدد بقدراتها على إقامة القوة البحرية ففي الحالة المعاكسة تصبح المهمة الاستراتيجية الأولى هي الحيلولة دون بناء تلك القوة في معسكر العدو. وعليه فإن مهمة المواجهة التاريخية لأمريكا هي تعزيز مواقعها في البنود الستة (التي سلف تعدادها) وإضعاف العدو في تلك البنود المذكورة. فينبغي أن تكون آمادها الساحلية تحت السيطرة. أما المناطق المطابقة لذلك عند العدو فينبغي العمل بكل الوسائل على قطعها عن الكتلة القارية. ثمَّ: بما أن مبدأ مونرو في جزئه الخاص بالتكامل الترابي، يعزز قدرات الدولة فلا ينبغي، على العكس من ذلك، معاملة العدو أو المنافس ـ وهو، في حالة ماهان، الدول الأوراسية الكبرى (روسيا، الصين وألمانيا) ـ بالعمل على أن تخنق الكتلة القارية في أصفاد الأناكوندا وأن تسحق عن طريق سحب المناطق الساحلية من تحت سيطرتها وإغلاق منافذها على المجال البحري بقدر المستطاع.

في الحرب العالمية الأولى جرى تطبيق هذه الستراتيجية من خلال دعم الأنتانتا للحركة البيضاء في أطراف الأوراسيا (رداً على عقد البلشفيك الصلح مع ألمانيا)، أما في الحرب العالمية الثانية فقد طبقت أيضاً ضد أوروبا الوسطى، وبخاصة عبر العمليات الحربية ـ البحرية ضد دول المحور واليابان. إلا أنها ظهرت بقدر أكبر من الوضوح خلال مرحلة الحرب الباردة عندما اتخذت المواجهة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي تلك الأحجام العالمية على مستوى الكرة الأرضية والتي أخذ علماء الجيوبولتيكا يعتمدونها على المستوى القطري بدءاً من نهاية القرن التاسع عشر.

من الناحية العملية كانت الخطوط الأساسية لاستراتيجية الناتو وغيره من الأحلاف الموجهة نحو وقف الاتحاد السوفياتي (مبدأ «الوقف» مطابق لمبدأ الأناكوندا الاستراتيجي والجيوبولتيكي) ـ ومن ذلك الـ ASEAN والـ ANZUS والـ CENTO(*) ـ وتمثل التطوير المباشر للمنطلقات الأساسية للأميرال ماهان، والذي يمكننا أن نسميه، على هذا الأساس، الأب العقلي لمجموع الأطلسية المعاصرة.

(*) ASEAN ـ مجموعة دول جنوب شرقي آسيا.

ANZUS ـ اتفاقية دفاع مشترك بين أوستراليا، نيوزيلاندا والولايات المتحدة الأميركية.

CENTO ـ حلف دول وسط آسيا. (المترجم).

فيدال دي لابلانش
فرنسا ضد ألمانيا

5 ـ 1 لوحة جغرافية فرنسا

يعدُّ فيدال دي لابلانش (1845 ـ 1918) مؤسس المدرسة الجغرافية الفرنسية. كان ذلك الجغرافي المتخصص منجذباً إلى «جغرافية» راتسيل «السياسية» وكان يبني نظرياته معتمداً على ذلك المصدر، على الرغم من أن الكثير من آفاق المدرسة الجيوبولتيكية الألمانية كانت عرضة لنقده الشديد.

ففي كتابه «لوحة جغرافية فرنسا» (1903) يتوجه نحو نظرية التربة ذات الأهمية المميّزة بالنسبة لعلماء الجيوبولتيكا الألمان بقوله:

«العلاقة بين التربة والإنسان موسومة في فرنسا بالطابع المميّز للقِدَم والتواصل (. . .) فكثيراً ما يستوقف انتباهنا أن الناس في بلادنا يعيشون في الأماكن نفسها منذ أقدم العصور. فالينابيع والصخور الكلسية اجتذبت البشر منذ البداية كأماكن ملائمة للعيش والاحتماء. الإنسان عندنا تلميذ التربة الوفي. ودراسة التربة تساعد على توضيح طباع السكان وأمزجتهم وأولوياتهم»[27].

ولكن بغض النظر عن مثل هذه النظرة ـ الألمانية تماماً ـ إلى العامل الجغرافي وتأثيره على الثقافة، فقد كان فيدال دي لابلانش يرى أن راتسيل وأتباعه يبالغون بشكل واضح في تقييم العامل الطبيعي إذ يعدونه عاملاً محدِّداً.

ذلك أن الإنسان في رأي لابلانش يعد بدوره «**عاملاً جغرافياً مهمّاً**» إلا أنه

فوق ذلك «مميَّز بالمبادرة» فهو ليس جزءاً من الديكور فقط، بل وهو الممثل الأهم في المسرحية.

5 ـ 2 البوسيبيلزم:

هذا الانتقاد للتهويل المتعاظم للعامل المكاني عند راتسيل دفع فيدال دي لابلانش إلى طرح نظرية جيوبولتيكية خاصة هي «البوسيبيلزم» (من كلمة «possible» ـ وتعني «الممكن»). وللتاريخ السياسي، انطلاقاً من هذه النظرية، أفقان ـ **مكاني** (جغرافي) **وزماني** (تاريخي). وينعكس العامل الجغرافي في الوسط المحيط والتاريخي في **الإنسان** نفسه (صاحب المبادرة)[28]، وقد رأى ڤيدال دي لابلانش أن خطأ «الجغرافيين السياسيين» الألمان يعود إلى كونهم يعدّون السطح الأرضي عاملاً حاسماً في التاريخ السياسي للدول. وبهذا يُنتقص برأي دي لابلانش من عاملين: الحرية الإنسانية، وعامل التاريخية. أما هو فيقترح النظر إلى الوضع المكاني الجغرافي على أنه «احتمال» أو «إمكانية» يمكن أن تفعّل لتغدو عاملاً سياسياً حقيقياً، ويمكن أن لا تفعَّل، وهذا ما يرتبط إلى حدود بعيدة بالعامل الذاتي ـ بالإنسان، ساكن ذلك المكان.

وقد أخذت هذه النظرية في الحسبان من طرف علماء مدرسة هاوسهوفر الجيوبولتيكية الألمان الذين عدوا انتقاد دي لابلانش راجحاً ومهماً. وقد تنامى في هذه الحالة دور العامل الأتني أو العرقي أثناء النظر إلى التاريخ السياسي للدول، وتناغم ذلك مع طرطشات الإشكالية العرقية في ألمانيا في فترة العشرينيات.

واستقبلت «بوسيبيليزم» دي لابلانش من طرف غالبية المدارس الجيوبولتيكية على أنها تصحيح **للحتمية الجغرافية** الصارمة لدى من سبق من المؤلفين الجيوبولتيكيين.

5 ـ 3 فرنسا من أجل «قوة بحرية»:

كرس فيدال دي لابلانش اهتماماً خاصاً لألمانيا التي كانت الخصم السياسي الأول لفرنسا في ذلك الوقت. وكان يرى أن ألمانيا هي الدولة الأوروبية الوحيدة القوية التي يتعرض توسعها الجيوبولتيكي بشكل مقصود لحصار الدول الأوروبية

المتطورة الأخرى. فإذا كان لإنجلترا وفرنسا مستعمراتهما الواسعة في أفريقيا وفي العالم كله، وإذا كان بمقدور الولايات المتحدة أن تتحرك بحرية تقريباً نحو الجنوب والشمال، وإذا كان لدى روسيا آسيا، فإن ألمانيا مخنوقة من كافة الجهات ولا تملك متنفساً لطاقاتها. وقد رأى دي لابلانش في ذلك أكبر تهديد للسلم في أوروبا ورأى أن من الضروري العمل بكل الوسائل من أجل إضعاف تطور هذا الجار الخطير.

هذه النظرة إلى ألمانيا جرّت وراءها، وبطريقة منطقية التحديد الجيوبولتيكي لفرنسا على أنها تدخل في عداد الجبهة المشتركة **«للقوة البحرية»** الموجهة ضد الدول القارية. ولم يكن موقف دي لابلانش فريداً بين مواقف علماء الجيوبولتيكا الفرنسيين، فبصورة موازية لذلك ظهر في فرنسا اتجاه معاكس موال للألمان يمثله الأميرال لاڤال والجنرال ديغول.

وفي سنة 1917 ينشر فيدال دي لابلانش كتاب «فرنسا الشرقية» ويبرهن فيه على العودة الأصيلة لمقاطعتي الألزاس واللورين إلى فرنسا ولا شرعية الدعاوى الألمانية فيهما. وهو في الوقت نفسه، يستدعي الثورة الفرنسية ويرى في تقديراتها اليعقوبية تعبيراً عن التوجهات الجيوبولتيكية لدى الشعب الفرنسي الطامح إلى وحدة ومركزيّة دولته عبر تكامل جغرافي. أما الليبرالية السياسية فيفسرها أيضاً بتعلق البشر بالتربة ورغبتهم الطبيعية بجعلها ملكية خاصة، وعلى هذا فإن فيدال دي لابلانش يقرن، بطريقته الخاصة، مظاهر الوقائع الجيوبولتيكية بالوقائع الأيديولوجية: فالسياسة المكانية لأوروبا الغربية (فرنسا) مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بـ «الديموقراطية» و«الليبرالية»، وعبر هذه المعادلة يسهل التقريب بين النظرات الجيوبولتيكية لدي لابلانش مع ماكيندر وماهان.

أما اختيار دي لابلانش «للتوجه البحري» فيستجيب بصورة رائعة لهذا المخطط.

نيكولاس سبيكمان
مراجعة ماكيندر مركزية الـ rimland

6 ـ 1 في خدمة أمريكا:

يعدّ الأمريكي نيكولاس سبيكمان (1893 ـ 1943) الهولندي المولد، المتابع المباشر لخط الأميرال ماهان. كان سبيكمان أستاذاً للعلاقات الدولية وأصبح فيما بعد مديراً لمعهد العلاقات الدولية في جامعة ييل. وخلافاً لعلماء الجيوبولتيكا الأوائل لم تكن الجغرافيا تعني بالنسبة له أمراً عظيم الأهمية، وعلى مستوى أقل من ذلك كانت تشغله قضايا ارتباط الشعب بالتربة وتأثير السطح الأرضي على الطابع القومي وما إلى ذلك. كان ينظر إلى الجيوبولتيكا على أنها الأداة الأكثر أهمية في السياسة الدولية المحدَّدة كمنهج تحليلي ونظام للمعادلات يسمحان معاً باستنباط الاستراتيجية الأشد تأثيراً. وفي هذا المعنى وجه أعنف نقده للمدرسة الجيوبولتيكية الألمانية (وبخاصة في كتابه «جغرافية العالم»[29] والذي عد فيه التصورات المتعلقة بـ «الحدود العادلة والحدود الظالمة هراء ميتافيزيكياً».

وعلى نحو ما كان الأمر بالنسبة لماهان كان من سمات سبيكمان المدخل النفعي والرغبة المحدَّدة في تقديم المعادلة الجيوبولتيكية الأشد تأثيراً والتي تتمكن الولايات المتحدة بعونها من التوصل، وبأسرع الطرق، إلى تحقيق «السيطرة العالمية». وبهذه البراغماتية تتحدد بنية دراساته جميعاً.

6 ـ 2 تصويب ماكيندر:

بعد أن درس سبيكمان بكل اهتمام أعمال ماكيندر تقدم بصياغته لمخطط جيوبولتيكي أساسي يختلف قليلاً عن أنموذج ماكيندر. وكانت فكرة سبيكمان الأساسية تقوم على أساس أن ماكيندر قد بالغ في تقييم الأهمية الجيوبولتيكية للـ heartland. وهذه المبالغة لم تتناول فقط التوضع الحيوي للقوى على خارطة العالم ـ ومن ذلك جبروت الاتحاد السوفياتي بصفة خاصة ـ بل وتناولت المخطط التاريخي الأولي. فكان سبيكمان يرى أن التاريخ الجغرافي «للهلال الداخلي» الـ rimland، «المناطق الشاطئية» قد تكوَّن من تلقاء نفسه وليس بتأثير من «رحَّل اليابسة» حسبما رأى ماكيندر. فالـheartland من وجهة نظر سبيكمان ليس إلا مدى مكانياً محتملاً يتلقى جميع النبضات الحضارية من المناطق الشاطئية ولا يحمل في طياته أي رسالة جيوبولتيكية مستقلة أو حافز تاريخي. والـrimland وليس الـheartland هو، في رأيه، مفتاح السيطرة العالمية.

أما معادلة ماكيندر الجيوبولتيكية القائلة بأن **من يسيطر على أوروبا الشرقية يسيطر على الـheartland**، ومن يسيطر على الـ heartland يسيطر على الجزيرة العالمية، ومن يسيطر على الجزيرة العالمية يسد على العالم» ـ فيقترح سبيكمان استبدالها بمعادلته القائلة: «**من يسيطر على الـrimland** يسيطر على الأوراسية ومن يسيطر على الأوراسيا يقبض على مصير العالم بيديه»(30).

من الناحية المبدئية لم يأت سبيكمان من خلال هذا بجديد. وبالنسبة لماكيندر نفسه كانت «المنطقة الشاطئية»، «الهلال الخارجي» أو الـrimland النقطة الاستراتيجية الأساسية في السيطرة على القارة. لكنه فهم هذه النقطة لا كتشكل جيوبولتيكي مستقل ومكثف بذاته بل كميدان للمواجهة بين نبضين «البحري» و«البري». وإلى جانب ذلك لم يفهم الـ heartland على الإطلاق على أنه مفهوم السيطرة على روسيا والتكتلات القارية اللائذة بها. وأوروبا الشرقية مجال بيْني ـ بين «المحور الجغرافي للتاريخ» والـ rimland وعليه ففي تناسب القوى على أطراف الـ heartland يكمن مفتاح مشكلة السيطرة العالمية. لكن سبيكمان تخيل عملية خلط الأوراق في مقولته الجيوبولتيكية المتعلقة بنظرية ماكيندر على أنها شيء جديد كل الجدة. أما في واقع الأمر فما دار الحديث إلا حول قليل من الاختلاف في اللوينات الدلالية للمفاهيم.

6 ـ 3 سلم تقدير القوة:

في كتابيه «الاستراتيجية الأمريكية في السياسة العالمية»[31]، و«جغرافية العالم»[32] يقدم سبيكمان 10 معايير ينبغي تقدير القوة الجيوبولتيكية على أساسها. إنها تطوير للمعايير التي كان ماهان قد طرحها لأول مرة وهي:

1 ـ سطح الأرض.

2 ـ طبيعة الحدود.

3 ـ عدد السكان.

4 ـ توفر أو انعدام الثروات الطبيعية.

5 ـ التطور الاقتصادي والتقني.

6 ـ القوة المالية.

7 ـ التجانس الإتني.

8 ـ مستوى التكامل الاجتماعي.

9 ـ الاستقرار السياسي.

10 ـ الروح الوطنية.

فإذا تبين أن إجمالي تقييم الإمكانات الجيوبولتيكية للدولة وفقاً لهذه المعايير ليس مرتفعاً حتى الدرجة الكافية كان ذلك يعني بطريقة شبه آلية أنه يتعين على هذه الدولة الدخول في حلف استراتيجي أكثر عمومية مضحية بجزء من استقلالها بغية الحصول على الحماية الجيوبولتيكية الاستراتيجية العالمية.

6 ـ 4 المحيط المتوسط:

بالإضافة إلى إعادة تقييم معنى الـrimland أدخل سبيكمان إضافة جديدة هامة إلى اللوحة الجيوبولتيكية للعالم والتي تمت رؤيتها من منظور «القوة البحرية». فقد طرح مفهوماً في غاية الأهمية هو «**المحيط المتوسط**» «Midland Ocean». وفي أساس هذا التصور الجيوبولتيكي يكمن تشابه مميّز بين البحر الأبيض المتوسط في تاريخ أوروبا والشرق الأوسط وأفريقيا الشمالية في العصور القديمة، وبين المحيط

الأطلسي بالنسبة للحضارة الغربية في التاريخ المعاصر. وبما أن سبيكمان كان يرى في «منطقة الحافة»، الـ rimland بالذات أساساً للأرض التاريخية للحضارة فقد تبدت له منطقة البحر الأبيض المتوسط القديمة أنموذج الثقافة التي انتشرت فيما بعد في أعماق اليابسة (تحضير متوحشي البر) وعلى المساحات البعيدة المنبتّة التي ما كان الوصول إليها ممكناً إلا بواسطة الطريق البحرية (تحضير متوحشي **البحر**) وتشبيهاً لهذا الأنموذج المتوسطي يحدث الأمر نفسه في أيامنا الحاضرة وعلى مساحة كونية مضخمة بالنسبة للمحيط الأطلسي والذي تبدو ضفتاه ـ الأمريكية والأوروبية منطقة للحضارة الغربية الأكثر تطوراً في المفهومين التقني والاقتصادي.

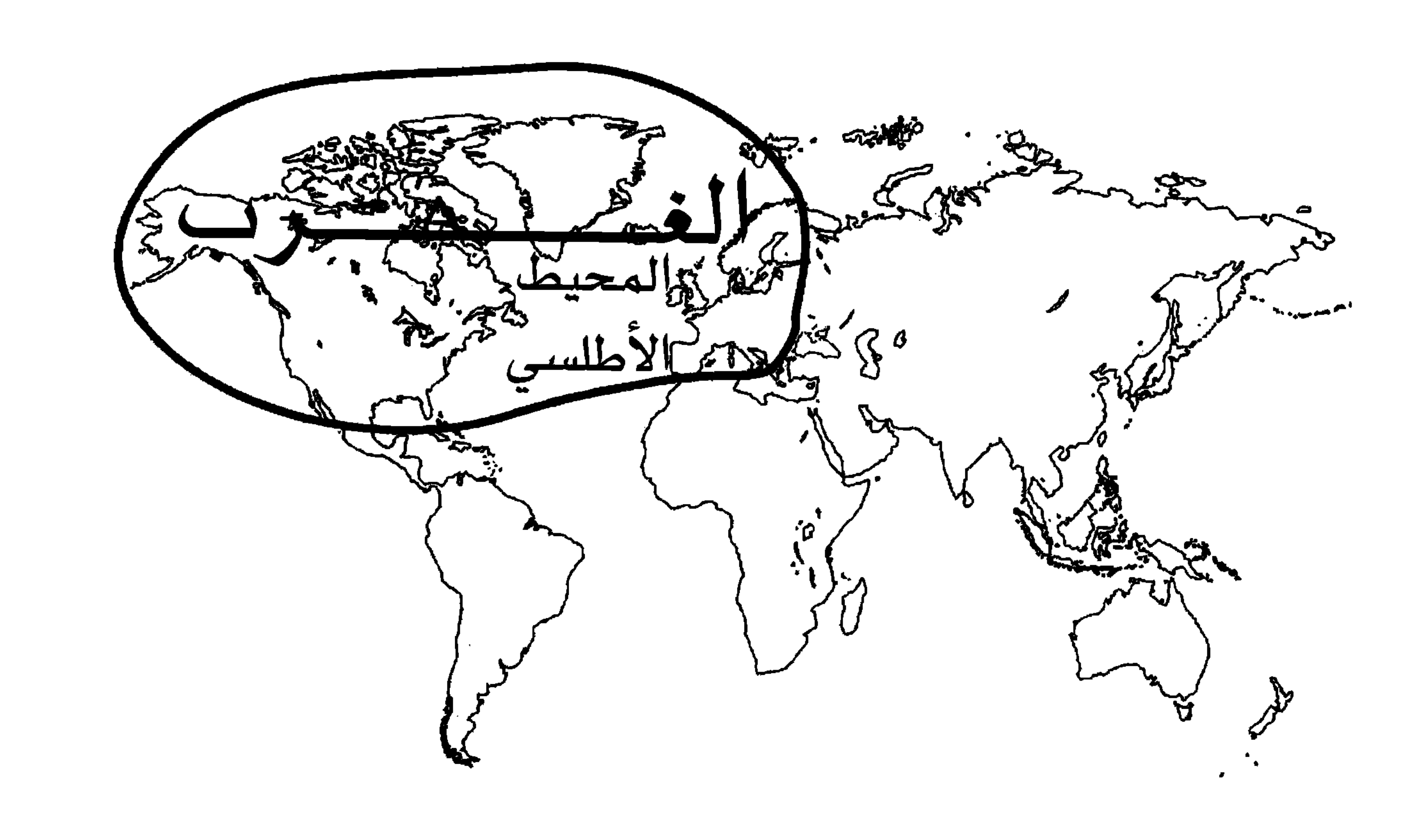
ولا يغدو «المحيط المتوسط» (Midland Ocean) في هذا المنظور عاملاً فاصلاً بل موحداً، «**بحراً داخلياً**» (mare internum). وعلى هذا تتحدد على يدي سبيكمان بقعة جيوبولتيكية يمكن تسميتها اشتراطياً «بالقارة الأطلسية»، ينبسط المحيط الأطلسي في وسطها شبيهاً ببحيرة وسط منطقة برية وهذه «القارة» النظرية ، «**الأطلنطيد** الجديدة» مرتبطة بوحدة ثقافة ذات مصدر أوروبي غربي، وبأيديولوجية الليبرالية ـ الرأسمالية والديموقراطية، وبوحدة المصير السياسي الإتني والتقني.

وقد أفرد سبيكمان وقفة خاصة لدور العامل العقلي في هذه «**القارة الأطلسية**». إن أوروبا الغربية وحزام الساحل الشرقي لأمريكا الشمالية (وبخاصة نيويورك) يغدوان العقل المدبر لهذه «**الأسرة الأطلسية**» الجديدة. ومركزها العصبي وآلية قوتها هي الولايات المتحدة ومجمّعها التجاري والحربي ـ الصناعي. وتغدو أوروبا الملحق التفكيري للولايات المتحدة التي تصبح مصالحها الجيوبولتيكية وخططها الاستراتيجي الوحيدة والرئيسة بالنسبة لدول الغرب. وبصورة تدريجية ينبغي أن تتقلص الاستقلالية السياسية للدول الغربية وأن تنتقل لديها السلطة نحو نبرة خاصة توحد بين ممثلي كافة المجالات «الأطلسية» وتخضع للرئاسة الأفضل للولايات المتحدة.

لقد كان سبيكمان سباقاً إلى بناء العمليات السياسية العظمى ـ إقامة «**حلف شمالي الأطلسي** » (**الناتو**)، تحجيم استقلالية الدول الأوروبية في عالم ما بعد الحرب والسيطرة العالمية للولايات المتحدة وهلمّ جرّاً.

6 ـ 5 مهندس النصر الأمريكي:

لم يجعل سبيكمان أساس مقولته الشهيرة التفسير الجيوبولتيكي لمكانة


الغـــرب
المحيط
الأطلسي

الولايات المتحدة كقوة بحرية في العالم كله (كما فعل ماهان) ربما لأن ذلك كان قد صار حقيقةً واقعة في عهده ـ بقدر ما كان ذلك الأساس ضرورة السيطرة على المناطق الشاطئية للأوراسيا، أوروبا، البلدان العربية، الهند والصين وغير ذلك ـ بنيّة تحقيق النصر النهائي في المبارزة بين القوى القارية والبحرية. فإذا كانت النظرة إلى الثنائية الكونية في لوحة ماكيندر تقوم على أساس أنها شيء «أبدي» «لا يمكن إلغاؤه» فقد كان سبيكمان يرى أن السيطرة الكاملة على الـ rimland من طرف «الدول البحرية» سيؤدي إلى النصر النهائي الذي لا رجعة فيه على القوى البرية، التي ستكون منذ اليوم وبكاملها تحت السيطرة.

من الناحية الواقعية كان ذلك التطوير الأقصى لـ «تاكتيك الأناكوندا» التي كان ماهان قد أرسى أسسها. وقد أكسب سبيكمان ذلك النظام صيغته النهائية.

استعرض انتصار الولايات المتحدة الأمريكية في الحرب الباردة **«كقوة بحرية»** الصواب الجيوبولتيكي المطلق لسبيكمان الذي يمكن تسميته بـ «مهندس النصر العالمي لدول الليبرالية ـ الديموقراطية» على الأوراسيا.

يمكننا أن نقول اليوم بأن أطروحات سبيكمان المتعلقة بالأولوية الاستراتيجية للـ rimland وبأهمية **«المحيط المتوسط»** قد أثبتها التاريخ نفسه. أما نظرية ماكيندر المتعلقة بالتطلع الأبدي لمركز الأوراسيا إلى الانبعاث السياسي والتوسع القاري فلا يزال مبكراً الآن الإلقاء بها في مجموعها بعيداً.

ومن ناحية أخرى فإن بعض آراء سبيكمان (وبخاصة آراء تلميذه كيرك الذي طور نظرية الـ rimland بطريقة أكثر تفصيلاً قد جرى اعتناقها من طرف علماء الجيوبولتيكا الأوروبيين الذين رأوا في تقييمه الاستراتيجي العالي «للمناطق الساحلية» إمكانية الخروج بأوروبا إلى مصاف تلك الدول التي تجدد مصائر العالم. لكن كان لا بد في سبيل ذلك من التخلي عن فكرة «المحيط المتوسط».

وعلى الرغم من هذا المسار النظري لبعض علماء الجيوبولتيكا الأوروبيين (والذي يبقى مزدوج المعنى إلى حد بعيد) فإن سبيكمان ينتمي، بدون شك، إلى عداد «الأطلسيين» الأوفر ألقاً ومنطقية. وفضلاً عن ذلك فيمكن تسميته مع الأميرال ماهان «أب الأطلسية» و«الملهم الفكري للناتو».

كارل هاوسهوفر

«الحلف القاري»

7 ـ 1 الحرب والكر:

الجيوبولتيكا مدينة إلى حدود بعيدة لكارل هاوسهوفر (1869 ـ 1946) بالذات. بكونها بقيت ردحاً طويلاً من الزمن تعامل لا «كعلم زائف» بل وكنظرية «كارهة للإنسان»، «فاشية» و«آكلة للحوم البشر».

ولد كارل هاوسهوفر في ميونيخ في أسرة أستاذ جامعي. وقرر أن يصبح عسكرياً متخصصاً فخدم ضابطاً في الجيش نيّفاً وعشرين عاماً. وبين سنتي 1908ـ1910، عمل في اليابان ومنغوريا بصفته الملحق العسكري الألماني. وهناك تعرف بأسرة الإمبراطور الياباني والفئة الارستقراطية العليا.

وقد اضطره ضعف صحته بعد ذلك إلى التخلي عن منصبه العسكري الذي كان ناجحاً إلى حد ما فعاد سنة 1911 إلى ألمانيا حيث عاش حتى نهاية حياته. واشتغل بالعلم فحصل في جامعة ميونيخ على درجة «دكتور» وأخذ منذ ذلك الحين ينشر تباعاً كتبه المكرسة للجيوبولتيكا بصفة عامة وبخاصة جيوبولتيكا إقليم المحيط الهادىء. وكان أول كتبه «داي نيخون»[33] المكرس لجيوبولتيكا اليابان.

وعن طريق تلميذه رودولف هيس تعرّف هاوسهوفر على هتلر فور الزج به في السجن إثر تمرده الذي لم ينجح. وثمة رأي لم يثبت صحته المؤرخون يقول

بأن هاوسهوفر قد ساهم في كتابه «**ماين كامبف**»(*) وذلك في المواضع المكرسة لبعض المفاهيم الجيوبولتيكية. لكن التحليل الذهني المتدبر يظهر فرقاً ملموساً بين نظرات هاوسهوفر الجيوبولتيكية وشطحات هتلر الدعائية العرقية المبسّطة.

على مدى عشرين عاماً ومنذ عام 1924 ظل هاوسهوفر مواظباً على نشر مجلته الجيوبولتيكية البالغة الأهمية والتي حققت شهرة عالمية كبرى وهي «Giopolitik» والتي استبدل اسمها فيما بعد بـ «Zeitschrift fur Geopolitik».

ونشر هاوسهوفر معظم نصوصه في هذه المجلة بالذات. وكانت علاقاته بالنازيين معقدة. فقد اقتربت أفكاره من أفكار القوميين الاشتراكيين في بعض الأمور وخالفتهم بطريقة جذرية، في أمور أخرى. كما كانت مواقفه من الرايخ الثالث تتبدل وفقاً لمراحل الحكم النازي ولعلاقات المؤلف الشخصية.

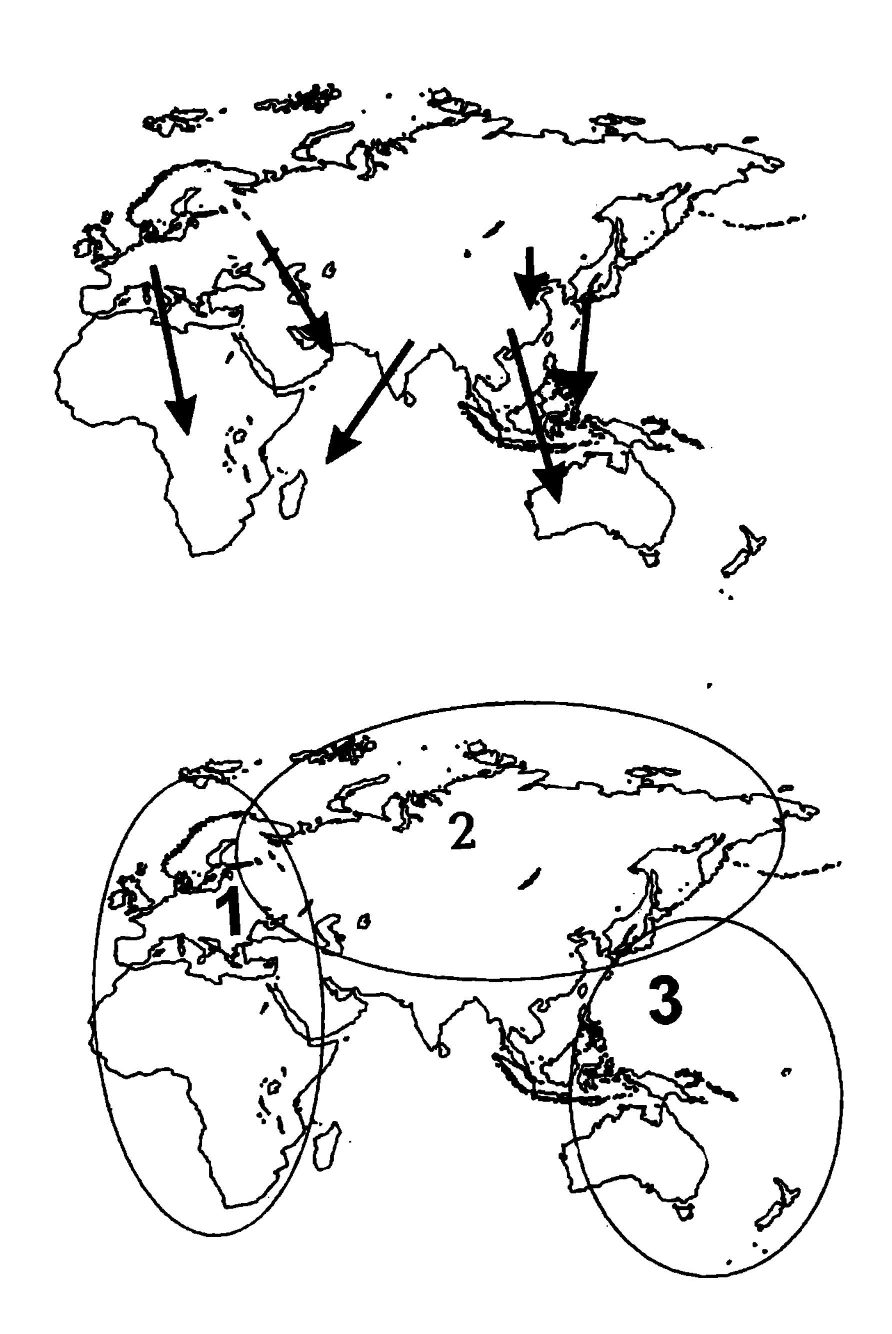
وقد أكرموه حتى سنة 1936 (وانعكست في ذلك بصفة خاصة حماية صديقه الأصغر هيس). ثم سرى البرود بعد ذلك. وعلى أثر طيران هيس إلى انجلترا فقد هاوسهوفر حظوته، وبعد إعدام ولده البيرت بتهمة الاشتراك في محاولة اغتيال هتلر سنة 1944 كاد هاوسهوفر نفسه أن يُعلن «عدواً للشعب».

وعلى الرغم من هذه الازدواجية في موقفه فقد كان الحلفاء يسلكونه في عداد «النازيين البارزين». وإذ عجز عن تحمل ضربات القدر المتكررة ودمار كل آماله قام هو وزوجته مارتا بالانتحار سنة 1946.

7 ـ 2 النظام الأوراسي الجديد:

درس هاوسهوفر باهتمام أعمال راتسيل، تشيلّين، ماكيندر، فيدال دي لابلانش، ماهان وغيرهم من رجال الجيوبولتيكا. أما لوحة الثنائية الأرضية ـ «القوى البحرية» في مواجهة «القوى البرية» أو التلاسوكراتيا («السلطة عن طريق البحر») في مواجهة **التيلوروكراتيا** («السلطة عن طريق البر») ـ فكانت بالنسبة له المفتاح الذي كشف له مغاليق السياسة الدولية التي كان ضالعاً فيها حتى أخمص

(*) «ماين كامبف (بالألمانية) كفاحي»؛ Zeitschrift fur Geopolitik (بالألمانية) ـ مجلة الجيوبولتيكا. (المترجم).



1
2
3

قدميه (ففي اليابان مثلاً ارتبطت علاقته بتلك القوى التي تتخذ القرارات الأكثر مسؤولية بالنسبة للوحة المكان). ومن الأمور ذات الدلالة أن مصطلح «**النظام الجديد**» الذي كان النازيون يستخدمونه بفعالية، وأخذ الأمريكيون يستخدمونه الآن في صيغة «**النظام العالمي الجديد**»، قد استخدم لأول مرة في اليابان في تطبيقه على تلك اللوحة الجيوبولتيكية لإعادة تقسيم النفوذ في منطقة المحيط الهادي، والتي كان رجال الجيوبولتيكا اليابانيون يقترحون تطبيقها.

لقد وضعت الثنائية الكونية «**للقوة البحرية**» و «**القوة البرية**» ألمانيا أمام مشكلة تحقيق الذات من الناحية الجيوبولتيكية، وتطلع أنصار الفكرة القومية، وكان هاوسهوفر ينتمي إلى صفوفهم دون شك، إلى تعزيز القوة السياسية للدولة الألمانية وهو ما كان يعني التطور الصناعي والنهوض الثقافي والتوسع الجيوبولتيكي. إلا أن توضع ألمانيا في وسط أوروبا والـ Mittellage(*) المكاني والثقافي جعلها العدو الطبيعي للدول الغربية البحرية ـ انجلترا وفرنسا ثم الولايات المتحدة فيما بعد. ثم إن رجالات الجيوبولتيكا «التالاسوكراتيين» لم يخفوا علاقتهم السلبية بألمانيا وقد عدّوها (مع روسيا) واحدة من الأعداء الجيوبولتيكيين للغرب البحري.

لم يكن من السهل على ألمانيا في مثل هذا الوضع أن تعوّل على إقامة تحالف قوي مع دول «الهلال الخارجي» وبخاصة أنه كان لانجلترا وفرنسا نحو ألمانيا مطاليب تاريخية ذات طابع يتعلق بالأرض. وعليه فقد كان مستقبل ألمانيا القومية العظمى يخوض مواجهة جيوبولتيكية مع الغرب وبخاصة مع العالم الانجلوساكسوني الذي كان يتماهى مع الـ Sea Power.

على هذا التحليل تعتمد عقيدة كارل هاوسهوفر الجيوبولتيكية ومريديه في مجموعها. وتتلخص هذه العقيدة بضرورة إقامة «حلف قاري» أو محور «برلين ـ موسكو ـ طوكيو» ولم يكن في ذلك الحلف أي شيء طارىء ـ لقد كان الرد الكافي والمرْضي على استراتيجية المعسكر المضاد الذي ما كان ينكر أن أكبر خطر يتهدده هو إقامة مثل هذا الحلف الاوراسي. وقد كتب هاوسهوفر في مقالة: «الحلف القاري»:

(*) Mittellage (بالألمانية ـ العصر الوسيط)، المترجم.

يستحيل خنق الأوراسيا ـ ما دام شعباها الكبيران ـ الألمان والروس ـ يحاولان بكل وسيلة تجنب الصراع الداخلي الذي وجد له شبيهاً في حرب القرم أو سنة 1914: إنها بَدَهية السياسة الأوراسية»[34].

وقد استشهد في تلك المقالة بالأمريكي هوميرلي الذي قال ـ **«ستدق الساعة الأخيرة للسياسة الانجلوساكسونية عندما يتحد الألمان والروس واليابانيون»**.

وقد ردّد هاوسهوفر بصور مختلفة هذه الفكرة في مقالاته وكتبه. واتخذ هذا الخط اسم Ostorientierung أي «التوجه نحو الشرق» إذ إنه تناول تحقيق الذات الألمانية وشعبها وحضارتها على أنها امتداد غربي للتقاليد الأوراسية الآسيوية. وليس من الأمور العابرة أن يطلق الإنجليز على الألمان في مرحلة الحرب العالمية الثانية تسمية «الهون» الاحتقارية. وبالنسبة لجيوبولتيكيّي مدرسة هاوسهوفر كان ذلك مقبولاً إلى حد بعيد.

وعلينا أن نشير في هذا السياق إلى أن فكرة **«الانفتاح على الشرق»** لم تكن على الإطلاق تعني «احتلال الأراضي السلافية». كان الحديث يتناول جهوداً حضارية مشتركة تقوم بها دولتان قاريتان ـ روسيا وألمانيا ـ عليهما أن تقيما «نظاماً أوراسياً جديداً» وأن تعيدا بناء المدى القاري للجزيرة العالمية بحيث تخرجانه كلياً من تحت نفوذ «القوة البحرية». وقد تم التخطيط لتوسيع الـ Lebensraum الألماني من قبل هاوسهوفر لا على حساب استعمار الأراضي الروسية بل على حساب استثمار الأراضي الآسيوية المترامية الأطراف وغير المأهولة بالسكان وإعادة تنظيم أراضي أوروبا الشرقية.

7 ـ 3 حل وسط مع التالاسوكراتيا

لكن الأمور بدت على غير هذا التماثل في المعنى عند التطبيق. فمنطق هاوسهوفر الجيوبولتيكي المحض والذي أفضى بصورة منطقية إلى ضرورة إقامة «الحلف القاري» مع موسكو اصطدم بتوجهات عديدة ذات طبيعة مغايرة تعدّ من خصائص الوعي القومي الألماني. ويدور الحديث حول النظرة العرقية إلى التاريخ والتي كان هتلر قد انعدى بها. هذه النظرة كانت ترى أن العامل الأهم هو التقارب العرقي وليس الخصيصة الجغرافية أو الجيوبولتيكية. وعلى هذا صار ينظر إلى

الشعوب الانجلوساكسونية ـ انجلترا والولايات المتحدة على أنهم الحلفاء الطبيعيون للألمان لأنها أقرب إليهم إتنيّا. وحُوّل السلافيون، وبخاصة الشعوب الأوراسية غير البيضاء إلى أعداء عنصريين. وأضيف إلى ذلك العداء الإيديولوجي للشيوعية والذي حمل أيضاً وإلى بعيد على نفس ذلك المبدأ العنصري ـ كان ماركس وعدد كبير من الشيوعيين يهوداً، وعلى هذا كانت الشيوعية في حد ذاتها أيديولوجية معادية للألمان في عيون أعداء السامية.

دخلت العرقية القومية الاشتراكية في مواجهة مباشرة مع الجيوبولتيكا، أو، بكلمة أدق، دفعت الألمان بطريقة غير واضحة نحو استراتيجية تالاسوكراتية عكسية معادية للأوراسية. ومن وجهة نظر المنهجية العرقية كان على ألمانيا أن تعقد منذ البداية حلفاً مع انجلترا والولايات المتحدة لتقف معاً بقواتها المشتركة في مواجهة الاتحاد السوفياتي. ومن جهة أخرى كانت تجربة ڤرساي المهينة لا تزال طرية جداً. من هذا الواقع تنطلق كل ازدواجية المعنى في سياسة الرايخ الثالث الدولية. وهذه السياسة كانت تتأرجح دوماً بين التالاسوكراتي، الذي تبرّره من الناحية المظهرية، العرقيةُ ومعاداة الشيوعية (المشاعر المعادية للسلاڤية، الهجوم على الاتحاد السوفياتي، تشجيع كرواتيا الكاثوليكية في البلقان وما إلى ذلك) وبين التيلوروكراتية الأوراسية، القائمة على مبادىء جيوبولتيكية صرفة (الحرب ضد انجلترا وفرنسا، حلف روبينتروب ـ مولوتوف وما إلى ذلك).

وما دام كارل هاوسهوفر قد اجتذب، بدرجة ما إلى حل المشاكل السياسية المحدّدة فقد كان مضطراً لتكييف نظريته وفق صيغة سياسية محدَّدة. ومن هنا تأتي صلاته داخل الأوساط العليا في انجلترا. وفضلاً عن ذلك فإن عقد الحلف المعادي للكومنترن(*) ـ أي إقامة محور برلين ـ روما ـ طوكيو قد تلقى، من الناحية المظهرية، تحية من هاوسهوفر، إذ حاول تصويره على أنه الخطوة التمهيدية لإقامة **«الحلف الأوراسي»** الكامل الشخصية، وما كان بمقدوره أن يفهم أن التوجه المعادي للشيوعية لذلك الحلف وظهور بديل عن مركز الـ heartland (موسكو) في

(*) الكومنترن: الأممية الثالثة. منظمة بروليتارية كانت بين 1919 ـ 1943 تجمع بين الأحزاب الشيوعية في مختلف دول العالم (المترجم).

صورة دولة نصف جزيرية ثانوية الأهمية ـ عائدة إلى الـ Rimland إنما هو صورة هزلية متناقضة عن الحلف القاري الحق.

ومع ذلك فإن مثل هذه الخطوات التي أملاها الالتزام السياسي ليست الشيء المميّز لجيوبولتيكا هاوسهوفر في عمومها. فاسمه وأفكاره تجسدت في أكمل صورها في تصوراته المتعلقة بـ **المصير الشرقي** لألمانيا والمعتمد على الحلف الأوراسي القوي والطويل الأمد.

الفصل الثامن 8

كارل شميدت
بهيموت versus[*] لوياثان

8 ـ 1 الثائر المحافظ

اشتهر الألماني كارل شميدت (1888 ـ 1985) بكونه محامياً مشهوراً وعالماً في السياسة وفيلسوفاً ومؤرخاً. لكن أفكاره ترتبط أوثق الارتباط بالتصورات الجيوبولتيكية. وأهم أعماله «نوموس الأرض»[35] و «الأرض والبحر»[36] وما إليهما. وقد كرست في مجموعها لتفسير العوامل الجيوبولتيكية وتأثيراتها على الحضارة والتاريخ السياسي.

كان كارل شميدت قريباً من الممثلين الألمان للثورة المحافظة ـ من التيار المتناقض الذي جمع بين العناصر القومية ـ المحافظة والاجتماعية ـ الثورية ومصير شميدت ـ هو مصير كتبه ومدرسته الحقوقية ـ الفلسفية. وعلى نحو ما كان الأمر لدى عدد كبير من الثوريين المحافظين الآخرين فقد كانت علاقته بالنظام الوطني الاشتراكي مزدوجة. فمن جهة تركت نظرياته أثرها المؤكد على الإيديولوجية النازية. وحقق نجاحاً متميّزاً كتاباه المتعلقان بعلم السياسة وهما «التيولوجيا السياسية»[37] و «مفهوم السياسي»[38]. وقد قدم شميدت فيهما نقداً مستفيضاً للحق الليبيرالي ولأفكار «الدولة الحقوقية». وتضمن الكتابان ارتسامات كل النتاج الفكري التالي لشميدت ـ إذ تلاحظ فيهما الواقعية السياسية في أوسع مداها ـ والتطلع إلى

(*) Versus (باللاتينية) في مواجهة، مقابل. (المترجم).

تحرير القضايا السياسية من الخطابية الإنسانية والروح العاطفية المندفعة والديماغوجية الاجتماعية. وكان ذلك ما يتجاوب مع الروح القومية ـ الاشتراكية.

وفي الوقت نفسه كانت منظومة شميدت الفكرية تعتمد بكليتها على الفكرة المؤسسة وهي «حقوق الشعب (Velhsrechte) والتي عارضها بالنظرية الليبيرالية «حقوق الإنسان». وهو يرى أن لكل شعب الحق في الاستقلال السياسي وفي الحفاظ على الهوية الروحية، التاريخية والسياسية. وكانت هذه النظرة مميّزة لعدد من القوميين ـ الاشتراكيين الذين عدّوا هذه الإيديولوجيا شاملة وملائمة لكافة شعوب الأرض. إلا أن الخط المسيطر على النظام صار البانجرمانية دون غيرها والقائمة على الشوفينية والنظرة القومية الضيقة. ولهذا السبب تعرض شميدت ونظريته المتعلقة بـ «حقوق الشعب» لنقد شديد وبخاصة من طرف منظري الـ SS[*] (وفي سنة 1936 نشرت ضده مقالة في الـ Schwarze Korps لسان حال الـ SS تهدده بطريقة عدوانية).

سار التكوين الفكري لشميدت في نفس الأجواء الفكرية «للسوسيولوجيا العضوية» التي كانت لدى راتسيل وتشيلّين، إلا أنه وقع أيضاً تحت تأثير النظريات الرومانسية «نور الشمال» (Nordlicht)، والتي بموجبها تتجذر الصيغ الاجتماعية ـ السياسية والتشكلات الحكومية لا في التشغيل الآلي للشخصيات الفردية الصغرى المجمعة في خلائط حسابية، ولكن في الأساطير، في عالم العفويات والأرواح المقدسة[39]. وفي نظريات شميدت يظهر في كل مكان التجاور المتناقض بين «الرومانسية السياسية» و«العقلانية الصارمة». فالجهاز العقلي المشحوذ يوجّه للتعبير عن الوحدات الأسطورية الروحية.

في محاكم نورمبرج حاولوا إضافة اسم شميدت إلى قائمة «مجرمي الحرب» على أساس تعاونه مع نظام هتلر. ونُسب إليه التأسيس النظري لمشروعية العدوان

(*) الـSS اختصار لكلمة Shutzstaffeln ـ فرق الحراسة. كانت أحد الأركان الأساسية في النظام النازي بألمانيا بدأت سنة 1925 بفرق لحماية الفوهرر، ثم تحولت إلى منظمة خاصة سنة 1924 بقيادة هملر، تقوم بأعمال المخابرات وبالحراسة داخل البلاد وفوق الأراضي المحتلة وفي المعتقلات. أدانتها محكمة نورمبرج (1945 ـ 1946) على أنها منظمة إرهابية. (المترجم).

العسكري. وبعد التعرف المفصل على القضية من طرف القضاة رفضت التهمة. ومع كل ذلك أعلن شميدت، شأنه شأن هايدغير ويونغر وغيرهم من الثوريين المحافظين «شخصية غير مرغوب فيها» في الأسرة العلمية الدولية وتم تجاهل مؤلفاته بصورة كلية.

وفقط في السبعينيات وبفضل التأثير الخارق للعادة على الفكر القانوني من طرف بعض المفكرين الاشتراكيين اليساريين بدىء برد الاعتبار تدريجياً إلى أعماله.

وتم الاعتراف به اليوم واحداً من علماء البوليتولوجيا والقانون الكلاسيكيين.

8 ـ 2 نوموس الأرض

قام شميدت، وبروح من الرؤية الجيوبولتيكية، بإقرار العلاقة الأولية بين الثقافة السياسية والمدى المكاني. فليس الدولة فقط بل ومجموع الواقع الاجتماعي، والحقوق بصفة خاصة، تنساب من التنظيم النوعي للمدى المكاني.

من هنا استنبط شميدت تصور «**النوموس**». وهذا المصطلح اليوناني «النوموس» يعني «أمراً مأخوذاً، مكوَّناً، مهيّأً، منظّماً» بمعنى المدى المكاني. وهذا المصطلح قريب من مفهوم «**التضاريس**» لدى راتسيل و«بؤرة التطور» لدى الأوراسيين الروس (سافيتسكي). ويبين شميدت أن «النوموس» هو تلك الصيغة لتنظيم الوجود والتي تقيم العلاقات المتبادلة الأكثر هارمونية ضمن المجموعة الاجتماعية مثلما تقيمها بين هذه المجموعات. و«النوموس» ـ تعبير عن اجتماع نسيجي خاص لعوامل ذاتية وموضوعية تتجلى بصفة عضوية في إقامة النظم السياسية والحقوقية. وفي «النوموس» تتجلى الخصائص الطبيعية والثقافية للمجموعة الإنسانية في تفاعلها مع الوسط المحيط.

ويعرض شميدت في كتابه «نوموس الأرض» الصورة التي أثرت بها خصوصية هذا المدى المكاني أو ذاك على الحضارات والدول التي نشأت فيه. ويقارن بين «نوموسات» تاريخية مختلفة، مؤكداً بصفة خاصة على الثنائية الراسخة بين علاقة البدو الرحل بالمدى المكاني وعلاقة الشعوب المستقرة به.

إلا أن أهم نتيجة يصل إليها تحليل «نوموس الأرض» يتلخص في كون شميدت قد اقترب إلى حدود بعيدة من مفهوم المواجهة العالمية التاريخية

والحضارية بين حضارات **البر** وحضارات **البحر**. فمن خلال دراسته لـ«نوموس» **الأرض** اصطدم بتناقضه النوعي والمحاثي مع «نوموس» **البحر**. وهذا ما انتهى به إلى صياغة منهجية جيوبولتيكية خاصة لتفسير التاريخ السياسي للعالم.

8 ـ 3 الأرض والبحر

في سنة 1942 أصدر شميدت عمله الأهم ـ «**الأرض والبحر**»[40]. وبالإضافة إلى النص الأحدث تاريخاً بعنوان «التوتر الكوني بين **الشرق** والغرب والمواجهة بين البر والبحر»[41] يعد هذا العمل الوثيقة الأهم في العلم الجيوبولتيكي.

مصطلح المواجهة بين البر والبحر ينتهي بشميدت إلى القول بأن الحديث يدور حول حضارتين مختلفتين كل الاختلاف، لا يمكن التقريب بينهما، متعاديتين، لا عن صورتين لمجتمع حضاري واحد. وهذا التقسيم يكاد يتفق بصوزة كلية مع اللوحة التي رسمها ماكيندر، إلا أن شميدت يقدّم لعناصرها الأساسية ـ التالاسوكراتيا (**القوة البحرية**) والتيلوروكراتيا (**القوة البرية**) تفسيراً فلسفياً متعمقاً، يرتبط بالنظم الحقوقية والأخلاقية الأساسية. ومما يثير الفضول أن شميدت يستخدم لـ«**قوى الأرض**» اسم «**بَهيموت**» ولقوى البحر «**لوياثان**» تذكيراً بالهَوْلتين اللتين ورد ذكرهما في العهد القديم وإحداهما تجسد جميع المخلوقات البرية، والأخرى جميع المخلوقات المائية البحرية.

«نوموس» **الأرض** موجود، لا بديل له، على مدار الشطر الأعظم من التاريخ الإنساني، وجميع تجليات هذا «النوموس» تتصف بتوفر الصيغة التشريعية (والأخلاقية) الصارمة، الراسخة، والتي تنعكس فيها ثبوتية **اليابسة** الأرض ورسوخها. وهذا الارتباط **بالأرض** والتي يستجيب مداها بسهولة للتنظيم (دقة الحدود، ثبوتية طرق المواصلات، رسوخ الخصائص الجغرافية والتضاريسية). تولد الروح المحافظة الراسخة في الآفاق الاجتماعية والثقافية. ومجموع تجليات «نوموس» **الأرض** يكوّن ما اتفق على تسميته بتاريخ «المجتمع التقليدي».

في مثل هذه الحالة لا يبدو **البحر**، **الماء** إلا مظهرين حضاريين لا مركزيين لا يدخلان في مجال «الأخلاقي» (أو يدخلان بشكل مظهري). وفقط باكتشاف **المحيط الكوني** في نهاية القرن السادس عشر تبدل الوضع بشكل جذري. وبدأت

الإنسانية (وجزيرة انجلترا بالدرجة الأولى) بالتآلف مع «الوجود البحري» وأخذت تعي نفسها **جزيرة** في خضم **المياه**، **سفينة**.

إلا أن المدى المائي يختلف بشدة عن البري، فهو ليس مستقراً، عدواني، غريب، خاضع للتبدل الدائم. لا تتحدد فيه الطرق الثابتة ولا تتضح اختلافات التوجهات. و«نوموس» البحر يجر وراءه التحول الكوني للوعي. والمعايير الاجتماعية والحقوقية والأخلاقية تغدو «**جارية**». وتولد حضارة جديدة. ويرى شميدت أن العصر والوثبة التقنية، التي فتحت عهد التصنيع مدينان بوجودهما للحدث الجيوبولتيكي الخارق ـ انتقال الإنسان إلى «نوموس» البحر.

وهكذا فإن المواجهة الجيوبولتيكية للعالم الانجلوساكسوني «للهلال الخارجي» تتخذ لدى شميدت تعريفاً اجتماعياً، سياسياً. فـ«نوموس» البحر هو واقع معاد للمجتمع التقليدي. والمواجهة الجيوبولتيكية للدول البرية مع البحرية تكتسب معنى تاريخياً، ايديولوجياً وفلسفياً.

8 ـ 4 Grossraum

توصل شميدت أيضاً إلى صياغة النظرية الجيوبولتيكية الأعظم ـ **نظرية «المجال الكبير»** (Grossraum). وينظر هذا التصور إلى عملية تطور الدولة على أنها الطموح إلى احتياز الحجم المكاني الأوسع مدى. ومبدأ التكامل الإمبراطوري هو التعبير المنطقي والطبيعي عن الطموح الإنساني إلى التركيب. وعلى هذا فإن مراحل التوسع المكاني للدولة تتطابق مع مراحل تحرّك الروح الإنسانية نحو الشمولية.

هذا القانون الجيوبولتيكي ينسحب أيضاً على المجالات التقنية والاقتصادية. ويبيّن شميدت أنه بدءاً من لحظة معينة يأخذ التطور التقني والاقتصادي للدولة بمطالبتها بتضخيم سياستها كمّاً ونوعاً. والحديث هنا لا يدور بالضرورة حول الاستعمار والضم والاختراق العسكري. فإقرار الـGrossraum يمكن أن يجري وفق قوانين أخرى أيضاً، على أساس اتخاذ عدة دول أو شعوب صيغة دينية أو ثقافية موحدة.

ويرى شميدت أن تطور «نوموس» **الأرض** يجب أن يؤدي إلى ظهور **الدولة** ـ

القارة. ومراحل التحرك نحو **الدولة** ـ القارة تمر من المدن ـ الدول عبر الدول ـ الأقاليم. وظهور **الدولة** البرية ـ القارة ذات الـGrossraum البري ـ ضرورة تاريخية وجيوبولتيكية.

في النص العائد إلى عام 1940 بعنوان «المدى والمدى الكبير في حقوق الشعوب»[42] حدد شميدت «المجال الكبير» بقوله «**ميدان التخطيط والتنظيم والنشاط الإنساني، والمتجذر في التوجه الفعال والكبير للتطور المقبل**»[43]. وفي ميدان تحديده لهذه الصيغة التي تبدو مائعة إلى حد ما يشير شميدت إلى مثال التحقيق الإرادي «للمجال الكبير» وهو تطبيق مبدأ مونرو الأمريكي في الحياة.

وعلى الرغم من إمكانية أن يتطابق الـGrossraum في حدود ما مع الدولة، أو مع الإمبراطورية (das Reich) بكلمة أدق، فإن هذا التصور يخرج عن حدود الدولة الاعتيادية. إنها الصيغة الجديدة للاتحاد ما فوق القومي القائم على أساس العامل الاستراتيجي، الجيوبولتيكي والإيديولوجي.

بخلاف الأنموذج البانجرماني الهتلري الموحد والعالمية السوفياتية فإن grossraum شميدت يقوم على أساس التعددية الثقافية والاتنية، على الاستقلالية الذاتية الواسعة التي لا تحدّ منها إلا المركزية الاستراتيجية والولاء الشامل للمرجعية العليا. وبالإضافة إلى ذلك كان شميدت يؤكد على أن إقامة «**المجال الكبير**» الجديد لا تتعلق بالقيمة العلمية للمقولة نفسها ولا بالكفاءة الثقافية ولا بالتطور الاقتصادي للجزيئات المكونة ولا حتى بالمركز المكاني أو الاتني الذي يولّد الحافز إلى التكامل. إن كل شيء يرتبط بالإرادة السياسية وحدها، والتي تعي الضرورة التاريخية لمثل هذه الخطوة الجيوبولتيكية.

وفي هذه المقولة كان شميدت متقدماً على الخط الرئيسي للسياسة التكاملية المعاصرة.

8 ـ 5 الحرب الشمولية وشخصية «الفدائي»

من الناحية العملية تتباين الدوافع الجيوبولتيكية لدى شميدت في كافة الموضوعات التي يدرسها. وقد عالج بصفة خاصة العلاقة بين تصورات ثلاثة ـ «**العدو الشامل، الحرب الشاملة، والدولة الشمولية**». و«الدولة الشمولية» من وجهة نظره هي الصيغة الأكمل للدولة ذات النمط التقليدي، أي إنها ذروة تطور

الـ«نوموس» البري. وبغض النظر عن إمكانات التطور التاريخي لمثل هذه الدولة حتى آفاق الـgrossraum، فالنوعية المحائية تبقى فيها دون تبديل. و«الدولة الشمولية» تنفي مبدأ «العدو الشمولي» و«الحرب الشاملة»، وذلك لأنها تبني تصوّرها عن الخصم، «العدو» (وقد أولى شميدت أهمية كبرى لصياغة مفاهيم) **«الصديق»/ «العدو»** hostis/amicus على أساس صورتها هي، ولهذا يطرح نظامَ «حرب الصيغ» التي يطبَّق فيها Jus bellum(*) ولا تشارك فيها إلا أرتال محدّدة من المحاربين المحترفين. أما السكان المدنيون والملكية الخاصة فتكون بدورها تحت حماية القانون، معزولة (من الناحية النظرية على الأقل) عن مجريات العمليات الحربية.

والمقولة الليبيرالية التي ربطها شميدت بمعنى واحد مع العصر **الحديث** وبالتالي مع «الحضارة البحرية»، مع «نوموس البحر» في سياق سيأتي رفضه «للدولة الشمولية» ولنظام «العدو الشامل» وفي سنة 1941 كتب في مقالته «سيادة الدولة والبحر المفتوح»:

«كانت الحرب على اليابسة تخضع للأعراف الحقوقية، لأنها كانت حرباً بين دول أي بين قوى مسلحة لدول متعادية، وتجسدت عقلانيتها في محدوديتها وفي التطلع إلى إخراج السكان المدنيين ومواد الملكية الخاصة خارج حدودها. أما الحرب في البحر، فعلى العكس من ذلك، لا تبدو حرباً بين أعداء محدّدين بدقة وخاضعين لأعراف حقوقية ـ لأنها تقوم على نظام العدو الشامل»[44].

واللوحة الجيوبولتيكية العامة التي وصفها شميدت أدت إلى ثنائية حضارية متوترة، إلى مواجهة بين grossraum ين: الانجلوساكسوني (انجلترا+ أمريكا) والقاري ـ الأوروبي. وهذان «المَديان الأكبران» ـ التالاسوكراتي والتيلوروكراتي ـ يخوضان فيما بينهما حرباً عالمية لتحقيق الخطوة الأخيرة نحو الكونية وللانتقال من الملكية القارية إلى العالمية. وإلى ذلك فقد كان شميدت ينظر بعين التشاؤم إلى إمكانية الوصول بهذا النزاع إلى قاعدة حقوقية صارمة ما، وذلك لأن النظامين الحضاريين في الصورة العظمى «للمدَيين الأكبرين» يقومان على أساس الرفض

(*) hostis/amicus (باللاتينية) الصديق العدو، Jusbellum (باللاتينية) القانون الحربي. (المترجم).

المتبادل «للنوموسين» ـ «نوموس **الأرض**» و «**نوموس البحر**». والعنصر المدمر الأخير يأتي عن طريق الملاحة الجوية ـ لأن «المدى الجوي» يستجيب للنظم الأخلاقية ـ الحقوقية بدقة تقل كثيراً عما هي عليه في المدى البحري.

وقد ركز شميدت اهتمامه في نهاية حياته على شخصية **الفدائي**. فهو برأيه الممثل الأخير لـ «نوموس» **الأرض** الذي يبقى وفياً لمثله الأول على الرغم من «ترقق الحضارة»، وذوبان أسسها الحقوقية ـ الثقافية. الفدائي مرتبط بأرضه الأم لا بوشائج شكلية، والطابع التاريخي لهذه الرابطة يملي عليه أخلاقيات تكتيك الحرب التي تختلف عن المعايير الأكثر عمومية وتجريداً. وبمقدار عمومية «الأنموذج البحري» «والأخلاقية التجارية» واللذين ينطويان ـ بطريقة طبيعية أيضاً، على ميادين عمليات حربية، تكتسب شخصية «الفدائي»، حسب رأي شميدت، معنى يتزايد حضارياً، فالفدائي يبقى الشخص الفاعل الأخير في التاريخ، والذي يحمي (بكل الوسائل) «النظام البري» من هجوم التالاسوكراتيا الشمولي. ومن هنا تنطلق مهمته التاريخية التي تقترب من مهمة «السيد المخلِّص».

بيوتر نيكولايفتش... سافيتسكي
«الأوراسيا ـ الأرض المتوسطة»

9 ـ 1 مصير الأوراسي

ربما كان بيوتر نيكولايڤتش ساڤيتسكي (1895 ـ 1968) الكاتب الروسي الأول (والوحيد) الذي يمكن وصفه بالعالم الجيوبولتيكي بكل ما في الكلمة من معنى. وهو اقتصادي، من حيث الاختصاص، تلميذ ف. فرنادسكي وب. ستروڤي. وكان قبل الحرب قريباً من الكاديت(*). هاجر بعد الثورة إلى بلغاريا ثم انتقل إلى تشيكوسلوڤاكيا وفي سنة 1921 ترأس، برفقة الأمير ن. س. تروبيتسكوي الحركة الأوراسية التي كانت العوامل الجيوبولتيكية تلعب فيها دوراً مركزياً. وكان ساڤيتسكي الأكثر اهتماماً بقضايا الجيوبولتيكا بين جميع الأوراسيين.

تكونت أفكار ساڤيتسكي، مثل غالبية الأوراسيين الآخرين، بتأثير من أعمال مؤيّدي السلاڤيانوفيل(**) دنيليفسكي وليونتيف. وكان ذلك واحداً من مظاهر

(*) الكاديت: الحزب الدستوري الديموقراطي، حزب البورجوازية الليبيرالية في روسيا بين 1905 ـ 1917. تضمن برنامجه: إقرار الملكية الدستورية البرلمانية، الحفاظ على الملكية الإقطاعية للأرض والحل التشريعي «للمسألة» العمالية. وقف إلى جانب القيصرية في الحرب العالمية الأولى، ومنع من النشاط بعد ثورة أكتوبر. نظم أعضاؤه تحركات عنيفة خلال الحرب الأهلية وشاركوا في «الحكومات البيضاء». (المترجم).

(**) السلاڤيانوفيل (حرفيا محبّو السلاڤ) وهم مناصرو الحركة السلاڤية، ممثلو أحد اتجاهات الفكر الاجتماعي في روسيا القرن التاسع عشر وبدايات العشرين. كانوا يدعون =

السلاڤيانوفيلية الثورية مقترنة بالفكرة المركزية حول خصوصية التميّز التاريخي «لأبناء روسيا الكبرى»(*) والتي لا ترتبط بالخصوصية الدينية ولا بالخصوصية الأخلاقية السلاڤية، في هذا الميدان كانوا أقرب إلى كونستانتين ليونتيف الذي كان قد صاغ المقولة الأهم وهي: «**السلاڤية موجودة ولا وجود للسلاڤيانوية**» وهو ما يعني «أن التقارب الاتني واللغوي بين الشعوب السلافية ليس شرطاً كافياً للحديث عن وحدة ثقافية مميّزة لهذه الشعوب. والحركة الأوراسية، انطلاقاً من تشكيلة الموضوعات والقضايا المحببة، كانت قريبة حتى درجة عجيبة من الثوريين المحافظين الألمان. فالأوراسيون، شأن الثوريين المحافظين، كانوا يطمحون إلى الجمع بين الوفاء للينابيع ذات الاندفاع الإبداعي في المستقبل وبين التجذر في التقاليد القومية الروسية مع العصرنة الاجتماعية، والتطور التقني وسياسة الصيغ غير التقليدية. وعلى هذا أيضاً يستند موقف الأوراسيين «الإيجابي» الحذر من الدولة السوفياتية ومن ثورة أكتوبر.

وبغض النظر عن مشاعر الارتياح نحو السوفيات والتي لم تكن فقط من خصائص الجناح المؤيد بصفة علنية للسوفيات بين الأوراسيين (حلقة باريس التي كانت تصدر صحيفة «. . . أوراسيا») الذين قطع ساڤيتسكي علاقته معهم ـ بل وأيضاً من خصائص عناصرهم الأكثر اعتدالاً و «محافظةً». وبعد أن احتلت الجيوش السوفياتية براغ سنة 1945 ألقي القبض على ساڤيتسكي وحكم عليه بعشر سنوات اعتقال في المعسكر. وهناك تعرف على ليف ـ ابن الشاعر نيكولاي غوميليوف، فأصبح ليف تلميذه ثم صار واحداً من أفضل علماء الاتنوغرافيا والمؤرخين الروس المعاصرين.

وفي سنة 1956 أعيد الاعتبار إلى ساڤيتسكي فعاد إلى براغ حيث توفي بعد 12 سنة.

= إلى انتهاج خط خاص لتطوير روسيا يختلف مبدئياً عن خط «الغربيين»، ويضفون هالات القداسة على روسيا القديمة، على مجتمع الفلاحين، ويميلون إلى تطوير الأفكار الدينية المثالية، ولعبوا دوراً مهماً في تطوير الدراسات السلافية. (المترجم).

(*) روسيا الكبرى: آثرنا استخدام مصطلح «روسيا الكبرى» في الترجمة تمييزاً لها عن «روسيا الصغرى» التي سيرد ذكرها في تضاعيف هذا الكتاب، ولأن دولاً عديدة سترد فيه أيضاً مرتبطة بمثل هذه الصفة كرومانيا وبلغاريا وسواهما؛ (المترجم).

9 ـ 2 روسيا ـ الأوراسيا

الفكرة الأساسية لسافيتسكي تتلخص في كون روسيا تمثل تكويناً حضارياً مميّزاً تحدّده خاصية «التوسط». وتبدأ إحدى مقالاته وهي «الأسس الجغرافية والجيوبولتيكية للأوراسيا» (1933) بهذه الكلمات: «**لروسيا عدد من الأسباب يفوق بكثير ما لدى الصين من الأسباب التي تسمح بتسميتها «دولة متوسطة»**»[45].

وإذا كان «توسط» ألمانيا، الـ Mittellage يتحدد بالقارة الأوروبية، وكانت أوروبا لا تزيد عن كونها «**الرأس الغربي**» للأوراسيا، فإن روسيا تحتل الموقع المركزي في إطار القارة ككل. و «توسط» روسيا بالنسبة لسافيتسكي هو أساس تفردها التاريخي. فهي ليست جزءاً من أوروبا وليست امتداداً لآسيا. إنها عالم مستقل بذاته، واقع جيوبولتيكي روحي ـ تاريخي مستقل يسميه سافيتسكي «بالأوراسيا».

وهذا المفهوم لا يعني أرضاً ولا قارة، بل فكرة انعكست في المجال الروسي والثقافة الروسية، إنها مقياس تاريخي، حضارة خاصة. ومن القطب الروسي يفتلذ سافيتسكي نظرية تتماهى بكيفية صارمة مع لوحة ماكيندر الجيوبولتيكية، ـ فقط «لصوص البر» التجريديون و «تلك الحوافز التي تهب بسرعة من المركز والمنطلقة من المحور الجغرافي للتاريخ» تتخذ لديه تلك الصورة الأولية، المميّزة السمات للثقافة الروسية، للتاريخ الروسي، للدَّوْلية الروسية، للأرض الروسية. وتظهر روسيا ـ الأوراسيا بالنسبة له شبيهة بـ Raum راتسيل أو، بكلمة أدق، بـ Grossraum شميدت.

وإذا كان ماكيندر يرى أن الدفعة الآلية التي تستحث المناطق الساحلية (الهلال الداخلي) على إبداع الثقافة والتاريخ إنما تنطلق من صحارى الـ heartland فإن سافيتسكي يؤكد على أن روسيا ـ الأوراسيا (heartland= ماكيندر) هي جُماع الثقافة العالمية والتاريخ العالمي وقد تجليا في المكان والزمان. وإلى جانب ذلك فإن طبيعة روسيا تساهم في ثقافتها.

يفهم سافيتسكي روسيا فهماً جيوبولتيكياً ـ لا كدولة قومية ـ بل كنمط خاص من الحضارة التي تشكلت على أساس من مكونات عدة ـ الثقافة الآرية ـ السلافية ـ بدوّية الترك والتقاليد الأرثوذوكسية. وهذا بمجموعه ما يشكل تكويناً «توسطياً» فريداً، يمثل تركيبة التاريخ العالمي.

وسافيتسكي لا يرى في سكان روسيا الكبرى مجرد فرع من السلاف الشرقيين بل تكوناً اتنياً امبراطورياً خاصاً يلتقي فيه الأساسان السلافي والتركي. وهذه اللحظة تخرج به إلى موضوع هام ـ موضوع **طوران**.

9 ـ 3 طوران

كانت العودة إلى طوران كتوجه إيجابي أمراً فضائحياً بالنسبة للكثيرين من القوميين الروس. فبهذه الطريقة برّر سافيتسكي بطريقة غير مباشرة الظلم المغولي ـ التتري الذي بفضله «**اكتسبت روسيا خصوصيتها الجيوبولتيكية وحافظت على استقلالها الروحي عن العالم الرومانو ـ جرماني العدواني**». وهذه العلاقة بالعالم التركي كانت مدعوة بحدّة لتبعد روسيا ـ الأوراسيا عن أوروبا ومصيرها، وتؤسس للفرادة العرقية الروسية.

«**لولا التترية لما كانت روسيا**» هذه الأطروحة من مقالة سافيتسكي «السهب والاستقرار»[46] كانت المعادلة الأهم بالنسبة للأوراسيّة، ومن هنا يأتي الانتقال إلى هذا الإقرار الجيوبولتيكي الصرف:

> «فلنقل بصراحة: الإحساس الأوروبي الغربي بالبحر يقابَل على مدى التاريخ العالمي بإحساس منغولي مكافىء وحيد، وإن كان قطبياً ـ بالبرّ؛ بينما يستقر في أعماق الروس «عابري الأرض» ـ في مدى فتوحاتهم واستصلاحاتهم الروسية ـ نفس تلك الروح، نفس الإحساس بالبرّ»[47].

ويلي ذلك:

> «روسيا ـ وريثة الخانات العظماء، متمّمة أعمال جنكيزخان وتيمورلانك ـ موحدّة آسيا (. . . .) تلتقي فيها «الاستقرارية» التاريخية والعفوية «السهبية» في وقت واحد»[48].

أما الثنائية المؤسسة للسطح التضاريسي الروسي ـ وتقسيمه إلى غابة وسهب ـ فأمر كان السلافيانوفيل قد لاحظوه من قبل. والمعنى الجيوبولتيكي للروسيا ـ الأوراسيا يظهر لدى سافيتسكي كتركيب لهذين الواقعين ـ الغابة الأوروبية والسهب الآسيوي. وإزاء ذلك فإن هذا التركيب ليس تنضيداً بسيطاً لنظامين جيوبولتيكيين

أحدهما فوق الآخر بل هو شيء متكامل، طريف، له مقياسه الخاص ومنهجه القيمي.

وروسيا ـ الأوراسيا لا تنتهي في مجموعها إلى طوران. إنها شيء أضخم من ذلك. أما بالنسبة لأوروبا التي ترى في كل ما يخرج عن أطر وعيها «الساحلي» «همجيّةً» فتصنيف الروس لأنفسهم «حَمَلَةً للروح المغولية» استفزاز يكشف التفوق التاريخي والروحي للأوراسيين.

9 ـ 4 بؤرة التطور

تلعب «بؤرة التطور» دوراً خارقاً للعادة في نظرية سافيتسكي. وهذا المصطلح يمثل الشبيه الدقيق لمصطلح Raum في الصيغة التي تناقشها «الجغرافيا السياسية» لدى راتسيل والجيوبولتيكا الألمانية (+ تشيلّين) بصفة عامة. وتنعكس في المفهوم «عضوانية» الأوراسيين التي تتطابق بدقة مع المدرسة «العضوية» الألمانية وتتناقض بدقة مع براغماتية الجيوبولتيكيين الانجلوساكسون. ولو كان سبيكمان مطلعاً على أعمال سافيتسكي لكان سخطه على هذا «النونسنس[*] الميتافيزيكي» أشد ضراوة من سخطه على هاوسهوفر. فسافيتسكي يكتب في النص الذي يحمل عنوان «العرض الجغرافي لروسيا ـ الأوراسيا»:

«الوسط الاجتماعي ـ السياسي وأرضه ينبغي أن يتذاوبا بالنسبة لنا في وحدة متكاملة في شخصية جغرافية أو سطح جغرافي»[49].

تلك هي حقيقة «بؤرة التطور» التي يتذاوب فيها الموضوعي والذاتي في وحدة لا تتجزأ ـ في كلّ متكامل. إنه تركيب ذهني. وفي النص نفسه يواصل سافيتسكي قوله:

«التركيب ضروري. لا بد من القدرة على الإحاطة بالوسط الاجتماعي ـ التاريخي وبالأرض التي يشغلها في نظرة واحدة»[50] ويقترب سافيتسكي في هذا مع فيدال دي لابلانش. ومثل العالم الجيوبولتيكي الفرنسي الذي أصَّل

(*) النونسنس ـ الهراء. بالإنجليزية nonsense ـ (المترجم).

لعدم قبول فرنسا للتجزئة بفضل وحدة نمطها الثقافي بغض النظر عن الانتماء الإتني لسكان الألزاس واللورين يرى ساڤيتسكي:

«إن روسيا الأوراسيا «بؤرة تطور»، «وحدة متكاملة»، «شخصية جغرافية» ـ وهي في الوقت ذاته «سطح» جغرافي ـ اتني، اقتصادي، تاريخي إلى آخره، وهلمّ جرّاً»[51].

إن روسيا ـ الأوراسيا هي تلك «البؤرة التطور» التي تمثل الصيغة التكاملية لوجود كثير من «بؤر تطور» أصغر أحجاماً، إنه Grossraum شميدت، مكوناً من منظومة تدريجية كاملة تتألف من Raumـاتِ أصغر حجماً.

من خلال طرح مفهوم «بؤرة التطور» ابتعد الأوراسيون عن الضرورة الوضعية للتعرض بطريقة تحليلية للأحداث التاريخية إذ وزعوها على نظم آلية ـ لا بناءً على مظاهرها الطبيعية فقط بل والثقافية. واللجوء إلى «بؤرة التطور»، إلى «الشخصية الجغرافية» أعان الأوراسيين على تجنب الوصفات الشديدة التحديد والمتعلقة بالمشاكل العرقية، الدينية، الثقافية، اللغوية والايديولوجية. إن الشعور الحَدْسي لدى جميع سكان «المحور الجغرافي للتاريخ» بالوحدة الجيوبولتيكية قد اتخذ بذلك لغة «تركيبية» جديدة لا تؤدي إلى النظم التحليلية التجزيئية القاصرة لدى العقلانية الغربية.

وتجلى في هذا قبول ساڤيتسكي للتقليد العقلي الروسي ـ المتطلع دوماً إلى وعي «التكاملية» «الجماعية» و «وحدة الكل» وما إلى ذلك.

9 ـ 5 الايديوكراتيا

يمثل مبدأ الايديوكراتيا بعداً بالغ الأهمية في نظرية ساڤيتسكي. فقد كان يرى أن الدولة الأوراسية يجب أن تبنى على أساس الانطلاق من الدافع الأولي الروحي ـ من الأعلى إلى الأسفل. وعليه فإن البنيان كله يجب أن يقوم في توافق مع الفكرة الأولية وعلى رأس هذا النظام يجب أن تقف طبقة خاصة من «القادة الروحيين». وهذا الموقف شديد القرب من نظريات شميدت المتعلقة بالدافع «الإرادي» «الروحي» المكنون في منابع ظهور الـ grossraum.

كانت الايديوكراتيا تفترض أولوية النظرة غير البراغماتية، اللامادية،

اللاتجارية، إلى بناء الدولة وإن قيمة «الشخصية الجغرافية» تتجسد، برأي ساڤيتسكي، في القدرة على التسامي فوق الضرورة المادية، مع الجمع العضوي للعالم الفيزيائي في دافع روحي إبداعي واحد للتوزيع الكوني التاريخي.

الايديوكراتيا ـ مصطلح يجمع بين كافة صيغ الدوافع الديموقراطية، غير الليبيرالية للإدارة القائمة على بواعث لا مادية ولا نفعية. وإلى جانب هذا نجد ساڤيتسكي يتفادى عامداً تحديد هذا المصطلح الذي يمكن أن يتجسد في المجمعية التيوقراطية وفي الملكية الشعبية والديكتاتورية الوطنية والدولة الحزبية ذات النمط السوفياتي. هذا الاتساع في المصطلح يتفق والآفاق الجيوبولتيكية الصرفة للأوراسية، تلك الآفاق التي تشمل آماداً تاريخية وجغرافية كبرى وتلك محاولة للتعبير بصورة أكثر دقة عن الإرادة الحدسيّة للقارة.

ومن الواضح أن الايديوكراتيا تتعارض تعارضاً مباشراً مع النظرة البراغماتية ـ التجارية التي كانت طاغية في مقولات ماكيندر، ماهان وسبيكمان. وعلى هذا فإن الأوراسيين وصلوا بالمصطلحات الايديولوجية التي انعكست فيها المواجهة التاريخية بين **البحر والأرض** حتى أسمى درجات الوضوح. **فالبحر** ـ هو ـ «الديموقراطية الليبيرالية»، «النظام التجاري، البراغماتية. **والأرض** هي ـ الايديوكراتيا (بجميع أوجهها)،» الإدارة التدرجية، هيمنة المثل الديني الأعلى.

ونظرات ساڤيتسكي إلى الأيديوكراتيا تتناغم مع نظرات عالم الاجتماع والاقتصادي الألماني فيرنير زومبارت، الذي قسم كافة النماذج والأنماط إلى طبقتين عموميتين ـ «الأبطال» و «التجار» أما على المستوى الجيوبولتيكي فمصطلح «البطل» و «البطولة» يفقد معناه الميتافيزيكي ـ الحماسي ـ ليغدو مصطلحاً تقنياً للتعريف بالخصوصية الحقوقية والأخلاقية للإدارة الأيديوكراتية.

9 ـ 6 الاتحاد السوفياتي والأوراسية

إن دور بيوتر ساڤيتسكي والأوراسية الروسية ـ بصفة أوسع في تطوير الجيوبولتيكا كعلم، كبير جداً. ومن المستغرب قلة الاهتمام الذي توليه الكتب التعليمية الغربية لهذا الاتجاه. ففي شخص ساڤيتسكي نلتقي بالجيوبولتيكي الواعي بامتياز ـ المسؤول، الجدير والذي يعبّر بكل مقدرة وحجة عن موقف الـ heartland

معتمداً في الوقت ذاته على ميادينه الروسية العميقة. ونظرية سافيتسكي الجيوبولتيكية النقيض المباشر لنظرات ماهان ـ ماكيندر سبيكمان وفيدال دي لابلانش وغيرهم من «التالاسوكراتيين». وفي هذه الحالة فقط يدور الحديث عن العرض النهائي والمفصل للنظرية البديلة التي تناقش العوامل الايديولوجية والاقتصادية والثقافية والاتنية بكل تفصيل. وإذا ما استخدمنا مصطلح كارل شميدت وجدنا سافيتسكي والأوراسيين المعبّرين عن «نوموس **الأرض**» في حالته الفاعلة، منظّري «التيلوروكراتيين» المنهجيين، مفكري الـ Grossraum البديل للـ Grossraum الأنجلوساكسوني.

إن مقارنة أفكار الأوراسيين الروس بنظريات الجيوبولتيكيين القاريين الألمان (هاوسهوفر وشميدت وأمثالهم) ممن حاولوا أيضاً بناء نظريتهم الجيوبولتيكية الخاصة كنقيض لاستراتيجية القوة البحرية تبين أن الألمان قد قطعوا في هذا الاتجاه نصف الطريق فقط، أما بالنسبة للروس (ولسافيتسكي بالدرجة الأولى) فنحن أمام لوحة للعالم مكتملة، بريئة من التناقضات وكاملة القيمة. «وكلما ازداد اقتراب نظرات القاربين الألمان من الأوراسية الروسية ازداد تقبلهم للـ Ostorientierung، وازدادت نظرياتهم علمية ومنطقاً وتضاعفت فعالية مشاريعهم السياسية القائمة على أساس جيوبولتيكي».

وفي هذا المعنى كان أكثر من اقترب من سافيتسكي هم الوطنيون ـ البلشفيك الألمان ـ وبخاصة من بينهم أرنست نيكيش، ـ الذين وعوا بصفة ممتازة ازدواجية الوضع الجيوبولتيكي لألمانيا التي تبدو «توسطيتها» نسبية، ثانوية الأهمية إذا ما قيست بـ «توسطية» الروس الثقافية والقارية المطلقة. وانطلاقاً من ذلك توصلوا إلى الاستنتاج بأنه لا يمكن لألمانيا أن تتطلع إلى دور التركيب الجيوبولتيكي وأن عليها أن تختار بين ألمانيا الجنوبية ـ الغربية الكارهة للسلاف، ألمانيا (ومنها النمسا) الكاثوليكية، والتالاسوكراتية (البورجوازية) في بعض الوجوه وبين بروسيا الشمالية ـ الشرقية، الجرمانية ـ السلافية، الاشتراكية، المحبة للروس، البروتستانتية والسبارطية. وإلى نيكيش تعود الأطروحة الجيوبولتيكية الشهيرة «أوروبا من ڤلاديڤوستوك حتى فليسينغ» وفقط مثل هذه النظرة من طرف الألمان يمكن أن تتناغم مع الأوراسية القارية المنهجية. ومن الطبيعي أن خط هتلر، ذلك الكاثوليكي النمساوي، المعادي للشيوعية والكاره للسلاف ـ مهما حاول أن يصوّبه بعض الذين

يتطرفون قليلاً في التاريخية، المسؤولون من بين الثوريين المحافظين وعلماء الجيوبولتيكا ـ ما كان له أن يفضي إلا إلى أن تفقد ألمانيا ولفترة طويلة وجودها التاريخي بنتيجة تلك الهزيمة الكابوسية التي أوقعتها فيها بالذات تلك القوى التي كان من شأن «التحالف الأبدي» معها أن يضمن للألمان المشاركة في الهيمنة العالمية على «التيلوروكراتيا».

كان الواقع السوفياتي في معناه الجيوبولتيكي يتطابق في كثير من وجوهه مع نظريات ساڤيتسكي وغيره من الأوراسيين على الرغم من أنه ليس ثمة أية معلومات موثوقة عن تأثيرهم المباشر على القيادة السوفياتية. وإلى حد بعيد كان القريبون من الأوراسيين من بين السمينوڤيخوڤتسي(*) والوطنيين ـ البلشفيك ـ وبخاصة نيكولاي اوستريالوف ـ يتركون تأثيرهم بكل وضوح على البلشفيك وعلى ستالين بالذات بالرغم من أنهم لم يشغلوا أية مناصب رفيعة قط وكثيراً ما أمضوا حياتهم في معسكرات الاعتقال. وقام قسم من الأوراسيين ـ ايرفون وكارساڤين وغيرهم ـ بالتعاون العلني مع الاتحاد السوفياتي لكنهم لم يتلقوا، بدورهم، أي شكر. بيد أن تحليل السياسة السوفياتية الخارجية ـ حتى بداية البيريسترويكا ـ يؤدي إلى الاستنتاج بأنها كانت تسلك بصفة دائمة نهجاً أوراسيا بالذات دون أن تتحدث علانية عن ذلك على الإطلاق.

هنا فقط يمكننا أن نبني الافتراضات. فإما أن تكون قد وجدت منظمة مجهولة ما في داخل النظام السوفياتي ـ تهتدي بآراء ساڤيتسكي وتكيفها وفق الوقائع السياسية الفعالة وتغلفها بالمفردات الماركسية «الرسمية» أو أن الواقع الموضوعي للـ heartland كان يضطر الاتحاد السوفياتي للقيام، بمقتضى العادة، بالخطوات التي ينبغي أن تقوم بها دولة قارية واعية جيوبولتيكياً ـ هي الأوراسيا.

(*) السمينوڤيخوڤتسي: تعود الكلمة إلى دورية صحفية باسم «سمينا ڤيخ» (تحوّل العصور) أصدرتها في باريس بين 1921 ـ 1922 جماعة تنتمي إلى تيار سياسي ظهر بين فئة من المثقفين البورجوازيين الروس (المهاجرين منهم بصفة خاصة) في عشرينيات القرن الماضي، ورأى بعض أتباعه ضرورة التحول عن الصراع ضد السلطة السوفياتية إلى الاعتراف بها مبررين ذلك بقرب ارتداد السلطة السوفياتية عن مواقفها ضمن ظروف النظام الاقتصادي الجديد الذي جرى تطبيقه في تلك الفترة. (المترجم).

الجيوبولتيكا أداة للسياسة القوميّة

10 ـ 1 الثنائية الكونية ـ قانون الجيوبولتيكا الأساسي

بإجمال حاصل التعرف الموجز على أفكار مؤسسي علم الجيوبولتيكا يمكننا القيام بعدد من الاستنتاجات العامة.

فعلى الرغم من تنوع وجهات النظر نتعامل مع لوحة واحدة للعالم يمكن أن نسميها اللوحة الجيوبولتيكية، ولوحة العالم هذه تطمح إلى أن تدخل في تحليل العمليات التاريخية والعلاقات ما بين الشعوب وما بين الدول عدداً من المقاربات التأسيسية ـ الجغرافية منها، والمتعلقة بعلم السياسة، والإيديولوجية والاتنوغرافية والاقتصادية وما إلى ذلك. وفي هذا يتجسد الطابع الأساسي لكافة النظريات الجيوبولتيكية والطموح إلى التركيب ما بين النظم العلمية.

أما الصيغة المنهجية الأكثر عمومية والمشتركة بين جميع علماء الجيوبولتيكا فهي توكيد الثنائية التاريخية التأسيسية بين **اليابسة**، التيلوروكراتيا، «نوموس» الأرض، الأوراسيا، الـheartland، «الأرض المتوسطة»، «الحضارة الإيديوقراطية»، «المحور الجغرافي للتاريخ» من جهة وبين **البحر**، التالاستوكراتيا، الـSea Power، «نوموس **البحر**»، العالم الأنجلو ساكسوني، الحضارة التجارية، «الهلال الخارجي أو الجزيري» من الجهة الأخرى. وهذا ما يمكن النظر إليه على أنه القانون الأساسي للجيوبولتيكا. وخارج التسليم بهذه الثنائية تفقد جميع النتائج معناها. فعلى الرغم من كل الاختلاف في الرؤى الخاصة لم يقم أي واحد من مؤسسي

العلم الجيوبولتيكي بوضع مثل هذه المقابلة موضع الشك. وهو ما يضارع في معناه قانون الجاذبية الكوني في الفيزياء.

10 ـ 2 لا يمكن لعالم الجيوبولتيكا إلا أن يُجتذب للعمل

والخصيصة الثانية لنظرات مؤسسي الجيوبولتيكا هي حتمية استخدامهم السياسي. فمن الناحية العملية لا نجد عالماً جيوبولتيكياً واحداً تم استبعاده عن المشاركة في الحياة السياسية لدولته. ومن هنا تأتي التحيّزية الواضحة لديهم جميعاً ودون استثناء. فلا بد للجيوبولتيكي، وهو ينطلق إلى بحوثه العلمية، من أن يحدد مكانه الخاص على خارطة الأقطاب الجيوبولتيكية، وبهذا ترتبط زاوية الرؤية التي سيحلل من خلالها كافة العمليات العالمية. ولا نجد في تاريخ الجيوبولتيكا بطوله مؤلفاً واحداً اتسم باللامبالاة نحو دولته أو شعبه أو لم يشاطرهما توجههما الخلقي والتاريخي. ويتجلى هذا واضحاً عند الأقطاب المتطرفة ـ فالمؤلفون الأنجلو ساكسون يسيرون دون أي إحساس بالحرج، وبطريقة موحَّدة، وراء منطق وقيم نظام الـSea Power، التالاسوكراتيا عندما يصوغون نظرياتهم من مواقع المؤيدين للأطلسية بلا تحفظ، والأوراسيون الروس على نفس المستوى من الاستجابة في وفائهم لمثل الـheartland فهم أيضاً لا يضعون موضع الشك الأفضلية الخلقية والتاريخية للإيديوقراطية ولروسيا ـ الأوراسية.

ويبدو الأمر أكثر تعقيداً بالنسبة للفرنسيين الذين لديهم الخيار النظري لتحقيق ذاتيتهم الخاصة ـ التالاسوكراتية أو التيلوروكراتية. فعليهم في الحالة الأولى أن يتضامنوا مع العالم الإنجلو ساكسوني، مع الـSea Power، وفي الثانية ـ مع الميل للألمان، والاحتمالان يفترضان مشاعر استحسان قومي لا نهاية لها. وهذان الاتجاهان متوفران، من الناحية النظرية بين علماء الجيوبولتيكا الفرنسيين، إلا أن التصور الجيوبولتيكي الأكثر رسوخاً قدمته مجموعة «الأطلسيين» من أتباع فيدال دي لابلانش الذي بقي الشخصية الأساسية في هذا المضمار. أما خصماه الجيوبولتيكيان، لاڤال وديغول، فيقصّران عنه من الوجهة النظرية.

ولألمانيا موقف مزدوج أيضاً. فإذا كان تفكيرها الجيوبولتيكي موجهاً في عمومه توجهاً قارياً و«أوراسياً» فإن هذا التوجه محكوم بعلاقة معقدة نحو العالم

السلافي، نحو آسيا ونحو روسيا بصفة خاصة. وقد بلغ هذا التقييد حداً كبيراً من الملموسية كما بلغت محاولات ألمانيا لموازنة وضعها الأوروبي المتوسط مع وضعها الأوراسي المتوسط، متجاهلة بذلك المعنى التاريخي لروسيا ـ الأوراسيا، درجةً من العناد جعلت ألمانيا تضطر في الحربين العالميتين لخوض الحرب ليس فقط ضد الدول التالاسوكراتية بل وحتى ضد حليفها المنطقي الأوراسي ـ روسيا (الاتحاد السوفياتي). ويمكن القول إن القارية «اللاأوراسية» هي سمة الجيوبولتيكية الألمانية وهذه الوضعية تلخص التاريخ الألماني بأسره في معادلة جيوبولتيكية وتحدد مسبقاً بنية الوعي القومي ذاتها.

إن ضرورة أن يقوم عالم الجيوبولتيكا منذ البداية بتحديد موقفه الشخصي على خارطة العالم الجيوبولتيكية وأحزمتها (وفي هذا المعنى يبدو مخطط ماكيندر شاهداً في غاية الوضوح) هي التي دفعت ذلك العلم إلى أن ينمو، بطريقة استثنائية تقريباً على أيدي ممثلي الدول الكبرى الطامحة إلى أن تغدو «قوة عالمية» (Welt mächt) «دولاً فوق العظمى» وأن تحقق السيادة القومية.

فالأمريكيان ماهان وسبيكمان، والإنجليزي ماكيندر يمثلون «الهلال الجزيري». إنهم «الناطقون» بلسان الأطلسية ـ التالاسوكراتية.

وفيدال دي لابلانش (ومدرسته) يمثلون فرنسا الأطلسية. ويميل لاڤال وديغول نحو القارية، نحو «الأوروبوية»، نحو العداء للأطلسية، ومن هنا ينبثق ميلهما المتبادل لحب الألمان والذي يقرب جيوبولتيكياً بينهما على الرغم من انتمائهما إلى معسكرين متعاديين: كان لاڤال رئيس حكومة فيشي المتعاونة مع العدو، بينما كان ديغول قائد الجيش الفرنسي المعادي للفاشيّة.

ويطابق الألمانيون راتسيل وهاوسهوفر وشميدت بين ألمانيا ومحور الأرض، التيلوروكراتيا ويحاولون أن يخلقوا من ألمانيا «مدىً كبيراً» يمكنه أن يواجه التالاسوكراتيا الأنجلوساكسونية. ويقترب منهم السويدي تشيلّين والذي يفكر بطريقة تجعله أقرب إلى أن يكون ممثلاً لأوروبا الوسطى، للمدى المكاني الأوروبي الألماني، من أن يكون قومياً «سويدياً ـ ضيق الأفق». أما القاريون الأكثر راديكالية ـ أرنست نيكيش، فريدريك جيورغ، يونغر، أرتور، موللر فان دين بروك وأمثالهم ـ فيسيرون إلى أبعد من ذلك ولا يفترضون مستقبل ألمانيا إلا في تكاملها الاستراتيجي مع روسيا الأوراسية.

وأخيراً فإن الأوراسيين الروس (سافيتسكي، تروبتسكوي وأمثالهما) يستعرضون أكثر صور القارية اكتمالاً بتعبيرهم عن الموقف الأكثر راديكالية لـ«نوموس» اليابسة، التيلوروكراتيا.

أما غياب أي عدد مهما صغر من الأسماء المرموقة بين علماء الجيوبولتيكا لدى الدول الأخرى (على الرغم من أن أمثال هؤلاء وجدوا في إيطاليا، إسبانيا، بلجيكا، رومانيا وهولندا) فيفسر بأن الثنائية الجيوبولتيكية المؤسسة لا تمس الثانويين على مستوى الدول إلا بطريقة غير مباشرة، وتأثير هذه الدول على مسيرة المواجهة العالمية غير ذي شأن، ولهذا فإن خصوصية الجيوبولتيكا نفسها وحدّتها وفعاليتها وبُعْدها «الحامل للمصير» ليست حيويّة بالنسبة لهذه الدول.

10 ـ 3 مصائر العلماء ـ مصائر الدول

هوية علماء الجيوبولتيكا تنعكس بصورة مباشرة على آرائهم. والارتباط واضح هنا، فعلماء الجيوبولتيكا هم، في واقع الحال، أولئك الأشخاص القاردون، وبمستوى أعظم من نفاذ البصيرة ومن الإحساس بالمسؤولية، على تلمّس التوجهات التاريخية للتطور العالمي في المجال المكاني، وعلى أن يفهموا مكان دولتهم وشعبهم في هذا السياق وأن يصوغوا المشروع الأكثر رسوخاً، والأكثر فعالية بالنسبة للمستقبل. ولهذا السبب فإنهم كثيراً ما يتركون أثرهم المباشر أو غير المباشر على التاريخ العالمي الذي تصنعه قوى ومجموعات وأحزاب وقادة مختلفون تماماً يتصرفون تحت شعارات مختلفة كلياً وفعّالة بالنسبة لساعتها.

وثمة قانون آخر مثير للاهتمام. فدرجة التأثير المباشر لعلماء الجيوبولتيكا على السلطة، والعلاقة العكسية بين التحضيرات العلمية والنهج السياسي في العلاقات الدولية للدول ذات الصلة تتباين بشكل حاد.

كان ماهان، سبيكمان وماكيندر يشغلون مناصب رفيعة في بلادهم، وكان لفعاليتهم السياسية النتائج الأكثر مباشرة، وتأثيرهم المباشر على السياسة الأنجلوساكسونية واضح وكبير. وبغض النظر عن بعض المماحكات التي تعرضوا لها مع عالم العلم في بلادهم وبعض السكوت (التكتيكي) على أهمية أفكارهم بالنسبة لمجموع «الحضارة البحرية» ككل، فقد كانوا يتمتعون خلال حياتهم

بالاحترام، وقُدّم إليهم كل نوع من الدعم وكان مصيرهم ومناصبهم موفقة إلى حدود مثالية.

واختلف الأمر بالنسبة لعلماء الجيوبولتيكا القاريين. فما نظروا إلى فيدال دي لابلانش إلا كجغرافي حاول توسيع دائرة دراساته حتى الميدان السياسي. وكانت علاقة الدولة به مطبوعة بالاحترام، إلا أنها اتسمت بشكل عام باللامبالاة على الرغم من أن الكثير من مبادئه العلمية (وبخاصة ما عبر عنه في «فرنسا الشرقية») أخذت في ميدان التسليح. إنه لا يتمتع بالمكانة التي تبوأها الأنجلو ـ أمريكيون إلا أن تراثه النظري يؤخذ بالحسبان.

أما بالنسبة للألمان وبخاصة بالنسبة لهاوسهوفر وشميدت ـ فالأمر على مستوى أعلى من الحيوية. ففي جمهورية فايمار وخلال حياة هتلر كانت العلاقة بهما تقوم على النوازع الشخصية وتنتقل من بعض الاهتمام المحدود من طرف السلطة وحتى التنكيل المباشر. ومصيرهما إذا ما قورنا بعلماء الجيوبولتيكا «التالاسوكراتيين» ـ كان مأساوياً وقد سار خطهما المهني في خط متكسّر، ويغدوان في بعض الأحيان ضحايا حتى تلك النظم التي تتطابق أهدافها القومية مع أهدافهما الخاصة. وهنا لم يعد ثمة تقدير ولا احترام، بل نوع من الاهتمام الهستيري الذي تناوب مع ما تعرّضا له من ألوان الاضطهاد.

واللوحة تبدو أشد مأساوية بالنسبة للأوراسيين إذ لا نجد هنا أي احترام مباشر، ولا أي ذكر لهم في المصادر الرسمية؛ لا شيء سوى معسكرات الاعتقال، والمنافي والسجون والملاحقات مع التجاهل المطلق. وعلى الرغم من تكوّن الانطباع، حتى مرحلة معينة من التاريخ السوفياتي، بأن القرارات الأساسية على المستوى الدولي تتخذ من طرف أتباع بيوتر سافيتسكي، الذين يوفقون كل خطوة لهم ومنشورات الأوراسيين، تحل لحظة انكسار عام 1969 ـ عندما يتبيّن أنْ لا أحد في القيادة السوفياتية بقادر على أن يوضح بلغة مفهومة منطق السياسة الخارجية التقليدية، ونتيجة لذلك يتم التدمير الصاعق للنظام الأوراسي العملاق الذي أقامته بمثل ذلك التوتر ثلاثة أجيال كابدت الحروب والحرمان والمعانيات والآلام التي يعجز عنها البشر.

إن دور شخصية الجيوبولتيكيين بمعنى تأثيرهم على السلطة يتقلص بحدّة

وفقاً لمحور الغرب ـ الشرق. فمع الاحترام الذي قوبل به ماهان وسبيكمان تتعارض التهديدات المستمرة التي تعرض لها شميدت من طرف جماعة الـSS واضطهاد هاوسهوفر (وقد أطلق الرصاص على ولده) مثلما تتعارض معها وبدرجة أكبر معسكرات الاعتقال التي أرسل إليها سافيتسكي وكارسافين. ومن الأمور المذهلة أن تلك الدول التي استجابت أكثر من سواها لعلمائها الجيوبولتيكيين وأحاطتهم بالإجلال قد حصدت، في نهاية المطاف، نتائج مهولة واقتربت كثيراً من الوصول بصفة نهائية إلى السيطرة العالمية بمفردها. بينما دفعت ألمانيا سقوطها من التاريخ لمدة نصف قرن ثمناً لإهمالها أطروحات هاوسهوفر المتعلقة بـ«المعسكر القاري»، وتكبدت هزيمة مريعة وغارت في العدَم السياسي. أما الاتحاد السوفياتي الذي لم يعر اهتماماً لأعمال الأبطال الوطنيين الروس الأكثر إحساساً بالمسؤولية، والمتعمقين النافذي البصيرة فقد وجد نفسه وبدون معركة أو مقاومة في وضع يقترب من وضع ألمانيا بعد الحرب ـ فهبط تأثيره العالمي حتى الصفر، وتقلصت مساحته بشدّة وتحول اقتصاده ووسطه الاجتماعي إلى أطلال.

الباب الثاني

النظريات والمدارس الجيوبولتيكية المعاصرة

(النصف الثاني من القرن العشرين)

نظرة عامة

سلك تطور الفكر الجيوبولتيكي في النصف الثاني من القرن العشرين، في عمومه، نفس الطرق التي حدّدها مؤسسو هذا العلم. وقصة هاوسهوفر ومدرسته التي خيمت عليها الظلال الشريرة للتعاون الفكري مع الرايخ الثالث جعلت المؤلفين الذين يشغلون هذا الحقل العلمي يبحثون عن طرق ملتوية لكي لا يتهموا بـ«الفاشية». والأمريكي كولين س. غري اقترح مثلاً استخدام كلمتين للتعبير عن الجيوبولتيكا: الكلمة الإنجليزية «geopolitics» والألمانية «Geopolitik». وكان على الكلمة الأولى أن تعني البعد الأنجلوساكسوني البراغماتي لهذه الظاهرة أي أعمال المؤلفين الذين يؤثرون رؤية ماهان، ماكيندر وسبيكمان، أما الثانية ـ فتعني «البعد القاري»، تراث مدرسة هاوسهوفر الذي كان يضع في الحسبان بعض العوامل «الروحية» أو «الميتافيزيكية». ومن الطبيعي أن هذا التقسيم اشتراطي إلى حد كبير وليس إلا طريقاً ديماغوجياً أملته تصورات «اللباقة السياسية».

أما الخط الأمريكي، وبمعنى أوسع، الأطلسي (التالاسوكراتي) في الجيوبولتيكا فقد تطور من الناحية العملية دون أي انقطاع عن التقليد المعتمد. فبمقدار تطبيق مشاريع الأمريكيين في إقامة «الدولة العالمية» ما زاد علماء الجيوبولتيكا الأطلسيون، في فترة ما بعد الحرب، على أن دققوا الآفاق الجزئية لنظريتهم وزادوها تفصيلاً مع تطوير مجالاتها التطبيقية. والأنموذج المؤسس «للقوة البحرية» وأبعادها الجيوبولتيكية تحول من صياغات علمية لعدد من المدارس العسكرية، الجغرافية المتفرقة ليصبح السياسة الرسمية العالمية للولايات المتحدة.

وبالإضافة إلى ذلك فإن تحول الولايات المتحدة إلى دولة فوق العظمى وخروجها إلى المرحلة النهائية للتالاسوكراتيا جعل علماء الجيوبولتيكا الأمريكيين

يتدارسون أنموذجاً جيوبولتيكياً بالغ الجدّة تشارك فيه لا القوتان الأساسيتان بل قوة واحدة فقط. إلى هذا فقد وضعت من الناحية المبدئية صيغتان لتطوير الأحداث ـ إما الفوز النهائي للغرب في المبارزة الجيوبولتيكية مع الشرق وإما الجمع بين المعسكرين الإيديولوجيين في واحد **وإقامة الحكومة العالمية** (وسمي هذا المشروع بـ«**الموندياليزم**» ـ من الكلمة الفرنسية «monde» «العالم») وكان الأمر في الحالتين يتطلب تفسيراً جيوبولتيكياً لهذه التخريجة الممكنة لتاريخ الحضارات. وقد استدعى هذا الموقف إلى الحياة اتجاهاً خاصاً في الجيوبولتيكا هو «**جيوبولتيكا العولمة**». وبكلمة أخرى تعرف هذه النظرية بخطاب «النظام العالمي الجديد». وقد عكف الأمريكيون على صياغتها منذ السبعينيات لكن التصريح بها بصورة علنية لأول مرة تم سنة 1991 من طرف جورج بوش رئيس الولايات المتحدة خلال حرب الخليج.

بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، لم تعد الجيوبولتيكا الأوروبية قائمة، من الناحية العملية، كشيء مستقل. وما تغيرت الحال قليلاً إلا في غضون مرحلة قصيرة بين 1959 ـ 1968 عندما صار «القاري» شارل ديغول رئيساً لجمهورية فرنسا. فبداية من سنة 1963 اتخذ ديغول عدة خطوات مناوئة بشكل واضح للأطلسية، وبنتيجة ذلك انسحبت فرنسا من حلف شمالي الأطلسي وقامت بمحاولات بناء استراتيجيتها الجيوبولتيكية الخاصة. ولكن لما كانت تلك الدولة عاجزة بمفردها عن مواجهة العالم التالاسوكراتي فقد ظهرت على جدول أعمال تلك الأيام مسألة التعاون الداخلي الأوروبي، الفرنسي ـ الألماني وتعزيز العلاقات مع الاتحاد السوفياتي. ومن هنا بزغ الشعار الديغولي المشهور «أوروبا من الأطلسي إلى الأورال». هذه الأوروبا وقد تم تخيلها كتشكيل قاري مستقل من الناحية الاستراتيجية ـ وضمن روح «**القارية الأوروبية**» المعتدلة.

وبالإضافة إلى ذلك فعند بداية السبعينيات وعندما تغدو الدراسات الجيوبولتيكية في الولايات المتحدة مبسطة إلى أبعد حد بين الجماهير يأخذ العلماء الأوروبيون بالانضمام إلى هذه العملية، إلا أن علاقتهم بالمدرسة الجيوبولتيكية السابقة للحرب كانت في معظم الحالات قد قطعت بصفة نهائية. وكان عليهم أن يتكيفوا مع معايير النظرة الأنجلوساكسونية إلى الموضوع ـ وهكذا يدخل العلماء الأوروبيون خبراء تقنيين في المنظمتين الدوليتين ـ حلف الناتو ومنظمة الأمم المتحدة وما إلى ذلك، مشغولين بالدراسات **الجيوبولتيكية التطبيقية** ودون أن



يخرجوا عن حدود الموضوعات المحدّدة الضيقة. وبالتدريج تحولت هذه الدراسات إلى شيء مستقل، إلى «الجيوبولتيكا الإقليمية» التي لقيت تطويراً ملموساً في فرنسا (مدرسة إيف لاكوست، ناشر مجلة «هيرودوت») ثم تتحرر هذه «الجيوبولتيكا الإقليمية» من الخطط العالمية لماكيندر ماهان أو هاوسهوفر ولا تولي إلا القليل من الأهمية للثنائية المؤسسة ولا تستخدم المناهج الجيوبولتيكية إلا لوصف النزاعات بين الاتنيات أو بين الدول أو وصف العمليات الديموغرافية بل وحتى «**جيوبولتيكا الانتخابات السياسية**».

التقليد المتواصل الوحيد للجيوبولتيكا الذي ظل محافظاً على ذاته في أوروبا منذ سنوات ما قبل الحرب كان في حوزة المجموعات الهامشية إلى حد ما والتي ارتبطت بهذا المستوى أو ذاك بالأحزاب والحركات القومية لما بعد الحرب. وفي هذه الأوساط الضيقة والعائدة سياسياً للأطراف تنامت الأفكار الجيوبولتيكية التي انطلقت مباشرة نحو «قارية» مدرسة هاوسهوفر وما شاكلها. وقد تلقت هذه الحركة في عمومها اسم «اليمينيين الجدد» الأوروبيين. وحتى مرحلة معينة كان رأيهم العام يقابل بكل بساطة بالتجاهل لاعتبارهم من «مخلفات الفاشية» وفي السنوات العشر الأخيرة فقط وبصفة خاصة بفضل النشاط التنويري والإعلامي الذي قام به الفيلسوف الفرنسي آلين دي بِنْوا، أخذت الأوساط العلمية الجادة تصغي إلى هذا التوجه، وعلى الرغم من المسافة المعتبرة الفاصلة بين الأوساط المفكرة «لليمينيين الجدد» الأوروبيين وبين أوساط السلطة، ومن «الاختلاف في الرأي» فإن أعمالهم تمثل، من الوجهة النظرية البحتة، إسهاماً ضخماً في تطوير الجيوبولتيكا. ولما كانت عقليتهم متحررة من ضرورات الالتزام السياسي فإنها تطورت مستقلة بصفة نسبية ودون تحيّز. وتجدر الإشارة إلى أن وضعاً قد تشكل في حدود التسعينيات اضطر إزاءه علماء الجيوبولتيكا الأوروبيون الرسميون (وعلى الغالب من بين المتحدرين من أحزاب اليسار أو اليسار المتطرف) للجوء إلى «اليمينيين الجدد» وأعمالهم وترجماتهم ودراساتهم من أجل استكمال اللوحة الجيوبولتيكية.

وأخيراً، الجيوبولتيكا الروسية. من الناحية الرسمية لم توجد في الاتحاد السوفياتي تلك الجيوبولتيكا التي توصم بـ«الفاشية» أو بـ«العلم البورجوازي الزائف». وقد قامت بوظائف تلك الجيوبولتيكا عدة علوم أخرى ـ الاستراتيجية، الجغرافيا العسكرية، نظرية القانون الدولي والعلاقات الدولية، الجغرافيا،

الاتنوغرافيا وسواها. وفضلاً عن ذلك كان المسلك الجيوبولتيكي في الاتحاد السوفياتي على الصعيد الكوني يشي بوجود أنموذج سلوكي عقلاني إلى حدود بعيدة من وجهة النظر الجيوبولتيكية. فطموحات الاتحاد السوفياتي إلى تعزيز مراكزه في جنوب الأوراسيا، في «المنطقة الشاطئية»، والتغلغل في أفريقيا، والعمليات المثيرة للاضطراب في أمريكا الجنوبية (والموجّهة إلى إحداث صدع في المدى المكاني الذي تسيطر عليه الولايات الأمريكية ـ الشمالية وفق مبدأ مونرو، بل واختراق القوات السوفياتية لأفغانستان بهدف كسر طوق «الأناكوندا» الأمريكية التي تحاول تقريب الحدود الاستراتيجية للتالاسوكراتيا لتلتصق بالحدود الجنوبية لـ«المحور الجغرافي للتاريخ») وما إلى ذلك. هذه السياسة السوفياتية المنهجية والمبررة تشير إلى وجود نوع من «مركز القرارات» الذي كان ينبغي أن تُلخّص فيه ضمن صيغة واحدة نتائج عدد كبير من العلوم التقليدية ثم تتخذ الخطوات الاستراتيجية الأهم على أساس من هذا «المُعْطى»، «التركيب» إلا أن الحَصْر الاجتماعي لهذا «المركز الجيوسياسي السري» يبدو إشكالياً. وثمة رأي يقول إن الحديث يدور هنا حول قسم سري ما في إدارة المخابرات.

كانت الجيوبولتيكا تتطور بصفة استثنائية عن طريق حلقات هامشية قائمة على «الاختلاف في الرأي». وكان أسطع ممثل لهذا التوجه هو المؤرخ ليف غوميليوف على الرغم من أنه لم يستخدم في أعماله مصطلح «الجيوبولتيكا» ولا مصطلح «الأوراسية» قطّ. وفضلاً عن ذلك كله كان حريصاً كل الحرص على تجنب التوجه المباشر إلى الوقائع الاجتماعية ـ السياسية. وبفضل مثل هذا الموقف «الحذر» تمكن من أن ينشر حتى خلال النظام السوفياتي عدة كتب مكرسة للتاريخ الأتنوغرافي.

وبعد سقوط حلف وارسو والاتحاد السوفياتي عادت الجيوبولتيكا لتصبح فعالة في المجتمع الروسي. ومكّن إلغاء الرقابة الايديولوجية أخيراً من تسمية الأشياء بأسمائها. فليس غريباً أن يكون أول من قام ببعث الجيوبولتيكا هو الأوساط القومية ـ الوطنية (صحيفة «دين» ومجلة «ايلمنتي»)، وبدا المنهج مثيراً للانطباع إلى درجة أن المبادرة قد خطفتها بعض الحركات «الديموقراطية» أيضاً. ولم يمض على البيريسترويكا إلا القليل حتى صارت الجيوبولتيكا واحدة من أكثر الموضوعات شعبية في المجتمع الروسي بأسره.

وبهذا يرتبط الاهتمام المتعاظم في روسيا المعاصرة بالأوراسيين وتراثهم.

الأطلسيّة المعاصرة

2 ـ 1 أتباع سبيكمان ـ د.أ. ماييننغ، أ.كيرك س.ب. كوين، ك. غري، هـ. كيسنجر

إن تطور الخط الأمريكي الأطلسي المحض، في الجيوبولتيكا بعد عام 1945 يجسد في الأساس تطوير أطروحات نيكولاس سبيكمان، ومثلما بدأ هذا بناء نظرياته بتصحيح ماكيندر فإن أتباعه قاموا في الأساس بتصحيح أفكاره الخاصة.

ففي سنة 1956 قام د. ماييننغ، تلميذ سبيكمان بنشر نص بعنوان «الـHeartland والـ Rimland في التاريخ الأوراسي» أكد فيه بشكل خاص على أن «**المقاييس الجيوبولتيكية يجب أن تضع في الحسبان التوجه الوظيفي للسكان والدولة، وليس فقط العلاقة الجغرافية الصرف للأرض باليابسة والبحر**»[1] ويظهر واضحاً في هذا تأثير فيدال دي لابلانش.

ويتحدث ماييننغ عن أن مجموع مساحة الـrimland الأوراسي يقسم وفقاً لتوضعها الوظيفي ـ الثقافي إلى ثلاثة نماذج: الصين، منغوليا، ڤيتنام الشمالية، بنغلاديش، أفغانستان، أوروبا الشرقية (بما في ذلك روسيا)، دول البلطيق وكاريليا ـ المناطق المائلة عضوياً إلى الـ heartland.

كوريا الجنوبية، بورما ـ الهند، العراق، سوريا، يوغسلافيا ـ المحايدة جيوبولتيكياً.

أوروبا الغربية، اليونان، تركيا، إيران، الباكستان، تايلاند ـ الميالة إلى الحلف التالاسوكراتي[2].

وفي سنة 1965 أصدر أ. كيرك، وهو تلميذ آخر لسبيكمان، كتاباً[3] يعيد صياغة عنوان مقالة ماكيندر الشهيرة «المحور الجغرافي للتاريخ». وقد طور كيرك نظرية سبيكمان المتعلقة بالأهمية المركزية للـrimland من أجل التوازن الجيوبولتيكي للقوى وبالاعتماد على تحليل ماييننغ الثقافي ـ الوظيفي وقوله بأفضلية«مناطق الحواف» بالنسبة للتوضع «التيلوروكراتي» أو «التالاسوكراتي» أقام كيرك أنموذجاً تاريخياً تلعب فيه الدور الأهم الحضارات الشاطئية التي تنطلق منها الدفقات الثقافية إلى دواخل القارة بدرجة من النشاط أعلى أو أقل. وأمام هذا يتم الاعتراف بالصيغ الثقافية «الأعلى» وبالبادرة التاريخية لصالح تلك القطاعات من «الهلال الداخلي» والتي يعرّفها ماييننغ إنها «موجّهة تالاسوكراتياً».

واقترح الأمريكي سول كوين في كتابه «الجغرافية والسياسة في عالم مجزأ»[4] تعزيز المنهج الجيوبولتيكي بتصنيف إضافي قائم على تقسيم الوقائع الجيوبولتيكية إلى «نوى» (nucleus) وإلى **«أحزمة متقطعة»**، ومن وجهة نظره يمكن لكل إقليم من الكوكب الأرضي أن يقسّم إلى 4 قطاعات جيوبولتيكية تتضمن:

«1) الوسط الخارجي البحري (المائي) المرتبط بالأسطول البحري والموانىء.

2) النواة القارية (nucleus) وتتطابق مع «الـ Hinterland»، (المصطلح الجيوبولتيكي الذي يعني «المناطق الداخلية البعيدة عن الشاطىء».

3) الحزام المتقطع (القطاعات الشاطئية ـ الموجهة إلى داخل القارة أو منها).

4) المناطق غير المرتبطة جيوبولتيكياً بهذه المجموعة»[5].

منظومة «الأحزمة المتقطعة» إلتقطها الاستراتيجيّون الأمريكان الطليعيون مثل هنري كيسنجر الذي رأى أن الاستراتيجية السياسية للولايات المتحدة، المتعلقة بالمناطق الشاطئية «المتقطعة» تمثل في ربط الأجزاء في كلّ موحد وتمكين الأطلسية بذلك من فرض هيمنتها المطلقة على الأوراسيا السوفياتية. وقد سميت هذه النظرية بالـ «Linkage» من الكلمة الإنجليزية «link» «أداة ربط» «حلقة». ولكي تكون استراتيجية «الأناكوندا» ناجحة حتى النهاية كان من الضروري إيلاء اهتمام خاص «للقطاعات الشاطئية» من الأوراسيا التي إما كانت تقف على الحياد وإما تميل نحو الآماد الداخلية للقارة. ومن الناحية العملية طبقت هذه السياسة عبر

الحرب الڤيتنامية، وعبر تفعيل العلاقات الأمريكية ـ الصينية، ومساندة الولايات المتحدة للنظام الموالي لأمريكا في إيران، ودعم القوميين المعارضين في أوكرانيا ومناطق البلطيق وما إلى ذلك.

وعلى نحو ما كان الأمر في العهود السابقة بقيت المدرسة الجيوبولتيكية الأطلسية تؤيد بصفة متصلة العلاقة العكسية مع السلطة.

أما تطور النظرات الجيوبولتيكية في تطبيقه على العصر الذري فنجده لدى ممثل آخر للمدرسة الأمريكية نفسها وهو كولين غراي. ففي كتابه «جيوبولتيكا العصر الذري»[6] يقدم نظرة إلى الاستراتيجية العسكرية للولايات المتحدة والناتو ويضمنها أماكن التوضع الكونية للأهداف الذرية انطلاقاً من الخصائص الجغرافية والجيوبولتيكية للمناطق.

2 ـ 2 الأطلسيون كسبوا الحرب الباردة:

حتى بداية التسعينيّات كان التطور الجيوبولتيكي للأطلسية يحقق ذروته. وتستعرض استراتيجية «الأناكوندا» فعاليتها المطلقة. ويمكننا في هذه الفترة أن نلاحظ ما يقارب الصحة «التنبؤية» لعلماء الجيوبولتيكا الأوائل ـ ماكيندر وماهان واللذين قام سبيكمان بتصويبهما بدقة.

إن سقوط حلف وارسو والاتحاد السوفياتي يشيران إلى انتصار توجهات الاستراتيجية الأطلسية المطبقة في الحياة على مدار القرن العشرين بطوله. فالغرب يحقق انتصاره في حربه الباردة مع **الشرق والقوة البحرية** (Sea Power) تحتفل بانتصارها على الـheartland.

ومن الناحية الجيوبولتيكية يمكن تفسير ذلك بما يلي:

كانت مواجهة المعسكر السوفياتي مع الناتو الصيغة الأولى الصافية والنقيّة من صيغ المواجهة بين الأرض والبحر بين «**بهيموت ولَوِياثان**» في التاريخ. وإلى جانب ذلك فإن الميزان الجيوبولتيكي للقوى لم يكن يعكس الثوابت الأيديولوجية فقط بل والجيوبولتيكية أيضاً.

والاتحاد السوفياتي كـheartland، كأوراسيا، كان يجسّد الأيديوقراطية السوفياتية النمط. ومن وجهة النظر الجغرافية كان ذلك **مجالاً واسعاً** متكاملاً ذا

مصادر طبيعية مهولة وتسليح استراتيجي متطور. وتمثلت الأفضلية الرئيسية للاتحاد السوفياتي في الميول «الثقافية الوظيفية» للسكان الذين يعيشون في أراضيه الواسعة أو المجاورة والصعبة المنال والتي تسمح بإقامة الجسور التقنية والدفاعية الوطيدة. وفضلاً عن ذلك كان للاتحاد السوفياتي من جهتيه **الشمال والشرق** حدود بحرية كان الدفاع عنها أيسر بكثير من الدفاع عن الأراضي القارية.

وعلى حساب الاقتصاد القائم على المركزية كان الاتحاد السوفياتي قد حقق الاكتفاء الذاتي بالنسبة للمواد التموينية والوضع العسكري للدولة فوق العظمى. وكان يتطلع وفق الإمكانيات إلى بسط نفوذه على القارات الأخرى.

إلا أن الحلف الشرقي كان يشكو من مجموعة من أوجه النقص الجيوبولتيكية المبدئية. يتمثل أهمها في الامتداد الهائل لحدوده البرية. فإذا كانت الحدود من جهة الجنوب تتوافق مع سلسلة الجبال الأوراسية - من منشوريا حتى تيان شان والبامير والقوقاز - فإن الحدود في الغرب تخترق وسط أوروبا السهلية التي كانت الجسر الاستراتيجي للأطلسية بينما تستقر قاعدتها المركزية على الشاطىء الغربي **للمحيط المتوسط** (Midland Ocean) ولكن حتى في الجهة الجنوبية لم تكن الجبال وسيلة دفاعية فقط، بل وعقبة تسد الطريق أمام التوسع الممكن وتحول دون الخروج إلى البحار الجنوبية.

وبالإضافة إلى ذلك كان على الحلف الشرقي أن يحشد في مركز جيوبولتيكي واحد - قواه العسكرية - الاستراتيجية والاقتصادية والعقلية والانتاجية وموارده الطبيعية.

مع مثل هذا الوضع يتناقض بحدّةٍ وضع الغرب بمركزه الولايات المتحدة (ويكتسب هذا أهمية خاصة إذ لم يكن وضع أوروبا الغربية في مثل هذا التوزع للقوى مما تُحسد عليه، فقد كان من نصيبها دور القاعدة الأرضية للولايات المتحدة الأمريكية، يمتد على حدود المعسكر المضاد فهي نوع من «**النطاق الصحي**»). وكانت أمريكا محميّة بكاملها «**بالحدود البحرية**». وبعد أن حصنت قارتها من الناحية الاستراتيجية - حققت - فوق ذلك كله، السيطرة على قسم هائل من الشاطىء الـ rimland الأوراسي. ومن أوروبا الغربية عبر اليونان وتركيا (الدولتين - العضوين في الناتو) امتدت سيطرة الأطلسيين نحو **الشرق الأقصى**


الاتحاد السوڤياتي

(تايلاند، كوريا الجنوبية، واليابان المستعمرة استراتيجياً) ثم تتحول هذه المنطقة بكل انسيابية إلى محيطين ـ الهندي والهادي ـ القاعدة العسكرية الأهم على جزيرة سان دييغو، في الفيليبين وبعد ذلك في غوام، الكاريبي وهايتي. وعليه فإن جميع النزاعات المحتملة كانت قد نقلت إلى خارج المدى الاستراتيجي الأوراسي.

وإلى جانب ذلك كان الأطلسيون قد أقاموا نظاماً تفاضلياً معقداً للتوزيع الجيوبولتيكي لـ «**نوى**» تركيز القوة. فقد قامت الولايات المتحدة الأمريكية بصورة مباشرة بتأمين القوة العسكرية ـ الاستراتيجية، فالنظم العقلية المالية والانتاجية بالإضافة إلى مراكز تصنيع التقنيات العالية قد تم تركيزها في أوروبا الغربية المتحررة من أعباء الإنفاق للمحافظة على أمنها العسكري الخاص (باستثناء الإنفاق على الشرطة وعلى القوات العسكرية التزيينية فقط)

والخامات الطبيعية تتوارد من المناطق الأقل تطوراً من الناحية الاقتصادية في العالم الثالث، ومن هناك تتوارد إلى حد بعيد القوة العاملة الرخيصة أيضاً.

إن الحفاظ على الوضع القائم الذي تكوّن فوراً بعد الحرب العالمية الثانية كان خندقاً هجومياً فمن شأن مثل هذا الوضع أن يؤدي، وفقاً لنبوءات الجيوبولتيكيين الأطلسيين، إلى إنهاك المعسكر القاري المقضي عليه بالاكتفاء الذاتي والمضطر لأن يقوم بمفرده بتطوير كافة توجهاته الاستراتيجية في وقت واحد.

لم يكن أمام الـ heartland في مثل هذا الوضع إلا خياران: الأول: تحقيق التوسع العسكري نحو **الغرب** بهدف احتلال أوروبا حتى الأطلسي. وبعد هذه الخطوة كان يمكن للاتحاد السوفياتي أن يؤمن لنفسه الحدود البحرية الهادئة والطاقة الصناعية ـ العقلية والتقنية. وفي الوقت نفسه كان ينبغي القيام بخطوات مماثلة في الاتجاه الجنوبي من أجل الخروج أخيراً إلى البحار الجنوبية وخرق «طوق الأناكوندا» للـSea Power. هذا الطريق الصعب الذي كان من شأنه أن يؤدي في حال نجاحه إلى قيام عالم قاري مستقر وإلى إفلاس أمريكا في أقرب مدى بعد أن تفقد الـrimland.

أما الطريق الثاني فكان يتمثل ـ على عكس ذلك ـ في انسحاب الاتحاد السوفياتي وقواته المسلحة **من أوروبا الشرقية** مقابل خروج قوى الناتو **من أوروبا الغربية** وإقامة معسكر أوراسي موحّد صارم الحياد (ربما مع الاحتفاظ بقدرة ذرية

محدودة «رادعة»). وقد تمت مناقشة هذا الخيار بصورة جادة في عهد ديغول.

وكان يمكن تحقيق الأمر نفسه في آسيا. القبول بالامتناع عن السيطرة السياسية المباشرة على بعض جمهوريات آسيا الوسطى والاستعاضة عن ذلك بتشكيل حلف استراتيجي مع أفغانستان وإيران والهند (وربما الصين أيضاً) معاد لأمريكا وذي توجه قاري داخلي.

وأخيراً كان يمكن الجمع بين الخيارين والتوجه بطريق سلمي في الغرب وعن طريق القوة في **الشرق** . (أو بالعكس) كان المهم البدء بهذين النشاطين في آن واحد. ففي هذه الحالة فقط كان يمكن عقد الآمال على تبدلات التوازن العالمي للقوى للتحول من الهزيمة الواضحة **لليابسة** في حرب الخنادق إلى انتصارها. كان من الضروري، وبأي ثمن إنهاء «**الكبح**» فبهذا المصطلح كانوا يسمون تكتيك «الأناكوندا» الجيوبولتيكي خلال مرحلة الحرب الباردة.

ولكن بما أن الاتحاد السوفياتي لم يقرر الإقدام على هذه الخطوة الجيوبولتيكية الراديكالية، فلم يتبق للدول الأطلسية إلا أن تقطف جنى استراتيجيتها الخنادقية الدقيقة الصارمة والمعيّرة جيوبولتيكياً والطويلة الأمد.

وبسبب من التوتر البالغ المتفاقم من كافة الوجوه لم تحتمل الدولة السوفياتية القائمة على الاكتفاء الذاتي فسقطت. أما الاختراق العسكري لأفغانستان والذي لم يترافق بخطوة استراتيجية متوازية في أوروبا الغربية (سلمية أو غير سلمية) فإنه، بدلاً من أن ينقذ الوضع، زاد من تردّيه بصورة نهائية.

2 ـ 3 الإيروكراتيا والأثيروكراتيا:

الجيوبولتيكا الأطلسية التقليدية التي تجعل الـSea Power في مركز تصوّراتها هي «جيوبولتيكا البحر». والاستراتيجية الشاملة القائمة على أساس هذه الجيوبولتيكا أدت بالغرب إلى بناء القوة العالمية. إلا أن تطوير التقنية أدّى إلى غزو المدى الجوي وهو ما جعل التعامل مع **جيوبولتيكا الفضاء** أمراً حيوياً.

وخلافاً لـ «جيوبولتيكا البحر» فإن «جيوبولتيكا الفضاء» المدروسة المكتملة الصياغة غير موجودة.، فعامل الملاحة الفضائية يضاف إلى اللوحة الجيوبولتيكية العامة. بيد أن عدداً من العلاقات المتبادلة إزاء تفعيل الوسط الفضائي وما يرتبط به

من أنماط التسليح الجديدة ـ الطيران الاستراتيجي، الصواريخ والأسلحة الذرية عابرة القارات ـ قد تبدل بصورة ملموسة.

لقد ساوى غزو الفضاء إلى حد ما بين **اليابسة والبحر**، لأن الفارق بين هذين المجالين ليس كبيراً بالنسبة للطائرات والصوارايخ. (كان اختراع حاملات الطائرات ذا أهمية خاصة لأنه قطع القواعد الجوية بصفة نهائية عن **اليابسة** وأنهى ارتباط هذه القواعد بطبيعة سطح الأرض).

وفضلاً عن ذلك بدّل تطور الطيران من نسب البعد الكوني، إذ جعل **الأرض** «أصغر حجماً» إلى حد بعيد والمسافات ـ أقصر. كما أن صناعة الصواريخ وتطور الطيران الاستراتيجي جعلا من العوامل الجيوبولتيكية التقليدية ـ الحدود البحرية والبرية ـ القواعد القارية الداخلية وسواها ـ أمراً نسبياً إلى حد بعيد.

كان نقل الأسلحة إلى المدار الأرضي والغزو الاستراتيجي للفضاء الخارجي المرحلة الأخيرة في «تقليص» الكوكب الأرضي وإضفاء النسبية النهائية على الفروق في المسافات.

وبالإضافة إلى **اليابسة والبحر** على الجيوبولتيكا العملية أن تضع في الحسبان عفويتين تاليتين ـ هما الجو والأثير (المدى الكوني). وعلى المستوى العسكري يقابل هاتين العفويتين السلاح النووي (الجو) وبرنامج «حرب النجوم» (الكون). وبالتشابه مع التيلوروكراتيا (سلطة البر) والتالاسوكراتيا (سلطة **البحر**) يمكن لهذين النظامين الجيوبولتيكيين الأكثر حداثة أن يسميا بالأيروكراتيا (سلطة **الجو**) والأثيروكراتيا (سلطة **الأثير**).

قدم كارل شميدت، رسماً تخطيطياً سريعاً لهذين الميدانين الجديدين. ولعل ملاحظته الأكثر أهمية ومبدئية هي أن «الإيروكراتيا» و«الأثيروكراتيا» تمثلان معاً التطور التالي لـ «نوموس **البحر**» دون سواه. وإنهما الحقبتان المتقدمتان من «التالاسوكراتيا» بالذات، لأن كل العملية التقنية لغزو الفضاءات الجديدة إنما تدفع إلى «تمييع» الوسط. وهو ما يترافق حسب رأي شميدت، مع العمليات الثقافية والحضارية المطابقة ـ مع الإشاحة المتعاظمة عن «نوموس» **البر** ليس فقط بالمعنى الاستراتيجي بل وبالمعاني الأخلاقية، الروحية والاجتماعية السياسية.

وبكلمة أخرى فإن غزو الفضاءات الجوية الكونية هو امتداد للتقاليد

التالاسوكراتية دون سواها، وعلى هذا يمكن النظر إليه على أنه المرحلة الأعلى للاستراتيجية الأطلسية بالذات.

وبصفة تقريبية تبدو مثل هذه المواجهة الذرية بين المعسكرات في الحرب الباردة وكأنها منافسة في الشروط التي تطرحها «**القوة** البحرية» على الـheartland، المضطر لقبول شروط المبارزة الاستراتيجية الوضعية التي يفرضها الطرف الآخر. ومثل هذه العملية من «التمييع» الفعال «للعفويات» والمترافق مع منطق تطور العالم الغربي بالمعنيين التقني والاستراتيجي تتوازى مع الموقف الهجومي للأطلسيين في سياستهم المعتمدة على قطع المناطق الساحلية عن المركز القاري ـ ونحن في الحالتين أمام المبادرة الهجومية لأحد المعسكرين الجيوبولتيكيين وردّة الفعل الدفاعية للطرف الآخر.

وعلى المستوى العقلي يعبِّر عن ذلك بأن الأطلسيين ـ على المستوى النظري ـ يصوغون «الجيوبولتيكا الفعالة» بانكبابهم على هذا العلم علانية وبطريقة منظمة.

الجيوبولتيكا في حالة **الغرب** مادة علمية تملي الخطوط العامة للاستراتيجية الدولية. أما في حالة المعسكر **الشرقي**، ومن حيث أنه لم يجر الاعتراف بها خلال مرحلة طويلة من الزمن، فقد وجدت ولا تزال موجودة في صيغة «**ردّ فعل**» على خطوات عدو مقتدر، وهكذا كانت ولا تزال «**جيوبولتيكا سلبية**» **ترد على تحدي الأطلسية الاستراتيجي وفقاً لمبدأ قوة الاستمرار لا أكثر**.

إذا كان الاتحاد السوفياتي قد تمكن في حالة السلاح الذري والطيران (ضمن مجال الأيروكراتيا) من التوصل عن طريق شحن كافة مصادره الداخلية إلى تكافؤ نسبي، فقد حدث في المرحلة التالية انكسار بنيوي في ميدان الأثيروكراتيا، والمنافسة في ميدان التقنيات المرتبطة بـ «حروب النجوم» أدت إلى الخسارة الجيوبولتيكية النهائية وإلى الهزيمة في الحرب الباردة.

ولفهم حقيقة العمليات الجيوبولتيكية في العالم الذري وضمن شروط غزو الفضاءات المدارية تبدو ملاحظة كارل شميدت القائلة بأن الأيروكراتيا والأثيروكراتيا ليستا نظامين حضاريين مستقلين بل هما تطور لـ «نوموس **البحر**»، ملاحظةً أصيلة.

2 ـ 4 صيغتا الأطلسية الجديدة:

انتصار الأطلسيين على الاتحاد السوفياتي (على الـ heartland) كان يعني الدخول في حقبة جديدة كل الجدة، تطالب بنماذج جيوبولتيكية مبتكرة. فالوضع الجيوبولتيكي لكل ما هو تقليدي من الأراضي والأقاليم والدول والاتحادات تبدّل تبدلاً حاداً. وقراءةِ الواقع الكوني بعد انتهاء الحرب الباردة انتهت بعلماء الجيوبولتيكا الأطلسيين إلى رؤيتين مبدئيتين:

إحداهما: يمكن أن توصف بـ «التشاؤمية»: (بالنسبة للأطلسيين) وهي ترث الخط التقليدي للأطلسية والمتعلق بالمواجهة مع الـ heartland، التي تنبىء بتشكل أحلاف أوراسية جديدة قائمة على أساس التقاليد الحضارية والطرز البدئية الأخلاقية الراسخة. وهذه الصيغة يمكن أن تسمّى بـ «الأطلسية الجديدة» وتؤدي في جوهرها، في نهاية المطاف ـ إلى مواصلة النظر إلى اللوحة الجيوبولتيكية للعالم في المنظور التقريبي للثنائية المؤسسة ـ وهو ما يتشابه تقريباً مع بروز مناطق جيوبولتيكية إضافية (غير الأوراسيا) يمكنها في المستقبل أيضاً أن تصبح بؤراً للمواجهة مع الغرب. والمثل الأكثر وضوحاً لمثل هذه النظرة الأطلسية الجديدة هو صموئيل هنتينغتون.

الرؤية الثانية القائمة أيضاً على مثل هذه اللوحة الجيوبولتيكية المؤسسة، على العكس من الأولى، متفائلة (بالنسبة للأطلسيين) بمعنى أنها ترى في الوضع المتكون بنتيجة انتصار الغرب في الحرب الباردة وضعاً نهائياً ولا رجعة فيه. وعلى هذا تقوم نظرية «العولمة» ونظرية **نهاية التاريخ** والـ One World (العالم الواحد)، المؤكدة على أنه سيصار إلى التخلص من كافة أشكال التعددية الجيوبولتيكية ـ الثقافية، القومية، الدينية، الأيديولوجية والحكومية وما إلى ذلك بشكل نهائي وفي عهد قريب وتحل حقبة الحضارة الإنسانية المشتركة الواحدة القائمة على مبادىء الديموقراطية الليبرالية. وسينتهي التاريخ بانتهاء المواجهة الجيوبولتيكية التي منحت التاريخ حافزه الرئيسي منذ البداية. وهذا المشروع الجيوبولتيكي يرتبط باسم عالم الجيوبولتيكا الأمريكي فرانسيس فوكوياما الذي كتب مقالة بعنوان مثير هو «نهاية التاريخ». وعن هذه النظرية العولمية سيجري الحديث في الفصل التالي.

لنناقش المنطلقات الأساسية لنظرية هنتينغتون والتي تعدّ التطوير فوق

المعاصر للجيوبولتيكا الأطلسية التقليدية بالنسبة للغرب. ومن المهم الإشارة إلى أن هنتينغتون يبني مقالته البرنامجية «صدام الحضارات» (Clash of civilisations) ردّاً على أطروحة فوكوياما حول «**نهاية التاريخ**». ومن الأمور المميّزة أن هذا السجال يتطابق على المستوى السياسي مع الحزبين السياسيين القياديين في الولايات المتحدة: فوكوياما يعبر عن الموقف الاستراتيجي العالمي للديموقراطيين بينما يعد هنتينغتون لسان حال الجمهوريين. ويعبر هذا بدرجة كافية عن حقيقة المشروعين الجيوبولتيكيين الأحدث عهداً ـ فالأطلسية الجديدة تسير في الخط المحافظ بينما تفضل «العولمة» رؤية جديدة كل الجدة تخضع فيها كافة الوقائع الجيوبولتيكية لإعادة نظر شاملة.

2 ـ 5 صدام الحضارات: أطلسية هنتينغتون الجديدة:

إن مغزى نظرية صموئيل ب. هنتينغتون، مدير معهد جون أولين للدراسات الاستراتيجية التابع لجامعة هارفارد والذي عبر عنه في مقالته «صدام الحضارات»[7] (والتي ظهرت تلخيصاً لمشروع جيوبولتيكي كبير بعنوان «التحولات في الأمن الكوني والمصالح القومية الأمريكية») ينتهي إلى ما يلي:

الانتصار الجيوبولتيكي الظاهري للأطلسية على الكوكب الأرضي بأسره ـ فمع انهيار الاتحاد السوفياتي زال آخر حصن للقوى القارية ـ لا يلمس من الناحية الواقعية إلا القشرة السطحية للواقع. إن النجاح الاستراتيجي للناتو والمترافق مع الصياغة الأيديولوجية ـ رفض الأيديولوجية الشيوعية المنافسة ـ لا يمسّ الطبقات الحضارية العميقة. ويرى هنتينغتون، خلافاً لفوكوياما، إن الانتصار الاستراتيجي ليس انتصاراً حضارياً؛ فالأيديولوجيا الغربية ـ الليبرالـ ـ ديموقراطية، السوق وما إلى ذلك ـ أصبحت بلا بدائل ولفترة مؤقتة فقط، وقريباً سترشح لدى الشعوب غير الغربية خصائص حضارية وجيوبولتيكة من مثل «الشخصية الجغرافية» التي تحدث عنها سافيتسكي.

إن رفض أيديولوجية الشيوعية، والانزياحات داخل بنية الدول التقليدية ـ انهيار بعض التشكيلات وظهور أخرى وما إلى ذلك ـ لن يؤدي إلى التراصف الآلي للإنسانية بأسرها على النمط العالمي للقيم الأطلسية بل على العكس من ذلك

سيعيد تفعيل الرقائق الثقافية الأعمق والتي تحررت من القوالب الأيديولوجية السطحية.

ويستشهد هنتينغتون بجورج ويجل فإن «**نزع العلمنة عن العالم هو إحدى الحقائق الخالدة في أواخر القرن العشرين**» وعليه، فبدلاً من الإلقاء بعيداً بالهوية الدينية في **العالم الواحد**، وهو ما يقول به فوكوياما فإن الشعوب، على العكس من ذلك، ستحس بانتماءاتها الدينية بصورة أكثر حيوية.

ويرى هنتينغتون أنه إلى جانب الحضارة الغربية (الأطلسية) التي تشتمل على حضارة أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية يمكننا أن نرى مسبقاً الترسيخ الجيوبولتيكي لحضارات سبع أخرى محتملة وهي:

1 ـ السلافية ـ الأرثوذكسية.

2 ـ الكونفوشيوسية (الصينية).

3 ـ اليابانية.

4 ـ الإسلامية.

5 ـ الهندوسية.

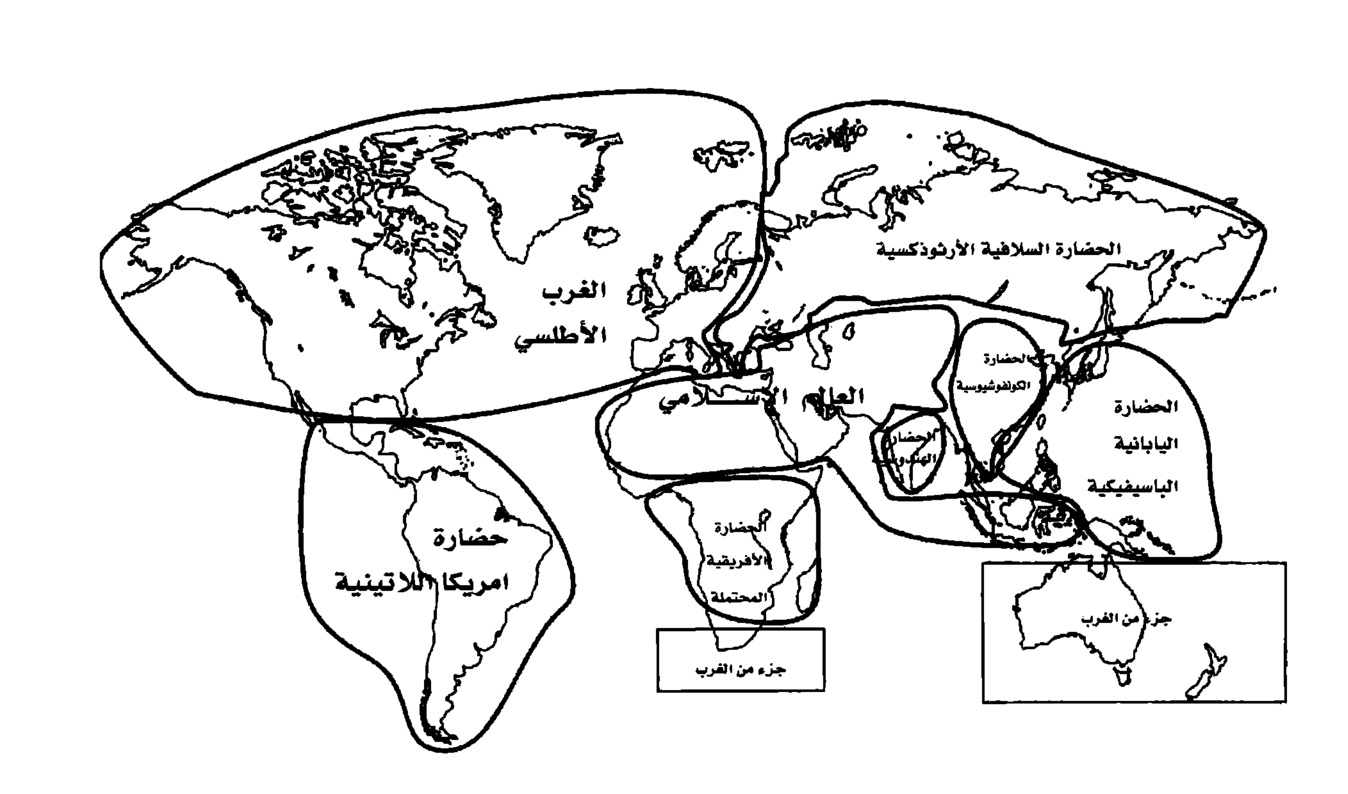
6 ـ حضارة أمريكا اللاتينية.

ومن المحتمل أيضاً؛

7 ـ الأفريقية[8].

ومن الطبيعي أن هذه الحضارات المحتملة ليست متكافئة الطاقة. إلا أنها تتلاقى في كون خط تطورها، وتكوّنها يتخذ مساراً يختلف عن مَحْرك الأطلسية وحضارة الغرب. وهكذا يجد **الغرب** نفسه في وضعية المواجهة من جديد. ويرى هنتينغتون أن ذلك أمر لا مندوحة منه من الناحية العملية، وأنه منذ الآن، وبغض النظر عن الأوساط المعولمة يجب الانطلاق أساساً من المعادلة الواقعية «The West and The Rest»، **(الغرب والآخرون)**[9].

والاستنتاجات الجيوبولتيكية من مثل هذه النظرية جلية للعيان: فهنتينغتون يرى أن على الأطلسيين أن يدعموا بكل السبل المواقع الاستراتيجية لحضارتهم الخاصة بهم، أن يستعدوا للمواجهة وأن ينسقوا قواهم الاستراتيجية وأن يبطلوا



الغرب
الأطلسي
الحضارة السلافية الأرثوذكسية
حضارة
امريكا اللاتينية
الحضارة
الأفريقية
المحتملة
جزء من الغرب
الحضارة
الكونفوشيوسية
الحضارة
اليابانية
الباسيفيكية
جزء من الغرب

الميول المناوئة للأطلسية في التشكيلات الجيوبولتيكة الأخرى، وأن يحولوا دون توحدها في حلف قاري يشكل خطراً على **الغرب**.

وهو يقدم النصائح التالية:

«على الغرب:

- ضمان قيام التعاون الأكثر اتثاقاً وتوحداً في إطار الحضارة الذاتية. وبخاصة بين جزئيها الأوروبي والأمريكي الشمالي؛

- أن تتكامل في الحضارة **الغربية** تلك المجتمعات القائمة في أوروبا الشرقية وفي أمريكا اللاتينية، والتي تتقارب ثقافتها مع الثقافة الغربية؛

- تأمين العلاقات الأكثر اتثاقاً مع اليابان وروسيا؛

- الحيلولة دون تحول النزاعات المحلية بين الحضارات إلى حروب كونية؛

- الحد من التطور العسكري للدول الكونفوشيوسية والإسلامية؛

- وقف انكماش القوة الحربية الغربية وضمان التفوق العسكري في **الشرق الأقصى وفي جنوب غرب آسيا**؛

- استغلال المصاعب والنزاعات في العلاقات المتبادلة بين الدول الإسلامية والكونفوشيوسية؛

- دعم المجموعات الغربية التوجه في القيم والمصالح ضمن الحضارات الأخرى؛

- دعم المؤسسات العالمية التي تعكس المصالح الغربية وتضفي عليها الشرعية وتحقيق اجتذاب الدول غير الغربية إلى هذه المؤسسات»(10).

هي ذي الصيغة الموجزة المكثَّفة لنظرية الأطلسية الجديدة.

يعدّ هذا، من وجهة النظر الجيوبولتيكية المحض، اقتفاء دقيقاً لمبادىء ماهان وسبيكمان؛ ويلاحظ في هذا أن التشديد الذي يفرضه هنتينغتون على الثقافة والفروق الحضارية على أنها العوالم الجيوبولتيكية الأهم إنما يشير إلى انتمائه للمدرسة الجيوبولتيكية الكلاسيكية المتطلعة إلى الفلسفة «العضوية» والتي كان من أولى خصائصها النظر إلى البنى الاجتماعية والدول لا كتكوينات آلية أو أيديولوجية بل كـ «صيغ للحياة».

ويشير هنتينغتون إلى الصين وإلى الدول الإسلامية (إيران، العراق، ليبيا وما إليها) على أنها الأعداء الأكثر احتمالاً **للغرب** . وينعكس في هذا التأثير المباشر لمبادىء ماينغ وكيرك اللذين رأيا أن توجهات دول «المناطق الشاطئية» الـ rimland بالذات ـ أشدُّ أهمية من موقف الـ heartland. ولهذا، وخلافاً للممثلين الآخرين للأطلسية الجديدة ـ ومنهم بول ولفوفيتس بصفة خاصة ـ يرى هنتينغتون أن الخطر الأكبر كامن لا في الانبعاث الجيوبولتيكي للروسيا ـ الأوراسيا ـ للـ heartland أو أي تشكل قاري أوراسي جديد.

في تقرير للأمريكي بول ولفوفتس (مستشار الأمن القومي) يوجه الحديث لحكومة الولايات المتحدة الأمريكية في آذار 1992 حول «ضرورة الحيلولة دون ظهور قوة استراتيجية في القارة الأوروبية أو الآسيوية يمكنها أن تقف في وجه الولايات المتحدة»[11]. ويجري التوضيح بعد ذلك بأن القوة الأكثر احتمالاً والتي تؤخذ في الحسبان هي روسيا وأن من الضروري إقامة «نطاق صحي» في وجهها على أساس دول البلطيق. وفي هذه الحالة يقف الاستراتيجي الأمريكي ولفوفيتس أقرب إلى ماكيندر منه إلى سبيكمان وهو ما يميّز رُؤاه عن نظرية هنتينغتون.

وفي جميع الحالات وبمعزل عن تعريف العدو المحدَّد المحتمل فإن مواقف جميع الأطلسيين الجدد تبقى واحدة في جوهرها. النصر في الحرب الباردة لم يلغ الخطر على الغرب والذي ينطلق من تشكلات جيوبولتيكية أخرى (حاضرة أو مستقبلية). ولهذا فمن السابق لأوانه الحديث عن «**عالم واحد**»، والثنائية الكونية للتالاسوكراتيا (المعزّزة بالأيروكراتيا والأثيروكراتيا) والتيلوروكراتيا تبقى الصورة الجيوبولتيكية الأهم بالنسبة للقرن الحادي والعشرين أيضاً.

وتغدو المعادلة الجديدة والأكثر تعميماً لمثل هذه الثنائية أطروحة هنتينغتون The West and The Rest.

العولمة

3 ـ 1 خلفية العَوْلمة:

ظهرت مقولة «العولمة» قبل فترة طويلة من الانتصار النهائي **للغرب** في الحرب الباردة.

ويؤدي مفهوم العولمة إلى تسويد المسلّمة القائلة بحتمية التكامل الكوني التام، والانتقال من تعدّدية الدول والشعوب والقوميات والثقافات إلى وحدة العالم One World.

ويمكننا أن نتلمس منابع هذه الفكرة في بعض الحركات الطوباوية والألف سنويّة، العائدة إلى **القرون الوسطى** ثم إلى عهود موغلة في القدم. ويثوي في أساسها التصور القائل بأنه في لحظة من لحظات الذروة في التاريخ يجري تجميع كافة شعوب الأرض في **مملكة** واحدة لا تعرف بعد ذلك التناقضات ولا المآسي ولا النزاعات أو المشاكل المميّزة: للتاريخ الاعتيادي للأرض. وإلى جانب الصيغة الغيبية للطوباوية العولمية فقد وجدت أيضاً صيغها العقلانية والتي يمكن أن نعد من بينها تعاليم **الحقبة الثالثة** لفيلسوف الوضعية أوغست كونت أو غيبيات ليسنغ الإنسانية القائمة على الإيمان بالآخرة.

كانت الأفكار العولمية مميّزة بالنسبة للاشتراكيين الأوروبيين في الغالب وبخاصة الإنجليز منهم (وقد اتحد بعضهم في الجمعية الفابيانية(*). كما تحدث

(*) الفابيانية ـ جمعية المثقفين البورجوازيين الإنجليز. تأسست سنة 1884؛ تدعو إلى =

الشيوعيون أيضاً عن **الدولة العالمية** الموحدة. ومن جهة أخرى أقيمت منظمات عالمية مشابهة أخرى منذ نهاية القرن التاسع عشر من قبل شخصيات مرموقة في عالم الأعمال. كالسير سيسيل رودس(*) الذي نظم جماعة **الطاولة المستديرة** وكان على أعضائها «تشجيع إقامة نظام للتجارة المتحررة من المعوقات على صعيد العالم كله وإقامة **الدولة العالمية** الموحدة. وكثيراً ما كانت الأنغام الاشتراكية تتقاطع مع أنغام الليبيرالية الرأسمالية وكان الشيوعيون يتجاورون في هذه المنظمات مع ممثلي الرأسمال المالي الأعظم. يوحّد بين الجميع الإيمان بالفكرة الطوباوية القائلة بتوحيد الكوكب الأرضي.

ومن الأمور اللافتة للنظر أن أمثال هذه المنظمات كعصبة الأمم **فهيئة الأمم المتحدة** بعد ذلك ثم **اليونيسكو** كانت امتداداً لأمثال هذه الأوساط العالمية التي كان لها تأثيرها على السياسة العالمية.

وعلى مدار القرن العشرين قامت هذه المنظمات العالمية، التي تبتعد عن الدعاية الزائدة، وكثيراً ما اتسمت بطابع سري، بتبديل أسمائها مرات عديدة، فوجدت «الحركة الشاملة من أجل **الكونفيدرالية العالمية**» لهاري ديڤيس، و«الاتحاد الفيدرالي» بل و«**الحملة الصليبية** في سبيل **الدولة العالمية**» (وقد نظمها العضو البرلماني الإنجليزي هنري أسبورن عام 1946.

ومع تزايد تركيز مجموع سلطة الغرب الاستراتيجية والدينية في الولايات المتحدة، صارت هذه الدولة بالذات هيئة الأركان الرئيسية للعولمة التي أنشأ لها ممثلوها نظاماً موالياً للسلطة يتكون من المستشارين والمحللين ومن مراكز الدراسات الاستراتيجية.

وهكذا شُكلت ثلاث منظمات عالمية أساسية لم تعلم بها الأوساط

= الأفكار الاصلاحية عن طريق التحول التدريجي للمجتمع الرأسمالي إلى اشتراكي بتطبيق الإصلاحات. حملت اسم القائد العسكري الروماني فابيوس ماكسيموس (المترجم).

(*) سيسيل رودْس 1853 ـ 1902 أحد كبار الناشطين في سبيل استيلاء الاستعماريين الإنجليز على أجزاء كبيرة من أفريقيا الجنوبية والوسطى. وباسمه سميت روديسيا. كان بين 1890 ـ 1896 رئيس وزراء الكاب، وهو أحد منظمي حرب الإنجليز ضد البوير بين 1899 ـ 1902 (المترجم).

الاجتماعية في **الغرب** إلا منذ فترة غير بعيدة نسبياً. وخلافاً للبنى الرسمية كانت هذه المجموعات تتمتع بحرية كبيرة نسبياً في التخطيط والبحوث إذ إنها كانت معفاة من الإجراءات المحدَّدة والشكلية التي ترافق نشاطات منظمة الأمم المتحدة، وما إليها.

أولى هذه المجموعات **«مجلس العلاقات الدولية»** Council on foreign relations اختصاراً (C.F.R). ومؤسسه المصرفي الأمريكي الأكبر مورغان. وقد عملت هذه المؤسسة غير الرسمية على صياغة الاستراتيجية الأمريكية على الصعيد العالمي، ومما يُذكر أن هدفها النهائي عُدَّ توحيد الكرة الأرضية الكامل وإقامة الحكومة العالمية. وقد ظهرت هذه المنظمة منذ سنة 1921 كفرع لـ «صندوق كارنيجي للسلام العالمي»، وجميع السياسيين الكبار المشاركون فيها كانوا يساهمون في النظرات العالمية لمستقبل الأرض. وبما أن معظم أعضاء الـ .C.F.R كانوا في الوقت نفسه من المبجلين الرفيعي المستوى في الماسونية السكوتلندية فيمكن الافتراض بأن مشاريعهم الجيوبولتيكية كانت تتسم بقدر من البعد الإنساني ـ الغيبي.

وفي سنة 1954 أنشئت المنظومة العولمية الثانية ـ **نادي بيلديربيرغ** أو **جماعة بيلديربيرغ** وما كانت تضم المحللين والسياسيين والماليين والمثقفين الأمريكيين فحسب بل وزملاءهم الأوروبيين أيضاً. ومن الجانب الأمريكي كانت ممثلة بأعضاء الـ .C.F.R بصفة خاصة فكان ينظر إليها على أنها امتداد لها على الصعيد الدولي.

في سنة 1973 أنشأ ناشطو جماعة بيلديربيرغ المنظومة الدولية الثالثة الأهم ـ وهي اللجنة الثلاثية أو «التريلاتيرال» (Trilateral) ويترأسها أمريكيون داخلون في ملاك الـ .C.F.R وفي جماعة بيلديربيرغ ولها، بالإضافة إلى الولايات المتّحدة حيث يقوم مكتبها الرئيسي (العنوان ـ 345 East 46 th Street, New York)، مكتبان رئيسيان آخران ـ في أوروبا واليابان.

سميت اللجنة «الثلاثية» باسم الأسس الجيوبولتيكية المؤسِّسة، ونيط بها أن توحد تحت صولجان الأطلسية والولايات المتحدة «المجالات الكبرى» **«الثلاث»** الرائدة في تطورها التقني وفي اقتصادها السوقي.

1 ـ المجال الأمريكي، ويضم الأمريكتين الشمالية والجنوبية.

2 ـ المجال الأوروبي.

3 ـ مجال المحيط الهادي، الذي تسيطر عليه اليابان.

وعلى رأس المجموعتين الأعظم ـ يبلديربيرغ والثلاثية ـ يقف العضو الرفيع المقام في .C.F.R المصرفي الأكبر ديڤيد روكفيلر، صاحب «تشيز مانهاتن بانك».

وبالإضافة إليه يقف في مركز جميع المشاريع العالمية الأطلسيان الراسخان، الجيوبولتيكيان استراتيجيّا الأطلسية زبيغنيف بريجينسكي وهنري كيسنجر، وهناك أيضاً جورج بول الذائع الصيت.

إن الخط الأساسي لكافة المخططات العولمية يتمثل في الانتقال إلى النظام العولمي الواحد تحت السيطرة الاستراتيجية الغربية والقيم «التقدمية» «الإنسانية» و«الديموقراطية». وصيغت من أجل تحقيق ذلك نظم موازية تتكون من السياسيين، الصحفيين والمثقفين والماليين والمحللين وما إلى ذلك، والذي كان عليهم أن يمهّدوا التربة قبل أن يتم الإعلان بصورة واسعة عن هذا النظام العالمي للحكومة العالمية، إن يمكنه بدون هذا الإعداد أن يصطدم بمقاومة نفسية قوية من طرف الشعوب والدول التي لا ترغب في تذويب خصوصيتها في الـ melting pot(*)، العالمية.

ولم يكن المشروع العولمي الذي صاغته وهيأته هذه المنظمات متجانساً. فقد وجدت له صيغتان أساسيتان اختلفتا في المناهج، وكان عليهما أن تفضيا من الناحية النظرية إلى الهدف نفسه.

3 ـ 2 نظرية التقارب:

الصيغة الأولى للعولمة والأكثر مسالمة و«توفيقية» تعرف باسم «نظرية التقارب» وقد أخرجتها في السبعينيات وفي صلب الـ C.F.R مجموعة المحللين «اليساريين» بقيادة زبيغنيف بجيزينسكي، وكانت هذه النظرية تفترض إمكانية التخلص من الثنائية الأيديولوجية والجيوبولتيكية للحرب الباردة عبر إنشاء نمط ثقافي ـ أيديولوجي جديد للحضارة يمكن أن يكون بين الاشتراكية والرأسمالية بين الأطلسية المحضة والقارية المحضة.

(*) Melting pot (بالإنكليزية) البوتقة ـ و(المترجم).

كان يُنظر إلى ماركسية السوفيات على أنها عقبة يمكن التخلص منها بالانتقال إلى صيغتها المعتدلة، الاشتراكية ـ الديموقراطية المحرَّفة ـ عبر الكف عن أطروحات «ديكتاتورية البروليتاريا»، «النضال الطبقي» «تأميم وسائل الإنتاج» و«إلغاء الملكية الخاصة». وكان على **الغرب** الرأسمالي أن يكبح بدوره من حرية السوق وأن يدخل بصفة جزئية التنظيم الحكومي للاقتصاد وما إلى ذلك، أما وحدة التوجه الثقافي فكان يمكن أن توجد في تقاليد **التنوير** والإنسانية التي تنسب إليها النظم الديموقراطية الغربية والأخلاقية الاجتماعية للشيوعية (في الاشتراكية ـ الديموقراطية المبسَّطة).

والحكومة العالمية التي كان يمكن أن تظهر على أساس «نظرية التقارب» تمَّ تخيلها من خلال تمكين موسكو الوصول حتى حدود الإدارة الأطلسية للكرة الأرضية بمشاركة واشنطن. وفي هذه الحالة كانت تبدأ مرحلة السلم العام، وكان يمكن أن تنتهي الحرب الباردة، وكان يمكن للشعوب أن تلقي بعيداً بأعباء التوتر الجيوبولتيكي.

ومن المهم هنا أن نجري موازاة مع انتقال النظم التقنية من «التالاسوكراتيا» إلى «الأثيروكراتيا»: فسياسيو العولمة بدأوا ينظرون إلى الكرة الأرضية لا بعيون سكان القارة الغربية المحاطة بالبحر (كالأطلسيين التقليديين) بل بعيون رجال فضاء فوق مدار كوني، وفي هذه الحالة كان يظهر أمامهم حقيقة One World عالم واحد.

وكان للمراكز العولمية مراسلوهم في موسكو. وكان من الشخصيات المؤسسة هنا الأكايمي غويشياني ـ مدير معهد الدراسات المنهجية والذي كان نوعاً من فروع «**التريلاتيرال**» في الاتحاد السوفياتي، إلا أن نشاطهم حقق نجاحاً أكبر بين الأحزاب اليسارية المتطرفة في أوروبا الغربية، تلك الأحزاب التي وقفت في غالبيتها على طريق «الشيوعية» الأوروبية، وهو ما عدَّ القاعدة الذهنية الأساسية للتقارب الكوني.

3 ـ 3 الانتصار العالمي للغرب:

كانت نظرية التقارب الأساس الأيديولوجي الذي اعتمده ميخائيل غورباتشوف ومستشاروه ممن قاموا بالبيريسترويكا. وإلى جانب هذا فقبل عدة سنوات من بداية

البيريسترويكا السوفياتية كان ثمة مشروع مشابه قد بدأ تطبيقه في الصين التي أقام ممثلو «اللجنة **الثلاثية**» معها علاقات وثيقة منذ نهايات السبعينيات. إلا أن المصائر الجيوبولتيكية «للبيريسترويكتين» الصينية والسوفياتية كانت متباينة. فالصين كانت تصرّ على التوزيع «العادل» للأدوار وعلى تحركات مقابلة في أيديولوجيا الغرب باتجاه الاشتراكية، بينما قطع الاتحاد السوفياتي مسافة أطول في طريق التنازلات.

وبالسير على هذي منطق العولميين الأمريكان بدأ غورباتشوف إعادة الصياغة البنيوية للمجال السوفياتي في اتجاه «الدمقْرطة» و«اللّبْرلة»(*)، ولمس ذلك بالدرجة الأولى دول حلف وارسو ثم جمهوريات الاتحاد السوفياتي بعد ذلك. وشُرع من بعده بتقليص الأسلحة الاستراتيجية فالتقارب الأيديولوجي مع **الغرب** إلا أن من الضروري لفت الأنظار في هذه الحالة إلى حقيقة أن سنوات حكم غورباتشوف تتفق ومرحلة رئاسة أشد المتطرفين الجمهوريين في الولايات المتحدة. وهما ريغان وبوش. يضاف إلى هذا أن ريغان كان الرئيس الوحيد الذي رفض في السنوات الأخيرة المشاركة في أيّ من المؤسسات العولمية. ومن حيث القناعات كان ريغان الأطلسي الصارم المقتنع والذي لا يقبل بأنصاف الحلول، الليبرالي ـ رجل السوق والمجرد من أدنى ميل للتنازل أمام الأيديولوجيات اليسارية. حتى الأشد اعتدالاً فيها بين التوجهات الديموقراطية والاشتراكية ـ الديموقراطية. وعليه فإن خطوات موسكو الهادفة إلى التقارب أو إلى إقامة الحكومة العالمية التي يكون فيها وزن معتبر للحلف الشرقي كانت تقابل في القطب الآخر بأشد العقبات الأيديولوجية المضادة. وقد استخدم الأطلسي ريغان (ثم بوش) بكل بساطة قرارات غورباتشوف العولمية في أهداف مغرقة في نفعيتها والتنازلات الطوعية من طرف الـ heartland لم تقابل بتنازلات مطابقة من طرف الـ Sea Power ولم يقم الغرب بأية خطوات تنازل جيوبولتيكية أو أيديولوجية مع الأوراسية التي تصفي نفسها. فلا الناتو انحل ولا قواته غادرت أوروبا ولا آسيا، بينما ضاعفت الأيديولوجيا الليبيرالية ـ الديموقراطية من تعزيز مواقعها.

تصرفت العولمة في هذه الحالة لا كنظرية جيوبولتيكية مستقلة ثم تحقيقها في الميدان التطبيقي بل كأداة نفعية جرى استخدامها في «الحرب الباردة» التي لم

(*) من كلمتي «الديموقراطية» و «الليبرالية» (المترجم).

تتنازل الولايات المتحدة عن منطقها المؤسس على نظريات ماكيندر وماهان.

3 ـ 4 «نهاية التاريخ» لفرانسيس فوكوياما:

بعد انهيار الاتحاد السوفياتي وانتصار **الغرب** والأطلسية، كان على المخططات العولمية إما أن تضمحل أو أن تبدل منطقها.

أما الصيغة الجديدة للعولمة فصارت بعد الحقبة السوفياتية نظرية فرانسيس فوكوياما الذي نشر في بداية التسعينيات مقالته التوجيهية «نهاية التاريخ»، والتي يمكن النظر إليها كأساس فكري للعولمة الجديدة.

يقترح فوكوياما الصيغة الجديدة للعملية التاريخية. فبداية من العهد المظلم لـ «قانون القوة» «الظلام» و«الإدارة غير العقلانية للواقع الاجتماعي» تتجه الإنسانية نحو البناء العقلاني المنطقي الذي تجسد في الرأسمالية، الحضارة الغربية المعاصرة، اقتصاد السوق والأيديولوجية الليبرالية ـ الديموقراطية، والتاريخ وتطوره ما استمرا إلا على حساب العوامل غير العقلانية، التي أخذت تتخلى شيئاً فشيئاً عن مواقعها لقوانين العقل، المعادل النقدي العام لجميع القيم وما إلى ذلك. فسقوط الاتحاد السوفياتي إيذان بسقوط آخر معاقل «اللاعقلانية»، وبهذا ترتبط نهاية التاريخ وبداية الوجود الكوني الخاص الذي سيسير تحت شعار السوق والديموقراطية اللذين سيوحدها العالم في آلية عقلانية وظيفية منسقة.

هذا النظام الجديد، وعلى الرغم من أنه يبنى على شمولية نظام أطلسي بحت، سيخرج عن أطر الأطلسية، وتبدأ جميع مناطق العالم بإعادة تنظيم نفسها وفقاً للأنموذج الجديد، وحول مراكزه الأكثر تطوراً من الناحية الاقتصادية.

3 ـ 5 «جيوايكونوميكا» جاك أتالي:

ثمة شبيه لنظرية فوكوياما لدى المؤلفين الأوروبيين أيضاً. فجاك أتالي الذي عمل سنوات طويلة مستشاراً للرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران مثلما كان لفترة ما مدير المصرف الأوروبي لإعادة التصميم والتطور صاغ نظرية مشابهة في كتابه «خطوط الأفق».

يرى أتّالي أن اللحظة الحاضرة تشهد حلول عصر ثالث هو «عصر النقود»

التي تعد المكافىء العالمي للقيمة، فمن خلال معادلة جميع الأشياء، بتعبيرها الرقمي المادي يمكن التصرف بها بدرجة لا نهاية لها من البساطة وبالطريقة الأكثر عقلانية. ومثل هذه النظرة يربطها أتّالي بحلول العهد التبشيري المفهوم في السياق اليهودي ـ القبالي، ويطور هذه الناحية بصورة أكثر تفصيلاً في كتابه الآخر المكرس للتبشرية بصفة خاصة ـ وعنوانه «إنه قادم» وهو ما يميّز أتّالي عن فوكوياما الذي يبقى ضمن إطار النفعية والتطبيقية.

ويقترح جاك أتّالي تصوره الخاص للمستقبل الذي «قد حلّ». فهيمنة الأيديولوجية الليبيرالية ـ الديموقراطية ونظام السوق مضافتين إلى تطور تقنيات الدعاية على العالم بأسره تؤدي إلى جعل العالم واحداً، متجانساً. والوقائع الجيوبولتيكية التي ظلت مسيطرة على مدى التاريخ بطوله تتراجع في «العهد الثالث» إلى المرتبة الأخيرة وتبطل الثنائية الجيوبولتيكية.

إلا أن العالم الموحَّد يكتسب مع كل ذلك بنيوية جيوبولتيكة جديدة. تقوم هذه المرة على مبادىء **«الجيويكونوميكا»**. وكان المؤرخ فريتس ريريغ قد اقترح لأول مرة تطوير نظم «الجيوايكونوميكا» وقام فيرنان بروديل(*) بتبسيطها.

«الجيوايكونوميكا»، صيغة جديدة من جيوبولتيكا العولمة، تعطي الأولوية لا للعوامل الأيديولوجية ـ الأتنية ـ الدينية وما سواها من العوامل التي تمثل جوهر النظرة الجيوبولتيكية بل للواقع الاقتصادي المحض في علاقته بالمكان. فبالنسبة «للجيوايكونوميكا» ليس ثمة أي أهمية لنوعية الشعب الذي يعيش في مكان ما ـ ولا لتاريخه الخاص ولا لتقاليده الثقافية وما إلى ذلك. كل الخطوط توجه نحو توضع مراكز البورصات العالمية والخامات الطبيعية والمراكز الإعلامية والصناعات الكبرى. وتتصرف «الجيوايكونوميكا» نحو الواقع السياسي وكأن الحكومة العالمية والدولة العالمية الواحدة قد قامتا حقاً.

ونظرة أتّالي الجيواقتصادية تؤدي إلى اختيار المناطق الثلاث التي ستغدو **في العالم الواحد** مراكز المجالات الاقتصادية الجديدة.

(*) بروديل، فرنان (1902 ـ 1985) مؤرخ فرنسي، كُرّست أعماله في معظمها للتاريخ الاقتصادي لأوروبا الغربية في القرون السادس عشر ـ الثامن عشر. (المترجم).

1) المجال الأمريكي والذي يوحد بصفة نهائية بين الأمريكيتين في منطقة مالية ـ صناعية واحدة.

2) المجال الأوروبي الذي ظهر بعد توحيد أوروبا الاقتصادي.

3) منطقة المحيط الهادي، منطقة «الازدهار الجديد» ولها عدة مراكز تتنافس فيما بينهما ـ طوكيو ـ تايوان ـ سنغافورة وما إليها[12].

ويرى أتّالي أنه لن تكون بين هذه المجالات العالمية الثلاثة أية اختلافات أو تناقضات ملموسة، لأن النمط الاقتصادي والأيديولوجي سيكون في جميع الحالات متماثلاً. وسيكون الفارق الوحيد في التوضع الجغرافي للمراكز الأكثر تطوراً، والتي تقيم حولها، بحيث يكون المركز في الوسط، المناطق الأقل تطوراً والمتوزعة على مسافات متقاربة مكانياً. إن إعادة التوزع هذه على أساس وحدة المراكز لا يمكن أن يتحقق إلا في «**نهاية التاريخ**» أو بمصطلحات أخرى، عند إلغاء الوقائع التقليدية التي فرضتها الجيوبولتيكا.

وتنتفي الثنائية الحضارية ـ الجيوبولتيكية، كما يؤدي اختفاء القطب المعارض للأطلسية إلى إعادة النظر الجذرية في تفسير معنى المكان. ويحل عهد الجيوايكونوميكا.

في أنموذج أتّالي لقيت انعكاسها النهائي تلك الأفكار التي كانت مركوزة في أساس «**اللجنة الثلاثية**» التي تعد الأداة الذهنية ـ السياسية التي تقوم بصياغة أمثال هذه المشاريع وتحققها.

ومن الأمور اللافتة للنظر أن قادة «**التريلاتيرال**» (ديڤيد روكفلر، جورج بيرتوين، الذي كان رئيس القسم الأوروبي آنذاك ـ وهنري كيسنجر) قاموا في كانون الثاني 1989 بزيارة إلى موسكو حيث استقبلهم اِلكسانْدر ياكوفليف غورباتشوف رئيس الاتحاد السوفياتي، كما حضر اللقاء غيره من كبار شخصيات القيادة السوڤيات ـ ميدڤيديف، ڤالين، أخروميف، دوبرينين، تشيرنيايف، أرباتوف وبريماكوف. أما جاك أتّالي فقد أقام علاقات شخصية مع الرئيس الروسي بوريس يلتسين.

وثمة أمر واحد لا يعتريه الشك وهو أن الانتقال إلى المنطق الجيواقتصادي

وإلى العولمية الجديدة لم يتحقق إلا بعد التصفية الجيوبولتيكية الذاتية للاتحاد السوفياتي الأوراسي.

والعولمة الجديدة ليست الامتداد المباشر للعولمة التاريخية - التي افترضها منذ البداية حضور العناصر الاشتراكية اليسارية في أنموذجها النهائي. إنها الصيغة البينيّة بين العولمة والأطلسية.

3 ـ 6 العولمة ما بعد الكارثية للبروفيسور سانتورو:

هناك صيغ أكثر تفصيلية للعولمة، وإحدى صورها الأكثر ألقاً هي الصيغة الجيوبولتيكية المستقبلية التي قدمها معهد الدراسات السياسية العالمية في ميلانو (ISPI) برئاسة البروفيسور كارلو سانتورو.

في وقتنا الحاضر تدخل الإنسانية، وفقاً لأنموذج سانتورو مرحلة انتقالية من العالم الثنائي القطبين إلى الصيغة العالمية من تعدد الأقطاب (والتي جرى فهمها بطريقة جيواقتصادية من طرف أتّالي). والمؤسسات العالمية (الأمم المتحدة وسواها) والتي كانت بالنسبة للعولمي المتفائل فوكوياما قد بلغت درجة كافية من التطور تؤهلها لتكون نواة «**الحكومة العالمية**»، تبدو بالنسبة لسانتورو، على العكس من ذلك، عاجزة، وتعكس المنطق الهرم للجيوبولتيكا الثنائية القطبين. وفضلاً عن ذلك فإن العالم كله يحمل الطابع الثابت «للحرب الباردة» والتي يبقى منطقها الجيوبولتيكي مسيطراً. ويتنبأ سانتورو بأن مثل هذا الوضع لا يمكن إلا أن ينتهي بمرحلة **الكوارث الحضارية**.

ثم يقدم بعد ذلك السيناريو المقترح لهذه الكوارث:

1) الضمور المقبل لدور المؤسسات العالمية.

2) تفاقم الميول القومية ضمن الدول الداخلة في حلف وارسو وفي العالم الثالث، وهو ما سيؤدي إلى عمليات فوضى.

3) لا تكامل الأحلاف التقليدية (وهذا ما لا يمس أوروبا) والتساقط المتتالي للدول القائمة حالياً.

4) بداية حروب من المستوى الصغير والمتوسط تؤدي إلى تشكلات جيوبولتيكية جديدة.

5) خطر الفوضى العالمية سيضطر الأحلاف المختلفة للاعتراف بضرورة إقامة مؤسسات عالمية جديدة ذات صلاحيات هائلة وهو ما يعني من الناحية العملية إقامة **الحكومة العالمية**.

6) الإقامة النهائية للدولة العالمية تحت راية مرجعيات دولية جديدة (**الحكومة العالمية**)[13].

وسيكون هذا الأنموذج وسطاً بين تفاؤلية فرانسيس فوكوياما العولمية وتشاؤمية صموئيل هنتينغتون الأطلسية.

الجيوبولتيكا التطبيقية

4 ـ 1 «الجيوبولتيكا الداخلية» ـ مدرسة إيف لاكوست:

ترتبط اليقظة الجيوبولتيكية في أوروبا بنشاط العالم الجغرافي إيف لاكوست الذي أنشأ عام 1976 مجلة «هيرودوت» حيث صارت النصوص الجيوبولتيكية تصدر لأول مرة وبصورة دائمة في أوروبا ما بعد الحرب. وينبغي أن نشير بشكل خاص إلى أن رجلاً قريباً من الأوساط السياسية اليسارية كان يقف على رأس هذا العمل بينما لم تكن تهتم بالجيوبولتيكا في أوروبا تلك الفترة إلا الأوساط القومية اليمينية الهامشية إلى حد كبير.

وفي سنة 1983 تُدخل مجلة «هيرودوت» في تسميتها عنواناً ثانوياً هو «مجلة الجغرافية والجيوبولتيكا»، فتبدأ منذ ذلك التاريخ الحياة الثانية للجيوبولتيكا والتي يتم الاعتراف بها رسمياً كمنظومة علمية سياسية خاصة تساعد على التحليل المتضافر الجوانب للأوضاع.

حاول إيف لاكوست أن يكيف المبادىء الجيوبولتيكية مع الوضع المعاصر. أما لاكوست نفسه فما كان يتفق مع «المقاربة العضوانية» الخاصة بالمدرسة القارية ولا مع الآراء الجيوبولتيكية النفعية الآلية والمتعلقة بتطبيقية منظري الـ Sea Power وجميع التصورات الجيوبولتيكية ما كانت من وجهة نظره تعمل إلا «**لتحديد الطموحات التنافسية للهيئات السلطوية والمتعلقة بمناطق محدَّدة وبالبشر الذين يقطنونها**»[14]. ويتعلق هذا بالعلاقات الدولية مثلما يتعلق بالقضايا المحلية الضيقة الأبعاد.

فالجيوبولتيكا تصبح لدى لاكوست مجرد أداة لتحليل حالة محدَّدة، وجميع النظريات الشمولية التي تتكون هذه المنظومة على أساسها تسفّ إلى مستوى المفاهيم النسبية والمشروطة تاريخياً.

وعلى هذا يقترح لاكوست تعريفاً محدداً بصفة كلية للجيوبولتيكا، بل، من الناحية الواقعية علماً جديداً. إنه لا يعود بعد ذلك تفكيراً قارياً يقوم على الثنائية الحضارية ـ الجغرافية الكونية الراسخة والمقترنة بالنظم الأيديولوجية الشمولية بل يغدو استخداماً لبعض الأنماط المنهجية التي كانت قائمة لدى علماء الجيوبولتيكا التقليديين في سياقها العام ولكن تؤخذ في هذه الحالة كشيء مستقل ذاته. إنه **«لاعولمة» الجيوبولتيكا**، الوصول إلى مستوى المنهج التحليلي الضيق.

وسميّت هذه الجيوبولتيكا بـ «الجيوبولتيكا الداخلية» (la geopolitique interne)، لأنها بكل ما فيها تتناول القضايا المحلية.

4 ـ 2 الجيوبولتيكا الإلكترونية:

ومن صور هذه الجيوبولتيكا الداخلية تلك المنهجية الخاصة التي صيغت لدراسة العلاقة بين الميول السياسية للسكان والأرض التي يعيشون فوقها. وكان المبشر بهذه النظرية الفرنسي أندريه زيغفريد (1875 ـ 1959) السياسي والجغرافي. وإليه تعود المحاولات الأولى لدراسة «الجيوبولتيكا الداخلية» في تطبيقها على الميول السياسية لهذه الأصقاع أو تلك. وإليه تعود الصياغات الأولى للقوانين المكنونة في صلب «الجيوبولتيكا الإلكترونية» لمدرسة إيف لاكوست الجديدة.

كتب زيغفريد:

«لكل حزب، وبكلمة أدق، لكل اتجاه سياسي أرضه المفضّلة؛ ومن اليسير أن نلاحظ أنه مثلما توجد المناطق الجيوبولتيكية أو الاقتصادية توجد هناك أيضاً مناطق سياسية. ويمكن للمناخ السياسي أن يخضع للدراسة كالمناخ الطبيعي. وقد لاحظتُ أنه على الرغم من الظاهرية الخداعة فإن الرأي العام يحافظ على استمرارية معينة طبقاً للمناطق. وتحت اللوحة الدائمة التحول للانتخابات السياسية يمكننا متابعة التوجهات الأكثر عمقاً وديمومة، والتي تعبر عن الحرارة الجهوية»[15].

وفي مدرسة لاكوست لقيت هذه المدرسة تطويراً منهجياً وصارت أداةً سوسيولوجية مألوفة يجري استخدامها على نطاق واسع في التطبيقات السياسية.

4 ـ 3 الميدياكراتيا عاملاً «جيوبولتيكياً»:

حدد إيف لاكوست مهمته في أن يعزز الجيوبولتيكا بالمعايير الأكثر جدة والخاصة بمجتمع المعلومات. أما الأهمية الأعظم بين النظم المعلوماتية التي تترك أثرها على العمليات الجيوبولتيكية فتملكها وسائل الإعلام الجماهيرية، والتلفزيون من بينها بشكل خاص. وفي العالم المعاصر تسيطر لا الطريقة البنيوية ـ العقلانية بل ألق«الشخصية» («الإيميج»). فالنظرات السياسية والأيديولوجية والجيوبولتيكية تصاغ لدى جزء كبير من المجتمع، وبطريقة استثنائية، على أساس برامج البث التلفزيوني و«الصورة الشخصية» الوسطية تمثل التركيب الذري الذي تتركز فيه دفعةً واحدة عدة رؤى ـ الإتنية، الثقافية، الأيديولوجية والسياسية، والنوعية التركيبية «للإيميج» تقربه من تلك الخصائص التي تعتمدها الجيوبولتيكا بطريقة تقليدية.

وعلى الريبورتاج الإعلامي، المبثوث من نقطة حارة، مجهولة تماماً بالنسبة لساكن الكابيتول مثلاً، أن يقدم في فترة بالغة القصر الصورة الجغرافية التاريخية والدينية والاقتصادية ـ الثقافية والاتنية للمنطقة، كما «عليه أن يوزع نقاط تركيزه وفقاً للهدف السياسي المعطى بشكل محدّد وبناء على هذا تقترب وظيفة الصحفي (وبخاصة الصحفي التلفزيوني) من وظيفة الجيوبولتيكي. فوسائل الإعلام لا تلعب في المجتمع المعاصر ذلك الدور المساعد الذي كان لها في السابق، بل تغدو العامل الجيوبولتيكي المستقل الأوفر قوة والقادر على ترك تأثير قوي على المصائر التاريخية للشعوب.

4 ـ 4 تاريخ الجيوبولتيكا:

هناك أيضاً اتجاه آخر ضمن العملية العامة لانبعاث «الجيوبولتيكا الأوروبية» وهو تاريخ الجيوبولتيكا. ولا يتمثل معناها بكل ما لكلمة جيوبولتيكا من معنى لأنه يحدد مهمته في إعادة تركيب هذه المادة العلمية، العمل على المصادر، الترتيب الزمني. والتصنيف والمعطيات البيبلوغرافية وما إلى ذلك. وهو بصورة ما «تناول

متحفي»، لا يطمح إلى تقديم أية استنتاجات أو تقييمات تتعلق بالحالة الملحّة، وهذا الخط التاريخي تمثله بالدرجة الأولى أعمال بيير ـ ماري غولْوا ومؤلفين آخرين من أمثال إيرفي كوتو ـ بيغاري، جيرار شاليان، هانس ـ أدولف ياكوبسين وأمثالهم.

وفي إطار هذه المبادرة تنشر وتعاد طباعة نصوص الجيوبولتيكيين التاريخيين، ماكيندر، ماهان، تشيلّين، هاوسهوفر وسواهم.

وأمثال هذه الدراسات التاريخية كثيراً ما تنشر في مجلة «هيرودوت» الفرنسية وفي المجلة الجيوبولتيكية الإيطالية الجديدة «Limes» التي يصدرها لوتشو كارتشولو وميشيل كورينمان بمشاركة من لاكوست الآنف الذكر نفسه.

4 ـ 5 «الجيوبولتيكا التطبيقية» ليست جيوبولتيكا:

الجيوبولتيكا «التطبيقية » أو «الداخلية» التي أشرف على تطويرها إيف لاكوست بالإضافة إلى اختصاصيين آخرين كبار ـ ميشيل كورينمان، بول ـ ماري دي لا غورس وغيرهما ـ أمر مميّز بالنسبة للجيوبولتيكا الأوروبية المعاصرة، تتجنب بصورة واعية التعميمات الذهنية والصياغات ذات العلاقة بالمستقبل، وفي هذا يتجسد الاختلاف المبدئي بين هذا الاتجاه في مجموعه والذي شهد نمواً في فرنسا وإيطاليا على الخصوص، وبين المدارس الأطلسية والعولمية القائمة في الولايات المتحدة وانجلترا.

والجيوبولتيكا التطبيقية تحتفظ مع جيوبولتيكا ما قبل الحرب بعلاقات تقل بكثير عما تحتفظ به الأطلسية والعولمية، هذا إذا لم نتحدث عن التقليد «القاري». إنها مجرد منهجية تحليلية سياسية، سوسيولوجية، لا أكثر. ولهذا ينبغي وضع الفارق بينهما وبين المشاريع الكونية الخاصة بعلماء الجيوبولتيكا والتي تشمل الأرض. فالحديث يجري في حقيقة الحال حول منظومتين علميتين لا تقرب بينهما إلا المصطلحات وبعض المنهجيات. وبتجاهل الثنائية الجيوبولتيكية واعتبارها أمراً تجاوزه الزمن أو غير موجود أو أمراً يقع، بكل بساطة، ما وراء الموضوع الأساسي للدراسة، تكف «الجيوبولتيكا التطبيقية» عن أن تكون جيوبولتيكا بالمعنى الحقيقي للكلمة وتغدو مجرد شكل من أشكال المنهجية الإحصائية ـ السوسيولوجية.

إن القرارات والمشاريع الجيوبولتيكية الواقعية والمرتبطة بمصير أوروبا وشعوبها القاطنة على أرضها، إنما تدرس في مرجعيات أخرى، مرتبطة بالمراكز الاستراتيجية للأطلسية والعولمية. فقد تمت صياغة مشروع التكامل الأوروبي بصورة كلية بجهود الذوات المفكرة المتعاونين في «اللجنة الثلاثية» أي في المنظمة العولمية ما فوق القومية والتي لا تتمتع بالوضع الحقوقي الصارم، ولا بالمشروعية السياسية. كما طور جاك أتّالي نظرياته الجيوبولتيكية معتمداً على معطيات هذه المؤسسة بالذات والتي كان عضواً فيها، وليس على أساس الجيوبولتيكا «التطبيقية» للمدرسة الأوروبية المعاصرة.

جيوبولتيكا «اليمينيين الجدد» الأوروبيين

5 ـ 1 أوروبا الرايات ـ المئة ـ آلين دي بنوا:

إن إحدى المدارس الجيوبولتيكة الأوروبية القليلة التي احتفظت بعلاقة لا تنفصم مع أفكار الجيوبولتيكيين الألمان ـ القاريين لفترة ما قبل الحرب هي مدرسة **«اليمينيين الجدد»** وقد ظهر هذا الاتجاه في فرنسا في نهاية الستينيات ويرتبط بشخصية قائد هذه الحركة ـ الفيلسوف والكاتب الاجتماعي آلين دي بنوا.

و«اليمينيون الجدد» يختلفون اختلافاً حاداً عن اليمنيين الفرنسيين التقليديين من الملكيين والكاثوليك وكارهي الألمان والشوفينيين والمعادين للشيوعية والمحافظين وما إلى ذلك اختلافاً يسري على كافة الجوانب من الناحية العملية. فـ «اليمينيون الجدد» ـ أنصار «للديمقراطية العضوية»، وثنيون، محبون للألمان ـ اشتراكيون ـ حداثيون وما إلى ذلك. و«المعكسر اليساري» الذي يتمتع من الناحية التقليدية، بتأثير خارق للعادة في فرنسا عدّ ذلك، في بادىء الأمر، «مناورة تكتيكية» من طرف اليمنيين الاعتياديين لكن تم البرهنة، مع مرور الزمن، على جديّة التطور وتم الاعتراف بها من قبل الجميع.

إن أحد المبادىء الأساسية لأيديولوجية «اليمينيين الجدد» والتي لم تلبث شبيهاتُها أن ظهرت في دول أوروبية أخرى كان مبدأ «الجيوبولتيكا القارية». وخلافاً «لليمينيين القدامى» وللقوميين الكلاسيكيين، كان بنوا يرى أن التاريخ قد تجاوز مبدأ **الدولة ـ القومية** (Etat- Nation) المركزية، وأن المستقبل وَقْف على «الآماد الكبرى»، وبالإضافة إلى ذلك فإن أساس أمثال هذه «الآماد الكبرى» لاينبغي أن

يكون تجمع مختلف الدول في حلف سياسي نفعي، بل دخول المجموعات الاتنية ذات الأبعاد المختلفة في **«امبراطورية فيدرالية»** موحدة على أسس متساوية. ومثل هذه **«الامبراطورية الفيدرالية»** ينبغي أن تكون موحّدة من الناحية الاستراتيجية، تعدّدية من الناحية الأتنية. وإلى ذلك فإن الوحدة الاستراتيجية يجب أن تتدعم بوحدة ثقافية مؤسِّسة.

و«المدى الكبير» الذي أثار اهتمام دي بنوا أكثر من غيره هو - أوروبا. وقد رأى «اليمينيون الجدد» أن لشعوب أوروبا أصلاً هندأوروبياً مشتركاً، منبعاً واحداً. فهذا مبدأ **«التاريخ المشترك»**. إلا أن ظروف المرحلة المعاصرة التي تنشط فيها توجهات التكامل الاستراتيجي والاقتصادي والذي لا بد منه من أجل التوصل إلى استقلالية جيوبولتيكية حق تمليه ضرورة التوحد في المفهوم البراغماتي الصرف. وعلى هذا فإن شعوب أوروبا محكومة **«بالمستقبل المشترك»**. ويتوصل دي بنوا من ذلك إلى استنتاج مفاده بأن المبدأ الجيوبولتيكي الأساسي يجب أن يكون أطروحة «أوروبا الموحدة ذات المئة راية»[16]. وفي مثل هذا الأفق كما هو الأمر بالنسبة لكافة تصورات «اليمينيين الجدد» يغدو واضحاً تلمّس الرغبة نحو الجمع بين العناصر «المحافظة» و«الحداثية» أي «اليميني» و«اليساري». وفي السنوات الأخيرة رفض «اليمينيون الجدد» مثل هذا التعريف إذ عدّوا أنفسهم «يمينيين» بقدر ما هم «يساريون» أيضاً.

تقوم أطروحات دي بنوا على أساس فرض **«مصير أوروبا القاري»**. وهو في هذا يقفو أثر مبادىء مدرسة هاوسهوفر. ومن هنا تصدر المواجهة المميّزة «لليمينيين الجدد» بين **«أوروبا»** و**«الغرب»**. فـ «أوروبا» بالنسبة لهم تكوُّن جيوبولتيكي قاري، يقوم على تجمّع أتني هندأوروبي الأصل ذي جذور ثقافية. وهذا المفهوم تقليدي. أما **الغرب**، فعلى العكس من ذلك، مفهوم جيوبولتيكي وتاريخي، يرتبط بالعالم المعاصر الذي يرفض التقاليد الاتنية والروحية التي تطرح المعايير المادية والكمية للوجود؛ وهذه هي الحضارة النفعية، العقلانية، الآلية البورجوازية. والتجسّد الأكثر اكتمالاً **للغرب** وحضارته هي الولايات المتحدة الأمريكية.

ومن هنا يتشكل المشروع الملموس «لليمينيين الجدد». فعلى أوروبا أن تتكامل في «امبراطورية فيدرالية» تقف في مواجهة **الغرب** والولايات المتحدة. ومن

الضروري، بالمناسبة، تشجيع الميول الجهوية بصفة خاصة، وذلك لأن المناطق الجهوية والأقليات العرقية قد احتفظت بقدر من الملامح التقليدية يربو عما احتفظت به المدن الضخمة والمراكز الثقافية التي صعقتها «روح **الغرب**»، وعلى فرنسا، إزاء ذلك، أن تقتدي بألمانيا وأوروبا الوسطى. ومن هنا ينطلق اهتمام «اليمينيين الجدد» نحو ديغول وفريدريخ ناومن. وعلى مستوى السياسة العملية ينادي «اليمينيون الجدد» منذ بداية السبعينيات بالحياد الاستراتيجي الصارم لأوروبا، إلى جانب الخروج من الناتو، وتطوير القدرة النووية الأوروبية المكتفية بذاتها.

أما بالنسبة للاتحاد السوفياتي (روسيا فيما بعد) فموقف «اليمينيين الجدد» قد تطور وبدءاً من الأطروحة الكلاسيكية «لا **الغرب**، لا **الشرق**، بل أوروبا» أخذوا يتطورون تدريجياً نحو أطروحة «أوروبا قبل كل شيء ومن الأفضل حتى مع **الشرق** ولا مع **الغرب**». أما على المستوى العملي فإن الاهتمام الأولي بالصين ومشاريع إقامة حلف أوروبا الاستراتيجي مع الصين من أجل مواجهة «الامبرياليتين الأمريكية والسوفياتية» تم استبدالها بـ «مودّة السوفيات» المعتدلة وبفكرة اتحاد أوروبا مع روسيا.

وجيوبولتيكا «اليمينيين الجدد» متجهة بصفة جذرية توجهاً معادياً للأطلسية وللعولمة. وهم يرون مصير أوروبا نقيضاً للمشاريع الأطلسية والعولمية. كما أنهم أعداء «التالاسوكراتية» ومنظومة الـ One World.

وتجدر الإشارة إلى أنه ضمن شروط الهيمنة الاستراتيجية والسياسية الشاملة للأطلسية في أوروبا خلال مرحلة الحرب الباردة كان الموقف الجيوبولتيكي لدي بنوا (وغير الملوث من الناحيتين النظرية والعملية) يتجه بصورة مناقضة لـ «معايير التفكير السياسي» إلى درجة أنه لم يستطع أن يحقق أي انتشار واسع. لقد كان نوعاً من «الاختلاف في الرأي» وكأي نوع من «الاختلاف في الرأي» و«الانشقاقية» فقد كان ذا طابع هامشي. وحتى الآن فإن المستوى الفكري «لليمينيين الجدد» والنوعية العالية الجودة لإصداراتهم ومنشوراتهم، بل والكثرة العددية لأنصارهم في الوسط الأوروبي تتناقض تناقضاً حاداً مع الاهتمام الهزيل الذي تختصهم به المرجعيات السلطوية والبُنى التحليلية التي تقدم خدماتها للسلطة عن طريق مشاريعها الجيوبولتيكية.

5 ـ 2 أوروبا من فلاديفو ستوك حتى دوبلن:

قام أوروبي آخر، مخالف في الرأي، هو البلجيكي جان تيريار (1922 ـ 1992) بتطوير صيغة للجيوبولتيكا القارية مغايرة إلى حد ما وكان منذ بداية الستينيات قائداً لحركة «أوروبا الفتية» الجذرية في عموم أوروبا.

كان تيريار يعد الجيوبولتيكا المادة الرئيسية في علم السياسة، والتي لا يمكن بدونها إقامة استراتيجية حكومية سياسية عقلانية بعيدة النظر. وكان هذا المريد لكل من هاوسهوفر ونيكيش يعد نفسه «البولشيفيكي ـ الوطني الأوروبي» وباني «الامبراطورية الأوروبية». وأفكاره هذه بالذات كانت سابقة على مشاريع «اليمينيين الجدد» التي تتسم بمستوى أعلى من التطور والإرهاف.

أقام جان تيريار نظريته السياسية على مبدأ «الاكتفاء الذاتي للآماد الكبرى» وهذه النظرية التي طوّرها الاقتصادي الألماني فريدريخ ليست(*) في أواسط القرن التاسع عشر تؤكد على أن التطوير الاستراتيجي والاقتصادي الكامل للدولة لا يمكن أن يتحقق إلا إذا توفر لها المدى الجيوبولتيكي الكافي والإمكانات المساحية الكبرى. وطبق تيريار هذا المبدأ على الوضع العملي وتوصل إلى القول بأن المعنى العالمي لدول أوروبا سيفقد أهميته بصورة نهائية إذا لم تتوحد هذه الدول في **امبراطورية** واحدة تواجه الولايات المتحدة. وإلى جانب ذلك كان تيريار يرى أن مثل هذه **الامبراطورية** لا يجب أن تكون «فيدرالية» ذات توجه إقليمي بل أن تكون متحدة إلى أبعد حدود الاتحاد، مركّزة، شبيهة بالأنموذج اليعقوبي. ويجب أن تصبح دولة ـ قومية قارية قوية متحدة. وفي هذا يتمثل الخلاف الأساسي بين نظرات دي بنوا وتيريار.

في نهاية السبعينيات طرأ بعض التحول على نظريات تيريار. فتحليله للوضع الجيوبولتيكي أوصله إلى الاقتناع بأن حجم أوروبا ليس كافياً بعد لكي تتحرر من

(*) ليست، فريدريخ (1789 ـ 1846) اقتصادي ألماني، عبّر عن مصالح البورجوازية الصناعية الألمانية. من أنصار الحماية الجمركية. ومن منطلق قومي متعصب دعا إلى تدخل الدولة في الحياة الاقتصادية. دافع عن الفكرة الشوفينية القائلة بسيادة ألمانيا على أوروبا. تبنت المدرسة التاريخية للاقتصاد السياسي البوجوازي أفكاره. (المترجم).


دوبلن
الامبراطورية
الاوروبية ـ السوفياتية
فلاديفوستوك

التالاسوكراتية الأمريكية. وعليه فإن الشرط الرئيسي «للتحرر الأوروبي» هو وحدة أوروبا مع الاتحاد السوفياتي. ومن المخطط الجيوبولتيكي الذي يتضمن مناطق أساسية ثلاث - **الغرب، أوروبا وروسيا (الاتحاد السوفياتي)** انتقل إلى مخطط يتضمن اثنتين فقط هما - **الغرب** والقارة الأوروبية. وإلى جانب هذا فقد انتقل تيريار إلى استنتاج راديكالي يقول بأن من الأفضل لأوروبا أن تختار الاشتراكية السوفياتية على أن تختار الرأسمالية الأنجلوساكسونية.

وهكذا ظهر مشروع «**الامبراطورية الأورو - سوفياتية من ڤلاديفوستوك إلى دوبلن**»[17]. وقد قدم فيه وصفاً شبه تنبؤي للأسباب التي ستؤدي بالاتحاد السوفياتي إلى الانهيار ما لم يقم في أقرب وقت ممكن باتخاذ الخطوات الجيوبولتيكية الفاعلة في أوروبا وفي الجنوب. وكان يرى أن أفكار هاوسهوفر المتعلقة بالمعسكر القاري «برلين - موسكو - طوكيو» لا تزال تتمتع بحيويتها على أعلى المستويات حتى الآن. ومن المهم القول بأن تيريار قد صاغ أفكاره هذه قبل سقوط الاتحاد السوفياتي بـ 15 سنة. وقد كان سباقاً إلى التعبير عن منطق هذا السقوط وأسبابه بدقة مطلقة. كما قام تيريار بمحاولات إيصال آرائه إلى القادة السوفيات. لكنه لم يفلح في ذلك على الرغم من أن لقاءات جمعت بينه وبين عبد الناصر وتشوان اين لاي وأعلى القياديين اليوغسلاف في الستينيات. ومن الأمور اللافتة للنظر أن موسكو رفضت مشروع تنظيم «كتائب التحرير الأوروبي» السرية من أجل الكفاح الإرهابي ضد «عملاء الأطلسية». وتثوي أفكار جان تيريار في أساس الحركة الانشقاقية للوطنيين - البولشفيك الناشطة الآن «جبهة التحرير الأوروبي» وهم يقتربون إلى حدود قريبة من مشاريع الأوراسية الروسية الجديدة المعاصرة.

5 - 3 تفكير عبر القارات يورديس فون لوهاوزين:

يقترب الجنرال النمساوي يورديس فون لوهاوزن اقتراباً كبيراً من تيريار. وهو، خلافاً لتيريار، أو دي بنوا، لا يشارك في النشاط السياسي ولا يقيم المشاريع الاجتماعية المحددة، فهو يلتزم النظرة العلمية الصارمة ويكتفي بالتحليلات الجيوبولتيكية الصرفة. ومنطلقه الأساسي نفس منطلق الوطنيين - البولشفيك و«اليمينيين الجدد» فهو قاري ومن أتباع هاوسهوفر.

ويرى لوهاوزن أن السلطة السياسية لن تملك فرصة الاستمرار والثبات لفترة طَويلة إلا عندما يبدأ رجالها، بالتفكير لا من خلال المقولات الآنية والمحلية بل «عبر آلاف السنين وعبر القارات». وكتابه الأساسي يحمل هذا التوجه «رجولة امتلاك السلطة. التفكير عبر القارات»[18].

كما يرى لوهاوزن أن العمليات الاجتماعية، الثقافية، الحضارية والتي تدور على مساحات كونية، لا تغدو مفهومة إلا إذا جرت رؤيتها من أفق «بعيد النظرة» يعارضه المؤلف بـ «قصور النظر» التاريخي. فالسلطة في المجتمع الإنساني والتي يرتبط بها اختيار الطريق التاريخي والقرارات الأهم يجب أن تسيّر من طرف مخططات عامة جداً تسمح بإيجاد مكان لهذه الدولة أو تلك أو لهذا الشعب أو ذاك في السياق التاريخي الهائل الأبعاد. ولهذا فإن العلم الأساسي الضروري لتحديد استراتيجية السلطة هو الجيوبولتيكا في مفهومها التقليدي - العمل عن طريق مقولات عالمية مع الانصراف عن الجزيئيات التحليلية (لا الجيوبولتيكا الداخلية، التطبيقية لمدرسة لاكوست). إن الأيديولوجيات الجديدة والتحولات التكنولوجية والحضارية تبدّل - من دون شك، سطح العالم، لكنها عاجزة عن أن تبدل عدداً من القوانين الأساسية المرتبطة بالدورات الطبيعية والثقافية والتي تقدّر بآلاف السنين.

وهذه المقولات الدوليّة هي - المدى المكاني - اللغة، الأتنوس، الموارد وسوى ذلك.

ويقترح لوهاوزن هذه المعادلة للسلطة: **العظمة = القوة × مكان التوضع**.

ويعرّف ذلك بقوله:

«وبما أن العظمة هي القوة مضروبة بمكان التوضع، فإن التوضع الجغرافي المناسب يمكّن من التطوير الكامل للقوى الداخلية»[19].

وعلى هذا فإن السلطة السياسية العقلية وما إلى ذلك ترتبط ارتباطاً مباشراً بالمدى المكاني.

ويفصل لوهاوزن مصير أوروبا عن مصير الغرب، معتبراً أوروبا تكوّناً قارياً وقع لفترة محدودة تحت سيطرة التالاسوكراتيا. ولكن أوروبا في حاجة إلى الحد

الأدنى المكاني (المَوْقعي) من أجل تحريرها السياسي. ويمكن تحقيق هذا الحد الأدنى فقط عبر توحيد ألمانيا والعمليات التكاملية في أوروبا الوسطى وإقامة الوحدة الترابية لبروسيا (الممزقة بين بولندا، الاتحاد السوفياتي وجمهورية ألمانيا الديموقراطية) ثم تشكيل الدول الأوروبية مستقبلاً في حلف مستقل موحد لا علاقة له بالأطلسية. ومن المهم الإشارة إلى دور بروسيا. ولوهاوزن يرى على أثر نيكيش وشبينغلر أن بروسيا تمثل القسم الأكثر قارية، «الأوراسي» من ألمانيا ولو أن عاصمة ألمانيا لم تكن برلين بل كانت كينيغسبيرغ لسار «التاريخ الأوروبي مساراً آخر»، أقرب إلى الصواب بتوجهه إلى الاتحاد مع روسيا ضد التالاسوكراتيات الأنجلو ساكسونية.

ويرى لوهاوزن أن مستقبل أوروبا في الأفق الاستراتيجي لا يمكن تصوره بدون روسيا ـ وعلى العكس من ذلك فإن روسيا (الاتحاد السوفياتي) في حاجة إلى أوروبا إذ إنها جيوبولتيكياً ناقصة بدونها ومكشوفة الجراح أمام أمريكا ذات التوضع الأفضل بكثير. وعليه فإن قوتها ـ عاجلاً أم آجلاً ـ ستتقدم على الاتحاد السوفياتي بمراحل. وقد شدد لوهاوزن على أن بوسع الاتحاد السوفياتي أن يكون له في الغرب أربع أوروبات: «**أوروبا المعادية، أوروبا الخاضعة، أوروبا المفرغة وأوروبا الحليفة**». أما الاحتمالات الثلاثة الأولى فلا مندوحة منها في ظروف الإبقاء على ذلك النهج من السياسة الأوروبية التي ظل الاتحاد السوفياتي يطبقها على مدار «الحرب الباردة». والتوجه إلى جعل أوروبا بأي ثمن «حليفة وصديقة» هو وحده القادر على تصحيح الوضع الجيوبولتيكي القدري للاتحاد السوفياتي وتأسيس البداية لمرحلة جديدة من التاريخ الجيوبولتيكي ـ مرحلة الأوراسية».

يتحدد موقف لوهاوزن بشكل واعٍ بقرائن جيوبولتيكية. فهو يسقط المسائل الايديولوجية من حسابه. فجيوبولتيكا روسيا البويارية(*) على سبيل المثال وروسيا

(*) البويار: الفئة الإقطاعية العليا في روسيا بين القرنين التاسع والسابع عشر. ينتمون إلى القبائل والأسر العريقة المعروفة، وكان لهم تابعوهم وصوتهم المسموع عند الأمراء والحكام حتى توصلوا إلى المشاركة في الحكم بل انفردوا به في إمارة نوفجورود. ومنذ القرن الرابع عشر بدأ الأمراء يزحمونهم، لكنهم ظلوا يشرفون على مختلف الفروع الاقتصادية ثم القضاء والمناصب العسكرية، إلى أن ألغى بطرس الأكبر طبقة البويار في بداية القرن الثامن عشر. (المترجم).

القيصرية أو روسيا الاتحاد السوفياتي تبدو أمامه عملية واحدة متصلة لا ترتبط باستبدال النظام الحاكم أو بالايديولوجية. فروسيا من الناحية الجيوبولتيكية هي الـ heartland وبناء على ذلك فإن مصيرها محكوم بأراضيها مهما كان نظام الحكم فيها.

وقد تنبأ لوهاوزن ـ مثل تيريار ـ بالإفلاس الجيوبولتيكي المحتوم للاتحاد السوفياتي إذا ما ظل سائراً على نهجه المألوف. وإذا كانت مثل هذه النتيجة تعدّ بالنسبة للجيوبولتيكيين الأطلسيين انتصاراً فقد رأى لوهاوزن فيها هزيمة للقوى القارية. مع احتساب تلك اللوينة وهي أن الإمكانات الجديدة التي ستنفتح بعد انهيار النظام السوفياتي ـ يمكنها أن تنشىء المنطلقات الملائمة لاقامة معسكر أوراسي جديد في المستقبل ـ امبراطورية قارية ـ إذ إن القيود المحدَّدة التي كانت عليها الايديولوجية الماركسية تكون، في هذه، قد أزيلت.

5 ـ 4 «امبراطورية الختام» الأوراسية. جان بارڤوليسكو

يعرض الكاتب الفرنسي المشهور جان بارڤوليسكو صيغة رومانسية للجيوبولتيكا. وقد ظهرت الموضوعات الجيوبولتيكية في الأدب لأول مرة على يدي جورج أورويل(*) الذي وصف في طوباويته المعاكسة «1984» التقسيم المستقبلي للكوكب الأرضي إلى معسكرات قارية ثلاثة كبرى: الأوستازيا، الأوراسيا والأوكيانيا، ونلتقي بموضوعات متشابهة لدى أرتور كيستلر(**)، أولدوس هكسلي(***)، ريمون ابيليو وسواهم.

(*) أورويل Orwell، جورج. اسمه الحقيقي ايريك بريل (1903 ـ 1950) كاتب إنجليزي. عاش اتجاهات فكرية متضاربة. من مؤلفاته «مزرعة الحيوانات» وهي عمل أدبي ساخر. ومن أشهر ما كتبه رواية «1984» وتتضمن رؤية موغلة في التشاؤم. يرى فيه بعضهم الممثل المبكر «لليساريين الجدد» (المترجم).

(**) كستلر Koestler آرثر، (1905 ـ 1983) كاتب، فيلسوف إنجليزي. انتقل من الماركسية إلى البورجوازية والليبرالية ومعاداة الشيوعية، والدعوة إلى التشاؤمية الاجتماعية اللاعقلانية، فالإنسان لديه «مأزق»، «خطأ» في تطور الطبيعة. له دراسات في الفلسفة وعلم الحياة. (المترجم).

(***) هكسلي Huxley، اولدوس (1894 ـ 1963) كاتب إنجليزي. من رواياته العقلية =

وجان بارڤوليسكو يجعل الموضوعات الجيوبولتيكية أموراً مركزية في كافة مؤلفاته، فيفتح بذلك عالماً جديداً هو «**الأدب الفني الجيوبولتيكي**».

ومؤدى نظرية بارڤوليسكو هو[20]: إن تاريخ البشرية هو تاريخ القوة، السلطة. وفي سبيل الوصول إلى المواقع المركزية في الحضارة، أي إلى تحقيق أعظم القوى تتوجه مختلف المنظمات نصف السرية والتي تتجاوز دورات وجودها، إلى حدود بعيدة، الامتداد الزمني للايديولوجيات السياسية الاعتيادية، الأسر الحاكمة والمؤسسات الدينية والحكومات والشعوب. هذه المنظمات التي تدخل التاريخ تحت أسماء مختلفة يحدّدها بارڤوليسكو كـ «محفل الأطلسيين» و«محفل الأوراسيين». ويدور بينهما صراع يمتد قروناً يشارك فيه البابوات، البطاركة، الملوك، الدبلوماسيون، كبار رجال المال، الثوار، الغيبيون، الجنرالات، العلماء، الفنانون وسواهم. وهكذا فإن كافة التجليات الاجتماعية ـ الثقافية تؤدي إلى الطرز الأولى وإن كانت بالغة التعقيد.

إنه الخط الجيوبولتيكي وقد أُوصل إلى حدوده المنطقية، والذي يجري تتبع أساسياته بشكل واضح لدى مؤسسي الجيوبولتيكا العقلانيين والبعيدين عن «الغيبية».

يلعب الجنرال ديغول دوراً مركزياً في الموضوعات الأدبية التي يعالجها بارڤوليسكو، وفي النظام الجيوبولتيكي الذي أسسه والذي بقي في الظل بعد انتهاء رئاسة الجنرال. ويسمّي بارڤوليسكو هذا «بالديغولية الجيوبولتيكية». هذه الديغولية الجيوبولتيكية هي الشبيه الفرنسي بقارية مدرسة هاوسهوفر.

المهمة الأساسية لأنصار هذا الخط هي تنظيم المعسكر القاري الأوروبي «باريس ـ لندن ـ برلين ـ موسكو». وفي هذا السياق تتقارب نظريات بارڤوليسكو وأطروحات «اليمينيين الجدد» و «الوطنيين ـ البلشڤيك».

ويرى بارڤوليسكو أن المرحلة التاريخية الحالية هي ذروة المواجهة

= «الكروم الأصفر» 1921، «جوقة المهرجين»، «كونترا بوْنكنت» 1928 وهي تناقش بطلان العقلية البورجوازية. أما «العالم الجديد الرائع» فهي نقيض للطوباوية وتتحدث عن المجتمع التقنوقراطي المعياري. ويؤدي الشك بهكسلي إلى لا إنسانية الابداع كما في روايته «العبقرية والإلهة» 1955. (المترجم).

الجيوبولتيكية التي امتدت قروناً طويلة والتي يقترب فيها التاريخ الدراماتيكي للمبارزة القارية الحضارية من الحل. وهو يستبق رؤية الظهور الوشيك للبناء القاري الهائل «**امبراطورية الختام الأوراسية**» ثم الصدام الختامي مع «**امبراطورية الأطلسي**» وهذه المبارزة القائمة على الغيبيات المتعلقة بالآخرة ويصفها الكاتب بألوان من سفر الرؤيا يسميها Endkampf (معركة الختام). ومن الطريف أن الشخصيات المتخيلة تتجاور مع الشخصيات التاريخية الواقعية والتي عقد المؤلف معها (ولا يزال يعقد مع بعضها حتى الآن) أواصر المودة. ومن بين هؤلاء ـ سياسيون من أقرب المحيطين بديغول ـ دبلوماسيون إنجليز وأمريكان، الشاعر عزرا باوند، الفيلسوف يوليوس ايڤولا، السياسي والكاتب رايمون آبيليو، النحات أرنو بريكير وأعضاء المنظمات الغيبية وما إلى ذلك.

وعلى الرغم من الصيغة الأدبية لنصوص بارڤوليسكو فإنها تتسم بقيمة جيوبولتيكية هائلة، إذ إن عدداً من مقالاته التي نشرت في السبعينيات يصف بدقة تثير الاستغراب الوضع الذي لم يتكون في العالم إلا في منتصف التسعينيات.

5 ـ 5 المحيط الهندي طريقاً إلى السيطرة العالمية روبير ستويكيرس:

النقيض الكلي «للرؤيوي الجيوبولتيكي» بارفوليسكو هو العالم الجيوبولتيكي والكاتب الاجتماعي البلجيكي روبير ستويكيرس، ناشر المجلتين الراقيتين «أوريانتاسيون» و«ڤولوار»، وهو يقترب من الجيوبولتيكا من منطلقات عقلانية علمية بحتة، محاولاً تحرير هذا العلم من جميع القشور «العارضة». إلا أنه بمسيره وراء منطق «اليمينيين الجدد» في التوجه الأكاديمي يتوصل إلى نتائج قريبة إلى حد مذهل من «نبوءات» بارڤوليسكو.

وستويكيرس يرى بدوره أن المشاريع الاجتماعية السياسية والدبلوماسية بصفة خاصة لدى مختلف الدول والأحلاف مهما كانت الصيغة الأيديولوجية التي تكتسي بها، تمثل التعبير غير المباشر والمقنع أحياناً للمشاريع الجيوبولتيكية العالمية. وهو يرى في ذلك تأثير عامل «الأرض» على التاريخ الإنساني. فالإنسان مخلوق أرضي (خلق من التراب). وعلى ذلك فإن الأرض والمكان يجسّدان الإنسان في تجلياته الأكثر صميمية. وهذه مقدمة «للجيوإستوريا».

وللتوجه القاري أفضلية لدى ستويكيرس؟ ويرى أن الأطلسية معادية لأوروبا، أما مصير الرفاه الأوروبي فيربطه بألمانيا وأوروبا الوسطى[21]. وستويكيرس من أنصار التعاون الفعال مع أوروبا ودول العالم الثالث وبخاصة مع العالم العربي.

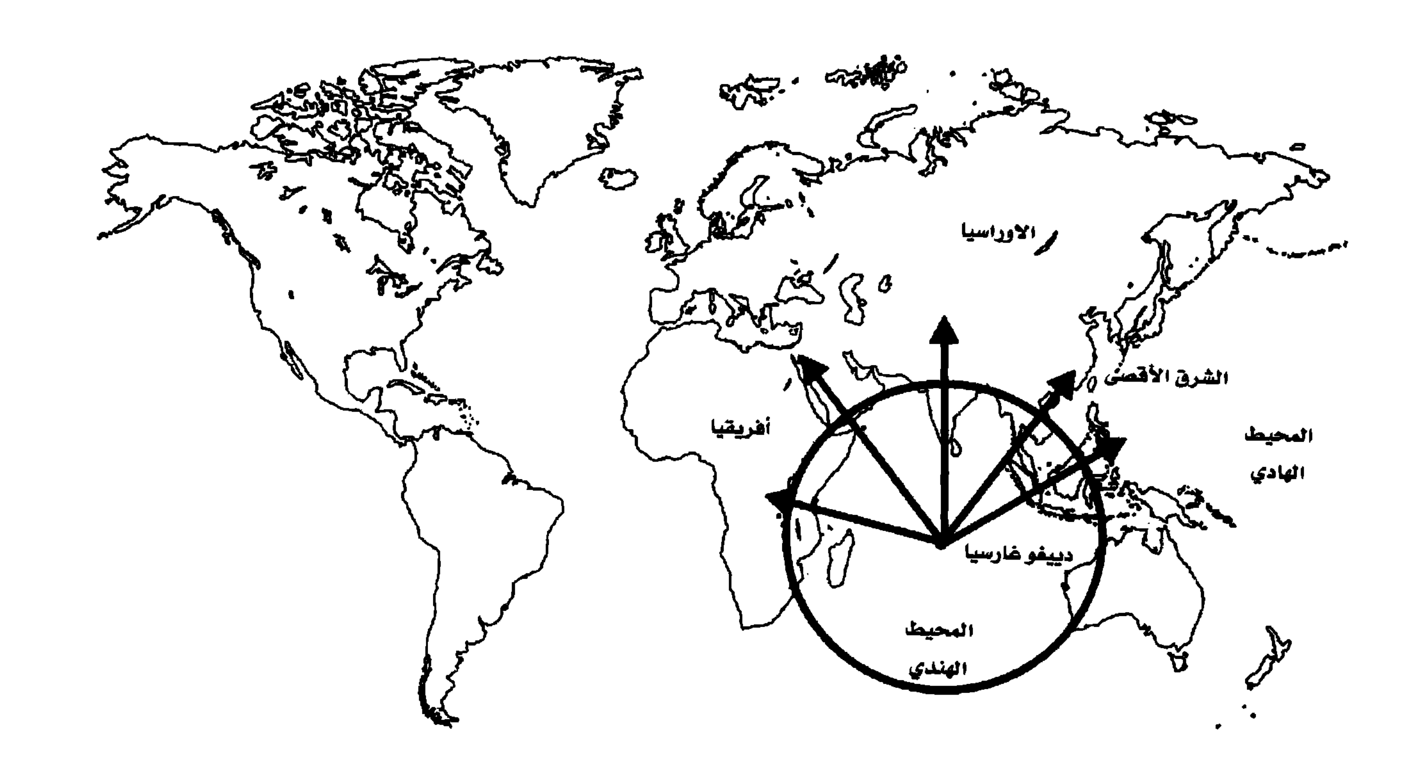
وبالإضافة إلى ذلك يؤكد على الأهمية الكبرى للمحيط الهندي من أجل البناء الجيوبولتيكي المستقبلي للكرة الأرضية ويعرف المحيط الهندي بأنه «المحيط المتوسط»، الواقع بين الأطلسي والهادي. والمحيط الهندي يمتد بدقة في الوسط بين الساحل الشرقي لأفريقيا ومنطقة المحيط الهادي التي تقع فيها نيوزيلاندة، أوستراليا، غينيا الجديدة، أندونيسيا، الفليبين والهند الصينية. والسيطرة البحرية على المحيط الهندي تمثل الموقع الأهم للتأثير الجيوبولتيكي على أهم «الآماد الكبرى» الثلاثة دفعة واحدة ـ أفريقيا، الـ rimland الأوراسي ـ الجنوبي، ومنطقة المحيط الهادي. ومن هنا تنبثق الأفضلية الاستراتيجية لعدد من الجزر الصغيرة في المحيط الهندي، وبخاصة دييغو غارسيا الواقعة على بعد واحد من جميع المناطق الساحلية.

ويؤكد ستويكيرس على أن المحيط الهندي هو تلك المنطقة التي يجب أن تتركز عليها الاستراتيجية الأوروبية كلها، فمن خلال هذه البقعة يمكن لأوروبا أن تؤثر على الولايات المتحدة وعلى الأوراسيا وعلى اليابان. والمواجهة الجيوبولتيكية الحاسمة التي ستحدد، حسب رأيه، لوحة المستقبل في القرن الحادي والعشرين ستجري في هذه البقعة دون سواها.

ويعكف ستويكيرس بكل فعالية على دراسة تاريخ الجيوبولتيكا وتعود إليه مقالات حول مؤسسي هذا العلم في الطبعة الجديدة من «موسوعة بروكسل».

5 ـ 6 روسيا + الإسلام = إنقاذ أوروبا
كارلو تيراتشانو:

يقع في إيطاليا أيضاً مركز جيوبولتيكي فاعل للتوجه القاري. فبعد الحرب العالمية الثانية حققت أفكار كارل شميدت في ايطاليا انتشاراً فاق مستواه في الدول الأوروبية الأخرى، وبفضل ذلك انتشر النمط الجيوبولتيكي للتفكير هناك إلى حد بعيد. وبالإضافة إلى ذلك فإن حركة «أوروبا الفتية» لجان تيريار وأفكار الناسيونال


الاوراسيا
الشرق الأقصى
المحيط
الهادي
أفريقيا
دييغو غارسيا
المحيط
الهندي

ـ البلشفيك القارية طبقاً لذلك، حققت في إيطاليا تطوراً لم تعرفه في مكان آخر. وبين مجلات «اليمينيين الجدد» ومراكزهم الاجتماعية منها والمتخصصة بالشؤون السياسية، الكثيرة العدد والمهتمة بدراسة الجيوبولتيكا تمثل أهمية خاصة دورية «أوريون» الصادرة في ميلانو، حيث صارت في السنوات العشر الأخيرة تصدر تحليلات الدكتور كارلو تيراتشانو بصفة دورية. ويعبر تيراتشانو عن الموقف الأكثر تطرفاً للقارية الأوروبية التي تقترب اقتراباً شديداً من الأوراسية.

يتبنى تيراتشانو بصفة كلية لوحة ماكيندر وماهان ويوافق على الثنائية الحضارية، والجغرافية الصارمة التي وضعاها وإلى جانب ذلك يقف على نفس المستوى إلى جانب الـ heartland إذ يرى أن مصير أوروبا يرتبط كلية وبشكل كامل بمصير روسيا والأوراسية؛ بالشرق فالشرق القاري هو الإيجابي أما الغرب الأطلسي فهو السلبي. ومثل هذا الموقف الجذري من طرف أوروبي يعد استثناء حتى بين الجيوبولتيكيين ذوي التوجه القاري، إذ إن تيراتشانو لا يقوم حتى بتركيز اهتمام خاص على وضع أوروبا، فهو يرى فيه نقطة ثانوية الأهمية أمام المواجهة الكونية بين التالاسوكراتية والتيلوروكراتية.

وهو يوافق كل الموافقة على فكرة الدولة الأوراسية الواحدة «الامبراطورية الأوروسوفياتية من ڤلاديفوستوك إلى دوبلن» الأمر الذي يقربه من تيريار لكنه في الوقت نفسه لا يقر تيريار على «يعقوبيته» و«عالميته» مؤكداً على التعددية الاتنوثقافية وعلى الناحية الدينية، وهو ما يقربه بدوره من آلين دي بنوا.

والتوكيد على مركزية العامل الروسي يتجاور لدى تيراتشانو مع موقف طريف آخر: فهو يرى أن الدور الأهم في الصراع ضد الأطلسية يعود للعالم الإسلامي، وبخاصة للنظم المعادية علانية للأمريكيين. النظام الإيراني، الليبي، العراقي وما إليها. وهذا ما يوصله إلى نتيجة أن العالم الإسلامي في أعلى درجات التعبير عن المصالح الجيوبولتيكية القارية. وإلى جانب هذا فإنه ينظر إلى الصيغة «الأصولية» للإسلام على أنها إيجابية. والمعادلة النهائية التي تلخص النظرات الجيوبولتيكية للدكتور تيراتشانو هي: روسيا (heartland) + الإسلام ضد الولايات المتحدة الأمريكية (الأطلسية، العولمة)[22].

ويرى تيراتشانو في أوروبا جسراً للحلف الروسي الإسلامي المعادي

للعولمة. وترى وجهة نظره أن مثل هذا الطرح الجذري للسؤال يمكن فقط أن يؤدي موضوعياً إلى الانبعاث الأوروبي الحق.

وإلى جانب الأفكار المشابهة لآراء تيراتشانو يقف العاملون الآخرون في دورية «أوريون» وفي المركز الفكري العامل على أساسها (البروفيسور كلاوديو موتّي، موريتسيو موريللي، والعالمة الاجتماعية الكسندرا كولاّ، ماركو بتّارا وسواهم) ونحو هذا التوجه الوطني البولشفيكي تميل بعض الدوائر الاجتماعية - الديموقراطية، والشيوعية والفوضوية في إيطاليا. من ذلك صحيفة «أومانيتا» ومجلة «نووڤي انجولاتسيوني» وغيرهما.

الأوراسية الجديدة

6 ـ 1 الاندفاعيّة الأوراسية

ليف غوميليوف

كان أكثر تلامذة الأوراسي سافيتسكي ألقاً العالم الروسي المشهور ـ المؤرخ ليف غوميليوف. وهو لم يتطرق في أعماله للموضوعات الجيوبولتيكية لكن نظرته في الأصل العرقي والتشكيلات الأتنية تتمم بصورة واضحة خط النظرة «العضوانية» وإلى حد ما «الحتمية الجغرافية» اللتين تمثلان معاً جوهر الجيوبولتيكا عند راتسيل، تشيلّين وهاوسهوفر ومن جرّ جرهم.

وتكتسب أهمية خاصة دراسات غوميليوف الخاصة بالمراحل القديمة من الخارطة الأتنية للأوراسيا والسهوب، والشعوب الرحالة وحضاراتها. ومن أعماله تتضافر رؤية جديدة تماماً للتاريخ السياسي يظهر فيها **الشرق** الأوراسي لا كمجرد بقاع همجية على مشارف الحضارة (المتماثلة مع الحضارة الغربية) بل كمركز مستقل وديناميكي للأصل الأتني، للثقافة والتاريخ السياسي والتطور الحكومي والتقني. والغرب وتاريخه يظهران في بعديهما النسبيين، والثقافة الأوراسية ومجموعة نجوم الأتنيات الأوراسية تتبدى عالماً متعدد الأبعاد لم يسبق له أن درس قط ـ بمقاييسه القيمية، بقضاياه الدينية وقوانينه التاريخية وما إلى ذلك.

ويطور غوميليوف ويوصل إلى النهاية المنطقية الفكرة الأوراسية القائلة بأن أبناء روسيا الكبرى، الروس، يمثلون لا مجرد فرع من السلاف الشرقيين بل أتنوساً

خاصاً تكوّن على أساس التذاوب التركي ـ السلافي. ومن هنا تنبثق بشكل غير مباشر إثباتية السيطرة الروسية على تلك الأراضي الأوراسية المأهولة بالاتنوسات التركية. لقد تكونت حضارة روسيا الكبرى على أساس التمازج العرقي التركي ـ السلافي الذي تحقق على الخلفية الجغرافية كتحالف تاريخي بين **الغابة والسهب**. فالتفاعل الجيوبولتيكي بين **الغابة والسهب** بالذات هو ما يمثل الجوهر التاريخي لروسيا محدداً طابع ثقافتها، حضارتها، أيديولوجيتها ومصيرها السياسي.

ويحدد غوميليوف من بعد شبينغلير وتوينبي دورات الحضارات والثقافات وما يطابقها من الاتنوسات أيضاً. والتشكلات الأتنو ـ ثقافية ـ القوميات، الدول، المجموعات الدينية ـ شبيهة من وجهة نظره بالأعضاء الحية. فهي تمر عبر مراحل الولادة، الصبا ـ النضج فالشيخوخة ثم تتلاشى بعد ذلك أو تتحول إلى ما يسمى «المتبقيات». وينعكس في هذا من جديد، وبشكل واضح تأثير «الفلسفة العضوانية» المشترك بين جميع المدارس الجيوبولتيكية القارية.

وإلى أعلى الدرجات تكتسب أهميتها نظريات غوميليوف المتعلقة بأسباب الأصل الاتني أي ولادة الأتنوس أو الدولة. ولوصف هذه العملية يدخل مصطلح «العاطفية» أو «**الدفع العاطفي**»[23] وهو نَفْثة لا تفسير لها من الطاقة البيولوجية والروحية في آن معاً تبث الحركة فجأة في الوجود التاريخي البطيء الانسياب للشعوب والثقافات «الهرمة» وتستحوذ على المجموعات الدينية والأتنية المتكونة المختلفة في دفقة ديناميكية من التطور التقني والروحي والمدوي وهو ما يدفع بها إلى الفتوحات وإلى صهر بقايا الاتنوسات المختلفة الأنواع في صيغ فاعلة جديرة بالحياة. والعاطفية العالية الجديرة والعملية الديناميكية للتشكل الأتني تؤديان في الحالة العادية إلى ظهور أتنوس عالي النوعية يستجيب للصيغة القومية الحكومية للتنظيم السياسي بقدر ما يستجيب للامبراطورية.

والعاطفية تميل تدريجياً إلى الهبوط وبديلاً عن «العاطفية» (وهي خصيصة إيجابية برأي غوميليوف يساويها بـ «البطولية» بالطموح الخلقي نحو الخلق الإبداعي المجرّد من الأثَرَة باسم الوفاء للتقليد الوطني) تأتي «الفعالية» أي الانشغال فقط باللحظة الحاضرة في انقطاع عن التقاليد ودون الالتفات إلى مصير الأجيال القادمة. وفي هذه المرحلة يحدث «انكسار عاطفي» ويدخل التشكل الإتني في مرحلة سلبية هي المحافظة وبداية الانحدار. ويلي ذلك المرحلة «المستقبلية» والتي يغلب فيها

نمط العجزة من «الحالمين» «المتخيلين»، و«الهاربين الدينيين» الذين يفقدون الإيمان بالواقع المحيط ويتطلعون للمضي إلى «العالم الآخر». ويعد غوميليوف ذلك مَعْلم السقوط النهائي. فيتحلل الأتنوس وتتفتت الأتنوسات العلوية إلى جزيئاتها وتهوي الامبراطوريات.

تستمر هذه الحالة حتى «النفثة العاطفية» الجديدة عندما يظهر أتنوس نضير جديد فيدفع بتشكل أتني جديد تتفاعل فيه البنى السابقة. وتجدر الإشارة إلى أن بعض الأتنوسات تبقى في حالة «متبقيات» (ويسميها غوميليوف بـ «الأطياف) أما البقية فتختفي في ديناميكية العملية الأتنوجينيتيكية الجديدة.

ومن الأمور ذات الأهمية بمكان تأكيد غوميليوف المتعلّق بأن الروس يمثلون إلى حد ما أتنوساً «ناضراً» «فتياً» كوّن من حوله «أتنوساً أعلى» هو روسيا ـ الأوراسيا أو هو الامبراطورية الأوراسية.

ومن أوراسية غوميليوف تفرض نفسها النتائج الجيوبولتيكية التالية (والتي لم يكن هو نفسه، وبسب تصورات سياسية مفهومة، قد صاغها إذ آثر البقاء بصرامة في إطار العلم التاريخي).

1) تمثل الأوراسيا «بؤرة تطور» ذات قوام سليم، أرضاً غنية شديدة الخصوبة للتشكل الأتني والتشكل الثقافي. وعلى هذا يجب أن نتعلم النظر إلى التاريخ الإنساني لا عبر عدسة أحادية القطب، **الغرب** والآخرون» (على نحو ما هو مميّز في الكتابة الأطلسية للتاريخ)، بل عبر تعددية الأقطاب فإن الأوراسيا الشمالية والشرقية تمثلان طرافة خاصة لأنهما بالنسبة للغرب البديل الذي تتفجر منه العمليات الحضارية العالمية الأهم. ويقدم غوميليوف في أعماله اللوحة المهمة لمقولة ماكيندر المتعلقة «بالمحور الجغرافي للتاريخ» ويضفي على هذا المحور المضمون التاريخي والاتني.

2) التركيب الجيوبولتيكي للغابة والسهب والذي يكمن في أساس نمط الدَّوْلية الروسية يمثل الواقع الأهم للسيطرة الثقافية ـ الاستراتيجية على آسيا وأوروبا الشرقية. وإلى هذا فإن من شأن مثل هذه السيطرة أن تساعد على إحداث التناغم بين **الشرق والغرب** بينما لا تؤدي المحدودية الثقافية للحضارة الغربية **(الغابة)** ، مع

تعطشها إلى الهيمنة المترافقة مع الجهل المطلق بثقافة **الشرق (السهوب)** إلا إلى النزاعات والزلازل.

3) **الحضارة الغربية الآن في آخر مراحل انحطاط التشكل الاتني تمثل مقياساً للأتنوسات «الأطياف»**. وعلى هذا فإن مركز الثقل يجب أن ينتقل إلى شعوب أكثر فتوة.

4) **من الممكن أيضاً أن تنطلق في المستقبل القريب «نفثة عاطفية» لم يجر التنبؤ بها ولم يسبق تصوّرها**، فتبدل بحدة لوحة العالم السياسية والثقافية ـ ذلك إن هيمنة الأتنوسات القائمة على «المتبقيات» لا يمكن أن تدوم طويلاً.

6 ـ 2 الأوراسيون الروس الجدد

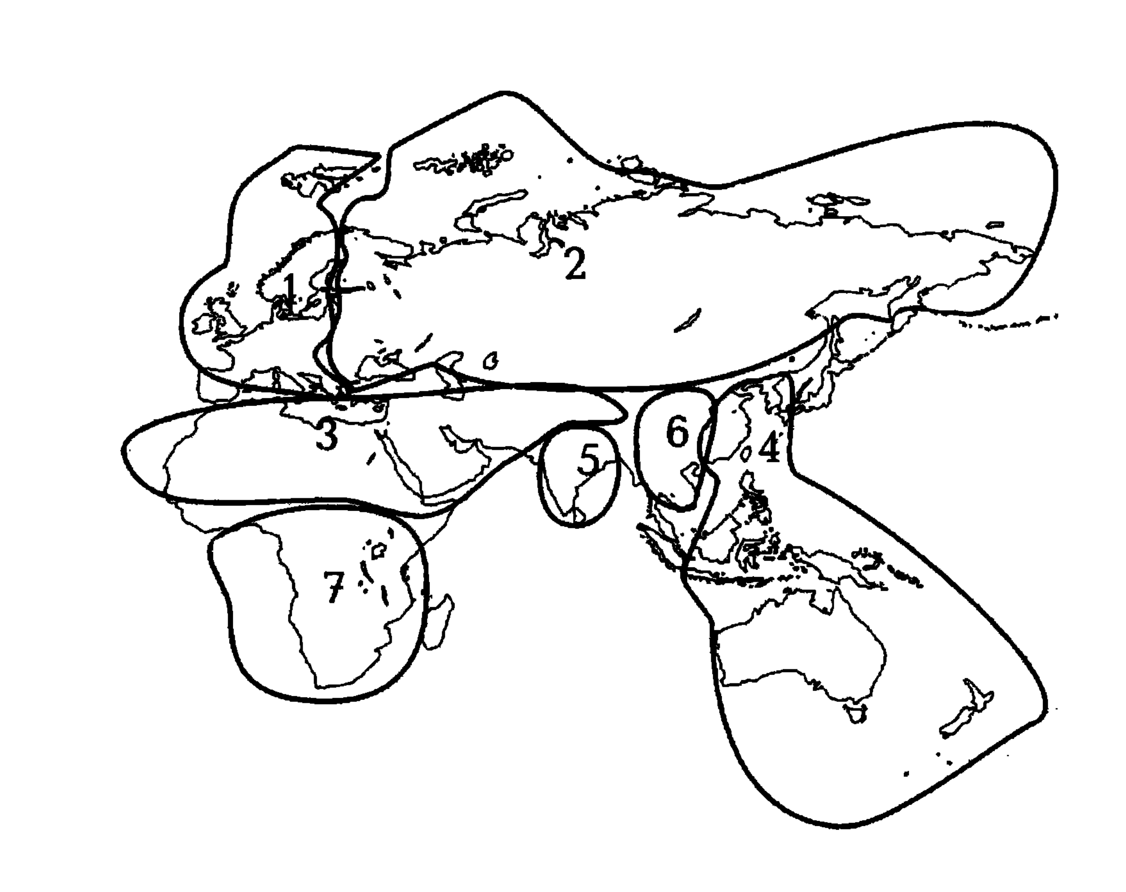
لم يقم غوميليوف شخصياً بصياغة النتائج الجيوبولتيكية على أساس لوحته التي رسمها للعالم. بل قام بذلك مريدوه في مرحلة ضعف (ثم إلغاء) الرقابة الايديولوجية الماركسية. وقد سمي هذا الاتجاه في عمومه باسم «**الأوراسية الجديدة**» التي تشتمل بدورها على صيغ متعددة. إلا أنها جميعاً ترث أفكار غوميليوف كما إن تأثيره على هذه الايديولوجيا الجيوبولتيكية خارق للعادة.

والأوراسية الجديدة تتضمن عدة صيغ.

الأولى (وهي الأشد رسوخاً والأكثر تطوراً) وتمثل الايديولوجيا الجاهزة التي صاغتها بعض الأوساط السياسية من المعارضة الوطنية التي وقفت في وجه الإصلاحات الليبيرالية خلال سني 1990 ـ 1992. والحديث يدور عن مجموعة من المثقفين الذين تجمعوا حول صحيفة «دين» («زافترا» فيما بعد) ومجلة «ايليمنتي»[24].

تعتمد هذه الأوراسية الجديدة على أفكار ب. سافيتسكي، غ. فيرنادسكي الأمير ن. تروبتسكوي(*) بالإضافة إلى منظّر الناسيونال ـ بلشفية الروسي نيكولاي

(*) تروبتسكوي، نيكولاي (1890 ـ 1938) أمير روسي. عالم لغة. أحد منظري حلقة باريس اللغوية. له نشاط في دراسة علمَيّ الأصوات والنحو. له دراسات في الأدب الروسي، في اللغات السلافية المقارنة، وفي لغات القوقاز وثقافاته.


1
2
3
4
5
6
7

أوستريالوف. وعلى أعلى المستويات يتم الاعتراف بتحليل الأوراسيين التاريخي على أنه فعال وقابل للتطبيق على الوضع القائم. وفي الوقت نفسه تواجه الايديوكراتيا الوطنية ذات المدى الإمبراطوري القاري بالغربية الليبيرالية وبالقومية الاتنية الضيقة. وتظهر روسيا على أنها محور «المدى الجيوبولتيكي الكبير» وتُماهى رسالتها الاتنية مع بناء الامبراطورية.

على المستوى الاجتماعي ـ السياسي يميل هذا التوجه نحو الاشتراكية الأوراسية، معتبراً الاقتصاد الليبيرالي السمة المميّزة للمعسكر الأطلسي. ويتم النظر إلى المرحلة السوفياتية من التاريخ الروسي من خلال رؤية السمينوڤيخوڤيين ـ أي على أنها صيغة حداثية من التطلع الروسي القومي التقليدي نحو التوسع العالمي ونحو «الشمولية الأوراسية المعادية للأطلسية». وهذا هو مصدر الميل «المؤيد للشيوعية» لدى هذه الصيغة من الأوراسية الجديدة.

ويتم قبول إرث ليف غوميليوف ـ إلا أن نظرية العاطفية تُقرن إلى التعاليم المتعلقة بـ «دورة النّخب» العائدة لعالم الاجتماع الإيطالي ويلفريد باريتو بينما تصحح نظريات غوميليوف الدينية على أساس مدرسة التقليديين الأوروبيين (غينون، ايفولا وغيرهما).

وأفكار التقليديين ـ «أزمة العالم المعاصر»، «انحلال الغرب» «تدنيس الحضارة» وما إلى ذلك ـ تدخل مرافقاً مهماً في الأوراسية الجديدة ـ مكملة ومطورة تلك الجوانب التي كانت قد قدمت من طرف المؤلفين الروس بطريقة حدسية وجزئية فحسب.

وفضلاً عن ذلك تتم دراسة المشاريع الأوروبية القارية (هاوسهوفر، شميدت، نيكيش، «اليمينيين الجدد» وسواهم) بطريقة مدققة شاملة ـ وعلى أساس ذلك تُبسط آفاق المقولة الأوراسية أيضاً على أوروبا التي تفهم على أنها قوة قارية محتملة. وهذه الفكرة غريبة كل الغرابة على المهاجرين ـ الأوراسيين التاريخيين الذين كتبوا مؤلفاتهم الأساسية في ظروف لم تكن للولايات المتحدة خلالها أي أهمية جيوبولتيكية مستقلة، ولم تكن أطروحة تميُّز أوروبا والغرب قد اتخذت صيغتها المطلوبة. إن الأوراسية الجديدة تعترف، وهي تصغي إلى القاريين الأوروبيين، بالأهمية الاستراتيجية لأوروبا بالنسبة للاكتمال الجيوبولتيكي واكتمال

«المجال الكبير» الأوراسي، واضعة في الاعتبار بصفة خاصة أن عامل التقسيم المتذبذب للخارطة الجيوبولتيكية لأوروبا هو بالذات الذي أدى إلى هزيمة الاتحاد السوفياتي في «الحرب الباردة».

والخاصية الأخرى للأوراسية الجديدة هي اختيار الدول الإسلامية (وبخاصة إيران القارية) على أنها الحليف الاستراتيجي الأهم. وتكمن فكرة الحلف الروسي ـ الإسلامي في أساس الاستراتيجية المعادية للأطلسية على الساحل الجنوبي الغربي من اليابسة الأوراسية. وعلى مستوى العقيدة يتسم هذا الحلف بالطابع التقليدي للحضارتين الروسية والإسلامية ـ وهو ما يوحّدهما في مواجهة الغرب العلماني النفعي.

في هذا التوجه الذي تتخذه الأوراسية الجديدة يتم اكتمال بناء لوحة المشاريع الجيوبولتيكية مطبقة على الوضع الحيوي ـ ذلك لأن المشروع الأوراسي الجديد يمثل ـ من جوانبه الإيديولوجية والسياسية والموقفية أيضاً، النقيض الثابت، الأكمل، والأتمّ ـ والمؤسس تاريخياً ـ بالنسبة لكافة المشاريع الجيوبولتيكية الغربية (سواء منها الأطلسية أو العولمية).

العولمة والأطلسية تعبّران عن مظهرين من الإيديولوجية الجيوبولتيكية للغرب المتطرف. فالأوروبية والقارية المعتدلة لدى الجيوبولتيكيين الأوروبيين تمثل واقعاً بينياً. وأخيراً فإن الأوراسية الجديدة في صحيفة «دين» ومجلة «ايليمنتي» بصفة خاصة تعبر عن وجهة النظر الجذرية المعادية للغرب ـ التي تتلاقى مع كافة المشاريع الجيوبولتيكية البديلة الأخرى ـ من الناسيونال ـ بلشفية الأوروبية وحتى الأصولية الإسلامية (أو «الاشتراكية الإسلامية) وحتى حركات التحرر الوطنية في كافة أصقاع **العالم الثالث**.

أما الصور الأخرى من الأوراسية الجديدة فأقل منطقية وتمثّل تكيف مجموع الأفكار التي سبقت الإشارة إليها مع الواقع السياسي المتغير: سواء اقتصر الحديث على «الأوراسية» الاقتصادية البراغماتية ـ المدعوة لإعادة التأثير الاقتصادي المتبادل بين جمهوريات الاتحاد السوفياتي السابقة (مشروع رئيس جمهورية كازاخستان ن. نزاربايف)، أم كان يدور حول تأثير الأطروحات التوسعية (مشروع ف. جيرينوفسكي المتعلق بالدولة العظمى) أو حول الدعوة الخطابية المجردة إلى

«الجماعة الأوراسية» من أجل الحفاظ على وحدة الأقليات الروسية والقومية (وهم في غالبيتهم من إتنيات الترك والمسلمين) في نطاق الفيدرالية الروسية (مشروع عدد من شخصيات حكومة ب. يلتسين) أو حول الاهتمام التاريخي المجرد بتراث حلقة سافيتسكي، تروبتسكوي، سوفتشينسكي، كارسافين وسواهم في المهجر. إلا أن جميع هذه الصيغ مصطنعة بالضرورة، جزئية، بعيدة عن المنطق ولا يمكنها أن تطمح إلى مستوى الإيديولوجية أو المنهجية الجيوبولتيكية الجادة. ولهذا فإن التوقف الأكثر تفصيلاً إزاءها لا يكتسب أي معنى.

نشير فقط إلى أن أي استعانة بالأوراسية والأوراسيا مهما كان محدوداً المغزى الذي يضمنه لهذين المفهومين أولئك الذين يستخدمونهما، وما إذا كان هؤلاء يحيلون، تعريضاً أو بصورة مباشرة ـ إلى ذلك المشروع غير الأوراسي الذي تمت صياغته في دوائر المعارضة واتخذ صياغته في أعمال كتّاب «دين» و «ايليمنتي»؛ ففي هذا السياق فقط يتخذ استخدام كلمة الأوراسية تبريره ويكتسب مقبولية المدرسة الجيوبولتيكية الروسية وتطابقه مع المجموع العام للمشاريع الجيوبولتيكية ذات البعد الكوني والموجودة خارج روسيا.

6 ـ 3 نحو ثنائية جديدة للقطبين

تقف الأوراسية الجديدة، إلى جانب تراثها الثقافي والمبادىء العامة للجيوبولتيكا القارية، في مواجهة القضايا الأكثر حداثة والموضوعة في صيغة مشاريع الغرب الجيوبولتيكية الأخيرة. وفضلاً عن ذلك فإن هذا التوجه الجيوبولتيكي يكتسب مغزاه فقط في المستوى الذي يفلح لا في أن يفسّر فقط ومن وجهة النظر الجيوبولتيكية ـ منطق الأحداث التاريخية الجارية، بل وأن يصوغ المشروع المستقبلي المترابط القادر على مواجهة مخططات الغرب.

وانتصار **الغرب** في «الحرب الباردة» يعني من الناحية البنيوية انتهاء ثنائية القطبين وبداية العالم أحادي القطب. وإزاء ذلك إذا كان الأطلسيون الخالصون (هنتينغتون) يفترضون أن هذه الأحادية القطب ستكون نسبية ـ فسيضطر **الغرب** (The West) المنتصر بصفة دائمة لتسوية النزاعات المتنامية بين الحضارات مع «الباقي» (The Rest). فإن العولميين (فوكوياما، أتّالي) يرون الهيمنة الخالية من

المشاكل للغرب على الكوكب الأرضي كله على أنه حدث قد تم فعلاً. حتى إن الصيغة الأكثر تناقضاً والتي يطرحها البروفيسور سانتورو تفترض في النهاية، إقامة **الحكومة العالمية**.

تلك هي مشاريع المنتصرين الجيوبولتيكيين الذين يملكون اليوم الأفضليات التي لا تجادل والمبادرة الاستراتيجية والتي لا بد من أخذها في الحسبان وعلى أعلى المستويات. وهم جميعاً يلتقون عند أمر واحد: على الكوكب الأرضي ـ لا بد وأن تنتصر ـ عاجلاً أو آجلاً العالمية الغربية النمط، أي إن النظام الأطلسي، التالاسوكراتي، للقيم يجب أن يصبح المسيطر في كل مكان. أما العالم الثنائي القطبين العائد لأيام الحرب الباردة فيعد أمراً تم التخلص منه. وبكل بساطة لم يعد للأوراسيا والأوراسية من مكان في مثل هذه اللوحة ـ وهذا كله منطقي وينبثق مباشرة من أعمال الجيوبولتيكيين الانجلوساكسون الأول الذين كانوا يحاولون بكل الوسائل إضعاف قوى **البر** بتدمير قدراتهم وتحجيم تطورهم بمختلف الأساليب الاستراتيجية ـ واستراتيجية «الأناكوندا» بشكل خاص، أي السيطرة المتشددة على مساحات متزايدة من الـ **Rimland**.

والأوراسية الجديدة لا يمكنها ـ وقد بقيت على حالها، الاعتراف بمشروعية مثل هذه الوضعية للأمور ـ وهي مدفوعة لأن تبحث عن إمكانية الدفع بكل هذه العمليات إلى الوراء. وهي تبدأ من المسألة المركزية ـ مسألة القطب الواحد. فالقطب الواحد (سيطرة الأطلسية في أي صيغة كانت ـ سواء في صيغتها المصفّاة أم عبر العولمة) يحكم على الأوراسيا كـ **heartland** بالعَدَم التاريخي. وتصر الأوراسية الجديدة على مواجهة هذه الأحادية القطبية.

ولا يمكن تحقيق ذلك إلا عبر **ثنائية قطبية جديدة**.

وهذا أمر يتطلب الإيضاح. فثمة وجهة نظر تقول إن العالم سينتقل، بعد نهاية المواجهة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، بصفة تلقائية إلى نظام التعددية القطبية. فتبرز الصين ـ والعمليات الديموغرافية ستخرج البلاد الإسلامية جيوبولتيكياً إلى عداد البلدان المركزية، وتعلن منطقة المحيط الهادي عن قدرتها التنافسية مع أوروبا وأمريكا إلى ما هنالك. وهذا كله ممكن ـ لكن ما لا يؤخذ هنا في الحسبان هو أن مثل هذه التعددية الجديدة للأقطاب ستجري تحت راية «النظام

الأطلسي للقيم» أي إنها لن تمثل إلا التنوعات الأقليمية للنظام التالاسوكراتي وليس بأي شكل من الأشكال البديل الجيوبولتيكي الحق. تحدي الغرب، تحدي السوق والليبيرالية ـ الديموقراطية ـ هو شمولي. وبعد هزيمة الـ heartland جردت جميع محاولات الشعوب والدول في السير عبر طريق آخر غير الغربي من قاعدتها الأساسية. والنظم الموالية للسوفيات وجميع دول «عدم الانحياز» المصرّة على سلوك «الطريق الثالث» إنما وجدت على حساب ثنائية القطبين، على حساب الشرخ الذي كان قائماً بين الغرب والشرق في صراعهما الخنادقي الجيوبولتيكي. وسيبدأ **الغرب** المعاصر المنتصر منذ اليوم بإملاء شروطه الإيديولوجية والاقتصادية على كل من يتطلع إلى دور المنطقة المتطورة. ولهذا فإن أي تعددية قطبية إزاء الحفاظ على الواقع القائم ستكون زائفة وعولمية.

وهذا ما يعيه بصورة غير سيئة الاستراتيجيون الغربيون الذين يدركون جيداً أن مهمة **الغرب** الجيوبولتيكية الرئيسية في هذه المرحلة هي الحيلولة دون إمكانية تشكيل معسكر جيوبولتيكي واسع قاري البعد يمكنه بهذه المقاييس أو تلك أن يقارن بقوة الأطلسية. وهذا هو المبدأ الرئيس في المعتقد العسكري السياسي للولايات المتحدة وقد تمت صياغته في تقرير بول ولفوفيتس. وبكلمة أخرى فإن **الغرب** لا يرغب بعد الآن في العودة إلى ثنائية القطبين. وإلا كان ذلك خطراً قاتلاً عليه.

انطلاقاً من مصالح «المحور الجغرافي للتاريخ» تُفترض الأوراسية نقيضاً مباشراً للغرب. والمخرج الوحيد من الوضع المتشكل يمكن أن يكون فقط الثنائية القطبية الجديدة. ففي هذا التوجه وحده يمكن للأوراسية أن تمتلك أفق الاستقلالية الجيوبولتيكية الحق. ويمكن للثنائية القطبية الجديدة وحدها أن تفتح الطريق فيما بعد لمثل هذه التعددية القطبية التي من شأنها أن تتجاوز أطر النظام التالاسوكراتي الليبيرالي ـ الديموقراطي أي لتلك التعددية القطبية الحقيقية في العالم والتي يختار كل شعب فيها وكل معسكر جيوبولتيكي منظومة قيمه الخاصة ويمتلك فرصة وجوده فقط بعد التحرر من الهيمنة الأطلسية العالمية عبر مواجهة كونية جديدة.

ومما له أهميته أيضاً أن المعسكر الأوراسي القاري لا يمكن أن يصبح مجرد إعادة لحلف وارسو. فانهيار البناء الجيوبولتيكي القاري السابق أمر لا عودة فيه، وهو يتجذر في بنيته ذاتها. وعلى الحلف القاري الجديد إما إن يشتمل على أوروبا

كلها حتى الأطلسي بالإضافة إلى عدد من القطاعات الأهم من الشاطىء الجنوبي للأوراسية ـ الهند، إيران، الهند الصينية وما إلى ذلك. وأما أن يضمن الحياد الودّي لهذه البقاع أي أن يخرجها من تحت هيمنة الأطلسية. والعودة إلى الثنائية القديمة غير ممكنة لأسباب كثيرة ـ من بينها الإيديولوجية. والثنائية الأوراسية الجديدة يجب أن تنبثق من منطلقات إيديولوجية مغايرة تماماً وأن تؤسس على مناهج مختلفة كل الاختلاف.

نظرية «الثنائية القطبية» الجديدة هذه لقيت تطويرها الكافي في المشاريع الأوراسية الجديدة إذ كانت الأساس النظري لكافة النظريات الجيوبولتيكية الانشقاقية في أوروبا والعالم **الثالث**. ومثلما يعد الـ heartland من الناحية الموضوعية النقطة الوحيدة التي يمكنها أن تكون جسراً للبديل الكوني للتالاسوكراتيا فإن الأوراسية الجديدة تمثل القاعدة النظرية الوحيدة التي يمكن على أساسها بناء مجموعة كاملة من الاستراتيجيات الشمولية الرافضة للهيمنة العالمية للأطلسية ومنظومتها الحضارية للقيم: السوق، الديموقراطية الليبيرالية، الثقافة العلمانية، فلسفة الفردية وما إلى ذلك.

الباب الثالث

روسيا والمدى

Heartland

تمثل روسيا، من وجهة النظر الاستراتيجية، كتلة قارية هائلة تتماهى مع الأوراسية نفسها. وبعد استصلاح سيبيريا وتكاملها تطابقت روسيا مع مفهوم الـ heartland الجيوبولتيكي أي «الأرض المتوسطة» في القارة. وقد حدّد ماكيندر المدى المكاني الروسي الكبير بأنه «المحور الجغرافي للتاريخ». وتمثل روسيا الناحية الجغرافية وسطحية الأرض، ومن الناحية اللغوية، المناخية، الثقافية والدينية الوحدةَ النسيجية **للغرب** الأوراسي والشرق الأوراسي، ووظيفتها الجيوبولتيكية تؤدي إلى إجمال التوجهات الغربية والشرقية، أو الحديث عنها بالوساطة، فروسيا - شيء ثالث، مستقل وخاص - لا هي **الشرق** ولا هي **الغرب**. وقد تحدث الأوراسيون الروس من خلال تفسيرهم الثقافي للوضع «المتوسط» لروسيا، عن الثقافة الخاصة «**للإمبراطورية المتوسطة**» حيث تُشطب المواجهات الجغرافية والجيوبولتيكية في تركيبها الروحي، العمودي. ومن وجهة النظر الاستراتيجية البحتة تتماهى روسيا مع الأوراسية نفسها، على الأقل لأن أراضيها بالذات وسكانها وتطورها الصناعي - التقني تتمتع جميعاً بالحجم الكافي لتكون أساساً للاستقلالية القارية، للاكتفاء الذاتي ولتصبح أساساً للتكامل القاري التام، وهو ما ينبغي أن يجري، وفق القوانين الجيوبولتيكية، لكل «جزيرة» بما في ذلك «**الجزيرة العالمية**» (World Island) نفسها أي الأوراسيا.

بالنسبة لروسيا - الـ Heartland **تبدو جميع** الدول والأراضي الأوراسية الأخرى **ساحلية** Rimland فروسيا «**محور التاريخ**» ما دامت الحضارة تدور **حولها** مبدعة صيغها الزاهرة، المعبّرة، المكتملة لا في مصبها القاري المبدع للحياة بل في «بقعتها الشاطئية»، في الشريط الحرج، حيث يتجاوز مدى **اليابسة** مع مدى

الماء، البحر أو المحيط. ومن وجهة النظر الاستراتيجية تبدو روسيا بنياناً مكانياً مستقلاً يتماهى أمنه واستقلاليته مع أمن واستقلالية قارة بكاملها. وهذا ما لا يمكن قوله عن أي دولة أوراسية أخرى ـ لا عن الصين، ولا ألمانيا. ولا فرنسا ولا الهند. وإذا كانت الصين، ألمانيا أو فرنسا أو الهند أو غيرها تستطيع، في علاقاتها مع جيرانها الساحليين أو نحو دول «الجزر» أو القارات الأخرى، أن تتصرف كقوة **قارية** فإنها تبقى بالنسبة لروسيا «شريطاً ساحلياً» أو Rimland مع كل التبعات الاستراتيجية، الثقافية والسياسية. روسيا وحدها القادرة على أن تتعرف باسم الـ Heartland بكل حجتها الجيوبولتيكية الكاملة. والمصالح الاستراتيجية الخاصة بها لا تقترب فقط من مصالح القارة بل وتتماهى معها (على الأقل على المستوى الفاعل لتطور المجال التقني).

مشكلة الـ Rimland

علاقة روسيا بالحضارات القارية المجاورة ـ الرومانو ـ جرمانية في **الغرب** والحضارات التقليدية الثلاث في **الشرق** (الإسلامية ـ الهندوسية والصينية) ـ تتسم، على الأقل بمستويين لا يجوز الخلط بينهما بأي حال لأن ذلك يؤدي بصورة حتمية إلى عدد كبير من الارتباكات. أولاً، الجوهر الثقافي ـ التاريخي لروسيا، وخصوصيتها الروحية «وهويتها الذاتية» تُعرّف ـ دون شرط في إطار صيغة «**لاالشرق** ولا **الغرب**» أو «لا أوروبا ولا آسيا بل الأوراسيا» (وفقاً لتعبير الأوراسيين الروس). وروسيا من الناحية الروحية شيء آخر، مستقل وخاص، لا تعبير عنه في مصطلحات الشرق ولا في مصطلحات الغرب. وعلى هذا المستوى فإن المصلحة العليا لروسيا تتمثل في **الحفاظ** بأي ثمن على فرادتها، الدفاع عن خصوصيتها أمام تحدي **الغرب** وتقاليد **الشرق**. وهذا لا يعني الانعزالية التامّة، إلا أنه يحد من أفق الاستعارات الممكنة: والواقعية التاريخية تطالبنا بالاعتراف الشجاع بأن التأكيد على «ما هو خاص بنا، ما هو لنا» يسير متوازناً دوماً مع رفض «ما هو غريب»، «ما ليس لنا». والتأكيد والرفض يمثلان العناصر الأساسية للاستقلالية القومية الثقافية، التاريخية والسياسية للشعب والدولة. ولهذا فإن رفض **الغرب والشرق** في المخطط **الثقافي** يمثل العنصر التاريخي الثابت لاستقلالية روسيا. ومن الطبيعي بالنسبة لهذه القضية أن تكون أشد اللوينات والسجالات اختلافاً ـ فمع الاعتراف بالخصوصية يرى البعض أن من الأفضل الانفتاح على **الشرق** من الانفتاح على **الغرب** («التوجه الآسيوي» ويرى آخرون (الغربيون(*)) عكس ذلك بينما يفضل ثالثون رفض أي نوع

(*) الغربنة: اتجاه في المجتمع الروسي في القرن التاسع عشر. كان يدعو إلى تطور =

من الحوار («الانعزاليون») ويقترح رابعون انفتاحاً متساوي الوتيرة على الجهتين (بعض اتجاهات «الأوراسية الجديدة»).

أما على المستويين الاستراتيجي والجيوبولتيكي المحض فيبدو الوضع مختلفاً تماماً. وبما أن روسيا ـ الأوراسيا في المرحلة التاريخية الحاضرة لا تواجه «عدواً كونياً» في صورة «الحضارات الشاطئية» الـ Rimland بقدر ما تواجه «الجزيرة» المقابلة لها وهي «أمريكا الأطلسية» فإن ما هو استراتيجي وأكثر إلحاحاً تحويل «الأراضي الساحلية» إلى حلفاء لها، التغلغل الاستراتيجي إلى المناطق «الساحلية»، إقامة الحلف الأوراسي العام أو، على الأقل، تأمين الحياد الكامل والصارم لأكبر عدد من الـ Rimland في مواجهة «خنادقية» مع الغرب ما بعد الأطلسي. والصيغة الاستراتيجية لروسيا يجب أن تعني هنا وبمعنى واحد «الشرق والغرب» وذلك لأن التكامل القاري بين الأوراسيا والمركز في روسيا يمكنه، لوحده أن يضمن **لجميع** الشعوب والدول الاستقلالية الحقيقية والحد الأعلى من الاكتفاء الذاتي السياسي والاقتصادي. وعلى المستوى الاستراتيجي ليس فعالاً اليوم إلا هذه المواجهة الواحدة ـ الوحيدة: إما العولمة (الهيمنة العامة للأمركة والأطلسية على العالم) أو القارية (تقسيم الكوكب الأرضي إلى مجالين كبيرين أو أكثر لكل منهما استقلاليته السياسية، العسكرية، الاستراتيجية والجيوبولتيكية). والـ Rimlands ضرورية لروسيا من أجل أن تصبح فعلاً قوة جيوبولتيكية قارية مستقلة. أما في اللحظة الحاضرة، وإزاء التطور الفاعل للتقنيات العسكرية، الاستراتيجية والاقتصادية فلا يمكن أن يكون هناك أي نوع من الاستقلالية غير القارية: فجميع المشاريع «الاتنوكراتية» أو «الانعزالية» المحضة والخاصة بحل المشكلة الحكومية لروسيا في الميدان الاستراتيجي تقدم نتيجة تتطابق بصفة صارمة مع المخططات العولمية وذلك فيما يخص الهيمنة الشمولية على الكوكب الأرضي والاحتلال الاستراتيجي ـ السياسي والاقتصادي الكامل للأوراسيا وروسيا.

= روسيا وفقاً للطريق الأوروبي الغربي، ووقف معارضاً لدعوة السلاڤيانوفيل. وانتقد أتباعه نظرية «الشعبية» وحق القنانة والحكم المطلق. وطرحوا موضوع تحرير الفلاحين والأرض. من أهم ممثليهم ب. أنينكوف، ف. بوتكين، ت. غرانوفسكي، ب. تشاآدايف، ك. كاڤيلين م. كاتكوف وإ. تورغينيف. كان لهم عدد من المنابر الصحفية منها «المعاصر»، «البشير الروسي» و «مذكرات وطنية». (المترجم).

من الواضح أن نقل الاشكالية الثقافية ـ التاريخية لروسيا إلى المستوى الاستراتيجي أو الجيوبولتيكي (أي إسقاط المعنى الجيوبولتيكي المحض على معادلة «**لا الشرق ولا الغرب**») ليس إلا **عملاً تخريبياً سياسياً** موجهاً نحو تضليل استراتيجي للنهج السياسي الخارجي لروسيا. وكائناً ما كان ذلك الذي يثوي في أسس النماذج «الاتنية الضيقة»، «العرقية ـ القومية» أو «الشوفينية» للدولتيّة الروسيّة ـ أهو الجهل، أم السخط أم العمل الواعي ضد الشعب وضد استقلاليته ـ فإن نتائج ذلك هي التماهي الكامل مع الأهداف العولمية. فبدون تحويل روسيا إلى «معزل اتني» لن تستطيع الولايات المتحدة تحقيق الهيمنة **الكاملة** على العالم.

ومشكلة الـ Rimland تُطرح على هذه الصورة بالذات في أيامنا الحاضرة عندما يتبقى وراء ظهورنا كل التاريخ الاستراتيجي للعالم الثنائي القطبين والحرب العالمية الباردة بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة. وفي ذروة الفعالية السياسية للأوراسيين الروس كان الوضع الاستراتيجي مختلفاً بالكلية ـ وما كان قادراً على النظر نحو المستقبل إلا القلائل. ولهذا ينبغي النظر إلى بعض مشاريع الأوراسيين الجيوبولتيكية بحذر. فقد كانوا يناقشون قضية الـ Rimland بصورة أقرب إلى المفهوم الثقافي منه إلى الاستراتيجي. ومن الضروري أخذ هذا كله في الحسبان حتى تتمكن روسيا من وضع برنامج جيوبولتيكي جاد ومؤسس، واقعي وحافل بالأمل يحسن أن توضع على رأس قائمته الأولية الجيوبولتيكية الرئيسة ـ استقلالية روسيا العظمى ـ سيادتها، ذاتيتها، اكتفاؤها الذاتي وحريتها.

تجميع الإمبراطوريّة

أحد المنطلقات الأساسية للجيوبولتيكا هو التوكيد على أن الوضع الجيوبولتيكي للدولة يفوق في الأهمية بكثير خصائص البناء السياسي لهذه الدولة. فالسياسة والثقافة والايديولوجيا وطابع النخبة الحاكمة بل والدين نفسه يُنظر إليها جميعاً في عدسة الجيوبولتيكا على أنها **عوامل مهمة، لكنها ثانوية** بالمقارنة مع المبدأ الجيوبولتيكي الأساسي ـ **علاقة الدولة بالمكان**. وكثيراً ما ينظر (وبخاصة عندنا في روسيا) إلى خاصية الجيوبولتيكا هذه كعلم بنظرة تقترب من «الاستهتار» بل و «العداء للوطن». ومن الطبيعي أن هذا كله غير صحيح. فالجيوبولتيكا ببساطة لا تطمح لأن تكون المرجعية الوحيدة والعليا عند تحديد المصالح الحكومية والسياسية للأمة. الجيوبولتيكا ـ واحدة من عدد من العلوم الأساسية، التي تمكّن، بصورة صحيحة، من صياغة العقيدة العالمية والعسكرية للدولة بالإضافة إلى علوم أخرى لا تقل عنها أهمية. فلكي تكون الفيزياء علماً دقيقاً عليها أن تتجرد من الكيمياء وقوانينها (وهذا لا يعني أن الفيزياء ترفض الكيمياء)، وهكذا الجيوبولتيكا فلكي تكون علماً صارماً يجب عليها أن تتخلص من المقاربات الأخرى غير الجيوبولتيكية، والتي يمكن بل ويجب أن تؤخذ في الحسبان عند اتخاذ القرارات النهائية المتعلقة بمصير الدولة والشعب مضافة إلى الجيوبولتيكا.

وأحد المطالب الجيوبولتيكية الأكثر إلحاحاً بالنسبة لروسيا هو «تجميع **الإمبراطورية**». ومهما كانت علاقتنا بـ «اشتراكية» «الاتحاد السوفياتي» بالمعسكر الشرقي، بدول حلف وارسو وما إلى ذلك، وبأي صورة من الصور قيمنا الواقع السياسي والثقافي لاحدى الدولتين العظميين فمن وجهة النظر الجيوبولتيكية كان

وجود المعسكر الشرقي يعني في الوقت نفسه العامل الايجابي لاحتمال قيام الوحدة الأوراسية من أجل التكامل القاري واستقلالية **مدانا المكاني الكبير** فالمنطق الجيوبولتيكي هو الذي جعل المنظّر البلجيكي جان تيريار يتحدث عن ضرورة إقامة «الإمبراطورية الأورو ـ سوفياتية من فلاديفوستوك إلى دوبلن» فالمعسكر الشرقي وحده كان قابلاً ليكون الأساس لتوحد الأوراسيا في امبراطورية، علماً بأن تقسيم أوروبا ولا منطقية السياسة السوفياتية في آسيا كان عائقاً جدياً في وجه تحقيق هذا الهدف. وقد كان انهيار الاتحاد السوفياتي وفق رأي عدد كبير من علماء الجيوبولتيكا المعاصرين مشروطاً إلى حد كبير بانكشاف الجراح الاستراتيجية على الحدودين الغربية والشرقية ـ كانت الولايات المتحدة تهيمن على Rimland **الغرب والشرق** بدرجة من المهارة والمنطق إلى درجة أنها لم تسمح بالتكامل القاري وساعدت على انهيار المعسكر الشرقي نفسه. ونهاية العالم الثنائي القطبين ـ هي الضربة الاستراتيجية للأوراسيا، ضربة للاستقلال القاري وللاستقلال المحتمل **لجميع** دول الأوراسيا.

إن الأولية الملحة للاستقلالية الجيوبولتيكية والاستراتيجية لروسيا لا تتحدد بإعادة المناطق المضيعة، «الخارج القريب» فقط، وليس فقط في بعث علاقات التحالف مع دول أوروبا الشرقية بل وأيضاً في تعزيز إدخال دول **الغرب** القاري (وبالدرجة الأولى المعسكر الفرانكو ـ جرماني الذي يتطلع إلى التحرر من الرعاية الأطلسية للناتو المناصر لأمريكا) والشرق القاري (إيران ـ الهند واليابان) في الحلف الأوراسي الاستراتيجي الجديد.

و«تجميع الإمبراطورية» في مفهومه الجيوبولتيكي لا يعد بالنسبة لروسيا واحداً من الطرق المحتملة للتطور فقط بل واحداً من العلاقات الممكنة للدولة نحو المدى المكاني بل والضمانة والشرط اللازم لوجود الدولة المستقلة، وفوق ذلك ـ **الدولة المستقلة في القارة المستقلة.**

وإذا كانت روسيا لن تبدأ على التو بإعادة بناء المجال المكاني الكبير أي بإعادة تلك الآماد الأوراسية المضيّعة ضمن مجال تأثيرها الاستراتيجي فإنها تلحق الكارثة بنفسها وبجميع الشعوب القاطنة في **الجزيرة العالمية.**

ويمكن بسهولة استشراف مسيرة الأحداث. فإذا ما اختارت روسيا طريقاً آخر غير «طريق تجميع **الإمبراطورية**» فإن دولاً أخرى أو تحالفات دول ستتبنّى رسالة الـHeartland القارية. وفي هذه الحالة تغدو الآماد الروسية هدفاً استراتيجياً أساسياً لتلك القوى التي تعلن نفسها «قلعة الأوراسيا» الجديدة. فإما أن تقوم الصين بقفزة يائسة باتجاه **الشمال** ـ نحو كازاخستان **وسيبيريا الشرقية**، أو **تتحرك أوروبا الوسطى** باتجاه الأراضي الروسية ـ الغربية ـ نحو أوكرانيا، بيلوروسيا، روسيا الكبرى الغربية، أو يقوم المعسكر الإسلامي بمحاولة التكامل مع **آسيا الوسطى**، منطقة الفولجا والأورال بالإضافة إلى بعض مناطق روسيا الجنوبية. ومن المستحيل تلافي مثل هذا التكامل القاري الجديد لأن الخارطة الجيوبولتيكية الكونية نفسها تقف في مواجهة الأطلسية الأحادية القطب. وثمة في الجيوبولتيكا قانون مقدس مشروع يقول: «المكان المقدس لا يخلو» ويجب القول إن ما يدفع إلى تفعيل التحركات الأوراسية الأخرى باتجاه الأراضي الروسية لن يكون «الأنانية الإقليمية» ولا «كراهية الروس» بل منطقية المدى المحتومة والسلبية الجيوبولتيكية من طرف روسيا. وفي أجواء الاستراتيجية القارية يكون من الغباء توقع أن تتوقف الشعوب الأخرى أمام التوسع الإقليمي باتجاه الأراضي الروسية فقط بسبب الاحترام لـ«أصالة الثقافة الروسية» ففي هذا الميدان لا تتحرك إلا الحوافز المرتبطة بالقوة وبمساحة الأرض وبالأفضليات في المواقف، بل إن مجرد حقيقة التردد في موضوع «تجميع **الإمبراطورية**» يعد تحدياً كافياً ـ أساساً كافياً لتقوم الآماد الجيوبولتيكية البديلة الكبرى بالتحرك باتجاه الحدود الروسية. ومن الطبيعي أن يستدعي ذلك ردة فعل الروس وأن يجر وراءه نزاعاً أوراسياً بشعاً لا مستقبل له، فهو بلا مستقبل لأنه لن يحظى بالحل الإيجابي حتى من الناحية النظرية، فإقامة أوراسيا غير روسية تستلزم إبادة كاملة للشعب الروسي وهذا أمر ليس من السهولة بمكان ـ بل ويؤكد التاريخ على أنه مستحيل. ومن ناحية أخرى فإن مثل هذا النزاع سيفتح خط جبهة بين دول متجاورة ذات توجه قاري معاد للأطلسية، وهو ما لا يزيد على أن يعزز مواقع القوة الثالثة أي الولايات المتحدة وحلفائها في المشاريع العولمية.

إن انتفاء الفعل، نوع من الفعل نفسه، والتباطؤ في «تجميع **الإمبراطورية**» (هذا إذا صرفنا الحديث عن الرفض الممكن لتوسع روسيا الجيوبولتيكي سيجر وراءه بصورة حتمية سيولاً من الدماء الأوراسية. والأحداث في البلقان تقدم مثالاً

مرعباً لما يمكن أن يحدث في روسيا ولكن ضمن أحجام أعظم إلى حدود لا يمكن قياسها.

إن توحيد الأراضي الروسية تحت حماية روسيا كـ«**محور التاريخ**» محفوف اليوم بصعوبات محدّدة إلا أن هذه الصعوبات زهيدة جداً أمام تلك الكوارث التي تحْدق إذا لم يجر البدء بـ«**تجميع الإمبراطورية**» في أسرع وقت.

البحار الدافئة والباردة

عملية «تجميع **الإمبراطورية**» ينبغي أن تتوجه منذ بدايتها نحو غاية بعيدة وهي انفتاح روسيا على البحار الدافئة. فبفضل كبح التوسّع الروسي في الاتجاهات الغربية، الجنوبية الغربية، والشمالية الغربية بالذات، تمكنت انجلترا الأطلسية من الاحتفاظ بهيمنتها على جميع «الآماد الشاطئية» المحيطة بالأوراسيا. ومن الناحية الجيوبولتيكية كانت روسيا دولة «مكتملة» في **الشرق والشمال** حيث تطابقت حدودها السياسية مع الحدود الجغرافية الطبيعية للبر الأوراسي. لكن المفارقة تتمثل في كون هذه السواحل تتلاصق بالبحار **الباردة** وهو ما يشكل حاجزاً منيعاً دون تطوير الملاحة البحرية في المستوى الذي يمكن به بصورة جادة القيام بالمنافسة على البحار التي ترفع راية **الجزيرة الغربية** (انجلترا، ثم أمريكا فيما بعد). ومن ناحية أخرى فإن الأراضي الروسية، الشرقية والشمالية لم يجر استثمارها بصورة كافية بسبب من خصائص طبيعية وثقافية، وكافة المشاريع المتعلقة بتكامل آسيا الروسية ـ بدءاً من تلك التي اقترحها الدكتور بادمايف على الإمبراطور الأخير وحتى خط بايكال ـ أمور المرتبط ببريجنيف ـ تم تدميرها بفعل منطقية محيّرة ما وتحت تأثير الجوائح التاريخية، العفوية منها والمقصودة.

ومهما يكن من أمر فإن إيجاد مخرج على البحار الباردة في الشمال والشرق يجب أن يُتَّمم بالانفتاح على البحار الدافئة في الجنوب والغرب، وفي هذه الحالة فقط تصبح روسيا «مكتملة» من الناحية الجيوبولتيكية، وفي سبيل ذلك دارت الحروب الروسية ـ التركية الوفيرة الأعداد والتي على فكرة، ما جنى ثمارها الترك ولا الروس، بل الإنجليز الذين أراقوا دماء الإمبراطوريتين التقليديتين الأخيرتين من بين الإمبراطوريات الثلاث (الثالثة هي ـ إمبراطورية النمسا والمجر). أما الاندفاعة

الأخيرة نحو الجنوب الذي يمثل ضرورة حياتية لروسيا فكان التوسع الفاشل للاتحاد السوفياتي نحو أفغانستان. والمنطق الجيوبولتيكي يظهر بنفس المعنى بأنه سيكون حتماً على روسيا أن تعود إلى هناك على الرغم من أنه كان أفضل بكثير أن تعود في صورة حليف وفيّ، حام وصديق، من أن تعود في صورة جلاد غليظ القلب. وآنذاك فقط وعندما يصبح الخط الساحلي حدوداً جنوبية وغربية لروسيا يمكن الحديث عن الاكتمال النهائي لبنيانها الاستراتيجي. وليس ضرورياً إزاء ذلك أن يدور الحديث حول الفتوحات والتوسع وعمليات الإلحاق فالحلف الاستراتيجي المكافىء، القوي، المعادي للأطلسية، المعقود مع الدول القارية، الأوروبية منها والآسيوية، يمكن أن يكون كافياً لتحقيق هذا الهدف. والخروج إلى البحار الدافئة يمكن التوصل إليه ليس فقط عن طريق الحرب الدامية، بل ومن خلال سلام عقلاني مفيد للمصالح الجيوبولتيكية لجميع الدول القارية، لأن مشروع التكامل الاستراتيجي الأوراسي سيمكن **جميع** تلك الدول من أن تكون حرة ومستقلة أمام **الجزيرة** الأطلسية البديلة والتي وحّدها بدورها مبدأ مونرو الاستراتيجي. كانت الخلجان والبحار الدافئة محظورة على روسيا عندما لم يكن قد وجد بعد ذلك العامل الأطلسي الواضح، الولايات المتحدة، الذي يهدد مصالح أوروبا بأسرها وآسيا بأسرها وعندما كانت الدول الكبرى المختلفة في البر تنافس إحداها الأخرى على الأولوية في مواجهة إنجلترا وعلى القيادية في قضية الوحدة الترابية الاستراتيجية. لقد سلّط تطبيق مبدأ مونرو الضوء على مجموع الأهمية الجيوبولتيكية لروسيا ولهذا صار الاتحاد مع روسيا الثابت الملحّ الواضح بالنسبة لجميع علماء الجيوبولتيكا الواقعيين في القارة ـ مهما كان اللبوس السياسي الذي يلبسونه تبعاً للظروف، وخطر العولمة والشمولية الأطلسية يفتح لروسيا، من الناحية النظرية، منفذاً إلى البحار الدافئة عبر الحلف الذي يفرض نفسه بنفسه بين الـHeartland والـRimland ضد المحتلين القادمين من وراء البحار.

الباب الرابع

مستقبل روسيا الجيوبولتيكي

استحقاقية البديل الجذري

يطرح في مجتمعنا الحالي مشروعان مبدئيان يختصان بالمستقبل الروسي. وهما يلمسان، بهذه الدرجة أو تلك، كافة نواحي الحياة ـ القومية ـ الاقتصادية ـ الجيوبولتيكية وميدان العلاقات الدولية، المصالح الاثنية، التركيبة الصناعية، النمط الاقتصادي، البنية العسكرية وما إلى ذلك.

يعود المشروع الأول لليبيراليين الراديكاليين، «الإصلاحيين» الذين يتخذون مثلهم الأعلى المجتمع الغربي، «البناء التجاري» المعاصر، ويوقعون بأسمائهم بصفة كلية تحت المشاريع المتعلقة بـ«نهاية التاريخ» والتي جرى تطويرها في مقالة فرانسيس فوكوياما التي تحمل نفس العنوان وهذا المشروع يرفض تلك القيم المسماة بالشعب، الأمة، التاريخ، المصالح الجيوبولتيكية، العدالة الاجتماعية، العامل الديني وما إليها. ويقام كل شيء فيه على مبدأ الفعالية الاقتصادية القصوى، أولوية الفردانية، الاستهلاك و«السوق الحر». والليبراليون يريدون أن يُحلّوا في مكان روسيا مجتمعاً جديداً لم يسبق له وجود من الناحية التاريخية تقام فيه تلك القواعد والإحداثيات الثقافية التي يعيش عليها الغرب المعاصر وبخاصة الولايات المتحدة الأمريكية. ويمكن لهذا المعسكر أن يصوغ بكل سهولة الإجابة على أية أسئلة تتعلق بهذه الزاوية أو تلك من الواقع الروسي انطلاقاً من النماذج الجاهزة في الغرب، مستخدماً المصطلحات الليبرالية الغربية والمعايير الحقوقية ومعتمداً، فضلاً عن ذلك، على البنى النظرية التي أعدتها الليبرالية ـ الرأسمالية ككل. وكاد هذا الموقف أن يهيمن إيديولوجياً، ومنذ فترة غير بعيدة، على مجتمعنا، بل إنه لا يزال يمثل في أيامنا الحاضرة بالذات الموقف الأكثر شهرة لأنه يتطابق في عمومه مع المنحى العام للاصلاحات الليبرالية ولمنطقها المبدئي.

أما المشروع الثاني للمستقبل الروسي فيعود إلى ما يسمى بـ«المعارضة القومية ـ الوطنية» التي تمثل واقعاً سياسياً متعدد الأشكال متباين الوجوه، يوحد بينها رفض الاصلاحات الليبرالية والإعراض عن المنطق الليبرالي الذي يدعو له الاصلاحيون. وهذه المعارضة لا تبدو قومية ببساطة ولا وطنية ببساطة ـ إنها «وردية ـ بيضاء» أي يسيطر فيها ممثلو الشيوعيين الدّولتيين (ممن تخلوا بدرجة كبيرة عن العقائدية الماركسية ـ اللينينية المتشددة)، وأنصار الأرثوذوكسية ـ الملكية ذات النمط القيصري للحكم، لكن التشابه قائم بينهما ليس فقط في تحديد العدوّ المشترك، بل وفي بعض القوالب الإيديولوجية العقلية التي يتقاسمونها فيما بينهم وفضلاً عن ذلك تتكون «المعارضة» الوطنية في غالبيتها من شخصيات نظام ما قبل البيريسترويكا، ممن يقحمون عناصر العقلية السوفياتية الصرفة حتى في «المشاريع القيصرية»، «البيضاء» التي ما كانوا يمتّون إليها، في أغلب الأحيان بأي صلة تاريخية، أسرية، أو سياسية حتى بداية البيريسترويكا، فهم يحسّون بأنفسهم إحساساً رائعاً في الواقع البريجنيفي. ومهما يكن من أمر فمشروع المعارضة يمكن أن يسمى بالمشروع «السوفياتي ـ القيصري» لأنه يقوم على عدد من المفاهيم القديمة الإيديولوجية والجيوبولتيكية والسياسية، الاجتماعية والإدارية التي تقرب فيما بينها، من الناحية الموضوعية، المرحلة السوفياتية وما قبل السوفياتية (على الأقل في إطار القرن العشرين). وإيديولوجيا الوطنيين أشد تناقضاً وتضارباً من البنى المنطقية والمكتملة الصياغة لليبراليين، ولهذا فهي كثيراً ما تتجلى لا في صيغةٍ نظرية أو مقولة متكاملة بل متناثرةً عاطفية، غير مدروسة، مجزوءة، فإن هذا الخليط الساخر من النثرات السوفياتية ـ القيصرية العقلية يتميّز بشيء من التماسك الذي تصعب، في كثير من الأحيان، صياغته بطريقة عقلانية.

ومن الناحية الجوهرية يتخذ كلا هذين المشروعين ـ الليبرالي والسوفياتي ـ القيصري **طالباً مأزقياً** بالنسبة للشعب الروسي وللواقع الروسي. فالمشروع الليبرالي يفترض على العموم محواً تدريجياً للخصائص القومية للروس في المرحلة الكوسموبولتيكية لـ«نهاية التاريخ» و«السوق الكونية»، أما المشروع السوفياتي ـ القيصري فيحاول جاهداً بعث الأمة والدولة في نفس تلك الصيغ والبنى التاريخية التي أودت بالروس تدريجياً إلى الإفلاس.

وعلى الجانب الآخر من ليبرالية «الإصلاحيين» و«المعارضة الموحدة»

للسوفياتية، القيصرية ينضج الطلب الملح لإيجاد «الطريق الثالث» لمشروع إيدَيولوجي خاص، ليس توفيقياً ولا «وسطاً» بين أولاء وهؤلاء، بل خطة مستقبلية تجديدية تقطع أي علاقة مع منطق الازدواجية العقيم - «إما الليبراليون وإما «المعارضة» - حيث يهيم - كما في المتاهة ودون أن يجد مخرجاً، الوعي الاجتماعي المعاصر لدى الروس.

يجب قطع عقدة غورديوس(*) وفرض البديل الحق الذي يعارض أولئك وهؤلاء. فعلى الخارطة تُعرض أمةٌ عظيمة، مصالحها ومصيرها.

(*) عقدة غورديوس: تقول الأسطورة اليونانية إن غورديوس، ملك فريجيا كان قد شد عريش مركبة برباط ضخم بالغ التشابك سمي بعقدة غورديوس وتنبأ العرافون بأن من يحلها يملك العالم. فأعجز ذلك الكثيرين حتى جاء الاسكندر المقدوني فحلها بضربة من سيفه (سنة 334ق.م) وهكذا صار قطع عقدة غورديوس يعني الحل الحاسم السريع لمسألة معقدة (المترجم).

الفصل الثاني 2

ما هي «المصالح القومية الروسيّة»

2 ـ 1 ليس للروس دولة الآن

في الوضع السياسي الحالي، يستحيل علينا، إذا ما تحدثنا بدقة، أن نتأمل في «الآفاق الاستراتيجية لروسيا». والأشد استحالة من ذلك أن نطرح أية مشاريع تتعلق بالسياسة الخارجية والداخلية لروسيا ما دام السؤال الرئيسي ـ **ما هي روسيا** اليوم؟ يبقى لا دون حل فقط بل ودون أن يطرح بما يستحقه من جديّة.

إن التحولات المندفعة في مجموع التكوين السياسي، الجيوبولتيكي، الإيديولوجي والاجتماعي، والتي حدثت في الاتحاد السوفياتي السابق، قلبت رأساً على عقب كافة المعايير الحقوقية والسياسية التي كانت قائمة. وانهيار النظام الاشتراكي الأوحد، والدولة السوفياتية من بعده، أقام على الأراضي السوفياتية السابقة حقلاً من اللامحدودية المطلقة لم تعد فيه أية توجهات واضحة ولا أية أطر حقوقية صارمة، ولا أية آفاق اجتماعية محدَّدة. وتلك البُنى الجيوبولتيكية التي تكونت «بطريقة آلية» بفعل عملية التسارع بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، طارئة، عارضة وبعيدة كل البعد عن الاستقرار. وهذا لا ينسحب فقط على الجمهوريات المنفصلة عن موسكو، بل وبالدرجة الأولى على روسيا نفسها.

ولبناء الخطط المتعلقة بـ«مصالح الدولة» علينا أن نملك تصوراً واضحاً عن الدولة التي يدور الحديث حولها بالذات. وبكلمة أخرى، فإن هذا يكتسب معناه عند وجود موضوع سياسي واضح الرؤية. وفي الوضع الراهن فإن مثل هذا الموضوع **لا وجود له** في الحالة الروسية.

من الواضح أن وجود روسيا، التي تفهم على أنها الفيدرالية الروسية (ف.ر) لا يَستجيب لأية معايير جادة عند تحديد وضع «الدولة». والهذيان المتعلق بتقييم وضع الفيدرالية الروسية في السياسة العالمية إنما هو بالذات الدليل على هذا الوضع للأمور. فما هي الفيدرالية الروسية. أهي وريثة الاتحاد السوفياتي وخليفته الحقوقية؟ أهي دولة جهوية؟ دولة متعددة القوميات؟ فيدرالية متعددة الاتنيات؟ جندرمة الأوراسيا؟ بيدق في المشاريع الأمريكية؟ أراض مكرّسة للتقسيم في المستقبل؟ انطلاقاً من شروط معينة تلعب الفيدرالية الروسية واحداً من هذه الأدوار بغض النظر عن التناقض المطلق في هذه التحديدات. فهي في لحظة من اللحظات ـ دولة ذات تطلع إلى دور خاص في السياسة العالمية، وهي في لحظة أخرى ـ دولة جهوية ثانوية الأهمية، وفي ثالثة ـ هي حقل للتجارب الانفصالية. وإذا كان لتشكل إقليمي سياسي أن يلعب بمفرده جميع هذه الأدوار في وقت واحد فمن الواضح أن الحديث يدور حول خاصية اشتراطية ما، حول عَظَمةٍ متبدلة، لا عن ذلك الحدث السياسي الخارق الكامل الراسخ الذي يمكن تسميته بالدولة بكل ما في الكلمة من معنى.

الفيدرالية الروسية ليست روسيا، ليست الدولة الروسية الكاملة الشخصية، إنها تشكل انتقالي في عملية جيوبولتيكية شمولية ديناميكية واسعة لا أكثر من ذلك. ومن الطبيعي أنه يمكن للفيدرالية الروسية أن تكون الدولة الروسية في المستقبل، لكن ليس من الواضح على الاطلاق أن ذلك سيحدث، كما أن من غير الواضح ما إذا كان ذلك يستحق السعي من أجله.

وعلى أية حال فإن من المستحيل الحديث على الأمد الطويل عن «المصالح الاستراتيجية» لمثل هذه الظاهرة المؤقتة غير المستقرة، كالفيدرالية الروسية، والأدهى من ذلك أن من الغباء صياغة «المبدأ الاستراتيجي للفيدرالية الروسية»، من غير الممكن الحديث عن آفاق بعيدة بالتأسيس على وضع الأمور في العصر الحاضر. فلا يمكن «للمصالح الاستراتيجية للفيدرالية» الروسية أن تتضح وترتسم ويتحدد الموضوع السياسي، الاجتماعي، الاقتصادي والإيديولوجي لهذه المصالح، وبما أن ذلك لم يحدث بعد فإن كافة المشاريع في هذا الاتجاه تبدو في اللحظة الراهنة وهماً.

وليس للفيدرالية الروسية تاريخ دولة، حدودها جاءت بالصدفة، توجهاتها

الثقافية غامضة ونظامها السياسي متذبذب ـ رجراج، لوحتها الاتنية متنوعة، أما بناؤها الاقتصادي فمجزوء ومتفسخ إلى حد ما. وهذا الخليط ليس إلا نتيجة لانهيار تشكل جيوبولتيكي أكثر عالمية، جزيئة اقتطعت من لوحة متكاملة. وحتى من أجل أن يقام على هذا الهيكل من **الإمبراطورية** شيء راسخ البنيان سيحتاج الأمر إلى ثورة حقيقية شبيهة بثورة الشبان الأتراك الذين أقاموا من جزء من **الإمبراطورية العثمانية** تركيا العلمانية المعاصرة، (على الرغم من أن سؤالاً ينبثق في هذه الحالة أيضاً ـ وهل يستحق ذلك السعي من أجله؟).

وإذا كانت الفيدرالية الروسية ليست الدولة الروسية فإن مجموعة الدول المستقلة ليست إياها أيضاً. وعلى الرغم من أن جميع أراضي مجموعة الدول المستقلة (باستثناء ما نَدَر) كانت من الناحية العملية ـ تدخل في عداد الإمبراطورية الروسية، أي إنها كانت في وقت ما جزءاً من الدولة الروسية، فإن دول هذه المجموعة تملك في اللحظة الراهنة مستوى كافياً من الاستقلال الذاتي وتعد من الناحية الحقوقية تشكيلات سياسية مستقلة. ويمكننا بالنسبة لهذه الدول أن نؤكد (وعلى أساس راسخ) كل ما ذكرناه حول الفيدرالية الروسية ـ ليس لهذه التشكيلات أية مظاهر جادة للحكومية الأصيلة، وهي مجردة من خصائص الاستقلالية الحقة وأقرب إلى «العملية الإقليمية» منها إلى الوحدات الجيوبولتيكية المحدَّدة الراسخة. وحتى لو صرفنا النظر عن الروح القومية المتنامية لمجموعة الدول المستقلة، والتي كثيراً ما تتخذ اتجاهاً معادياً لروسيا فمن الشظايا غير الثابتة والمتناقضة في ذات نفسها يستحيل تشكيل لوحة متناغمة. وقد أورد الجيوبولتيكي البلجيكي جان تيريار بهذه المناسبة مقارنة دقيقة إذ قال: «**كان الاتحاد السوفياتي شبيهاً بلوح من الشوكولاته، حزت فوقه حدود الجزيئات ـ الجمهوريات. وعندما تفتتت هذه الجزيئات لم يعد كافياً ضمها إلى بعضها لإعادة اللوح بكامله إلى ما كان عليه. فلا يمكن التوصل إلى ذلك الآن إلا عن طريق إعادة صهر اللوح كله وإعادة طبعه**».

«المصالح الاستراتيجية للفيدرالية الروسية» ـ إنها نفس الصيغة الكلامية الفارغة في عبارة المصالح الاستراتيجية لمجموعة الدول المستقلة». ولهذا علاقة غير مباشرة بـ«المصالح الاستراتيجية للروس».

2 ـ 2 مقولة «مشروعية ما بعد الإمبراطورية»

بغض النظر عن لا وجود الدولة الروسية بالمعنى الكامل، فإن ثمة مبادىء حقوقية معينة تعمل على مجموع المدى ما بعد السوفياتي الذي تتأسس عليه ردة الفعل الغربية على هذا أو ذاك من تصرّفات الفيدرالية الروسية، كما يتأسس عليه المنطق الحالي لخطوات القيادة الروسية. وهذه المبادىء بالذات هي التي تحمي، للوهلة الأولى، الفيدرالية الروسية ومجموعة الدول المستقلة من الفوضى الشاملة. والحديث يتناول مبدأ «المشروعية ما بعد الإمبراطورية». ولكي نفهم حقيقة العمليات الجيوبولتيكية الحالية في الأوراسيا لا بد لنا من أن نعرض باختصار منطلقات النظرية المطروحة.

«المشروعية ما بعد الإمبراطورية» هي مجموعة الأقيسة الحقوقية شديدة الارتباط المباشر بالمرحلة السابقة للتطور السياسي للمنطقة، أي بـ«المشروعية الإمبراطورية» (legacy of empire) فالإمبراطورية (على الأقل «العلمانية»، الليبرالية ـ أو الاشتراكية) تسترشد في أغلب الأحيان، بالنسبة للبناء الترابي لمستعمراتها، بملامح إدارية واقتصادية صرفة غير واضعة في الحسبان العوامل الاتنية ولا الدينية ولا القومية. فالحدود الإدارية كيفيّةٌ إلى حد كبير ضمن إطار الإمبراطورية، وما وضعت إلا لتسهيل السيطرة المركزية للمتروبول. والإمبراطورية خلال مراحل وجودها تجبر الدول الأخرى على الاعتراف بنظامها الإداري الداخلي نظاماً شرعياً. ولكن عند انهيار **الإمبراطورية** تظهر دوماً «مناطق اللامحدودية الحقوقية»، إذ تكف عن الوجود تلك البنية التي نسقت من الناحية الحقوقية وضع جزيئاتها المكونة لها.

وفي عملية التحولات «ما بعد الاستعمارية» صيغ النظام الحقوقي ـ الدولي الذي استقر في أساس تصنيف مشروعية ولا مشروعية التكوينات الترابية ـ السياسية. وهو نظام «مشروعية ما بعد الامبراطوريّة». ومؤداه أنه على الرغم من غياب الإمبراطورية كأمر كلي فإن مكوّناتها الإدارية البحتة تكتسب وضعاً حقوقياً بغض النظر عما إذا كان التشكيل المعطى يستجيب لمتطلب الدولة الكاملة الأهلية أم لا. وفي أساس هذه النظرة تأوي الفكرة الليبرالية العلمانية المتعلقة بتعسّفية أي تشكيل حكومي كحدث تاريخي عابر. ووفقاً لهذا المنطق تبدو العناصر المكونة، الاتني منها والديني والثقافي والاجتماعي طفيفة الأهمية أو عديمة القيمة لأن

السكان يُؤخذون هنا على أنهم مجموعة بسيطة من وحدات اقتصادية ـ إحصائية. وتنعكس في هذا قوة الاستمرار في المقاربة «الامبراطورية»، «الاستعمارية» التي درجت على اعتبار «المستعمرات» و «الأطراف» أمراً ثانوياً عديم القيمة، أمراً «إضافياً» في إطار السياق العام.

وكقاعدة عامة فإن «التشكيلات ما بعد الإمبراطورية» لا تغدو أبداً «أو أبداً على وجه التقريب» دولاً كاملة الأهلية بل تواصل وجودها في صورة توابع اقتصادية ـ سياسية للمتروبول السابق (أو الجديد). والصفوة الحاكمة فيها هي دوماً على وجه التقريب الوريث المباشر (وغالباً ما تكون الصنيعة) للإدارة الاستعمارية، أما الاقتصاد فيرتبط بكامله بالعوامل الخارجية وأما النمط السياسي ـ الاجتماعي فيتكيّف وفقاً لأنموذج المركز السابق. وبقاء مثل هذه «المشروعية ما بعد الإمبراطورية» كثيراً ما يؤدي إلى أن يقوم الاتنوس الأصلي نفسه باستيطان أراضي الدول بعد الإمبراطورية المختلفة بينما تعيش في إطار الدولة الواحدة عدة مجموعات إتنية ودينية. ومن الناحية الواقعية لا يتعزز التوازن النسبي للمصالح في أمثال هذه الحالات إلا عن طريق اللجوء إلى العامل الخارجي ـ وفي غالب الأحيان إلى العون الصريح أو المستتر من طرف المتروبول السابق (أو تلك الدولة المتطورة التي تأتي بديلاً عنه). ومن الأمور ذات الدلالة أن الكونغرس **البانأفريقي** في المراحل المتأخرة من تحرير، أفريقيا قد قرر تطبيق مبدأ «المشروعية ما بعد الإمبراطورية» بالذات في كافة الدول التي تكونت من جديد، على الرغم من أن عدداً كبيراً من الشعوب الإفريقية الكبرى ـ وبخاصة البانتو والزولو وغيرهما ـ ألفت نفسها تعيش في دولتين أو ثلاث دول دفعة واحدة. وجرى ذلك تحت ذريعة تجنب الحروب الاتنية، بين القبلية والدينية. أما في واقع الحال فكان الحديث يدور حول تطلعات رؤساء الإدارة ما بعد الامبريالية إلى الحفاظ على النُخب المصطنعة في السلطة دون السماح بصنع ممثلين جدد للتراتبية الوطنية العضوية، وذلك من خلال عملية المد القومي. وبالأخذ بالاعتبار تخلف أفريقيا الاجتماعي ـ الاقتصادي وغياب التقاليد الحكومية الحياتية الطازجة فقد تم استغلال هذه الرؤية بطريقة ناجحة إلى حد بعيد.

ومبدأ «المشروعية ما بعد الإمبراطورية» يطبق اليوم على البلدان التي ظهرت على أنقاض الاتحاد السوفياتي. ففي «الجمهوريات الاتحادية» السابقة وفي كل

مكان تقريباً يقف على رأس السلطة ورثاء «الإدارة الاستعمارية»، شظايا البنية الإدارية التي فتتت أجزاء، والتي تكونت بكاملها في السياق الإمبراطوري السوفياتي. وهذه الصفوة مغرّبة عن التقاليد القومية ـ الثقافية لشعوبها وموجهة بقوة الاستمرار للحفاظ على الارتباط الاقتصادي ـ السياسي بالمتروبول. والاستثناء الوحيد هو أرمينيا حيث جرى خرْق منطق «الشرعية ما بعد الإمبراطورية» (في حالة ناغورني كاراباخ) وحيث تملك القوى القومية السياسية المجردة طبقاً لذلك وزناً أكبر مما هو عليه في كافة مجموعة الدول المستقلة جميعاً. وأرمينيا، فضلاً عن ذلك، هي الجمهورية الفريدة، الوحيدة الاتنية بين بلدان مجموعة الدول المستقلة.

وللوهلة الأولى، قد يتولد الانطباع بأن مبدأ «المشروعية ما بعد الإمبراطورية» يلعب لصالح الفيدرالية الروسية وموسكو، لأنه يوحد المنطلقات الأساسية للمحافظة على تأثير الفيدرالية الروسية في «عالم الخارج القريب» وييسّر العلاقات السياسية ـ الاقتصادية مع الجيران الجغرافيين. بيد أن الأمر يبدو في واقع الحال أكثر تعقيداً. فكما هو الأمر في حالة «تصفية الاستعمار» لبلدان العالم **الثالث** يؤدي انهيار **الإمبراطورية** إلى إضعاف القدرة الجيوبولتيكية للمتروبول، وينتقل قسم من المستعمرات والدومينيونات إلى السيطرة غير المرئية لدولة أخرى أشد قوة تستخدم نظام «المشروعية ما بعد الإمبراطورية» لصالح أهدافها الخاصة. والمثال الأوضح على ذلك هو ـ الولايات المتحدة التي أخضعت لسيطرتها، من الناحية العملية، غالبية المستعمرات الإنجليزية، الاسبانية، الفرنسية والهولندية السابقة خلال عملية «تصفية الاستعمار». وعلى هذا فبدلاً من «الإدارة الاستعمارية» بعد السوفياتية يمكن أن يحل في بلدان مجموعة الدول المستقلة (وتحلّ) «إدارة استعمارية» أخرى تستخدم البنى الاصطناعية القائمة لصالح أهدافها الخاصة.

ومن جهة فإن «المشروعية ما بعد الإمبراطورية» تضع الفيدرالية الروسية نفسها في صف واحد مع الدول في مجموعة الدول المستقلة حالما يتم بصورة كاملة تجاهل المصالح القومية ـ الثقافية والدينية والاتنية **للشعب الروسي** الواقع تحت المعايير التجريدية للحق «بعد الإمبراطوري» الإداري المحض والمتناثر في تشكيلات شبه حكومية غريبة وقومية زائفة. إن أشلاء الإدارة الإمبراطورية في إطار الفيدرالية الروسية (الجهاز الحزبي ـ البيروقراطي) تبدو، بالنسبة للسياق القومي للروس، على درجة من الغرابة، بقدر ما هي غريبة في الجمهوريات الأخرى،

وذلك لأن نظام **الإمبراطورية** نفسه أقيم على مبادىء أخرى، إدارية واقتصادية صرفة، لا على مبادىء قومية أو ثقافية. والروس الذين «تحرروا» من الجمهوريات لا يحصلون على الحرية والاستقلال لكنهم يضيعون القسم الأكبر من رابطتهم القومية ويحتفظون بوضع مرتبط ببقايا المسميات السابقة ـ كما يتعرضون بالإضافة إلى ذلك لخطر جديد هو الوقوع تحت تأثير القوى السياسية الخارجية للدول الأكثر جبروتاً. وهذا الخطر الأخير لم يكن على هذه الدرجة من القرب خلال مرحلة وجود **الإمبراطورية** ، إلا أن الفيدرالية الروسية في صورة «دولة جهوية» بسيطة تتعرض لها في أكمل درجة.

هذه التصورات جميعاً تجبرنا على التشكيك بجدوى مبدأ «المشروعية بعد الامبريالية» في الظروف الحالية، لأن ذلك يناقض المصالح القومية الروسية إلى حد كبير.

ولكن ما هي المعايير التي يتوجب الاهتداء بها في تحديد ماهية «المصالح القومية الروسية؟ من الذي يؤخذ بصفته **الرأس** المدبّر والذي يمكن بالنسبة له تحديد ما هو مجد وما هو غير مجد؟ وضمن أية مقولات يمكن التفكير بروسيا اليوم؟

2 ـ 3 الشعب الروسي ـ مركز التصوّر الجيوبولتيكي

إن انهيار الإمبراطورية السوفياتية وهشاشة التشكلات الحكومية على أراضيها (بما في ذلك الفيدرالية الروسية) وإفلاسها الحكومي يدفع إلى البحث عن صفة أكثر تحديداً لفهم «المصالح القومية الروسية». والواقع العضوي الوحيد، الطبيعي، المتجذر تاريخياً في هذه المسألة يمكن أن يكون الشعب الروسي.

الشعب الروسي ـ جماعة تاريخية تحمل جميع ملامح الشخصية السياسية التامة القيمة والراسخة. والشعب الروسي متوحد اتنياً، ثقافياً، نفسياً ودينياً. لكن ليس هذا فقط ما يكوّن الأساس الأهم لوضعه في مركز التصوّر الجيوبولتيكي موضوعاً للاستراتيجية السياسية والاجتماعية. تكوَّن الشعب الروسي، خلافاً للكثير من الشعوب، كحامل **لحضارة خاصة** تتسم بكل الملامح المميّزة للظاهرة العالمية ـ التاريخية الأصلية المتكاملة. الشعب الروسي ـ ذلك الثابت الحضاري الذي كان

المحور المؤسس لإقامة لا دولة واحدة بل **لكثير** من الدول: بدءاً من موزاييك الإمَارات السلافية الشرقية **قبل روسيا الموسكوفية وإمبراطورية بطرس** والمعسكر **السوفياتي**. زد على ذلك أن هذا الثابت قد حدّد التتابع والارتباط بين التشكلات ومدى اختلافها سياسياً، اجتماعياً، ترابياً وبنيوياً. الشعب الروسي لم يقدّم القاعدة الاتنية فحسب لجميع هذه التكوينات الحكومية، بل وعبّر فيها عن **فكرة حضارية** لا تشبه أي فكرة حضارية أخرى. فليست الدولة هي التي كونت الأمة الروسية. بل، على العكس، إن الأمة الروسية، الشعب الروسي قد وازن في التاريخ بين الأنماط المختلفة لنظم الحكومة معبراً بطريقة مختلفة (طبقاً للظروف) عن خصوصية رسالته الفريدة.

ينتمي الشعب الروسي من دون شك إلى عداد الشعوب ذات الرسالة. وله، كما لكل شعب ذي رسالة، أهميته الكونية التي تشمل الإنسانية كلها، والتي لا تتنافس فقط مع الأفكار القومية الأخرى بل ومع أنماط الصيغ الأخرى من العالمية الحضارية. وقد طوّر ك. ليونتيف(*) والأوراسيون الروس هذه الفكرة إلى حدود بعيدة من الكمال.

وبغض النظر عن الفتن والمراحل الانتقالية والجوائح السياسية بقي الشعب الروسي محتفظاً بهويته الرساليّة، وبناء على ذلك بقي على الدوام **فاعلاً** سياسياً في التاريخ. وبعد كل هزّة حكومية دورية كانت نفس تلك القوة الروسية العريقة الجبارة تقيم بنى سياسية جديدة مجسدة اندفاعها الروحي في صيغ جيوبولتيكية جديدة. زد على ذلك أنه ما إن تتطور البنى الحكومية حتى الخط الحرج والذي ينداح من بعده الضياع النهائي للصيغة السياسية ذات المضمون القومي حتى تحل الأزمات والكوارث التي يبدأ بعدها بناء جيوبولتيكي واجتماعي جديد، تجسيد الرسالة الحضارية للشعب الروسي في هياكل وبنى سياسية جديدة.

وفي المرحلة الانتقالية الحالية يجب أن يؤخذ الشعب الروسي بالذات على

(*) ليونتيف، كونستانتين (1831 ـ 1891) أديب، كاتب اجتماعي وناقد أدبي روسي. تحول فيما بعد إلى اتجاه السلافيانوفيل. كان يرى في الليبرالية البورجوازية تتفيهاً وتحولاً نحو عبادة الترف. دعا إلى «البيزنطية» (الكنيسة والملكية والتراتبية الطبقية) وإلى اتحاد روسيا مع دول الشرق كوسيلة للاحتماء من الهزات الثورية. له روايات وأعمال نقدية حول تولستوي، تورغينيف ودستويفسكي.

أنه الفاعل السياسي الرئيس الذي يبدأ منه سلَّم مصالح روسيا الجيوبولتيكية والاستراتيجية بالإضافة إلى مصالحها الاجتماعية ـ الاقتصادية. إن الشعب الروسي **هو روسيا** اليوم ولكن لا كدولة مرسومة بوضوح بل كطاقة جيوبولتيكية واقعية وملموسة من جهة، ولكنه لم يحدد بعد بنيته الحكومية الجديدة ـ لا إيديولوجيتها ولا حدودها الترابية ولا تركيبتها الاجتماعية السياسية.

ومع ذلك فإن «الطاقة الروسية الكامنة» تملك اليوم من الخصائص الثابتة ما يزيد بكثير على ما تملكه السريعات الزّوال ـ الفيدرالية الروسية أو مجموعة الدول المستقلة. وترتبط هذه الخصائص مباشرة بتلك الرسالة الحضارية التي يتمثل في تحقيقها مغزى وجود الشعب الروسي.

ـ أولاً، الشعب الروسي (= روسيا) مسؤول دون شك عن السيطرة على المناطق الشمالية ـ الشرقية من الأوراسيا وهذا الـDrang nach Osten und Norden الروسي يمثل العملية الجيوبولتيكية الطبيعية للتاريخ الروسي خلال القرون الأخيرة والتي لم تتوقف لدى نزول أية كوارث سياسية. لقد أسمى ماكيندر روسيا «المحور الجيوبولتيكي للتاريخ» وهذا قول صحيح كل الصحة، لأن الشعب الروسي كان في حقيقة الحال يتطلع تقليدياً إلى الإعمار الحضاري لكافة تلك الآماد الأوراسية داخل القارية، الممتدة في نفس مركز الكتلة القارية. ومن هنا يمكننا الاستنتاج بأن المصالح الاستراتيجية للروس غير منفصلة عن آماد الأوراسيا **الشمالية ـ الشرقية** وفي هذا يكمن المبدأ المؤسس لدى تحديد الآفاق الحقيقية لجيوبولتيكا روسيا (= الشعب الروسي).

ـ ثانياً: وُهب الشعب الروسي (= روسيا) نمطاً خاصاً من التديّن والثقافة اللذين يختلفان اختلافاً حاداً عن الغرب الكاثوليكي ـ البروتستانتي ، وعن تلك الحضارة بعد المسيحية التي نمت هناك. وبصفة النقيض الثقافي والجيوبولتيكي لروسيا ينبغي أخذ «الغرب» بمجموعه لا واحدة من الدول المكوّنة له. فالحضارة الغربية المعاصرة ذات توجه عالمي: ففي كل حُبيباتها المتناثرة توجد وحدة ثقافية قائمة على الحل المميّز للمشاكل الفلسفية والرؤيوية للعالم. أما العالمية الروسية، أساس الحضارة الروسية فتتباين بصفة جذرية عن الغرب في جميع نقاطها الأساسية. فهما، بمعنى من المعاني، نموذجان متناقضان ينفي كل منهما الآخر، قطبان متناقضان. وعلى هذا فإن المصالح الاستراتيجية للشعب الروسي يجب أن

توجه **ضد الغرب** (وهو ما ينبجس من ثابت خيار الحفاظ على الهوية الحضارية الروسية)، أما في المستقبل فيمكن أن يتحقق التوسع الحضاري أيضاً.

ـ ثالثاً، الشعب الروسي (= روسيا) لم يضع قط هدفاً له إقامة دولة وحيدة الاتنية متجانسة عرقياً. فرسالة الروس تميّزت بطابع عالمي ولهذا السبب بالذات كان الشعب الروسي يسير بطريقة منهجية إلى بناء **الإمبراطورية** التي كانت حدودها تتوسع محتضنة خليطاً أكبر فأكبر من الشعوب والثقافات والأديان والأراضي والأقاليم. ومن العبث عَدُّ «توسعية» الروس المنهجية والواضحة التعبير صدفةً تاريخية. فهذه «التوسعية» تمثل جزءاً لا يتجزأ في الوجود التاريخي للشعب الروسي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بنوعية رسالته الحضارية. وهذه الرسالة تحمل في داخلها «قاسماً مشتركاً» يسمح للروس بأن يجتذبوا للتكامل مع **إمبراطوريتهم** أكثر الوقائع الثقافية تشعباً. إلا أن لهذا «القاسم المشترك» خصائصه ولا يمكن تطبيقه إلا على تلك الشعوب ذات الخصوصية التاريخية المحدَّدة والمضمون الثقافي، هذا بينما تبقى الشعوب الأخرى (وعلى وجه الخصوص بعض أمم الغرب) غريبة غربة شديدة عن العالمية الروسية (وهو ما يتجلى تاريخياً في لا ثبوتية بل وحتى تناقضية التأثير الروسي في أوروبا).

ـ رابعاً، الشعب الروسي (= روسيا) ينطلق في وجوده من أفق «لاهوتي خلاصي» أكثر كونية يكتسب في النهاية معنى مسكونياً عاماً. والحديث لا يدور حول الاتساع اللامحدود «للمجال الحيوي» الروسي بل حول فرض النمط «الروسي» الخاص برؤية العالم، النمط المتشدد في مسألة الآخرة ويتطلع إلى الكلمة **الأخيرة** في التاريخ. وهذه هي المهمة الأسمى للأمة «كشعب متوشح بالله».

وهكذا ليس، ومن الناحية النظرية، على وجه البسيطة شعب ولا ثقافة ولا أرض يستقبل الشعب الروسي مصيره أو طريقه باللامبالاة. ويتجلى ذلك بصفة خاصة في إيمان الروس الذي لا يتزعزع بالانتصار **النهائي للحقيقة والروح والعدالة** وليس فقط في إطار الدولة الروسية بل وفي كل مكان. وحرمان الروس من هذه العقيدة الغيبية الخلاصيّة مرادف لخصائه الروحي. فالروس معنيون بكل شيء وبالجميع قاطبة. ولهذا فإن مصالح الشعب الروسي لا تقتصر في نهاية المطاف على الاتنوس الروسي ولا على **الإمبراطورية الروسية** ولا حتى على الأوراسيا

كلها. وهذا الأفق «المتسامي» للأمة الروسية لا بد من أخذه بالحسبان عند اعداد الاستراتيجية الجيوبولتيكية المقبلة.

ومن الواضح أنه في الظروف الحالية وضمن القواعد الغربية المعمول بها، العلمانية، الكميّة ـ الليبرالية للنظرة الحقوقية ليس ثمة أية إمكانية موضوعية ليس فقط لتثبيت «الشعب الروسي» بطريقة حقوقية موضوعاً سياسياً مستقلاً بل ولفرض مصطلح كمصطلح «الشعب» في التعامل الحقوقي والدبلوماسي. إن الحق الدولي المعاصر (المنسوخ في ملامحه الأساسية عن الحق الروماني) لا يعترف إلا **بالدولة والفرد** موضوعات سياسية كاملة الصلاحية.

ولهذا يوجد قانون «حقوق الدول» و «حقوق الإنسان» بينما مفهوم «حقوق الشعب» غائب. وليس هذا مستغرباً، فالنظرة العلمانية والكمية لا يمكن أن تضع في الحسبان أمثال هذه المقولات الثقافية الروحية كالإتنوس والشعب وما إلى ذلك. كما أن علاقة كمية متشابهة كانت تَسِمُ البناء السوفياتي والعالم «الديموقراطي». ولكن بما أن الشعب الروسي في المرحلة الحالية موجود فوق أرض تسودها إما مبادىء المشروعية «ما بعد الإمبراطورية» وإما مبادىء المشروعية الليبرالية ـ الديموقراطية فلا يمكن أن يكون ثمة أي كلام عن أي اعتراف آلي بالوضع السياسي «للشعب». وعلى هذا فإن منطق إظهار وحماية «المصالح القومية الروسية» يتطلب تغيرات جادة في التطبيق الحقوقي المعمول به في الوقت الحاضر وفضلاً عن ذلك إعادة النظر الجذرية إلى هذا التطبيق في المنبع القومي.

وما كان لمثل هذا التحول أن يبدو ممكناً لو تناول الحديث شعباً ضعيف التطور، غير مجهز تقنياً. أما بالنسبة للروس فالأمر، لحسن الحظ، يختلف عن ذلك. فلا تزال تتوفر لدينا اليوم إمكانية التحولات السياسية غير المرتبطة ببقية العالم، لأن توفر روسيا على الأنواع الاستراتيجية من الأسلحة يسمح في مستوى معين، بمقاومة ضغط **الغرب**. وهنا يرتبط كل شيء بالإدارة السياسية وحدها، وبتصميم تلك الشخصيات التي تأخذ على عاتقها المسؤولية عن مصائر روسيا والشعب الروسي.

ومهما يكن من أمر فإن الخطوة الأولى نحو إظهار «المصالح القومية للشعب الروسي» هي الاعتراف بهذا الشعب **موضوعاً سياسياً مستقلاً** يملك الحق في أن يقرر بنفسه ما ينفعه وما لا ينفعه، وأن يتخذ الخطوات الجيوبولتيكية، الاجتماعية ـ الاقتصادية والاستراتيجية انطلاقاً من ذلك.

لا معنى لروسيا بدون إمبراطورية

3 ـ 1 انعدام وجود «الدولة ـ الأمة» لدى الروس

ما كانت روسيا قط شبيهة بتلك «الدول ـ الأمم» المميّزة بالنسبة لأوروبا العصر الحديث والتي تم إعداد نموذجها من أجل آسيا والعالم الثالث بصفة عامة خلال الحقبة الاستعمارية وما بعدها.

تقوم «الدولة ـ الأمة» على الوحدة الإدارية والمركزية البيروقراطية اللتين تصوغان الجامعة السياسية التي تقيمها الدولة وترتبط أشد الارتباط بالدولة. ومما هو خارج عن كل الشكوك أن نموذج «الدولة ـ الأمة» قد ظهر لأول مرة في فرنسا الحكم المطلق ثم جرى تثبيتها في الانموذج الثوري اليعقوبي. وكانت «الدولة ـ الأمة» منذ بدايتها ذات طبيعة علمانية مؤكدة وتمثل بالدرجة الأولى الوحدة السياسية. وفي مثل هذه الرؤية يُفهم مصطلح «الأمة» على أنه «جملة المواطنين» وليس على أنه «الشعب» أو «الشعوب» بالمعنى العضوي المقدس. ونمط الدولة هذا يقوم على أساس المساواة الاتنية، الطائفية والطبقية بين السكان وعلى إقرار المعايير الحقوقية والعملياتية المتشابهة في المجتمع بكامله، تلك المعايير التي لا تأخذ في حسبانها لا الخصائص الجهوية ولا الدينية ولا العرقية. ومن الناحية الاسمية يمكن أن تكون «الدولة ـ الأمة» ملكية، وديموقراطية واشتراكية. والعنصر الأهم فيها ليس خصوصية البنية السياسية بل فهم الدولة على أنها المرجعية الإدارية ـ المركزية، الموضوعة فوق جميع الفروقات الاجتماعية ـ الاتنية والثقافية ـ الدينية. وينبغي التوكيد على أن «للأمة» في هذه الحالة معنى سياسياً استثنائياً صرفاً يختلف بحدة عن ذلك الذي يضمّنه القوميون لذلك المفهوم.

ظهرت «الدولة ـ الأمة» تاريخياً في أوروبا خلال مرحلة السقوط النهائي للوحدة الإمبراطورية نتيجةً لتدمير الأشلاء الأخيرة من النظام الإمبراطوري والتي كانت قد بقيت في صورة بنى إقطاعية إقليمية. و «الدولة ـ الأمة» مقترنة في جوهرها بسيادة القيم البورجوازية الملتبسة التي أوصلت الفروقات الاجتماعية الكمية إلى التركيب الكمي الإداري المبسّط، و «الدولة ـ الأمة» تدار في العادة لا «بالفكرة الإلهية» (كالتيوقراطية أو **الإمبراطورية** المقدسة) لا «بالشخصية الارستقراطية البطولية» (كالنظام الاقطاعي) بل بـ «ديكتاتورية القانون» (النوموكراتيا)، وهو ما يمنح سلطة هائلة لعلماء الحقوق وللبيروقراطية الحقوقية. ومن الناحية الواقعية فإن «الدولة ـ الأمة» هي الأسلس قيادةً والواقع السياسي الأدقّ تنظيماً من الناحية الكمية، لأن جميع العوامل «غير العقلانية» غير الكميّة مقلصة فيها حتى الحد الأدنى.

لم تظهر «الدولة ـ الأمة» في التاريخ الروسي. وعندها بدأ هذا الأنموذج بالذات يتجذر في أوروبا بدءاً من القرن الثامن عشر، جاهدت روسيا لمناهضته جهاد المستميت وبكل الوسائل أما النظام القيصري فقد حاول الحفاظ إلى الحد الأقصى على البنية الإمبراطورية بالذات دون مساس على الرغم من أن بعض التنازلات للأنموذج الأوروبي بقيت تقدم بصورة مستمرة. وبغض النظر عن إصلاحات بطرس(*) الموالية لأوروبا، فإن الإمبراطورية الروسية بقيت محافظة على

(*) إصلاحات بطرس: يقصد بها الإصلاحات التي طبقها الإمبراطور بطرس الأول (الأكبر) (1672 ـ 1725) في بلاده. بدأ حكمه منذ سنة 1689، سمّي قيصراً سنة 1682، وكان أول إمبراطور في روسيا سنة 1721، أجرى إصلاحات على هيئة الحكم، استحدث نظام السينات، واللجان وهيئات الرقابة الحكومية العليا والمساءلة السياسية، أخضع الكنيسة للدولة، قسم البلاد إلى محافظات، وأقام عاصمة جديدة (بطرسبرج) سار ببلاده خطئً حثيثة في ركب التقدم الحضاري، أقام مصانع صب الحديد وترسانة صناعة السفن ومد قنوات الري. وقام بنفسه بقيادة جيوشه في حملات آزوف 1695 ـ 1696، في الحرب الشمالية 1720 ـ 1721 وشارك في الاستيلاء على نوتيبرغ وفي حرب ليسنايا (1708) وبولتافا (1709)، وكان يشرف بنفسه على بناء الأسطول وإقامة الجيش النظامي. ولما كان من أشد أنصار الحكم المركزي المطلق فقد ساعد على ترسيخ الوضع الاقتصادي والسياسي للأعيان. وبمبادرة منه تم استخدام أبجدية روسية وطنية مبسّطة وافتتح أعداداً من المؤسسات العلمية والتعليمية ومنها أكاديمية العلوم وكانت إصلاحاته تتم عن =

العناصر التيوقراطية والمبدأ الارستقراطي أما نقل الكهنة وممثلي الأعيان إلى صفوف بيروقراطي الدولة فلم يطبق في الواقع حتى النهاية (خلافاً لبلدان أوروبا الغربية). وقد ناهضت العفويّة القومية هذا التحلل للإمبراطورية وانقلابها إلى «دولة ـ أمة»، وهو ما كان يفرخ وبصورة دورية ردود فعل تلقائية أو واعية سواء من طرف الشعب أو من طرف نخبته العليا، بل وفي نفس الدولة الواحدة في روسيا كثيراً ما كانت تتبادل المشاعر الاصلاحية والرجعية. وعن الإصلاحات الليبرالية كثيراً ما كانوا يتحولون إلى المشاريع الغيبية والتجديدية لعادات قديمة (وتجلى ذلك على أوضح صورة في تسلم العرش من طرف الكسندر الأول(*) مؤسس **الحلف المقدس**).

فقط في بداية القرن العشرين اقتربت روسيا اقتراباً شديداً من تحقيق «الدولة ـ الأمة» وفق النموذج الأوروبي. إلا أن العملية أوقفت في هذه المرة أيضاً بسبب دفقة ثورية حملت في أعماقها (وإن كان بطريقة غير واعية) الاحتجاج الوطني العميق ضد هذا النمط من بناء الدولة، والذي ما كان ليتوفر فيه مكان لظهور

= طريق التوتير الشديد للقوى المادية والبشرية حتى وصل الأمر إلى فرض ضريبة على الرأس. وهو ما أثار عدداً من الانتفاضات كانتفاضة الستريلتسي واستراخان وبولافيتسك فكانت تقمع بأشد الأساليب قسوة، لكنه مع ذلك يُعدّ أعظم شخصية إصلاحية في تاريخ روسيا، إذ استطاع أن يلحق بلاده بركب الثورة الصناعية في أوروبا، والتي كانت قد قطعت مراحل متقدمة حتى ذلك الحين. ولم تعد أي مشكلة كبيرة لتحل بعد بطرس على الصعيد الأوروبي إلا بمشاركة روسيا. (المترجم).

(*) الكسندر الأول (1777 ـ 1825) الابن الأكبر لباڤل الأول. إمبراطور روسيا منذ 1801. قام في أول عهده بعدد من الإصلاحات، وكان حريصاً في سياسته الخارجية على التوازن بين بريطانيا وفرنسا. شارك بين 1805 ـ 1807 في النشاطات المعادية لفرنسا ثم أخذ يتقرب إليها بين 1807 ـ 1812. خاض حروباً ناجحة ضد تركيا (1806 ـ 1812) والسويد (1808 ـ 1809) وفي عهده ضمت جورجيا الشرقية إلى روسيا (1801) وفنلندة (1809) وبيسارابيا (1812) وأذربيجان (1813). وبعد حرب (1812) ضد نابليون ترأس حلف الدول الأوروبية ضد فرنسا، وكان أحد قادة مؤتمر فيينا (1814 ـ 1815) وأحد منظمي الحلف المقدس الذي وقع في باريس في 26/ 9/ 1815 بين روسيا والنمسا وبروسيا بعد هزيمة نابليون ثم انضمت إليه فرنسا وعدد من الدول الأوروبية، لكن الحلف لم يلبث (في نهاية العشرينيات) أن تصدّع بفعل امتداد الحركات الثورية التحررية في أوروبا. (المترجم).

الرسالة الشعبية الروحية. ومن خلف الخطابية الحداثوية البلشفية تعرّف الروس بصورة غامضة على مثلهم الغيبية الخاصة ـ انتصار الفكرة، العدالة، الحقيقة. واستقبلت الدولة السوفياتية من طرف الشعب كبناء «للإمبراطورية الجديدة»، «مملكة النور» «مغاني الروح»، لا كوعي لبناء أكثر عقلانية للإدارة والحكم من قبل وحدات كمية. أما مأساوية وعصبوية وقدرية الكوارث البلشفية فقد استدعتها بالذات «مثالية» المهمة لا ما يقال حول العجز عن تطبيق حجم أكبر من «الإنسانية» مضافاً إلى حجم أقل من التنظيم الهادر للموارد البشرية.

لم يصبح الاتحاد السوفياتي «دولة ـ أمة». فقد كان استمراراً للتقاليد الإمبراطورية الوطنية المكتسبة بأشكال ظاهرية مضخمة، ووجهت بالأنموذج القيصري المتأخر الذي انزلق نحو المجتمع البورجوازي الاعتيادي، نحو «ديكتاتورية القانون». ومثل أي بنية سياسية عرفت **الإمبراطورية السوفياتية** ثلاث مراحل ـ «المرحلة الثورية» التي بنيت وفق نظام فريد (لينين ـ الشباب)، المرحلة المستقرة لتقوية الدولة وتوسيعها (ستالين ـ النضج) ومرحلة الهرم والانهيار (بريجنيف ـ الشيخوخة) زد على ذلك أن مرحلة بريجنيف المتأخرة بالذات قد ولدت البنية السياسية الإدارية التي كانت أقرب إلى المركزية البيروقراطية النموذجية في «الدولة ـ الأمة». وبالبيريسترويكا انتهت الدورة الحياتية لكل هذا التكوين السوفياتي، واختتمت معها مرحلة دورية من التاريخ القومي للشعب الروسي.

وتجدر الإشارة إلى أن ثمة قانوناً في التاريخ الروسي يرى أن الأمور عندما تصل إلى تحويل روسيا إلى «دولة ـ أمة» تنزل الكوارث، وعند التفافة جديدة تجد الأمة طريقة جديدة (كثيراً ما تكون خارقة للعادة) للتملّص من تحول بدا أمراً لا مندوحة منه. والروس يحاولون أن يتفادوا بأي ثمن مثل ذلك الانعطاف في الأحداث إذ إن إرادتهم السياسية لا تتوافق مع المعايير الضيقة للوجود العقلاني والكمي الموسَّط في إطار آلية بيروقراطية فعالة. والروس مستعدون للسير نحو تقديم ما لا يمكن تصوره من الضحايا وألوان الحرمان فقط من أجل أن تتحقق وتتطور الفكرة القومية، الحلم الروسي الكبير.

أما حدود هذا الحلم فتراه الأمة وفق أقل تقدير في **الإمبراطورية**.

3 ـ 2 الروس ـ شعب إمبراطورية

لا دولة وحيدة الاثنية، لا دولة ـ أمة. فمنذ أول البدايات كانت صورة الدولة الإمبراطورية تكمن في طيات الروسيا وبداية من توحد القبائل السلافية الأوغرو ـ فنلندية برئاسة روريك(*) وحتى الأبعاد المهولة للاتحاد السوفياتي والأراضي الخاضعة لتأثيره، كان الشعب الروسي يسير دون توقف عبر طريق التكامل السياسي والمكاني، نحو بناء الإمبراطورية والتوسع الحضاري. وتجدر الإشارة إزاء ذلك إلى أن التوسع الروسي كان يحمل معنى حضارياً بالذات، وإنه لم يكن على الإطلاق توسعاً مصلحياً يسيّره السعي وراء المستعمرات أو الصراع المرضي في سبيل المجال الحيوي. فلا الافتقار إلى هذا «المجال الحيوي» ولا الضرورة الاقتصادية هو ما دفع الشعب الروسي إلى توسيع حدوده شيئاً فشيئاً نحو الشرق والجنوب والشمال والغرب. والنقص في الأراضي لم يكن قط السبب الأصلي لإقامة الروس للإمبراطورية. توسع الروس كحاملي رسالة خاصة شكل التمهيد الجيوبولتيكي لما يتجسد في الوعي العميق لضرورة توحد أراض هائلة المساحات في الأوراسية القارية.

والتكامل السياسي للآماد الأوراسية يحمل للتاريخ الروسي **معنى مستقلاً تماماً**. ويمكن القول إن الروس يشعرون بالمسؤولية أمام هذه الآماد، أمام وضعها، أمام ارتباطها، أمام تكاملها واستقلالها. وبحق عدَّ ماكيندر روسيا الدولة القارية الأهم في عصره، الدولة التي ترث رسالة روما الجيوبولتيكية، **إمبراطورية** الكسندر الأكبر، جنكيز خان وما إلى ذلك. هذا «المحور الجغرافي للتاريخ» لا يمكنه ببساطة إلا أن يحقق مهمته الجيوبولتيكية بغض النظر عن العوامل الخارجية العارضة.

(*) روريك: شخصية تاريخية تعود بأصلها إلى الفارياغ (من الكلمة السكاندينافية القديمة Vaeringiar) وهم أمراء سكاندينافيون نصف أسطوريين، تشير المصادر الروسية إلى أن الأمراء السلافيين الايلين استدعوهم للخدمة في الكتائب السلافية العسكرية بين القرنين التاسع والحادي عشر فتولى روريك نوفجورود وأسس فيها أسرة روريك الحاكمة وتولى شقيقه سينيوس منطقة «البحيرة البيضاء» وشقيقه الثاني تروفور منطقة ايربورسك. (المترجم).

والشعب الروسي يرتبط بالواقع الجيوبولتيكي إلى درجة أن المدى ومعاناة هذا المدى ووعيه وتقبله الروحي قد صاغ نفسية الشعب حتى صارت واحداً من المحددات الأهم لهويته، لجوهره.

والمدى الترابي الواقعي ليس مجرد مقولة كمية. فالمناخ والتضاريس وجيولوجية المكان والطرق المائية والسلاسل الجبلية تشارك بفعالية في صياغة النمط الاتني وبكلمة أوسع النمط الحضاري. ومن وجهة نظر الجيوبولتيكا تتحدد الحضارة وخصائصها وجوهرها بالجغرافيا بصفة صارمة ويخضعان بالضرورة للقوانين النوعية الخاصة. والروس ـ شعب بري، قاري، أوراسي، شمالي، أما الخصوصية الثقافية للأمة فهي من النوع الذي يجعل «روحها» مهيأة بدرجة قصوى «للانفتاح» لتحقيق المهمة «التكاملية»، العملية، الدقيقة المعمقة، عملية صياغة جامعة أوراسية قارية خاصة.

والعامل الثقافي يمثل إضافة طبيعية للتوصيف الجيوبولتيكي المسبق لروسيا. فالرسالة الجيوبولتيكية توعى على المستوى الثقافي، وعلى العكس من ذلك فإن الثقافة تفسر وتُشكّل وتفعّل الدافع الجيوبولتيكي، والمدى والثقافة، هما المكونان الأكثر أهمية للشعب الروسي كشعب بانٍ للإمبراطورية بالدرجة الأولى. فلا الدم، ولا العرق، ولا الرقابة الإدارية، ولا حتى الدين جعل هذا الجزء من السلاف الشرقيين جماعةً لا تقارن بأي شيء آخر ـ هي الشعب الروسي؛ لقد صاغته بالذات الآمادُ الأوراسيّة اللامحدودة، والانفتاحية الروحية، الثقافية في حدودها القصوى. وتحت شعار «المدى والثقافة» تمت إعادة تفسير الآفاق الاتنية والسياسية والأخلاقية والدينية. وقد تكوَّن الروس وتطوروا وأدركوا نضجهم كأمة ضمن الإمبراطورية بالذات وفي بطولية بنائها وفي مآثر حمايتها وفي الحملات من أجل توسيعها. والنكوص عن مهمة بناء الإمبراطورية يعني نهاية وجود الشعب الروسي كواقع تاريخي، كظاهرة حضارية. ومثل هذا النكوص يمثل انتحاراً قومياً.

خلافاً لروما (روما الأولى) تملك موسكو، روسيا في ثنايا دافعها الإمبراطوري مغزى تيولوجياً عميقاً. ولقد طور هيغل نظرية طريفة تقول بأن الفكرة المطلقة في وضعها الغيبي يجب أن تتجسد في صورتها النهائية «التي تم وعيها» في صيغة الدولة البروسية، بيد أن بروسيا، على الصعيد العالمي، بل وحتى ألمانيا إذا ما أخذت كل واحدة على حدة، غير كافيتين جيوبولتيكياً لأخذ هذه النظرية بعين

الجد على الصعيد الكوني. أما روسيا، روما **الثالثة** فتستجيب دينياً وثقافياً، ومن حيث اتساع المدى، واستراتيجياً، استجابة رائعة لهذه النظرية التيولوجية إلى حقيقة التاريخ وتحاول بكل وضوح أن تؤدي هذه الرسالة بالذات. وفكرة هيغل المطلقة بالنسبة للحالة الروسية هي الجذر الروحي للبناء الروسي للإمبراطورية والمتطلع إلى الإعمار الحضاري لقارة الأوراسيا. ومن غير المعقول إهدار مثل هذه المعايير الهيغلية الجادة على «دولة ـ أمة» تفترض مسبقاً أن تكون إلى جانبها «دول ـ أمم» أخرى بأهدافها وأساطيرها ومصالحها الخاصة. ومن العبث إكساب مثل هذه البنية النسبية صفةً مطلقة الأهمية أما في حالة **الإمبراطورية** الهائلة الأبعاد، المؤسسة على مبادىء جوهرية ومتناقضة المظهر في كثير من وجوهها وغير واضحة في بعض هذه الوجوه ـ فالأمر مختلف كل الاختلاف، وليس من قبيل الصدف أن تسمّى الإمبراطوريات السابقة بـ**«الإمبراطوريات المقدسة»** فقد انتقلت إليها صفة «القداسة» من خلال أدائها للرسالة الروحية الخاصة التي تمثل بصورة مسبقة التخطيط تجسُّد أنموذج **«إمبراطورية النهاية»**، **«المملكة القارية للفكرة المطلقة»**.

سار الشعب الروسي خطوة بعد خطوة إلى تحقيق هذا الهدف، وخلال كل مرحلة من توسيع دولتهم كان الروس ينتقلون إلى درجة جديدة من عالميتهم الرساليّة ـ وذلك بتوحيد السلاف الشرقيين في بادىء الأمر، ثم باحتضانهم سيل السهوب التركية وسيبيريا، ثم بزحفهم نحو **الجنوب**، إلى الصحارى والجبال والانتهاء إلى تكوين مجمع سياسي هائل الأبعاد بسط سيطرته في المرحلة السوفياتية على نصف العالم. فإذا ما وعينا أن الشعب الروسي في جوهره هو هذه العملية لبناء الإمبراطورية، الخط الإرادي الجيوبولتيكي لإقامة «دولة الفكرة المطلقة»، اتضح بكل الوضوح أن وجود الشعب الروسي يرتبط مباشرة **بمواصلة** هذه العملية، بتطويرها وتفعيلها. وبقطع هذا الخط أو خنقه نطعن الروس في سويداء القلب ونجردهم من الهوية القومية بتحويلهم إلى متبقية تاريخية ونقطع العملية التيولوجية الغيبية الكونية على مستوى العالم.

3 ـ 3 مصيدة «الدولة الجهوية»

من الناحية التقليدية كان الشعب الروسي بحضارته ورسالته الجيوبولتيكية

(ولا يزال) العقبة الكأداء في وجه الانتشار الشامل للنموذج الليبرالي الغربي في الكرة الأرضية. وبالخضوع للمنطق القومي دأب النظامان القيصري والسوفياتي على الحيلولة دون التوسع الثقافي للغرب نحو الشرق وبخاصة باتجاه أعماق القارة الأوراسية. وإلى هذا فإن جدية المناهضة الجيوبولتيكية كانت دوماً تتجسد في كون روسيا تجمع في داخلها وحول ذاتها مختلف البلدان والشعوب في معسكر إمبراطوري استراتيجي قوي. وقد شاركت روسيا في السياسة العالمية ودافعت عن مصالحها القومية والحضارية وهي بالذات في صورة إمبراطورية قارية.

وفي الوقت الحالي، وبعد انهيار الاتحاد السوفياتي يسعى الغرب إلى أن يفرض على روسيا مهمة جيوبولتيكية أخرى، وأن يحول روسيا إلى تلك البنية السياسية الجديدة العاجزة عن المشاركة مباشرة في السياسة العالمية، وعن أن تكون لها رسالتها الحضارية الواسعة. وفي تقرير بول ولفوڤتس أمام الكونغرس الأمريكي سنة 1992 يجري بهذا المعنى التوكيد على أن «المهمة الاستراتيجية الرئيسة للولايات المتحدة الأمريكية هي الحيلولة دون أن يقوم على أراضي الاتحاد السوفياتي السابق تشكل استراتيجي مستقل، قوي، قادر على تطبيق سياسة مستقلة عن الولايات المتحدة». وانطلاقاً بالذات من مثل هذا المطلب الملحّ للغرب عُرض على روسيا دور «**الدولة الجهوية**».

«الدولة الجهوية» ـ مقولة جيوبولتيكية معاصرة تصف الدولة الكبيرة ذات التطور الكبير، بيد أن مصالحها السياسية لا تنحصر إلا في المناطق الملاصقة بشكل مباشر لأراضيها أو الداخلة ضمن هذه الأراضي. فمن الدول الجهوية، على سبيل المثال، الهند، إيران، تركيا، الباكستان، الصين وما إلى ذلك. وتتمثل خصيصة الدولة الجهوية في أن لها وزناً سياسياً أعظم من الدولة الاعتيادية البسيطة ولكن وزناً أقل من الدولة ما فوق العادة أو الإمبراطورية. وبكلمة أخرى فليس للدولة الجهوية تأثير مباشر على سياسة الكرة الأرضية وعلى العمليات الجيوبولتيكية الكونية وذلك بخضوعها في الخطوط الاستراتيجية الأساسية لتوازن قوى الإمبراطوريات الأوفر قوة. وفي الوقت نفسه تتمتع الدولة الجهوية بحد معين من الحرية بالنسبة لجيرانها المباشرين (الأضعف) ويمكن أن تمارس عليهم ضغطاً سياسياً واقتصادياً (ومن الطبيعي أن ذلك لا يتم إلا في تلك الحالات التي لا تتعارض مع مصالح الدول العظمى الفوق العادة).

وضع «الدولة الجهوية» الذي تم اقتراحه (فَرْضُه) اليوم على روسيا من طرف **الغرب** يعادل الانتحار بالنسبة للأمة الروسية. ذلك أن الكلام يدور حول إعادة خط التاريخ القومي الروسي عكسياً إلى الوراء بطريقة مفتعلة وتحت تأثير الضغط الخارجي القوي وقطع عملية تحول الروس المتواصلة إلى **إمبراطورية**. وروسيا كدولة جهوية ستقدم بنفسها رفض ذلك الدافع العميق للأمة والذي يكمن في أساس هويتها العليا والبالغة أعمق الأغوار. فتضييع الأفق الإمبراطوري يعني بالنسبة للروس نهاية وإخفاق مشاركتهم في الحضارة وهزيمة نظامهم الروحي والثقافي للقيم، وسقوط تطلعاتهم العالمية والرسالوية، وإهدار قيمة إيديولوجيتهم القومية وتجريدها من أمجادها، تلك الإيديولوجية التي أحيت أجيالاً كثيرة من الشعب الروسي ونفحتها بالقوة والطاقة من أجل تحقيق المآثر والإبداعات.

وإذا ما أخذنا بالحسبان خاصية الهوية الإمبراطورية للروس يغدو من الواضح بشكل كلي أن قبول وضع «الدولة الجهوية» لروسيا لا يمكن أن يكون خط الدفاع الأخير. والضربة المسدَّدة بهذه الطريقة إلى الوعي القومي للروس ستكون على درجة من القوة بحيث لا تقتصر على إطار الفيدرالية الروسية أو ما يشابهها من الآماد الترابية. فبتضييع الروس لرسالتهم سيكونون عاجزين عن إيجاد القوة من أجل فرض هويتهم الجديدة «المبتسرة» في «الدولة الجهوية» لأن فرض هذه الهوية مستحيل في سورة الحنق الذي سيظهر منطقياً في حالة تضييع الأمة لبعدها الإمبراطوري. وعليه فإن عمليات اللاتكامل ستتواصل على الأرجح في إطار «الدولة الجهوية» أيضاً ولن يستطيع الروس المظلومون مواجهة الموجة المتنامية من الانفصالية الجهوية والدينية.

بل وسيكون من اللازم لترسيخ «الوضع الجهوي» لروسيا ما بعد الإمبراطورية إيقاظ موجة هائلة من الشعور القومي، ذلك الشعور الجديد كل الجدة، المصطنع والمؤسس على الطاقات والأفكار التي لا يجمع أي شيء بينها وبين التقليد العريق الأصيل وحده والذي برره التوجه الإمبراطوري الروسي. ويمكن مقارنة ذلك مع القومية «العلمانية» الصغرى لدى الشبان الأتراك(*) الذين أقاموا تركيا المعاصرة،

(*) الشبان الأتراك: الاسم الذي أطلقه الأوروبيون على جمعية، ويسمونها حزب «الاتحاد والترقي»، الذي تأسس عام 1889 في استامبول بهدف تنظيم الحياة السياسية =

«الدولة الجهوية» على انقاض **الإمبراطورية العثمانية** عبر «الثورة الوطنية»، لكن لم يكن ثمة أي شيء مشترك يجمع وطنية الشبان الأتراك بالوطنية الجيوبولتيكية والدينية **للإمبراطورية العثمانية**، والحق فإن تركيا الحالية تمثل من الناحية الروحية. والاتنية والثقافية واقعاً يختلف كل الاختلاف عن الإمبراطورية التركية التي كانت في بداية القرن.

والأمر نفسه، إذا لم يكن ما هو أسوأ منه، يهدد روسيا أيضاً، ومن الأمور الأقرب احتمالاً، إزاء ذلك، أن تقوم محاولات الترسخ في صورة «دولة جهوية» ترفض الرسالة الحضارية والقيم الإنسانية الشاملة، بإحياء سياسيين من «الشبان الروس» (على غرار الشبان الأتراك) يعمدون، وفق أقرب الاحتمالات إلى الدعوة لايديولوجية فئوية ليس لها ما يجمعها بالخط المحوري للفكرة القومية الروسية. ومثل هذا التوجه القومي الروسي «اللاامبراطوري» العلماني والمصطنع لن يعمل من الناحية الجيوبولتيكية إلا في خدمة الغرب إذ إنه سيوطد الوضعية «الجهوية» لروسيا وسيؤدي إلى الاستقرار الخادع القصير الأمد بينما يرسي في الوقت نفسه الأساس للنزاعات الاتنية والدينية الروسية الداخلية في المستقبل. ولكن إذا كانت تركيا تشتمل على اثنتين أو ثلاث فقط من الجماعات الاتنية الكبرى التي يمكنها أن تقف وقفة فعالة في وجه مركزية الشبان الأتراك ففي روسيا الفيدرالية تعيش مئات الشعوب التي تعايشت بصورة رائعة ضمن الأنموذج الإمبراطوري والتي لا يمكنها بأية صورة أن تدخل في إطار «القومية الروسية الصغرى». والنتيجة واضحة إذ ستعاد روسيا تدريجياً إلى سلسلة لا تنتهي من النزاعات والحروب الداخلية لتنتهي في نهاية المطاف إلى الدمار.

وسيكون هذا النتيجة المشروعة لتضييع الروس لرسالتهم الإمبراطورية لأن هذه العملية لا يمكن أن تكتفي بالاقتطاع النسبي للأراضي، ولا بدّ لها بالضرورة

= والاقتصادية في البلاد. وتوصل إلى الحكم سنة 1908، لكن أعضاءه أبقوا على الحكم الاستبدادي المطلق، وإن حاولوا فرض «المشروطية» عليه، وما اهتموا بأي نوع من الاصلاحات الاجتماعية. كما نهجوا سياسة طورانية متشددة وحاولوا تطبيق سياسة التتريك وهو ما صرف العناصر العربية عنهم. وقد ضعف أمرهم كثيراً بهزيمة تركيا في الحرب العالمية الأولى (المترجم).

من الوصول إلى حدّها المنطقي - أي إلى التدمير الكامل للقومية الروسية كمعطى تاريخي - جيوبولتيكي وحضاري.

3 ـ 4 نقد الآلية الحكومية السوفياتيّة

كان الاتحاد السوفياتي والمنطقة الجيوبولتيكية المرتبطة به (بلدان حلف وارسو) من الناحية العددية الصيغة الأخيرة للتنظيم الإمبراطوري للشعب الروسي، وفي الحقبة السوفياتية تنامى مجال تأثير الروس من الناحية الجغرافية إلى حدود ما كان يمكن تخيلها قبل ذلك. فاستصلاح الأراضي والحملات العسكرية أدخلا مساحات مهولة في النطاق الجيوبولتيكي الروسي.

وفي معنى المدى المكاني كان متوقعاً لمثل هذا التوسع أن يجسد الصيغة الأعلى للدولتية الروسية. ومن المستحيل إنكار تلك الحقيقة القائلة بأن البنية المحورية للامبراطورية السوفياتية كان بالذات الشعب الروسي الذي جسد عالميته الخاصة (ولو جزئياً على الأقل) في الأنموذج الإيديولوجي والاجتماعي ـ السياسي السوفياتي.

ويتراءى للوهلة الأولى اليوم، أن آفاق التطور القومي الروسي الحق يجب أن تتطابق في الشروط الحاضرة مع إعادة ترميم الاتحاد السوفياتي وبعث الأنموذج السوفياتي والآلية الحكومية السوفياتية. وهذا صحيح ومنطقي إلى حد ما. وفي هذه الحالة فإن الحركة الشيوعية الجديدة، الداعية إلى بعث الاتحاد السوفياتي، أقرب إلى فهم المصالح الجيوبولتيكية للشعب الروسي، فهي تمثل جوهر طموحاته الاستراتيجية والحضارية بصورة أشد وضوحاً ومفهومية من بعض الأوساط القومية الجديدة، الميالة إلى أنموذج «الشبان الروس» (تشبيهاً بـ«الشبان الأتراك») للقومية «الصغرى»، «الاتنية» «المبتسرة». ومما لا شك فيه أن الانبعاث الجيوبولتيكي للشيوعيين الجدد أمرٌ مبرر، وأن قومية أكثر تحديداً وأشد «وطنية» من المشاريع الرومانسية القومية الضيقة ـ اللامسؤولة في صيغتها (والتخريبية في نتائجها) والتي تعود للسلافيانوفيل، وللأرثوذوكس ـ القيصريين أو للجناح العرقي من الوطنيين. ولو وقع الخيار بين إعادة الاتحاد السوفياتي وإقامة الدولة الروسية ذات الاتنية الواحدة بل وحتى ذات الثقافة الواحدة لكان من الأكثر منطقية وصحة بالنسبة

للشعب الروسي اختيار مشروع الاتحاد السوفياتي.

إلا أن أسباب انهيار الاتحاد السوفياتي وإفلاس الإمبراطورية السوفياتية تحتاج إلى تحليل موضوعي لا يمكن بأية حال أن يربط بالتأثير الخارجي (العدائي) أو الداخلي (التخريبي) أي بـ«نظرية المؤامرة». والضغط الخارجي **للغرب** الليبرالي الديموقراطي على الاتحاد السوفياتي كان مهولاً حقاً، أما نشاط «العناصر التخريبية» داخل البلاد فكان بالغ الفعالية والتنسيق. إلا أن هذين العاملين لم يصبحا حاسمين إلا في ذلك الوضع الذي دخلت فيه الإمبراطورية السوفياتية طور الأزمة الداخلية، ذات الأسباب العميقة والطبيعية المتجذرة في صلب البناء السوفياتي والنظام السوفياتي، وبغير فهم هذه الأسباب الضمنية للانهيار وتحليلها تبدو أية محاولات لبعث الاتحاد السوفياتي (وإقامة الإمبراطورية الجديدة بشكل خاص) خادعة عديمة الأفق. وفضلاً عن ذلك فإن أي توجه محافظ يقوم على قوة الاستمرار في القضية لا يمكنه سوى أن يزيد من تردّي وضع الأمور.

فلنستطلع بعض العوامل التي أدت **بالاتحاد السوفياتي** إلى الإفلاس الجيوبولتيكي والاجتماعي ـ الاقتصادي.

أولاً، على المستوى الإيديولوجي لم يجر طيلة قيام النظام الاشتراكي إدخال العناصر القومية، التقليدية، والروحية الصرفة في المجموع العام للإيديولوجيا الشيوعية. ولما كانت هذه إلى حد بعيد وطنية ـ شيوعية دي فاكتو فإنها لم تتحول في أي وقت إلى ما يسمى دي يوري، وهو ما صار يعوّق التطور العضوي للمجتمع الروسي ـ السوفياتي، وفرّخ المكيال المزدوج والتناقضات الإيديولوجية، وأخذ يقوض الوضوح والوعي في إقامة المشاريع الجيوبولتيكية والاجتماعية ـ السياسية. وكان الإلحاد، والمادية، والتقدمية و«الأخلاق التنويرية» وما إلى ذلك أموراً غريبة إلى حد عميق على البولشفية الروسية وعلى الشعب الروسي على العموم. ومن الناحية العملية فإن هذه الأطروحات المستعارة من الماركسية (وعلى فكرة فقد كانت هذه في الماركسية نفسها عناصر قائمة إلى حد بعيد على الهوى ـ تمثل ضرباً من الإتاوة للإنسانية الوضعية القديمة الطراز وفقاً لأسلوب فيورباخ)[*]،

(*) فيورباخ، لودفيغ (1804 ـ 1874) فيلسوف مادي إلحادي. بدأ واحداً من أتباع هيغل ثم تحول (سنة 1839) إلى ناقد لفلسفته المثالية مبيناً ارتباطها بالدين. والإنسان في =

قد تم وعيها من طرف الشيوعيين الروس كأساس للطموحات الشعبية الغيبية غير الصارمة لا كثمار عقلائية للثقافة الأوروبية ـ الغربية. بيد أن إيديولوجيا الوطنية ـ البولشفية والتي كان بوسعها أن تبتكر المصطلحات الأكثر ملاءمة والأكثر روسية بالنسبة للبناء الاجتماعي ـ السياسي الجديد لم تجر صياغتها. وبناء على ذلك كان على هذه المحدودية والقصور في البنية المتناقضة لمثل هذه الإيديولوجيا أن تظهر آثارها، عاجلاً أم آجلاً، في صورتها السلبية. وبدأ ذلك يعرّف بنفسه بصفة خاصة في المرحلة السوفياتية المتأخرة عندما قامت العقائدية الفارغة من المعنى والديماغوجية الشيوعية بخنق أي نوع من الحياة الإيديولوجية في المجتمع بصفة نهائية. هذا «الركود» للإيديولوجيا الحاكمة والرفض العنيد لرفدها بالعناصر المكونة العضوية، القومية والطبيعية بالنسبة للشعب الروسي انتهيا بإفلاس النظام السوفياتي بكامله. ولا تقع مسؤولية ذلك فقط على «عملاء التأثير» وعلى «المعادين للسوفيات» بل وبالدرجة الأولى على الإيديولوجيين السوفيات المركزيين سواء من الجناح «التقدمي» أو «المحافظ». **فالإمبراطورية السوفياتية** دمّرها **الشيوعيون** إيديولوجياً وواقعياً وإعادة إحيائها بتلك الصيغة وبتلك الإيديولوجية أمر ليس مستحيلاً فقط بل وخالياً من المعنى إذ ستعود آنذاك، ولو من الناحية الافتراضية، صياغة نفس تلك المنطلقات التي أدت ذات يوم إلى دمار الدولة.

ثانياً: على المستويين الجيوبولتيكي والاستراتيجي كان الاتحاد السوفياتي عاجزاً عن المنافسة على الأفق البعيد لمقاومة المعسكر الأطلسي الغربي. ومن وجهة النظر الاستراتيجية تبدو الحدود البرية أكثر انكشافاً بكثير من الحدود البحرية، كما كان الأمر نفسه على جميع الأصعدة (أعداد الجيوش الحدودية،

= فلسفة فيورباخ مخلوق بيولوجي، أقرب إلى الشخصية التجريدية. أما الدين فاغتراب للروح الإنساني، ومصدره إحساس الإنسان بارتباطه بالقوى العفوية في الطبيعة والمجتمع. أما أساس الأخلاق فيرتبط بطموح الإنسان إلى السعادة التي تتحقق بواسطة «دين المحبة»، وحدة الإنسان ثم التفاعل بين الـ أنا والـ أنت. وبهذا لم يخرج فيورباخ عن أطر المادية الميتافيزيكية، وقد ترك أثره على ك. ماركس وف. انجلز فيما بعد. من أهم أعماله: «نحو نقد فلسفة هيغل 1839»، «جوهر المسيحية 1841» «أسس فلسفة المستقبل 1841» و «جوهر الدين 1851». (المترجم).

تكاليف التقنية الحربية، استخدام ونشر الأسلحة الاستراتيجية، وما إلى ذلك).
وبعد الحرب العالمية الثانية وجد الاتحاد السوفياتي نفسه في وضع غير متكافىء بالمقارنة مع معسكر **الغرب** الرأسمالي المتكتل حول الولايات المتحدة. كان لدى الولايات المتحدة قاعدة جزيرية عملاقة (هي القارة الأمريكية)، خاضعة كلياً للهيمنة ومطوقة من كل جوانبها بالمحيطات والبحار التي لم تكن حمايتها تكلف الكثير من الجهد. وفضلاً عن ذلك كله كانت الولايات المتحدة تهيمن على جميع المناطق الشاطئية جنوب الأوراسيا **وغربها**، فكانت تشكل تهديداً مهولاً بالنسبة للاتحاد السوفياتي بينما هي، من الناحية العملية، في منأى عن العمليات الممكنة المثيرة للاضطراب من طرف الاتحاد السوفياتي. أما تقسيم أوروبا إلى **شرقية** (سوفياتية) **وغربية** (أمريكية) فلم يزد على أن ضاعف من تعقيد الوضع الجيوبولتيكي للاتحاد السوفياتي في **الغرب**، إذ زاد من حجم الحدود البرية وقرب المسافة من العدو الاستراتيجي المحتمل، كل ذلك في حالة من العدوانية السلبية للشعوب الأوروبية ذاتها التي وجدت نفسها في وضعية رهائن في مبارزة جيوبولتيكية لم يكن معناها واضحاً بما فيه الكفاية. والأمر نفسه كان قائماً في الاتجاه الجنوبي ـ في آسيا وفي الشرق الأقصى، حيث كان للاتحاد السوفياتي جيران مباشرون أو ممن يهيمن عليهم الغرب (الباكستان، أفغانستان، إيران ما قبل الخميني) أو دول عدوانية إلى حد بعيد ذات توجه اشتراكي ـ لاسوفياتي (الصين).
وفي هذه الحالة كان يمكن للاتحاد السوفياتي أن يتمتع بالاستقرار النسبي في حالتين فقط: إما بانطلاق سريع نحو المحيطات في الغرب (نحو الأطلسي) والجنوب (نحو المحيط الهندي) أو بإقامة أحلاف سياسية محايدة في أوروبا وآسيا لا تخضع لأي من الدول الكبرى. وهذا التصور (ألمانيا المحايدة) حاول أن يقترحه ستالين ومن بعد وفاته بيريا. كان الاتحاد السوفياتي (مع حلف وارسو) من وجهة النظر الجيوبولتيكية بالغ الاتساع وبالغ الضيق في الوقت نفسه. والحفاظ على الوضع القائم كان ممكناً فقط بالنسبة للولايات المتحدة والأطلسية، لأن الإمكانات العسكرية والصناعية والاستراتيجية للاتحاد السوفياتي كانت تزداد انهاكاً بينما تزداد قدرات الولايات المتحدة، الجزيرة المحمية، اتساعاً. وكان على المعسكر الشرقي، عاجلاً أم آجلاً، أن ينهار. وبناء على ذلك فإن إعادة الاتحاد السوفياتي وحلف وارسو ليست فقط أقرب إلى المستحيل بل وليس ثمة من حاجة

إليها لأنها، حتى في حال نجاحها (غير المحتمل من الناحية العملية) ستؤدي إلى ولادة الأنموذج الجيوبولتيكي المقضي عليه مسبقاً.

ثالثاً: البناء الإداري للاتحاد السوفياتي أقيم على أساس الفهم العلماني، الوظيفي والكمي البحث للتقسيمات الإدارية الداخلية، والمركزية الاقتصادية والبيروقراطية ما وضعت في حسابها الخصائص الإقليمية ولا ما هو أهم من ذلك، الخصائص الاتنية والدينية للمناطق الداخلية. فمبدأ المساواة وتركيبية المجتمع الاقتصادية الصرفة للمجتمع أفضى إلى خلق أمثال تلك النظم القاسية التي خنقت، أو «جمّدت»، في أحسن الأحوال، صيغ الحياة الوطنية الطبيعية للشعوب المختلفة بما في ذلك (وبصورة أعظم) الشعب الروسي نفسه. كان للمبدأ الإقليمي فعاليته عندما كان الحديث يدور، اسمياً، حول الجمهوريات القومية أو ذات الحكم الذاتي أو الدوائر. وإلى جانب هذا فإن عملية التسوية الدينية ـ الاتنية أخذت تزداد وضوحاً بازدياد شيخوخة النظام السياسي السوفياتي والذي كان يزداد ميلاً في مرحلته الأخيرة إلى نمط «الدولة ـ الأمة» السوفياتية لا الإمبراطورية. والعامل القومي الذي قدم العون، إلى حد بعيد، لإقامة الاتحاد السوفياتي في المراحل الأولى صار في نهاية المطاف عاملاً سلبياً محضاً لأن المركزية المتطرفة والتوحيد بين الجميع صارا يفرّخان الاحتجاج والسخط الطبيعيين. وأخذ ضمور البداية الإمبراطورية وتكلّس المركزية البيروقراطية، والطموح إلى أبعد حد من العقلانية والانتاجية الاقتصادية المجردة يحول الاتحاد السوفياتي بالتدريج إلى ذلك الشبح السياسي الذي فقد الحياة وصار ينظر إليه على أنه شمولية المركز وقد تم تطبيقها بالقوة. وبعض الأطروحات الشيوعية التي فهمت «الأممية» فهماً حرفياً مسؤولة عن ذلك إلى حد بعيد. وبناء عليه فحتى ذلك الأفق من الأنموذج السوفياتي الذي تعامل لا مع الاتنوس المحدَّد والثقافة والديانة المحدَّدتين، بل مع مفاهيم مجرّدة «للسكان» و«الأرض» ما كان له أن يعاد بعثه بأية حال، بل ينبغي، على العكس من ذلك، التخلص، وبأقصى سرعة، من تبعات مثل هذا الفهم الكمي والذي انعكست أصداؤه اليوم وبمثل هذه المأساوية في مسألة الشيشان، القرم، كازاخستان، نزاع كاراباخ، أبخازيا وبريدنيستروفييه وغير ذلك.

رابعاً: قام النظام الاقتصادي في الاتحاد السوفياتي على مثل ذلك التسلسل الاشتراكي «المتطاول» إلى درجة أن ما يقدمه المجتمع للإنسان الفرد المحدَّد توقف

تدريجياً عن أن يكون محسوساً به على العموم. فإضفاء الصيغة الاشتراكية المتطرفة والرقابة التفصيلية للدولة على كافة العمليات الاقتصادية حتى المتناهية منها في صغرها بالإضافة إلى حصر مهام إعادة التوزيع بالمرجعية العليا دون غيرها قد ولدت في المجتمع مناخ الاغتراب الاجتماعي والخمول واللامبالاة. فصارت الاشتراكية وجميع ما فيها من مزايا خفيّة غير ملموسة وتراجعت إلى الصف الخلفي أمام الآلية البيروقراطية الحكومية المهولة. وضاع الإنسان والجماعة المحدَّدة أمام المفهوم التجريدي «للمجتمع» وقطعت دورة التوزيع الاشتراكي علاقتها مع الواقع وتحولت إلى منطق الآلة العديمة الروح. ذلك المنطق الذي لا يمكن شرحه، المغرَّب، والقائم من الناحية المظهرية على الهوى. ليست الاشتراكية نفسها المسؤولة عن مثل هذا التوضع للأمور ـ لكن صيغتها التي تكونت تاريخياً في الاتحاد السوفياتي وبخاصة في مراحله المتأخرة وإن كان ينبغي البحث عن منابع مثل هذا التحلل في المبدأ نفسه، في النظرية نفسها. فالاشتراكية الحكومية الشمولية جردت الاقتصاد من المرونة والناس ـ من الحماسة ومن الإحساس بالمشاركة في العملية الإبداعية وساعدت على إدخال العلاقة الطفيلية بالمجتمع الذي أسقطت عليه اليوم صفة البناء المافيوي ـ الليبرالي. وتقع مسؤولية هذا التفريط الشديد ما بعد السوفياتي أيضاً على عاتق الشيوعيين الذين وقفوا عاجزين عن إصلاح الاشتراكية في تطبيقها على العفويّة القومية وعن الحفاظ فيها على الحياة الجديرة.

هذه الآفاق الأساسية الأربعة للأنموذج السوفياتي تعد العوامل الأساسية لإفلاس الحكومية السوفياتية، وهي المسؤولة بالذات عن انهيار الإمبراطورية السوفياتية. ومن الأمور الطبيعية على الإطلاق أن من الضروري، في حال البعث الافتراضي للاتحاد السوفياتي في هذا الخصوص، أن يتم الخروج بنتائج جذرية وأن تقتلع من الجذور تلك الأسباب التي قضت ذات يوم على شعب عظيم بكارثة حكومية.

بيد أنه إذا كان بعث الاتحاد السوفياتي سيجري تحت رايات ايديولوجية تتخلى عن المادية، الإلحاد وعن الشمولية والاشتراكية الحكومية والمدى الجيوبولتيكي السوفياتي، والبناء الإداري، وعن الأممية، والمركزية وما إلى ذلك فهل يكون من حقنا بصفة عامة أن نتحدث عن «اتحاد سوفياتي» أو عن «دولة

سوفياتية»، «عن شيوعية» أو «إعادة لما كان» وما إلى ذلك؟ ألا يكون من الأصوب تسميةً هذا بناءً **للإمبراطورية الجديدة**؟.

3 ـ 5 نقد الحكوميّة القيصريّة

يمكننا اليوم أن نسمع دعوات أكثر تواتراً للعودة إلى النموذج القيصري الملكي. وهذا أمر طبيعي إلى حد بعيد إذ إن ضياع الهيبة السوفياتية يجعل الروس يعودون إلى صيغ حكومية كانت قائمة في التاريخ الروسي قبل المرحلة الشيوعية. ولهذا النموذج عدد من الجوانب الإيجابية والجوانب السلبية. وبغض النظر عن الصعوبات التي لا يمكن تصوّرها لاستعادة النظام الحكومي السابق للشيوعية فإن هذا المشروع يناقش بحظ أكبر من الجدية.

وبالأخذ بعين الاعتبار المنطق التاريخي لتطور الأمة الروسية الجيوبولتيكي، يكتسب معناه الحديث عن المراحل المتأخرة من حكم أسرة آل رومانوف(*) عندما خرجت روسيا إلى آفاق حجمها الإمبراطورية الأعظم في المدى.

والأكثر إيجابية في هذا المشروع هو الأساس الإيديولوجي لروسيا القيصرية حيث أعلن (ولو من الناحية الشكلية) الوفاء للروح الوطنية (الشعبية) وللحقيقة الدينية (الأرثوذوكسية) وللبناء السياسي التقليدي المقدس (الحكم المطلق)، بيد أنه وفق الملاحظة المنصفة للأوراسيين الروس كان الشعار الأوڤاروفي(**) (الأرثوذوكسية، الحكم المطلق، الشعبية) في المراحل الأخيرة من روسيا القيصرية أقرب إلى الشعار المثالي منه إلى المضمون الواقعي للحياة السياسية والبناء

(*) أسرة آل رومانوف: الأسرة الحاكمة في روسيا بين القرنين الرابع عشر وبداية العشرين. من سلالة اندريه كوبيلا. أسرة قيصرية منذ 1613 فإمبراطورية سنة 1721. أول ملوكها ميخائيل فيودوروفتش وآخرهم نيكولاي الثاني (ولد 1868 وحكم بين 1894 ـ 1917). وهزمت روسيا في عهده في الحرب الروسية اليابانية 1904 ـ 1905 واضطرته ثورة 1905 ـ 1907 للقبول بمجلس الدوما وتطبيق بعض الإصلاحات الزراعية. وصارت بلاده عضواً في الانتانتا سنة 1907. أزاحته ثورة أكتوبر عن العرش سنة 1917 (المترجم).

(**) الشعار الأوڤاروفي: أوڤاروف، سيرغي (1786 ـ 1855) شخصية سياسية روسية. صار رئيس أكاديمية العلوم في بطرسبرج منذ 1818 وكان بين 1833 ـ 1849 وزير التربية الشعبية، وهو الذي وضع شعار: الأرثوذوكسية، الحكم المطلق، الشعبية. (المترجم).

الاجتماعي. فالأرثوذوكسية الروسية كانت في هذه المرحلة، بعد أن هزت أركانها إصلاحات بطرس الأكبر المدنية، قد تخلفت إلى مسافة بعيدة عن شعار «روسيا المقدسة» الذي كان من الناحية الواقعية قد أخضع لرقابة الدولة، وقد أضاع الكثير من هيبة القداسة ومن هارمونية الوفاق الأرثوذوكسي. واضطرت الكنيسة الروسية، وقد أضاعت استقلالها الروحي، للتوجه إلى المساومة مع السلطة العلمانية المتجسدة في السينود(*) الخاضع للقيصر، وبذلك كانت حريتها في الدعوة الصادقة إلى الحقائق غير الأرضية قد قُيّدت.

كما ضيع الحكم المطلق، من جهته، قداسة معناه عندما غاص في حلّ القضايا ذات الطابع السياسي المحض، ناسياً في مرات كثيرة رسالته العليا، ومهمته الدينية. وعلى الرغم من أن نزع القداسة عن السلطة القيصرية لم يسفّ في روسيا في أي يوم من الأيام ـ وحتى تنازل الإمبراطور الأخير عن العرش، إلى حدود تلك الهزلية الفارغة التي توصلت إليها الملكيات الغربية ـ الفرنسية والإنجليزية بالدرجة الأولى ـ فمع ذلك كان تأثير أوروبا في هذا الميدان عظيماً جداً.

وأخيراً فإن «شعبية» الشعار المشهور كانت، على الأغلب، استعراضية صرفة، بينما كان الشعب نفسه يعيش في اغتراب بعيد عن الحياة السياسية وهو ما لقي تعبيره، على سبيل المثال، في تلك اللامبالاة الجماعية نحو ثورة شباط ثم في فترة تالية نحو ثورة أكتوبر التي استأصلت الأنموذج الملكي حتى الجذور.

إن الدعوة المباشرة، في ظروفنا، إلى إعادة هذا الثالوث، ستؤدي بالدرجة الأولى إلى إعادة تلك المساومات الغثّة، الديماغوجية إلى أبعد الحدود، والتي كانت من الناحية الواقعية، تستتر وراء تلك المبادىء الثلاثة في المرحلة المتأخرة من حكم أسرة آل رومانوف (وهي بالمناسبة المرحلة التي صيغت فيها تلك الشعارات). وفضلاً عن ذلك فإننا إذا أخذنا في الحسبان انعدام المطالبين المتكافئين في الأهمية بالعرش الروسي، والوضع المترنح وغير المحدّد **للكنيسة**

(*) السينود (من Synodos اليونانية ـ المجمع) إحدى الهيئات الحكومية العليا في روسيا بين 1721 ـ 1917. كان يشرف على نشاطات الكنيسة الارثوذوكسية (شرح العقائد الدينية، إجراء الطقوس، التوجيه الروحي الصحيح، والسهر على برامج التعليم، الوقوف في وجه الهراطقة والانشقاق. .) ويرأسه معاون النائب العام الذي يعيّنه القيصر. أصبح السينود بعد 1917 هيئة تابعة لبطريرك موسكو وسائر روسيا. (المترجم).

الأرثوذوكسية بالإضافة إلى المعنى التجريدي لمصطلح «الشعبية» (والذي كثيراً ما لا يفهم منه إلا أسلوبه الفلكلوري القشري أو تهويمات دعاوى المثقفين الخياليين بأنهم من الشعب) يغدو من غير الصعب التنبؤ بأن العودة إلى دعوة أوفاروف ستكون مهزلة أكبر حجماً مما كان عليه أيام النظام القيصري السابق للثورة.

وفضلاً عن ذلك فللنموذج القيصري عيب جيوبولتيكي على غاية من الجدية وهو الذي أودى بالإمبراطورية الروسية إلى الانهيار كما أودى بالاتحاد السوفياتي بعد سبعين سنة من ذلك.

فالعودة إلى جيوبولتيكا العهد القيصري وبالتالي إلى السلافيانوفيلية يتضمن في داخله تهديداً مخيفاً. ذلك أن السياسة الخارجية للبيت الحاكم خلال النصف القرن الأخير من حكم أسرة رومانوف لم تعد تحددها تقاليد الكسندر الأول الأوراسية وآفاق الحلف القاري المقدس (القائم على أساس تحالف روسيا ودول أوروبا **الوسطى**) بل تحددها المشاريع الموالية للإنجليز والموالية للفرنسيين والتي من أجلها جُرَّت روسيا إلى نزاعات انتحارية إلى جانب أعدائها الجيوبولتيكيين الطبيعيين وضد حلفائها الجيوبولتيكيين الطبيعيين. إن دعم المطالب الصربية والأسطورة اللامسؤولة حول «البوسفور والدردنيل» والتورط في مغامرات الماسونيين الفرنسيين الأوروبية المعادية للألمان ـ كل ذلك أجبر روسيا على لعب دور سياسي ليس غريباً عنها فقط بل ومهلك بالنسبة لها. فمن خلال محاولاتها، على أساس سلافياني، أن تؤسس لنفسها في أوروبا الوسطى ومن خلال اشتباكها في نزاع مستديم مع دول أوروبا الوسطى (الحلفاء الطبيعيين لروسيا) كان النظام القيصري يقوم دوماً بتقويض أسس الدولة الروسية ويسير بروسيا إلى الانتحار الجيوبولتيكي بخط مستقيم. وإلى هذا تنتسب أيضاً الحروب التركية والحرب مع اليابان. شيء ينطوي على المفارقة لكن يبدو أن روسيا كانت تتوجه بالطريقة الأمثل لكي تخدم المصالح الأطلسية لفرنسا التقدمية ولانجلترا الاستعمارية ـ الرأسمالية بدلاً من أن تقوم برسالتها الأوراسية الطبيعية وأن تبحث عن التحالف مع جميع النظم الإمبراطورية المحافظة والشبيهة بها (من الناحيتين السياسية والروحية). لقد كلفت الطوباوية الجيوبولتيكية السلافيانوفيلية روسيا **قيصرها وكنيستها وإمبراطوريتها** ومجيء البلشفيك ذوي التوجه الأوراسي وحده الذي أنقذ البلاد والشعب آنذاك من الانقراض الشامل، من التحول إلى «دولة جهوية».

إن محاولة السعي وراء مثل هذا الخط «السلافيانوفيلي» الرومانوفي المتأخر لا يمكنها ضمن ظروفنا إلا أن تؤدي إلى نتيجة مشابهة. بل إن نفس الدعوة إلى روسيا ما قبل الثورة تتضمن في داخلها السياسة الانتحارية المحتملة والتي تعود على الشعب بخطر قد يتجاوز ما تحمله مشاريع الانبعاث السوفياتي.

وثمة عامل آخر يبدو على غاية من الخطورة في حال التوجهات الملكية. والحديث يدور حول صيغة الاقتصاد الرأسمالية التي كانت مميّزة بالنسبة لروسيا عند مشارف القرنين التاسع عشر ـ العشرين. وعلى الرغم من أن ذاك كان صورة من صور الرأسمالية الوطنية المحدَّدة بالأطر الحكومية الاجتماعية والثقافية لا سوقاً حرة «متوحشة»، وأثر الاغتراب الاقتصادي الذي يرتبط بكل رأسمالية، كان قوياً إلى حد بعيد. لقد شغل البورجوازي الروسي بكل ثبات مكان الأرستقراطية الحكومية والعسكرية والشريحة الدينية وزحم طبقة الموظفين والمستخدمين. وهذا الأنموذج من البورجوازية الروسية (والمتميّز إلى حد ما عن ممثلي طبقة التجار الاقطاعية التقليدية، ما قبل الرأسمالية) كان يقف من الناحية العملية في مواجهة المعايير الثقافية الاجتماعية والأخلاقية التي مثلت جوهر منظومة القيم الوطنية الروسية. فبعد أن استوعب دروس الليبرالية الاقتصادية الإنكليزية واستطعم مذاق المضاربات المالية والبورصة واستخدم بمهارة اللافعالية الاقتصادية والتي لا تزال مصفدة بميثاق الشرف لدى الأرستقراطية الروسية، انطلق البورجوازي الروسي إلى طليعة الحياة السياسية الروسية بعد أن ارتسم بطريقة رائعة في اللوحة العامة للبطركية القيصرية والتي كانت فقدت مجموع مضمونها الحيوي المقدس. والرأسماليون الروس بالذات ـ وبالمناسبة فقد كانوا في عدد كبير من الحالات من أنصار التوجه «التشيرنو سوتينتسي»(*) ـ صاروا أول دعاة التأثيرات الإنكليزية والفرنسية في روسيا والعملاء الطبيعيين لذلك الأنموذج الأطلسي التجاري الذي تطور وتكوَّن في المجتمعين الأنجلو ساكسوني والفرنسي.

(*) التشيرنوسوتينتسي: (المئات السوداء). أعضاء منظمات إرهابية مسلحة من مثل «اتحاد الشعب الروسي»، «اتحاد ميخائيل الملاك»، و «المئات السوداء» (بين 1905 ـ 1917) وتتضمن عناصر غير منتمية إلى طبقات محدّدة، ولا تجمع بينها إلا راية الصراع ضد الحركة الثورية في روسيا بدايات القرن العشرين (المترجم).

النظام الحكومي ذو الطابع الروماني المتأخر ـ هو اجتماع الواجهة القيصرية ـ غيرَ المقدسة والجيوبولتيكا السلافيانوفيلية الانتحارية ورأسمالية السوق ذات التوجه الأطلسي. وفي جميع الحالات لم تكن الخطابية القومية إلا ستاراً وصيغة كلامية تستتر وراءها التوجهات السياسية، الاجتماعية البعيدة لا عن المصالح الحقيقية للشعب الروسي فقط بل والمتناقضة بصورة مباشرة مع هذه المصالح.

هناك عنصر آخر لهذا الصراع يبدو مريباً إلى حد ما، وهو مبدأ التقسيم الإداري للإمبراطورية الروسية إلى محافظات. وعلى الرغم من أن ذلك لم يعوّق، عند التطبيق عملية التطور الحر للشعوب الداخلة في نطاق **الإمبراطورية الروسية** وفي الحالة الاعتيادية ما زاد الروس على أن ساعدوا الاتنيات على صياغة وتطوير ثقافتها الخاصة، كما أن حجب الاعتراف الحقوقي عن التوجهات الثقافية والدينية ذات الاستقلال الذاتي، وبعض المركزية الحكومية التي ساوت بقسوة بين الجميع لم يكونا أفضل الوسائل لاجتذاب القوميات إلى البناء الإمبراطوري القاري الوحيد الروح والحر. وعناصر «الدول ـ القوميات» بدأت تظهر في المراحل المتأخرة من حكم أسرة رومانوف، تماماً مثلما ظهرت في السنوات العشر الأخيرة من الاتحاد السوفياتي وكان تأثير ذلك متشابهاً إلى حد بعيد ـ اغتراب الاتنيات عن موسكو (وسانت بطرسبرج) وعن الروس، والمشاعر الانفعالية واندفاعات «المشاعر القومية المبتسرة» وما إلى ذلك. وكردة فعل تبع ذلك تحلل الإرادة الرسالوية الروسية العظمى إلى صيغة قومية ـ شوفينية مرضية.

ولم يكن في روسيا القيصرية من إيجابي إلا الجانب الثقافي ـ الديني والوفاء الأسمى للقيم المقدسة وذكرى المثل **الأعلى لروسيا المقدسة، المملكة المقدسة، موسكو ـ روما الثالثة**. والكنيسة الأرثوذكسية كحصن للحقيقة العقائدية، وسيمفونية الحكم المطلق، ووعي الرسالة التاريخية للشعب الروسي المتوشح باللّه ـ هي الرموز الروحية للإمبراطورية الروسية الحق وهي التي تحمل القيمة البدئية الأصيلة والتي لا بد من تطهيرها من الشكلانية والدوغمائية ومن الغشاوة النفاقية. إلا أن الجيوبولتيكا اللاطبيعية والانجرار نحو الرأسملة، وعدم التقييم الصحيح للعامل الاتني والديني لدى الشعوب الصغيرة داخل الإمبراطورية والتوجهات الإمبراطورية المعادية للألمان، والمعادية لليابانيين والمعادية للعثمانيين في المراحل المتأخرة من حكم أسرة رومانوف ـ كل ذلك يجب وعيه بدقة كطريق سياسي

مسدود لا علاقة له بالمصالح الحقيقية للشعب الروسي وهو ما برهن عليه الإفلاس التاريخي لهذا الأنموذج.

3 ـ 6 نحو إمبراطورية أوراسيّة جديدة

على أساس التصورات السابقة يمكننا التوصل إلى نتائج محدَّدة تتعلق بآفاق الإمبراطورية القادمة على أنها الصيغة الوحيدة للوجود اللائق والطبيعي للشعب الروسي وعلى أنه الإمكانية الوحيدة للوصول برسالته التاريخية والحضارية إلى أبعد مداها.

1 ـ الإمبراطورية القادمة لا ينبغي أن تكون «دولة جهوية» ولا «دولة ـ أمة». وهذا أمر واضح. فليس من الضروري التوكيد على أن مثل هذه الإمبراطورية لا يمكن أن تكون في أي يوم استمراراً أو تطويراً لدولة جهوية أو دولة ـ أمة لأن مثل هذه المرحلة البيئية يحمل ضرراً لا يمكن إصلاحه للتوجه الإمبراطوري القومي المتعمق وينتهي بالشعب الروسي إلى متاهة التناقضات الجيوبولتيكية والاجتماعية التي لا حل لها، وهذا بدوره ما يجعل البناء الإمبراطوري المنطقي، العقلاني أمراً مستحيلاً.

2 ـ الإمبراطورية الجديدة يجب أن تقام دفعة واحدة كامبراطورية، ويجب أن ترسي المبادىء الإمبراطورية الكاملة الأهلية والمتطورة في أساس مشروعها منذ الآن. ولا يجوز إرجاء هذه العملية إلى الأفق البعيد أملاً بتوفر الظروف الملائمة في المستقبل. فأمثال هذه الظروف لإقامة **الإمبراطورية الروسية** الكبرى لن تتوفر أبداً ما لم يبادر الشعب والقوى السياسية الطامحة إلى العمل باسمه منذ الآن إلى توطيد توجهها الجيوبولتيكي والحكومي الأساسي وبصورة واعية وواضحة. فالإمبراطورية ليست مجرد دولة كبيرة جداً. إنها أمر مختلف كل الاختلاف. إنها حلف استراتيجي جيوبولتيكي يتجاوز المعاملات الخاصة بالدولة الاعتيادية، إنها ما فوق الدولة. ومن الناحية العملية لم تتطور أي دولة اعتيادية لتصبح امبراطورية. أقيمت الإمبراطوريات دفعة واحدة كتعبير عن إرادة حضارية متميّزة، أعظم، كحافز هائل لبناء العالم. ولهذا فإن من الضروري القول منذ الآن لا **الدولة الروسية** بل الإمبراطورية الروسية. لا طريق التطور الاجتماعي ـ السياسي بل طريق الثورة الجيوبولتيكية.

3 ـ الملامح الجيوبولتيكية والإيديولوجية لإمبراطورية الروس الجديدة يجب أن تتحدد على أساس التخلص من تلك اللحظات التي أدت من الناحية التاريخية إلى إفلاس الصيغ الإمبراطورية السابقة. وبناء على ذلك يجب على **الإمبراطورية الجديدة:**

ـ أن تكون لا مادية، لا إلحادية، ذات اقتصاد لا مركزي.

ـ أن تكون لها إما حدودها البحرية أو الأحلاف الصديقة على الأراضي القارية المجاورة.

ـ أن تتميّز بالبنية الاتنية ـ الدينية التعددية المرنة بالنسبة لبنائها السياسي ـ الإداري الداخلي وما إلى ذلك، بمعنى أن تأخذ في الحسبان الخصائص المحلية الاتنية، الدينية، الثقافية، الأخلاقية وما إلى ذلك بالنسبة لكل منطقة وأن تضفي الصفة القانونية على هذه العناصر.

ـ إضفاء المرونة على مشاركة الدولة في توجيه الاقتصاد، فلا تمس إلا آفاقه الاستراتيجية، وتقليص الدورة الاجتماعية بشدة، والعمل على الوصول إلى المشاركة العضوية للشعب في قضايا التوزيع.

(هذه البنود الأربعة الأولى تنطلق من تحليل أسباب إفلاس **الإمبراطورية السوفياتية).**

ـ شحن المعادلة الدينية ـ القيصرية بالمضمون المقدس الصافي الذي ضاع تحت تأثير الغرب العلماني على أسرة رومانوف، وتحقيق «ثورة» أرثوذوكسية «محافظة» من أجل العودة إلى منابع النظرة المسيحية الحق.

ـ تحويل مصطلح «الشعبية» من الشعار الأوفاروفي إلى أفق مركزي للبناء الاجتماعي ـ السياسي **وجعل الشعب** المقولة المؤسسة السياسية والحقوقية الأهم، ومعارضة التصور العضوي للشعب عن طريق المعايير الكمية للقانونية الليبرالية والاشتراكية وصياغة نظرية «حقوق الشعب».

ـ التوجه بدلاً من الجيوبولتيكا السلافيانوفيلية إلى المشاريع الأوراسية التي ترفض سياسة روسيا المعادية للألمان في الغرب وسياستها المعادية لليابانيين في **الشرق** والتخلص من التوجه الأطلسي الثاوي تحت قناع «القومية الروسية».

ـ الحيلولة دون عمليات الخصخصة والرسملة، وأيضاً دون لعبة البورصة

والمضاربات المالية في **الإمبراطورية**، والتوجه نحو رقابة الشعب التعاونية، الجماعية والحكومية على الواقع الاقتصادي، ونبذ خرافة «الرأسمالية الوطنية» المثيرة للريبة.

ـ الانتقال من مبدأ المحافظات إلى إقامة الاتنية ـ الدينية ذات المستوى الأعلى من الاستقلال الذاتي الثقافي، اللغوي، الاقتصادي والحقوقي وتحديدها في استقلالية سياسية، استراتيجية، جيوبولتيكية وإيديولوجية واحدة.

(هذه البنود الخمسة تنطلق من نقد الأنموذج القيصري).

وعلى بُناة **الإمبراطورية الجديدة** أن يقفوا بفعالية ضد توجهات «الشبان الروس» في القومية الروسية، مَنْ يتطلعون إلى تثبيت وضعية «الدولة ـ الأمة» على روسيا، وضد جميع القوى السياسية الرومانسية التي تضع في مخططاتها الجيوبولتيكية الدعوة إلى تلك العناصر التي كانت قد انتهت بالإمبراطورية إلى الكارثة.

لا معنى لوجود الشعب الروسي كجماعة تاريخية عضوية بدون إبداع قاري يقوم على بناء الإمبراطورية. ولن يغدو الروس شعباً إلا في إطار الإمبراطورية الجديدة.

وعلى هذه الإمبراطورية، وفق المنطق الجيوبولتيكي أن تتفوق من الناحية الاستراتيجية والمدى المكاني على الحالة السابقة (الاتحاد السوفياتي) وعلى هذا فإن **الإمبراطورية الجديدة** ينبغي أن تكون أوراسية قاريّة كبرى وأن تكون في المستقبل ـ **عالمية**.

فمعركة الروس من أجل السيادة على العالم لم تنته بعد.

حدود العالم

4 ـ 1 اليابسة والبحر. العدو المشترك

للإمبراطورية الجديدة، والتي سيكون على الشعب الروسي أن يقيمها في المستقبل منطقها الجيوبولتيكي الضمني، المنقوش في البنية الطبيعية للمدى الجغرافي للكرة الأرضية.

والقانون الجيوبولتيكي الأساسي، الذي صاغه ماكيندر في أجلى صورة يقول بأن العملية الجيوبولتيكية الأساسية والمتواصلة عبر التاريخ هي معركة الدول القارية ذات الطرق البريّة (ذات الصيغة الطبيعية للبناء السياسي الإيديوكراتي) ضد الدول البحرية الجزيرية (ذات البناء الاقتصادي التجاري السوقي). وتلك هي المواجهة الأبدية لروما ضد قرطاج، سبارطة ضد أثينا، انجلترا ضد ألمانيا وهكذا. ومنذ بداية القرن العشرين أخذت هذه المواجهة بين الوجودين الجيوبولتيكيين تكتسب طابعاً عالمياً. والقطب البحري التجاري الذي يستقطب نحو مداره جميع الدول الأخرى صار الولايات المتحدة، أما القطب القاري فهو روسيا. وبعد الحرب العالمية الثانية حددت الدولتان العظميان بصفة نهائية دوريهما الحضاريين. فمن الناحية الاستراتيجية ابتلعت الولايات المتحدة الغرب والمناطق الشاطئية للأوراسيا، أما الاتحاد السوفياتي فوحّد حوله كتلة قارية هائلة من الآماد الأوراسية. ومن وجهة نظر الجيوبولتيكا كعلم لقي في الحرب الباردة تجسيده التناقض القديم بين الطرازين البدئيين **للبحر واليابسة**، للبلوتوكراتيا والإيديوكراتيا، حضارة التجار

وحضارة الأبطال (ثنائية «الأبطال والباعة» حسب تعبير فيرنير زومبارت(*) صاحب كتاب يحمل العنوان نفسه).

وانهيار المعسكر **الشرقي** ثم الاتحاد السوفياتي بعد ذلك خرق التوازن الجيوبولتيكي النسبي لصالح الأطلسية، أي المعسكر الغربي والحضارة التجارية على العموم. بيد أن التوجهات الجيوبولتيكية تمثل العامل الموضوعي ولا يبدو ممكناً إبطالها بطريقة «ذاتية» قائمة على المبادرة. فميول اليابسة ـ الدوافع القارية لا يمكن استبدالها ضمن نظام وحيد الجانب وعليه فإن بناء إمبراطورية قارية، شرقية، جديدة يمثل الحتمية الجيوبولتيكية الممكنة.

ومما لا شك فيه أن قطب الحضارة البحري الأطلسي هو اليوم في ذروة قوته وجبروته إلا أن العوامل الموضوعية تجعل من ردة فعل الشرق القارية أمراً لا مردّ له. **فالإمبراطورية القارية** موجودة دوماً من حيث الامكان، وهي لا تبحث إلا عن الشروط المناسبة لتتجسد في واقع سياسي.

على الوعي الواضح لهذه الحتمية الجيوبولتيكية يجب أن تقوم **الإمبراطورية الجديدة**. وفي هذه الإمبراطورية ستكون للروس دون غيرهم الوظيفة الطبيعية الأساسية **فهم** الذين يسيطرون على الأراضي التي تعد محورية في الكتلة القارية الأوراسية. والإمبراطورية الجديدة لا يمكن أن تكون إلا روسية ما دام الروس جغرافياً وثقافياً وحضارياً واجتماعياً ـ اقتصادياً واستراتيجياً ومن الناحيتين الطبيعية والعضوية يتجاوبون مع هذه الرسالة الكونية ويتجهون إلى أدائها على مدار تاريخهم القومي والحكومي. وقد سمى ماكيندر الأراضي الروسية بـ«المحور الجغرافي للتاريخ» أي بالأراضي التي تكونت حولها حضارة الأوراسيا الشاطئية (والتي كثيراً ما تتماهى مع «الحضارة» في مفهومها العام) تحت تأثير المواجهات الديالكتيكية بين العوامل الثقافية ـ السياسية البحرية (الخارجية) والقارية (الداخلية)، إن بامكان

(*) زومبارت، فيرنير، (1863 ـ 1941) اقتصادي ألماني، مؤرخ، عالم اجتماع وفيلسوف الكانتية الجديدة. تأثر في بداية عهده بأفكار ك. ماركس ثم وقف ضد الماركسية. ربط تطور الرأسمالية بظهور «الروح الرأسمالية» (شهوة المال والإثراء) والتي يرى أنها خاصية مكنونة في الإنسان، وهو أحد مؤسسي النظرية الإصلاحية المسماة بـ «الرأسمالية المنظمة». (المترجم).

أي شعب آخر أو أي دولة أخرى أن يلعب دور القطب **في الإمبراطورية** الأوراسية القارية، ولكن لا بد لتحقيق ذلك من أداء مهمة بعيدة عملياً عن الاحتمال، وهي إبادة الشعب الروسي وإزالة الأمة الروسية عن وجه الأرض. وبما أن ذلك يبدو ضعيف الاحتمال فعلى الروس أن يعترفوا وأن يعوا وأن يأخذوا على عواتقهم في المرة الدورية الدور المعقد لمركز **الإمبراطورية الأوراسية**.

وفي أساس البنية الجيوبولتيكية لهذه الإمبراطورية يجب أن يدخل مبدأ أساسي هو **مبدأ «العدو المشترك»**. إن رفض الأطلسية ونبذ السيطرة الاستراتيجية للولايات المتحدة والتخلي عن أولوية القيم السوقية ـ الليبرالية الاقتصادية ـ تلك هي القاعدة الحضارية العامة وذلك الحافز المشترك اللذان يفتحان الطريق للحلف السياسي والاستراتيجي ويقيمان حجر الأساس في بنيان الإمبراطورية القادمة. وإن للغالبية العظمى من الدول الأوراسية وشعوبها خصوصية قارية «يابسية»، لتاريخها الوطني وتقاليدها الحكومية وأخلاقيتها الاقتصادية. والغالبية العظمى من هذه الدول والشعوب تنظر إلى التأثير الاستراتيجي والسياسي الأمريكي على أنه عبء مرهق يؤدي بالأمة إلى الاغتراب عن مصيرها التاريخي. وبغض النظر عن جميع الفروق الداخلية الحضارية منها والدينية والاجتماعية ـ الاقتصادية بين الدول الأوراسية فإن بينها «مؤشّراً مشتركاً» ثابتاً وطيداً ـ هو الكراهية لشمولية السيطرة الأطلسية والرغبة في التحرر من الرعاية القادمة من وراء المحيطات لذلك **النظام التجاري** الذي تفرضه بشكل متواتر قوة الولايات المتحدة الأمريكية، حصن الحضارة «البحرية».

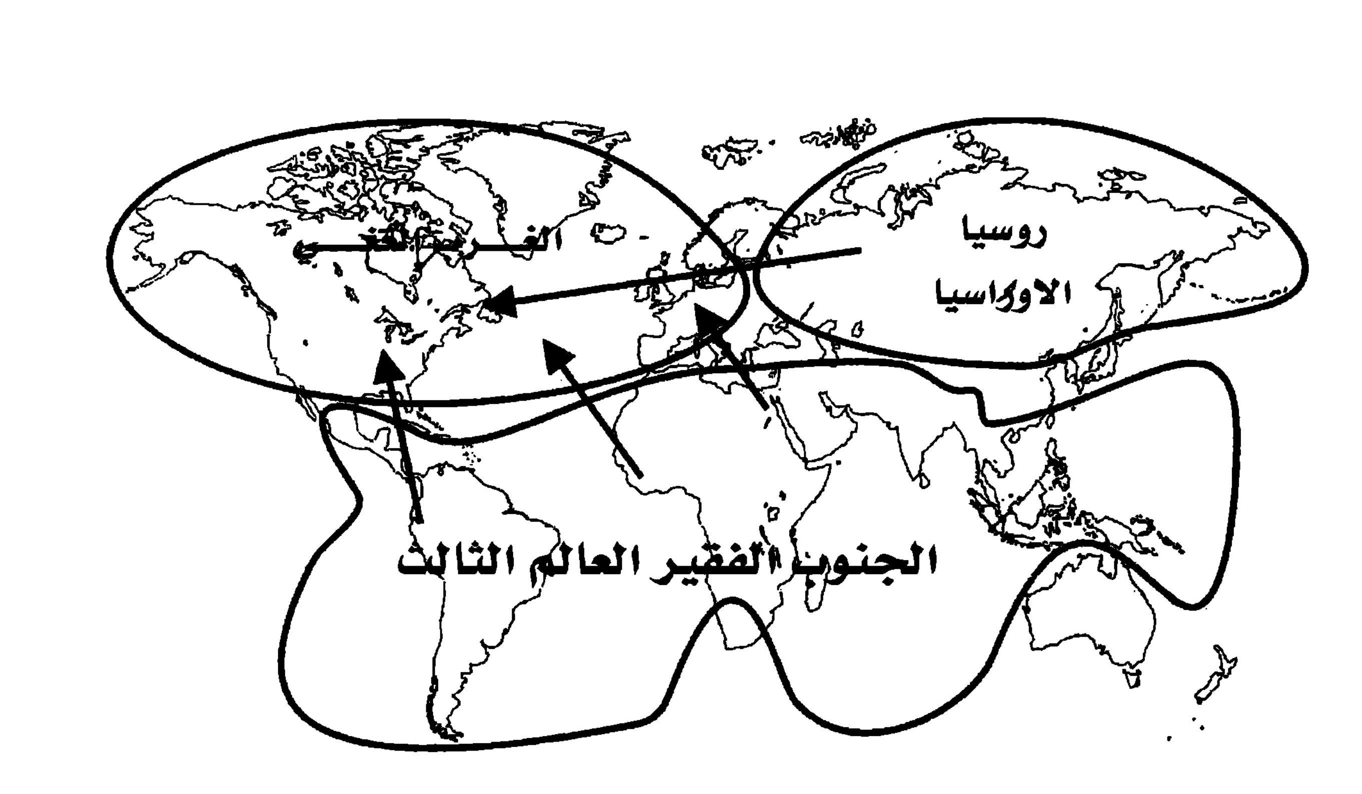
إن الاختلافات في المصالح الجهوية بين الدول الأوراسية ـ في التوجه الديني، الاتني، العرقي والثقافي ـ كل ذلك عوامل ليست قليلة الأهمية ولا يمكن التغاضي عنها. ولكن لا يمكن الحديث عنها بصورة جادة وكاملة الوزن إلا عندما يتلاشى التأثير الاستراتيجي والاقتصادي الخانق «للعدو المشترك» الذي يفرض ذلك الأنموذج البعيد، من الناحية العملية، عن الجميع، المسيحيين منهم والاشتراكيين والمسلمين والوطنيين الرأسماليين والبوذيين والشيوعيين والهندوس. إن هيمنة الولايات المتحدة لا تزال قائمة وجميع الخلافات والتناقضات الداخلية ضمن الأوراسية تحمل طابعاً **مفتعلاً**، فمثل هذا الإيضاح للعلاقات لا يحمل معناه إلا عند غياب العامل الأكثر شمولية والذي ينظم، من الناحية العملية، هذه التناقضات

ويسيطر عليها بهدف إبقاء الأوراسيا أسيرة الانقسام والتفتيت. وبهذا المعنى تعمل جميع «الدول الجهوية» في الأوراسيا، من الناحية المنطقية، في خدمة مصالح الأطلسيين لأنها من خلال عجزها إبداء المقاومة الشاملة لهم (ولا يمكن لهذا أن يتحقق إلا في السياق الاستراتيجي الإمبراطوري)، فإنها ترتبط كلياً بالدولة الوحيدة الأعظم، ولا توجّه طاقتها نحو جيرانها إلا بإقرار من المتنفذين في ما وراء الأطلسي.

«العدو المشترك» الأطلسية يجب أن يصبح العنصر الرابط في البناء الجيوبولتيكي الجديد. وفعالية هذا العنصر لا تخضع للشك، وجميع الحجج ضد هذا التصور إما أن تبتعد بسذاجة عن احتساب الجديّة الموضوعية للهيمنة الأطلسية وشموليتها، وإما أن تصرف الانتباه الجيوبولتيكي عن الأفق الوحيد المسؤول والواقعي لصالح القضايا الجهوية الثانوية، والتي لا تملك أي حل بدون احتساب التوزع العالمي للقوى.

الاتحاد الجغرافي والاستراتيجي مقدَّر للأوراسيا مسبقاً، وهذه حقيقة جيوبولتيكية علمية صارمة. وفي مركز هذا الاتحاد يجب أن توجد روسيا بصورة محتومة. والقوى المحركة للاتحاد يجب أن يكون الشعب الروسي بصورة لا مندوحة منها. ومع هذه الرسالة تتناغم رسالة الروس الحضارية ومثلهم الأعلى العالمي ومنطق التكوين التاريخي للأمة والدولة. **والإمبراطورية الأوراسية الجديدة** مرقونة في الجغرافيا والسياسة للتاريخ العالمي والجيوبولتيكا العالمية. ولا معنى لفتح النقاش مع هذا الظرف. ومصالح الشعب الروسي لا تنفصل عن بناء مثل هذا التكوين القاري.

ليست الجيوبولتيكا الآسيوية **للإمبراطورية الجديدة** مجرد تكوين جغرافي أو تعبير عن الإرادة الجيوبولتيكية نحو توسع لا حدود له. ومبادئها واتجاهاتها الأساسية تأخذ في الحسبان الثوابت الجيوبولتيكية والوضع السياسي الفاعل والميول الدولية القائمة فعلياً والتوازن الاستراتيجي للقوى والقوانين الاقتصادية ـ المتعلقة بالخامات الطبيعية. ولهذا يحمل المشروع الإمبراطوري الأوراسي في داخله عدة معايير في وقت واحد ـ الثقافي منها والاستراتيجي والتاريخي والاقتصادي والسياسي وما إلى ذلك. ومن المهم أن نؤكد منذ البداية على أن الحديث في هذا التحالف «المحوري» الجيوبولتيكي أو ذاك خلال تأسيس **الإمبراطورية** سيتناول


الغرب الغني
روسيا
الاوراسيا
الجنوب الفقير العالم الثالث

درجة مختلفة تماماً من التكامل ترتبط بالمستوى. فيمكن في بعض الحالات أن يكون هناك تقارب ثقافي أو إتني وفي بعضها الآخر ـ ديني وفي الثالث ـ اقتصادي. وتتخذ هذه المسائل حلاً خاصاً يتعلق بكل حالة محدّدة بمفردها. والواقع العالمي التكاملي الوحيد في الإمبراطورية الأوراسية القادمة سيكون الثابت الملح الأساسي **للوحدة الاستراتيجية** أي ذلك التحالف الجيوبولتيكي الذي يسمح، وفق كافة الاتجاهات الاستراتيجية، بالمواجهة الفعالة للتأثيرات الأطلسية والضغط الجيوبولتيكي الأمريكي وللإملائية السياسية الاقتصادية.

الوحدة الاستراتيجية للقارة، والتي يدور الحديث عنها يجب أن تؤمن السيطرة على الحدود البحرية للأوراسيا في كل دول العالم، والاكتفاء الذاتي الاقتصادي على مستوى القارة، والصناعي المتعلق بالموارد الطبيعية، والإدارة المركزية للقوات المسلحة الأوراسية. وتحل جميع الآفاق الأخرى للتكامل ضمن الأوراسية على أساس المبادىء المتفاوتة المرنة انطلاقاً من كل حالة بمفردها. وهذا التصور الأساسي لا بد من وضعه بصورة دائمة في الاعتبار من أجل تلافي الشكوك والاعتراضات غير المبرّرة، التي يمكن أن تظهر في حالة ما إذا قام أحدهم بالقول بدلاً عن **الوحدة الاستراتيجية** بأن الأمر يتعلق بوحدة سياسية، اتنية، ثقافية دينية أو اقتصادية. وعلى فكرة فإن هذا الاستبدال سيقوم به بالضرورة، وبطريقة واعية كل الوعي، ممثلو «المشاعر القومية الصغرى» لدى جميع الشعوب عندما يدينون الأوراسيين وبُناة الإمبراطورية القاريين بأنهم يريدون إذابة اتنياتهم ودياناتهم وثقافاتهم وما إلى ذلك في «طوباوية أممية» جديدة. والمشروع الآسيوي لا يؤدي بأي صورة من الصور إلى تسطيح القوميات، بل هل، على العكس من ذلك، ينطلق من ضرورة حفظ وتطوير ذاتية كل من الشعوب والثقافات، وإزاء هذا فقط يدور الحديث لا عن الأحلام الرومانسية الخالية من المسؤولية لدى «القوميين الصغار» (والذين لا ينتهون من الناحية العملية إلا إلى الشوفينية والنزاعات الاتنية الانتحارية) بل عن الفهم الجاد والموضوعي للوضع العملي، حيث لا يمكن التوصل إلى هذا الهدف إلا بالتحطيم الكلي للتأثير العالمي للغرب الأطلسي بإيديولوجيته الليبرالية السوقية المتطلعة إلى السيطرة العالمية.

ولم يتبق الآن إلا إيضاح جوهر هذا المشروع القاري باحتساب تلك العوامل السلبية التي أحبطت في المراحل السابقة تحقيق هذا المخطط الحضاري الهائل.

4 ـ 2 المحور الغربي: موسكو ـ برلين الإمبراطورية الأوروبية والأوراسيا

تمتلك **الإمبراطورية الجديدة** جسراً جيوبولتيكياً في الغرب هو **أوروبا الوسطى**. **فأوروبا الوسطى** تمثّل تشكيلاً جيوبولتيكياً طبيعياً موحداً من الناحية الاستراتيجية والثقافية، ومن الناحية السياسية إلى حد ما، أما من الناحية الاتنية فتدخل في هذا المجال شعوب الإمبراطورية النمساوية السابقة بالإضافة إلى ألمانيا وبروسيا وجزء من الأراضي البولندية والأوكرانية الغربية. والقوة المكتّلة المركزية لأوروبا الوسطى هي، تقليدياً، ألمانيا التي وحدت تحت سيطرتها هذا الخليط الجيوبولتيكي.

وتتمتع أوروبا الوسطى وفقاً لتصورات طبيعية ـ جغرافية وتاريخية بطابع قاري «يابسي» بالغ الوضوح يتناقض مع الآماد «البحرية»، «الأطلسية» **لأوروبا الغربية**. ومن الناحية المبدئية يمكن للتأثير السياسي لأوروبا **الوسطى** أن يمتد جنوباً ـ إلى إيطاليا وإسبانيا وهو ما مهدت له أحداث تاريخية كثيرة. ومن الأكثر منطقية اعتبار العاصمة الجيوبولتيكية لأوروبا **الوسطى** مدينة برلين كرمز لألمانيا التي تعد بدورها رمز هذا التشكل في مجموعه ومركزه. وألمانيا والشعب الألماني فقط يتمتعان بجميع الخصائص اللازمة لتحقيق التكامل الفعال لهذه المنطقة الجيوبولتيكية ـ الإرادة التاريخية، الاقتصاد المزدهر بصفة رائعة، الوضع الجغرافي ذو الأفضلية، التجانس الاتني ووعي الرسالة الحضارية الخاصة. كانت ألمانيا القارية الإيديوكراتية تقف تقليدياً في وجه انجلترا التجارية ـ البحرية، وخصوصية هذه المواجهة الجيوبولتيكية والثقافية لمست بطريقة ملحوظة التاريخ الأوروبي وبخاصة بعد أن تسنّى للألمان أخيراً إقامة دولتهم الخاصة.

من الناحية الجيوبولتيكية تبدو انجلترا الدولة الأقل أوروبية والتي تتناقض مصالحها الجيوبولتيكية تقليدياً مع مصالح دول أوروبا الوسطى وبصفة أوسع مع الميول القارية في أوروبا. ومن ناحية أخرى فبصورة موازية لتفاقم دور الولايات المتحدة وانفرادها، عملياً، بالسيطرة الشاملة على المستعمرات الإنكليزية، أخذ دور انجلترا الاستراتيجي بالتقلص، وهذه البلاد تبدو اليوم في أوروبا أقرب إلى أن تكون قاعدة الولايات المتحدة الأمريكية، القاعدة العائمة الخارجة عن نطاق

الأرض منها إلى أن تكون قوة مستقلة. ومهما يكن من أمر فإن انجلترا تبدو في نطاق أوروبا الدولة الأكثر عداء للمصالح القارية، خصم **أوروبا الوسطى** وبالتالي فإن **الإمبراطورية الأوراسية الجديدة** تجد في شخصها العدو السياسي، الإيديولوجي والاقتصادي. ومن الأمور الأقل احتمالاً أن يتم التوصل بطريقة إرادية إلى تصديع الطريق الحضاري لهذه البلاد ذات الخصوصية والتي أقامت في حينها إمبراطورية تجارية ـ استعمارية جبارة ذات طابع «بحري» صرف، والتي ساعدت بكل الإمكانيات على ظهور مجموع الحضارة الغربية المعاصرة القائمة على التجارة، والكمّ والرأسمالية والمضاربات ولعبة البورصة. فذلك شيء غير واقعي على الإطلاق، وبناء عليه تغدو انجلترا في المشروع الأوراسي وبصفة لا مفر منها «كبش الفداء» لأن العمليات الأوروبية للتكامل القاري ستجري بالضرورة ليس فقط دون احتساب المصالح الإنكليزية بل وبتناقض مباشر مع تلك المصالح. وفي هذا السياق يلعب دوراً غير ثانوي الدعمُ الأوروبي، ثم بصورة أوسع، الدعم الأوراسي للروح القومية الإيرلندية، السكوتلندية والويلزية حتى حدود تشجيع الميول الانفصالية واللااستقرار السياسي في بريطانيا العظمى.

التشكيل الجيوبولتيكي النقيض الآخر هو فرنسا. وقد حمل التاريخ الفرنسي في كثير من وجوهه طابعاً أطلسياً يناقض التوجهات القارية والأوروبية الوسطى. وكانت فرنسا العدو التاريخي الأول لإمبراطورية النمسا والمجر، أيدت بكل الطرق الوضع التفتيتي للإمارات الألمانية متطلعة إلى «تقدميّة» و«مركزية» ذات طابع لا تقليدي ومناقض للطبيعي. وعلى العموم فمن وجهة نظر تدمير التقليد القاري الأوروبي كانت فرنسا على الدوام في الطليعة وفي حالات عديدة كانت السياسة الفرنسية تتماهى مع الأطلسية الأشد عدوانية. وظل ذلك سارياً على الأقل حتى الوقت الذي أمسكت فيه الولايات المتحدة بناصية الدور العالمي لقطب الأطلسية الأعظم.

ويوجد في فرنسا توجه جيوبولتيكي بديل يعود إلى الخط القاري لنابليون (الذي رحب به غوته[*] في عهده كقائد التكامل القاري في أوروبا) وهو ما تجسد

(*) غوته Goethe، يوهان (1749 ـ 1832)، شاعر ألماني. مؤسس الأدب الألماني الحديث. مفكر وعالم طبيعيات. بدأ بالأشعار المتمردة تمشياً مع مدرسة العاصفة والاندفاع، =

في سياسة ديغول الأوروبية والذي بحث عن تحالف مع الألمان وعن تأسيس اتحاد أوروبي ـ كونفدرالي مستقل عن الولايات المتحدة. وإلى حد ما كان هذا الخط يلهم مشاريع ميتران الفرانكو ـ جرمانية. ومهما يكن من أمر، فبوسعنا، من الناحية الافتراضية، أن نتخيل لأنفسنا مثل هذا التحول للأحداث بأن تعترف فرنسا بأولوية عامل أوروبا الوسطى وأن تسير طواعية نحو المشاركة في المعسكر الجيوبولتيكي الأوروبي ذي التوجه القاري المعادي لأمريكا. والأراضي الفرنسية هي العامل الضروري للمعسكر الأوراسي في الغرب، فبه ترتبط، وبصورة مباشرة، السيطرة على الساحل الأطلسي ويرتبط طبقاً لذلك أمن **الإمبرطورية الجديدة** في المناطق الغربية. والحلف الفرانكو ـ جرماني على أية حال هو الحلقة الرئيسة للجيوبولتيكا الأوراسية في الغرب القاري بشرط أن تكون الأفضلية هنا لمصالح **أوروبا الوسطى** وبالذات لاكتفائها الذاتي واستقلالها الجيوبولتيكي. ويعرف هذا المشروع باسم **«الإمبراطورية الأوروبية»**. وتكامل أوروبا تحت راية ألمانيا كأساس لمثل هذه الإمبراطورية الأوراسية يتسق تماماً والمشروع الأوراسي ويبدو الأكثر قبولاً في قضية تكامل قاري أكثر عالمية.

ولن يكون لجميع التوجهات نحو الوحدة الأوروبية حول ألمانيا **(أوروبا الوسطى)** أي مغزى إيجابي إلا بمراعاة شرط أساسي واحد ـ وهو إقامة المركز الجيوبولتيكي، الاستراتيجي الثابت **موسكو ـ برلين** وأوروبا الوسطى لا تملك بمفردها المقدرة السياسية والعسكرية الكافية لتصل إلى الاستقلالية الحقيقية عن الهيمنة الأطلسية للولايات المتحدة. وفضلاً عن ذلك يصعب في الظروف الحالية توقع حدوث صحوة قومية وجيوبولتيكية حق بمعزل عن التأثير الثوري للعامل الروسي. إن **الإمبراطورية الأوروبية** بدون موسكو، والأوراسيا بكلمة أوسع، ليست عاجزة فقط عن أن تنظم بصورة كاملة مداها الاستراتيجي إزاء نقص قدراتها

= وكتب الرواية الرومانسية المشهورة «آلام الفتى فرتر» ثم توجه إلى إحياء التقاليد القديمة فكتب «المراثي الرومانية»، و «ايغمونت» ثم انتقل إلى محاولة التفسير الواقعي للإبداع الفنّي وتفاعل الإنسان مع المجتمع في «الشعر والحقيقة». ثم كتب عمله المشهور «الديوان الشرقي للشاعر الغربي». أما أشهر أعماله فهو مطوّلته الشعرية «فاوست» المفعمة بالبحث عن معاني الحياة والحافلة بالمعلومات العلمية لعصره. وهي من عيون الأدب العالمي. (المترجم).

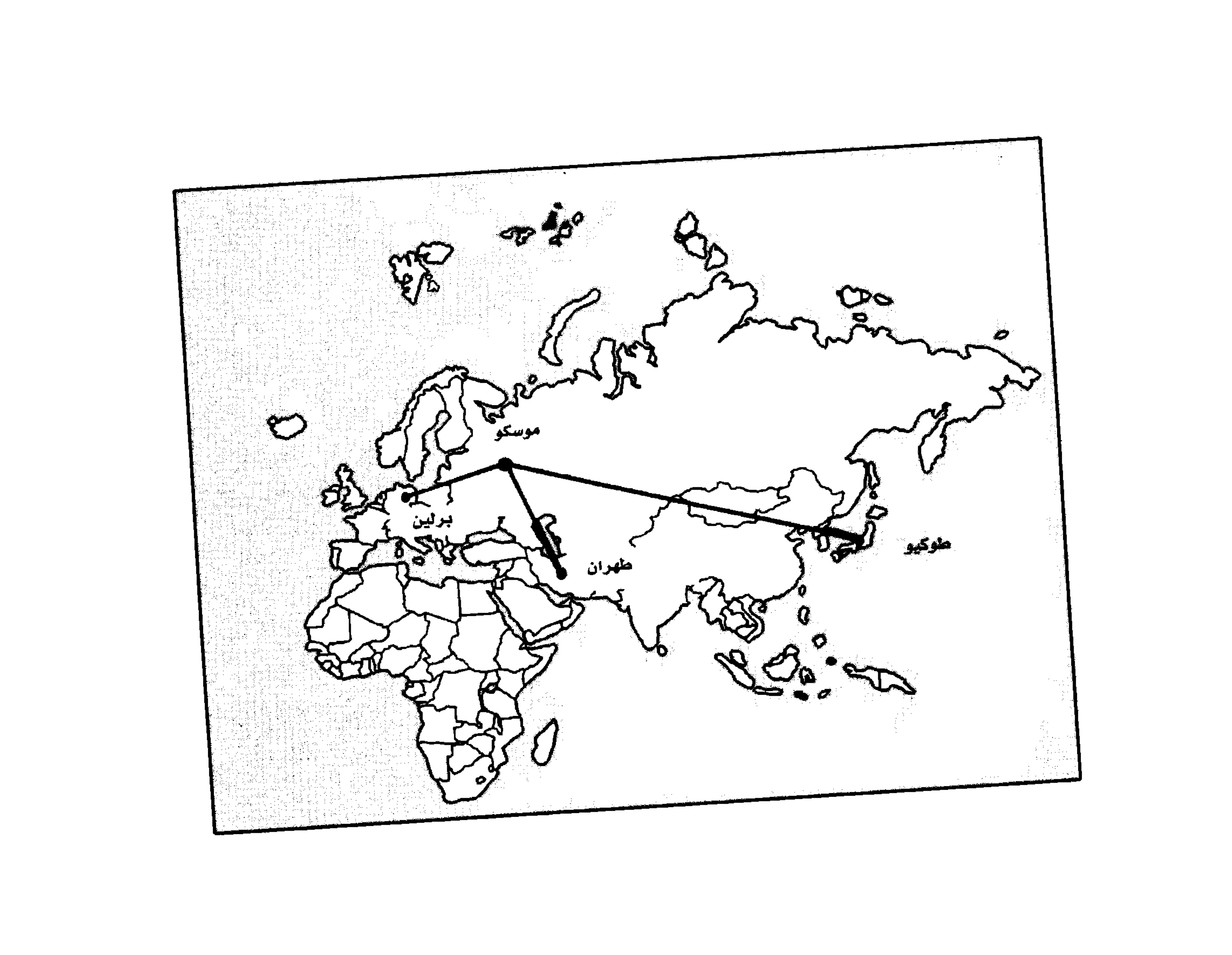
العسكرية ومبادرتها السياسية ومواردها الطبيعية بل وإنها لا تملك، في المعنى الحضاري، المُثُل والتوجهات الواضحة، لأن تأثيرات النظام التجاري والقيم السوقية الليبرالية قد أصابت بشلل عميق أسس الرؤية الوطنية للشعوب الأوروبية، وعطلت النظم القيمية العضوية التاريخية لديها. والإمبراطورية الأوروبية لن تصبح واقعاً جيوبولتيكياً وحضارياً مكتملاً إلا تحت تأثير طاقة إيديولوجية وسياسية وروحية جديدة تنطلق من أعماق القارة أي من روسيا. وفضلاً عن ذلك فبإمكان روسيا والروس فقط أن يقدما لأوروبا الاستقلال الاستراتيجي والاكتفاء الذاتي بالموارد الطبيعية. ولهذا يجب أن تتشكل **الإمبراطورية الأوروبية** بالذات، الواقعة على محور مباشر مع موسكو.

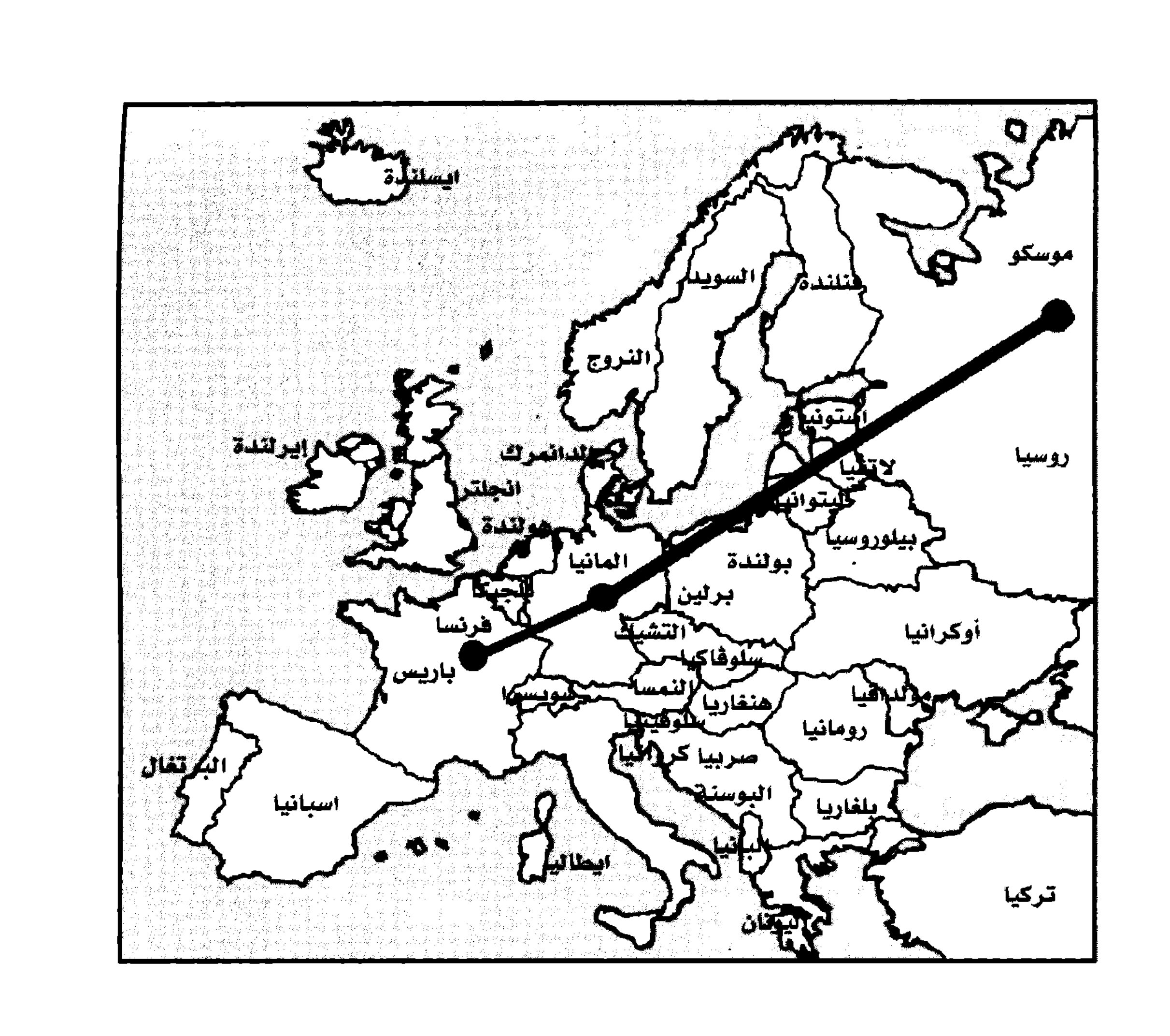
والخافز الأوراسي يجب أن ينطلق بالذات من موسكو ناقلاً رسالة الروس الحضارية (وقد تم تكييفها بالطريقة الملائمة للخاصية الأوروبية) إلى برلين بينما تنتقل هذه بدورها للقيام بالتكامل الأوروبي وفق المبادىء والمشاريع يلهمها الدافع القاري الجيوبولتيكي المتعمق. وضمانة جدارة **الإمبراطورية الأوروبية** تنعكس في رجحان مؤكد للتوجهات الموالية للروس في ألمانيا نفسها وبالصورة التي فهمتها أفضل العقول الألمانية ـ من موللر فان دين بروك حتى أرنست نيكيش، وكارل هاوسهوفر ويورديس فون لوهاوزن. وكامتداد لهذا الميل الجيوبولتيكي نحو الروس ينبغي لبقية أوروبا (ولفرنسا بالدرجة الأولى) أن تحذو حذو التوجه الموالي لألمانيا. وفي مثل هذه الظروف فقط يمكن للشعاع الغربي للإمبراطورية الأوراسية أن يكون الشعاع المناسب والثابت وأن يتعزز من الناحية الاستراتيجية ويكون منهجياً من الناحية الايديولوجية. ولكن ينبغي الاعتراف بأن أي وحدة أخرى لأوروبا غير ممكنة ببساطة بدون التناقضات العميقة والانشقاقات الداخلية. ومثالاً على ذلك فإن توحد أوروبا الحالي تحت الهيمنة الأمريكية الناتوية سيكشف في وقت قريب جداً عن الإحساس بكل تناقضاته الجيوبولتيكية الاقتصادية ولهذا فإنه سينتهي حتماً إلى أن يكون باطلاً أو معطّلاً أو يتخذ بشكل عفوي مقياساً مفاجئاً معادياً للأمريكيين (ومن المحتمل أن يكون أوراسياً) وهذا ما تنبأ به جان تيريار.

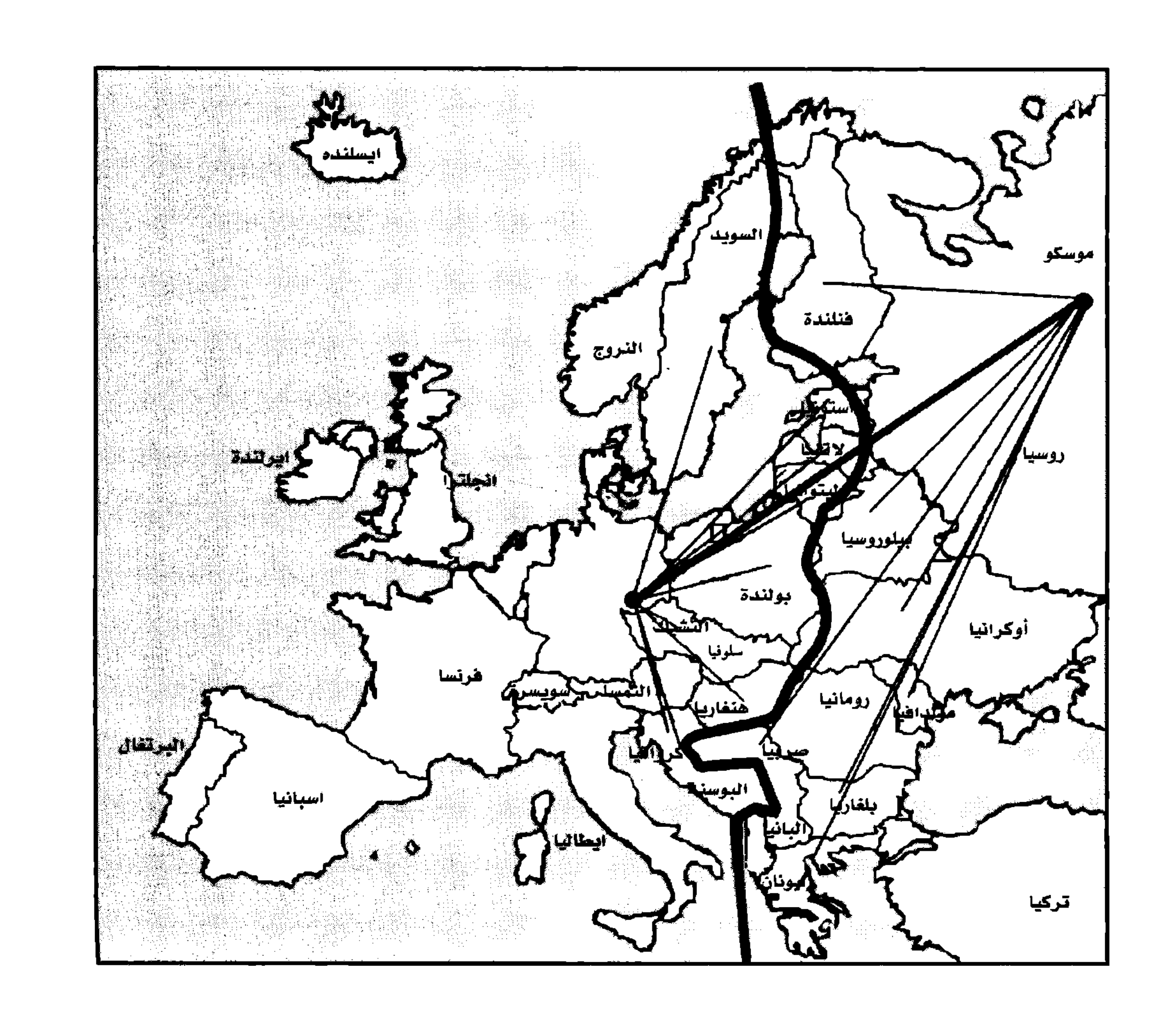
ومن المهم أن نشير على الفور إلى أن توحد أوروبا حول ألمانيا يجب أن يضع في الحسبان الأخطاء السياسية الكبرى للمحاولات السابقة وبالدرجة الأولى سقوط ملحمة هتلر **والرايخ الثالث**. فوحدة أوروبا الجيوبولتيكية حول **أوروبا**

الوسطى (ألمانيا) لا تعني بأي حال الهيمنة **الاتنية** للألمان أو إقامة البناء، لقد قال تيَريار: «**الخطأ الرئيسي لهتلر هو أنه أراد أن يجعل أوروبا ألمانية، بينما كان عليه أن يتطلع إلى جعلها أوروبية**». وتظل هذه المقولة فعالة بشكل مطلق بالنسبة للمرحلة المعاصرة ويمكنها أن تنسحب على جميع العمليات الإمبراطورية الحديثة بما في ذلك داخل روسيا. فالإمبراطورية الأوروبية المتشكلة حول ألمانيا يجب أن تكون **أوروبية** متحررة من الهيمنة الاتنية أو اللغوية لأي شعب بمفرده. ولكي تكون ألمانيا القلب الجيوبولتيكي لأوروبا عليها أن تتسم بطابع إمبراطوري حضاري خاص ما فوق القومي ينبذ المحاولات المتناقضة والمستحيلة التطبيق لإقامة «دولة ـ أمة» عنصرية متجانسة. وعلى الشعوب الأوروبية أن تشارك مشاركة متساوية في بناء الجسر الغربي للأوراسيا وأن تكيّف الدافع الإمبراطوري المشترك بما يتلاءم وخصوصياتها القومية والثقافية. وعلى **الإمبراطورية** الأوروبية ألا تسحق القوميات الأخرى وألا تخضعها للألمان أو الروس بل أن تحررها من ربقة الحضارة الكمية، الاستهلاكية، السوقية، وأن توقظ طاقاتها القومية الدفينة وتعيدها إلى حضن التاريخ وحداتٍ سياسية مستقلة حية وكاملة الأهلية تضمن حريتها القوة الاستراتيجية لمجموع الأوراسيا.

وإقامة محور برلين ـ موسكو. كمحور غربي يحمل بنية الإمبراطورية الأوراسية تفترض اتخاذ عدد من الخطى الجادة بالنسبة لدول أوروبا الشرقية الواقعة بين روسيا وألمانيا. إن السياسة الأطلسية التقليدية في هذه المنطقة تقوم على أساس المنطلق الماكيندري المتعلق بضرورة إقامة «نطاق صحي» من شأنه أن يكوّن منطقة الصدمة المضادة التي تحول دون قيام الاتحاد الروسي ـ الألماني الذي يمثل خطراً حيوياً على مجموع المعسكر الأطلسي. ولتحقيق هذه الغاية حاولت انجلترا وفرنسا بكل الوسائل أن تزرعا اللااستقرار لدى الشعوب الأوروبية الشرقية وأن توحيا إليها بضرورة «الاستقلال» والتحرر من التأثيرات الألمانية والروسية. وفضلاً عن ذلك حاولت القدرات الدبلوماسية للأطلسيين أن تعزز بكل الوسائل مشاعر الكراهية للروس في ألمانيا ومشاعر الكراهية للألمان في روسيا لتجر هاتين الدولتين إلى نزاع محلي حول تقاسم مجالات التأثير في المناطق البينية ـ في ألمانيا، رومانيا، صربيا، هنغاريا، تشيكوسلوفاكيا، البلطيق وأوكرانيا الغربية وما إليها. وعلى هذا الخط نفسه يسير ااستراتيجيو الناتو الحاليون إذ يطرحون فكرة إقامة دول


موسكو
برلين
طهران
طوكيو


ايسلندة
موسكو
السويد
فنلندة
النروج
استونيا
إيرلندة
الدانمرك
انجلتر
هولندة
روسيا
بيلوروسيا
المانيا
بولندة
برلين
فرنسا
التشيك
أوكرانيا
باريس
سلوفاكيا
النمسا
هنغاريا
رومانيا
صربيا
البوسنة
اسبانيا
بلغاريا
ايطاليا
تركيا


ايسلنده
السويد
موسكو
فنلندة
النروج
ايرلندة
انجلترا
روسيا
بيلوروسيا
بولندة
أوكرانيا
التشك
سلوفيا
فرنسا
سويسرة
النمسا
هنغاريا
رومانيا
مولدافيا
البرتغال
كرواتيا
صربيا
اسبانيا
البوسنة
بلغاريا
ايطاليا
تركيا

«فيدرالية البحر الأسود والبلطيق» التي كانت مرتبطة بصورة مباشرة مع الأطلسية والتي تحمل مشاعر العداء لكل من روسيا وألمانيا.

إن إقامة محور برلين ـ موسكو يفترض بالدرجة الأولى إلغاء بناء «النطاق الصحي» في **أوروبا الشرقية**، والنضال الفعال ضد حاملي الكراهية للروس في ألمانيا وكراهية الألمان في روسيا. وبدلاً من الاهتداء بالمصالح الجهوية في منطقة التأثيرات المتبادلة ووضع الشعوب القريبة لهذه المنطقة في نظام وحيد الجانب من الناحية السياسية والاتنية. على روسيا وألمانيا أن تقوما، بصورة مشتركة ومسبقة التنسيق بحل **جميع** المشاكل المتنازع عليها وذلك بعد إعداد خطة مشتركة لاعادة تقاسم جغرافية التأثير في هذه المنطقة والقيام بعد ذلك وبصرامة باختراق جميع المبادرات المحلية للقوميات الأوروبية الوسطى المتعلقة بإعادة النظر في الخطط الروسية ـ الألمانية. ومن الأمور الرئيسة التي ينبغي التطلع إليها إزاء ذلك الإبعاد الجذري لكل شكل من أشكال «النطاق الصحي» والتذرية المتعمّدة لأحلام الدول البينية، تلك الأحلام المتعلقة باستقلالها الممكن عن الجيران الأقوياء من الناحية الجيوبولتيكية. فضمن إقامة حدود واضحة مباشرة بين روسيا الصديقة وأوروبا الوسطى (ألمانيا)، بل وحتى إقامة حلف استراتيجي موحَّد في المستقبل وفق محور برلين ـ موسكو، وهذه الحدود يجب أن تحفظ معناها الجيوبولتيكي كحدود للتجانس الثقافي، الإتني والديني، وذلك من أجل الاستبعاد المتعمد للتوسع على الأراضي الحدودية والمعتمد على أساس اتني أو اعتبارات مذهبية. ويجب النظر منذ البداية إلى العلاقات الروسية ـ الأوكرانية ـ الروسية ـ ودول البلطيق، الروسية ـ الرومانية، الروسية ـ البولندية وما إليها لا على أنها علاقات بين طرفين بل بين ثلاثة أطراف بمشاركة ألمانيا. والأمر نفسه يتعلق بالعلاقات بين ألمانيا والدول (الشعوب) الأوروبية ـ الشرقية، فينبغي أيضاً أن تحمل طابعاً ثلاثياً بمشاركة أكيدة من الجانب الروسي (مع استبعاد التدخل الأمريكي، الأطلسي الدخيل في جميع الحالات). فعلى سبيل المثال يجب أن تكون العلاقات الألمانية، الأوكرانية بالضرورة علاقات ألمانية ـ روسية ـ أوكرانية، والألمانية ـ ودول البلطيق علاقات ألمانية ـ روسية ـ مع دول البلطيق؛ والألمانية ـ البولندية، علاقات ألمانية ـ روسية ـ بولندية وهكذا.

ويمكن لمحور موسكو ـ برلين أن يحل مجموعة كاملة من المشاكل البالغة

الأهمية، والتي يمكن أن تصطدم بها روسيا وألمانيا اليوم. ففي مثل هذا الحلف تحقق روسيا الوصول المباشر إلى التقنيات العالية النوعية، إلى التوظيفات المهولة في التصنيع، وتحصل على المشاركة المضمونة لأوروبا في الصعود الاقتصادي بالأراضي الروسية. وإزاء ذلك لن تكون هناك أي صورة من صور الارتباط الاقتصادي بألمانيا لأن ألمانيا لن تشارك في روسيا كجانب خيري بل كشريك يتلقى لقاء ذلك تغطية استراتيجية من موسكو تضمن لألمانيا التحرر السياسي من هيمنة الولايات المتحدة واستقلالاً في الموارد الطبيعية عن احتياطات الطاقة في العالم **الثالث** والتي تسيطر عليها الأطلسية (وعلى هذا تأسس التهويل الطاقي في أوروبا من طرف الولايات المتحدة). فألمانيا اليوم ـ عملاق اقتصادي وقزم سياسي أما روسيا فعلى العكس من ذلك بكل دقة ـ عملاق سياسي وكسيح اقتصادي. ومحور موسكو ـ برلين يعالج مرض كل من الشريكين ويرسي أساس الازدهار القادم لروسيا العظمى وألمانيا العظمى. وعلى الأفق البعيد يؤدي ذلك إلى إقامة البناء الاستراتيجي والاقتصادي الراسخ لأجل إقامة **الإمبراطورية الأوراسية كلها ـ الإمبراطورية الأوروبية** غربي الأوراسيا **والإمبراطورية الروسية** شرقيها. وإلى ذلك فإن ازدهار الأجزاء المنفصلة لهذا البناء القاري سيعين على ازدهار المجموع.

وكخطوات تمهيدية لإقامة محور موسكو ـ برلين فإن مما يكتسب معناه التطهير الشامل للأفق الثقافي ـ التاريخي للعلاقات المتبادلة من الجوانب الكدرة في تاريخ الحروب الروسية الألمانية الماضي والتي اندلعت نتيجة للنشاط التخريبي الناجح للّوبي الأطلسي في ألمانيا وروسيا. ومن المجدي في هذا المجال إعادة منطقة كالينغراد (بروسيا الشرقية) إلى ألمانيا للتخلص من الرمز الترابي الأخير للحرب المريعة التي قاتل فيها الأخ أخاه. ولكي لا ينظر إلى هذا التصرف من طرف الروس على أنه خطوة دورية في التنازل الجيوبولتيكي فإن مما له جدوى بالنسبة لأوروبا أن تعرض على روسيا إلحاقات ترابية أخرى أو غير ذلك من صور توسيع مجال النفوذ الاستراتيجي وبخاصة من عداد تلك الدول التي تتطلع بعناد إلى الدخول في ما يسمى بـ«فيدرالية البحر الأسود والبلطيق» وقضايا إعادة بروسيا الشرقية ينبغي أن تكون مرتبطة، بشكل لا انفصام معه، بالتوسعات الترابية والاستراتيجية لروسيا، وعلى ألمانيا من جانبها، وبالإضافة إلى الاحتفاظ بالقواعد العسكرية الروسية في منطقة كالينغراد، أن تساعد بالطرق الدبلوماسية والسياسية

على تدعيم المواقف الاستراتيجية لروسيا في **الشمال الغربي والغرب**. وعلى دول البلطيق وبولندا ومولدافيا وأوكرانيا، كـ«نطاقات» محتملة أن تخضع لتحول جيوبولتيكي **لا بعد** إعادة بروسيا بل في وقت متزامن مع ذلك، كعناصر لعملية واحدة هي عملية تثبيت الحدود بين روسيا وأوروبا الوسطى الصديقتين.

وكلمات بسمارك «لا عدوَّ لألمانيا في الشرق» يجب أن تعود لتصبح الأطروحة السياسية الألمانية المسيطرة، كما يجب أن يكون رد الحكام الروس الجوابي: «على الحدود **الغربية** في **أوروبا الوسطى** ليس لروسيا إلاّ الأصدقاء». ولكن من أجل أن يصبح هذا حقيقة لا مجرد تمنيات طيبة لا بد من التطلع إلى أن تصبح الجيوبولتيكا بالذات وقوانينها القاعدة الأساسية لاتخاذ كافة القرارات الأساسية في السياسة الخارجية سواء في ألمانيا أو في روسيا فمن وجهة النظر هذه فقط يمكن أن توعى وأن تفهم ضرورة وحتمية التحالف الروسي ـ الألماني الأشد اتثاقاً وأن يتم الاعتراف بهما بصورة شاملة وحتى النهاية. وإلاّ فإن الدعوة إلى النزاعات والأخطاء التاريخية والمساجلات الجدلية ستمزق كل محاولة لإقامة القاعدة الثابتة والمأمولة لمحور موسكو ـ برلين ذي الأهمية الحيوية.

4 ـ 3 محور موسكو ـ طوكيو: المشروع البانآسيوي نحو اللجنة الأوراسية الثلاثية

يجب أن تكون للإمبراطورية الجديدة استراتيجية واضحة نحو ركنها الشرقي. ولهذا فإن لحدود الأوراسيا الشرقية لهذه الإمبراطورية حجماً استراتيجياً يعادل ما لمشاكل الغرب من حجم استراتيجي.

انطلاقاً من المبدأ المؤسس «العدو المشترك»، يجب على روسيا أن تتوجه نحو إقامة حلف مشترك وبالذات مع تلك الدول التي تتعرض أكثر من سواها للضغوط السياسية والاقتصادية للدولة الأطلسية العظمى، الدول ذات التقليد التاريخي في صياغة المشاريع الجيوبولتيكية المعارضة للأطلسية، والتي تتميز بقوة تقنية واقتصادية تؤهلها لتصبح واقعاً جيوبولتيكياً ريادياً للحلف الجديد.

في هذا الأفق تبدو غير مشروطة على الإطلاق ضرورة التقارب الأعظم مع الهند التي تعد حليفنا الجيوبولتيكي الطبيعي في آسيا وفقاً للمعايير العرقية والسياسية

والاستراتيجية. وبعد الخلاص من الاستعمار حاولت الهند أن تتجنب بكل الوسائل الدخول في حلف رأسمالي وكانت، من الناحية العملية، تترأس حركة «دول عدم الانحياز» التي تبحث في المدى الجيوبولتيكي «اللامنتمي» إمكانات انتهاج «**الطريق الثالث**» والتعاطف المكشوف مع الاتحاد السوفياتي. أما اليوم وقد ألغيت في روسيا العقائدية الشيوعية القاسية فلم تعد ثمة عوائق تحول دون التقارب الأشد اتثاقاً مع الهند.

والهند في حد ذاتها قارة. إلاّ أن نطاق تأثيرها الجيوبولتيكي ينحصر بالهندستان وبنطاق غير واسع في المحيط الهندي ممتد جنوبي شبه القارة. وستغدو الهند بالضرورة الحليف الاستراتيجي **للإمبراطورية الجديدة**، وهي مخفرها الأمامي في الجنوب الشرقي على الرغم من ضرورة الأخذ في الحسبان أن الحضارة الهندية غير ميالة إلى الديناميكية الجيوبولتيكية والامتداد الترابي ـ وفضلاً عن ذلك فإن التقاليد الهندوسية لا تنطوي على مقياس ديني عالمي، ولهذا السبب لا يمكن لهذه البلاد أن تلعب دوراً مهماً إلا في جزء محدود من آسيا. وفي الوقت نفسه يحول التطور الاقتصادي والتقني الضعيف إلى حد بعيد في هذه البلاد، دون الاعتماد عليها اعتماداً كاملاً، فالتحالف معها في المرحلة الحاضرة لن يحل أياً من مشاكل **الإمبراطورية الجديدة**. يمكن للهند أن تكون المخفر الأمامي الاستراتيجي للأوراسيا وعند هذا تنتهي رسالتها من الناحية الواقعية (إذا لم نول الاهتمام المطلوب لثقافتها الروحية والتي يمكن للتعرف عليها أن يساعد على إيضاح التوجهات الميتافيزيكية الأهم **للإمبراطورية**).

الهند، حليف مهم للأوراسيا لكنه ليس الأهم. وفي العالم الحاضر تتطلع واقعيتان جيوبولتيكيتان لشغل دور القطب الشرقي الحق للأوراسيا ـ وهما الصين واليابان. ولكن بين هاتين الدولتين تناقض جيوبولتيكي عميق ذو تاريخ طويل، يتطابق مع نمطية كل من الحضارتين. وعلى روسيا أن تختار واحداً. فلا يمكن للقضية أن تطرح بهذه الطريقة، الصين واليابان في وقت واحد. لا بدَّ هنا من الاختيار.

للوهلة الأولى تمثل الصين كتلة قارية يابسة وتحمل حضارتها طابعاً أوتوريتارياً (غير تجاري). والحفاظ على الإيديولوجية الشيوعية مع إجراء الاصلاحات الليبرالية في الصين المعاصرة سيساعد حسبما يبدو على حسم الاختيار

بصفة نهائية لصالح الصين نقيضاً لليابان الرأسمالية الجزيرية. إلا أن التاريخ يظهر أن الصين بالذات، وليس اليابان، كانت من الناحية الجيوبولتيكية القاعدة الأهم للقوى الانجلوساكسونية في القارة الأوراسية بينما كانت اليابان، على العكس من ذلك، تتمسك بحلفها مع الدول الأوراسية المركزية ذات التوجه المضاد.

ومن أجل فهم هذه المفارقة ينبغي النظر بإمعان إلى الخارطة والإشارة فوقها إلى جغرافية الحربين العالميتين الأخيرتين. في النصف الشمالي من الكرة الأرضية يمكننا، اشتراطياً، أن نحدد أربع مناطق جيوبولتيكية تتطابق والمشاركين الرئيسيين في النزاعات العالمية (سواء من بين الدول أو تحالفات الدول). الغرب الأقصى، الأطلسية ويضم الولايات المتحدة، انجلترا، فرنسا وعدداً آخر من الدول الأوروبية. وتتمتع هذه المنطقة بتوجه جيوبولتيكي بالغ التحديد يماشي الخط البحري «القرطاجي» في التاريخ العالمي. وهذا نطاق الفعالية الحضارية العظمى ومنبع كافة التشكلات «التقدمية» اللاتقليدية.

المنطقة الثانية ـ **أوروبا الوسطى**، ألمانيا، النمسا والمجر، وهذه المنطقة تتجاور بصورة مباشرة مع الحلف الأطلسي من الشرق وهي، من الناحية الجيوبولتيكية تتسم بجميع مظاهر التوجه القاري اليابسي، المعادي للأطلسية، وهي من الناحية الجيوبولتيكية تميل إلى الشرق.

المنطقة الثالثة هي روسيا نفسها، الممتدة في مركز جذب القارة والمسؤولة عن مصير الأوراسيا. أما تركيبة روسيا «المحافظة» القارية واللاليبرالية فواضحة.

وأخيراً فالمنطقة الرابعة تمثلها مساحة المحيط الهادي والتي تلعب الدور الرئيسي فيها اليابان دون سواها، وهي تتطور بسرعة وديناميكية وتتسم بنظام صارم للقيم التقليدية وبفهم واضح لدورها الجيوبولتيكي. وتتوجه اليابان في الأصل توجهاً معادياً للغرب، معادياً لليبرالية، حيث إن نظام القيم فيها يمثل أمراً يتعارض مباشرة مع نظم الإنسانية الأطلسية «التقدمية».

العالم الغربي (الأطلسية) في شخصيات مفكريه الأكثر عمقاً (ماكيندر، ماهان وأمثالهما) كان يدرك بصورة رائعة أن أكبر تهديد للأطلسية العالمية هو تحالف مناطق الأوراسيا الثلاث، من الأوروبية الوسطى وحتى منطقة المحيط الهادي مع مشاركة روسيا ودورها المركزي ـ ضد «التقدمية» الأنجلوساكسونية والفرنسية.

ولهذا كانت المهمة الأساسية للاستراتيجيين الأطلسيين وضع المناطق الأوراسية الثلاث في مواجهة جيرانهم وأحلافهم المحتملين. والنزاعات الروسية، الألمانية والروسية اليابانية كانت تثار بصورة فعالة بالذات من طرف الأطلسيين الذين كانوا ينشطون ضمن الحكومات الأوراسية ومن خارجها مستخدمين أذرعة الدبلوماسية والقوة. وقد توصل أعداء الأطلسية بدءاً من هاوسهوفر إلى الاستنتاج النهائي بأن المواجهة الفعالة ضد الأطلسية يمكن أن تكون ممكنة فقط لدى التخلص من المنطق المفروض على المناطق الأوراسية الثلاث، أي برفض الروس الجذري لكراهية الألمان واليابانيين ورفض الألمان واليابانيين لكراهية الروس مهما كانت الأحداث التاريخية التي يلجأ إليها أنصار هذه «الكراهيات».

وإزاء ذلك فإن لليابان بالذات كرمز لمدى المحيط الهادي بكامله أهمية ذات قيمة أولية في هذه المشاريع المعادية للأطلسية لأن موقع اليابان الاستراتيجي وديناميكية تطورها وخصوصية نظامها القيمي يجعل منها المشارك الأمثل في المعركة العالمية ضد حضارة الغرب. أما الصين فلم تلعب من جهتها دوراً مهماً في هذه اللوحة الجيوبولتيكية، إذ كانت محرومة في البداية من الاستقلال السياسي (الاستعمار الإنكليزي) ثم من الديناميكية الجيوبولتيكية بعد ذلك. وفقط في مرحلة الماوية الفعالة ظهر في الصين التوجه الأوراسي المرتبط بالأرض عندما سيطرت مشاريع «الاشتراكية الفلاحية» وقومية عموم الصين والموالاة الواضحة للسوفيات. لكن ذلك الوضع لم يدم غير فترة وجيزة وتحت شعار عدم الموافقة على تطوير الأنموذج السوفياتي عادت الصين من جديد إلى تنفيذ المهمة الجيوبولتيكية المريبة، زعزعة المصالح الأوراسية في الشرق الأقصى، وتسعير النزاعات مع روسيا. وليس ثمة أدنى شك في أن البيريسترويكا الصينية كانت بدءاً من الثمانينات الإعراض الكلي عن المرحلة الماوية إلى الأنموذج الموالي للأطلسية وهو ما كان من شأنه أن يدعم بصفة نهائية قطيعة الصين مع الاتحاد السوفياتي وانصرافها نحو الغرب. وإزاء ذلك تمت «أطلسة» الصين المعاصرة بصورة أكثر نجاحاً منها في روسيا لأن الليبرالية الاقتصادية **بدون** الديمقراطية السياسية سمحت بربط الصين دون تناقض بالمجموعات المالية الغربية محتفظة في الوقت نفسه بالنظام الشمولي وبمظهرية الاستقلال السياسي. وقد غُرست الليبرالية في الصين بأساليب شمولية ولهذا السبب بالذات تحقق الإصلاح في صورته الكاملة. وإلى السلطة السياسية

ذات الأوليغارشية الحزبية أضيفت السلطة الاقتصادية لتلك الأوليغارشية التي خصخصت الضناعة الشعبية والثروات القومية بنجاح كبير وتذاوبت مع النخبة الكوسموبولتيكية **للنظام التجاري**. والنجاحات الاقتصادية في الصين تمثل واقعاً عديم المعنى لأنها تحققت بثمن التنازلات العميقة أمام الغرب ولا تتناسق مع أي نظام جيوبولتيكي واضح كان يمكنه أن يكون ضمانة للذاتية السياسية أو الاستقلال. والأقرب إلى الواقع أن تقوم الصين الليبرالية الجديدة والتي يحدق بها منافسان جادان ـ هما اليابان العملاقة اقتصادياً وروسيا العملاقة استراتيجياً ـ بالعودة من جديد ـ كما حدث مرات عديدة في التاريخ، إلى دورها الأطلسي المحض في الشرق الأقصى مزاوجة من أجل ذلك بين الدكتاتورية السياسية وقدرات التطور الرأسمالي. وفضلاً عن هذا، فإن اتحاد روسيا الاستراتيجي مع الصين لإقامة حلف موحد، من وجهة النظر الاستراتيجية، سيصرف اليابان على الفور عن الروس وهو ما يجدّد ثانيةً عدوانية تلك المنطقة الأساسية من المحيط الهادي والتي يرتبط بها، في المشروع الأوراسي العام، النجاح الجيوبولتيكي النهائي في الصراع بين اليابسة والبحر.

في الإمبراطورية الجديدة يجب أن يكون المحور الشرقي هو محور **موسكو ـ طوكيو**. إنه الثابت الشرقي الأصلي للآسيوية الشرقية المكونة للأوراسيا. وحول هذا المحور بالذات ينبغي أن تتجمع المبادىء الأساسية للسياسة الآسيوية للأوراسيا. واليابان هي النقطة الأكثر تطرفاً إلى الشمال بين جزر المحيط الهادىء وهي تتوضع في نقطة جغرافية مناسبة إلى درجة خارقة للعادة من أجل تحقيق التوسع الاستراتيجي والسياسي والاقتصادي نحو الجنوب. وفيدرالية المدى الممتد في المحيط الهادىء حول اليابان كان الفكرة الأساسية لما يسمى «بالمشروع البانآسيوي» الذي بدأ يتحقق في الثلاثينيات والأربعينيات والذي لم يخرج إلا بسبب هزيمة دول المحور في الحرب. وإلى هذا المشروع البانآسيوي تجب العودة اليوم من أجل ضرب توسع التأثير الأمريكي في هذه المنطقة وحرمان الأطلسيين عموماً من قواعدهم الاستراتيجية والاقتصادية. وطبقاً لبعض التنبؤات المستقبلية، ستغدو منطقة المحيط الهادي واحداً من مراكز الحضارة الأهم على العموم، ولهذا فإن الصراع على التأثير في هذه المنطقة يبدو أكثر من فعال ـ إنه صراع على المستقبل.

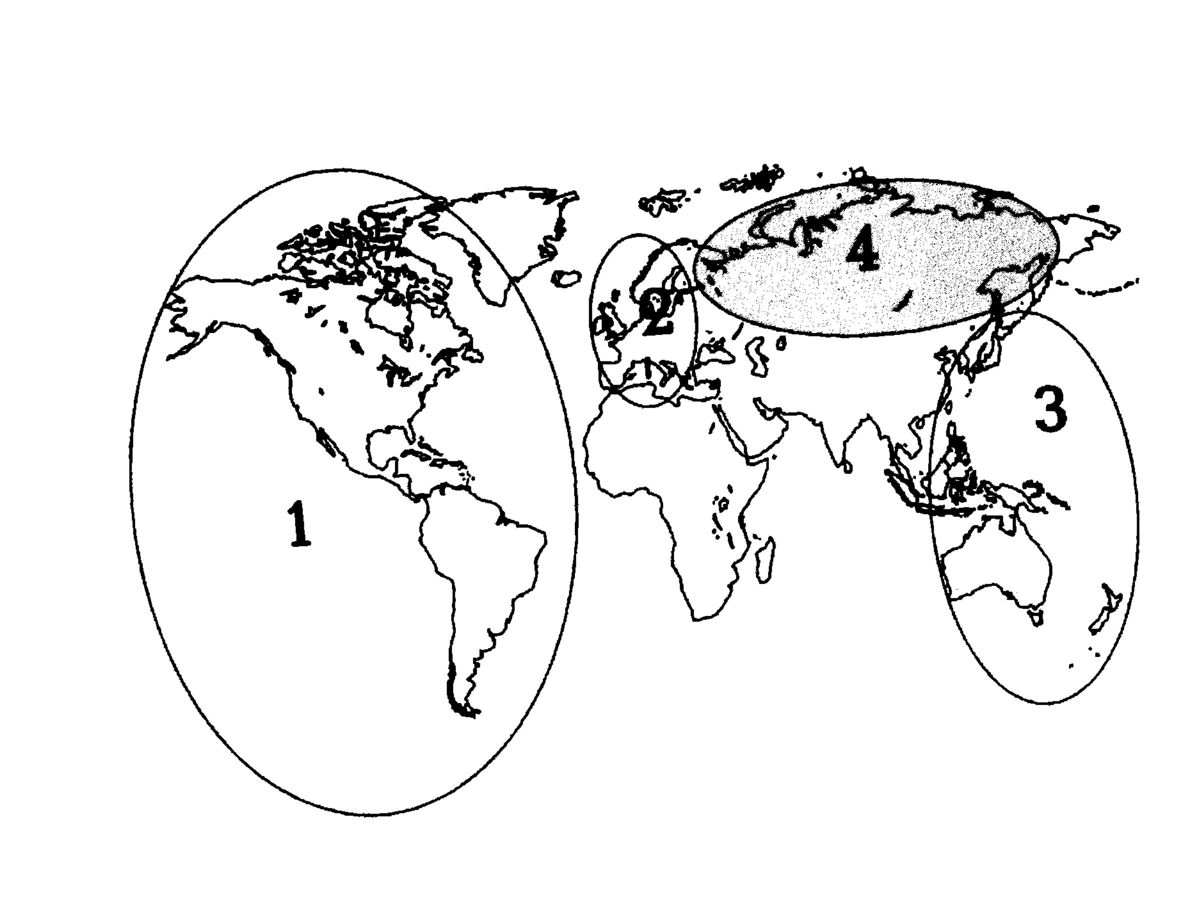
المشروع البانآسيوي هو مركز التوجه الشرقي **للإمبراطورية الجديدة**.

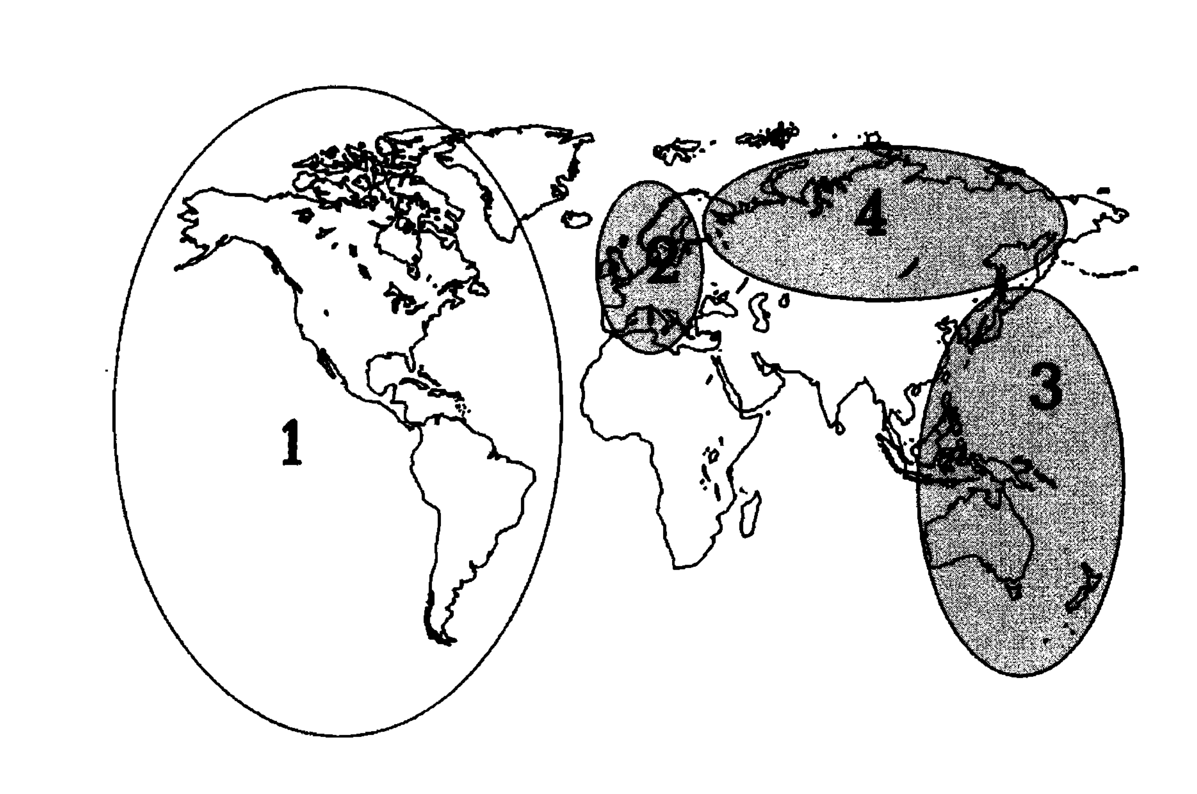
والتحالف مع اليابان ضرورة حيوية. ومحور موسكو ـ طوكيو، على خلاف محور موسكو ـ بكين، يبدو المحور الأفضل، ذا المستقبل، والذي يفتح أمام بناء الإمبراطورية القاري تلك الآفاق التي تجعل الأوراسيا، في نهاية المطاف، **مكتملة** من وجهة النظر الجيوبولتيكية، وهذا ما يضعف إلى أبعد الحدود امبراطورية الغرب الأطلسية، وربما يدمّرها بصفة نهائية.

إن عدائية الأمريكان لدى اليابانيين الذين يذكرون جيداً الإبادة الذرية الجماعية ويعون بوضوح عار الاحتلال السياسي الذي لا يزال متواصلاً على مدار عشرات السنين، لا تثير أدنى شك. ومبدأ «العدو المشترك» ماثل أمامنا هنا. وفي كتاب الأمريكي سيرج فريدمان تصوَّر «الحرب القادمة مع اليابان» (يسمى الكتاب بهذا الاسم Coming war with Japan) أمراً لا مفر منه. وحرب اليابان الاقتصادية ضد الولايات المتحدة دائرة الآن. ولن تجد روسيا، التي تقيم **إمبراطوريتها** الأوراسية، حليفاً أفضل.

بالإضافة إلى ذلك يحل محور موسكو ـ طوكيو عدداً من القضايا البالغة الأهمية في كلا البلدين. فأولاً ـ تحصل روسيا على حليف هو عملاق اقتصادي مجهّز بتقنية عالية التطور وقدرات مالية هائلة. إلا أن اليابان محرومة من الاستقلال السياسي ومن النظام العسكري ـ الاستراتيجي، ومن الوصول مباشرة إلى الخامات الطبيعية. وكل ما ينقص اليابان نجده فائضاً لدى روسيا وكل ما يفتقر إليه الروس كثير لدى اليابانيين وبتوحيد الجهود في قضية **بناء الإمبراطورية** القارية يمكن لليابانيين والروس في أقصر الآجال إقامة مركز جيوبولتيكي جبار لم يعرف له مثيل في الماضي يشمل سيبيريا، منغوليا، اليابان نفسها ثم في المستقبل منطقة المحيط الهادي بأسرها. ومقابل الحماية الاستراتيجية والوصول المباشر إلى الموارد الطبيعية الأوراسية يمكن لليابان بسرعة وبطريقة فعالة أن تقدم العون للروس في التنمية والتقنية وفي استصلاح سيبيريا وذلك من خلال إرساء هيكلية نظام حيوي جهوي مستقل. ويمكن للمساعدة التقنية والمالية اليابانية أن تحل عدداً كبيراً من المشاكل في روسيا.

وفضلاً عن ذلك يمكن لروسيا واليابان أن تعيدا بناء منطقة الشرق الأقصى من الأوراسيا القارية. ومن الأمور ذات الدلالة في هذا الشأن الحركية المتزايدة دوماً للعلاقات المنغولية ـ اليابانية والقائمة على وحدة الأصل والتجانس العرقي


1
2
4
3


1
2
4
3

والقرابة الروحية ـ الدينية. فمنغوليا (بل وربما منغوليا الداخلية والتبيت الواقعتان الآن تَحت الاحتلال الصيني) وكلميكيا وتوفا وبورياتيا أن تشكل المعبد البوذي الأوراسي الذي يمكن أن يقدّم خدمته للعناصر الأخرى الموحدة بين روسيا واليابان وأن يمنح حلقات بينيّة لمحور موسكو ـ طوكيو، فهذه المناطق وثيقة الارتباط مع روسيا من جهة، وهي، من جهة أخرى، قريبة ثقافياً وعرقياً من اليابان. ويمكن للمعسكر البوذي أن يلعب دوراً فائق الأهمية في إقامة بناء جيوبوليتيكي راسخ في **الشرق الأقصى**، والذي يمكنه أن يكون حلقة قارية للحلف الباناسيوي في المحيط الهادي. وفي حالة احتدام العلاقات مع الصين، والذي لا مندوحة من أن يقع في بداية تحقيق محور موسكو ـ طوكيو، يمكن استخدام العامل البوذي رايةً لمعركة التحرر القومي لشعبي التيبت ومنغوليا الداخلية من أجل توسيع الآماد الأوراسية القارية ضد الصين الموالية للأطلسيين.

وعلى العموم فإن للصين كل الفرص لتصبح «كبش الفداء» الجيوبولتيكي عند إقامة المشروع الباناسيوي. ويمكن لذلك أن يطبق لدى إثارة الحركات الانفصالية داخل الصين (أهل التيبت، المنغول، السكان المسلمون في سين تزيان) كما يمكن أن يطبق بإثارة التناقضات الدينية وفي حالة الدعم السياسي الفعال للقوى القارية المعادية للأطلسية من طرف اللوبي البوذي (الداوسي) داخل الصين نفسها وهو ما يمكن أن يؤدي في المستقبل إلى فرض مثل ذلك النظام السياسي في الصين نفسها والذي سيكون موالياً للإمبراطورية الأوراسية. وفضلاً عن ذلك يحسن عرض نوع خاص من السياسة الجهوية على الصين تكون موجهة بصورة حازمة نحو الجنوب، نحو تايوان، هونغ كونغ، فالتوسع في الاتجاه الجنوبي يعوض إلى حد ما عن فقدان الصين لتأثيرها السياسي في **الشمال والشرق**.

ينبغي تشبيه الصين في المناطق الشرقية من **الإمبراطورية الجديدة** لا بانجلترا في الغرب بل بفرنسا. لأن الإمبراطورية الآسيوية ستسلك نحوها مسلكاً ينطلق من قناعتين ـ ففي حالة المقاومة الفعالة للمشاريع الأوراسية يفترض التصرّف نحو الصين على أنها عدو جيوبولتيكي بكل ما ينفرط عن ذلك من نتائج، ولكن إذا تمت إقامة لوبي سياسي داخل الصين يكون موالياً لليابانيين وموالياً للروس في وقت واحد تصبح الصين نفسها في المستقبل شريكاً مكافئاً كامل الأهلية في المشروع القاري.

ويؤدي محور موسكو ـ طوكيو مضافاً إلى المحور الغربي موسكو ـ برلين إلى إقامة مثل ذلك المجال الجيوبولتيكي المواجه للأنموذج الرئيسي لدى الإيديولوجيين الأطلسيين الذين صارت مرجعيتهم العليا اليوم هي «الترىلاتيرال» «اللجنة الثلاثية». أما «اللجنة الثلاثية» التي أنشأتها أوساط الهيئات السياسية الأمريكية العليا فتقترح، كتشكيل جديد للكرة الأرضية، الوحدة الاستراتيجية للمناطق الجيوبولتيكية الثلاث التي تتطابق بدقة مع العناصر الجيوبولتيكية الثلاثة من بين أربعة كنّا قد تناولناها بالحديث فيما سبق، والجوانب الثلاثة لهذه اللجنة التي تطمح إلى لعب دور «الحكومة العالمية» تتفق و:

1 ـ المنطقة الأمريكية (الولايات المتحدة، الغرب الأقصى، الأطلسية المصفّاة).

2 ـ المنطقة الأوروبية (أوروبا القارية، أوروبا الوسطى، ولكن تحت سيطرة فرنسا وانجلترا لا ألمانيا).

3 ـ منطقة المحيط الهادي (الموحدة حول اليابان).

وعلى هذا فإن «الترىلاتيرال» تحاول أن تشكل ذلك الأنموذج الجيوبولتيكي الذي تكون الأوراسيا (= روسيا) مطوقة فيه من الجانبين بالشريكين الجيوبولتيكيين الموالين للولايات المتحدة الأمريكية، أي إن ثلاث مناطق من بين الأربع التي تشمل المناطق الشمالية من الكون، تقع تحت الهيمنة المباشرة للولايات المتحدة، وإزاء ذلك تقوم بين العدو الأوراسي المحتمل للأطلسية (الأوراسيا) وبين مركز الأطلسية نفسه (الولايات المتحدة) منطقتان جيوبولتيكيتان خدميتان (أوروبا واليابان). ومن المهم الإشارة أيضاً إلى أن بيريسترويكا الصين في بدايات الثمانينيات قد بدأت بمنحة قدمها ممثلو «اللجنة الثلاثية» الذين تطلعوا إلى إعادة الصين بصفة نهائية إلى خط السياسة الأطلسية.

والمشروع الأوراسي يفترض شيئاً مناقضاً لمخططات «الترىلاتيرال». والإمبراطورية الجديدة معادية للترىلاتيرال وهي أنموذجها المعكوس، المقلوب. إنها اتحاد مناطق جيوبولتيكية ثلاث مركزه روسيا، موجه ضد أمريكا. وانطلاقاً من نفس هذا المنطق الذي تتطلع الولايات المتحدة بموجبه إلى إخضاع أوروبا واليابان جيوبولتيكياً لسيطرتها، ومن إدراك كافة الفوائد الاستراتيجية التي تجنيها

الولايات المتحدة من مثل هذا التوزع للقوى. يجب على روسيا أثناء إقامة **الإمبَراطورية الجديدة** أن تتطلع بكل الوسائل إلى إقامة تحالف استراتيجي راسخ مع أوروبا واليابان لتحقق استقرارها الجيوبولتيكي الخاص، وقوتها، وتضمن الحرية السياسية لكافة الشعوب الأوراسية، ومن الناحية المبدئية يمكن للحديث أن يدور حول إقامة «اللجنة الثلاثية» **الأوراسية** الخاصة ذات الفروع الروسية، الأوروبية، واليابانية والتي يشارك فيها سياسيون لا من النمط الأطلسي، الموالي لأمريكا بل قادة مثقفون وسياسيون ذوو توجه وطني يفهمون المنطق الجيوبولتيكي للتوضع الفعال للأمور في العالم. ومن الطبيعي إزاء ذلك، وخلافاً «للتريلاتيرال» الأطلسية يجب أن لا يكون الممثل الرئيس. **«للّجنة الثلاثية»** الأوراسية في أوروبا فرنسياً بل ألماني.

وبالأخذ بعين الاعتبار الضرورة الاستراتيجية للعامل الياباني في المشروع الأوراسي يغدو واضحاً كل الوضوح أن قضية إعادة الكوريل لن تكون عقبة بالنسبة للحلف الروسي ـ الياباني. ففي موضوع جزر الكوريل(*) كما هو الأمر بالنسبة لمنطقة كالنينغراد نتعامل مع شعارات ترابية تعود للحرب العالمية الثانية التي كانت تحالفاتها ومسيرتها بطولها انتصاراً شاملاً للأطلسيين الذين اقتصوا من جميع أعدائهم في وقت واحد ـ عن طريق الاستنزاف الأعظم للاتحاد السوفياتي (بفرض ذلك الموقف الجيوبولتيكي عليه والذي ما كان له في الأفق العام أن يؤدي إلا إلى الانهيار البيريسترويكي) وعن طريق الاحتلال المباشر لأوروبا واليابان. وجزر الكوريل تذكير بالمذبحة بين الأشقاء، المذبحة الغبية، المنافية للطبيعة والتي جرت بين الروس واليابانيين، ويعد نسيانها الأسرع الشرط اللازم لازدهارنا المتبادل. يجب إعادة الكوريل إلى اليابان ولكن يجب أن يتحقق ذلك في إطار العملية العامة

(*) جزر الكوريل: سلسلة من الجزر البركانية بين شبه جزيرة كامتشاتكا (روسيا) وجزيرة هوكايدو (اليابان) تفصل بحر أخوتسك عن المحيط الهادي. طول السلسلة 1200 ك م ومساحتها حوالي 15600 ك م2 وتتكون من مجموعتين متوازيتين ـ الشمالية والجنوبية. والقسم الأكبر من هذه الجزر جبلي يرتفع بعضها حتى 2339 متر وفيها حوالي الأربعين من البراكين الناشطة مثلما يزداد فيها نشاط الزلزال. تنمو الغابات في جزر الكوريل الجنوبية أما الشمالية فمغطاة بالتوندرا. ويعتمد إنتاجها على صيد الأسماك والحيتان وبعض حيوانات البحر كالنيربا، السيڤوتش وسواهما. (المترجم).

للتنظيم الجديد **للشرق الأقصى** الأوراسي. وفضلاً عن ذلك لا يمكن لعملية اعادة الكوريل مع الحفاظ على التوضع القائم للقوى السياسية في روسيا واليابان. إنها عمل لا يقوم به إلا السياسيون الأوراسيون ذوو التوجه المؤيد لإقامة الإمبراطورية، والذين يمكنهم، وبكل جدارة أن يستجيبوا للمصالح الوطنية الحقيقية لشعوبهم. إلا أن فهم الضرورة الجيوبولتيكية لإعادة الكوريل يجب أن تكون حاضرة لدى النخبة الأوراسية العليا منذ الآن.

4 ـ 4 محور موسكو ـ طهران:
إمبراطورية آسيا الوسطى المشروع العروبي

سياسة **الإمبراطورية الآسيوية** في الاتجاه الجنوبي يجب أن تعتمد أيضاً على حلف قاري راسخ مع القوة التي تتجاوب استراتيجياً وإيديولوجياً وثقافياً مع التوجه الأوراسي العام المعادي للأمركة ومبدأ «العدو المشترك» ينبغي أن يكون هنا أيضاً عاملاً حاسماً.

ثمة في جنوب الأوراسيا عدة تشكيلات جيوبولتيكية يمكنها من الناحية الترابية أن تلعب دور القطب الجنوبي **للإمبراطورية الجديدة**. ولما كان من اللازم نسب الهند والصين إلى منطقة الشرق وربطهما بالتكامل البانآسيوي في المستقبل فلا يتبقى إلا العالم الإسلامي الممتد من الفيليبين والباكستان حتى بلدان «المغرب» أي **أفريقيا الغربية**. وعلى العموم فإن المنطقة الإسلامية واقع جيوبولتيكي صديق بالطبيعة **للإمبراطورية الأوراسية** لأن التقليد الإسلامي أكثر تسييساً وتحديثاً من غالبية المذاهب الدينية الأوروبية الأخرى. وهو يعطي لنفسه حساباً رائعاً في استحالة الجمع بين الأمركة والدين من الناحية الروحية. والأطلسيون أنفسهم ينظرون إلى العالم الإسلامي في عمومه كعدو محتمل بالنسبة لهم، وبناء عليه فإن للإمبراطورية الأوراسية في شخصه حلفاء أوفياء محتملين يتطلعون إلى هدف وحيد ـ ضرب الهيمنة الأمريكية الغربية على هذا الكوكب ووقفها الشامل في المستقبل. ومن الأمور المثلى لو كان ثمة عالم إسلامي متكامل يمتد كمنطقة جنوبية على مجموع طول الإمبراطورية الآسيوية في آسيا الوسطى حتى أفريقيا الغربية وتكون موحدة من الناحية الدينية ومستقرة سياسياً وتقيم سياستها على مبدأ الوفاء للتقاليد والروح.

ولهذا فإن الإمبراطورية الإسلامية في الجنوب يمكن أن تغدو في المستقبل البعيد (الخلافة الجديدة) العنصر الأهم في الأوراسيا الجديدة إلى جانب الإمبراطورية الأوروبية في الغرب وإمبراطورية المحيط الهادي في الشرق والروسية في الوسط.

بيد أن العالم الإسلامي مشتت في اللحظة الراهنة إلى حد بعيد وفي داخله اتجاهات إيديولوجية وسياسية مختلفة، بالإضافة إلى مشاريع جيوبولتيكية يناقض أحدها الآخر. والاتجاهات التالية تمثل الأكثر شمولية من بينها:

1 ـ الأصولية الإيرانية (ذات النمط القاري، وهي معادية لأمريكا، معادية للأطلسية وفعالة من الناحية الجيوبولتيكية)،

2 ـ النظام العلماني التركي (ذو النمط الأطلسي، وهو يشدّد على الخط البانتوركي)،

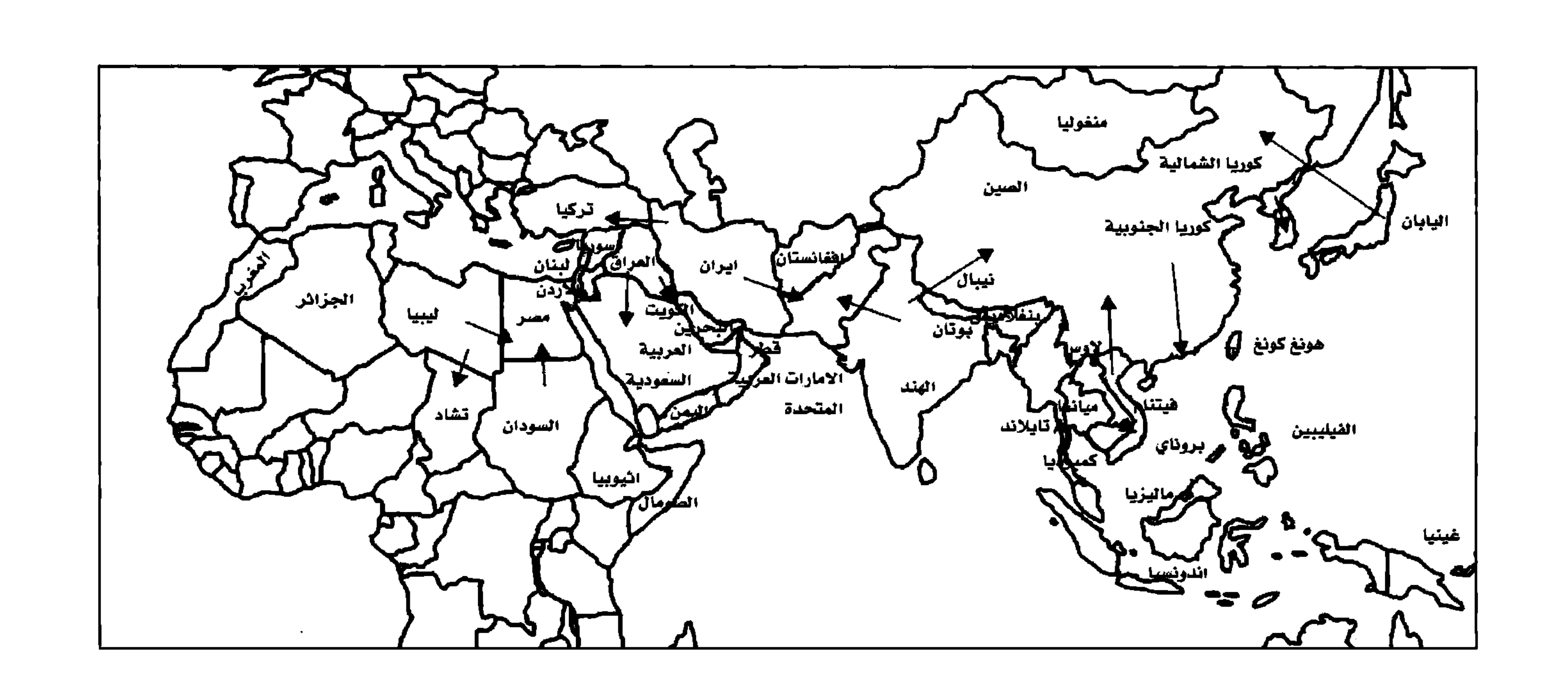
3 ـ العروبية التي تدعو إليها سوريا، العراق - سابقاً -، ليبيا، السودان، وإلى حد ما مصر والعربية السعودية (مشاريع مختلفة الخطط إلى حد ما ومتناقضة في كل حالة محدّدة)،

4 ـ النمط السعودي الوهابي من الأصولية (متضامن جيوبولتيكياً مع الأطلسية)،

5 ـ صور مختلفة من «الاشتراكية الإسلامية» (ليبيا، العراق، سوريا، نماذج قريبة من «العروبية» ذات الاتجاه «اليساري»).

ومن الواضح على التوّ أن الأقطاب الأطلسية الصرفة في العالم الإسلامي سواء أكانت «علمانية» (كما في حالة تركيا» أم إسلامية (كما في حالة العربية السعودية)، لا يمكنها أن تؤدي وظيفة القطب الجنوبي للأوراسيا في المشروع الكوني **للإمبراطورية** القارية. وتتبقى «الأصولية الإيرانية» و«العروبية» ذات الاتجاه اليساري.

من وجهة نظر الثوابت الجيوبولتيكية تتمتع إيران دون شك، بالأولوية في هذه المسألة، لأنها تستجيب لجميع المعايير الأوراسية، فهي دولة قارية كبرى، ترتبط ارتباطاً شديداً **بآسيا الصغرى** وهي معادية بصورة جذرية لأمريكا، تقليدية، وتركز في الوقت ذاته على الاتجاه السياسي «الاجتماعي» (نصرة «المستضعفين» و«المساكين»). وعلى خارطة الأرض تحتل إيران ذلك الموقع الذي يجعل إقامة محور **موسكو ـ طهران** يحل عدداً ضخماً من المشاكل بالنسبة للإمبراطورية



منغوليا
كوريا الشمالية
اليابان
الصين
كوريا الجنوبية
تركيا
ايران
العراق
لبنان
الاردن
المغرب
الجزائر
ليبيا
مصر
الكويت
نيبال
بوتان
هونغ كونغ
قطر
العربية
السعودية
الامارات العربية
المتحدة
الهند
لاوس
فيتنام
تشاد
السودان
اليمن
تايلاند
الفيليبين
بروناي
اثيوبيا
الصومال
ماليزيا
غينيا
اندونيسيا

الجديدة. فبادخاله إيران قطباً جنوبياً في الإمبراطورية يمكن لروسيا أن تصل على الفور إلى بلوغ الهدف الاستراتيجي الذي ما انفكت تسير إليه (بطرق خاطئة) بضع مئات من السنين - وهو **الخروج إلى المياه الدافئة**. وهذا الأفق الاستراتيجي - غياب مثل هذا الخروج لدى روسيا - كان الورقة الرابحة الأهم في يد الجيوبولتيكا الأطلسية منذ أيام انجلترا الاستعمارية التي هيمنت كلية على آسيا والشرق مستخدمة بالذات عامل انعدام وصول روسيا إلى الشواطىء الجنوبية للقارة. وجميع المحاولات الروسية للخروج إلى البحر الأبيض المتوسط عبر البوسفور والدردنيل كانت طموحاً إلى المشاركة في التنظيم السياسي للمناطق الشاطئية للأوراسيا حيث ينفرد بالسيطرة الإنكليز الذين كانوا يحبطون كافة محاولات التوسع الروسي من خلال هيمنتهم على المنطقة الساحلية، غير أنه حتى ولو قيض لروسيا أن تفلح في ذلك فإن السيطرة الأطلسية على جبل طارق كانت ستظل دوماً عقبة في وجه العمليات البحرية الحقيقية الكبرى، وما كان لها أن تسمح لروسيا بتحطيم القوة الإنكليزية. كان بمقدور إيران وحدها، القريبة قارياً من روسيا والمشرفة مباشرة على المحيط الهندي أن تكون يومذاك وإلآن الحل الجذري لهذه المعضلة الجيوبولتيكية الكبرى. وستكون الأوراسيا، وقد حققت الوصول الاستراتيجي إلى الشواطىء الإيرانية والقواعد الحربية - البحرية بالدرجة الأولى - في مأمن تام من استراتيجية «حلقة الأناكوندا» أي من تحقيق الخطة الأطلسية التقليدية لـ«خنق» الآماد القارية لليابسة عبر احتلال المناطق الشاطئية على امتداد الأوراسيا وبخاصة إلى **الجنوب والغرب**.

وإقامة محور موسكو - طهران سيخترق «الأناكوندا» دفعة واحدة في أضعف نقاطها ويفتح لروسيا آفاقاً لا حدود لها نحو الحصول على جسور جديدة وجديدة داخل الأوراسيا وخارجها وتلك هي النقطة الأكثر جوهرية.

وهناك، من جهة أخرى، مشكلة آسيا الوسطى السوفياتية السابقة حيث تسيطر الآن اتجاهات جيوبوليتكية ثلاثة - البانتوركية (تركيا، الأطلسية)، «الوهابية» (العربية السعودية، الأطلسية) و«الأصولية» (إيران، العداء للأطلسية). ولأسباب مفهومة تماماً لا يمكن أن يكون هناك وجود «للعروبية» وسط شعوب آسيا الوسطى التي تتكلم غالبيتها الساحقة بالتركية. كما أن وجود توجه مواز قوي موال لروسيا - أمر يجب وضعه في الحسبان، لكن من الصعب أن نتخيل بأي وسيلة ستتمكن هذه المناطق الإسلامية، التي استيقظ وعيها القومي، من العودة إلى روسيا دون إراقة

دماء ودون خسائر. ومن الواضح تمام الوضوح أن بإمكان الإمبراطورية الجديدة أن لا تعتمد، من بين التوجهات «اللاموسكوفية» إلا على التوجه الموالي لإيران التي بوسعها إخراج هذه المنطقة من الهيمنة المباشرة أو غير المباشرة للأطلسية. وفي وقت متزامن مع ذلك يمكن لمحور موسكو ـ طهران أن يزيل جميع التناقضات بين محبة الروس والإسلامية (الإيرانية النمط)، وأن يجعل منهما **خطاً جيوبولتيكياً واحداً** يتجه، في وقت واحد، نحو موسكو ونحو طهران، وبطريقة موازية يمكن لهذا المحور أن يعني، بطريقة آلية، توقف النزاع المدني في طاجيكستان وأفغانستان اللتين تعانيان فقط بسبب اللامحدودية الجيوبولتيكية لهذين التشكلين اللذين تمزقهما التناقضات بين الأصولية الإسلامية ـ الإيرانية والميل نحو روسيا. ومن الطبيعي أن المماحكات الاتنية الصغيرة تتفاقم على خلفية هذا التناقض كما يسهل نشاط «عملاء التأثير» الأطلسيين الذين يحاولون بطريقة مباشرة أو غير مباشرة (عبر تركيا والعربية السعودية) زعزعة الآماد الآسيوية الداخلية في مراكزها الوطيدة.

إيران من الناحية الجيوبولتيكية هي **آسيا الوسطى** مثلما أن ألمانيا بكل دقة، **أوروبا الوسطى**. وعلى موسكو، كمركز للأوراسيا أن تسلم لإيران. في إطار **الإمبراطورية الجديدة**، رسالة إقرار «السلام الإيراني Pax Persica» في هذه المنطقة وإقامة حلف جيوبولتيكي آسْيَوُسْطَوي قادر على مواجهة التأثير الأطلسي في المنطقة بأسرها. وإيران المعادية تقليدياً لكل من تركيا والعربية السعودية ستنهض بهذه المهمة بطريقة أفضل بكثير مما يمكن أن ينهض به الروس الذين لن يحلوا مشاكلهم الجيوبولتيكية في هذا المركز المعقد إلا بالمؤازرة الاستراتيجية للجانب الإيراني. إلا أن الحديث هنا، وعلى نحو ما كان الأمر بالنسبة لألمانيا، لا ينبغي أن يدور حول إقامة **الإمبراطورية الإيرانية** أو حول أرْيَنة آسيا الوسطى. بل ينبغي الحديث عن «**إمبراطورية آسيا الوسطى**»، التي يمكنها على أسس فيدرالية أن تقيم التكامل بين مختلف الشعوب والثقافات والاتنيات في حلف جيوبولتيكي جنوبي موحد، وتصوغ بذلك التشكيل الإسلامي المتجانس استراتيجياً والتعددي اتنياً وثقافياً والمرتبط أوثق الارتباط بمصالح كامل الإمبراطورية الأوراسية.

وفي مسألة محور موسكو ـ طهران تلعب المسألة الأرمنية دوراً مهماً لأنها من الناحية التقليدية مركز الاضطراب في ما وراء القوقاز، ولا بدّ من الإشارة إلى أن الأرمن ـ شعب آري يعي بشكل واضح طبيعته اليافثية وقرابته من الشعوب

الهندأوروبية وخاصة الآسيوية من بينها ـ أي الإيرانيين والأكراد. والأرمن، من جهة أخرى، شعب مسيحي وتقليدهم المتعلق بالطبيعة الواحدة ينتسب بالذات إلى السياق العام للكنيسة الشرقية (على الرغم من اعتراف الأرثوذوكسية بها تياراً هرطيقياً) ويعون بصورة بالغة الحيوية ارتباطهم الجيوبولتيكي بروسيا ويشغل الأرمن أراض ذات أهمية استراتيجية بالغة، فعبر أرمينيا وأرْتساخ يمتد الطريق من تركيا إلى أذربيجان فآسيا الوسطى. وفي محور موسكو ـ طهران تغدو يريفان بصفة آلية الحلقة الاستراتيجية الأهم التي توثق بين روسيا وإيران توثيقاً إضافياً وتعزل تركيا عن الأراضي الداخلية القارية. وعند إمكانية إعادة توجه باكو من أنقرة نحو إيران ضمن المشروع المشترك موسكو ـ طهران تحل بوتيرة سريعة مسألة كاراباخ إذ إن الأطراف الأربعة ستكون مهتمة اهتماماً حيوياً بترسيخ الاستقرار الفوري في هذه المنطقة المميّزة بأهميتها الاستراتيجية (وفي الحالة المعاكسة، أي باحتفاظ أذربيجان بتوجهها الموالي لتركيا، تخضع هذه «البلاد» للتقطيع بين إيران، روسيا وأرمينيا). والأمر نفسه تقريباً يتعلق بمناطق القوقاز الأخرى ـ الشيشان ـ أبخازيا، داغستان وغيرها، والتي ستبقى بؤراً للصراعات والاضطرابات بمجرد أن تتصادم فيها المصالح الجيوبولتيكية لتركيا الأطلسية مع روسيا الأوراسية. وإدخال الخط الجيوبولتيكي الإيراني في هذا المضمار سيجرد المضمون فوراً من مظهرية الصدام بين «الإسلام والأرثوذكسية» والذي يحاول عملاء تأثير الأطلسية، الأتراك والروس، اسقاطه على النزاع في هذه البقعة، ويسود السلام والتناغم.

في هذا المشروع المتعلق بإعادة تشكيل آسيا الصغرى تجدر الإشارة إلى أن حماية المصالح الاتنية الروسية يمكن أن تتحقق بالطريقة المثلى إذ ستقام إمبراطورية آسيا الوسطى لا على أساس البنى السياسية المصطنعة، «المشروعية ما بعد الإمبراطورية» الزائفة، بل على أساس التجانس القومي وهو ما يفترض الانتقال السلمي إلى السلطة القانونية المباشرة لموسكو على جميع أراضي آسيا الوسطى (وبخاصة كازاخستان) المأهولة بشكل مكثف بالروس. أما تلك الأراضي التي يخضع تكوينها الاتني للجدل فستنال حقوقاً خاصة على أساس المشاريع الروسية ـ الإيرانية في حدود هذه الإمبراطورية أو تلك، وبناء على ذلك يمكن للروس، على أرضية المشروع الجيوبولتيكي الأوراسي، أن يتحصلوا على ما يسمى هدفاً «للقومية» (للاتنية الصغرى)، والذي لا يمكن أن تحققه هذه القومية لوحدها أبداً.

ومن المهم أن نضع في الحسبان ضرورة إلزام تركيا بدور «كبش الفداء» في هذا المشروع، لأن مصالح هذه الدولة في كازاخستان وفي آسيا الوسطى لن تؤخذ على العموم في الحسبان ومن المحتمل، فضلاً عن ذلك، أن يتم التوكيد على دعم الانفصالية الكردية، في تركيا نفسها، وبالإضافة إلى مطالبة الأرمن الأتراك بالحكم الذاتي، بهدف تخليص الشعوب القريبة اتنياً من إيران من الهيمنة الأطلسية ـ العلمانية. وكتعويض لتركيا عن ذلك يحسن أن يعرض عليها إما التطور في الاتجاه الجنوبي في العالم العربي عبر بغداد، دمشق والرياض، وإما تشجيع الأصوليين المؤيدين لإيران في تركيا نفسها على التقدير الجذري للنهج الجيوبولتيكي، وعلى الدخول في المستقبل الأبعد، ضمن المعسكر الآسيوسطوي تحت الشعار المعادي للأطلسية والأوراسي.

إن محور موسكو ـ طهران هو أساس المشروع الجيوبولتيكي الأوراسي. والإسلام الإيراني هو الصورة الأفضل للإسلام من أجل الدخول في حلف قاري وهذه الصورة بالذات يجب أن تحظى بأفضلية الدعم من موسكو.

أما الخط الثاني للحلف الأوراسي مع **الجنوب** فهو المشروع العروبي الذي يشمل جزءاً من آسيا الأمامية **وشمال أفريقيا**. ولهذا الحلف أيضاً أهمية حيوية بالنسبة للجيوبولتيكا القارية إذ تكتسب هذه المنطقة أهميتها الاستراتيجية في مسألة السيطرة على شاطىء أوروبا الجنوبي الغربي. ولهذا بالذات كان الحضور الإنكليزي ومن بعده الأمريكي أحد الثوابت التاريخية الاستراتيجية في هذه المنطقة. فمن خلال السيطرة على الشرق الأوسط وأفريقيا الشمالية كان الأطلسيون يسيطرون تقليدياً (ولا يزالون) على أوروبا القارية بفعل الضغط السياسي والاقتصادي.

إلا أن تكامل المشروع العروبي مع الإمبراطورية الأوراسية العامة يحسن أن يعهد به للقوى الأوروبية التي عادت إلى مشاريع أوروأفريقيا التي لا تمثل، من وجهة النظر الجيوبولتيكية الصرفة، قارتين بل قارة **واحدة**. والإمبراطورية الأوراسية، ذات الاهتمام الحيوي بالتغلغل المتعمق الأعظم نحو جنوب القارة الأفريقية. يجب أن تسيطر في المستقبل المنظور، وبصفة كلية، على أفريقيا حتى الصحراء، معتمدة في ذلك على الحلف العروبي، ثم أن تحاول بعد ذلك التجذر استراتيجياً في الأرض الأفريقية بكاملها. والبحر الأبيض المتوسط لن يعود «بحراً» في المستقبل الأورأفريقي بل مجرد «بحيرة» داخلية لا تشكل أي عقبة أو حامية في

وجه التأثير الأطلسي. وخارج حدود أفريقيا العربية يجب إعداد مشروع سياسي اتنيَ مفصَّل يعين على إعادة تشكيل القارة السوداء وفق المظهر القومي الاتني والثقافي بدلاً من ذلك الخليط ما بعد الاستعماري المتناقض والذي يمثل الدول الأفريقية المعاصرة ومن شأن المشروع القومي البانأفريقي (غير العربي) المدقق أن يكون التكملة الجيوبولتيكية لخطّة التكامل العروبي.

وإذا ما وضعنا في الاعتبار أن مما هو مثير للشك أن يغدو أنموذج الأصولية الإيرانية المحضة الأنموذج المقبول على المستوى الشامل في العالم العربي (على العموم بسبب خصوصية الصورة الشيعية الآرية للإسلام الإيراني) فإن المشروع العروبي يجب أن يتطلع إلى إقامة حلف مستقل معاد للأطلسية تكون أقطابه الأولى كل من العراق وليبيا وفلسطين المحررة (وسوريا أيضاً ضمن شروط محدّدة) أي الدول العربية التي تعي الخطر الأمريكي أكثر من سواها والتي ترفض بصورة أكثر جذرية من سواها الأنموذج السوقي ـ الرأسمالي الذي يفرضه **الغرب**. وإزاء ذلك تغدو كبش الفداء في المشروع العروبي العربية السعودية بالدرجة الأولى والتي تجذرت في الجيوبولتيكا الأطلسية إلى درجة لم تعد تسمح لها بالدخول طواعية في الحلف العروبي، الصديق للأوراسيا. أما بالنسبة لمصر والجزائر والمغرب فالأمر يختلف لأن القوى الحاكمة الموالية للأطلسية في هذه الدول لا تعبر عن الاتجاهات القومية ولا تسيطر على الوضع حتى النهاية فهي لا تقوم إلا على الحراب الأمريكية والأموال الأمريكية. وعند بداية الحرب العروبية التحررية على مستوى كاف من التكثيف ستتساقط هذه النظم في غضون ساعة واحدة.

ولكن علينا أن نفهم بصورة دقيقة أن البنية الأكثر تناغماً للمدى العروبي ـ أمرٌ لا يعود لروسيا بقدر ما يعود لأوروبا، **أوروبا الوسطى**، ألمانيا، وبكلمة **أدق الإمبراطورية الأوروبية**. فروسيا (الاتحاد السوفياتي بكلمة أدق) لم تكن تتدخل في القضايا العربية إلا عندما كانت تمثل بمفردها الدولة الأوراسية في وجه الأمركة. ولدى توفر وجود القاعدة الأوروبية القوية ذات التوجه الأوراسي أي بعد إقامة محور موسكو ـ برلين ينبغي تسليم هذه المهمة لبرلين وأوروبا على العموم. واهتمام روسيا المباشر بالعالم الإسلامي يجب أن يقتصر على إيران بالذات والتي ترتبط بالتحالف معها مصالح الروس الحيوية، الاستراتيجية منها وحتى الاتنية الضيقة.

إن إيران التي تسيطر على آسيا الوسطى (بما في ذلك باكستان، أفغانستان وأشلاء تركيا أو «تركيا بعد الثورة الموالية لإيران») تمثل مع روسيا مركز المصالح الأولية لموسكو، وينبغي استخدام التأثير التقليدي لروسيا بين النظم «اليسارية» ذات التوجه العروبي (وبالدرجة الأولى العراق وليبيا) من أجل التقريب بين الدول العربية وإيران ومن أجل النسيان الأسرع للنزاع الإيراني ـ العراقي المصطنع والذي أثاره الأطلسيون.

4 ـ 5 إمبراطورية الإمبراطوريات الكثيرة

إن الإمبراطورية الجديدة التي يستجيب بناؤها للرسالة الحضارية الكونية للشعب الروسي تمثل مشروعاً خارقاً للعادة، يتضمن عدداً كبيراً من المستويات التابعة. وستكون هذه الإمبراطورية الجديدة، الإمبراطورية الأوراسية بناءً معقداً مختلفاً يشتمل في داخله على مستويات مختلفة من الارتباطات المتبادلة والتكاملات بين أجزائه المنفصلة. ومن الواضح كل الوضوح أن الإمبراطورية الجديدة لن تكون الإمبراطورية الروسية ولا الإمبراطورية السوفياتية.

واللحظة التكاملية الأساسية لهذه **الإمبراطورية الجديدة** ستكون الصراع ضد الأطلسية والصد العنيف لتلك الحضارة الليبرالية، التجارية «البحرية»، «القرطاجية» التي تجسّدها اليوم الولايات المتحدة والبنى المعَوْلمة السياسية والاقتصادية والعسكرية العاملة في خدمة الأطلسية. ومن أجل إنجاح هذا الصراع لا بد من إقامة معسكر جيوبولتيكي قاري هائل موحد **استراتيجياً**. ووحدة الحدود القارية الاستراتيجية ستكون العامل التكاملي الرئيس في **الإمبراطورية الجديدة**. وستكون هذه الإمبراطورية جهازاً حياً موحداً لا يتجزأ بالمعنى **العسكري الاستراتيجي** وهو ما سيفرض تضييقات سياسية على جميع التشكلات الداخلية تحت الإمبراطورية. وجميع التحالفات الداخلية في تركيب **الإمبراطورية الجديدة** سيتم التضييق عليها في أمر واحد ـ الحظر الجذري على خدمة المصالح الجيوبولتيكية الأطلسية، الخروج من الحلف الاستراتيجي، إلحاق الأذى بالأمن القاري. وعلى هذا **وفقط على هذا** المستوى تكون **الإمبراطورية الجديدة** تشكلاً جيوبولتيكياً مكتملاً.

وعلى المستوى التالي، الأدنى ستمثل **الإمبراطورية الجديدة** «كونفيدرالية

الآماد الكبرى» أو **الإمبراطوريات** الثانوية. وينبغي أن نميّز من بينها الأربع الأساسية على الفور وهي الإمبراطورية الأوروبية في الغرب (حول ألمانيا وأوروبا الوسطى) **إمبراطورية المحيط الهادي** في **الشرق** (حول اليابان) **إمبراطورية آسيا الوسطى** في الجنوب (حول إيران) **والإمبراطورية الروسية في المركز** (حول روسيا). ومن المنطقي أن يكون الموقع المركزي في هذا المشروع هو الأهم ما دام يناط به الترابط الترابي وتجانس كافة المكونات الأخرى للمعسكر القاري الهائل. وفضلاً عن ذلك فإن المجالات الكبرى المستقلة ستكون موجودة إلى جانب المعسكرات المشار إليها ـ الهند، العالم العروبي، الاتحاد البانأفريقي وربما كان هناك أيضاً المنطقة الخاصة بالصين والتي يصعب بعد تحديد وضعها حتى بطريقة تقريبية. وستقوم كل واحدة من **الإمبراطوريات** الثانوية على أساس عامل عرقي، ثقافي، سياسي وجيوبولتيكي تكاملي خاص، يمكن أن يكون متبايناً بالنسبة لكل حالة من الحالات، كما أن مستوى تكامل الإمبراطوريات نفسها سيجري أيضاً بأحجام متفاوتة ترتبط بالقاعدة الإيديولوجية المحددة التي تقوم عليها هذه الإمبراطورية أو تلك.

كما وسيعمل داخل هذه الإمبراطوريات الثانوية المبدأ الكونفيدرالي ولكن مطبقاً على وحدات إتنية وقومية وإقليمية أصغر أحجاماً ـ على ما يمكن تسميته، بنصيب أكبر أو أصغر من المقاربة، «بلداً» أو «دولة». ومن الطبيعي أن استقلال هذه «البلدان» سيتسم بتضييقات ملموسة ـ إستراتيجية بالدرجة الأولى (ننطلق من مبادىء عموم **الإمبراطورية** القارية **الجديدة**، وبالدرجة الثانية بخصوصية تلك الآماد الكبرى التي تدخل في عدادها. وفي هذه المسألة سيطبق مبدأ التمايز المرن الذي يضع في اعتباره الخصائص التاريخية، الروحية، الجغرافية والعرقية لكل منطقة.

فالروس، على سبيل المثال، يمكن أن ينظر إليهم على أنهم شعب منفصل، بل وحتى كـ«بلاد» في حدود **الإمبراطورية** الروسية إلى جانب الأوكرانيين والروس البيض وربما الصرب أيضاً. لكنهم سيكونون في الوقت نفسه مرتبطين جميعاً بالسلطان القضائي ذي النمط السلافي الأرثوذوكسي المتجسد في نظام حكومي خاص. وستكون الإمبراطورية الروسية مرتبطة في الوقت نفسه **بالإمبراطورية الأوراسية، الإمبراطورية** الجديدة والتي ستوضع مصالحها الاستراتيجية أعلى من المصالح القومية ـ العرقية المذهبية للسلاف الشرقيين.

يمكن قول الكلام نفسه، على سبيل المثال، عن الفرنسيين الذي يبقون شعباً أو «بلاداً» ضمن إطار الإمبراطورية الأوروبية إلى جانب الألمان والإيطاليين، يرتبطون معهم بالتقليد الهندأوروبي العام بالديانة المسيحية وبالانتماء إلى العرق الهندأوروبي. إلا أن الإمبراطورية الأوراسية نفسها ستخضع بدورها للثوابت الاستراتيجية للإمبراطورية القارية الجديدة العظمى.

وينطبق الأمر نفسه في آسيا الوسطى أيضاً، وعلى منطقة المحيط الهادي وفي العالم العربي وفي أفريقيا السوداء وفي الهند وما إلى ذلك.

وإزاء ذلك وعلى المستوى العالمي يكون «كبش الفداء» الرئيسي لبناء **الإمبراطورية** الكونية **الجديدة** هو الولايات المتحدة بالذات، التي يتحقق تدمير قوتها (حتى حدود التدمير الكامل لهذا البناء الجيوبولتيكي) عن طريق جميع المشاركين **في الإمبراطورية الجديدة** ودون مساومات. والمشروع الأوراسي يفترض في هذا الخصوص توسعاً أوراسياً في أمريكا الجنوبية والوسطى لتحقيق أهداف إخراجها من تحت سيطرة الشمال (ويمكن هنا أن يستخدم العامل الإسباني كبديل تقليدي للعامل الأنجلوساكسوني) بالإضافة إلى خلق تحفيز كافة أشكال الاضطراب والانفصالية في حدود الولايات المتحدة (يمكن الاعتماد على القوى السياسية للعنصريين الأفرو ـ أمريكيين). والمقولة الرومانية القديمة «يجب أن تدمَّر قرطاج» ستغدو الشعار المطلق للإمبراطورية الأوراسية لأنه يتضمن جوهر مجموع الاستراتيجية الجيوبولتيكية العالمية للقارة التي استيقظت لتؤدي رسالتها.

إن الملموسية في إيضاح وضع هذا الشعب أو ذاك، هذه «البلاد أو تلك»، «**إمبراطورية الآماد الكبرى**» هذه أو تلك في إطار المعسكر القاري العام لن تغدو فعالة بعد الوحدة الجيوبولتيكية، **بعد** إقامة المحاور الضرورية. وآنذاك فقط تتمكن الشعوب والدول الأوراسية من حل مشاكلها **بحرّية** تامة ودون أي ضغط من طرف القوى الأطلسية التي لا تهتم مبدئياً إلا بشيء واحد وهو ألاّ تسمح بأن يقوم السلام في الأوراسيا ولا التفاهم ولا الازدهار ولا كرامة التقاليد ولا ازدهارها.

الفصل الخامس 5

مصير روسيا في الأوراسيا الإمبراطورية

5 ـ 1 السحر الجيوبولتيكي في الأهداف القومية

يمكننا النظر إلى المصالح القومية الروسية على مستويات عدة ـ على المستوى الكوني ـ على المستوى العام للكرة الأرضية، المستوى الجيوبولتيكي، والحضاري (وهو ما دار حوله الحديث في الفصول السابقة)، وعلى المستوى القومي الضيق، والملموس، والمستوى الاجتماعي ـ السياسي، والثقافي (وهو ما سيدور حوله الحديث في هذا الباب). فكيف يتم التفاعل بين المشاريع الكبرى للمدى القاري والخط الاتني للشعب الروسي؟ لقد جرى بعض الحديث عن هذه النقطة. أما هنا فينبغي النظر إلى هذه المشكلة بطريقة أكثر تفصيلاً.

«التوجه نحو بناء الإمبراطورية»، «القاريّة»، «الأوراسية»، كل هذه المصطلحات والمشاريع المطابقة لها كثيراً ما تثير الذعر في قلوب أولئك الروس القليلي الاطلاع على رمزية التاريخ الروسي والذين لا يسبرون مغزى التوجهات التاريخية للأمة، واعتادوا الاعتماد على القوالب الحياتية السقيمة عند تفسيرهم لماهية الشعب وماهية مصالحه. وهذا ما يتمخض عن أعداد من المغالطات بين القوميين أنفسهم ويثير المناقشات الفارغة والمحاجات الخالية من المضمون. أما في واقع الحال فإن خصيصة القومية الروسية تكمن بالذات في **كوْنيتها** ـ فهي لا ترتبط بالدم بقدر ما ترتبط بالمدى، بالتراب بالأرض. وخارج الإمبراطورية يفقد الروس هويتهم ويتلاشون كأمة.

إلا أن تحقيق الخطة الأوراسية لا يجب بأي حال أن يؤدي إلى التحريف

الاتني للروس كإتنية «محورية» «**للإمبراطورية**». والروس يحتاجون إلى التمسك بهويتهم الاتنية والتي يفقد مركز القارة بدونها تحديده الحضاري والثقافي وبكلمة أخرى يجب أن تتوفر، في إطار **الإمبراطورية** الجيوبولتيكية فوق القومية نفسها معايير خاصة (بما في ذلك المعيار الحقوقي)، تضمن للروس الحفاظ على هويتهم الاتنية. وينبغي أن تتجسد خاصية **الإمبراطورية الجديدة** في ألا يترافق الدور المركزي للروس في قضية التكامل الجيوبولتيكي بـ«رَوْسنة» الأراضي غير الروسية ما دامت تلك «الرَّوْسَنة» ستسيء من جهة إلى معنى الإمبراطورية إذ تهبط بها إلى مستوى «الدولة ـ الأمة» الهائلة الحجم، وتذيب الجماعة الروسية في وسط قومي آخر من جهة أخرى.

فيما يتعلق بالشعب الروسي في إطار المعسكر القاري يجب التوكيد على أن لا يكون دوره «عازلاً» (على خلاف مشاريع «القومية الصغرى») ولا «توسعياً اتنياً» (على خلاف الإمبرياليين الاتنيين والسلافيانوفيل على وجه التخصيص). ومن هذين المشروعين ينبغي أخذ جوانب معينة واستبعاد ما سواها. أما على المستوى الاستراتيجي فالحديث يدور فعلاً عن «التوسعية» لكن لا ذات الطابع الإتني بل الجيوبولتيكي وهو ما ينفي عمداً أي شكل من أشكال العنصرية الروسية أو السلافية. أما على المستوى الاتني الصرف فيجب أن تتحقق بهذا المستوى أو ذاك الصيغة «العازلة» مع إسقاط العزل السياسي والحكومي. وهكذا يوجد الروس في صورة مجموعة **قومية** موحدة في مجال تجمع امبراطوري **ما فوق القومي** ويحقق الواقع الاتني تراصه في إطار الشعب بينما تتجسد الرسالة ما فوق الاتنية في إطار **الإمبراطورية**. وفي هذا الجمع فقط يتحقق الحفاظ على النواة القومية الصحية وعلى التوزع الأعظم للتأثير الجيوبولتيكي في وقت واحد. وبكلمة أخرى فإن العامل القومي سيتحدد انطلاقاً من الجمع الجديد بصفة كلية بين الإتني والسياسي والذي لم يتوفر وجوده في أي مرحلة من المراحل السابقة لتاريخ الروس الوطني ـ الحكومي. ولم يتحقق التجانس الاتني للروس إلا في المراحل الأولى من بناء الدولة وضمن حسابات محدودة وقد أقيم الأنموذج القيصري على أساس «روسنة» محدَّدة. وعلى العكس من ذلك بالغت مجالس السوفيات في الاستهانة بالطبيعة الاتنية للشعب الروسي. أما في الإمبراطورية الجديدة فينبغي أن توضع هذه العوامل في تناسب جديد يجاري الشروط الجيوبولتيكية والاتنوغرافية المعاصرة، التناسب

اللازم أيضاً لإقامة التوازن الاتنو سياسي الثابت في الشعب الروسي.

والروس **في الإمبراطورية الجديدة** يظهرون في وقت واحد في دورين:

1 ـ كواحد من الشعوب الكبرى التي تمثل الموضوعات السياسية **للإمبراطورية الفيدرالية للأمم**.

2 ـ كمبادر للتكامل القاري مع هذه الإمبراطورية الفيدرالية للأمم.

وعلى هذا يبدو الروس في وضع ممتاز، فمن الناحية الاثنية ولما كانوا واحداً من مجموعة من المكونات الاتنية **للإمبراطورية**، المكونات التي تتفاوت في مستويات تكافئها، فإنهم يصبحون، من الناحية الجيوبولتيكية في مركز العملية السياسية كلها. ومثل هذه المهمة المزدوجة تسمح، في مسيرة تحقيق عملية بناء الإمبراطورية نفسها بمضاعفة تأثيرها الخارج عن الإطار الاتني وبتراص القوى ضمن الاتنية. وبناء الدولة هو الوسيلة الوحيدة للحفاظ على الاتنوس الروسي وتقويته وتوحيده دون اللجوء في هذا إلى النزاعات القومية أو الحروب أو إعادة النظر في الحدود السياسية. فخلال عملية بناء الإمبراطورية الجديدة سيتم بالتدريج إبطال كافة الحدود السياسية للأوراسيا كحدود **سياسية** وتظهر بدلاً منها حدود **اتنية** طبيعية لا تتمتع بذلك المعنى التفريقي الصارم الذي نجده في حالة الحدود الدولية. ولن يكون لهذه الحدود الاتنية ما يجمعها بتلك التي تفهم تحت كلمة «حدود» في الوضع الحالي ـ لأنها ستمر عبر مظهر اتنو ثقافي مذهبي لا يفترض الهيمنة السياسية على الأقليات فلن تكون لهذه التشكيلات الاتنية الاستقلالية السياسية الكاملة إذ ستقيَّد بالمصالح الاستراتيجية لعموم الإمبراطورية المهتمة، بدورها، اهتماماً حيوياً بالحفاظ على السلم والتواؤم داخل حدودها. وبكلمة أخرى لن يحصل الروس في إطار هذه الإمبراطورية على دولتهم القومية كتعبير سياسي عن تجانس اتني بل سيحصلون على الوحدة القومية وعلى دولة قارية هائلة يتسلمون دوراً مركزياً في إدارتها.

إن مجرد طرح مثل هذا المشروع يبعد على الفور تهديد تلك النزاعات الممكنة التي تنضج بفعل انقسام الروس في العصر الحاضر إلى «دول» مختلفة حديثة الولادة في إطار مجموعة الدول المستقلة. وهذا الموجّه البنّاء للإمبراطورية يحوّل بصورة آنية مشكلة العلاقات بين الروس والكازاخيين في كازاخستان أو

الروس والأوكرانيين في أوكرانيا أو الروس والتتار في تتارستان من المجال الاتني إلى مجال مغاير تماماً. وتكف هذه العلاقة عن أن تكون مشكلة سياسية ـ حكومية لا تحل إلا إذا ألحقت خسارة سياسية ـ ترابية بهذا الطرف أو ذاك (مثال ذلك التقسيم الاتني لكازاخستان ـ الانفصالية في إطار الفيدرالية الروسية، القمع العسكري للشيشان، التجزئة القومية والمذهبية لأوكرانيا، مشكلة القرم وما إلى ذلك)، وتغدو مسألة تعايش الاتنوسات المختلفة في إطار المدى السياسي الواحد. وفي مثل هذه الحالة لا ينظر إلى التضامن الاتني، ولنقل بين الروس في كازاخستان والروس ضمن حدود الفيدرالية الروسية، على أنه تقويض للاستقلال السياسي «للدولة القومية الكازاخية» لصالح «الدولة القومية الروسية» بل يغدو عملية ثقافية ـ اتنية عضوية لا تُدْني ولا تُعْلي من شأن أي من الطرفين لسبب واحد وهو أنه لن تكون ثمة أي «دولة قومية كازاخية» أو دولة قومية روسية. لقد كان الأنموذج السوفياتي شبيهاً بكيفية ما بهذا المشروع ولكن مع تحفظ واحد وهو أن مفهوم «الاتنوس» قد تم النظر إليه على أنه نوع من المتبقيات المتخلفة، ردّة تاريخية، مجرّدة، فضلاً عن ذلك، من وضعية الكائن السياسي الداخلي. وعلى العكس من ذلك سيتم الاعتراف بالأتنوس في إطار الإمبراطورية الجديدة دون أن يكون له تعبيره الحكومي المباشر، بل على أنه قيمة سياسية هامة وعامل حقوقي أعلى في كافة المسائل الإمبراطورية الداخلية.

وتلخيصاً لهذه المسألة يمكن القول إن العمليات ذات المشاريع الجيوبولتيكية الكونية والتي لا تمت للوهلة الأولى بأية صلة نحو تحقيق الأهداف الاتنية الضيقة للروس ستؤدي، في واقع الحال، إلى التحقيق الأمثل أيضاً لهذه الأهداف القومية المحدَّدة وبالتنازل عما هو غير كاف وعما هو أقل من القليل (الدولة الروسية في حدود الفيدرالية الروسية) ودون القيام بمحاولات تضخيم هذا القليل بطريق الاحتلال والضم في حرب دامية يقتتل فيها الأشقاء، ومن خلال الاقتراح على شعوب الأوراسيا بناء المعسكر القاري على أسس شروط متكافئة، يمكن للروس أن يحصلوا على ذلك الكبير والجدير بهم، والذي سيبقى في الحالة المعاكسة حلماً بعيداً عن التحقيق إلى الأبد.

وبالتنازل عن الدولة الاتنية نحصل على وحدة الشعب وعلى **الإمبراطورية العظمى**. وبهذه الطريقة وحدها، وليس بأي طريقة أخرى، يمكن في الشروط

الحالية لا إنقاذ الشعب الروسي من عجزه السياسي ومن تلاشيه الاتني فحسب بل وإيقاظه بكامل حجمه المهول للقيام بالإنجازات الكونية ولكي نرفع إليه ما هو جدير به في واقع الحال.

5 ـ 2 القوميّة الروسية ـ الديموغرافية الاتنية والإمبراطورية

يعيش الشعب الروسي، بالمفهوم الإتني الضيق، حالة ديموغرافية صعبة. ويهدد هذا في المستقبل البعيد بنتائج مخيفة بالنسبة للأمة نفسها، مثلما هو الأمر بالنسبة للإمبراطورية القادمة إذ إن استبدال الروس كشعب حامل أساسي للوحدة القارية بأي أمة أخرى سيؤدي بصورة لا رجعة فيها إلى حرف المعسكر القاري عن رسالته الحضارية الطبيعية وسيفرّخ الفوضى والنزاعات في الأوراسيا ويحرم البنية الجيوبولتيكية من شريكها الثقافي ـ السياسي الأعظم.

وضع الروس الديموغرافي الضعيف هذا يثير القلق بصفة خاصة بمقارنته مع النمو الديموغرافي **للجنوب** الأوراسي الذي، على عكس الروس، يتنامى بالمعنى الكمي، تنامياً عاصفاً، وإذا ما بقيت هذه الاتجاهات في أحجامها الحالية فلا مندوحة من زحم الروس عن المواقع المركزية في الإمبراطورية واجتراف تجانس الأمة، وإما ابتلاع الاتنوس في بحر الشعوب الجنوبية وإما تحويله إلى بقية منقرضة لا حق لها في الوجود إلا ضمن المعزل. وينبغي أن نضيف إلى ذلك انعدام الاستيطان المكثف للروس في آماد أوراسية كبرى لا تخضع لسيطرتهم إلا سياسياً وإدارياً. وهذا العامل الأخير يمكن أن يكون سبباً لاختلال التوازن الاتني في **الإمبراطورية الأوراسية** وأن يدفع شعوب الجنوب العاصفة النمو بالمفهوم الديموغرافي إلى التوسع القومي باتجاه الأراضي الروسية (وهذا ما يتعلق بصفة خاصة بسيبيريا والشرق الأقصى).

وهذه المشكلة في حاجة إلى حل فوري، ولكن ينبغي التوكيد إزاء ذلك على أن حلها يجب ألاّ يسبق بناء **الإمبراطورية** وأن لا يأتي في أعقاب ذلك البناء. تحقيق المخططات الجيوبولتيكية مرتبط منذ البداية بالترافق، في زمن واحد، مع الأعمال الموجهة نحو التنمية الديموغرافية للروس ونحو إعادة التوزيع الاتني بهدف استيطان «المدى الحيوي» للأمة بصورة مكثفة. ولا يمكن الوصول إلى هذا الهدف

إلا بأساليب **سياسية** صرفة من شأنها أن تؤدي مباشرة إلى النتيجة المتوخاة وأن تحدد الإجراءات الاقتصادية في هذا المضمار.

ولا يمكن لعمل السياسي أن يكون إلا واحداً فقط ـ وهو دفع تصورات **القومية الروسية** إلى صدارة المخططات. على أن هذه القومية يجب أن تستخدم لا المصطلح الحكومي بل الثقافي ـ الاتني مع تشديد خاص على أمثال مصطلحات «كالشعبية» و«الارثوذوكسية الروسية». وإلى جانب ذلك فإن هذه القومية الروسية يجب أن تتسم بايقاع عصري كل العصرية وأن تتفادى أية محاولات لإعادة إحياء تلك الصيغ التي استهلكت نفسها من الناحية التاريخية. فالقومية ذات النمط الشعبي، الاتني، الأخلاقي الديني بالذات لا «الحكومية» ولا «الحكم المطلق» يجب أن تتمتع بالأفضلية في هذه الحالة. ويجب الإيحاء لجميع الروس بالفكرة الأساسية بأن هوية كل شخص بمفرده هي مقدار ثانوي مفتلذ من الهوية القومية. وعلى الروس أن يعوا أنهم قبل كل شيء أرثوذوكسيون، وفي المرتبة الثانية روس وليسوا إلا في المرتبة الثالثة بشراً. ومن هنا يأتي تدرج الأفضليات كما في الحياة الشخصية كذلك في الاجتماعية. الأسمى من كل شيء ـ الوعي الأرثوذوكسي للأمة ككنيسة، ثم ـ الوعي الواضح للانفصالية، لكلية وشمولية ووحدة الجهاز الروسي الاتني الحي، المكون ليس فقط من الأحياء بل ومن الأجداد ومن الأجيال القادمة، وأخيراً، وفي المرتبة الأخيرة، معاناة الشخصية المحدَّدة كوحدة نووية مستقلة.

من الناحية العملية يستوجب تحقيق مثل هذه القومية في السياسة إضفاء الروح الكنسية الشامل على الروس وتحويل كافة المؤسسات الثقافية إلى امتداد **للكنيسة الواحدة** لا في المخطط التنظيمي ـ الإداري بل في المخطط الروحي العقلاني ـ الأخلاقي. مثل هذا الإضفاء ينبغي أن يخلص الثقافة والعلم من انقطاعها الدنس عن الأسس الحياتية، وأن يستقطبهما إلى عملية بناء البيت الروحي وأن يحوّل التطوير التقني البراغماتي غير المتجه إلى مركز ما إلى تحقيق لنداء الكنيسة المركزي الحرفي. فبمثل هذه الطريقة الراديكالية فقط يمكن للروس أن يعودوا بصورة واقعية إلى أحضان الكنيسة المكنونة في أساس وجودهم القومي التاريخي والتي صاغت الملامح الأساسية لما يدعي روسياً بأسمى معانيه. إن اعادة الإحياء الشاملة للنظرة الأرثوذوكسية بكل التبعات المنبثقة عن ذلك قادرة على أن

تعيد الشعب إلى ينبوعه الروحي. وإن كل إحياء نسبي **للكنيسة** كبنية دينية ذات مذهَبية محدَّدة وكل بعث يكتفي بالطقوس والخدمة الظاهرية سيكون بعثاً غير فعال. وإضفاء الروح الكنسية في أطر القومية الروسية لا ينسحب على الشخصيات الفردية بل على **مجموع** الثقافة الروسية والعلم والفكر معاً. وبهذه الطريقة فقط تضفى على الوعي الجماعي للأمة الروحية المتكونة وفق التدرج العمودي من الأعلى إلى الأسفل والتي تعيد، بدورها، مشكلة النمو الديموغرافي إلى نوع من المهمة الروحية على أساس من الأخلاقية الأرثوذوكسية التي تحظر، على سبيل المثال، منع الحمل والإجهاض.

المستوى التالي ـ هو الوعي الذاتي الاتني، تصوُّر الشعب جسداً واحداً وروحاً واحدة. وإلى جانب ذلك ينبغي أن يفهم وجود هذا الجسد الحي الواحد على أنه شيء فوق الزمان لا يتحدد بالأبعاد المكانية ولا الزمانية. والقومية الروسية يجب أن تستعين لا بحاضر الأمة فقط بل وبماضيها ومستقبلها مأخوذين معاً كاجتماع لكائن روحي واحد. وهذا «الكائن» ـ هو الشعب الروسي العظيم في شموليته ما فوق التاريخية، وينبغي أن يتم وعيه من طرف كل روسي وأن يُتعرف إليه في ذاته. إن حقيقة الانتماء إلى الأمة الروسية يجب أن تتم معاناتها كأمر نخبوي، كترف حياتي مستحيل، كشمم انتروبولوجي علوي. والدعوة إلى هذه الاستثنائية القومية (دون أي مسحة مهما صغرت من رُهاب الأجانب أو من الشوفينية) يجب أن تكون محور التربية السياسية للشعب. وفي الدرجة الأولى فإن صوت الرّشاش الديموغرافي سيظل موجوداً إيديولوجياً، ثقافياً وأخلاقياً. ينبغي الإيحاء للشعب بالفكرة القائلة بأن كل أسرة تساهم في المسرحية الدينية القومية عندما تنجب طفلاً روسياً إذ تشارك في إكمال البناء الروحي للشعب كله. ويجب أن يُفهم الأطفال على أنهم ثروة قومية مشتركة، تعبير مادي عن الطاقة المكنونة لشعب عظيم. والطفل الروسي يجب أن يفهم في البداية على أنه **روسي** وبعد ذلك على أنه طفل.

وبالأخذ في الحسبان الوضع الديموغرافي الصعب في الوقت الراهن فإن البدء بالدعاية الوطنية يجب أن يتم بأسرع صورة وأن تستخدم في سبيل ذلك كافة الأساليب السياسية والإيديولوجية. كما أن من الضروري أيضاً توتير التوجهات القومية حتى أبعد مداها بتحفيز اليقظة الدرامية والسريعة للاتنوس العظيم والجبار.

وتجدر الإشارة إلى أن أية اجراءات اقتصادية لا يمكنها في حدود ذاتها أن تعطي النتيجة الديموغرافية الإيجابية بدون الضمانة الدينية ـ الأخلاقية والإيديولوجية المطابقة. فلا يمكن وقف الانهيار الديموغرافي عند حدود الصفر ثم تحقيق عملية معاكسة إلا بمساعدة الإيديولوجية المناسبة التي يمكنها أن تركز الاهتمام الأساسي على تبديل **وعي** الشعب، بتحويل تفكيره، أجواء حياته اليومية مئات وآلاف الشعارات التي توجّه الناس، بصورة واضحة أو غير واضحة نحو المصالح القومية، وفي إطار الاتنوس الروسي يجب أن تكون القومية الروسية الإيديولوجية الوحيدة الشاملة القادرة على أن تكون لها صورها ومستوياتها المختلفة، ولكن أن تكون دوماً الثابتة على كل ما يتعلق بطرح مقولة «الأمة» فوق مقولة «الفردانيّة»، ويجب في نهاية المطاف، رفع الشعار الراديكالي: «الأمة ـ هي الكل، والفرد ـ هو اللاشيء».

هذا التوجه السياسي نحو القومية يجب أن يدعّم أيضاً بإجراءات ذات طابع اقتصادي محض، إذ لا بد لتحقيق الهدف القومي من أدوات مادية صرف، وهكذا تقدم المساعدة للأمهات وللأسر الكثيرة الأطفال وتؤمن الشروط الاجتماعية لإعالة الرجل العامل في الأسرة الكبيرة. لكن هذا العنصر الاقتصادي المساعد لن يكون فعالاً إلا في شروط سيطرة الإيديولوجيا القومية التي عليها لا أن تدعم ببساطة النمو الديموغرافي للروس من الناحية الاقتصادية، ولكن أن توجه الاقتصاد، بصفة عامة، وفق أساس قومي محض، وأن تضع المصالح المادية للاتنوس فوق المصالح الفردية للشخصية. وبكلمة أخرى يكون الدعم الاقتصادي للولادات حالة خاصة في التوجه العام للاقتصاد الذي يجب أن يستخلص في عمومه من المصالح القومية لا من الحوافز الشخصية والأنانية أو التجديدات الطوباوية.

يبدو للوهلة الأولى أن من شأن الالتفات إلى الإيديولوجية القومية أن يُثير النزاعات الاتنية وأن يفسد العلاقات بين القومية القائمة بين الروس والاتنوسات المجاورة وأن يولد عدداً كبيراً من التناقضات التي لا تحل. وكان لهذا أن يحدث لو أن القومية الروسية نشرت إعلان مطالباتها **بالنظام الحكومي** بالمعنى الكلاسيكي لهذا المفهوم. فقد لا يقبل العيش في الدولة الروسية القومية الأرثوذكسية ممثلو الاتنوسات والطوائف الأخرى. إلا أن العيش **بجوار** الشعب الروسي الأرثوذكسي الذي يدعو إلى إيديولوجية قومية في إطار **إمبراطورية** قارية واحدة متحدة

جيوبولتيكياً واستراتيجياً لكنها مرنة وتعددية في بنائها الداخلي، لن تمثل، على العكس من ذلك، أية صعوبة بالنسبة لأي كان، إذ ستكون حاضرة دوماً المرجعية العليا التي تتمتع المجموعات الاتنو ـ دينية بوضع متساو أمامها، والتي تهتدي بالمبادىء الحيادية للوئام الإمبراطوري والعدل. ومشروع الإمبراطورية الجديدة على المستوى الاتني ينحصر بالذات في أنه ليس فقط لدى الشعب الروسي يجب أن تغلب وتتأكد الإيديولوجية القوية ـ الدينية الواضحة التجسد ولكن هذا ينسحب أيضاً على جميع الشعوب الأخرى التي تدخل في تركيب **الإمبراطورية**. وبهذه الطريقة يظهر خليط «القوميين الإيجابيين» بقاسمهم المشترك ـ التدرّج العمودي للتوجه الإمبراطوري.

الأمر المهم أنه بهذه الطريقة فقط يمكن للقومية الروسية الأشد راديكالية أن تتحقق بكاملها، لأن العقبات الأساسية أمام تطورها ستكون في هذه الحالة قد أزيحت ـ ولن يحسّ أي من الشعوب المجاورة بنفسه مذلولاً أو مخنوقاً على أيدي الأمة الروسية، إذ لن تكون ثمة أي أهمية **سياسية** للحدود الثقافية الاتنية والطائفية بين شعوب **الإمبراطورية**. فيعيش ـ الروس في واقعهم الوطني، والتتار ـ في واقعهم الوطني، وهكذا. حتى في حالة ما إذا دار الحديث عن أنكلافات(*) إتنية أو أقليات قومية وسط شعب آخر. إن قومية متحررة من قضايا الحكوميّة والحدود إنما تدعم التفاهم المتبادل بين الأمم إذ تضمن لها حرية العلاقات فيما بينها مثلما تضمن حرية الانعزال الاتني.

لاستمرار حياة الشعب الروسي في الشروط الحالية الصعبة، ومن أجل الانطلاقة الديموغرافية للأمة الروسية، ولتحسين وضعها البالغ الصعوبة بالمعاني الاتنية، البيولوجية والروحية لا بد من العودة إلى الصيغ الأشد راديكالية **للقومية الروسية**، والتي تغدو الإجراءات التقنية والاقتصادية عاجزة بدونها إلا أن هذه القومية لن تكون ممكنة إلا بالتوحد العضوي مع مبدأ **الإمبراطورية** الجيوبولتيكية القارية.

(*) انكلاف (من الفرنسية enclave وتعني جزءاً من أراضي دولة ما محاط من جميع جهاته بأراضي دولة مجاورة ولا يملك منفذاً بحرياً). فالعبارة هنا تعني جماعات إتنية مغلقة أو معزولة. (المترجم).

5 ـ 3 المسألة الروسية بعد النصر القادم

قد يكون مما ينبغي التنبه إليه، من الوجهة النظرية ذلك الوضع الذي يبدو عليه الروس بعد تحقيق النصر الممكن **الإمبراطورية الأوراسية** على الأطلسية. ومن الطبيعي أن ذلك مستقبل بعيد إلى درجة أن مناقشة حادة لتلك المشاكل التي تظهر في مثل هذه الحالة تكاد تخلو من المعنى. بيد أن من الضروري الأخذ بعين الاعتبار أن انهيار الأطلسية يمكن أن يحدث بصورة آنية تقريباً وعند أي مرحلة من مراحل بناء الإمبراطورية الأوراسية. لأن الثبوتية الجيوبولتيكية **للغرب** قائمة بصفة استثنائية على التجاوب الصحيح والحاذق للمقولات الجيوبولتيكية لا على القوة الصناعية أو الاقتصادية أو العسكرية الحقيقية. والبنية الأطلسية تبدو على المحك هشة إلى حد بعيد، ويكفي أن يتم إسقاط واحدة فقط من محاورها الاستراتيجية ـ كأوروبا الوسطى مثلاً أو منطقة المحيط الهادي أو **الجنوب** الأوراسي القاري حتى ينهار كل ذلك المبنى المهول للأطلسية والذي يبدو للوهلة الأولى على هذه الدرجة من الجبروت والرسوخ. وفي اللحظة التي تكون فيها الاستراتيجية الجيوبولتيكية «للجنة الثلاثية» مطوقة ولو بدرجة ما بالمشروع الأوراسي البديل يمكن توقع ارتباك حاد في الأداء الوظيفي لكامل المجمع الأطلسي، ويمكن للأحداث بعد ذلك أن تنطلق باندفاع خارق ومتسارع، كما حدث عند انهيار **الإمبراطورية السوفياتية** وتوابعها. ولهذا، وعلى الرغم من أن الانتصار على الأطلسية يبدو أملاً بعيداً إلى حد كبير فينبغي صياغة عدد من الأطروحات المتعلقة بوضع الروس في العالم الجيوبولتيكي ما بعد الأطلسي.

علينا أن نؤكد بالدرجة الأولى على أن هزيمة الولايات المتحدة الجيوبولتيكية ستطرح **أمام الإمبراطورية الأوراسية** نفسها عدداً من القضايا. ففي هذه اللحظة يزول ذلك العامل الرئيسي الكامن في صلب مشروع الوحدة الجيوبولتيكية للأمم والشعوب في **الإمبراطورية الجديدة** ـ ويزول مبدأ «العدو المشترك». وتفقد هذه الطاقة المتراصة مغزاها حتى إن مغزى الوجود المقبل للإمبراطورية الأوراسية سيكون في موضع الشك. وفي مثل هذا الموقف يمكن أن يبدأ الانتقال من البناء الجديد الثنائي القطبين للعالم ـ الأوراسيا ضد الأطلسية ـ إلى الأنموذج المتعدد الأقطاب. ولا بد إزاء هذا من التشديد على تلك الحقيقة وهي أن الأنموذج

المتعدد الأقطاب لا يصبح ممكناً **إلاّ بعد** الانتصار على الأطلسية، وليس قبل ذلك بأي حال. وما دامت الأطلسية، كقوة تتطلع إلى العالمية، موجودةً، فلا يمكن لأي نوع من الحديث أن يدور حول أي نوع من البناء المتعدد الأقطاب. فقط في إطار **الإمبراطورية الجديدة**، في إطار المشروع الأوراسي الكوني، وضمن مسيرة المواجهة الاستراتيجية للأطلسية يمكن أن تتكون المنطلقات الموضوعية. لظهور تعددية قطبية متوازنة إلى حد ما ـ وليس قبل ذلك. ولن تكون ولادة التعددية القطبية إلا بعد تحقيق ذلك الأنموذج الإمبراطوري التعددي الذي يرسخ وضعية الفاعل السياسي خلف عدد من المقولات العضوية، الثقافية ـ الروحية ـ الشعب، الاتنوس، الدين، الأمة، خلافاً للنظام المسيطر القائم اليوم، حيث لا يدور الحديث إلا عن الوضع الحقوقي للدولة والشخصيات المفردة (حقوق الإنسان). ولن يكون «صدام الحضارات» (وفقاً لتعبير هنتينغتون) أمراً واقعاً في العالم المتعدد الأقطاب إلا إذا استطاعت الحضارات أن تترسخ وأن تنتزع لنفسها حق الوجود في سياق الحلف الاستراتيجي المعادي للأطلسية. فلا توجد في الوقت الحاضر إلاّ «حضارة» واحدة ـ الأطلسيةُ، الغربية، الليبرالية، السوقية، المواجهة **لجميع** النماذج التاريخية العضوية الثقافية الأخرى.

إن إفلاس الأطلسية يضع شعوب الإمبراطورية الجديدة وقطاعاتها المنفصلة أمام مشكلة جادة: أتتم المحافظة على الوحدة الجيوبولتيكية أم يتم توطيد الأحلاف الحضارية الكبرى داخل الإمبراطورية كواقع جيوبولتيكي مستقل؟ ولكن على أية حال فإن الفروقات القومية بين الشعوب والملل ستتقدم إذ ذاك إلى الصف الأول.

ربما يكون الخيار الأفضل في مثل هذه الحالة، الحفاظ على البنية الإمبراطورية على أنها النظام المتوائم الأفضل لحل كافة التناقضات الداخلية، وبالتشابه مع مقولة «Jus Publicum Europeum» أي القانون المدني الأوروبي الذي كان سائداً في يوم من الأيام، والعام بالنسبة لجميع شعوب أوروبا يمكن للإمبراطورية الأوراسية في مرحلة ما بعد الأطلسية أن تتأسس على مقولة مشابهة لكنها أكثر اتساعاً وهي «Jus Publicum Euroasiaticum». وإذ يفقد المجمّع القاري الإمبراطورية معناه العسكري ـ الاستراتيجي يمكنه أن يظهر على أنه المرجعية **الحقوقية** العليا ـ وهو ما يمكن أن يزيل التوتر بين الأمم الأوراسية، التي ستضعف

العلاقات بينهما حتماً بعد الانتصار على «العدو المشترك». ومثل هذا المخرج يمكن أن يكون مثالياً.

ولكن يمكن أيضاً افتراض انهيار الوحدة القارية أيضاً وتشكل عدد من المعسكرات الحضارية فوق الأراضي الأوراسية: التكتل الروسي - (السلافي بكلمة أوسع الأرثوذوكسي)، الأوروبي، تكتل الشرق الأقصى، تكتل آسيا الوسطى، التكتل الإسلامي وما إلى ذلك. ومن الطبيعي أن علاقة كل منها بالتكتلات الأخرى، بل وحتى حدودها وبناءاتها أمرٌ لا يمكن استشرافه الآن. إلا أنه في مثل هذا الأفق الجيوبولتيكي يجب أن يُدخل في بناء الأمة الروسية منذ اليوم الأنموذج الذي يضع في الحسبان في المستقبل البعيد (وفقط **بعد** نهاية الأطلسية) المشاركة المستقلة للروس في التاريخ العالمي العائد إلى حركته العضوية والطبيعية بعد مرحلة طويلة من التاريخ العالمي الذي عاد إلى مسيرته العضوية والطبيعية بعد مرحلة طويلة من الانحراف الأطلسي عن الحدود. وينبغي، في مثل هذه الحالة، أن تكون الأمة الروسية مستعدة لبناء جهازها الحكومي الخاص أو لإقامة تشكيل اتنو - حكومي طبيعي أكثر اتساعاً ترسخه وحدة التقاليد، الثقافة، الدين والمصير. ويمكن لمسألة الدولة الروسية أن تنهض بكامل قوامها إلا أن ذلك يتعلق بصفة خارقة بالمرحلة ما بعد الأوراسية والتي، في حد ذاتها، إشكالية وقائمة على الفرضيات.

غير أن على الروس في اللحظة الراهنة أن يكرسوا جميع قواهم من أجل التراص القومي والانبعاث الروحي - الثقافي والديني للشعب ومن أجل تشكله النهائي ويقظته الكاملة، من أجل أن يتمكن في المستقبل (إذا تطلب الأمر) من الدفاع عن **حقيقة القومية** لا من الأعداء بل ومن الحلفاء في بناء الإمبراطورية والذين لديهم رؤيتهم القومية الخاصة المحدّدة - تاريخياً بصورة مسبقة. ليس على الروس ببساطة أن يحافظوا فقط على هويتهم في السياق الإمبراطوري بل ويجب عليهم توكيدها وأن يصقلوها ويعمقوها حتى أبعد الأغوار. وفي المستقبل البعيد وبعد انهيار الأطلسية يجب على الروس أن يكونوا على استعداد للدفاع عن رسالتهم الحضارية الخاصة، لحماية طريقهم العالمي، المتدبّر، القومي.

ومهما يكن من أمر سيظهر الروس، في أية حال، في المكان المركزي استراتيجياً ضمن المدى الإمبراطوري الأوراسي. وعليه فإنهم في مسألة الأفضليات

الحضارية للإمبراطورية خلال المرحلة التابعة للأطلسية (إذا ما بقيت الإمبراطورية مع ذَلك) سيكونون في الوضع الأفضل. وبناء على ذلك سترتبط هذه الإمبراطورية إلى درجة ما **بالفكرة الروسية**، الاسكولاتية، والعالمية في تعريفها ـ ملتحمة بالآماد المهولة والإحساس الكوني. فإذا ما عاد التكتل القاري الكوني إلى عناصره المكونة سيجد الروس الذين استعادوا قواهم بفضل المرحلة القومية العملية الحيوية لبناء الإمبراطورية، أنفسهم في وضع جيوبولتيكي رابح وهم يشغلون الموقع **المركزي** بين الشعوب والدول المحررة في القارة وهو ما سيمكن من وجود **الدولة الروسية**، **الإمبراطورية الروسية** والواقع الجيوبولتيكي المستقر والثابت المؤسس على أرضية قومية راسخة.

ينبغي احتساب هاتين الإمكانيتين اليوم لدى إرساء قواعد الإمبراطورية الجديدة، وإزاء إعادة التنظيم الإداري والسياسي والإيديولوجي لمجموع الواقع القومي الروسي.

الآفاق العسكرية للإمبراطورية

6 ـ 1 أفضلية القدرة النووية والعابرة للقارات

بالمعنى العسكري ـ الاستراتيجي يمكن أن تقام **الإمبراطورية الجديدة** بشرط الحفاظ على القدرة النووية للاتحاد السوفياتي السابق مضافة إلى كافة أصناف الأسلحة الاستراتيجية والكونية في أيدي المعسكر الأوراسي. وهذا هو الشرط الوحيد ليس فقط من أجل تعزيز قدرات التشكل القاري الأوراسي بل ومن أجل إنشائه، ذلك لأن تكامل الدول و«الآماد الكبرى» حول روسيا وترسيخ المحاور الرئيسية للأوراسيا يتحقق فقط إزاء توفر القدرة **الاستراتيجية** التي ستكون الضامن الأساسي لجدية المشروع كله. إن الحفاظ بالذات على التوازن الاستراتيجي بين الأطلسية (الناتو) وروسيا (الوريثة العسكرية ـ الاستراتيجية للاتحاد السوفياتي، وقطب المعسكر الأوراسي الجديد) يضفي صفة الجدية على المخططات السياسية **للإمبراطورية الجديدة** ويجعلها ممكنة من الناحية العملية.

في اللحظة الراهنة لا تزال القدرات النووية للاتحاد السوفياتي السابق محافظة على قدراتها التنافسية مع الناتو ـ في ميدان التسلح النووي، الغواصات الذرية، بعض البرامج العسكرية ـ الكونية في مسألة الطيران الاستراتيجي، وما إن يتحول هذا التوازن لصالح الأطلسية حتى تغدو الإمبراطورية الأوراسية مستحيلة، وتتحول روسيا بصفة نهائية إلى «دولة جهوية» بسيطة وبهذا تقلص من مساحتها ومن أبعاد تأثيرها. ولن تستطيع أي محاور جيوبولتيكية وأي مشاريع سياسية أن تبدل بعد ذلك شيئاً. وفي المرحلة الراهنة فقط، وما دام توزع قوى «الحرب الباردة» في الميدان الاستراتيجي على حاله، ولم يتبدل بعد بصورة لا رجعة منها، فإن

جيوبولتيكا روسيا وسياستها تملكان من الناحية الواقعية معنى حاسماً ووزناً قارياً. فإمكانية إقامة المشاريع الجيوبولتيكية الحرة والمستقلة ترتبط من الناحية العملية ارتباطاً مباشراً بالحفاظ على الأهلية الاستراتيجية للقدرات الروسية والأطلسية. وعندما يختل هذا التوازن اختلالاً حاداً تتحول روسيا من **فاعل** في الجيوبولتيكا إلى **مادة** لها وفي هذه الحالة لا يتبقى للروس إلا أن يناوروا ضمن وضع مفروض عليهم من الخارج، فيختارون أدواراً وأفضليات في لعبة «ليست لهم» من الناحية الجوهرية.

مثل هذا التوضع للأمور يجعل المشروع الأوراسي مرتبطاً بصورة مباشرة بنوعية وقدرة الجيش الروسي (السوفياتي السابق). وبإمكاننا وبطريقة آلية، أن نصل من هذا إلى الاستنتاج بأنه لا ينبغي للجيش في أمثال هذه الظروف، وبأي حال من الأحوال، أن يكون مرتبطاً بالحالة السياسية الراهنة في موسكو. بل وعلى العكس من ذلك تعدّ نوعية الجيش نفسها (طبيعي أن المسألة تتعلق، بالدرجة الأولى، بالأسلحة الاستراتيجية) أساس مجموع السياسة الروسية، ومحورها، وبناء عليه فإن تركيبة الجيش يجب أن تحدد المعالم العامة لهذه السياسة وأن تفرض التوجهات **السياسية** الخالصة. وبما أن التوازن الاستراتيجي يبقى على حاله في حدود ما فإن الجيش سيبقى العامل الأهم في السياسة الروسية لأن الوضع السياسي للبلاد، ووزنها وإمكاناتها ومستقبلها يرتبط في مثل هذه الحالة، بصورة مباشرة بالقوات العسكرية.

في اللحظة الراهنة تجري في الجيش الروسي، وتحت ضغط من الأطلسية، عملية على غاية من الخطورة وهي تحويل كامل توجه العقيدة العسكرية عن البناء القاري السوفياتي إلى البناء الجهوي ـ المحلي. وهذا يعني أنه قد بدىء بتصوير «العدو المحتمل» لروسيا لا بصفته **الولايات المتحدة** ودول **الناتو** بل الدول المتوضعة على حدود روسيا مضافةً إلى المناطق الداخلية في الفيدرالية الروسية والتي يمكن أن تتوجه نحو الانفصالية. ومثل هذا التحول في العقيدة العسكرية الجديدة يتناقض، من الناحية العملية، تناقضاً تاماً مع موقف القوات المسلحة، الموقف المتعقل الوحيد من وجهة النظر الجيوبولتيكية، إذ إن «الأعداء المحتملين» يصبحون في هذه الحالة بالذات تلك البلدان التي كان عليها، من الناحية المنطقية، أن تكون «الحلفاء الطبيعيين للروس». وبكلمة أخرى ينظر إلى «الحلفاء المحتملين»

على أنهم «الأعداء المحتملين» بينما يتم على العموم، اسقاط «عدو» روسيا الرئيسي، الجيوبولتيكي «المحتمل» من الحسابات.

ترتبط المسألة العسكرية ارتباطاً مباشراً بالخيار الجيوبولتيكي. وإذا كانت روسيا تعي مستقبلها **كإمبراطورية**، كمقياس حسابي، وكقطب للمعسكر القاري الجديد فإن قواتها العسكرية يجب بالضرورة أن تتوجه، وبالصورة الأفضل، نحو التسلح الذري الاستراتيجي على حساب الأشكال الأكثر محلية من التسلح. فالعمليات العسكرية الأساسية في المخطط الإمبراطوري ستتطور ضمن أفق «حرب القارات» وعليه تكتسب دوراً خاصاً الصواريخ العابرة للقارات (وبالدرجة الأولى ذات الرؤوس النووية) والطيران الاستراتيجي، وحاملات الطائرات والغواصات الذرية بالإضافة إلى كافة أشكال البرامج الحربية ـ الكونية التي تعد كبديل للأسلحة الاستراتيجية وأولوية أمثال هذه الأنماط من الأسلحة يمكن أن تساعد التكاملات القارية بطريقة ليس ثمة ما يفوقها في الأفضلية وأن يجعل التحالف مع روسيا أمراً مغرياً وجذرياً بالنسبة للمعسكرات والبلدان الأوراسية الأخرى. إن أمثال هذه الأنماط من الأسلحة بالذات ترتبط بصفة مباشرة بقدرة روسيا على أن تلعب الورقة الجيوبولتيكية على مستوى القارة، والقيام في الوقت نفسه، وبناء على ذلك، وعلى أرضية مخطط أكثر تحديداً بحل المشاكل الاقتصادية على أساس التعاون مع المناطق المتطورة في أوروبا الوسطى واليابان. وليس لنا أن ننسى أن العامل النووي بالذات والذي تقدمه الولايات المتحدة على أنه «ضمانة حماية الغرب والديموقراطية من الشمولية السوفياتية» كان موتور(*) الدفع الأساسي للاقتصاد الأمريكي في مرحلة ما بعد الحرب، عندما كانت الدول الصناعية القوية، ولكن الضعيفة من الناحية العسكرية ـ السياسية، في الغرب (واليابان) مضطرة لتمويل الاقتصاد والصناعة الأمريكيين مقايضة بحماية الـPax Americana الاستراتيجية. وبمعنى من المعاني يمكن لروسيا في اللحظة الراهنة أن تقترح شيئاً مشابهاً لأوروبا ولليابان مع هذه الإضافة وهي أن في مصلحة روسيا المساعدة على الانضاج

(*) يبدو أن المؤلف آثر استخدام هذه الكلمة لمنع الالتباس في كلمة «محرّك» الروسية والتي تتطابق مع العربية في ازدواج معناها بين «المحرّك» ـ الآلة و «المحرّك» ـ ما يحرّك الأحداث ويفعّلها . (المترجم).

السياسي لهاتين «الإمبراطوريتين المحتملتين» لا على إضعافهما والسيطرة عليهما بقسوة كما هي الحال في السيطرة الأمريكية والأطلسية. وحتى على المستوى البراغماتي المحض فإن التخلص من الأزمة الاقتصادية في روسيا لا يمكن أن يتحقق إلاّ بالاستخدام الجيوبولتيكي الفعال للعامل الاستراتيجي وما يتطابق معه من أصناف الأسلحة، فالسبيل الأسهل للحصول على «كميات أوفر من السلع الجيدة» لا تحويل الصناعات الحربية إلى صناعة القدور بل مواصلة وتعزيز صنع حاملات الطائرات والغواصات النووية، ولدى الضمانة السياسية في الخصوص فإن بضع غواصات نووية يمكن أن تحمل لروسيا بلداناً بكاملها ذات صناعة متطورة وعبر طريق سلمي صرف، بينما يحمل تحويل الصناعات الحربية إلى صناعة للغسالات لروسيا خسارة **اقتصادية** تستحيل معالجتها.

إن تحويل الجيش في عمومه إلى الأسلوب «الجهوي» يعني تطوير كافة الأنواع الاعتيادية غير الاستراتيجية من الأسلحة. وإذا ما طبقنا هذا الإصلاح العسكري بطريقة عقلانية ومنهجية (وهو ما يصعب تصديقه بالنسبة لشروطنا الحالية) فسيحصل الروس على جيش متحرك فعال مستعد للعمليات العسكرية في الشروط القارية وقادر بنجاح ودون أية مشاكل على حسم النزاعات العسكرية على مستوى أفغانستان، طاجكستان والشيشان. أما لا فعالية الجيوش السوفياتية في الأمور المحلية، الأمر الذي أمكنت ملاحظته في الحرب الأفغانية والصراعات ضمن البيريسترويكا، فكانت نتيجة الأفضلية الاستراتيجية لبناء القوات العسكرية للاتحاد السوفياتي والذي كان متوجهاً إلى النزاع النووي الكوني لا إلى الحروب المحلية ذات الكثافة الصغرى أو المتوسطة. وهذا أمر منطقي فالبيريسترويكا في الجيش مع أفضلية «التوجه الجهوي»، أي اختيار العمليات الناجحة في إطار «الحرب ذات التوتر الضعيف أو المتوسط» بالذات، ستؤدي بالتأكيد إلى **دمار** الأسلحة الاستراتيجية، لأن أي جيش اليوم، وحتى في أغنى دول العالم وأكثرها ازدهاراً من الناحية الاقتصادية ـ ومثال ذلك الولايات المتحدة ـ غير قادر على أن يقيم بناءه فوراً في اتجاهين ـ الاستراتيجي والجهوي. (وقد تم استعراض عدم آهلية الأمريكيين في النزاعات الجهوية أكثر من مرة ـ بدءاً من فيتنام وانتهاء بيوغوسلافيا والصومال). ولهذا فإن إعادة التنظيم «الإيجابية» للجيش والتي تبدو للوهلة الأولى ملائمة لروح العصر تعني في المستقبل البعيد نهاية الأمن

الاستراتيجي للروس، وإضاعة أية ضمانات جادة لسلامة أراضي الفيدرالية الروسية والاستحالة الكاملة لتحسين الحالة الجيوبولتيكية في المستقبل بأي صورة.

إن المصالح القومية الروسية تتلخص اليوم في الحفاظ **بأي ثمن** على القدرة الاستراتيجية على مستوى ما بين القارات أي بأن تبقى «دولة فوق العظمى». وإن كان ذلك بصفة مجزوءة مبتسرة. ولتأمين هذا الشرط يمكن التضحية بكل شيء ـ حتى الدخول في أية مساومات سياسية جيوبولتيكية، اقتصادية وترابية. وإزاء الحفاظ على القدرة الاستراتيجية فإن أي تنازل اليوم يمكن إعادة النظر إليه لما فيه صالح الغد الروسي. وما دام كل شيء سيبقى على ما كان عليه فإن جميع الخطوات السياسية للقيادة الروسية لصالح **الغرب** تظل من الناحية النظرية قابلة للانعكاس.

إن مصير الروس ومستقبلهم العظيم يتمثل اليوم لا في كم من الروس وجدوا أنفسهم خارج الفيدرالية الروسية، وليس في ماهية الوضعية السياسية والاقتصادية لدينا في اللحظة الراهنة بل فيما إذا كنا سنملك المستوى الكافي من الأسلحة من أجل أن ندافع بطريقة قتالية عن استقلالنا ضد «العدو القادر» عدو روسيا الوحيد والطبيعي ـ ضد الولايات المتحدة وحلف شمالي الأطلسي. وجميع الأسئلة الأخرى تنطلق من هنا. وعلى هذا يتأسس التحديد الوحيد المعنى لما إذا كان **لا يزال** ممكناً تحقيق المشروع الأوراسي الإمبراطوري العالمي أم **لم** يعد.

6 ـ 2 ما القوات المسلحة التي تحتاج روسيا العظمى إليها؟

التدرج في تطور التجمع الحربي ضمن تصورات إقامة **الإمبراطورية الأوراسية** ينطلق بصورة واضحة من الأطروحات الجيوبولتيكية التالية:

1 ـ تحظى بالأفضلية الأنواع الكونية من الأسلحة المزودة بحجم من قوة التأثير المكاني تجبر الصيغ التقليدية لضمان الأمن العسكري للدولة أو الحلف على التراجع بعد أن تكون قد فقدت تأثيرها وأهميتها. إن العمل على الخيار الروسي للأسلحة الاستراتيجية أهمية مركزية. كما أن من الأمور البالغة الأهمية إعداد الأسلحة «الفضائية»، وإجراء التجارب على النماذج غير المستقيمة الاتجاه من الأسلحة، والمرتبطة بالتأثير على العنصر النفسي في الإنسان. إن هذا الميدان

المكلف والمكثف علمياً من الأسلحة، والذي لا يستخدم في النزاعات المحلية يعدَ في واقع الحال المحور الأهم للأمن الحقيقي بالنسبة للدولة والأمة، وبدون هذه البحوث وما ينفرط عنها من نتائج يبدو الشعب من الناحية العملية مكشوفاً أمام «العدو المحتمل» وكافة مسائل «الاستقلال» و«السيادة» والمشاريع الجيوبولتيكية تتساقط من تلقاء نفسها.

2 ـ يلي ذلك السلاح النووي على المركبات الفضائية ـ القدرة الصاروخية والطيران الاستراتيجي. وهذا الميدان الخاص بالأسلحة العابرة للقارات والموجه نحو النزاع المحتمل مع القطب الأطلسي، يمثل تهديداً دائماً لتلك المناطق المحمية حماية جيدة بالشواطىء البحرية من كافة أشكال الاختراق العسكري. وليس من قبيل الصدف أن تطوير بناء الصواريخ السوفياتي قد أثار في حينه ذلك الذعر في الولايات المتحدة، وأن النجاحات في هذا المضمار بالذات قد مكنت الاتحاد السوفياتي وحلف وارسو من البقاء كل هذه الفترة الطويلة بعد الحرب العالمية الثانية بغض النظر عن ذلك الوضع الجيوبولتيكي بحدوده القارية والخاسر بكل المعايير. وحدها الأسلحة العابرة للقارات جعلت الاتحاد السوفياتي بشيء من التقريب «قارة» وهو ما أرسى بعض الأسس المحدَّدة للتكافؤ الاستراتيجي مع القارة الحقيقية ـ الولايات المتحدة.

3 ـ والمستوى التالي للأهمية يجب أن نعدّه الأسطول البحري الحربي. مثل هذا النوع من الأسلحة، مثل الصواريخ العابرة للقارات والطيران الاستراتيجي، مدعو لتنفيذ المهام الحربية الكونية أثناء الصدام مع «العدو المحتمل» N1 ـ الولايات المتحدة الأمريكية. وعلى الأسطول البحري الحربي الروسي، في مستقبل إقامة المعسكر القاري، أن يكون نقطة الانطلاق لإقامة النظام الهائل من الموانىء الاستراتيجية في الجنوب وفي الغرب (وهو ما كانت روسيا والاتحاد السوفياتي محرومين منه بصفة تقليدية). وتلعب حاملات الطائرات والغواصات الذرية درجة أولية في هذا المضمار. وعلى الأسطول البحري الحربي أن يتوجه بنيوياً لإجراء العمليات القتالية ضمن الشروط البحرية وفي المناطق القريبة منها أي في آماد متباعدة عن القاعدة الأرضية إلى أقصى حدود. ويجب أن يصبح ذلك الصيغة ذات الأفضلية للعمليات القتالية في النزاع العسكري المحتمل، لأن الثابت الأساسي الأول للاستراتيجية الناجحة، كما هو معروف، إجراء العمليات القتالية إما على

أرض العدو أو على أرض محايدة. وينبغي إزاء ذلك وفي وقت سابق استطلاع الخاصية الجيوبولتيكية والاستراتيجية لتكيّف الأنموذج المطابق من الأسطول البحري الحربي مع شروط البحار والمحيطات الجنوبية وغربي المحيط الأطلسي. وعاجلاً أو آجلاً سيفقد أسطول البحر الأسود وأسطول البلطيق أهميتهما بالنسبة لروسيا **كإمبراطورية** ما داما يمثلان نقاطاً استراتيجية لـ«دولة جهوية» فقط، يتكافأ تأسيسها بالنسبة لروسيا مع فعل الانتحار الجماعي.

ولهذا فإن السيطرة على المحيط الهادىء وعلى الأطلسي أكبر في الأهمية بالنسبة للمعسكر القاري من الموانىء الثانوية التي تقفل بسهولة بالمضائق أو ببرزخ ضيق بين البلطيق وبحر الشمال. وعلى الأسطول البحري الحربي أن يقتدي، على العموم، بالنماذج القائمة في الشرق الأقصى وفي بحر الشمال والتي يجب على روسيا أن تكون مستعدة، عندما يحين الوقت، لإقامة أشباه لها في الهند، في إيران وفي أوروبا الغربية، لأن هذه الأراضي بالذات هي الحدود الجيوبولتيكية الحق لروسيا الإمبراطورية (لا الجهوية).

4 ـ للقوات البرية في المستقبل الإمبراطوري أهمية أقل، وهي أدنى إلى أن تطالب بدور أقرب إلى «القوى الداخلية» منه إلى القوى ذات الحجم الاستراتيجي ذي الأهمية الواقعية. وفي النزاع الحقيقي بين القارات يجب أن تقتصر القوات البرية على أدوار مساعدة فقط، فبهذا تتحدد مرتبتها في تدرجية البناء العسكري والاستثناء الوحيد في هذه المسألة يعطى لقوات الإنزال من الجو وللقوات الخاصة، والتي يمكنها بفضل حركيتها وعدم ارتباطها بالقواعد القارية الأرضية أن تشارك مشاركة فعالة في العمليات الجادة بين القارات. وبناء على ذلك يجب تخصيص قوات الإنزال الجوي بأفضلية بين غيرها من القطاعات البرية الأخرى في الجيش.

هذا البناء للقوات العسكرية لروسيا في الإمبراطورية الجديدة المقبلة سيعيد أنموذج الجيش **السوفياتي** بالذات في المرحلة التالية للحرب. وقد كان هذا الأخير نتيجة للعملية الجيوبولتيكية الطبيعية التي تم وعيها على أوضح صورة من قبل القيادة العسكرية التي قدمت الجواب الملائم لنفس المنطق الجيوبولتيكي للتاريخ، هذا بينما لم تسمح القوالب السياسية والجيوبولتيكية للقادة الحزبيين في الاتحاد السوفياتي بالتصرف وفقاً للمنطق الأوحد الذي كان يطرح نفسه بالنسبة للتطور

الحكومي والاستراتيجي للدولة **السوفياتية**. إنّ أفق التوسعية الجيوبولتيكية والاستراتيجية كامن في البناء المؤسس لوضع روسيا الحغرافي، والجيش بالذات كان يدرك هذا بصورة أكمل وأوضح مما أدركه الآخرون. ولهذا تحركت القوات العسكرية للاتحاد السوفياتي بالمعنى العام في الاتجاه الصحيح وفي تحديد «العدو المحتمل» وفي اختيار أفضليات التطوير بالنسبة لهذه الأنواع أو تلك من الأسلحة وفي التعزيز التقني للجيش بأفضل التقنيات. بيد أن الضغط الإيديولوجي المبالغ فيه والاهتراء العام للمجتمع السوفياتي في مرحلته المتأخرة انعكس على القوات المسلحة أيضاً والتي بدا أنها نسيت في لحظة آنية منطقها الخاص ومصالحها الخاصة (التي تتطابق مع المصالح الوطنية لجميع الروس في مسائل حرية الأمة وأمنها) والأخطاء الخاصة صرفت الأنظار عن المسائل الاستراتيجية الأساسية.

إنّ البيريسترويكا الحالية للجيش والمنطلقة من مبدأ «روسيا ـ دولة جهوية» تقلب من الناحية الواقعية ذلك التدرج الذي يجب أن يتوفر في الإمبراطورية الجديدة والذي كان سائداً بملامحه العامة في القوات المسلحة في الاتحاد السوفياتي.

ففي الجيش «الجهوي» للفيدرالية الروسية تعطى الأولية للقوات البرية على الرغم من أن قوات الإنزال الجوي قد عزلت إلى حد ما عن الأنواع الأخرى من الأسلحة.

يلي ذلك الأسطول البحري الحربي، وعلى أية حال فعمليات التغيير والتقليص تجري، وبالدرجة الأولى، على حساب حاملات الطائرات والغواصات الذرية، أما حول أسطول البحر الأسود المجرد عملياً من الأهمية الاستراتيجية فتدور مشادّة بين موسكو وكييف ليس لها أي مخرج لأن المصطلحات الانطلاقية والأهداف غير صحيحة في جذورها.

كما أن اهتماماً أقل يولى للطيران وبناء الصواريخ، أما الطيران الاستراتيجي والصواريخ العابرة للقارات فيجري على العموم تدميرها. وبصورة موازية لذلك يطبق عملياً الإعراض عن السلاح الذري.

أما برامج إعداد الأنواع الكونية من الأسلحة والتي لا ضرورة لها في النزاعات الجهوية على الإطلاق فتجمّد وتطوى فهي ليست في «الأفق» الجهوي إلا

بنداً هائلاً، عديم المعنى في نفقات الميزانية الحكومية، ليس له ما يبرره على الإطلاق.

وبالمقارنة بين أنموذجي الأفضليات في البناء العسكري يتبين لنا أنهما يمثلان نقيضين.

أحد الجيشين (الصيغة القارية الأولى) مكرّس للدفاع عن المعسكر القاري، عن الأوراسيا، عن روسيا في حجمها الجيوبولتيكي الحق، من «العدو المحتمل» الذي كان ولا يزال الولايات المتحدة والحلف الأطلسي. وهذا الجيش موجه لتأمين المصالح الحقيقية للروس وهو ضمانة الاستقلال القومي والحرية. وفضلاً عن ذلك يسمح هذا الجيش بالقيام بفعالية بتحقيق المشروع الأوراسي الكوني والذي لا يمكنه إلا أن يجعل وضع روسيا في العالم راسخاً وأميناً وأن يحل المشاكل الاقتصادية الأهم.

الجيش الثاني («الجهوي» النمط) الضروري لروسيا التي تم فهمها فقط كفيدرالية روسية لا تهتم إلا بحل المشاكل المحلية والسياسية الداخلية. ومثل هذا الجيش لن يكون الضمانة الحقيقية للأمن القومي. وتركيبته الأولى القائمة على أساس النزاع المحتمل مع الدول والشعوب المجاورة يجعل الروس دوماً في انتظار ضربة من جانب جار معاد (كان شعباً شقيقاً فيما مضى). وبناؤه يحرم الروس من إمكانية الدخول في علاقات جيوبولتيكية ملائمة مع أوروبا الوسطى واليابان، فمن الواضح أن ذلك البناء لن يقوى في المستقبل على حماية هذه التشكلات الجيوبولتيكية من العدوان المحتمل من طرف الولايات المتحدة. وهذا البناء يجبر الروس، فضلاً عن ذلك، على نسبة جميع أولئك المشاركين في محاور الأوراسيا ـ برلين، طهران وطوكيو الجيوبولتيكية المقبلة إلى «الأعداء المحتملين» كما يثير مثل هذه العلاقة من طرف هذه البلدان نحو روسيا. وليس مهماً على الإطلاق إذا كانت البيريسترويكا البنيوية العسكرية ستترافق بتوكيدات على السلام. ففي الجيوبولتيكيا ـ وهي تقف أعلى من التصورات السياسية المحضة لدى اتخاذ القرارات الأكثر مسؤولية ـ يتكلم طابع الأسلحة لدى هذه البلاد أو تلك بطريقة أفصح بكثير من التصريحات الرسمية وغير الرسمية للدبلوماسيين والقادة السياسيين.

التقنية والموارد الطبيعية

7 ـ 1 النقص التقني

إن أحد أسباب هزيمة الاتحاد السوفياتي في الحرب الباردة هو تخلّفه التقني الجاد بالمقارنة مع بلدان المعسكر الجيوبولتيكي المضاد، ذلك أن قفزة الأطلسيين التقنية حققها التوزيع الفعال للأدوار بين الدول المشاركة في الناتو. فمن جهة ركزت الولايات المتحدة على أرضها القطب العسكري الاستراتيجي ممكنة الدول الرأسمالية الأخرى من تنمية أفقها التجاري، المالي والتقني دون أن تهتم بالتوظيفات المباشرة «للتقنيات العليا الجديدة» في المجمع الحربي الصناعي. وكثيراً ما لم تقم الولايات المتحدة إلا باستخدام التقنيات العليا الجاهزة لتطبقها على مجمعها الحربي الصناعي بينما كانت هذه التقنيات تصنع وتعد في أوروبا واليابان وغيرهما من البلدان. وكانت البلاد الواقعة تحت «حماية» الولايات المتحدة تدفع لشريكتها «الضريبة التقنية» لقاء الحماية الجيوبولتيكية. أما الاتحاد السوفياتي من جانبه فقد ركز جميع مخترعاته التقنية بصورة شبه كلية في إطار مجمعه الحربي الصناعي، وهو ما جعل البحوث والمشاريع الحديثة عملاً أشد صعوبة فكأنها كانت منذ البداية تعدّ في جهاز إداري قائم على المركزية وتوجه لأهداف محدّدة وفقاً للخطط وهو ما يضيق أفق الإبداع التقني بصورة حادة. وبكلمة أخرى كانت تناط بهذا البنيان المركز مهمتان في وقت واحد ـ التوتر الهائل من أجل إقامة المجمع الكوكبي الاستراتيجي الحربي والتمويل التقني لذلك المجمع إلى جانب تطوير الصناعات المعتمدة على علوم مكثفة في مجالات أخرى. ومجموع ميدان التقنيات العليا، والبرامج المعلوماتية، وتقنية الحسابات وما

إلى ذلك كانت مرتبطة ارتباطاً صارماً بالمجمع الحربي الصناعي وذاك ما كان يجرّدها من المرونة والاستقلالية اللازمتين. ويمكن الافتراض أنه لو غاب لدى الولايات المتحدة أمثال هؤلاء «التابعين» الجيوبولتيكيين كفرنسا، انجلترا، ألمانيا، اليابان، تايوان، كوريا الجنوبية إلى آخره لكان مستواها التقني أدنى إلى حد كبير من المستوى الفعلي.

كان التخلف التقني للاتحاد السوفياتي أمراً لا مندوحة منه. واليوم يعيش الروس، وبصفة كاملة، خيبات الاتحاد السوفياتي في هذا المضمار، فيوماً بعد يوم يتعمق ارتباط الصناعة والاقتصاد الروسيين بالامتيازات والمهارات الغربية وما إلى ذلك، في حين أن المستوى المعين للتطور التقني ضرورة لازمة لأي دولة تطمح إلى أن تكون ذات وزن في السياسة الدولية وأن يكون لها بناؤها الاقتصادي الفعال والقادر على المنافسة. فإذا ما تحدَّثنا عن الأفق الإمبراطوري للأمة الروسية فإن المستوى التقني العالي يغدو أكثر ضرورة من أجل توفير كافة العوامل الاستراتيجية والجيوبولتيكية التي يقوم عليها كل تطور جيوبولتيكي واقتصادي. وهكذا يطرح السؤال التالي: ما الطريق الذي يمكن سلوكه ليتمكن الروس من تعويض ما خسروه وتجاوز التخلف التقني الموروث عن الاتحاد السوفياتي آخذين في الاعتبار أن هذا التخلف لا يتناقص في العصر الحاضر، بل على العكس من ذلك، يتنامى (هجرة العقول، تقليص التمويل الحكومي للنشاط العلمي، عملية التحويل والانحطاط والبيريسترويكا في المجمع الحربي الصناعي وما إلى ذلك)؟

هناك إمكانات جيوبولتيكية ثلاث. تتلخص الأولى في أن تكف روسيا عن جميع مطالبها في الاستقلال وأن تستسلم كلياً أمام الأطلسية فتقدَّم لها «جائزة» الطاعة وهي أن تتلقى من أيدي **الأمريكيين**، وعلى دفعات، إمكانية الوصول إلى بعض «التقنيات العليا» التي طالها البلى ولا تمثل أية أسرار استراتيجية. وفي الحقيقة فقد تمت تجربة هذا الطريق على مثال بعض بلدان العالم الثالث التي تمكنت بهذه الطريقة من تحقيق قفزة اقتصادية ومالية وصناعية (ما يسمى «النمور الآسيوية» أو «نمور المحيط الهادي»). أما في حالة روسيا فالولايات المتحدة ستكون أكثر احتراساً مما كان الأمر عليه بالنسبة لبلدان أوروبا أو العالم **الثالث** لأن مجال روسيا الجيوبولتيكي والتاريخي ضخم إلى درجة أن الازدهار الاقتصادي والسوق التقني قد يجعلان منها في لحظة ما «العدو المحتمل» القوي ضد الولايات

المتحدة. ومن الطبيعي أن وصول الروس إلى «التقنيات العليا» حتى على أساس الاستسلام الكامل والتفكيك الشامل للمكوّنات الاستراتيجية للمجمع الصناعي الحربي سيواجه بالمقاومة بكل الوسائل والعراقيل. فهذا الطريق يبدو مسدوداً.

الطريق الثاني، وهو خاص بأنصار «القومية الصغرى» ويتلخص في تحقيق القفزة التقنية عن طريق التشديد الأقصى على الموارد الداخلية دون مساعدة قوى خارجية. ويفترض ذلك التعبئة الكبرى وشبه الشمولية للشعب كله والإساءة الحادة للعلاقات مع الغرب. وإذا كان كل شيء يرتبط في هذه الحالة بالفيدرالية الروسية وروسيا التي تفهم كـ«دولة جهوية»، فإن أمثال هذه المحاولات محكومة بالفشل إذ ستظهر نفس المشاكل التي ظهرت في حال الاتحاد السوفياتي. فعلى الروس أن يقوموا في وقت واحد بحماية أنفسهم من دولة فوق العظمى بصفتها «العدو المحتمل» وبالعكوف بأنفسهم على تطوير تلك الآفاق العلمية الدقيقة كالدراسات في ميدان التقنيات العليا. ولما كان الاتحاد السوفياتي الثابت والصارم التنظيم قد فشل في تحقيق ذلك فلن تفلح فيه الفيدرالية الروسية المأزومة، وغير المستقرة. ويضاف إلى هذا أن علينا في هذه الحالة أن نطبق عناصر «الشمولية»، وهو ما سيستدعي بصورة لا مفر منها، احتجاجاً داخلياً عميقاً. ويعني هذا أن علينا أن نطّرح أيضاً هذا الطريق بعيداً.

يتلخص الاختيار الثالث في أن تستعار التقنيات العالية من البلدان الأوروبية والآسيوية المتطورة (ولكن ليس من الولايات المتحدة) مقايضة بالتحالف الاستراتيجي وبتيسير الوصول إلى الموارد الطبيعية الروسية. وهنا تظهر جميع الفرص للنجاح، ومثل هذا الطريق سيحفظ للروس استقلالاً محدداً عن الولايات المتحدة، ويسمح، في الوقت نفسه، بتجنب تشديد توتر الأمة، وفرض الديكتاتورية والإجراءات القاسية. وسرعان ما ستجر مثل هذه العملية سرعة غضب الولايات المتحدة وتهديدها لروسيا، والأهم، تهديدها «للتابعين غير الأوفياء»، ويمكن لبعض هذه الدول أن توافق على ذلك ما بقيت القوة الاستراتيجية لروسيا قابلة للمقايسة مع الأمريكية، وما لم تكن الإيديولوجية الروسية بصورة مكشوفة إمبريالية (أو شيوعية). وفضلاً عن ذلك ستقايض التقنيات العليا في هذه الحالة مع ألمانيا وفرنسا وغيرهما من البلدان المتطورة بالموارد الطبيعية التي يخضع الوصول إليها لمراقبة صارمة من طرف الولايات المتحدة في العالم كله. والموارد الروسية،

آسيا الوسطى وسيبيريا وما إلى ذلك تبدو على أهمية حيوية بالنسبة لهذه الدول بالذات ما دامت الولايات المتحدة على العموم مستقلة إلى حد بعيد بالنسبة لهذه المسألة. فالمواد الأولية، الخامات، ومصادر الطاقة مضافة إلى الحماية العسكرية الاستراتيجية القوية ـ هذه الأمور مجتمعة جديرة بأن تستميل بعض الدول المتطورة للمضي إلى التعاون الأشد اتثاقاً في ميدان التقنيات العليا وأن تضع تحت تصرف الروس أعظم المنجزات في هذا الميدان. (مضافة إلى تركيبها وتنظيم إنتاجها الصناعي). وفي المستقبل يمكن أن يسوّى أيضاً التوجه الوطني في هذه المسائل ولكن لا مندوحة، على أي حال من الأحوال، من دفعة البداية.

هذا الطريق الثالث يدخل بمجموعه وكامله في المشروع الأوراسي ويعد تجسيداً له على مستوى عملي أعلى. وهو، من الناحية الواقعية، يعني أن إقامة المحور الجيوبولتيكي برلين ـ موسكو ـ طوكيو ليس مجرد خطة سياسية ـ جغرافية بل هو الحل الأمثل لمشاكل التخلف التقني لدى الروس.

7 ـ 2 الموارد الطبيعية الروسية

روسيا هي المصدّر الطبيعي للخامات الطبيعية إلى الدول الأخرى ولهذا التوضع للأمور تاريخ طويل وقد صار إلى حد بعيد العامل المحدّد بالنسبة لوضع روسيا الجيوبولتيكي. . فلننظر بشيء من التفصيل إلى المعنى الجيوبولتيكي لتصدير المواد وإلى دور التمويل المواردي في عمومه.

ثمة شيء من اللامساواة في التوزيع الكوني للموارد الأولية على سطح الأرض ـ فمنطقتان من المناطق المتطورة الأربع في الشمال تملكان إمكانية الوصول إلى الموارد، وبوسعهما، في حال الضرورة، تحقيق الاكتفاء الذاتي (الولايات المتحدة وروسيا) واثنتان تعانيان من النقص الحاد في الموارد (أوروبا واليابان). وعلى هذا فإن السيطرة على المنطقتين غير الغنيتين بالموارد تتحدد إلى مدى بعيد بالعلاقات مع المنطقتين الأخريين. وإلى جانب هذا فثمة خاصية أخرى ـ وهي أن الولايات المتحدة تتطلع إلى السيطرة على موارد الأراضي المستعمرة ونصف المستعمرة وتحاول بمساعدتها أن تؤثر على الدول المتطورة، كما تحاول الولايات المتحدة الإبقاء على مواردها الخاصة لصالحها الخاص فلا تستهلكها إلا بحرص

شديد على الرغم من أنه ليس مما يخلق مشكلة للولايات المتحدة أن تقيم لنفسها، عند الضرورة، اكتفاء ذاتياً بالموارد وبمعزل عن الاستراتيجية الاستعمارية في هذا المضمار. أما روسيا فتتحكم بتصدير مواردها الخاصة بصورة تقليدية. ولهذا الاختلاف في موقفي الدولتين العظميين إيجابياته وسلبياته من هذه الجهة أو تلك. فالولايات المتحدة تملك بصفة مستمرة مخزوناً استراتيجياً لا يمسّ، إلا أن القواعد المواردية المستعمرة تملك الفرصة دوماً للخروج من تحت السيطرة. أما روسيا فيمكنها من جانبها، أن تكون واثقة من الاكتفاء المواردي ما دامت الخامات موجودة في أراضيها، لكنها في الوقت نفسه وبتصديرها لهذه الموارد تقوم على الدوام بتبديد مخزوناتها الاستراتيجية.

يمكن لهذا الواقع الموضوعي للأمور أن يستخدم لصالح الروس في مستقبل إقامة الحلف القاري بالطريقة التالية. يمكن لروسيا في المرحلة الابتدائية أن تقترح على شركائها في الشرق والغرب خاماتها الطبيعية على أنها تعويض عن احتدام العلاقات مع الولايات المتحدة، والذي لا بد من أن يحدث عند المراحل الأولى من إقامة المشروع الأوراسي. وسيكون هذا ممكناً أيضاً لكون الاتصال **البري** المباشر يمكن أن يتم دون أن تكون له علاقة بالسيطرة البحرية والشاطئية التي تعد الورقة الرابحة الأهم في الاستراتيجية الجيوبولتيكية للأطلسية. ومن الطبيعي أن مثل هذا التصدير لن يعد مساعدة من طرف واحد لأن هذه العملية ينبغي أن تكون مركوزة في الخطة الجيوبولتيكية العامة التي تفترض المشاركة المالية والتقنية الفعالة من طرف أوروبا واليابان في التطوير الاستراتيجي لروسيا نفسها. كما وتفترض فضلاً عن ذلك التوسيع الملموس لآفاقها السياسية والدفاعية في الشرق والغرب.

وفي المستقبل المنظور أيضاً التوجه إلى زحزحة الولايات المتحدة من أفريقيا والشرق الأوسط ومنطقة المحيط الهادي مع إعادة التوزيع المطابق للمناطق الغنية بالموارد لصالح الشركاء الأوراسيين وروسيا نفسها. وهذه الخطة تمثل النقيض المباشر لـ«خطة الأناكوندا» من طرف الأطلسيين، والتي تفترض رقابة الولايات المتحدة الصارمة بالذات على الأراضي الجنوبية الأوراسية والأفريقية ومناطق المحيط الهادي بهدف الحيلولة دون إقامة مناطق اقتصادية ذات استقلال ذاتي لصالح منافسيها الجيوبولتيكيين. وعندما يتم التوصل إلى إبعاد «أناكوندا» الأطلسية وإعادتها من جديد إلى القارة الأمريكية يغدو **«الجنوب الفقير»** للأوراسيا التكملة

الطبيعية للشمال الأوراسي الأكثر تطوراً. فالنفط العربي، والخامات الطبيعية الأفريقية، وموارد مناطق المحيط الهادي يمكن أن تدخل مباشرة بلدان المعسكر الأوراسي **متجاوزة** الولايات المتحدة. ويمكن لروسيا في هذه الحالة لا أن تبدأ فقط بادخار الموارد لنفسها بل وبالحصول على مساحات جديدة في الاتجاه الجنوبي. فتتحرك أوروبا الأوراسية نحو **الجنوب** لتصبح الأوروأفريقيا، وتفرض اليابان على المحيط الهادي ذلك «النظام الجديد» الذي خططت لإقامته في الثلاثينيات. وسيكون بإمكان روسيا نفسها، وعن طريق استخدام التجربة التقنية التي تملكها الآن أو التي ستتحصل علها خلال مرحلة إمدادها بالموارد شركاءَها المتطورين تقنياً في الحلف، (في المرحلة الأولى من البناء القاري)، أن تساهم بمشاركة فعالة في إيجاد مواطن جديدة للمعادن في آسيا الوسطى والشرقية وأن تجمد بصورة تدريجيّة تلك المواطن ذات الضرورة الحيوية من أجل تمويل مستقبلها الاستراتيجي الخاص.

في مسألة الموارد الطبيعية تبدو خطة إقامة «التريلاتيرال المضاد» (حلف برلين ـ موسكو ـ طوكيو) في المنظور القريب والبعيد واقعية في أعلى المستويات، لأن المرحلة الانتقالية بالنسبة للمحورين الغربي والشرقي (بالنسبة لبرلين وطوكيو)، اللذين يعانيان من أشد ضغوطات الولايات المتحدة شراسة، سيجري تخفيفها عن طريق الإمكانات المواردية لروسيا، القادرة خلال المرحلة الانتقالية على أن تهيىء بتصديرها الخامات الطبيعية، جميع الشروط الضرورية للانبعاث السياسي والاستراتيجي الكاملين لأوروبا واليابان. ويمكن لهذين «المجالين الكبيرين» بعد ذلك أن يوسّعا تطوّرهما الاقتصادي والسياسي باتجاه الشمال ـ الجنوب. ومن الأهمية بمكان أن تتمكن روسيا خلال هذه المرحلة الانتقالية بدورها من الحصول على التجهيزات التقنية الفعالة للاستدلال على مكامن المعادن وأن تحسّن، وقد انطلقت في الطريق الممهَّد، المناهج المتطورة والنماذج التقنية المقدمة من الغرب الأوروبي ومن الشرق الأقصى الياباني. وهذا العامل سيدعم في المستقبل المنظور، وبطريقة ملموسة، الاكتفاء الذاتي التقني للروس بصورة مستقلة عما تنقلب عليه الأحداث فيما بعد.

من الطبيعي أن مشكلة الموارد الطبيعية الروسية تحل في الوقت الراهن كيفما كان ولكن ليس بالطريقة المجدية بالنسبة لروسيا. فالروس يبيعون اليوم

مواردهم بأسعار الإغراق في الأسواق، لقاء نقود وهمية وبضائع أجنبية وإما بصورة مباشرة للولايات المتحدة وإما عن طريق وساطة الشركات الاحتكارية الأمريكية في الـ THK (التي يسيطر عليها الأطلسيون بطريقة غير مباشرة) لدول أوروبا الغربية. وكبديل عن ذلك يطرح «القوميون» مطلباً لا يمكن تحقيقه وهو وقف تصدير الخامات وحصر تصنيعها واستهلاكها بروسيا بمفردها. والمشروع الأخير يطالب بتكثيف جميع القوى الوطنية العاملة بدرجة من التوتر تجعل تحقيقه مستحيلاً إلا ضمن الديكتاتورية السياسية، وهو ما يكاد يبدو أمراً خارقاً للعادة في الوضع الحالي. والأمر هنا مماثل لحالة التقنيات العليا. «الطريق الثالث» وحده ـ فلا تصدير الموارد لصالح الولايات المتحدة ولا الحظر الكامل لأي نوع من التصدير مهما كان ـ يمكن أن يكون المخرج الواقعي من الحالة الراهنة.

ومن جديد يتركز كل شيء في الضرورة السياسية للإقامة الأسرع للحلف القاري الأوراسي.

الآفاق الاقتصادية «للإمبراطورية الجديدة»

8 ـ 1 اقتصاد «الطريق الثالث»

أدركت البيريسترويكا الصناعية في روسيا مرحلة النضج. وفي ما يقوله «الإصلاحيون» حول لا مندوحة التحولات الاقتصادية في روسيا يوجد قسط ملموس من الصحة. فالنظام السوفياتي على الرغم من أنه كان، إلى مستوى معين، فعالاً وجديراً بالمنافسة آل تدريجياً إلى الضعف حتى صار إلى درجة من اللامرونة والتحجر بحيث ما كان له إلا أن ينهار، وللأسف الشديد انطمرت تحت شظاياه كثير من الآفاق الإيجابية الفعالة للاشتراكية.

إن منطق التحولات الاقتصادية في روسيا والتي بدأت في البيريسترويكا قامت على أساس النظرة المزدوجة إلى الاقتصاد. فمن جهة كان هناك الأنموذج القائم للاشتراكية الحكومية القائمة على المركزية «الإدارة الشمولية» عندما كانت الدولة تتدخل في أصغر حيثيات الإنتاج والتوزيع خائفة من أي مبادرات خاصة ومستثنية كافة عناصر السوق. وهذه القسوة البنيوية لم تجعل مجموع النظام الاقتصادي متكتلاً وفاقداً للحركة فقط (من هنا الخسارة التدريجية في التنافس مع الرأسمالية) بل وشوهت مبدأ الاشتراكية الأساسي والتي تفترض المشاركة الفعالة للمجتمع في العملية الاقتصادية. وتتضمن مخطوطات ماركس الاقتصادية ـ الفلسفية تحذيراً من مثل هذا التلاشي للنظام الاشتراكي والذي يمكن وصفه بـ«الاغتراب في الاشتراكية».

لقد تحول نقد هذا الاقتصاد المركز بسرعة كبيرة إلى نقيضه المتطرف أي

الدفاع المطلق عن النظام الليبرالي ـ الرأسمالي بما فيه من «قوانين السوق»، «اقتصاد الظل»، «التجارة الحرة» وما إلى ذلك. ومن ما فوق المركزية قرر الليبراليون الاصلاحيون (ولو في النظرية فقط) الانتقال إلى ما فوق الليبرالية، وإذا كانت الاشتراكية السوفياتية في مراحلها المتأخرة قد أوهنت الاكتفاء الذاتي الحكومي في منافستها مع المعسكر الجيوبولتيكي المواجه، فإن الإصلاحات السوقية جرَّت وراءها التدمير الحقيقي لهذا الاكتفاء الذاتي، وهو ما لا يمكن تصنيفه إلا «كخيانة للمصالح القومية». كانت الإصلاحات ضرورية، بيد أن المنطق الازدواجي ـ إما الاشتراكية السوفياتية أو الليبرالية الرأسمالية ـ طرحت منذ البداية المسألة في اطار مغالط كلياً ما دام الجدال قد اتخذ طابعاً نظرياً محضاً والتصورات حول اكتفاء روسيا الذاتي الجيوبولتيكي أزيحت إزاء ذلك إلى المرتبة الأخيرة. والإصلاحات الليبرالية المعروضة في صيغة برامج «شيكاغو بويْز» ونظريات فون هايك سدّدت ضربة قاصمة للاقتصاد إلا أن البرامج الاقتصادية الترميمية التي كانت المعارضة «المحافظة» تصر عليها بهذه الدرجة أو تلك، كانت أفضل قليلاً. ففي كلا الحالتين كان الحديث يدور حول أنموذجين طوباويين مطلقين يحتل موضوع «مصالح الروس الوطنية» فيهما المرتبة الثانية بل حتى الثالثة.

كان ذلك منطقياً إلى حد كامل، حيث إن الاقتصاديين السوفيات اعتادوا بفعل خصوصية ثقافتهم على أن يتعاملوا مع **اثنين** فقط من النماذج الاقتصادية ـ الاشتراكية السوفياتية الدوغماتية (والتي ما انفكوا يدافعون عنها لفترة ما) والرأسمالية الليبرالية (التي انتقدوها لفترة ما) وفي الصيغة التي تمت بها دراسة ومعالجة هذين الأنموذجين لم تجر مقاربتهما مع معيار «المصالح الجيوبولتيكية للبلاد»، على الرغم من أن هذا الموضوع (وإن كان في صورة أخرى) كان الأفضل بين الصيغ العسكرية والإيديولوجية (وبخاصة الإدارة الحكومية للمباحث ولجنة أمن الدولة). وبنقل الاهتمام الأول إلى **الاقتصاد** نقل قادة البيريسترويكا قضية «الأمن والقدرة الوطنية والحكومية» إلى خارج القوسين. وما إن حدث ذلك حتى سقطت البلاد في مصيدة المشكلة التي صيغت بطريقة مغلوطة، والتي كان أي حل لها من خلال المصطلحات المطروحة يؤدي بطريقة مدروسة إلى مأزق مسدود.

وبكلمة صارمة، كان على الشعب أن يحدّد اختياره لا بين الليبرالية ـ الرأسمالية والاشتراكية السوفياتية بل بين الليبرالية الاشتراكية، الاشتراكية السوفياتية

وبين مبدأ اقتصادي خاص يجمع بين عناصر السوق وعناصر التخطيط خاضعاً لثابت رئيسي ـ هو الازدهار الوطني والأمن القومي (الطريق الثالث). وهذا «الطريق الثالث» في الاقتصاد ليس مساومة، ليس حجماً متماسكاً بين عناصر متباينة لنموذجين اقتصاديين آخرين ـ بل هو مبدأ مستقل مكتمل، ذو تاريخ طويل وعدد كبير من الأمثلة على تطبيقه في الواقع. إلا أنه من الناحية العملية لم يجر التذكير على العموم بهذا «الطريق الثالث» في إطار المناقشات الاجتماعية، وبنتيجة الرفض العنيد للنظرة الجادة إلى مثل هذه الصيغة تَمْثُل أمامنا الآن: بلاد مدمّرة، مستضعفة، اقتصاد منهار، ارتباط طفيلي متنام لروسيا بصندوق النقد الدولي وبالبنك الدولي، تفكك العلاقات الزراعية والصناعية وما إلى ذلك. وليس ثمة في اللحظة الراهنة اشتراكية ولا سوق ويصعب الجزم بإمكانية إصلاح شيء من خلال البقاء في إطار ذلك المنطق الذي أمسى مسيطراً لدى حل المسائل الاقتصادية الأهم.

و«الطريق الثالث» في الاقتصاد لا يتطابق لا مع الأنموذج السويدي ولا السويسري وهذا أمر مخالف لما يفكر به بعض الاقتصاديين الذين بدأوا يقدمون لأنفسهم حساباً باستحالة الخروج من الوضع القائم. فلا السويد ولا سويسرا تمثلان التشكل الجيوبولتيكي المتكامل ولا تتمتعان بالسيادة الاستراتيجية الجادة، وبناء عليه فإن قسماً هائلاً من القطاع الحكومي، الصناعي والعسكري اللازم لضمان الاكتفاء الذاتي الحق غير متوفر في هاتين الدولتين على العموم. لقد تم فيهما تحقيق نوع من المساومة بين البنية ذات التوجه الاجتماعي للمجتمع وبين اقتصاد السوق، لكن الحديث يتناول هنا أنموذجاً اصطناعياً صرفاً يمكن أن يتكون بالذات على حساب عدم التسييس الكامل لهاتين الدولتين والتنازل الواعي عن أي دور فاعل في التوزع الجيوبولتيكي للقوى في أوروبا. ولا يمكن لروسيا بأبعادها أن تكون «السويد الثانية» أو «سويسرا الثانية»، لأن وضعها الجيوبولتيكي يلزمها بدور فاعل، والحياد في هذه الحالة بكل بساطة مستحيل. ولهذا لا معنى للاتجاه إلى أمثال هذه الأسئلة.

والوهم الثاني المميّز بالنسبة لمن يبحثون بطريقة حدسية عن مثال «للطريق الثالث» لروسيا هو الصين وإصلاحاتها. إلا أن هذه الحالة أيضاً تتضمن حيّزاً من «خداع البصر» الذي يفسره انعدام الإعلام الموضوعي المتعلق بماهية الإصلاحات

الصينية ومسيرتها. فالتحولات الاقتصادية الصينية لا تجري إلا من الناحية السطحية وفق أنموذج «الطريق الثالث». أما في واقع الحال فالحديث يدور حول تحويل المجتمع الشبيه في عمومه بالمجتمع السوفياتي، إلى نظام ليبرالي محض ولكن دون تطبيق إصلاحات ديموقراطية في السياسة، أي مع الحفاظ على السيادة الشمولية للنخبة الحاكمة على الوضع السياسي. يتطرق الحديث إلى أن الشمولية السياسية للمسميات الشيوعية تنتقل بطريقة انسيابية إلى شمولية احتكارية، اقتصادية لنفس المسميات التي تحاول في الوقت نفسه ومنذ البداية اجتثاث أي إمكانية للمنافسة الاقتصادية من الأسفل. أحد نماذج «مجتمع الاغتراب» يتحول بانسيابية إلى نموذج آخر من «مجتمع الاغتراب»، أما الاستغلال الاقتصادي فيتحول خلسة إلى استغلال اقتصادي تقوم به الفئة الاجتماعية نفسها.

ومن الأمور ذات الدلالة أن هذا النمط من الإصلاحات قد تم بإعداد من «اللجنة الثلاثية» بالذات، والتي كان ممثلوها منذ بداية الثمانينات قد اتفقوا مع جدول المسميات الصينية حول إدخال الصين في المستقبل المنظور في منطقة التأثير العولمية مع منحها وضع «الدولة الجهوية». وإلى حد كبير كانت خطوة الأطلسيين مشروطة باستراتيجية «الحرب الباردة» ضد الاتحاد السوفياتي، ولكن بالرغبة، في الوقت نفسه، في الحفاظ على المنافس التقليدي لليابان في الشرق الأقصى والحد من التوسع الاقتصادي لهذه الأخيرة.

«الخط الثالث» الأصلي في الاقتصاد لقي تجسيده الكلاسيكي أعمال فريدريخ ليست الذي صاغ مبادىء «الاكتفاء الذاتي الاقتصادي للمجالات الكبرى». وتنطلق هذه النظرية من حقيقة تفاوت التطور الاقتصادي لدى المجتمعات الرأسمالية ومن الأثر المنطقي للاستعمار الاقتصادي من طرف البلدان «الغنية» للبلدان الأكثر فقراً؛ ومما يذكر أن «التجارة الحرة» بالنسبة «للأغنياء» مربحة بينما هي على عكس ذلك بالنسبة «للفقراء». ومن خلال هذا يتوصل ليست إلى القول بأنه عند مراحل معينة من التطور الاقتصادي للمجتمع يجب اللجوء للحماية والتسيير والقيود الجمركية أي إلى تقييد مبدأ «التجارة الحرة» على المستوى العالمي من أجل التوصل إلى الاستقلال الوطني والحكومي والقوة الاستراتيجية. وبكلمة أخرى كان واضحاً بالنسبة لليست أن الاقتصاد يجب أن يكون خاضعاً للمصالح الوطنية وأن أي دعوة إلى «المنطق الآلي للسوق» ليست إلا ستاراً لإخفاء التوسع الاقتصادي (والسياسي

بعد ذلك) من طرف الدول الغنية لما فيه خسارة الدول الأكثر فقراً ثم استعباد الأخيرة بعد ذلك. ومثل هذه المقاربة تضع على الفور حدوداً دقيقة لمجال عمل مبدأ «السوق» ولمجال عمل المبدأ «الاشتراكي». والطريق أن راتيناو، مؤلف «المعجزة الاقتصادية» الألمانية وفيتّي(*) ولينين بل وكينْس(**) أيضاً قد صاغوا مبادئهم الاقتصادية منطلقين بالذات من مبدأ فريدريخ ليسْت على الرغم من أنه قد جرى في أثناء ذلك استخدامه لغة كانت أقرب إلى المفردات الرأسمالية الصرفة أو إلى المفردات الشيوعية.

والتدرجية الاقتصادية التي بناها ليست يمكن أن تختصر في معادلة بسيطة: تلك الجوانب من الحياة الاقتصادية والتي تقارن في أبعادها مع مصالح الشخص الواحد ـ الفرد يجب أن تدار بمبادىء السوق وأن تتأسس على «الملكية الخاصة». والحديث يتناول المسكن والإنتاج الصغير، الممتلكات الزراعية الصغرى وما إلى ذلك. وبناء على تنامي دور هذا أو ذاك من النشاط الاقتصادي يجب أن تتخذ صيغة الإنتاج ملامح الملكية الجماعية ما دام بإمكان «الملكية الخاصة» والحافز الشخصي أن يدخلا في هذه الحالة في تناقض مع المصالح الجماعية، وهنا ينبغي أن ينشط المقياس «الجماعي» أو «التعاوني». وأخيراً فإن المجالات الاقتصادية

(*) ڤيتّي، سيرغي (1849 ـ 1915)، شخصية سياسية روسية، كونْت، كان وزيراً للطرق سنة 1892، وللمالية في السنة نفسها، ترتبط باسمه مبادرات احتكار الخمور 1894، الإصلاح النقدي 1897، بناء سكة حديد سيبيريا 1897 كما صاغ المبادىء الأساسية لتصور للإصلاح الزراعي. طبق سياسة استقطاب البورجوازية للتعاون مع القيصرية. نشرت «مذكرات»ـه في ثلاث مجلدات. (المترجم).

(**) كينس، جون مينارد (1883 ـ 1946) اقتصادي انكليزي، مؤسس النظرية الاقتصادية المسماة باسمه «الكينْزيّة» وتقول بضبط الاقتصاد من طرف الدولة عن طريق الاحتكار. وكان للأزمة الاقتصادية بين 1929 ـ 1933 تأثيرها في وضع هذه النظرية الداعية إلى توجيه الاقتصاد الرأسمالي لضمان العملية المحركة للانتاج الاجتماعي. ركزّ اهتمامه على تحليل الأحجام الاقتصادية الكبرى (الدخل القومي، إجمالي الودائع، مستوى التشغيل، الاستهلاك، المدّخرات وما إلى ذلك) وحاول استخلاص القوانين الكمية التابعة لهذه الأحجام. يتضمن برنامجه الاقتصادي ضرورات زيادة إنفاقات الدولة بكل الوسائل بما في ذلك عَسْكرة الاقتصاد، توسيع الأعمال الاجتماعية، تدوير سياسة الضرائب، تنظيم التشغيل وما إلى ذلك. (المترجم).

المرتبطة ارتباطاً مباشراً بالدولة ووضعها الاستراتيجي يجب أن تخضع للإشراف. وأن تموّل وتدار من طرف المرجعيات الحكومية، ذلك أن الحديث يتناول مصالح ذات مستوى أعلى من «الملكية الخاصة» أو «المصلحة الجماعية». وعلى هذا ففي مثل هذا النمط الاقتصادي لا تقوم النخب ولا السوق ولا الجماعة بتحديد الملمح الزراعي، الصناعي والمالي للمجتمع ـ إنه يتحدد على أساس المصالح المحدَّدة للدولة المحدَّدة ضمن الشروط التاريخية المحدَّدة، وطبقاً لذلك لا يمكن أن توجد في النموذج المعطى أية دوغماتية ـ بمقدار تبدّل الوضع الجيوبولتيكي للدولة وبفعل الشروط التاريخية والوطنية يمكن للنسب بين أحجام هذه الدرجات الثلاث من التدرج الاقتصادي أن تتبدل بشكل ملموس. ففي زمن السلم، على سبيل المثال، وفي مرحلة الازدهار يمكن للقطاع الخاص والقطاع التعاوني أن يَنْموا بينما يتقلص قطاع الدولة. وعلى العكس من ذلك ففي المراحل الحرجة من التاريخ الوطني، وعندما يوضع استقلال الشعب كله تحت المطرقة ـ تتضاعف صلاحيات قطاع الدولة على حساب بعض التشكيلات الاقتصادية التعاونية، وهذه تزحم بدورها المبادرة الخاصة.

ومن الطريف أن أنموذج فريدريخ ليسْت بالذات قد تم استخدامه تاريخياً من طرف البلدان الرأسمالية المتطورة خلال اللحظات المتأزمة. حتى إن الولايات المتحدة، المدافعة الراديكالية عن مبدأ «التجارة الحرة» لجأت في فترات متفاوتة لتطبيق إجراءات الحماية وللتمويلات الحكومية في القطاع الصناعي عندما حدثت مراحل «الانحسار» الاقتصادي. مثل هذه المرحلة بالذات كانت حقبة الـ «New Deal» عندما طبق الأمريكيون بصورة شبه حرفية مبادئ ليست، وإن كانوا قد قدموها في الصيغة الملطفة لكينس صاحب نظرية «العزل الاقتصادي» والتي لم تكن في مجموعها إلا تسمية جديدة لنظرية «الاكتفاء الذاتي للمجالات الكبرى» وعلى فكرة فقد عاش ليست نفسه فترة طويلة في الولايات المتحدة وراقب عملية البناء الرأسمالي في مراحله الأولى. وعلى أساس هذه التأملات صاغ المبادىء الأساسية لنظريته مطبقةً على ألمانيا. ولكن من الطبيعي أن تطبيقات مبدأ ليست قدمت أعظم نتائجها في ألمانيا الوطنية الاشتراكية عندما طبقت أفكاره في الحياة بصورة شاملة وبدون أي صورة من التصويبات الليبرالية أو الماركسية.

ولمبدأ اقتصاد «الطريق الثالث» أفق هام آخر أيضاً ـ وهو العلاقات المتبادلة بين العاملين المالي والانتاجي. ومن الواضح أن الرأسمالية المبكرة واشتراكية النمط السوفياتي قد شدّدت بالدرجة الأولى على تطوير الانتاجية تاركتين للنظام المالي دوراً ثانوياً تابعاً. أما الرأسمالية المتطورة فتميل، على العكس من ذلك، إلى تسويد الرأسمال المالي على الإنتاجية التي تغدو بدورها لحظة ثانوية. وسيطرة مبدأ «العمل» ستؤدي. عاجلاً أم آجلاً، إلى العنف السياسي وسيطرة «رأس المال» ـ إلى العنف الاقتصادي. في الحالة الأولى يُؤَتْمت العمل وينقطع عن القيم المحدَّدة، وفي الثانية تُؤَتْمت النقود فاقدة بذلك علاقتها بالقيمة ومتحولة إلى الوظيفة القَرْضية ـ النسبوية. و«الطريق الثالث» يؤكد على الربط الصارم للعمل بالقيمة (المدخرات الذهبية والموارد بشكل أوسع) مفردة لجَوّ الاستهلاك وتدوير البضائع دوراً ثانوياً، تابعاً قائماً على الأدوات فقط. ومثل هذا الجمع بين الجهد والقيمة تمليه في هذه الحالة نفس تلك التصورات المتعلقة بتوفير «القدرة القومية» وسيادة الدولة وهذا ما يمثل مجموع بناء هذا المبدأ الاقتصادي. ويمكن صياغة هذه المعادلة بصورة مبسّطة ـ «لا الترف ولا الفقر المدقع»، «القناعة بالحد الأدنى المعقول». وهذا يعني التعامل مع الجهد بصورة أكثر مرونة وحرية مما كان عليه الحال في الاشتراكية السوفياتية، ولكن الحدّ بنسبة أكبر من إمكانات الإثراء الفردي عما هو الأمر عليه في الرأسمالية. ومثل هذا الأنموذج يتيح للأمة ألا تكون مرتبطة في الميادين الاستراتيجية بالدول، وبالنظم الاقتصادية الأخرى، لكنه في الوقت نفسه يجرد مسيرة العمل من طابع السخرة ويربطه بمكافئة المادي.

هذه الصيغة من اقتصاد «الطريق الثالث» بالذات هي البديل الوحيد في روسيا الحالية، التي تقف مواجهة في وقت واحد لليبرالية التي لا تشكم وللمشاريع الترميمية للشيوعيين الجدد غير الراغبين في إجراء تصحيح جاد على العقائد التي شاخت وفقدت فعاليتها. ولولا التداعيات التي تظهر على التو مع النظام الهتلري لأمكن تسمية هذا المشروع بـ«الاشتراكية ذات النمط القومي» وإن مجرد طرح نظرية ليسْت (والتي، على فكرة، قام بتطويرها، مشاهير الاقتصاديين من أمثال سيسموندي(*)،

(*) سيسموندي، جان شارل (1773 ـ 1842) اقتصادي، مؤرخ سويدي. انتقد الرأسمالية من منطلقات برجوازية صغيرة. (المترجم).

شومبيتر(*)، ديومون وسواهم) في سياق الوضع الاقتصادي الحالي في روسيا يمكن أن يكوَن إنجازاً عظيماً، وذلك لأن بالإمكان أن نجد في هذا الإجابات على الأسئلة الأكثر إلحاحاً وأن نقضي بضربة واحدة على الازدواجية العقيمة لدى «الإصلاحيين والمعادين للإصلاحيين». وفضلاً عن ذلك فإن الجوانب الايجابية في الإصلاحات الليبرالية وفي البُنى التي تم الحفاظ عليها من الاشتراكية يمكن أن تُضمَّن بصورة رائعة في هذا المشروع الاقتصادي. ولكن هذا كله لا يعطي أثره الإيجابي إلا في سياق الهيكل القائم على المبدأ والذي تمت دراسته نظرياً **وتم وعيه**، لا في صيغة خطوات براغماتية تم القيام بها من حالة إلى حالة. وعلى اقتصاد «الطريق الثالث» أن يكون له تعبيره السياسي الواضح والذي يمكن مقابلته مع «حزب الليبراليين» و«حزب الشيوعيين». وأن كل شكل من أشكال المركزية المؤسسة على قوة الاستمرار ومن البراغماتية والتنازلات ستؤول بصفة مسبقة إلى الهزيمة. وفريدريخ ليست وأفكاره يجب أن تصبح رموزاً كما هو الأمر بالنسبة لآدم سميث وكارل ماركس. «الطريق الثالث» يفتقر إلى أمثال هؤلاء الحَمَلة لهذه الفكرة الإيديولوجية والذين يمكن مقارنتهم، بناء على الاستعدادية والاقتناع والإعلامية، بالليبراليين والشيوعيين. فلمبادىء «الطريق الثالث» من الصرامة والوضوح ما لمبادىء الإيديولوجيين الأخريين. ومنهما يمكن استنباط كافة النتائج والملحقات الضرورية التالية بطريقة طبيعية وعضوية.

الاتجاه الاقتصادي «للطريق الثالث» وبرنامج «الاكتفاء الذاتي للمجالات الكبرى» يفترض حجماً أعظم من التربية الوطنية ـ الحكومية التي يؤخذ فيها هذا الأنموذج. وقد أصرَّ ليست على استحالة تحقيق هذه النظريات في الدول ذات الحجم الديموغرافي والمواردي والصناعي غير الكافي، لأن الاكتفاء الذاتي في مثل هذه الحالة لن يكون إلا وهماً. وعلى هذا الأساس طرح في حينه الأمر الواقع «Zollverein»، «التكامل الجمركي» الذي كان مدعواً لتوحيد ألمانيا وبروسيا والنمسا في حلف صناعي ـ مالي موحد ففي مثل هذا المدى فقط كان يمكن

(*) شومبيتر، يوسف، 1883 ـ 1950 اقتصادي أميركي. له مؤلفات في ميدان الاقتصاد السياسي وتاريخ الدراسات الاقتصادية. وقف ضد تدخل الدولة في الاقتصاد، وكان واحداً من أكثر الدعاة إلى الاحتكارات الرأسمالية صراحة (المترجم).

الحديث عن منافسة فعالة مع الدولتين الاستعمارتيين الكبريين المتطورتين في ذلك الحين ـ انجلترا وفرنسا.

إن مقياس الدولة المستقلة في عصرنا الحاضر هو الولايات المتحدة الأمريكية وذلك المجال السياسي الاقتصادي الذي يدخل في تركيب مبدأ مونرو أي مجموعة أمريكا الشمالية والجنوبية التي تهيمن عليها الولايات المتحدة. ومن البيّن أنه لا يمكن أن يتنافس اليوم وبصورة كاملة مع هذا «المجال الكبير» العبر الأطلسي إلا شبيهه القاري في الأوراسيا. وعليه فإن اقتصاد «الطريق الثالث» يطرح في نظريته التكامل الجيوبولتيكي وموضوعه لا «الدولة ـ الأمة» بل الشبيه المعاصر **بالإمبراطورية**. وفي الحالة النقيضة إما أن يحدث توتير شديد لقوى الأمة (سبب انهيار الاتحاد السوفياتي) وإما الوقوع في حالة ارتباط بجار أكثر قوة واستقلالية (أوروبا، اليابان وما شاكلهما). ويُظهر مثل هذا التصور أنه على الرغم من مجموع منطقية هذه النظرية واكتفائها بذاتها فإن نجاح تطبيقها يرتبط مباشرة بالمشروع الجيوبولتيكي الأكثر عمومية أي ببداية إقامة **الإمبراطورية الجديدة**. وعند هذا البعد فقط سيعطي «الطريق الثالث» في الاقتصاد نتائجه القصوى. كما أن طرح مثل هذا الأنموذج الاقتصادي سيغدو المؤشر النظري الأفضل بالنسبة لجميع المشاركين المحتملين في الحلف القاري، فحتى المؤلفون الليبراليون (من أمثال ميشيل ألبير في كتابه «رأسمالية ضد الرأسمالية») يؤكدون على الخلاف الجذري لأنموذج «الراين ـ نيبون» (الذي يتسم بعدد كبير من ملامح اقتصاد «الطريق الثالث») عن الأنموذج الأنجلوساكسوني. وإذا ما وقفت روسيا أيضاً على هذا الطريق انقفلت سلسلة الأوراسيا بأكثر الطرق طبيعية. وسيكون بالإمكان في هذه الحالة طرح صورة جديدة للـZollverein تتطابق مع الشروط الجيوبولتيكية الحالية ـ «مشروع التكامل الجمركي الأوراسي»، والذي يمكنه لوحده اليوم أن يكون منافسة جادة للمعسكر الأطلسي وأن يوصل شعوب الأوراسيا إلى الازدهار.

8 ـ 2 الجهوية الاقتصادية

مبدأ المركزية كان مكنوناً في أساس الاقتصاد السوفياتي. والمرجعية العليا لاتخاذ كافة القرارات المهمة، والأقل أهمية، وتلك التي لا أهمية لها ألبتة، كانت

تتركز في موسكو من حيث كانت تتوارد النظم والتوجيهات. هذه المركزية جردت الاقتصاد من الحركية، وما ساعدت على تطوير المبادرة الجهوية كما أوقفت النمو الطبيعي للقدرات الاقتصادية للأطراف. وفضلاً عن ذلك فإن الاقتصاد السوفياتي في كل مكان كان يستنسخ الأنموذج الموحد لبناء العلاقات الانتاجية ـ المالية دون أن يضع في الحسبان الخصائص الدينية ولا الاتنية ولا الثقافية للمناطق والجهات المختلفة. وكان هذا النظام المتخشب واحداً من أسباب التخلف والإفلاس الاقتصادي للسوفياتية.

وعلى الرغم من المشاريع الاقتصادية لليبراليين الذين حلوا محل الشيوعيين فإنهم أبقوا في جوهر الحال على الوضع القديم للأمور، إلا أن المركزية لم تعد، منذ أيامهم، أمراً يتعلق بالخطة بل بالسوق. ولكن على نحو ما كان الأمر في السابق، كانت القرارات الاقتصادية تُتخذ مركزياً، والطرق الاقتصادية الرئيسة تمر عبر موسكو حيث تسيطر الحكومة الليبرالية بصرامة على المسيرة العامة للإصلاحات في الأطراف. والصيغة الواحدة من الاستنساخ التجريدي للمخطط المطروح في كل مكان كانت تستبدل بصيغة أخرى، إلا أن مبدأ المركزية في البنيان الاقتصادي بقي على حاله. وعلى فكرة فإن فشل الإصلاحات في السوق يفسَّر إلى حد بعيد بالذات بمثل هذه المركزية المبنية على قوة الاستمرار، عندما كان موظفو الحكومة الموسكوفيون يحاولون بكل حزم بسط الرقابة على التطور الاقتصادي للمقاطعات.

إن التحليل الواعي لهذا التوضع للأمور ومقارنة الوضع الروسي بنظم اقتصادية أكثر تطوراً (وبالدرجة الأولى نمط الراين نيبون) يؤديان إلى استنتاج يتعلق بضرورة الإعراض بطريقة جذرية عن مثل هذه الرؤية الاقتصادية والتوجه إلى نظام اقتصادي مبني على أساس جهوي، إقليمي، محلي. إن العلاقة الاقتصادية المتبادلة لكافة مناطق الاتحاد السوفياتي فيما بينها كانت بناء أقيم بطريقة مصطنعة. هذه العلاقة المتبادلة المؤسسة على مناهج خططية ـ كيفية أكثر من قيامها على مبادىء الحد الأقصى من الفاعلية، كثيراً ما كانت تقيد التطور الآلي للاقتصاد الجهوي. وقد لعبت دورها في ذلك الخطة التي تم الوصول بها حتى حدود المطلق. وبتمزق هذه الشبكة العامة ووصول الليبراليين إلى السلطة تُركت قطاعات كثيرة من الصناعات بنفسها لنفسها وحكم عليها بالاضمحلال والتلاشي بينما تم التشديد

الكلي على التطوير الأفضلي لقطاعات استخراج المواد الطبيعية والتي كان بالإمكان بيع منتجاتها بسرعة وراء الحدود. أما البضائع الغربية التي يتم استلامها عن طريق النظم الاحتكارية السوقية الزائفة التابعة لليبرالي موسكو فكانت توزع من جديد وبالطريقة المركزية على المقاطعات. وبهذه الكيفية تعرض الاقتصاد الجهوي لمعانيات أشد أما ارتباطاته بالمركز مع ذهاب الشيوعيين، بطريقة تتسم بالمفارقة، فقد ازدادت.

إن تحقيق خطط «اقتصاد الطريق الثالث» يجب أن يؤسس على مناهج مغايرة تماماً. والمركزية في هذه الحالة يجب أن تكون بالدرجة الأولى **استراتيجية وسياسية** لا **اقتصادية** بأي حال من الأحوال لأن الإمبراطورية لا يمكن أن تحقق التأثير الاقتصادي الأعظم إلا عندما تكون لكل من مكوّناتها جميعاً استقلاليته الاقتصادية وتطوّره على الأساس الأكثر تحرراً وطبيعية. وعلى نحو ما هو الأمر في سياق مجموع المشروع القاري في عمومه يجب أن يتطلع كل جزء فيه إلى أن يكون مستقلاً كل الاستقلال، ومكتملاً في مستواه الخاص، كما ينبغي أن يقام في إطار الروسيا اقتصاد جهوي في غاية المرونة غير مبني على احتساب مصالح المركز أو متطلبات الخطة بل على أساس التطوير العضوي الأعظم لتلك الإمكانات التي تتوافق أكثر من سواها مع المنطقة المعطاة. ومما لا شك فيه أن المكونات الاستراتيجية للاقتصاد ـ الموارد، الخامات الاستراتيجية ومجمّع الصناعات الحربية ـ يجب أن تكون ذات قيادة مركزية، أما في الميادين الأخرى من الصناعة، وفي مسائل التمويل فيجب أن يعطى للأقاليم الحد الأقصى من الحرية.

وانطلاقاً من الشروط الثقافية، الاتنية، الدينية، الجغرافية والمناخية وما سواها بالنسبة للمنطقة الواحدة يجب أن يتعدد ليس فقط التوجه الاقتصادي والصناعي بل **والنظام الاقتصادي** نفسه، وذلك وصولاً إلى احتمال أن تنشأ على أراضي الإمبراطورية مناطق ذات نظام اقتصادي **متباين** بدءاً من أشد النظم اعتماداً على السوق وحتى النظام شبه الشيوعي. فتلك الشعوب التي ترفض النظام المصرفي (المسلمون) يجب أن تصمم نماذجها المالية التي تستثني التمويل الصناعي القائم على الفائدة، هذا بينما يمكن للمصارف في المناطق الأخرى أن تنمو، على العكس من ذلك، وتزدهر. وأهم ما في هذا المشروع ـ التوصل إلى ذلك المستوى الذي تغدو فيه كل جهة ومنطقة معتمدة على ذاتها في إشباع

المتطلبات الأكثر إلحاحاً بالنسبة للسكان، ويتناول الحديث بالدرجة الأولى المسكن، الطعام، الملبس والصحة. وينبغي التوصل إزاء ذلك بالذات إلى الاستقلال الذاتي الجهوي في تمويل ما هو أكثر ضرورة، وبعد ذلك فقط تبنى المشاريع المتعلقة برفع المستوى الحياتي وبالنهوض بمستوى التقنية والتطور التقني والصناعي إلى حدود الكمال. وعلى كل جهة أن يكون لها نظامها الخاص بالتمويل الذاتي وأن يكون نظاماً قابلاً للتكيف ومرناً لتكون لها، في أي لحظة وأمام أية ظروف وأزمات ممكنة، ضمانات وجود الحد الأدنى الكافي لمجموع السكان دون الارتباط بالعلاقات ما بين الجهوية أو الوضع الاقتصادي في المركز.

يجب النظر إلى الأفق الاستراتيجي العالمي للاقتصاد بمعزل كامل عن البنى الجهوية العاملة على التمويل الذاتي للسكان. ووضع هؤلاء السكان لا ينبغي أن يرتبط بالتطوير المفضل في الجهة المعطاة لهذا الفرع أو ذاك من الفروع الاستراتيجية. وبكلمة أخرى يجدر الانتباه إلى مبدأ «الحد الأدنى للحياة متوفر دوماً بمعزل عن الارتباط بأي شيء» أما تركيز جهود الجهة على هذا أو ذاك من الفروع الاستراتيجية الكونية فيمكن أن يجري فقط من خلال السهر على الاحتفاظ بالبنى الاقتصادية الذاتية التي ليس لها أية علاقة بذلك الفرع. وفي مثل هذه الحالة لن يترك تهميش هذا الفرع أو ذاك من فروع الإنتاج، والإقلاع عن الصناعات المهترئة أو غير الفعالة ونقل المؤسسات من مكان إلى آخر أو تغيير الاتجاه نحو الاستيراد الأكثر جدوى في جميع الحالات، أي التأثير وبأي صورة على المستوى الحيوي العام للجهة التي ستكون منذ البداية ومن الناحية المبدئية مؤمَّنة.

ولا يبقى ضمن صلاحيات المركز سوى الإنتاج الاستراتيجي والتخطيط، واللذين يتحققان لا كمحور للاقتصاد بل كفرض نوع من ما هو فوق التركيب العالمي على شبكة اقتصادية جهوية موجودة أصلاً وذات استقلال ذاتي بحيث لا ينبغي أن يؤثر المجالان أحدهما على الآخر على الإطلاق. الحصول على المسكن، الضمان الاجتماعي وتوفير المواد الغذائية لا يمكن بأي حال أن يكون مرتبطاً بالفعالية الاقتصادية للمؤسسة الصناعية أو الاستراتيجية المتوضعة في المقاطعة (كما هو معمول به الآن). وينبغي التوصل إلى تلك الاستقلالية الذاتية الاقتصادية في الجهات المتفرقة حتى أصغرها حجماً بحيث تحل القضايا الاقتصادية الأكثر إلحاحاً مقطوعةً عن مساهمة السكان في الإنتاج الاستراتيجي. ويجب أن

يكون هذا المبدأ المسيطر في مسائل التخطيط الاستراتيجي والذي لا بد وأن يقوم على المستوى الحكومي حتى وضمن شروط الحد الأشد اتساعاً من الحرية الاقتصادية.

ويجب أن يجري إسقاط الجهوية على النظام المالي أيضاً وذلك بالأخذ على سبيل المثال تجربة المصارف الجهوية والزراعية في ألمانيا حيث تقوم البنى المالية الصغرى والمحصورة في كثير من الأحيان بقرية واحدة أو مجموعة من القرى باستعراض معجزة الفعالية في تطوير الاقتصاد، إذ تم في مثل هذا الحجم تسهيل الرقابة على القروض حتى أبعد الحدود (وهو ما يجعل عمل الخزانة أمراً فائضاً عن الحاجة) كما يتحدد حجم السلف والفوائد ومواعيد التسديد انطلاقاً من شروط عضوية محدّدة تفرضها الجماعة وتمثل عنصراً لا كمياً تجريدياً آلياً بل عنصراً حيوياً أخلاقياً في الاقتصاد. وعلى العموم فإن النظام المالي الجهوي يمكن أن يكتسب الصيغة الأكثر طرافة عندما يتكيف مع منطق اللوحة الجغرافية الاتنية الثقافية. والأهم في ذلك كله تجنب مركزية رأس المال وتشتيته حتى أبعد الحدود وفق بنى مالية جهوية ذات استقلال ذاتي وجعله يخدم الاقتصاد وليس على العكس من ذلك بجعل الاقتصاد مرتبطاً به.

بل ويمكن تطبيق نظامين ماليين متوازيين وغير متقاطعين، «عمليتين»، إحداهما مكرسة لبناء المجال الاستراتيجي الإمبريالي العام والأخرى ـ للاحتياجات الجهوية. في الحالة الأولى يوجد التخطيط الحكومي الصارم، القائم على المبادىء المتخصصة بالتمويل والإنتاج، وفي الثانية ـ السوق الجهوي والرصيد المالي الجهوي. رأسمال الدولة ورأسمال المنطقة. والملكية الخاصة يجب أن تكون صغيرة جداً تشكل بالذات الرأسمال المنطقي الجهوي بينما **لا ينبغي أن يكون لرأسمال الدولة مبدئياً أي معيار مشترك مع الملكية الخاصة**. وفي مثل هذه الحالة بالذات يقام الحد الصارم بين ما هو للدولة، للمجتمع، وما هو شخصي، وعليه فإن ثبوتية ومرونة البنية الداخلية والاكتفاء الذاتي **للإمبراطورية** ستكون في حدودها القصوى.

وعلى العموم فإن الاقتصاد ينبغي أن يوجه وفق مبدأ مؤسس هو ـ المركزية الاستراتيجية القصوى مضافاً إلى التعاونية الجهوية القصوى و«الليبرالية».

الفصل التاسع 9

خاتمة

المحاولة التي تم القيام بها والمتضمنة رسم المشروع القاري في خطوطه الأعمّ واستخلاص اللحظات الأوفر شمولية والأكثر محورية في الجيوبولتيكا الأوراسية بالنسبة لروسيا وللشعب الروسي تفتقر، دون شك، إلى التطوير الأكثر دقة وتفصيلاً، وهو ما يتطلب عملاً ضخماً في ميادين التدقيق والتعليل واستعراض النقاط والآفاق المختلفة لهذا الموضوع. بيد أنه كان على غاية من الأهمية بالنسبة لنا أن نقدم الخيار الأقرب احتمالاً لذلك الأنموذج الوحيد للمستقبل الجيوبولتيكي للشعب الروسي والذي يمكنه، عبر الجانب الآخر من الطرق المسدودة بصورة متعمّدة، أن يخرج بالشعب إلى المستوى الكوني والحضاري الذي يتوافق ورسالته، وتطلعاته القومية والروحية والدينية. إن الكثير في هذا المشروع يمكن أن يبدو جديداً، خارقاً للعادة، غير مألوف بل وصادم. إلا أن ضرورة تلمس جميع الجوانب المهمة في مستقبل الأمة أجبرتنا على الاستهانة بالتوضيحات ودحوضات النقد الممكن وأن نشيح عن المقتطفات المسهبة وعن جرود الأسماء والأعمدة المشحونة بالأرقام. وسيتم القيام بذلك في حدود الممكن. وحتى الآن فإن أكثر الأمور أهمية هو الإشارة إلى الملامح العامة **«للطريق الثالث»**، ذلك الطريق الوحيد، الذي يمكن أن يخرج شعبنا العظيم ودولتنا العظيمة من هاوية الفوضى والسقوط إلى ذرى السماوات الروسية.

الباب الخامس

الجيوبولتيكا الداخلية لروسيا

الموضوع والمنهج

1 ـ 1 الجيوبولتيكا الداخلية لروسيا مرتبطة بمهمتها الكونية

لا يمكن للتحليل الجيوبولتيكي للمشاكل الجيوبولتيكية في داخل روسيا أن يتحقق بدون احتساب اللوحة الشمولية العامة لموقع روسيا في الأنسامبل الجيوبولتيكي. ولا يمكننا إلا إذا أخذنا في الحسبان دور روسيا العالمي وأهميتها أن نحلل بصورة فعالة وغير متناقضة بنيتها الجيوبولتيكية الداخلية وأن نصف تلك البنية. وخلافاً لمدرسة «الجيوبولتيكا الداخلية» الأوروبية (ايف لاكوست وأمثاله) الميالة إلى عزل المشاكل المحلية والجهوية عن حساب توزيع القوى على الصعيد العالمي، ففي حالة روسيا يستحيل التجرد عن وزنها العالمي، وعلى هذا فإن جميع مشاكلها الخاصة الداخلية لا تصاغ (إذا لم نتحدث عن الحل) إلا في اطار الحقل الجيوبولتيكي التكاملي العام.

روسيا ليست ببساطة واحدة من دول اليابسة. إنها صنف ينتمي إلى المبادىء الأساسية للجيوبولتيكا ككل. روسيا ـ الـheartland «المحور الجغرافي للتاريخ»، اليابسة. روسيا هي الأوراسيا. ومعناها هذا لا يرتبط بالأحلاف، بالإيديولوجية، بالتوجه السياسي، أو بطبيعة النظام: والقارية ـ مصيرها التاريخي، الجغرافي والجيوبولتيكي. وفي حالة روسيا لا يمكن للمسألة أن تطرح حول الخيار بين «الأطلسية» و«الأوراسية». إنها القوة الأوراسية ولا يمكنها إلا أن تكونها. وامتناع روسيا عن لعب دورها في المجموعة العالمية لا يمكن تطبيقه إلا في حال تدميرها **الجغرافي** الكامل، ففي حال رفض الدولة الروسية لأداء هذه الرسالة مع حفاظها على الكتلة القارية الأوراسية سيظهر عاجلاً أم آجلاً، وعلى أية حال، سيظهر

وبالضرورة تشكيل سياسي جديد ضمن تلك الحدود نفسها يأخذ على عاتقه مهمة «المحور الجغرافي للتاريخ» وما دامت روسيا موجودة فإنها ستبقى محور القطاع الأوراسي في بعده الكوني.

هذا الطابع يحدّد زاوية النظر نحو قضاياها الجيوبولتيكية الداخلية، وهذه القضايا لا تظهر إلا على الأساس التالي: **بأي صورة وعلى أساس أية منطلقات طبيعية (أو مصطنعة) يمكن الحفاظ على موضوع روسيا الجيوبولتيكي في حدوده القصوى ومضاعفته في حدود الإمكان، بتوزيع كافة العوامل الجيوبولتيكية الداخلية بحيث تتوفر بالصورة الأمثل إمكانية التوسع الجيوبولتيكي الكوني؟**

طرح المشكلة بهذه الصورة يفرض من تلقاء نفسه شروط التحليل، ومن الضروري التركيز على، وإعطاء الأولوية في الدراسة لـ:

1 ـ إمكانيات التوجه نحو المركز من جهة المناطق؛

2 ـ إمكانيات توسيع التأثير المكاني للمركز على الأطراف وما يليها.

ويفترض هذا التشديد الواضح على ركيزتين أساسيتين ـ مفاهيم المركز الجيوبولتيكي والأطراف الجيوبولتيكية. العلاقة بينهما هي التي تشكل حقيقة دراسة الجيوبولتيكا الداخلية لروسيا.

1 ـ 2 الجيوبولتيكا الداخلية والعقيدة العسكرية

يلعب المجمع الصناعي الحربي دوراً بالغ الأهمية في التنظيم الجيوبولتيكي للآماد الروسية لأن السكان المدنيين في الكثير من الأراضي (وبخاصة القليلة السكان) يرتبطون بالبلدات والقواعد العسكرية. ويرتبط بهذا أيضاً توزع المراكز الأساسية للصناعة وما يرتبط باحتياجات ما يسمى «بالصناعة الدفاعية». فبأنموذج المبدأ الحربي ترتبط هيكلية التشكل الجيوبولتيكي لروسيا.

ولهذه العقيدة العسكرية بدورها عنصران مكملان. توجُّه القيادة السياسية (والذي يمكن أن يتغير وفقاً للعوامل السياسية الداخلية أو الخارجية) والثوابت الجيوبولتيكية التي تقيم تلك الأطر التي يمكن أن يتجلى في داخلها النهج السياسي. وهذا العنصر المكمل الثاني (وضع روسيا الجيوبولتيكي) يؤكد بصورة لا تقبل التأويل، المعنى القاري للقوات المسلحة في روسيا، والتوجه إلى اعتبار

«العدو» الرئيسي «المحتمل» لروسيا هو الحلف الأطلسي بالذات. وهذا ما يجر وراءه بصورة آلية التوجه القاري لمجموع العقيدة العسكرية، والأفضلية غير المشروطة للأنواع الاستراتيجية للأسلحة والتهيؤ لنزاع كوني ذي بعد يشمل الكرة الأرضية بأسرها. وليست مهمةً إزاء هذا على الإطلاق الصيغةُ السياسية التي سيتخذها هذا النظام. وليس من الضروري على الإطلاق أن تترافق المواجهة الجيوبولتيكية بمواجهة ايديولوجية. فهذا مرتبط بالموقف المحدَّد ويمكن أن يترك أثره على الصيغة الفيربالية(*) للنهج السياسي الذي يخفف، أو على العكس من ذلك، يشدد، من قسوة المواجهة الجيوبولتيكية التي تبقى على ما هي عليه في كافة الظروف. ودون أن تتطلع إلى المعادلة النهائية للعقيدة العسكرية تقوم الجيوبولتيكا بضرب أطره التي يؤدي خرقها دون إبطاء إلى نشوب أزمة اجتماعية سياسية شاملة وإلى التمزق الترابي للدولة.

وحتى في حالة التفاهم الإيديولوجي المتبادل الكامل مع الأطلسية يجب على العقيدة العسكرية لروسيا أن تحدد الولايات المتحدة والمعسكر الغربي على أنهما العدو المحتمل رقم 1، وانطلاقاً من هذا فقط تنبغي إقامة بناء القوات المسلحة في مجموعه. وهو ما سيترك أثره بدوره على البناء العام للجيوبولتيكا الداخلية لروسيا في معنى أوسع.

العقيدة العسكرية لروسيا ينبغي أن تبقى أوراسية بصورة مطلقة. وفي مثل هذه الحالة فقط وتحت زاوية النظر هذه يمكن تحليل الجيوبولتيكا الداخلية لروسيا بروح مسؤولة وتحديد خطوط التطور ذات الأفضلية. وبدون ذاك لن يتكهن أي تحليل بغير الانحلال الكارثي للأقاليم الروسية والتفتت الترابي والتفاعل التسلسلي للدمار وللتصفية الجيوبولتيكية الذاتية ومن الناحية النظرية لا يمكن استبعاد مثل هذا الانعطاف للأحداث، و«العقيدة العسكرية» المعاصرة للفيدرالية الروسية الذي لا يضع الولايات المتحدة الأمريكية وحلف الناتو بين «الأعداء المحتملين» ولكن يضعهما في عداد حلفاء روسيا الجيوبولتيكيين المحتملين في المعسكر الأوراسي يقدم عدداً من الأسس لذلك. ولكن انطلاقاً من أفق تاريخي وجغرافي أكثر شمولاً

(*) الفيربالي: هو الشفوي. والمذكرة الفيربالية ـ مذكرة دبلوماسية بلا توقيع تعادل في قيمتها التصريح الشفوي (المترجم).

ينبغي النظر إلى هذا الموقف على أنه «شذوذ مؤقت» سيتم التخلص منه قريباً إزاء أي نظام سياسي باعتباره تطرفاً جرى في مرحلة انتقالية معقدة. وبالإمكان وصف سيناريو «جيوبولتيكية الكوارث» الذي من شأنه أن يميّز مراحل انهيار «المحور الجغرافي للتاريخ». بيد أنه ينبغي لمثل هذا الموقف أن يتخذ أهمية أكبر بالنسبة للحلف الأطلسي، ولهذا كان من الطبيعي أن تخضع أمثال هذه النماذج لدراسات علماء الجيوبولتيكا في الدول التالاسوكراتية. ويجب على الجيوبولتيكا الروسية التي لا يمكنها أن تكون إلا أوراسية أن تتوجه، طبقاً لذلك، إلى الآفاق الإيجابية محللةً الوضع الفعال والمستقبلي، منطلقة في ذلك من القوانين التاريخية والجيوبولتيكية لتطور الثنائية القارية والحضارية. وينبغي في مثل هذه الحالة الترخيص بالقول (حتى وإن كان الأمر مخالفاً لذلك في اللحظة الحاضرة) بأن «العقيدة العسكرية» لروسيا تتطابق مع المنطق القاري ويقوم على ثوابت جيوبولتيكية صارمة:

وهذا الشرط هو ما ينبغي أخذه بعين الاعتبار في سياق العرض التالي.

1 ـ 3 المركز والأطراف

المركز التاريخي للـheartland ليس على الدوام حجماً جغرافياً. فعاصمة روسيا الحالية ترث في وقت واحد خط العاصمتين السلافيتين (كييف وفلاديمير) وخط محطات قيادة جنكيز خان السهوبية. ومن خلال كونها التركيب الجيوبولتيكي للغابة والسهب فإن لروسيا تقليدين تاريخيين ـ جيوبولتيكيين دفعة واحدة ينغرس اجتماعهما في أساس خصوصية الطريق الروسي.

كما اقترنت مرحلة بطرسبرج أيضاً بالتوسع الترابي على الرغم من أن إشراف بطرسبرج على بحر البلطيق يجسد التوجه الأوروبي للدولة،«الغربنة الجيوبولتيكية». وفي مرحلة بطرسبرج كان التوسع الترابي للروس أقل عضوية وأكثر تصنعاً مما كان عليه في السابق. ولم يكن الطابع التركيبي بارزاً إلى هذه الدرجة على الرغم من أن عدداً كبيراً من الشعوب الأوراسية في آسيا وسيبيريا قد قبلوا بسلطة «القيصر الأبيض» انطلاقاً من التقاليد القارية الموغلة في القدم.

من الناحية الجغرافية تستجيب موسكو أكثر من سواها لرسالة روسيا الأوراسية. فهي على بعد متكافىء تقريباً من كلٍّ من المناطق الجغرافية الأساسية

التي تكوّن خصوصية المشهد الروسي. فالمسافات حتى الشمال القطبي، وحتى غربي الشرق الأوروبي وحتى الجنوب السهبي شبه الاستوائي وحتى الشرق التايغي متساوية تقريباً. ولهذا فإنها بالذات يجب أن تكون العاصمة الأوراسية «الطبيعية» (من وجهة النظر الجيوبولتيكية) والمركز القاري. وفي هذا الخصوص يتطابق الوضع الحالي للأمور في عمومه مع الثوابت الجيوبولتيكية فموسكو ـ العاصمة الطبيعية للـheartland.

إن تحليلاً سريعاً لخريطة روسيا الجغرافية يكشف في هذا الوضع، وبالإضافة إلى ذلك، لوناً من اللاتعادل. ذلك أن وراء الأورال (والذي لا يمثل، على فكرة، أية حدود طبيعية داخل روسيا بسبب قلة ارتفاع الجبال وتجانس المناخ على جانبي السلسلة) منطقة تاريخية متجانسة إلى حد كبير تمتد على آلاف الكيلومترات في عمق سيبيريا محولة بهذه الطريقة موسكو إلى مركز «لروسيا الأوروبية» فقط. إلا أن النظرة الكمية حصراً تتوازن بفعل تصورات جيوبولتيكية أخرى.

أولاً: لا تمثل سيبيريا ذلك التنوع البنيوي المناخي والتضاريسي الذي يميّز روسيا ما قبل الأورال. ومن وجهة النظر هذه لا يمثل هذا المدى الهائل في مجموعه إلا انبساطاً غير متوازن للتضريس الشرقي الذي يفوق بأبعاده إلى حد بعيد اللوحة الإقليمية لروسيا بصفة خاصة. وعلى هذا فإن الحجم المَدَوي الهائل ينتهي في المعنى التضاريسي إلى خاصية مناخية محدودة.

ثانياً: يظهر مثل هذا اللاتوازن على المستوى الديموغرافي أيضاً. فوراء هضبة الأورال يعيش نفس ذلك العدد من السكان المميّز بالنسبة لكل واحدة من المناطق التضاريسية التي ميَّزتها الطبيعة بوضوح في روسيا الأوروبية.

ثالثاً: لا يتناسب إعمار هذه الجهة من حيث خطوط المواصلات والمدن والاتصالات وما إلى ذلك مع حجمها المَدَوي.

ولهذا لا يمكن لدور سيبيريا الجيوبولتيكي في الوضع الحالي، أن ينظر إليه متناسباً مع حجمه في المدى المكاني. إنه «المدى الاحتياطي» الخاص الذي يمثل الجزء الأخير «غير المستصلح» جيداً في اليابسة الأوراسية.

وعلى هذا ومع مراعاة الخاصية المميّزة لسيبيريا تتطابق موسكو في واقع الحال مع المركز الجيوبولتيكي «للمحور الجغرافي للتاريخ». ولنلاحظ: إن بقاء

سيبيريا دون استصلاح (وسيبيريا الشرقية بشكل خاص) قد جعل ماكيندر في أعماله الأخيرة يُدخل الـLenaland أي الأراضي الممتدة شرقي نهر اللينا في تشكل جيوبولتيكي خاص لا ينتمي إذا ما تكلمنا بدقة إلى الـheartland.

لكن شبنغلر(*) أشار إلى تلك اللحظة وهي أن سيبيريا تمثل مدى جغرافياً يمكن أن يتضح دوره تدريجياً وأن يكون حاسماً في العملية التاريخية. وتنبأ بأنه من سيبيريا بالذات يمكن أن تتنامى ثقافة متفردة تضع نهاية لـ«سقوط الغرب» وحضارته «الفاوستية». وقد أيد هذه الفكرة «الآسيويون الروس»، الفرع الأكثر تطرفاً بين الأوراسيين، الذين كانوا يرون الشرق (آسيا) أكثر أهمية ليس فقط من الغرب بل ومن الأوراسيا نفسها (وذاك ما كان يقول به ف. ايفانوف وبعض «الباسيفيكيين» Pazifiker وكروت فون بيكمان ـ من مدرسة هاوسهوفر وسواهم). وعلى هذا ففي المستقبل البعيد الذي يفترض تغير الوضع الديموغرافي والمعلوماتي لتطور سيبيريا وتسويتها ببقية الجهات الروسية (أو الأوروبية) يمكن الافتراض بأن يفقد الوضع الجغرافي لموسكو مركزيته وينزاح مركز الأوراسيا الجيوبولتيكي نحو الشرق.

لكن في اللحظة الراهنة لا ينبغي أن يعدّ ذلك إلا أفقاً مستقبلياً (ترد تفصيلات أكثر عن ذلك في الفصل الخاص بالشرق الروسي).

من المركز (موسكو) يمكن مد أشعة إلى المناطق المختلفة من الأراضي الروسية الطرفية. وهذه الأشعة ليست مقطّعات فطولها غير محدّد. والقوى النابذة والقوى الجابذة تؤثر على الجهات بحجم متفاوت يرتبط بعدد كبير من العوامل التاريخية. وفضلاً عن ذلك فإن البعد الفيزيائي عن المركز الجيوبولتيكي (موسكو) لا يتطابق دوماً مع «المسافات الجيوبولتيكية» ولا ترتبط هذه المسافات بالجانب الكمي فقط بل وبالجانب الكيفي من الاتصالات، وباستقلالية التشكلات الجهويّة، بأشكالها وبخاصيتها الثقافية الاتنية.

(*) شبنغلر Spengler أوسوالد (1880 ـ 1936) فيلسوف مثالي، ألماني. مؤرخ وممثل فلسفة الحياة. طوّر التعاليم المتعلقة بالثقافة كمجموعة من «الأجهزة الحية» المغلقة (حضارة مصر والهند والصين) تعبر عن «الروح» الجمعية للشعب والتي تمر بدورة حياتية معيّنة. أهم أعماله «غروب أوروبا» ترجم إلى العربية بعنوان «غروب الحضارة الغربية». (المترجم).

ويمكن الوصول بجميع الإشعاعات المنطلقة إلى المركز إلى أربعة أصناف أساسية أو «محاور داخلية»:

1 ـ موسكو ـ **الشرق**.

2 ـ موسكو ـ **الغرب**.

3 ـ موسكو ـ **الشمال**.

4 ـ موسكو ـ **الجنوب**.

ومن جهة أخرى فإن الآماد الطرفية المطابقة تمثل «مناطق» أو «شرائط» يتسم كل منها بملامحه المميّزة وبنيته الخاصة. وهذه الشرائط يمكن أن نسميها طبقاً لذلك «**الشرق** الروسي»، «**الغرب** الروسي» و«**الشمال** الروسي» و«**الجنوب** الروسي» وصفة «الروس» تحمل في هذه الحالة معنى لا اتنياً بل جيوبولتيكياً يؤكد ارتباط الجهة «بالمحور القاري»، موسكو.

أما المضمون الرئيس لموضوع «الجيوبولتيكا الداخلية» لروسيا فسيكون إيضاح البنية الجيوبولتيكية لهذه «المناطق الطرفية» الأربع، وخصائص وملامح «الإشعاعات» التي تربطها بالمركز. وتجري دراسة بنية المناطق بصورة أكثر تفصيلاً في الفصول القادمة. أما طابع الإشعاعات فيمكن معالجته الآن في خطوطه العامة.

1 ـ 4 المحاور الداخلية (الإشعاعات الجيوبولتيكية)

أربعة إشعاعات جيوبولتيكية تربط موسكو بأطراف «المدى الروسي». ولهذه الإشعاعات خاصية مختلفة:

ويمكن تصنيفها في زوجين ـ شعاعا موسكو ـ الغرب وموسكو ـ الجنوب من جهة، وشعاعا موسكو ـ **الشرق** وموسكو ـ **الشمال**، من جهة أخرى.

الشعاعان الأولان «غير مكتملين» من وجهة النظر الجيوبولتيكية، «مفتوحان». وهما يتوجهان نحو نظام جيوبولتيكي معقد ذي بعد مساحي واسع يفصل روسيا القارية عن الحدود المثالية، الخط الساحلي. والحدودان **الجنوبية والغربية** من روسيا تمثلان، من وجهة النظر الجيوبولتيكية، شرائط واسعة تفصل الجزء المتوسط عن الخط الساحلي. ومن هذه الناحية يمثل هذان الشعاعان

الاتجاهين الأضعف بالنسبة لروسيا ومجموع الديناميكية الجيوبولتيكية وفقاً لهذين المحورين على غاية من التوتر، وهي معقدة، ولها عدد من المستويات والأبعاد.

محورا موسكو ـ **الغرب** وموسكو ـ **الجنوب** يجمعان في داخلهما الوجهتين السياسيتين الداخلية والخارجية، لأن مناطق روسيا ـ الأوراسيا هنا تنتقل بانسيابية إلى مناطق خاضعة لدول أخرى، وينتسب بعض هذه الدول إلى الحلف العالمي المضاد، إلى معسكر التالاسوكراتيا.

الشعاعان التاليان: محور موسكو ـ **الشمال** وموسكو ـ **الشرق** يختلفان اختلافاً شديداً عن الزوج الأول. فحدود روسيا هنا تتطابق مع الخط الساحلي ـ ولا توجد «دول ـ عزقات»، ولهذا تستنفذ الديناميكا الجيوبولتيكية هنا بموضوعات السياسة الداخلية ولروسيا في **الشمال** وفي **الشرق** حدود سياسية مكتملة. والمهمة الرئيسة في هذه الحالة هي الحفاظ على الوضع القائم.

وفضلاً عن ذلك فإن **الشمال والشرق** بالذات يعدّان بفضل حدودهما المحيطية احتياطيين، وهما محميّان حماية ممتازة بخلفيات «المحور الجغرافي للتاريخ» حيث يمكن دوماً في اللحظات الحرجة إنشاء جسور مَدَوية إضافية بهدف إعادة التركيب الاستراتيجي.

والفرق بين محوري «**الغرب**» و«**الجنوب**» ومحوري «**الشمال**» و«**الشرق**» ليس نتيجة الصدفة التاريخية. فالتضريس الجغرافي نفسه والخارطة الاتنية والثقافية التي أعقبت ذلك في المناطق المطابقة تمثل ذلك القالب الذي كان طيلة مسيرة التاريخ السياسي يمتلىء بمضمون حكومي محدّد.

وعلى الأطراف الغربية والجنوبية من روسيا وعلى الحدود المشتركة مع الدول المجاورة تكونت أعذاق متطورة لثقافات ودول واتنوسات مع تقاليدها السياسية والروحية ونظام الحكم الخاص بها وما إلى ذلك. وهذه ـ منطقة تخوض بإحدى جهاتها في الـrimland. والمنطلقات الموضوعية والاصطناعية «للانفصال»، الذي يتماهى في بعده الكوني مع الاستراتيجية التالاسوكراتية، ناضجة هنا بشكل فعال.

أما **شمال** روسيا **وشرقها** فهما، على العكس من ذلك متجانسان تضاريسياً إلى حدود بعيدة ومأهولان بصورة غير مكثفة بشعوب ليست لها تقاليد حكومية وسياسية متطورة أو أنها ضيعت منذ زمن بعيد مبادرتها التاريخية لبناء امبراطورية (مثل ترك الألتاي والبوريات وما سواهم). والوصول إلى البحار مفتوح هنا أمام

موسكو، لكن نوعية البحار مطابقة لما هناك فهي قليلة الملاءمة للملاحة، باردة، مغمُورة بالجليد على مدار قسم معتبر من العام، مقطوعة الجزء المركزي بسبب رداءة المواصلات، وموانئها على مستوى متدن من التطور. والأفضليات الاستراتيجية المحدّدة يستعاض عنها بنواقص معادلة لها في الحجم.

الزوجان من الإشعاعات يقدمان تناظراً جيوبولتيكياً كاملاً. فامتداد سواحل روسيا الشمالية والشرقية مقترن بالتخلخل الديموغرافي والتخلف المواصلاتي. والحدود الغربية والجنوبية بريّة، كثيفة السكان، متنوعة التضاريس وتمثل شرائط واسعة لمساحة معتبرة.

وعلى هذا فإن العلاقة الجيوبولتيكية للمركز بالأطراف تقسم في روسيا إلى قسمين ـ المحاور الداخلية الصرفة ذات الحدود الخطية المحيطية (**الشمال والشرق**) والمحاور نصف الداخلية ذات الحدود البرية من النوع الشريطي (المناطقي)، (**الغرب، الجنوب**). ديناميكية «**الجنوب والغرب**» تعني الانخراط في جو العلاقات الدولية، الدبلوماسية وما إلى ذلك. وتقتصر ديناميكية «**الشمال والشرق**» على المشاكل السياسية الداخلية. إلا أن المقاربة الجيوبولتيكية المحضة تجعل هذه اللوحة نسبية إلى حد ما. فهناك حيث تقوم في اللحظة الراهنة دولة «مستقلة» يرى عالم الجيوبولتيكا «منطقة طرفية في المستقبل» وعلى العكس من ذلك فإن الجزء الشاطئي من مساحة دولة ما يمكن أن تمسي في لحظة ما جسراً ساحلياً لقوة جيوبولتيكية بديلة (أي لدولة جديدة «ذات سيادة»).

الإشعاعات المنطلقة من المركز إلى الأطراف «نبضات التوسع القاري» تصطدم دوماً بضغط قوة مضاد. فالحلف الأطلسي يحاول الحد من الطاقة النابذة لموسكو مستخدماً التوجهات «الانفصالية» لشعوب الأطراف أو الدول المجاورة، معتمداً في ذلك على تلك المناطق الساحلية الخاضعة للسيطرة المؤكدة للتالاسوكراتيا. وهذا الضغط المضاد ملموس **في الجنوب والغرب** وفي الواقع السياسي المحدَّد. أما في **الشمال والشرق** فالضغط المضاد أقل وضوحاً وملموسية. لكنه مع ذلك يبرز في مظهر الحضور العسكري الاستراتيجي للأطلسيين في المنطقة الساحلية البحرية (الغواصات الذرية بشكل خاص)، ويمكن أن يعبر عن نفسه في الأوقات المحددة الحرجة عبر التدخل السياسي المباشر في الشؤون الروسية الداخلية وفي دعم (أو إحباط) الميول الانفصالية للأقليات الاتنية أو الثقافية.

الفصل الثاني — 2

طريق الشمال

2 ـ 1 أنموذج التحليل

الشعاع الجيوبولتيكي موسكو ـ الشمال يتفرق في اقترابه الشديد إلى طيف كامل من الإشعاعات التي تنتشر من المركز الواحد على مجموع اتساع شواطىء المحيط المتجمد الشمالي. وبهذا نتحصل على أنموذج شابه التعقيد نتبيّن فيه مشاكل ثلاث:

1 ـ علاقة قطاعات **الشمال** فيما بينها.

2 ـ علاقتها مع **المركز** (موسكو).

3 ـ العلاقة مع المناطق الأخرى من المدى الروسي (**الجنوب**، **الشرق**، **الغرب**).

والتحليل الجيوبولتيكي يتوزع على الفور إلى عدد من القطاعات والقضايا. والمهمة الأساسية إزاء ذلك تتمثل عند احتساب الخاصية الجهوية والتفاصيل، في ألا يغيب عن النظر المجمّع العام «للجيوبولتيكا الداخلية لروسيا» والسياق الكوني الأكثر اتساعاً.

بالنسبة للشمال يتجلى الثابت الجيوبولتيكي **للمركز** في تحقيق أقصى حدّ ممكن من السيطرة الاستراتيجية على هذين الميدانين. ونظراً لضعف الكثافة السكانية للأراضي الواقعة وراء الدائرة القطبية الشمالية وغياب التقاليد الحكومية والسياسية المتطورة لدى الاتنوسات القاطنة هناك، فإن العناصر الثقافية ـ السياسية هنا تتراجع إلى الدرجة الثانية. ويصبح الجانب الأكثر أهمية هو السيطرة العسكرية

على الشاطىء (القواعد الحربية، والحربية ـ الجوية والحربية ـ البحرية)، التواصل المعلوماتي، التزويد بالطاقة وتوفير الحد الكافي من المواد الغذائية والمسكن.

2 ـ 2 طابع الأركتيكا(*) الروسية الجيوبولتيكي

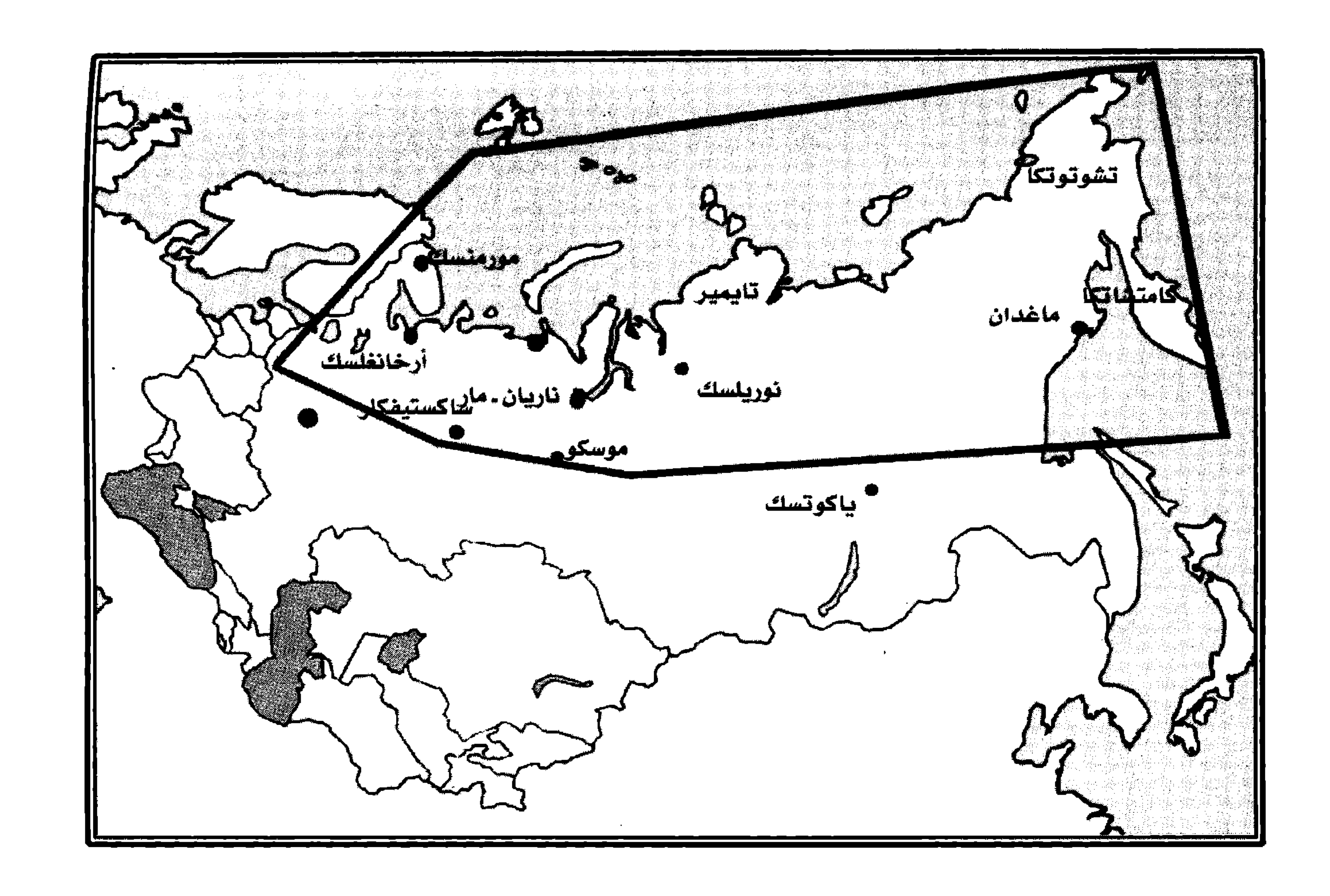
الطابع المناخي للأراضي الشمالية يفترض إعمارها الصفري بالسكان لا «الشريطي». ومن هنا يأتي دور المراكز التي تكتسب أهمية خارقة للعادة وتصبح مكافئة، إلى حد ما، لما يعرّف في مناطق أخرى بـ«الأرض». وهذا التماهي بين «المركز» و«الأرض» يتخذ أقصى بعده في الشمال، لأن الآماد البيئية ليست فقط قليلة الملاءمة للحياة بل وهي خطيرة خطورة الموت ـ التوندرا، البرودة، انعدام المراكز المأهولة بالسكان، الطرق وما إلى ذلك.

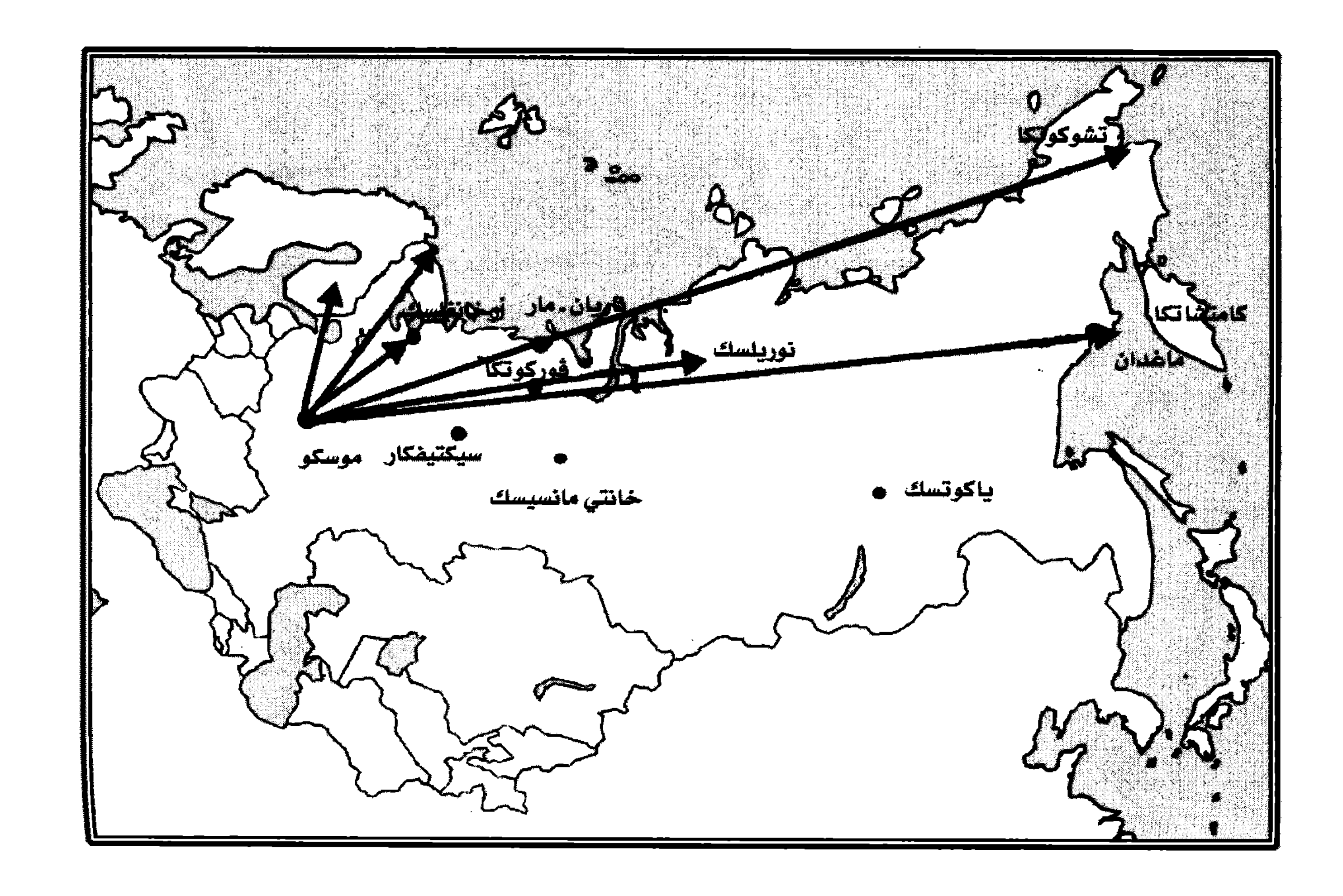
وعلى هذا فإن **الشمال** الجيوبولتيكي ـ نظام من النقاط موزعة في القطب الشمالي، مجموع مستوطنات غير مترابطة، مبعثرة في مدى متجانس (مناخياً أو تضاريسياً) إلى حد كبير. والغالبية الساحقة من الأراضي الشمالية تمثل التوندرا أي الصحراء الشمالية النادرة النباتات (الاشنيات). إنها منطقة التجمد الأبدي.

وطابع المدى الشمالي قريب في بعض وجوهه من «العفوية المائية» فالحدود بين أراضيه لا تتخذ من الناحية العملية أي معنى جدّي، لأن السيطرة على هذه أو تلك من الأراضي لا يمنح أية مزايا خاصة. وبالأخذ بالحسبان قلة الاستيطان هناك ينتفي بطريقة آلية موضوع «التنافس على أراضي الترحّل» بين الشعوب راعية الوعول.

وسكان الشمال يمثلون تنوعاً من أقدم الأتنوسات الأوراسية التي استوطنت هذه الأراضي على مدار آلاف السنين دون أي ديناميكية ثقافية نزوحيّة أو إتنية ذات شأن. ومن الأمور المثيرة للفضول أن التقسيم على الأساس الاتني يجري شمالي حدود روسيا الغربية بالذات: فشمال أوروبا ـ إسكاندينافيا، ألمانيا، الدانمرك، وحتى انجلترا، ايرلندة وايسلندة مأهول بشعوب «متطورة» هندأوروبية الأصل (اتنوسات فتية) ولكن الشمال الروسي بداية من فنلندة وكاريليا وحتى تشوكوتكا

(*) الأركتيكا: منطقة المحيط المتجمد الشمالي. (المترجم).


تشوتوتكا
مورمنسك
تايمير
كامتشاتكا
ماغدان
أرخانغلسك
ناريان ـ مار
نوريلسك
موسكو
ياكوتسك



تشوكوتكا
ناريان.مار
ماغدان
توريلسك
ۋوركوتكا
سيكتيفكار
موسكو
خانتي مانسيسك
ياكوتسك

مأهول باتنوسات أكثر قدماً وعتاقة من سكان الشمال الأوروبي (الأوغْر، الترك القدماء، والبالوآسيويون القدماء ـ التشوكتْشي والأسكيمو وما إلى هنالك). وبمقدار التحرك على طول المحيط المتجمد الشمالي نحو الشرق تتعاظم أقدمية الاتنوسات. والهندأوروبيون (أو الترك) الأوفر فتوّة والذين كانوا يتحركون بطريقة ديناميكية عبر الأجزاء الأكثر مأهولية للحياة في الأوراسيا، كانوا «يدفعون» الأوتوخْتون(*) موجاتٍ نحو الشمال.

ومن الغرب إلى الشرق: بعد الكاريل والفنلنديين (الذين شاركوا مع ذلك بفعالية في التاريخ المعاصر وإن كانت المشاركة بأدوار ثانوية) هناك النينتسي والكومي الأكثر قدماً ومن بعدهم الخانْت والمانسي ـ الدولغان، الإيفينكي ومن بعدهم التشوكْتْشي والأسكيمو. وتشغل ياقوتيا (ساخا) قطاعاً هائلاً من **سيبيريا الشرقية**، إلا أن الياقوت (أحد فروع الترك) يعيشون في مناطق أكثر توغلاً نحو جنوب الدائرة القطبية الشمالية بينما شمال المنطقة يكاد يكون قفراً من السكان.

ومن الأوغْر وحتى الأسكيمو يستعرض مدى الشمال الروسي أمامنا قطاعات حضارة عاشت من الناحية التاريخية أزمنة معينة.

مفهوم «**الشمال** الروسي» يمثل شبه منحرف يكرر ملامح الأوراسيا على العموم. فهو يضيق غرباً ويتسع شرقاً. وعلى الحدود الروسية الفنلندية تغطي هذه الأراضي 10 خطوط طول تقريباً بينما تغطي تشوكوتكا وكامتشتكا 20 خط طول لكنْ هذا الاتساع في المدى لا يترك إلا أثراً قليلاً على الطابع الجيوبولتيكي لتلك الأرض، وبالملامح الديموغرافية، وبمستوى الاستيطان، وبنوعية طرق المواصلات، ودرجة توفر المستوطنات، يقوم هذا الشبه المنحرف الذي يزداد اتساعاً نحو الشرق، لوحةً صقيلة لمّاعة: لأن الجناح الغربي «الضيق» من القطاع الشمالي مستوطن ومأهول أكثر من الجناح الشرقي المقابل.

إذا كانت سيبيريا تمثل «احتياطي» روسيا الجيوبولتيكي فإن الشمال وبخاصة منه الشمال السيبيري يمثل «احتياطي» سيبيريا نفسها. فهو الأكثر بعداً عن حضارة مناطق الأوراسيا. إنه أرض جليدية غير مطروقة جرى وصفها شكلياً على الخرائط

(*) الأوتوختون: سكان البلاد الأصليون الأوائل. (المترجم).

لكنها لا تمثل أي دلالة تاريخية ولا تملك أية مقاييس ثقافية عالمية (على الأقل ضمن الأبعاد التاريخية المنظورة من الماضي الذي تمكنت الدراسات من الوصول إليه)، وهذا الوضع يتناقض بطريقة عجيبة مع ذلك الدور الذي يلعبه **الشمال** في أساطير كثير من الشعوب. فهو يخصص هناك بصفة «الوطن الأم العظيم»، «أرض الميعاد»، «الجنة القديمة». أما في اللحظة التاريخية الحاضرة فهو أدنى إلى النقيض من ذلك، إنه المدى البارد المتجهم، المعادي للبشر، المدى الاغترابي مع توضعات نادرة لمهاد مصطنعة للحضارة.

2 ـ 3 الشمال + الشمال

إن غالبية الأراضي الشمالية من الناحية الإدارية دوائر ذات حكم ذاتي داخل الفيدرالية الروسية باستثناء كاريليا، كومي وياقوتيا التي تتمتع بوضع سياسي أكثر استقلالية (جمهوريات). والمناطق من الناحية السياسية موزعة هكذا (من الغرب إلى الشرق): كاريليا ثم منطقة مورمانسك الشمالية، منطقة أرخانغلسك، جمهورية كومي، ودائرة نينيتسك ذات الاستقلال الذاتي، دائرة يامالو ـ نينسك ذات الاستقلال الذاتي، (دائرة دولغانو ـ نينسك ذات الاستقلال الذاتي) تايميرسكي، القطاعات الشمالية من ياقوتيا، دائرة تشوكوتكا ذات الاستقلال الذاتي، منطقة ماغدان، دائرة كرياكسك ذات الاستقلال الذاتي وكامتشاتكا.

وتشابُه الصفة الجيوبولتيكية لجميع هذه الأراضي يمثل أساساً كافياً يمكّنها من إقامة حلف ترابي ـ استراتيجي على أرضية بنى تكاملية محدَّدة. وجميع هذه المناطق تصطدم بمشاكل متقاربة نمطياً، فتطورها يجري وفق مسارات واحدة. وهذا التشابه الطبيعي الذي اتضح بصورة بارزة حتى أمام أشد التحاليل الجيوبولتيكية تسارعاً يظهر ضرورة تآزر محدد. وهذا التآزر نوع من ميثاق «أراضي القطب الشمالي» ويمكنه أن يتخذ عدة مستويات ـ من المستوى الروحي الثقافي وحتى العملي والاقتصادي.

ويمكننا في البداية أن نشير إلى الاتجاهات العامة لهذا الحلف.

فقاعدته الثقافية يمكن أن تكون بالذات النظرية الأوراسية لإعادة تفسير الحضارة التقليدية على أنها أنموذج إيجابي للبناء الاجتماعي الذي يحتفظ بذكرى

عن الأنساق الكونية. وهذا يعني أن قِدَم شعوب الشمال (اللاتطور، التخلف، السذاجة وما سوى ذلك) لا تمثل أمراً سلبياً بل إيجابياً روحياً. فالاتنوسات القديمة ليست فقط في غنى عن «إعادة التربية» والإدخال «في الحضارة المعاصرة» بل هي، على العكس من ذلك، تفتقر إلى أن تستجيب ظروف وجودها حتى الخطّ الأعظم لتقاليدها. والاهتمام بهذه التقاليد يجب أن يناط إلى حد ما بالدولة التي تتطلع إلى أن تضمن لنفسها السيادة الاستراتيجية على هذه الأراضي.

وبصورة موازية لذلك ينبغي التسلح بالبعد «الميتولوجي» على أنه المهد الأقدم للإنسانية ويمكن لمشروع الانبعاث الروحي أن يكتسب في هذه الحالة بعداً تاريخياً مشرّفاً. وعلى هذا يجب أن ينصب التوكيد على الخاصية المناخية للسنة ـ النهار القطبي والليل القطبي واللذين كان الهنود وقدماء الفرس يعدونهما «أيام الآلهة». إن العيش في الشروط القطبية (المشترك بالنسبة لمجموع الشمال الأوراسي) يعيد الكائن البشري إلى شروط الإيقاع الكوني الخاص. ومن هنا ينبثق المعنى الروحي ـ الباطني للمناطق القطبية.

على المستوى المادي وتطبيقاً على شروط وجود النازحين من **الجنوب** بشكل خاص وهم في غالبيتهم من الروس، ينبغي ضم جهود كافة المراكز الشمالية لصياغة النماذج المثلى للمدن والمستوطنات مع احتساب الخاصية المناخية، ويتطلب الأمر في هذه الحالة استخدام أحدث التقنيات ـ المصادر غير التقليدية للطاقة (الطاقة الشمسية ـ المحطات الكهربائية الهوائية وما إلى ذلك)، تطبيق المهارات في ظروف التجمد الأبدي، نظم المواصلات والنقل، تطوير النقل الجوي بين المناطق وما إلى ذلك. ومن الأمور البدئية يجب أن يكون مشروع التطوير القطبي العام وإعداد المعادلة الوحيدة والأكثر فعالية والتي تسمح في أقرب فترة من الزمن بتحديث حياة السكان وجعل وجودهم أكثر ديناميكية وترابطاً.

ومن المنطقي بمراعاة أهمية هذه النقطة، أن يترك حلها للشروط القطبية نفسها، بتوفير الدعم الحكومي للمشروع كله من طرف المركز، أما صياغة «المعادلة القطبية» فأمر متروك للشماليين أنفسهم.

وبما أن الشمال، «احتياطي الاحتياطيات» الجيوبولتيكي لروسيا، فينبغي إعداد مناطقه للهجرة الفعالة الممكنة للسكان من **الجنوب**. وهذا ما يمس الجانب

الآخر من المشكلة ـ سكان **الشمال** الجدد. وعاجلاً أم آجلاً، وبأخذ العمليات الديموغرافية بالاعتبار، سيغدو هذا أمراً ضرورياً، وينبغي البدء منذ الآن بتوفير المنطلقات البنيوية لذلك.

كما وينبغي إيلاء أهمية خاصة للشأن العسكري. فالشمال هو المنطقة الاستراتيجية العسكرية المهولة بالنسبة لروسيا والحزام الأهم لأمنها. وقد تركز فيه عدد كبير من قواعد الصواريخ وقواعد الطيران الاستراتيجي، كما إن مورمانسك وارخانجلسك القاعدتان البحريتان الأهم في روسيا. هذا الوضع ليس نتيجة لعبث المواجهة الايديولوجية بين المعسكرين خلال مرحلة الحرب الباردة. فأهمية **الشمال** الاستراتيجية بمعناها العسكري تبقى بالنسبة لروسيا على كل حال من الأحوال لأن الحديث يتناول الاهتمام بمصالح الأوراسيا، الـheartland. ومعنى الوجود العسكري في شمال روسيا ينطلق من الطابع القاري لبناء القوات المسلحة الروسية ومن الوعي الطبيعي لنفسها معسكراً قارياً يواجه «قوى البحر». والأهمية الأساسية لهذه النقاط العسكرية ـ حماية المنطقة الساحلية من الاختراقات البحرية والجوية المحتملة وضمان تسديد الضربة الذرية، في حال الضرورة، للقارة الأمريكية عبر القطب الشمالي. فهذه أقرب مسافة من روسيا حتى أراضي الولايات المتحدة. ولهذا السبب تعد هذه الأراضي المنطقة الأفضل لتطوير الدفاعات ضد الصواريخ.

يقدّم **الشمال** في الوقت الحالي نسبة ضخمة في النتاج الصناعي العام لروسيا. ولا يجري إزاء ذلك حساب أهمية الشمال المركزية بالنسبة للمجمع العسكري الصناعي، وكثير من المواد الأولية، وبخاصة الملح والنيكل وما إليها ـ تستخرج بصفة خاصة في المناطق القطبية. إلا أن ثمة بوناً شاسعاً بين هذا التطور الصناعي **للشمال** وبين التخلف الماثل في الميادين الأخرى من التطوير. والمنطق الجيوبولتيكي يطالب بالتسوية الفعالة للوضع. وينبغي في مثل هذه الحالة تسمية عاصمة (أو عدة عواصم) **للشمال** تتركز فيها القدرات العقلية ـ التقنية التي توجه نحوها الأذرع الأساسية الهندسية، المالية والاقتصادية الأساسية. ومن شأن هذا أن يعطي **للشمال** استقلالاً ملموساً عن المركز، وتحريراً من الرقابة على التفاصيل، واحتياطيات من أجل التطوير الجهوي المرن وردّة فعل صناعية ـ اقتصادية سريعة.

وعلى هذه المستويات جميعاً تظهر ضرورة تكامل **الشمال**. وهذا أمر مهم في المنظور الروحي، الاتني، الثقافي، العسكري ـ الاستراتيجي، الصناعي،

الاجتماعي والمالي. ويمكن أن تصبح نتيجة هذا التكامل على الكثير من المستويات (والذي لا يوجد بعد إلا في نطاق الاحتمال) إقامةَ واقع جيوبولتيكي جديد كل الجدة لا تؤدي فيه الزيادة الملموسة في الاستقلال الذاتي وفي الاعتماد الجهوي على الذات إلى أي إضعاف للارتباط الاستراتيجي بالمركز. وبهذا يصبح إعمار الشمال الطريق إلى المستقبل، نحو هم جديد تماماً (قائم على الجيوبولتيكا) للمدى المكاني في المستقبل المنظور الطويل الأمد.

وهكذا يمكن لأرض **الشمال** أن تتحول من صحراء عقيمة إلى جنة قطبية تعزز الوزن الكوني للقارة وتصنع أنموذج مجتمع «المستقبل الأوراسي» القائم على الجمع بين التقليد والتطور والوفاء للجذور وللتحديث التقني.

2 ـ 4 الشمال + المركز

تعتمد النظرة الأولى للتحليل الجيوبولتيكي **للشمال (الشمال + الشمال)** على أساس تخصيص «شبه المنحرف القطبي» في منطقة مترابطة وحيدة، يمكن النظر إليها كشخصية مَدَويّة مستقلة. ومثل هذه الرؤية **للشمال** تسمح بصياغة الأنموذج الأكثر مرونة لتطويره، لأن التركيبة الجيوبولتيكية الأرسخ ثباتاً هي تلك التي تتكون من عناصر مستقلة مكتفية ذاتياً ـ ذات استقلال ذاتي (بالمعنى المحدود) إلا أن مثل هذا الاكتفاء الذاتي النسبي يتطلب بعداً ترابياً محدَّداً. و«شبه منحرف» **الشمال** الروسي يستجيب لكافة الشروط الضرورية لكي يكون «المدى الكبير» المستقل بذاته داخل روسيا. وفضلاً عن ذلك فإن مثل هذه التكاملية ذات الاستقلال الذاتي تستطيع إلى حد ما أن تعوّض المركزية الاستراتيجية التي لا مندوحة منها بالنسبة للدولة.

وتتمثل المقاربة الجيوبولتيكية الثانية في تحليل المنظومة الوظائفية وفق محور **المركز ـ الشمال**. وقد كان هذا المحور ولا يزال حتى وقتنا الحاضر وإلى حد بعيد المحور الأوحد والأهم في التنظيم الإداري للأراضي الشمالية. كانت المناطق المنفصلة ومراكز **الشمال** خاضعة مباشرة لموسكو التي تسيطر على جميع الخطوط الأساسية لتطور هذه الأراضي. وهذه المركزية الصارمة المعنى حالت دون تطوير الإمكانات الجيوبولتيكية الداخلية **للشمال** بصورة فعالة حتى الحدود القصوى،

وبصورة مقصودة جعل اختصاص المناطق وحيد الجانب ومتوجهاً نحو أبعاد البلاد كلها. وهذا ما سمح بتدعيم المركزية الصارمة لكنه عوّق إلى حد كبير تفتيح الإمكانات الداخلية.

ويظهر المنطق الجيوبولتيكي أن مسألة علاقة المركز والأطراف (وهي في حالتنا هذه موسكو ـ **الشمال**) يجب أن تقسم بصورة متعمّدة إلى مكوّنين:

1 ـ المركزية الصارمة في مجالات السياسة الكبرى والخضوع الاستراتيجي.

2 ـ التحرير الأقصى للإمكانات الضمنية على أساس الحد الأقصى من الاستقلال الذاتي الثقافي والاقتصادي.

وفي مصطلحات أخرى يعني: المركزية الاستراتيجية + الجهوية الثقافية ـ الاقتصادية.

ولصياغة الأنموذج الأكثر فعالية لهذا التوزيع الجيوبولتيكي للأدوار يطرح نفسه من جديد السؤال المتعلق بـ«عاصمة **الشمال**» التي بوسعها أن تؤدي دور المرجع الوسيط بين المركز وجميع المناطق. وإلى هذه النقطة يمكن أن تنتهي جميع الروابط العسكرية من القواعد إلى القطع العسكرية، إلى الموانىء وما إلى ذلك. وبالإضافة إلى ذلك يمكن أن توجد هنا «حكومة **الشمال**»، المرجعية المرنة للتنسيق السياسي لجميع أجزاء «شبه المنحرف القطبي» والخاضعة مباشرة لموسكو ولكن المتمثلة أمامها باسم **الشمال** كله. إنه يمكن أن يكون «برلمان شعوب **الشمال**» والهيئات التنفيذية المعنية. والأهم إزاء ذلك كان التوصل إلى الجمع المتوائم للقيادة العسكرية بالممثلين الجهويين لأن الطابع المركزي للسيطرة الاستراتيجية يرتبط في مثل هذه الحالة بالتعبير عن الإرادة الجهوية للأراضي الشمالية. إن تاندم(*) الممثل العسكري لموسكو مع الممثل المدني «الشعوب الشمال» في مثل هذه العاصمة الجيوبولتيكية يمكن أن يكون النموذج الأصلي المثالي للمنظمة الأوفر تأثير وتسارعاً ومرونة، ولكن المرتبطة بالمركز في مجموع المجال الأوراسي. وإلى جانب ذلك فإن المماحكات البين الإتنية والثقافية بين

(*) تاندم: من الانجليزية tandem وتعني بالروسية درّاجة لشخصين وضع مقعداها أحدهما خلف الآخر. (المترجم).

شعوب الشمال في مثل هذه العملية التكاملية ستكون في حدودها الدنيا لأسباب تاريخية وجغرافية ـ تشتُّت التوزع السكاني وموزاييكيته وقلة عدد الاتنوسات.

في **الشمال** بالذات ينبغي اختبار هذا الأنموذج لإعادة تنظيم المدى والمعتمدة على منطلقات جيوبولتيكية صرفة. وفي مثل هذه الحالة تكون جميع الشروط متوفرة لتنفيذ ذلك المشروع، انتماء جميع مناطق الشمال إلى روسيا، الاتساع الترابي والديموغرافي، الحاجة الناضجة إلى إعادة تركيب النظم الصناعية ـ الاقتصادية والتي سقط جزء منها من النظام العام لـ«توزيع العمل» القومي، الأزمة الديموغرافية، الوضع المتأزم مع شعوب الشمال، انهيار النظم الممولة بالطاقة ونظم المواصلات، والإصلاح الضروري للقوات المسلحة وما إلى ذلك.

ترتبط علاقة موسكو ـ **الشمال** ارتباطاً مباشراً بالتكامل العام بين المناطق الشمالية في حلف موحد، وبسبب آخر أيضاً، وهو أن روسيا ذات بنية جغرافية عرضانية فهي ممتدة على خطوط العرض. والتوجهات الأساسية لتطورها كانت ذات ديناميكية عرضانية. وعلى أساس تكامل الآماد على خطوط العرض بنيت الدولة الروسية. ولهذا السبب أقيمت خطوط المواصلات الرئيسية ونظم الاتصالات داخل روسيا وفقاً لهذا النموذج وبصفة أكثر بروزاً تتجسد العملية العرضانية في إعمار سيبيريا و«الوثبة نحو المحيط». ولهذا ترتبط ثبوتية البناء الداخلي لروسيا مباشرة باكتمال وديناميكية التكامل العرضاني. وإذا أخذنا روسيا ككل فإن التطوير وفقاً لمحور **الشمال ـ الجنوب** ضروري بالنسبة لاكتمالها الاستراتيجي القاري. وهذا ما يتعلق بالدرجة الأولى بالتوسع خارج حدودها لأن أي تنظيم جيوبولتيكي للمدى المكاني بناء على خطوط الطول يطرح مستوى أقصى من الاكتفاء الذاتي الاستراتيجي. أما ضمن حدود الروسيا نفسها فإن مثل هذا الاكتفاء الذاتي الكامل ليس ملائماً للغرض على الإطلاق. فهنا، على العكس من ذلك، ينبغي التوكيد على الحد الأقصى من المركزية الاستراتيجية، على العلاقة المتبادلة بين الآماد الجهوية والمركز. ولهذا يمكن صياغة القانون الجيوبولتيكي التالي: **الأفضلية في داخل روسيا للمحور التكاملي غرب ـ شرق، وخارج روسيا لمحور شمال ـ جنوب. وبشيء من التفاوت الطفيف يمكن لهذا القانون أن يصاغ كالتالي: (الآماد المسيطر عليها إتنياً وسياسياً من طرف روسيا والروس تتطلب التكامل وفق خطوط العرض، بينما الأراضي الروسية الداخلية والمأهولة بكثافة من طرف اتنوسات أخرى**

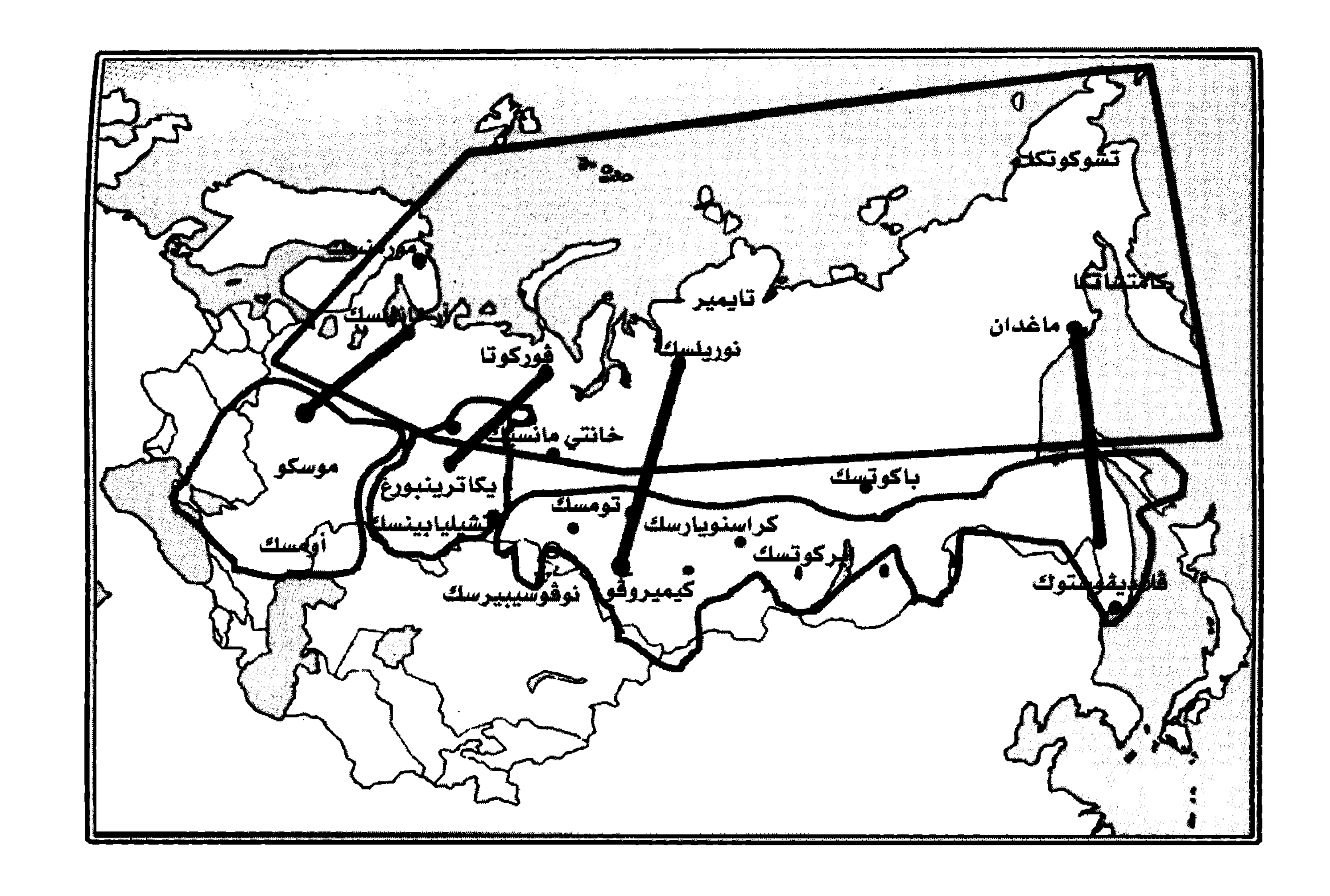
ذات تقاليد مكرَّسة تاريخياً للانفصالية السياسية، تتطلب، على العكس من ذلك، تكاملاً وفق خطوط الطول). فالديناميكية وفق خطوط الطول تجعل التشكل السياسي مستقلاً عن الجيران من اليسار ومن اليمين. وهذا ضروري للبلاد على عمومها، لكنه غير ضروري بالنسبة لقطاعات منفصلة في هذه البلاد. وعلى العكس من ذلك فإن الديناميكية وفق خطوط العرض توثق بقوة صلات **المركز** بالأطراف. وهذا مفيد بالنسبة للتنظيم السياسي الداخلي للدولة، لكنه يؤدي إلى النزاعات واللاتوازن على مستوى ما بين الدول.

وعلى أساس هذه القانونية ينبغي أن نؤكد بالذات على التكامل العرضاني للمناطق الشمالية، آخذين في الحسبان انتماءها لمنطقة مناخية وتضاريسية واحدة وليس قربها الجغرافي الصرف (بل وحتى في بعض الحالات قربها الاتني أيضاً) من المناطق (الجنوبية، الشرقية أو الغربية) الأخرى. إن التوحيد العرضاني للشمال سيساعد على تطويره الثقافي ـ الاقتصادي لكنه سيعوّق إقامة المنطلقات الأساسية من أجل الاستقلالية الاستراتيجية والسياسية المحتملة. مثل هذه البنية فقط يمكن أن تحل مشاكل **المركز ـ الأطراف** على الأساس الإيجابي الأقصى من وجهة النظر الجيوبولتيكية.

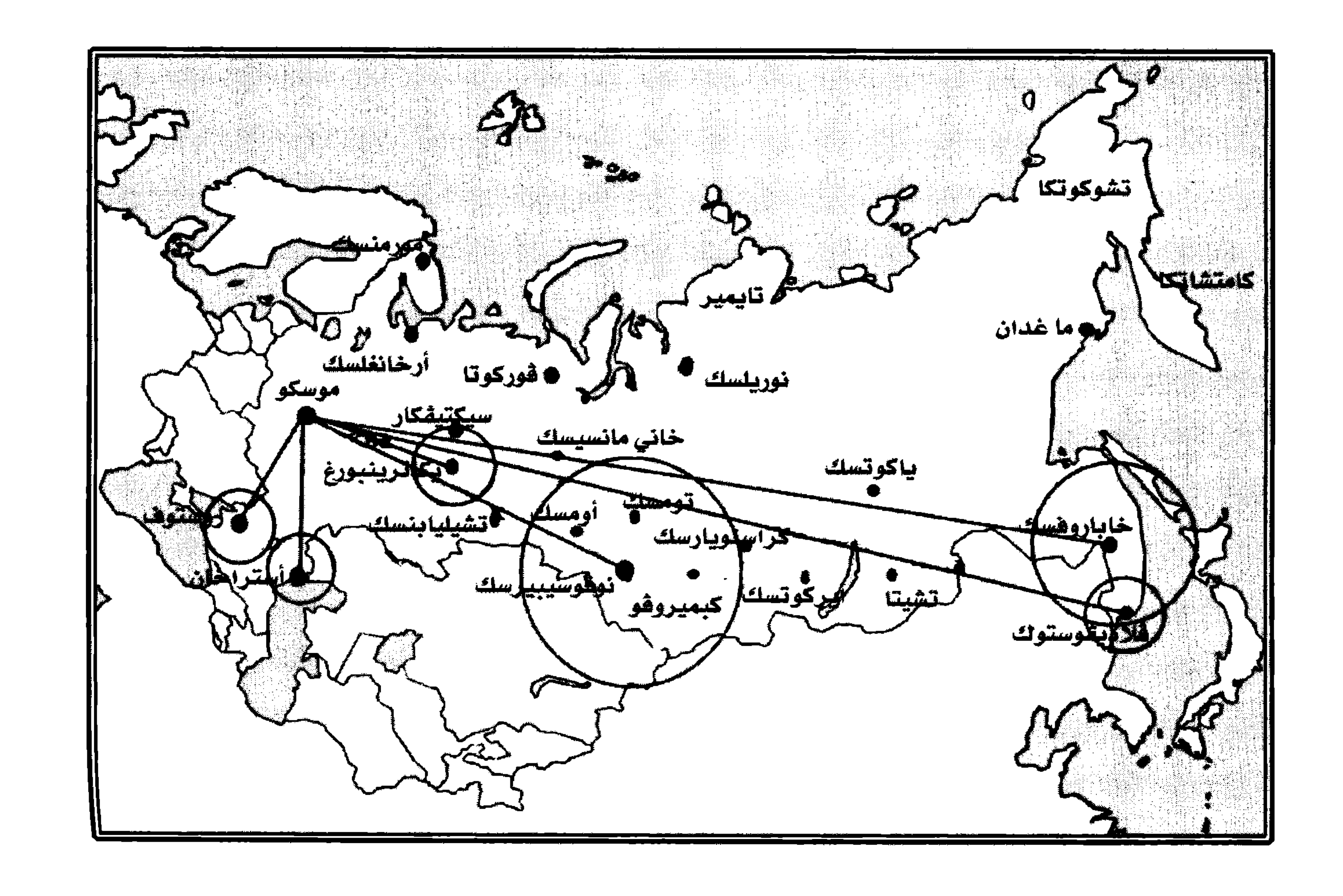
2 ـ 5 المسألة الفنلنديّة

إن المشكلة الدولية الوحيدة المرتبطة **بالشمال** الروسي هي مشكلة كاريليا (وفنلندة). فالاتنوس الكاريلي قريب من الفنلندي، ويرتبط به بوحدة ثقافية ـ تاريخية. وإذا انطلقنا من منطق التكامل العرضاني بدت المسألة الكاريلية للوهلة الأولى شذوذاً. ومن الممكن أن تقدم هنا مقاربتان.

تتمثل الأولى بإسقاط صفة الإطلاق جيوبولتيكياً على الحدود الكاريلية ـ الفنلندية، والعرض على جمهورية كاريليا التكامل وفق محور **الشمال ـ الجنوب** مع المناطق الروسية الأصيلة حول بحيرة أونيجسك، لادوغا. وهذا الخط من التطور مناف للطبيعة ولا ينبغي الركون إليه إلا في أسوأ الحالات، لأن التمزيق المصطنع للوحدة الاتنية وفق خط إداري لحدود سياسية صرفة لا يمكنه أبداً أن يعطي الثبوتية الجيوبولتيكية للمنطقة. ويزداد الأمر عمقاً أيضاً بكون الحدود الكاريلية ـ الفنلندية



تشوكوتكا
تايمير
ماغدان
نوريلسك
فوركوتا
خانتي مانسيسك
موسكو
ياكوتسك
يكاترينبورغ
تومسك
كراسنويارسك
أومسك
إركوتسك
نوفوسيبيرسك
كيميروفو



تشوكوتكا
كامتشاتكا
مورمنسك
تايمير
ما غدان
أرخانغلسك
فوركوتا
نوريلسك
موسكو
سيكتيفكار
خاني مانسيسك
ياكوتسك
تومسك
أومسك
تشيليابنسك
كراسنويارسك
خاباروفسك
أستراخان
كبميروفو
تشيتا

تمثل تضريساً غابيّاً ومستنقعياً سهل الاختراق ويمتد على مسافة مهولة، وحماية مثل هذه الحدود بطريقة موثوقة أمر على غاية الصعوبة، جسيم ومكلف.

ويفترض الحل الثاني إقامة منطقة كاريلو ـ فنلندية جيوبولتيكية واحدة ثقافياً وإلى حد ما اقتصادياً لكنها تمثل دعامة استراتيجية للمركز الأوراسي. ويوجد في اللغات الأوروبية مصطلح «الفنلدة» الذي ظهر في مجريات الحرب الباردة. ويقصد به دولة محايدة من الناحية الاسمية ذات اقتصاد رأسمالي لكنه يميل، من الناحية الاستراتيجية إلى الاتحاد السوفياتي أي إلى الـheartland. وفنلندة كدولة تمثل تشكلاً على درجة عالية من اللااستقرار بعيد عن الاكتفاء الذاتي، ويدخل بصورة طبيعية وتاريخية في المدى الجيوبولتيكي لروسيا. وقد برز ذلك عبر أكثر مراحل التاريخ تنوعاً. ويمكن للمركز أن يذهب إلى الاستقلال الذاتي الواسع للاتحاد الكاريلو ـ فنلندي الواسع بشرط واحد وهو السيطرة الاستراتيجية على خليج بوتنيسكا(*) وتوزيع قوات الحدود الأوراسية على الحدود الفنلندية ـ السويدية والفنلندية ـ النرويجية. فيتقلص امتداد الحدود إلى النصف؛ كما أن الحدود الفنلندية ـ السويدية والفنلندية ـ النرويجية أقل تجانساً بكثير وأقل طواعية للاختراق من الحدود الكاريلية ـ الفنلندية. يضاف إلى هذا أنه كان بمقدور روسيا أن تحقق رقابتها على البلطيق من **الشمال**.

المقاربة الثانية، وتعد المفضلة في جميع الحالات، وهذا التكتيك وحده يجب أن يستخدم من طرف المركز القاري في جميع المناطق المتداخلة اتنياً وثقافياً على حدود الدولة. فالوحدة الاتنية المتكسّرة تعني بصورة آلية زعزعة استقرار المنطقة الحدودية ولا ثبوتية الحدود. وسيحاول الخصم الأطلسي عاجلاً أم آجلاً أن يتسلح بهذا الظرف لكي يجعل التكامل الاتنوغرافي لمصلحته ـ أي تعزيز السيطرة على الـrimland وإضعاف الـheartland. ولهذا على القوى القارية أن تستخدم بفعالية وهجومية مثل هذا التكتيك وألا تخشى التنازل عن الحرية الثقافية وحتى الاقتصادية

(*) خليج بوتنيسكا: بالسويدية Botniska، بالفنلندية Pohianlahti خليج في الجزء الشمالي من بحر البلطيق، بين السويد وفنلندة بطول 668 ك م وعرض يصل حتى 420 ك م وعمق حتى 290 مترا. يتجمد شتاء أهم الموانىء عليه: ڤاسا، أولو، بوري، لوليو وسونداڤال. (المترجم).

للشعوب الحدودية تعويضاً عن الوجود الاستراتيجي والولاء السياسي.

وعندما يتعذر الوصول إلى الحدود الثابتة عن طريق التوسع الحربي والسياسي ينبغي استخدام مثل تلك الصورة البينية المرنة التي تستخدمها التالاسوكراتيا بصورة دائمة وبنجاح وبمعنى معاد للأوراسية.

2 ـ 6 الشمال واللاشمال

إن الخصوصية الجغرافية للساحل القطبي للأوراسيا الروسية توصل مشكلة علاقات مناطق الشمال بالمناطق الأخرى إلى معادلة **الشمال** الأكثر تبسيطاً، وذلك لأن مشاكل خطوط العرض (والمتعلقة **بالجنوب** بالذات) لا تظهر إلا في حالة كاريليا. والاستثناء الوحيد هو مشكلة ياقوتيا التي تقف منفردة هنا، لأن لدى ياقوتيا تقليداً بالانفصالية السياسية، التقليد الذي، وإن كان مفتعلاً إلى حدود بعيدة، لكنه موثّق تاريخياً. وهذا الأمر ينعكس أيضاً في تصنيف ماكيندر المتأخر للأوراسيا حيث استثنى الـ«Lenaland» أو «أرض نهر اللينا»(*) أما ياقوتيا (ساخا) فتمثل محور تلك المنطقة الممتدة من بحر لابتيف وحتى منطقة آمور فالألتاي في الجنوب، لكن حالة ياقوتيا تستحق دراسة خاصة.

فلنبدأ بالقسم الغربي من «شبه المنحرف الشمالي». تتميّز هنا جزيرة كولسكي ومورمنسك وجمهورية كاريليا. وهذه بمجموعها تمثل مع فنلندة قطاعاً جغرافياً وجيوبولتيكياً موحداً كان الأكثر فعالية أن يتكامل ضمن نظام مستقل مكتمل يمكن أن تلعب فيه منطقة مورمانسك ومورمانسك نفسها أفضلية استراتيجية. ومهمة المركز الحربي للقرارات، وبينما يميّز للمدى الكاريلو ـ فنلندي باستقلال ثقافي ـ اقتصادي واسع. وفي هذه الحالة كان يمكن توسيع منطقة مورمانسك على حساب

(*) نهر لينا: نهر في سيبيريا الشرقية. طوله 4400 ك.م. مساحة سريره مليونان وأربعمئة وتسعون ألف ك.م2. يبدأ من سلسلة جبال البايكال ويصب في بحر لابتيف حيث يشكل دلتا باتساع ثلاثين ألف ك.م2 تقريبا. أهم روافده ـ فيلوي ـ من اليسار، كيرينغا، ڤيتيم، أوليوكما وألدان ـ من اليمين. صالح للملاحة بدءا من اوست ـ كوتا. أهم الموانىء عليه: اوسيتروڤو، كيرينسك، لينسك، أوليوكمينسك، بوكروفسك، ياكوتسك وسانغار. وهو مصدر لصيد الأسماك. (المترجم).

المناطق الشمالية من فنلندة ـ ولابلانديا الفنلندية. وكان يمكن للتوازن بين مورمانسك (إسقاط موسكو الاستراتيجي) والمدى الكاريلو ـ فنلندي أن يكون التعبير الملموس للبناء الأوراسي للقارة ـ المثال على «الفنلدة الجديدة» في الشروط التي تكونت بعد نهاية «الحرب الباردة».

أما التحرك التالي نحو جنوب هذا التكتل فسنناقشه في الفصل المخصص **للغرب** الروسي. ولا بد من الإشارة إلى أنه مهما كانت الحالة فإن المحور الاستراتيجي المؤسس في هذه الحالة سيكون محور مورمانسك ـ موسكو.

ويلي بعد هذا: إقليم أرخانغلسك. وهنا ينبغي القيام باستثناء عن القاعدة العامة وأن نميّز أهمية التكامل لا وفق خطوط عرض **الشمال ـ الشمال** بل وأيضاً وفق خطوط الطول. والقضية هي أن أرخانغلسكي ممتدة بصفة صارمة فوق الجزء المركزي ـ الأوروبي من روسيا، وعليه فإن نفس فكرة الاستقلال المحتمل لهذا القطاع العمودي ـ من البحر الأبيض وحتى الأسود ـ لروسيا مستثناة في عمومها لأن هذه المنطقة هي روسيا ذاتها. ولهذا فإن أرخانغلسك واقليم أرخانغلسكي يوجدان في ذلك الموقع الاستراتيجي الذي يستجيب أكثر من كل شيء لمبدأ التكامل الاستراتيجي **للشمال** وفقاً لمصالح **المركز**. ومحور موسكو ـ أرخانغلسك هو الوحيد بين مجموع طيف «الأشعّة الجيوبولتيكية» الداخلية الذي لا يمثل ببساطة مجرد بناء عسكري ـ استراتيجي. وهنا لا بد من التوصل إلى الحد الأقصى من التكامل المتنوع الخطط بدءاً من الجنوب وحتى موسكو. ومن محاولة إيجاد انتقال انسيابي (بصفة نسبية) من المناطق الكثيفة السكان في منطقة فولغاغودسك وحتى مستوطنات بوموريه ذات الكثافة الصفرية. إن نزوح السكان الروس نحو **الشمال** وعمليات إعماره وتطويره واستصلاحاته الناشطة، يجب أن تبدأ بالذات من أرخانغلسك. وهذا الميناء الأضخم يقوم في الموقع الأكثر امتيازاً بالمقارنة مع كافة النقاط المأهولة بالسكان في **الشمال**، ولهذا فإن من الأكثر منطقية اختيار أرخانغلسك بالذات على أنها «عاصمة الميثاق القطبي الشمالي» وتطور محور موسكو ـ أرخانغلسك يجب أن يكون شاملاً وأولوي المرتبة. فبنوعية وديناميكية هذا التكامل الوحيد (من **الشمال** كله) والجاري وفقاً لخطوط الطول ترتبط ثبوتية وفعالية «الميثاق القطبي الشمالي» بأسره.

وبالاتجاه شرقاً نحو منطقة الشمال يدخل تشكلان إداريان هما دائرة نينسكي

ذات الحكم الذاتي وجمهورية كومي. وتكامل هذين المجالين فيما بينهما لا يتضمن أية إشارات خلافية وبخاصة عند احتساب الكتلة السكانية الضعيفة لدائرة نينسكي ذات الحكم الذاتي. والقرب من أرخانغلسك يسمح بالطريقة الأكثر حيوية وأولويّةً تطوير هذه المنطقة ضمن إطار المشروع العام. ويتخذ أهمية خاصة إعمار جزيرتي **الأرض الجديدة** و**أرض فرانس يوسف**. فلهاتين الأرضينَ القطبيتين أهمية استراتيجية عظمى في سياق المواجهة بين القارات. إنها الأراضي الروسية الأقرب إلى القطب وبالتالي إلى الولايات المتحدة والتي تستخدم كقواعد حربية ـ استراتيجية. ومثلما هو الأمر بالنسبة لحالة كاريليا ومورمنسك فإن الأراضي الأكثر تطرفاً إلى الشمال تراقب بصفة خاصة من طرف العسكريين بينما المناطق الأكثر جنوبية تتميز بإدارة مدنية أكثر تطوراً. وللمنطقة بأسرها مركز فيركوتا التي تنتهي إليها المواصلات الأساسية وطرق الاتصال.

وفيركوتا ـ مركز صناعي واستراتيجي ضخم يقوم غير بعيد عن دائرة يامالو ـ نينسك حيث لا يوجد مركز يضاهيها في حجمه. وعليه فقد كان بوسع فيركوتا أن تسيطر على المساحة الهائلة لشطآن البحر الكاري حتى مصب الينيسيّ(*) وحوض مصب نهر أوب(**). وفي هذه المنطقة تقترب دائرة يامالو ـ نينسك جغرافياً من

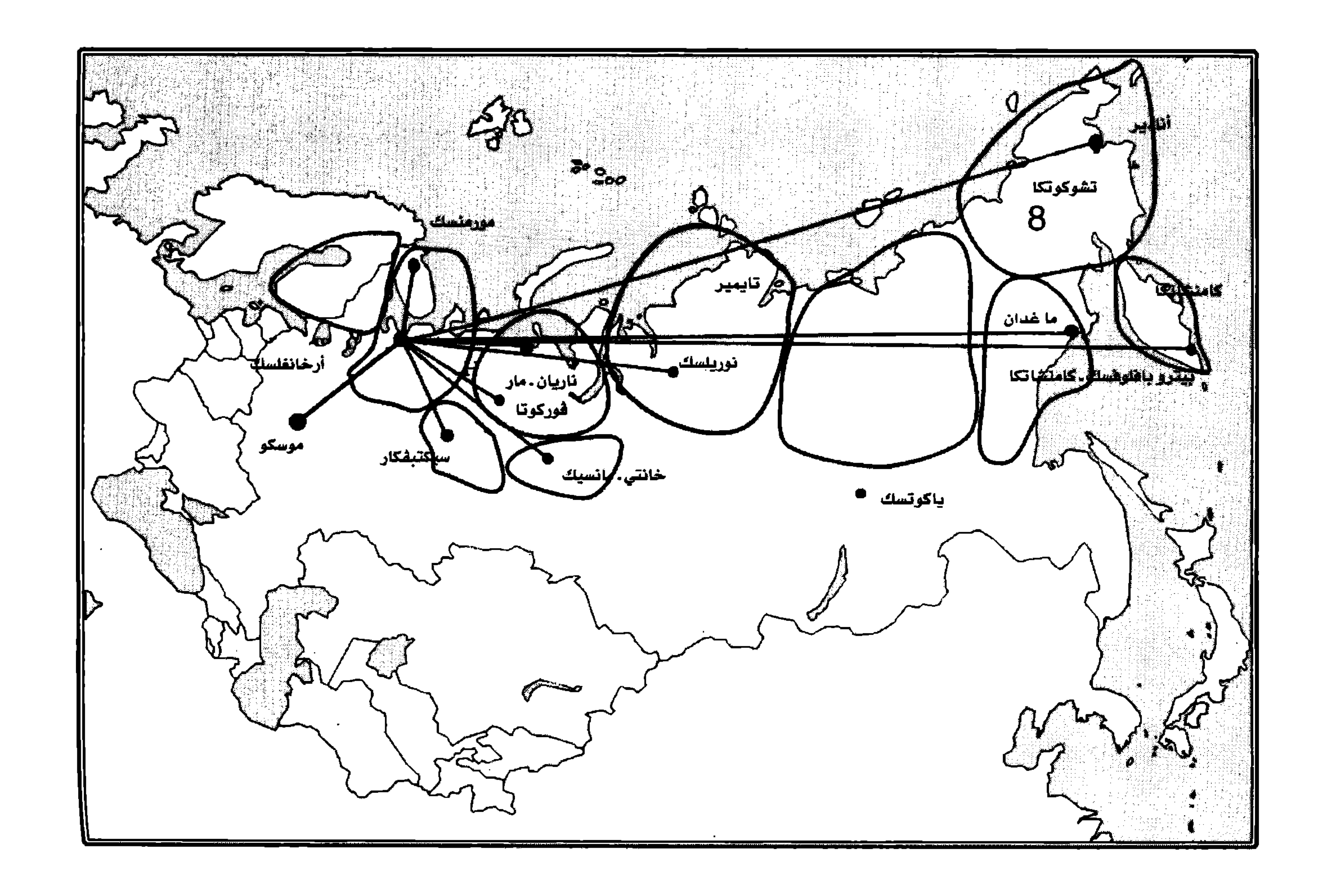
(*) ينيسيي: نهر في سيبيريا، يتشكل من التقاء نهري (بي ـ خيم الكبير) و (كا ـ خيم الصغير) عند مدينة قيزيل. طوله 3487 ك. (ومع رافده كا ـ خيم الصغير 4102 ك م) مساحة سريره مليونان وخمسمئة وثمانون ك م2. ويصب في خليج ينيسي في بحر كارسكوي، وهو أغزر أنهار روسيا مياها (100،19 م3 ـ ث). أهم روافده ـ أنغارا، بوكامينايا تونغوسكا، نيجنايا تونغوسكا، صالح للملاحة بداية من سايانو غورسك، وتصل السفن البحرية فيه حتى ايغارسكا. مصدر للأسماك. أهم المدن الواقعة عليه: مينوسينسك، كراسنويارسك، ينيسيسك، ايغاركا ودودينكا. (المترجم).

(**) أوب: نهر في سيبيريا الغربية. يتشكل من التقاء نهري كاتونيا وبيا في الألتاي. يصب في خور بحر كارسكويه مشكلا دلتا تزيد مساحتها على أربعة آلاف ك م2. طوله 3650 ك م (5450 ك م. من منبع ايرتيش). مساحة سريره مليونان وتسعمئة وتسعون ألف كيلو متر مربع. وهو في معظمه نهر سهلي. أهم روافده ـ ڤاسيوغان، يوغان الكبير، ايرتيش، سوسغا من الشمال وتشوميتش، توم، تشوليم، كيت وتيم ڤاخ من اليمين. مصدر للأسماك. صالح للملاحة. أهم المدن عليه ـ بارناؤول، نوڤوسيبيرسك، نيجنيڤارتوفسك، سورغوت وساليغارد. (المترجم).

دائرة خانتي ـ مانسيسك وتدخل كلتاهما في قطاع جيوبولتيكي واحد.

وتجدر الإشارة بصفة خاصة إلى أن الحدود الجنوبية «لشبه المنحرف الشمالي» في حالة جمهورية كومي ذات أهمية جيوبولتيكية خارقة للعادة. فالعمليات التكاملية في هذه المنطقة من شمال الأورال مضافة إلى بقية الأورال (والبوفولجيه الشمالية) ليست في هذه الحالة، قليلة الجدوى فقط، بل وهي، بصراحة، ضارة، لأن تتارستان واقعة إلى مدى أبعد نحو الجنوب الغربي. (بعد دائرة كومي ـ بيرمياتسك) والميول الانفصالية فيها ذات تاريخ طويل. ولما كانت تتارستان واقعة في وسط الأراضي الروسية فإنها لا تمثل خطراً في حد ذاتها ولكن في جميع الحالات المشابهة فإن «المنطق الانفصالي» يجبر على البحث عن مخرج نحو البحار أو الأراضي الأجنبية وأي نوع من العمليات التكاملية وفق الخط الطولي يمكن أن يكون، عاجلاً أم آجلاً، على غاية من الخطورة. وتجب العودة هنا في طريق معاكس (لما كان عليه الأمر في منطقة أرخانغلسك) وأن نحاول إلى الدرجة القصوى إقصاء المنطقة الأورالية الشمالية، والقطاعات المجاورة لها إلى الشرق والغرب، عن حوض الفولغا والأورال. وينبغي في هذه الحالة أن يكون «شبه المنحرف الشمالي» مقصياً بشكل صارم عن مجموع المدى القاري الممتد في الجهة الجنوبية.

على مدى أبعد إلى الشرق تمتد أراضي حوض اليينيسي التي تتوافق، من الناحية الإدارية، مع دائرتي تايميرسكي وايفينكيسكي، ذاتَيْ الاستقلال الذاتي، ومع الجزء الشمالي من إقليم كراسنويارسك ـ إقليم تورخانسكي سابقاً. وفي هذه المنطقة تتميز نوريلسك التي يمكن أن تحدَّد مركزاً لمجموع هذه الناحية المترامية الأطراف. وفي هذه الحالة لا تستثنى ديناميكية خطوط الطول وفق محور شمال ـ جنوب لأن سيبيريا الجنوبية من أومسك إلى البيكال مأهولة بكثافة من طرف الروس ولا يمكن للتكامل في هذا الاتجاه أن يهدد بأي خطر. وهذا التكتل يمتد بكامله على مساحة بينية حيث تنتهي منطقة ذات كثافة سكانية تتراوح نسبتها بين الأكثر والأقل وتبدأ بصفة خاصة «Lenaland» ماكيندر، «أرض اللاأحد»، وهذه المنطقة وجميع المناطق الأكثر تطرفاً تمثل صحراء قارية هائلة، التوندرا العديمة الحياة في الشمال والتايغا، التي لا يمكن اختراقها، من الجنوب. إنها «المدى المحتمل». وقد تم إعمارها من جهة الجنوب على أيدي الروس والشعوب التركية


مورمنسك
تشوكوتكا
8
تايمير
ما غدان
نوريلسك
ناريان - مار
فوركوتا
أرخانقلسك
موسكو
ياكوتسك

ـ المنغولية القديمة ذات الثقافة السياسية المتطورة نسبياً. إلا أنها تمثل الـno man» «land في أقصى الشمال. ومثل هذا الوضع لا يمكن تبديله سريعاً وبضربة واحدة، وبناء على ذلك فإن المنطقة الهائلة الأبعاد، ومركزها نوريلسك ستبقى ردحاً معيناً من الزمن تمثل «الحد الداخلي» لروسيا القارية في الشمال ـ الشرق، المخفر الأمامي الاستراتيجي **للمركز في الشمال**. ومن الناحية المنطقية يؤدي هذا إلى ضرورة تطوير نوريلسك بالذات والتي تتمتع بأهمية جيوبولتيكية على درجة فائقة من الأهمية. فبها تناط مهمة السيطرة على تايمير وجزيرة **الأرض الشمالية** في الشمال وعلى حوض اليينيسي في الجنوب. وفضلاً عن ذلك يجب أن تبدأ من عند هذه النقطة منطقة يبسط المركز عليها سيطرة ضيقة التوجه أقل اتساعاً وأكثر من مستوى الصغر على «**شمال** الشرق الأقصى» من الأوراسيا، على الـLenaland.

وLenaland ماكيندر تتضمن ياقوتيا، تشوكوتكا، كامتشاتكا، إقليم ماغدان، إقليم خابارفسك، منطقة أمورسكايا وإقليم بريموريه، جزيرة ساخالين وجزر الكوريل. والمدى بمجموعه ينقسم إلى منطقتين جيوبولتيكيتين ـ جزء من «شبه المنحرف الشمالي» من جهة وياقوتيا الجنوبية وبريموريه، وإقليم بريموريه والنصف الجنوبي من إقليم خاباروفسك من الجهة الأخرى. والمجالان من الناحية النوعية مختلفان كل الاختلاف. فالجزء الجنوبي، وبخاصة سواحل أوخوتسك وبحر اليابان مأهولة بكثافة من الناحية النسبية ولها تقاليدها السياسية العريقة وهي موطن حياة اتنوسات أوراسية فعالة إلى حد كبير. أما من ناحية التطور التقني، وبالمعنى المناخي في الوقت نفسه، فإن هذا القطاع الجنوبي يمثل امتداداً **لسيبيريا الجنوبية**.

النقيض الكامل هو القسم الشمالي من الـLenaland. وهي المنطقة الأدنى تطوراً و«الوحشية» من الأوراسيا، وهي طبقة هائلة من اليابسة وفي حالة جنينية من الخدمات العامة، خالية عملياً من السكان. والمركز الكبير الوحيد في المنطقة كلها هو ماغدان، لكنه يمثل ميناءً قليل الارتباط بالآماد القارية غير المأهولة لكوليما وياقوتيا الشمالية. كما أن أنادير في تشوكوتكا لا تعد مركزاً بالمعنى الكامل للكلمة وهي غير مرتبطة بالقارة. وهذا القطاع جزء مستقل من اليابسة محمي حماية رائعة بالحدود البحرية يتضمن عدداً كبيراً من أنواع الخامات الأولية لكنه بعيد في الوقت نفسه عن أي شكل من أشكال التطور، غير معمور وموجود في حالة الاحتمال. إنه جزء من سيبيريا وقد حُمل إلى خارج إطار التاريخ وبه بالذات وإلى حد بعيد

ترتبط نبوءة شبنغلر المستقبلية المتعلقة بـ«الحضارة السيبيرية القادمة». فهذا القطاع الفريد من **العالم القديم** الذي لم يقل كلمته بعد في تاريخ الحضارات والذي لم يستعرض بأي صورة مهمته الجيوبولتيكية.

مثل هذا اللاّتطور الذي يسم هذه المنطقة يفسَّر على أساس ما يسمى «بالنظرية البوتاميّة للحضارة» والتي بموجبها يجري التطور الثقافي للمنطقة بوتيرة أسرع بكثير عندما تتوضّع سرر الأنهار الأساسية فيها بكيفيّة لا يوازي أحدها الآخر بل تتقاطع فيما بينها. وسيبيريا (وبخاصة الشرقية) ـ هي التوكيد لهذا المبدأ لأن جميع الأنهار الكبرى فيها تجري في اتجاه واحد دون أن تتقاطع، إلا أن التأخر في التطور لا يعد طابعاً سلبياً محضاً. فالتخلف التاريخي يساعد (تأسيساً على التفسير العقلاني لتاريخ المناطق والقوميات الأخرى) على تراكم التجربة التاريخية الأهم. وهذا ما يمكن أن يصبح ضمن شروط محدَّدة ضمانة انطلاقة لا مثيل لها.

النصف الشمالي من الـLenaland يفترض، من وجهة النظر الجغرافية المحضة، النظر إليه على أنه مجمّع جيوبولتيكي واحد. وهنا يطرح نفسه سؤال على غاية من الأهمية. حول أي مركز يمكن أن يصاغ هذا التشكل الجيوبولتيكي القادم؟ وأي توجه سينهج؟ إن حقيقة تشكّك ماكيندر المتعلقة بمشروعية أن تنسب الـLenaland أو لا تنسب إلى «المحور الجغرافي للتاريخ» كافية لتشير إلى إمكانية وجود الحلول البديلة للوضع. وكان هذا كافياً لتُختص الاستراتيجية القارية لهذا القطاع باهتمام خاص.

من الواضح أن المهمة في صيغتها العليا هي إدخال هذه المنطقة في «المثياق القطبي الشمالي» تحت إشراف المركز (موسكو) وإنشاء علاقة متبادلة مع المراكز الأخرى الثانوية في الحزام الشمالي. بيد أن عقبتين تظهران هنا وهما:

1 ـ افتقار مركز هذه المنطقة إلى وجود أي نقطة استراتيجية كبرى تصلح لإنشاء نظم تكاملية حولها.

2 ـ الوضع المحوري لياقوتيا (جمهورية ساخا) في هذه المنطقة وهو ما يزداد تعقيداً بوجود «الانفصالية» المغروسة تاريخياً في أعماق الياقوتيين وإن كان ذلك بصفة اسمية.

وفي هذه الحالة تتخذ علاقة النصف الشمالي «لشبه المنحرف القطبي

الشمالي» مع الجنوب طابعاً دراميا حقاً ولأول مرة لأن ياقوتيا تتمتع بذلك التوضع الاستراتيجي التي يفرز كل المنطلقات لتحويلها إلى منطقة مستقلة لا علاقة لها بموسكو. وهذا ما يتوفر أيضاً بفضل الخط الساحلي الممتد وبفضل البنيوية الترابية للجمهورية على أساس خطوط الطول وانقطاعها التقني عن المناطق السيبيرية الأخرى. ووفقاً لجريان محدَّد للظروف يمكن لياقوتيا بالذات أن تكون القاعدة الأساسية للاستراتيجية الأطلسية والتي تعيد التالاسوكراتيا، انطلاقاً منها، ترتيب شاطىء المحيط الهادي للأوراسيا وتحاول تحويله إلى rimland كلاسيكية خاضعة «للقوة البحرية». إن اهتمام الأطلسيين المتعاظم بمنطقة المحيط الهادي وتخصيص ماكيندر المعبّر، حتى أفصح حدود التعبير، للـLenaland كنوع له خصوصيته، ثم ادخال هذه المنطقة في منطقة الـrimland على خرائط الأطلسيَّيْن سبيكمان وكيرك - كل هذا يبرهن على أن القوى المعادية ستحاول، لدى سنوح الفرصة الأولى، الخروج بكل هذه المنطقة الضعيفة الارتباط بالمركز من تحت السيطرة الأوراسية.

وانطلاقاً من ذلك ينبغي اتخاذ الاجراءات التالية:

1 - التقليص بصورة حادة من السيادة السياسية لياقوتيا بصفة قانونية.

2 - تقسيم ياقوتيا إلى منطقتين أو عدة مناطق، والأهم إزاء ذلك قطع المنطقة المجاورة لبحر لابتيف. والبحر السيبيري الشرقي إدارياً عن السرير القاري لنهر لينا. ومن المهم أيضاً توسيع المنطقة التي تفصل حدود ياقوتيا عن ساحل المحيط الهادي حتى الحدود القصوى وتعزيز السياسة الاستراتيجية على هذه المناطق الساحلية.

3 - بسط السيطرة الحازمة الخاصة لممثل موسكو على مجموع هذه المناطق.

4 - تنظيم تكامل ياقوتيا الصناعي - المالي مع المناطق غير الياقوتية، جعل المنطقة مرتبطة حتى أقصى الحدود **بالمركز** أو بأنداده في **شمال أو غرب** سيبيريا.

والخطوات المشار إليها تفترض هذه الإعادة لتنظيم المنطقة التي من شأنها أن تقيم هنا بناء جيوبولتيكياً جديداً كل الجدة - مركز جديد وعلاقات شعاعية الصورة. وبكلمة أخرى ينبغي، ودون انتظار لاعادة تنظيم الـLenaland وفق السيناريو الأطلسي، وما دامت هذه المنطقة ضمن ملاك روسيا، الانتقال دون تأخير إلى بناء الـLenaland القارية على الطراز الأوراسي.

ولمشكلة العلاقة بين **الشمال والجنوب** حل خاص بالنسبة لهذا القطاع ـ فهنا لا ينبغي قصْر العلاقات على هذا القطاع بل إعادة تنظيم مجموع المدى الشمالي من جديد، بقطع مناطقه القطبية والساحلية عن آماد ياقوتيا القارية، وهذه ليست خطوة جيوبولتيكية وقائية فقط بل هجوم جيوبولتيكي، حرب خنادق في سبيل الـLenaland، في سبيل سيبيريا المستقبل ومن أجل مصيرها الأوراسي القاري. ولا يزال ممكناً أن يكون لهذه المسألة معناها القاري الداخلي، ويجب الحيلولة دون أن تتخذ معنى دولياً، وتصبح مادة للسياسة الخارجية.

2 ـ 7 خلاصة

الحزام الشمالي الأوراسي لليابسة والداخل في روسيا يمثل واقعاً جيوبولتيكياً خارق الأهمية، تطّرد أهميته باطّراد نمو الديناميكية العالمية العامة. وتتخذ هذه المنطقة أهمية خاصة من أجل إقرار روسيا لوضعها الجيوبولتيكي الكوني ـ وضع «المحور الجغرافي للتاريخ».

فقط إزاء تعريف الأطلسية والتيلوروكراتيا على أن كلاً منهما الخصم الجيوبولتيكي الأساسي للآخر يكتسب نظام **الشمال** كماله الاستراتيجي الحق. وعند الإعراض عن الاعتراف بالثنائية الجيوبولتيكية على مستوى المبدأ الحربي أو السياسة الدولية يفقد هذا الموضوع معناه على التو. ومن المحتوم آنذاك لا انقراض **الشمال** الروسي فحسب بل ولا مندوحة أيضاً من تفتيته في المستقبل التالي بل ومن فصل بعض الأقاليم عن روسيا.

والإيقاع العام للعمليات الجيوبولتيكية في الوقت الحالي يتمثل في أن مسألة اعادة الترتيب الجيوبولتيكي **للشمال** طبقاً للثوابت يعد أمراً على أعلى مستوى من الفعالية والإلحاح. وحتى من أجل الحفاظ على الأمر الواقع لا بد من البدء، وبأقصى سرعة بإعادة الترتيب الجيوبولتيكي لجميع هذه الأراضي.

مصير روسيا يرتبط ارتباطاً مباشراً بالمصير الجيوبولتيكي للشمال. ويعد هذا القانون قاعدة جيوبولتيكيتها القادمة.

الشمال ـ إنه المستقبل، إنه المصير.

تحدي الشرق

3 ـ 1 «الشرق الداخلي» (حجم المفهوم)

سنستخدم في تحليل المشاكل الجيوبولتيكية **للشرق** الروسي نفس المنهج المستخدم في حالة **الشمال** وسنجزىء المسألة إلى ثلاثة مكونات:

1 ـ **المركز ـ الشرق**.

2 ـ علاقات قطاعات **الشرق** فيما بينها.

3 ـ علاقات هذه القطاعات بالجهات الأخرى وبالمناطق الجيوبولتيكية من روسيا.

ولكن لا بد قبل ذلك من تحديد ما الذي نفهمه من مصطلح **«الشرق الروسي»** كما ينبغي التوكيد فوراً على الفرق بين **الشرق** كمفهوم جغرافي وبين **الشرق** الثقافي، الحضاري، والتاريخي. ففي **الشرق** الثقافي جرت العادة على إدراج جميع أقطار الشمال الأفريقي، الشرق الأدنى، آسيا الأمامية، آسيا الوسطى حتى الباكستان ومنها وصولاً إلى الفيليبين (العالم الإسلامي) والهند هذا بينما جرت العادة على استخدام مفهوم «الشرق الأقصى» على الصين وأندونيسيا بالإضافة إلى منطقة المحيط الهادي. أما من موقع روسيا فهذا كله يمثل من الناحية الجغرافية **الجنوب** الممتد من **الغرب** المغربي البعيد وحتى **الشرق الأقصى** التابع للمحيط الهادي.

من ناحية أخرى، وفي إطار روسيا نفسها يبدو «الشرق» وقائع جغرافية وجيوبولتيكية مغايرة تماماً ـ إنه الأرض المنبسطة من حوض الفولغا بوفولجيه (تاتاريا) عبر الأورال وسيبيريا حتى المحيط الهادي. وهذه الفئة الجيوبولتيكية

يمكن أن تسمى «**الشرق** الروسي» أو «**الشرق** الداخلي». وعند دراسة الجيوبولتيكا الداخلية لروسيا يحسن أن يؤخذ «**الشرق**» من خلال المفهوم الثاني بالذات أي «**الشرق** الداخلي»، الأراضي الجغرافية الممتدة إلى «**شرقي المركز**» (موسكو).

وفي هذه الحالة يدخل القوقاز وآسيا الوسطى تحت صفة «الجنوب» وستتم دراستهما في الفصل المطابق.

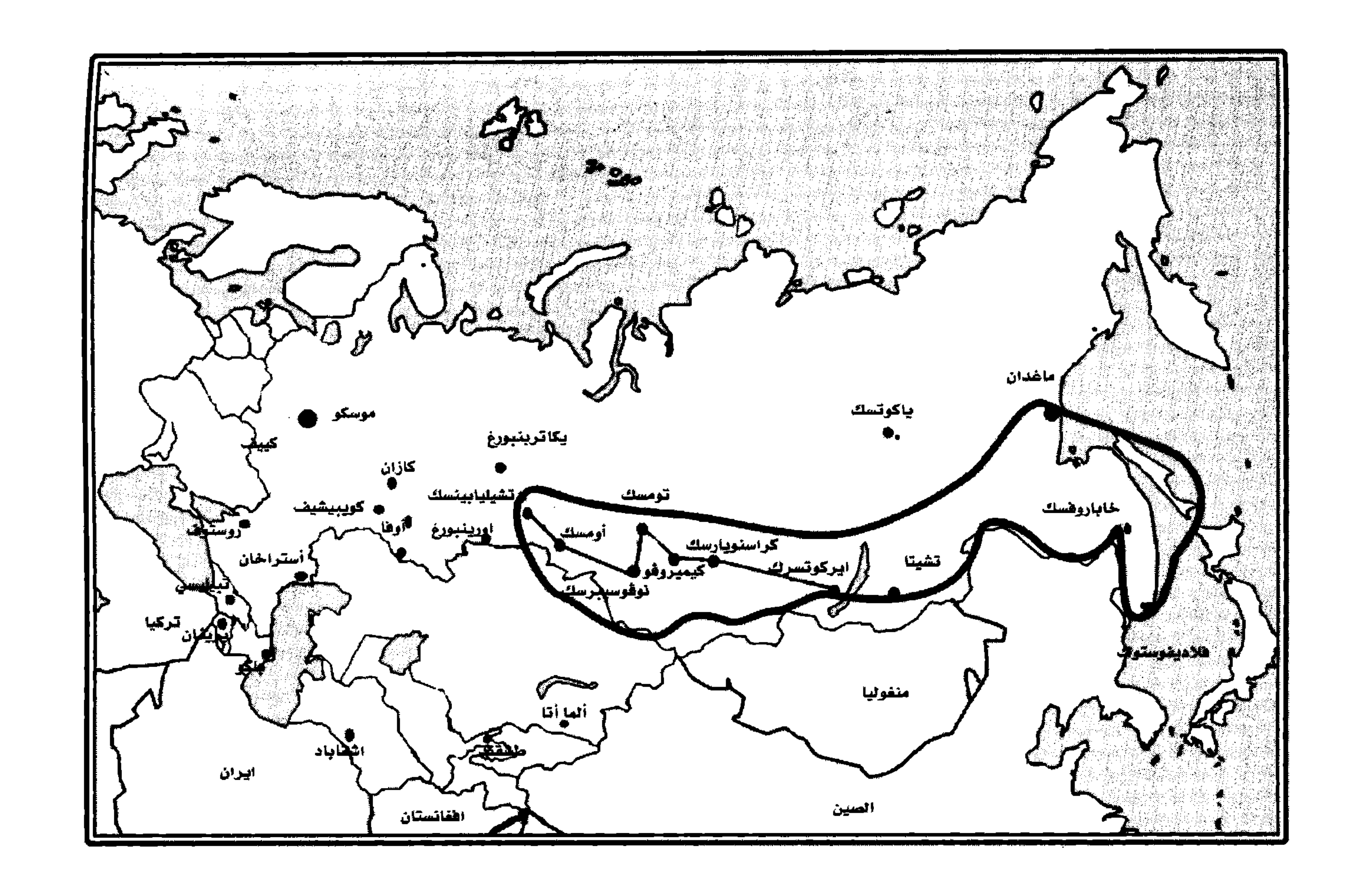
وبالأخذ بالاعتبار أننا ندرس الجيوبولتيكا الداخلية لروسيا كـ«نظام مفتوح» لا يتطابق مع الحدود الإدارية للفيدرالية الروسية انطلاقاً من منهج «الأشعّة الجيوبولتيكية»، فإن تخصيص المناطق الجيوبولتيكية كثيراً ما يتطابق على أراضي الدول المجاورة في حالة ما إذا كانت أمامنا وحدة جيوبولتيكية، اتنية وجغرافية تضاريسية. ولهذا السبب ينبغي أن يُضمَّن «**الشرق** الداخلي» لروسيا الأورال الجنوبي وكازاخستان الشمالية من أكتيوبينسك وحتى سيميبالاتينسك عند خط عرض 50 تقريباً. وفضلاً عن ذلك فإن منغوليا، سينتزيان ومنشوريا تدخلان جيوبولتيكياً في قطاع الجنوب بالنسبة لروسيا. وعليه تقع سيبيريا الجنوبية، الألتاي، توفا، بورياتيا، برياموربيه، وبريموريه (بالإضافة إلى النصف الجنوبي من إقليم خاباروفسك) ضمن شريط «**الشرق** الداخلي» مع المناطق المركزية ـ السيبيرية الواقعة جنوب «شبه المنحرف الشمالي».

وهكذا ينبغي أن نعد «**الشرق** الداخلي» المثلث القائم الزاوية الممتد من كازاخستان والأورال حتى المحيط الهادي.

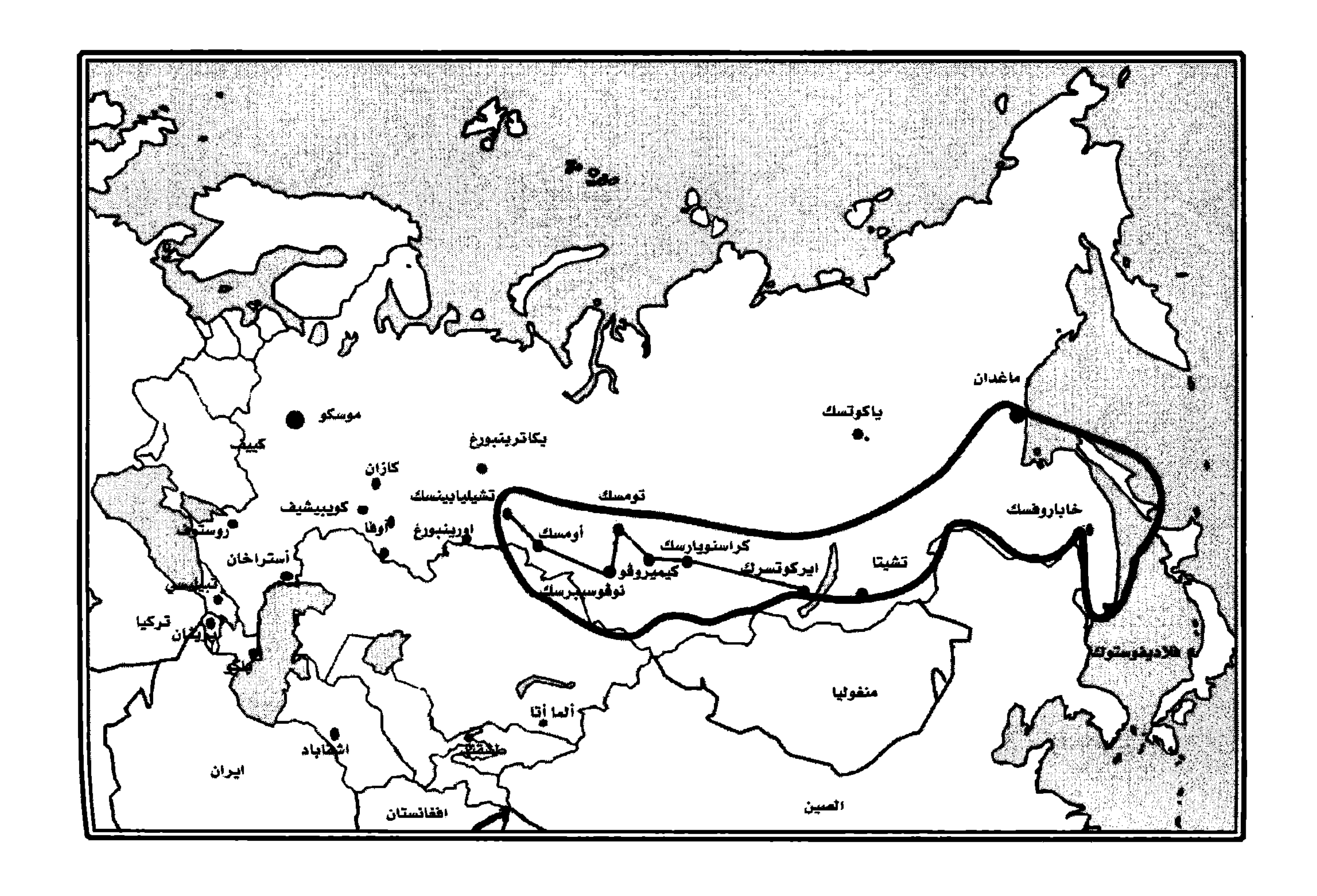
3 ـ 2 حزام «سيبيريا الروسية» (التركيب)

من الناحية المناخية يختلف **الشرق** الروسي اختلافاً كبيراً عن **الشمال**. فهو منطقة مناخ قاري معتدل. وفي حوض الفولغا والأورال، بالإضافة إلى سيبيريا وبريموريه تنبسط المنطقة الغابية. ومن كازاخستان الشمالية وحتى البايكال يمتد اسفين مستدق من السهوب. والألتاي والبريموريه ـ كتلة من الجبال غير المرتفعة. ومعظم المناطق مأهولة بشكل مكثف إلى حد ما وتمثل تضاريس مناسبة للسكنى والاستثمار.

والتركيبة الاتنية **لشرق** الروسيا الداخلي على هذه الصورة: الغالبية العظمى تمثل الروس الذين يعيشون منتشرين في الجمهوريات القومية وبكثافة في غالبية الأراضي السيبيرية. ويمكن تمييز عدد من المناطق الإتنية التي تتطابق بملامحها



موسكو
كييف
كازان
كويبيشيف
أوفا
روستوف
أستراخان
تركيا
ايران
اشقاباد
افغانستان
يكاترينبورغ
تشيليابينسك
اورينبورغ
ألما أتا
تومسك
أومسك
نوفوسيبرسك
كيميروفو
كراسنويارسك
ايركوتسك
تشيتا
منغوليا
الصين
ياكوتسك
ماغدان
خاباروفسك
فلاديفوستوك



موسكو
كييف
كازان
يكاتريتبورغ
كويبيشيف
أوفا
تشيليابينسك
اورينبورغ
روستوف
أستراخان
تركيا
ايران
اشقاباد
افغانستان
ألما أتا
تومسك
أومسك
نوفوسيبرسك
كيميروفو
كراسنويارسك
ايركوتسك
تشيتا
منغوليا
الصين
ياكوتسك
ماغدان
خاباروفسك

العامة مع الدوائر المطابقة ذات الحكم الذاتي والجمهوريات.

في البوڤولجيه تقع تتارستان وهي تشكُّل إتنو ـ قومي متراص يحتفظ بتقاليد استقلاليته السياسية ومنافسته المحدودة مع روسيا. إنها الإقليم الأضعف (من وجهة نظر الحفاظ على تكاملية روسيا) لأن الوعي الذاتي القومي للتتار شديد النمو. أما العامل الأكبر الذي يجعل مشكلة «الانفصالية التترية» مشكلةً ثانوية مع ذلك، فهو التوضع الجغرافي لتتارستان في وسط مدى قاري دون حدود بحرية أو تجاور مع دولة غير روسية، وما دام هذا الوضع الجيوبولتيكي قائماً فهو لا يشكل خطراً على روسيا. إلا أن الموروث التاريخي للتتر يطالب على أية حال باهتمام مشدد نحو تلك المنطقة وبتطبيق سياسة **المركز** نفسها على قازان والتي بفضلها يمكن أن يرتبط النظام الجيوبولتيكي لتتارستان بالجهات الروسية الصرفة (ويمكن أن تكون غير المتلاصقة ترابياً). وعلى العكس من ذلك ينبغي تعويق قيام العملية التكاملية مع بشكيريا، أودمورتيا، موردوفيا وماربيل. ثم إن مما له جدوى التشديد على تقسيم تتارستان بناء على الملامح الثقافية ـ الاتنية. إذ إن التتر اتنوس مركب بناء على عوامل عرقية وثقافية ـ دينية. ومما له معنى أيضاً تشجيع الهجرة الروسية إلى هذه الجمهورية.

والتتار ـ ترك ومسلمون، وهذا ما يجمعهم جزءاً جيوبولتيكيا من العالم التركي ـ الإسلامي. وفي هذا الخصوص يصطدم المركز بمشكلة هي التي تسيطر على مجموع جيوبولتيكية **الجنوب** (وهو ما سيتناوله الحديث في الفصل المخصص لذلك) وقطع تتاريا المطلق عن هذا الواقع غير ممكن لا بطريق الانصهار ولا بطريق العزل الجغرافي الفاعل. ولهذا فإن «المسألة التترية» تدخل بنداً مستقلاً بذاته ضمن مشكلة أكثر اتساعاً هي روسيا والإسلام. والقاسم المشترك بين الحلول الممكنة لجميع الحالات المشابهة هو البحث عن التوازن الجيوبولتيكي لمصالح «المحور الجغرافي للتاريخ» في العالم الإسلامي. والأطلسية في هذا المضمار هي، كما في جميع الحالات ودون استثناء، القاسم المشترك الذي يسمح بتأسيس الحلف الكوني الطويل الأمد. وفي حالة تتارستان يجب التوكيد بصفة خاصة على الطابع القاري الطبيعي للأمة التترية والتي يرتبط تاريخها ارتباطاً وثيقاً بالأوراسيا، وعند مماهاة جيوبولتيكا الأوراسيا مع جيوبولتيكا روسيا في الشروط الحاضرة يغدو الاتحاد الطوعي الواعي ثابتاً

أبعد غوراً من الاختلافات الاتنية ـ الطائفية.

وبشيء من التوسع فإن الدولة الأوراسية ـ روسيا ـ تقوم على أساس الجمع بين العنصرين السلافي والتركي اللذين أنجبا اتنوس روسيا الكبرى الذي أصبح محور «الدولة القارية» المتماهية مع الـheartland. ولهذا فإن هذين الاتنوسين ـ السلاف والترك (+ الأوغْر والمنغول) يغدوان عمادَي الجيوبولتيكا الأوراسية. ومستقبلهما في تطوير التكامل السياسي والاتني، وبناء عليه فإن التشديد على الخلافات الاتنو ـ ثقافية، وبصفة خاصة إضفاء الصيغة السياسية على هذه الخلافات يناقض منطق المصير المشترك للروس والتتر معاً. وينبغي أن يصبح هذا الموضوع محور العلاقات بين موسكو وقازان، ولا يستثنى أن يُطالب لتحقيق ذلك، بإقامة «لوبي جيوبولتيكي خاص» يعبر عن مصالح الأوراسيا من الناحية الجيوبولتيكية (أو ما وراء السياسية) أيضاً.

وهذه التصورات نفسها تقريباً تنطبق أيضاً على بشكيريا الواقعة جنوبي تتارستان. ففيها أيضاً يعيش الاتنوس التركي، الذي يدين بالإسلام. والفارق الوحيد يتمثل في أن النزعة الانفصالية والوعي القومي المتطور ليسا بارزين عند البشكيريين بهذه الصورة التي لدى التتار، الذين كانوا الاتنوس الأكثر فعالية و«تقدماً» في جميع أرجاء حوض الفولغا. ولهذا السبب لا يمكن للعلاقات التترية ـ البشكيرية أن تساعد على الاستقرار الجيوبولتيكي في هذا القطاع من «**الشرق الداخلي**» لروسيا وعلى المركز أن يبذل كل ما في وسعه ليحقق تكامل بشكيريا مع الجهات الأورالية الجنوبية المأهولة بالروس وأن يقطعها عن التوجه نحو قازان. ومما يكتسب معناه في هذه الحال التوكيد على خصوصية الثقافة البشكيرية، على فرادتها، على تميّزها عن الصيغ التركية الإسلامية الأخرى. إن توثيق علاقات تتاريا الجيوبولتيكية مع بشكيريا على درجة بالغة الخطورة بالنسبة لروسيا لأن الحدود الإدارية الجنوبية لبشكيريا تمتد غير بعيد عن كازاخستان الشمالية التي يمكنها (عند التطور الأسوأ للوضع الجيوبولتيكي) أن تصبح من الناحية النظرية جسراً للانفصالية التركية ـ الإسلامية. وفي هذه الحالة يُحْدق بالـheartland أشد الأخطار ـ أن يمزّق بالإسفين التركي (الموالي لتركيا، أي الموالي للأطلسية) وذلك في وسط المدى القاري. وبهذا المعنى فإن توجه تتارستان نحو الجنوب، ومحاولات التكامل مع بشكيريا بل وحتى التقارب بين بشكيريا ومقاطعة أورينبورغ تمثل تقاليد على غاية

من الخطورة يتوجب على سياسة المركز القارية أن تعرقلها بأي ثمن. على بشكيريا أن توَثق أوسع علاقاتها مع كويبيشيف، وتشيليابينسك، أما علاقاتها القائمة وفق خطوط الطول ـ مع قازان وأورينبورغ، فينبغي على العكس من ذلك، إضعافها.

وإلى ما هو أبعد من ذلك، من جنوب الأورال (تشيليا بينسك) وحتى كراسنويارسك يمتد شريط من الأراضي المأهولة بحيوية والمعمّرة من طرف الروس. من الغرب إلى الشرق يرتسم بصورة واضحة المحور الجيوبولتيكي الذي يتطابق ودروب تطويع الروس لسيبيريا: تشيليابينسك ـ أومْسك ـ نوفوسيبيرسك ـ تومْسك ـ كيميروفو ـ كراسنويارسك ـ ايركوتسك. ويمثل هذا الحزام منطقة صناعية متطورة، كما إن مدينة مثل نوفوسيبيرسك تمثل مركزاً ثقافياً ضخماً، أما بالمعنى الاتني فهي منطقة روسية صافية تقريباً. وتتكرر حالة مشابهة في الجانب الشرقي من البايكال، حيث يتركز على امتداد خط المواصلات الرئيسي بايكالو ـ أمورسك من تشيتا وحتى خاباروفسك ثم من بعدها جنوباً نحو فلاديفوستوك، ما يمكن أن نسميه امتداداً لنفس الشريط الذي بدأ في الأورال الجنوبي. والانحراف الوحيد فيه هو بورياتيا التي تطوق البايكال من الشمال وتخرق استمرارية شريط «سيبيريا الروسية» المتجانس في كل ما عدا ذلك.

وإلى الجنوب تماماً من ذلك الشريط الروسي الصرف تمتد منطقة موازية تختلط بنسبة عالية من السكان الترك (والمنغول ـ من ناحية الشرق) وهي تبدأ في كازاخستان الشرقية، ومن أكتوبينسك تصل عبر تلك الأراضي حتى سيميبالاتينسك وأوست ـ كامينوغورسك وتتواصل فوق الأرض الروسية عبر الألتاي (مهد الاتنوس التركي) إلى خاكاسيا، توفا وبورياتيا. ومن الألتاي وحتى زابايكاليه (تشيتا) يحقق هذا الحزام التركي، من الناحية التضاريسية والاتنية إلى حد ما، انتقاله بكل انسيابية إلى منغوليا، التي لا توجد فيها أية حدود جغرافية مرئية في واقع الحال. ومن وجهة النظر الجيوبولتيكية يدخل هذا الحزام التحتي بكامله جزءاً لا يتجزأ في المدى الاستراتيجي «لسيبيريا الشرقية» ولهذا ينبغي النظر إليه على أنه امتداد **«للشرق** الروسي» نحو الجنوب. والاستثناء الوحيد هو ذلك الجزء من الأراضي الصينية (منشوريا الصينية) الممتد من الحدود الشرقية مع منغوليا وحتى نهر أوسوّري(*).

(*) نهر اوسوري: يجري على الحدود بين روسيا والصين. الرافد الأيمن لنهر آمور، =

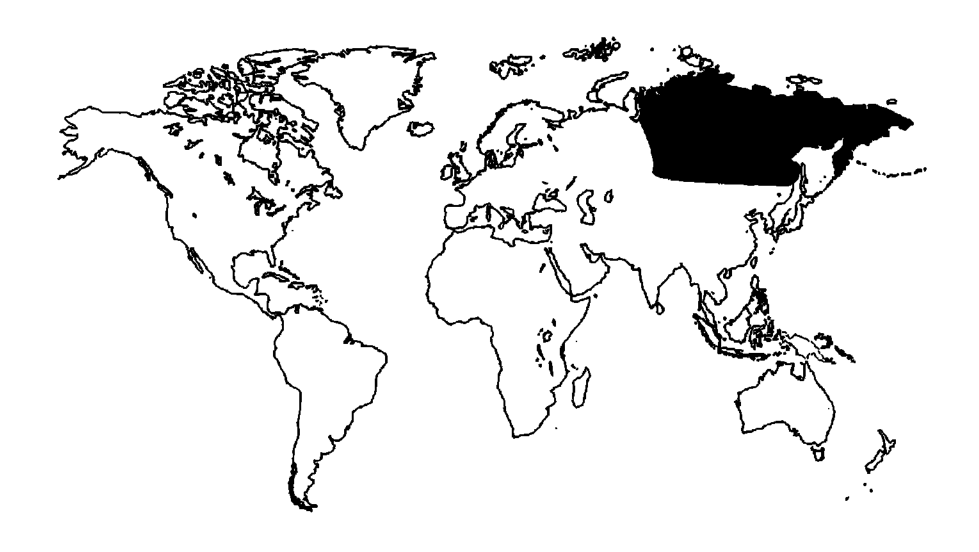
وكان ينبغي له انطلاقاً من المنطق، أن يكون خاضعاً للسيطرة الروسية استراتيجياً وإلا فإنه سيتحول في الحالة المعاكسة إلى ذريعة لصدامات قتالية بين «المحور الجيوبولتيكي للتاريخ» وأراض داخلة جيوبولتيكياً في الـrimland (ولم يكن لدى أي من علماء الجيوبولتيكا أي شك في ذلك قط).

بالنسبة للشريط المذكور من «سيبيريا الروسية» يبدو المبدأ الجيوبولتيكي نفسه عادلاً. فهذا القطاع الترابي بمجموعه لا بد من تكامله بصورة فعالة في ميدان جيوبولتيكي واحد. والتوجه المفضل هنا سيكون التكامل وفق خطوط العرض على محور تشيليابينسك ـ خاباروفسك (يعد المحور القصير خاباروفسك ـ فلاديفوستوك المنظم وفقاً لخطوط الطول امتداداً لهذا الخط ضمن قطاع جيوبولتيكي خاص). ومجموع هذا المدى من الامتداد الهائل يشكل الأفضلية الاستراتيجية لروسيا كدولة أوراسية حقيقية. وبفضل هذا المعبر السيبيري ـ الجنوبي تحقق روسيا إمكانية توثيق ارتباط جهات **المركز** بشدة مع شطآن المحيط الهادي ضامنة بذلك الخط الرئيسي المحتمل من أجل إعمار سيبيريا المكتمل وخروج موسكو النهائي إلى المحيط **الهادي**. وهذا الشريط هو مفتاح الإدارة بالنسبة لكامل الأوراسيا بما في ذلك أوروبا لأن تنظيم الربط القاري من الشرق الأقصى إلى الغرب الأقصى يسمح، من خلال هذه الطريقة بإعادة بناء الواقع الكوني بحيث تفقد السيطرة التالاسوكراتية على المحيطات من الخارج أهميتها المحورية الأساسية. وترتبط موارد سيبيريا في المستقبل المنظور بالتقنيات العليا لأوروبا القارية واليابان المنظورة وعندما يتحقق ذلك تحل نهاية السيطرة الكونية للتالاسوكراتية.

تكامل سيبيريا وفقاً لخطوط العرض (محور تشيليابينسك ـ خاباروفسك) يمثل الامتياز الاستراتيجي الأفضل لدى روسيا فبإعمار هذه المنطقة يمكن أن يبتدىء التاريخ الجيوبولتيكي للمستقبل بأسره وفي هذه الحالة تتحقق نبوءة شبينغلر.

وفي المعنى «الضمني» الأضيق يمكّن تطوير تكامل «سيبيريا الروسية» من توسيع السيطرة الجيوبولتيكية وفق خطوط الطول أيضاً. فالحزام «التركي ـ المنغولي» الجنوبي سيكون مرتبطاً بالأراضي الروسية والمتوضعة أكثر نحو الشمال،

= طوله 897 ك.م مساحة سريره مئة وثلاثة وتسعون ألف كيلو متر مربع. غني بالأسماك. صالح للملاحة بداية من ليسوزافودسك. (المترجم)



بينما يترافق الاستقلال الذاتي الاتنو ـ ثقافي الواسع مع تكامل اقتصادي وسيطرة استراتيجية للمحور الروسي تشيليابينسك ـ فلاديفوستوك. وإلى جانب ذلك ينبغي أن تقحم في هذه العملية التشكلات المختلفة في معناها الإداري مثل كازاخستان، الدوائر ذات الاستقلال الذاتي والجمهوريات الواقعة في أراضي الفيدرالية الروسية، منغوليا، وربما أيضاً بعض مناطق من منشوريا الصينية.

وإلى جانب ذلك فإن خط الطول المشابه يفترض تطبيقه في الاتجاه الشمالي أيضاً حيث لا يختلف الوضع إلا في كون السكان الأصليين غير الروس أكثر تفتحاً بكثير، وأقل تطوراً من الناحية السياسية ولا يملكون التجربة التاريخية للسيادة السياسية، وفي دائرتي خانتي ـ مانسيسك وايفينْسك كما هو الأمر في إقليم خاباروفسك أيضاً، تمتد الحدود القصوى للتوسع الشمالي لشريط «سيبيريا الروسية» في عملية متوازية مع التكامل الداخلي «لشبه المنحرف الشمالي». وهذا التكامل، خلافاً للمهمة المعقدة «لسيبيريا الروسية» (محور تشيليابينسك ـ خاباروفسك) التي لها ثلاثة خطوط للتطور (عرضاني، شمالي وجنوبي) وتصطدم في عديد من الحالات بالصيغ السياسية (والحكومات) التي تكونت وتتمتع باستقلالية ملموسة، يتفرد بطابع عرضاني صاف بسيط. ولهذا ستنمو العمليتان الجيوبولتيكيتان كلاهما،

بايقاع مختلف وهكذا فإن الحدود المحدّدة الناتجة بين تطور «سيبيريا الروسية» في الشمال والتكامل العام «لشبه الشمالي» ستكون مرتبطة بعوامل لا يمكن التنبؤ بها.

جميع هذه الخطوط الجيوبولتيكية للتطور لا تبدو في حقيقتها شيئاً جديداً ومفاجئاً، لأنها لا تبدو إلا امتداداً لعمليات تاريخية واسعة الأبعاد لحركة روسيا باتجاه الشرق وإقرار الدولة الأوراسية. فالطريق الروسي نحو المحيط الهادي لم تولد بالصدفة، كما إن مساحات الإعمار الروسي لسيبيريا تتبع منطقاً جغرافياً واضحاً. وهذا الطريق يتطابق مع الحدود التضاريسية للغابة والسهب واللذين قامت الدولة الروسية على التركيب الجيوبولتيكي بينهما. وعلى «حواشي» الغابات التايغية الشمالية المتلاصقة مع السهب (أو الغابة السهب) كانت تنتقل جموع معمّري سيبيريا الروس، وتستقر في الأراضي الأكثر ملاءمة للسكنى والزراعة. ومن تشيليابينسك إلى البايكال يماثل هذا القطاع التضاريسي اسفيناً مستدقاً، أما من البايكال وحتى «شطآن المحيط الهادىء فهي منطقة مترامية الأطراف من الغابات الشمالية التي تتحول تدريجياً وبصورة غير ملحوظة إلى غابات مدارية، بينما تتنامى في الوقت نفسه نسبة الهضاب والسلاسل الجبلية.

وهذه المنطقة الممتدة من البايكال وحتى مصب نهر الآمور(*) تعيدنا من جديد إلى مشكلة الـLenaland التي كانت قد برزت عندما ناقشنا القطاع الياقوتي من «شبه المنحرف القاري».

3 ـ 3 حرب خنادق في سبيل الـLenaland

على نحو ما كان الأمر بالنسبة لياقوتيا (لدى تحليل جيوبولتيكية الشمال

(*) آمور (بالمنغولية هارا ـ مورين، بالصينية هايلونتسزيان) نهر في الشرق الأقصى يتكون من تلاقي نهري شيلكا وأرغون. ويصب في خور أمورسكي من بحر أخوتسك. طوله 2824 ك م (4440 ك.م بداية من رافد أرغون) مساحة سريره مليون وثمانمئة وخمسة وخمسون ك م2. يقع أكبر قسم منه في روسيا. يستمد مياهه في الأساس من الأمطار الموسمية في الصيف والخريف والتي كثيراً ما تنتهي بالفيضانات الغامرة. أهم روافده زيا، بورّيا، امغول ـ من اليسار وسينغوري وأوسّوري من اليمين. صالح للملاحة. أهم المدن عليه ڤلاغوڤينسينسك، خاباروفسك، كومسومولسك نا ـ أموري، نيكولايفسك نا ـ أموري. مصدر هام للأسماك. (المترجم).

الروسي) فإننا لدى الاقتراب من سيبيريا الشرقية الممتدة شرقي اليينيسي، نصطدم بمَجموعة كاملة من المشاكل الجيوبولتيكية. وبالجري قليلاً إلى الأمام، نلاحظ بأننا سنصطدم للمرة الثالثة بالصعوبات حتى عندما نصل إلى دراسة القطاع الشرقي نفسه من «**الجنوب** الأوراسي».

ومن وجهة النظر الجيوبولتيكية البحتة، يبدأ وراء البايكال التحول الجاد للتضاريس بالمقارنة مع كافة القطاعات الأكثر تطرفاً إلى الغرب من الأوراسيا. وهناك، بين الغابات القارية في الشمال والغابات المدارية (الجبلية) في الجنوب كانت تمتد بصفة مؤكدة مناطق السهوب، وهو ما أقام التناظر الطبيعي مع تمييز المنطقة الوسطى، الدائرة (السهبية) الأولى من بين دوائر الأطراف، والتضاريس الحدودية للغابات والجبال المدارية. وتتواصل هذه اللوحة على الهيئة نفسها من مولدافيا إلى الألتاي، وإلى الجهة الأكثر تطرفاً نحو الشمال يتلاشى الشريط السهبي بكل بساطة. أما في حالة سيبيريا الشرقية فنحن نتعامل مع منطقة تضاريسية جيوبولتيكية جديدة كل الجدة، وتطالب بحلول حاسمة مغايرة. فبصورة موازية «للتحدي» التضاريسي المفاجىء (الانتقال الانسيابي للغابات القارية إلى مدارية على خلفية الجبال والمرتفعات والروابي) تتبدّى أيضاً لوحة اتنوسياسية غير موفّقة إلى حدود قصوى، توفّر المنطقة على عدد من التشكلات القومية الداخلية والخارجية والتي لا يبدو ولاؤها الجيوبولتيكي لروسيا واضحاً. وعلى خلفية الاستيطان الضعيف لكامل منطقة الـLenaland من طرف الروس تغدو اللوحة الجيوبولتيكية مثيرة لأشد ألوان القلق.

أولاً: منطقة بورياتيا، وهي تخترق استمرارية الحزام السيبيري الروسي مندفعة مسافة بعيدة حتى شمالي بحيرة البايكال. والبوريات ـ لاميّون(*)، وقد حاولوا في لحظات حرجة من التاريخ الروسي أن يقيموا فوق أرضهم دولة تيوقراطية ترنو بتوجهاتها نحو منغوليا والتيبت. وهذا في حد ذاته لا يطرح الأسس

(*) اللاميّون ـ اتباع اللاميّة وهي الصيغة التبتية ـ المنغولية من البوذية. تنتشر في بعض المناطق ذات الاستقلال الذاتي في التبت وفي منغوليا الداخلية فنيبال والهند وفي بورياتيا وكالميكيا وتوفا بروسيا. واللاما (وتعني حرفياً الأعلى، الأسمى) وهو الشخصية الدينية العليا لدى اللاميين. (المترجم).

للقلق بعد، لكن مشكلة جديدة تنبثق هنا، وهي الاقتراب الترابي لحدود ياقوتيا الجنوبية من الحدود الشمالية لبورياتيا. والياقوت ينتمون إلى المجموعة التركية وهم متنصّرون إلى حدود معتبرة، إلا أنهم كثيراً ما يحافظون على تقاليدهم الشامانية القديمة وبعض مجموعاتهم تدين باللامية. وعند توفر إمكانية خروج ياقوتيا إلى البحر وإلى حدود بورياتيا مع منغوليا فإن ذلك كله يشكل خطر قيام معسكر جيوبولتيكي محتمل يملك من المقومات لتحقيق استقلالية جيوبولتيكية نسبية تتجاوز ما هي عليه لدى تتارستان أو بعض الشعوب القوقازية الشمالية التي تبدو نزعتها الانفصالية واضحة. فإذا أضفنا إلى ذلك اقتراب سواحل المحيط الهادىء شديدة الضعف من ناحية الاستيطان الروسي فوقها تضاعف الخطر لحساب إمكانية سيطرة التالاسّوكراتية على المناطق الساحلية (أو قطاعات المناطق التي تمثل معابر محتملة من الـLenaland إلى المحيط الهادي). وأخيراً فإن ما يزيد الأمر تعقيداً كون جنوب ياقوتيا لا ينفصل عن الحدود الشمالية الشرقية للصين إلا بشريط رفيع من منطقة آمور، وهو ما يعطي الأساس لفتح ممر جيوبولتيكي من الشطآن الصينية الجنوبية للمحيط الهندي وحتى بحر لابتيف في الشمال.

وجميع هذه التشكلات الجيوبولتيكية المحتملة تثير أشد أنواع التيقّظ فليس ثمة أدنى شك في أن مثل هذه اللوحة لا يمكن إلا أن تكون مغرية، وحتى أبعد الحدود، بالنسبة للاستراتيجيين الأطلسيين، لأن الـLenaland الغنية جداً بالأراضي والموارد والمتفردة، بمعنى الإمكانات الاستراتيجية، تبدو في وضع مكشوف من وجهة النظر الجيوبولتيكية، وإن أي إضعاف للسيادة الروسية على هذه المنطقة يمكن أن يستدعي دون إبطاء افتلاذاً لا يمكن رأبه لقطعة مهولة من اليابسة الأوراسية عن المحور الجغرافي للتاريخ وللحيلولة دون وقوع هذه الأحداث لا يكفي فقط تدعيم الملاك العسكري القائم في الشرق الأقصى أو في البريامورييه، لا بد من اتخاذ خطوات جيوبولتيكية واسعة الأبعاد، لأن الحديث يتناول حرب خنادق محتملة بلا زيادة ولا نقصان. وهذا ما يدفع إلى إيلاء الاهتمام الخاص لما يلي:

1 ـ من المهم تدعيم الوجود الاستراتيجي لممثلي المركز في جنوب ياقوتيا. وهذا ما يتحقق عبر الهجرة الموجهة و«الاستيطان» المنهجي للأراضي من قبل شعوب من مناطق أكثر تطرفاً نحو الغرب.

2 ـ يجب تحقيق الأمر نفسه بالنسبة للأراضي المنبسطة شمالي جزيرة البايكال. في مثل هذه الحال تزداد الحدود الخطرة انفراجاً.

3 ـ من الضروري القيام في الوقت نفسه، وبطريقة مكثفة بإعمار شمالي منطقة ايركوتسك وكل منطقة آمورسكي من خلال تطبيق خطة «الاستيطان» الموجه في هاتين المنطقتين.

وينبغي تعزيز هذه الإجراءات الثلاثة بتدعيم الوجود العسكري في المنطقة المعنية وتفعيل التوسع الاستراتيجي الاقتصادي والتقني نحو الغرب والشرق. وهذا كله مطلوب لتخفيف التضييق الخطير «للحزام الروسي».

4 ـ يجب تفعيل الضغط المشدَّد على الصين الشمالية ـ الشرقية وإجراء ضغط وقائي على هذه المنطقة، إجراء يحذّر من أي طمع جيوبولتيكي للصين في التوسع نحو الشمال.

5 ـ من الضروري تدعيم، وحتى الحدود القصوى، القطاع الممتد بين مدن بلاغوفيشينسك ـ كومسومولسك ـ ناأموري ـ خاباروفسك ديموغرافياً واستراتيجياً من أجل إقامة درع متراص في هذا المكان يحمي من عدوان جيوبولتيكي محتمل تشنه التالاسوكراتية المحتملة (من البحر) والصينية (من البر).

6 ـ ومن المهم تدعيم جميع هذه الإجراءات عن طريق التفعيل الأقصى للعلاقات الروسية ـ المنغولية لأن منغوليا العقيمة والقليلة الجاذبية في علاقات أخرى، تمثل بالنسبة لجيوبولتيكية هذه المنطقة الأرض الأساسية والأهم والوجود العسكري الروسي المكثف على طول الحدود المنغولية ـ الصينية، والقسم الشرقي منها بشكل خاص، يمكن أن يهبط بالمجازفة الجيوبولتيكية لسلخ الـLenaland حتى حدودها الدنيا.

ولنتذكر بأن جيوبولتيكية **الشمال** ما كانت تفترض تركيز جهود خاصة في هذا القطاع إلا من جهة الشمال ومن جهة سواحل المحيط المتجمد الشمالي. فتوحيد كلتا الاستراتيجيتين الجيوبولتيكيتين وتحقيقهما بصورة متوازية يتيح لروسيا وضع الأساس المأمول للمستقبل البعيد، عندما تصبح أهمية هذه الأراضي على درجة من الوضوح تجعل السيطرة عليها أمراً لازماً للأهمية الكونية للأوراسيا.

يجب أن تبدأ منذ اليوم المعركة الجيوبولتيكية على الـLenaland على الرغم

من أن الاهتمام الكبير بهذه المنطقة سيبدأ فيما بعد. ولكننا ما لم نضع إلا الأنموذج الجيوبولتيكي والاستراتيجي منذ البداية فإن حل النزاع بعد أن يكون قد اندلع أمرٌ أشد صعوبة بكثير وربما يغدو ممتنعاً على التحقيق.

في الجيوبولتيكا يتحقق الانتصار في المعارك الأساسية قبل وقت طويل من انتقال هذه المعارك إلى الصيغة العلنية للنزاع السياسي أو الدولي.

3 ـ 4 عاصمة سيبيريا

مشروع تكامل سيبيريا يطرح مسألة المركز الجغرافي لهذه العملية أي مسألة النقطة التي يمكن أن تكون الممثل المفوض لموسكو وراء الأورال وأن تؤدي مهمة الجذب بالنسبة لكافة المناطق الأخرى. ونوفوسيبيرسك تصلح أكثر من غيرها لأداء هذا الدور. فهي ليست ببساطة المدينة الأكبر في سيبيريا كلها فقط بل وهي المركز العقلي الأعظم على الصعيد الروسي العام.

من نوفوسيبيرسك يمتد المحور الغربي نحو يكاتيرينبورغ، عاصمة الأورال، والمحور الشرقي نحو ايركوتسك ثم أبعد بعد ذلك إلى خاباروفسك ففلاديفوستوك، وعلى هذا فعلى عاتق نوفوسيبيرسك تلقى المهمة العظمى وهي ربط «مجموع حزام سيبيريا» الذي تبدو هذه المدينة فيه الحلقة الرئيسة. ومحور موسكو ـ نوفوسيبيرسك يغدو خط القوة الأهم في الجيوبولتيكا الداخلية لروسيا، ذلك «الشعاع» الرئيس الذي تتحقق من خلاله العملية المتعاكسة لتبادل الدفقات الطاقية النابذة من المركز والجابذة من الأطراف.

وثمة معنى لإقفال المنطقة الأورالية، مع مركزها في يكاترينبورغ. على موسكو مباشرة لا جعلها مرحلة بينية في المواصلات بين الجزء المركزي من روسيا وسيبيريا. والموقف الجيوبولتيكي لنوفوسيبيرسك مهم إلى درجة أن هذه المدينة والمناطق التابعة لها يجب أن تتمتع بوضع خاص وبتفويضات خاصة، فمن هذه النقطة بالذات يجب أن تنتشر الأشعّة الجيوبولتيكية الثانوية على مساحة سيبيريا بأسرها ـ نحو الشمال والجنوب والشرق والغرب.

الاستثناء من مثل المركزية لا يمكن أن يكتسب معناه إلا بالنسبة لإقليم بريمورسكويه والقطاعات الجنوبية من إقليم خاباروفسك. وهذه منطقة خاصة

بشكل مطلق، وثيقة الارتباط بإشكالية الـLenaland وبمعركة الخنادق من أجل السيطرة عليها. وبناء على هذا يجب أن تخصص خاباروفسك وفلاديفوستوك بوضع مميّز كما يجب ربطهما ربطاً مباشراً بموسكو (مثل يكاتيرينبورغ أيضاً).

ومن أجل التفعيل المتبادل مع «شبه المنحرف الشمالي» من المريح تنظيم المحورين الاستراتيجيين الاضافيين نوفوسيبيرسك ـ نوريلسك وخاباروفسك ـ ماغدان. وبهذه الطريقة يقرن **الشرق** استراتيجياً **بالشمال**.

والشرق كالشمال يمثل جسراً لجيوبولتيكية المستقبل. فهنا يستقر مصير الأوراسيا. وإلى هذا فإن مناخ «سيبيريا الروسية» الملائم يهيئها مسبقاً لكي يتم البدء من هنا بالذات بالمشروع الهائل لإقامة الأنموذج القاري الجديد. هنا يجب أن تبنى المدن الجديدة، وأن تمد طرق المواصلات الجديدة وأن تستثمر الأراضي الجديدة ومصادر الخامات وأن تقام القواعد الحربية الجديدة. ومن المهم إزاء ذلك أن يضمن المشروع الجمع المتوائم بين بدايتين: السطح، التضاريس، العامل الاتنو ـ ثقافي وعلوم البيئة أخيراً، من جهة، والمعايير التقنية والاستراتيجية من جهة أخرى. كما ينبغي التوحيد بين التقاليد القديمة والإبداعات التقنية الأكثر حداثة. ويجب الأخذ بعين الاعتبار المحطات الموغلة في القدم لتوقف الإنسان في هذه الأراضي وأن يُربط بها خيار تطوير الإنتاج والقواعد العسكرية.

مثل هذا المنطق يؤدي إلى الأفق المفتوح لظهور مركز جديد في سيبيريا لم يظهر ولم تتجه النية لانشائه بعد. وبناء على مستوى تطور مجموع **الشرق** الروسي ـ وعلى مستوى تفعيل المحيط الهادي، «محيط المستقبل» ليس من المستبعد أن يطرح نفسه السؤال حول نقل عاصمة الأوراسيا بكاملها إلى هذه المناطق بالذات ـ إلى العاصمة التي لم تكن ولم تظهر بعد، عاصمة **الألف عام الجديدة**.

يأتي زمن تفقد فيه موسكو معناها «المتوسط» وتغدو غير كافية بالمعنى الجيوبولتيكي، «غربية» أكثر من اللازم وآنذاك لا تكتسب مسألة العاصمة الجديدة لسيبيريا معنىً حكومياً عاماً ببساطة بل وقارياً عاماً، وعاماً على مستوى العالم.

ولكن لا يجوز أن تغيب عن أنظارنا ولو للحظة واحدة أن هذا الأفق لن يتحقق إلا بعد كسب معركة الخنادق في سبيل الـLenaland والتي بدونها يبدو انبعاث الأوراسيا الجيوبولتيكي خاوياً من المعنى.

النظام الجيوبولتيكي الجديد للجنوب

4 ـ 1 «النظام الجيوبولتيكي الجديد» للجنوب

ترتبط جيوبولتيكية المناطق الجنوبية (والغربية أيضاً) برسالة روسيا ـ الأوراسيا على مستوى أعلى من مشاكل **الشمال والشرق**. وإذا كان العامل السياسي الخارجي يظهر بصفة دائمة حتى لدى مناقشة **الشمال والشرق** المنتمين جيوبولتيكياً إلى الأراضي الداخلية الروسية. ففي حالة مناقشة إشكالية **الجنوب** (مثلها مثل **الغرب**) ليس ثمة معنى للحديث فقط عن «الجيوبولتيكا الداخلية» لروسيا لأن جميع الوقائع الداخلية الروسية مرتبطة هنا بالعوامل الخارجية إلى درجة من الاتثاق تجعل الفصل بينهما ببساطة غير ممكن إلا بخرق صرامة اللوحة الجيوبولتيكية العامة.

بالنسبة **لجنوب** «المحور الجغرافي للتاريخ» ثمة ثابت واحد، وهو التوسع الجيوبولتيكي حتى شطآن المحيط الهندي. وهذا يعني مركزية ووحدانية التطور على أساس خطوط الطول والذي يتكافأ في معناه مع سيطرة محور **الشمال ـ الجنوب**. وكل المدى الذي يفصل الأراضي الروسية عن الخط الساحلي الجنوبي للأوراسيا يمثل من وجهة النظر الجيوبولتيكية شريطاً يجب أن تختصر مساحته إلى الصفر. ومجرد حقيقة وجود الـrimland الذي ليس خطاً بل شريط يمثل تعبيراً عن التأثير التالاسوكراتي الذي يناقض الدافع الأساسي للتكامل القاري. وإذا كان rimland الأوراسيا شمالي وشرقي روسيا قد أُوصل حتى حجمه الصفري وكانت القارة مكتملة هنا من الناحية الجيوبولتيكية (والشيء الوحيد الذي يتبقى ـ هو الحفاظ على الوضع القائم مع التوكيد مسبقاً على إمكانية تحويل الخط إلى شريط تحت تأثير الحافز التالاسوكراتي) فالـrimland في الجنوب (والغرب) يمثل مشكلة

مفتوحة. الـrimland في شرق روسيا وشمالها ـ خط فاعل لكنه شريط محتمل، أما في الجنوب والشرق ـ فعلى العكس من ذلك ـ شريط فاعل لكنه خط محتمل. فالثابت الأساسي في الحالة الأولى هو الدفاع والحماية، المحافظة، تجميد وضع الأمور والتحركات الجيوبولتيكية التحذيرية، أما في الحالة الثانية فالحديث، على العكس من ذلك، يتناول جيوبولتيكية عدوانية فاعلة، توسعاً، استراتيجية «هجومية» في مجملها.

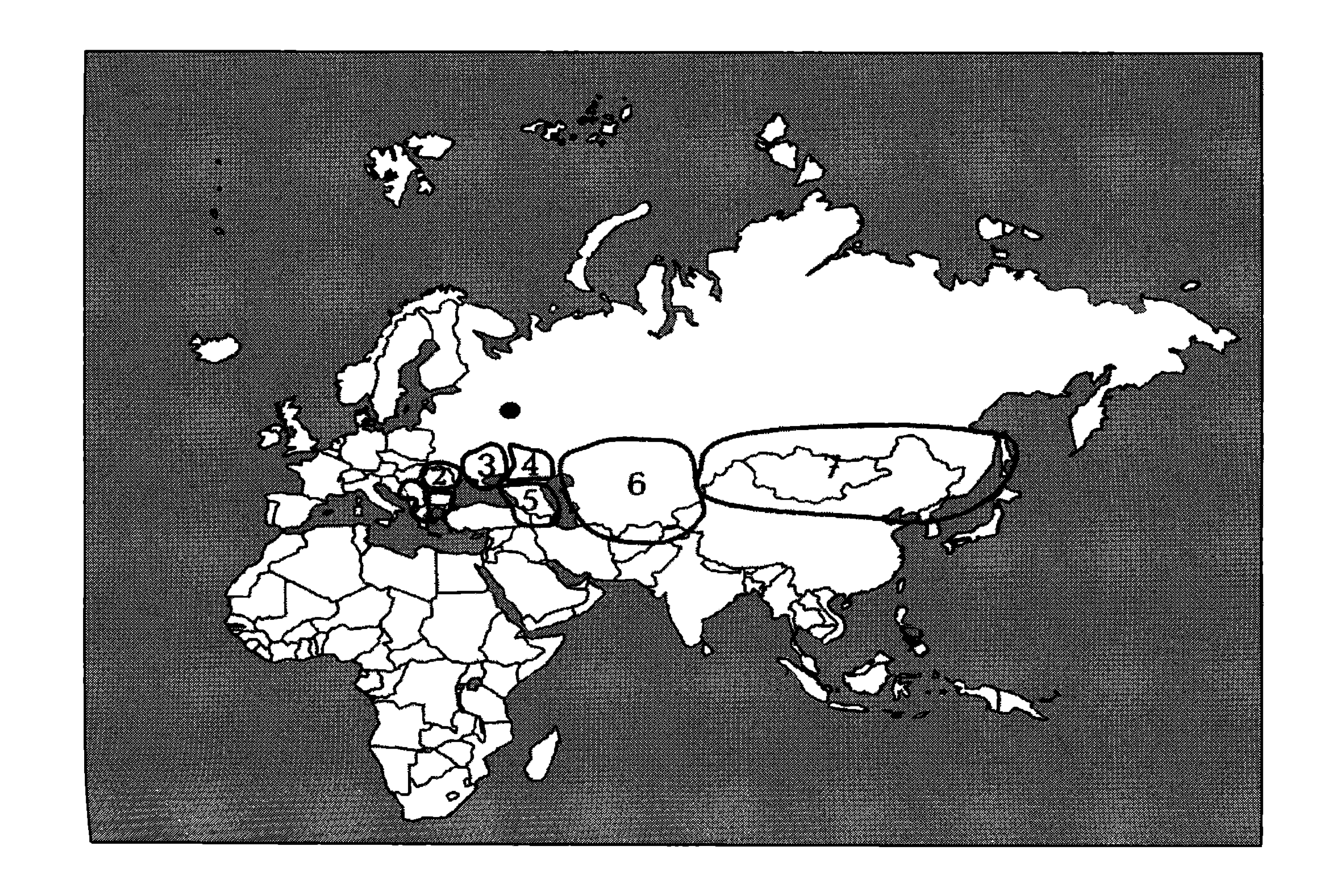
على **جنوب** كامل الأوراسيا يجب على روسيا أن تقيم «نظاماً جيوبولتيكياً جديداً» انطلاقاً من مبدأ التكامل القاري العام ولهذا فإن كافة التشكلات السياسية المتكونة في الجنوب والبلدان الإسلامية الهند، الصين، الهند الصينية ـ ينبغي أن ينظر إليها بصورة متعمدة على أنها مسرح لمناورات قتالية قارية تتلخص أهميتها النهائية في التوحيد الحازم استراتيجياً لمجموع تلك المناطق البينية مع المركز الأوراسي ـ مع موسكو.

ومن هنا تنطلق نظرية «الأشعّة المفتوحة» المنطلقة من المركز إلى الأطراف والتي لا تتوقف عند الحدود الروسية بذاتها بل ويجب أن تمتد حتى الشاطىء المحيطي الجنوبي. وتلك الأجزاء من «الأشعّة» التي تقع على الأراضي الروسية ـ فعالة، أما بالنسبة للبلدان المتضامنة استراتيجياً مع روسيا ـ فنصف فعالة. وبالنسبة لتلك الدول التي تسير في طريقها الجيوبولتيكي الخاص أو تدخل (في أسوأ الحالات) في منطقة السيطرة الأطلسية المباشرة ـ فمحتملة والمنطق العام للجيوبولتيكية الأوراسية في هذا الاتجاه يؤدي إلى أن يصبح توتر كافة الأشعّة فعالاً أو نصف فعال.

وعلى هذا الأساس فإن ساحل القارة الأوراسية من الأناضول حتى كوريا يجب أن يعامل على أنه «الجنوب الروسي» المحتمل.

4 ـ 2 المناطق والجبال ـ الحدود

إن الحقيقة الملحة للتوسع الجيوبولتيكي الثابت في الاتجاه الجنوبي تحدّد أيضاً البنية التركيبية لتلك المناطق الداخلية في الحدود الإدارية لروسيا أو في عداد الدول المتحالفة مع روسيا (مجموعة الدول المستقلة). ولهذا فإن تحليل أطراف



2
3
4
5
6
7

الأشعّة الجيوبولتيكية الفعالة ونصف الفعالة لا ينبغي أن ينصرف ولو للحظة واحدة عن التوجه الأساسي الذي تمليه قوانين الجيوبولتيكا.

و«**الجنوب الروسي**» في معنى أكثر عضوية هو المناطق التالية:

1 ـ شمال شبه جزيرة البلقان من صربيا حتى بلغاريا؛

2 ـ مولدافيا وأوكرانيا الجنوبية والشرقية؛

3 ـ منطقة روستوف وإقليم كراسنودار (ميناء نوفوروسيسك)؛

4 ـ القوقاز؛

5 ـ ساحل بحر قزوين الشرقي والشمالي (أراضي كازاخستان وتركمانستان)؛

6 ـ آسيا الوسطى بما في ذلك كازاخستان، أوزبكستان، قرغيزيا، وطاجكستان؛

7 ـ منغوليا.

والسيطرة الاستراتيجية القارية مضروبة على هذه المناطق. ولكن يجب أن ينظر إليها جميعاً كقواعد للتوسع الجيوبولتيكي المقبل نحو الجنوب، لا على أنها الحدود الأبدية» لروسيا. فوجود الشرائط الساحلية غير الخاضعة للـheartland يعدّ من وجهة النظر الجيوبولتيكية، تهديداً دائماً بتقليص حتى تلك الأراضي الموحدة في اللحظة الحالية مع مركز الأوراسيا بقوة كافية. فانهيار الاتحاد السوفياتي وظهور التشكيلات السياسية المستقلة على أساس الجمهوريات الاتحادية السابقة يقدّم مثالاً مثيراً للتأمل وهو أن رفض التوسع نحو الخارج، نحو الضفاف الجنوبية للقارة (سحب القوات السوفياتية من أفغانستان) سيجر وراءه، بصورة لا مفرّ منها، تراجع الحدود الراسخة لموسكو نحو الشمال، باتجاه أعماق القارة. إلا أن إضعاف الحضور القاري لا يتمخض أبداً عن الفراغ أو عن تدعيم استقلال الأراضي «المحرَّرة» لأن وضعها كأراضٍ طرفية يبطل اكتفاءها الجيوبولتيكي الذاتي. وبديلاً عن تأثير موسكو التيلوروكراتي يحل بصورة آلية تأثير الأطلسية التالاسّوكراتي (بهذه الصيغة أو تلك).

وعليه، ينبغي النظر، منذ البداية، إلى تركيبة مجموع الشريط الداخلي «للجنوب الروسي» على أنها جسر محتمل للهجوم.

لكن الموضوع يزداد تعقيداً لكون الأراضي الحدودية جميعها تتفق، من الناحية العملية، مع المناطق الجبلية (وكثيراً ما تكون جبلية عالية).

فعلى شمال شبه جزيرة البلقان ـ جبال البلقان، وإلى الشرق منها ـ القوقاز، تليها بعد ذلك ـ سلسلة جبال كوبيتداغ، وهندوكوش، ثم بامير، تيان شان وألتاي. والتضاريس الجبلية للحدود الجنوبية لروسيا ـ الأوراسيا، والتي رسمت، وإلى مدى بعيد، كامل تاريخ الشرق، تبدو في الوقت الحاضر واحدة من الأوراق الجيوبولتيكية الأهم في أيدي الأطلسية. وقد قسم الهندأوروبيون القدماء الشرق الأوراسي بكامله إلى مكوّنين: طوران الشمالية (كل ما يقع أعلى من سلاسل الجبال الأوراسية) وإيران الجنوبية (الممتدة إلى ما هو أدنى من هذه السلاسل). ومن الناحية الواقعية يتطابق هذا التقسيم تطابقاً قوياً مع المصطلحات الجيوبولتيكية المعاصرة ـ الـheartland (طوران) والـrimland (إيران). وبعد بضعة آلاف من السنين تبسط روسيا الجنوبية نفس المشكلة الجيوبولتيكية التي كانت مميّزة لديالكتيكية علاقات «رحالة السّهوب ضد فلاحي فارس المستقرين».

إلا أن الأمر اختلف في هذه الحالة بمعنى أن الغابة السلافية الشمالية المستقرة انضافت إلى طوران السهبية فأقرّت وثبّتت ديناميكية الطورانيين الرحَّل. وقام الهندأوروبيون المستقرون (السلاف) فأقفلوا السهب من جهته الشمالية بصيغ ثقافية تعيد في الكثير من صورها صيغ الجنوب الإيراني البدئي. وروسيا، كأوراسيا، كتركيب الغابة والسهب تتفوق من الناحية النوعية، على طوران، وعليه فإن مشكلة إيران (وبصورة أوسع ـ آسيا الوسطى غير الروسية) تكتسب معنى جيوبولتيكياً حضارياً آخر. ويتجلى هذا بصفة خاصة منذ انطلاقة الثورة الإسلامية في إيران، والتي قطعت، بصورة جذرية، كل علاقة مع السياسة التالاسوكراتية الأطلسية لنظام الشاه.

جميع هذه الآفاق الجيوبولتيكية تفترض في النظرة الجذرية الجديدة إلى مشكلة «الجبال الأوراسية» التي ينبغي أن تفقد مهمة الحدود الاستراتيجية، ضرورة أن تكون لا العقبة في طريق التكامل القاري بل الجسر المؤدي إليه.

إن الحاجة إلى تبديل مهمات الجبال في جنوب روسيا (وفي مناطقها الاستراتيجية) تمثل عمود الجيوبولتيكية الأوراسية. وبدون هذه العملية التمهيدية لن

تتمكن الأوراسيا أبداً من تحقيق السيطرة العالمية الحقة بل ولن تقترب حتى من الحَوار المتكافىء الحقيقي مع التالاسوكراتية.

4 ـ 3 البلقان

بما أن غالبية الأراضي الجنوبية في روسيا ومناطقها الاستراتيجية تتفق والأراضي المتميّزة عرقياً، ثقافياً ودينياً عن حضارة الروس (باستثناء البلقان وأوكرانيا) فالمحاور الجيوبولتيكية يجب أن تبنى بكل صلابة وفقاً لخطوط الطول. ومن هنا نصل إلى النتيجة التالية: ينبغي تعزيز جميع العمليات التكاملية العمودية (وفق خطوط الطول) والحيلولة دون إقامة كافة العمليات الأفقية (وفق خطوط العرض)، أي إن النطاق المتميّز اتنياً وسياسياً عن الآماد الروسية ينبغي أن يطبق فيه مبدأ معاكس تماماً للمبدأ المسيطر ضمن شروط التجانس الاتنوثقافي.

فلنشر إلى الصيغ الأساسية للبناء الجيوبولتيكي «**الجنوب** الروسي» بمعناه الواسع مستعرضين جميع النظم الجيوبولتيكية المحلية من الغرب إلى الشرق على التوالي:

شبه جزيرة البلقان. وتوجد هنا أربع مناطق أساسيّة:

أ ـ البوسنية ـ الكرواتية (الأكثر تطرفاً نحو الغرب، ذات توجه أطلسي rimland صاف)؛

ب ـ الصربية (وتمتد أكثر نحو الشرق، ذات توجه أوراسي واضح)؛

جـ ـ البلغارية (الأكثر توغلاً نحو الشرق، تحمل عناصر الصيغة الليفانتية(*) من الـrimland) وهذا الأنموذج تمثله تركيا بالصورة الأوضح ـ التركيب الأوراسي القاري)؛

د ـ اليونانية (الأرثوذوكسية) لكنها داخلة في المعسكر الأطلسي.

و«النظام الجيوبولتيكي الجديد» (القاري والأوراسي) في هذه المنطقة (كما

(*) الليڤانتيون: تصفهم المصادر الأوروبية بأنهم مجموعة اتنية، لغتها العربية وقوامها أحفاد الأوروبيين الذين زحفوا على بلاد الشام وتذاوبوا مع أهلها خلال الحروب الصليبية (المترجم).

هو الأمر في كل مكان) قائم على أساس تشجيع كافة العمليات التكاملية وفقاً لمحور **الشمال ـ الجنوب**. وهذا يعني ضرورة العمل، وفي الحدود القصوى، على تشجيع العلاقات بين بلغراد ـ أثينا وصوفيا ـ أثينا. وبما أن منطقة البلقان تمثل بمجموعها تكويناً موزاييكياً وعلى غاية من التعقيد فإن مشروع الفيدرالية السلافية المشتركة والمكونة من صربيا، بلغاريا، مكدونيا، الجبل الأسود، والبوسنة الصربية والذي يمكن أن يكون الحل الأمثل من الناحية النظرية، بعيد عن التطبيق في وقت قريب. وهو يفترض، فضلاً عن ذلك، عملية التكامل العرضاني الخطيرة والمحفوفة دوماً بالمشاكل في مثل هذه المناطق المتشابكة من الناحية الاتنية. فلنتذكر على سبيل المثال حروب البلقان(*) الضارية في بداية القرن بين الدول الأرثوذوكسية صربيا، بلغاريا واليونان والمشكلة الدائمة الحضور لمكدونيا التي كانت «تفاحة الشقاق»(**) داخل الدول السلافية القارية والأوراسية المحتملة.

(*) حروب البلقان (1912 ـ 1913) كانت دول البلقان قد عقدت فيما بينها تحالفا سنة 1912 شاركت فيه بلغاريا، صربيا، اليونان والجبل الأسود ضد الدولة العثمانية وامبراطورية النمسا والمجر وأيدت روسيا ذلك التحالف. ثم كانت حرب البلقان الأولى بين 9/10/1912 و 30/5/1913 وقد خاضتها دول التحالف المذكور ضد الدولة العثمانية فخسرت هذه بموجبها جميع ممتلكاتها الأوروبية تقريباً باستثناء استامبول وجزء صغير من تراقيا الشرقية، ووضعت كريت تحت حماية الدول الكبرى، كما تُرك لهذه الدول البت في مسألة الجزر في بحر إيجة. إلا أن الدول المتحالفة لم تلبث أن اختلفت على اقتسام الأراضي التي تخلت عنها الدولة العثمانية. وبإذكاء من الدول الغربية استعر النزاع بين دول التحالف وبدأت حرب البلقان الثانية (29 ـ 6 حتى 10 ـ 8 ـ 1913) فكانت حرب بلغاريا ضد اليونان وصربيا والجبل الأسود واللاتي انضمت إليها رومانيا وتركيا، وانتهت هذه الحرب بهزيمة بلغاريا؛ وبموجب معاهدة بوخارست السلمية (10 ـ 8 ـ 1913) انتهت حرب البلقان وتنازلت بلغاريا عن دوبروجدا الجنوبية لرومانيا وعن الجزء الجنوبي من مكدونيا وجزء من تراقيا الغربية لليونان وعن كل مكدونيا الشمالية تقريباً لصربيا. وقد أدت حروب البلقان هذه إلى توتير التناقضات الدولية وعجلت بقيام الحرب العالمية الأولى (المترجم).

(**) تفاحة الشقاق: تقول الأسطورة اليونانية إنها تفاحةٌ كتبت عليها ايريدا، ربةُ الشقاق عبارة «إلى الأجمل» بين الحاضرات ورمت بها في قاعة الاحتفال بعرس الاله بيليوس والربّة فيتيدا، فكانت التفاحة سبباً في الخصومة بين ثلاث من الربات المحتفلات: أفروديتا وهيرا وأثينا، وحاولت كل منهن استمالة بوريس الطروادي الذي عيّن ليحكم بينهن فوعدته هيرا بأن تملّكه آسيا إن هو أعطاها التفاحة، ووعدته أثينا أن تخرجه منصوراً =

ولهذا فإن مثال «إمبراطورية» النيمانيتشي(*) الصربية القروسطوية يمكن أن يتخذ مقياساً جيوبولتيكياً إيجابياً. وفضلاً عن ذلك فإن جميع النجاحات الملموسة لليونان في المشاريع الجيوبولتيكية العالمية (وبصفة خاصة فتوحات الاسكندر الأكبر) إنما تغذت بالطاقات المنطلقة من شمال البلقان ـ الأسرة المكدونية وقبل ذلك الأنموذج الدُوري لسبارطة الهندأوروبية. وفي إطار الأنموذج المصغر لمجموع شبه الجزيرة البلقانية يمثل الصرب (والبلغار بصفة خاصة) الدافع الأوراسي ويظهرون كممثلين لأفكار الـheartland. واليونان الممتدة إلى الجنوب من ذلك تنبسط جيوبولتيكياً بين الدافع القاري الشمالي وبين المطابقة التاريخية الثابتة مع الـrimland. ولهذا فإن جميع المشاريع التوحيدية التكاملية لليونان مع شمالي البلقان يمكنها أن تعزز الدوافع القارية الداخلية ضمن اليونان وهو ما يمكن أن يتأسس على قاعدة التقارب المذهبي مع روسيا الأرثوذوكسية.

وإذا كان في مقدورنا في الماضي أن نتخيل فيدرالية بلقانية عامة ذات توجه أوراسي، فإن الحد الأدنى من البرنامج الجيوبولتيكي يمكن صياغته مثل إقامة شبه منحرف صوفيا ـ موسكو ـ بلغراد ـ أثينا (فصوفيا من جديد) وينطلق فيه من المركز شعاعان روسي صربي وروسي ـ بلغاري ليلتقيا في أثينا. وإزاء ذلك يمكن أن تحل مسألة مكدونيا من خلال إعطائها وضعاً خاصاً لنزع حجر العثرة بين الدول الأرثوذوكسية البلقانية الثلاث جميعاً والأوراسية المحتملة (على مستوى مختلف). ومن هنا ينبثق بطريقة منطقية اهتمام موسكو المشدد بمسألة مكدونيا.

وإذا نظرنا إلى المسألة كلها من وجهة النظر المعاكسة، من مواقف الأطلسيين يتضح على الفور أن من المهم بالنسبة للتالاسوكراتية إعطاء جميع العمليات الجيوبولتيكية طابعاً معاكساً تماماً.

أولاً: من المهم بالنسبة «للقوة البحرية» الحفاظ على قوات موالية للأطلسية شمالي البلقان (من الكروات والمسلمين)، وبالإضافة إلى ذلك إبعاد صربيا وبلغاريا

= في كل حرب ووعدته أفروديتا بأن تهبه أجمل النساء فأعطاها التفاحة. فساعدته على اختطاف يلينا اليونانية فكان ذلك سبباً في حروب طروادة. (المترجم).

(*) النيمانيتشي: الأسرة الحاكمة في صربيا من النصف الثاني من القرن الثاني عشر وحتى سنة 1371م، أسسها ستيفان نيمانيا. (المترجم).

عن التحالف الجيوبولتيكي مع اليونان. وأسهل طريقة لذلك هي استخدام مكدونيا التي يمكنها تدمير كافة المشاريع القارية في هذه المنقطة. فإذا ما أوصلنا تركيا إلى المسألة البلغارية أي عززنا تحسين العلاقات التركية ـ البلغارية لغير صالح العلاقات البلغارية ـ الروسية لباءت السياسة القارية هنا بالفشل وهذا ما يجب أن يضعه جيوبولتيكيو الأوراسيا في الحسبان.

4 ـ 4 مشكلة أوكرانيا ذات السيادة

بعد ذلك تظهر المسألة الأوكرانية. فسيادة أوكرانيا تمثل بالنسبة للسياسة الروسية ظاهرة تبلغ سلبيتها درجة أنها يمكن من الناحية المبدئية أن تثير نزاعاً مسلحاً. وباستثناء شاطىء البحر الأسود من إسماعيل وحتى كيرتش تستقبل روسيا شريطاً ساحلياً لا يُعرف من صاحب السيادة الحقيقية فوقه، ويبلغ درجة من الطول تجعل وجوده نفسه في صورة دولة طبيعية ومستقلة أمراً يبعث على الشك. إن البحر الأسود ليس تعويضاً عن الخروج إلى «البحار الدافئة» وتسقط أهميته الجيوبولتيكية سقوطاً حاداً بسبب السيادة الأطلسية الوطيدة على البوسفور والدردنيل. إلا أنه يمكّن، على الأقل، من حماية المناطق الوسطى من التوسع المحتمل للنفوذ التركي إذ إنه حدود مريحة إلى أبعد الدرجات، مأمونة وزهيدة التكاليف. ولهذا كان ظهور حالة جيوبولتيكية جديدة على هذه الأراضي (يحاول فوق ذلك الدخول في حلف الأطلسي) يعد شذوذاً مطلقاً لا يمكن أن تؤدي إليه إلا خطوات غير مسؤولة على الإطلاق من وجهة النظر الجيوبولتيكية.

أوكرانيا كدولة مستقلة ذات مطامح ترابية معينة تمثل خطراً داهماً على الأوراسيا كلها، وبدون حل المشكلة الأوكرانية يغدو الحديث عن الجيوبولتيكا القارية أمراً عبثياً على العموم. وهذا لا يعني أنه ينبغي الحد من استقلال أوكرانيا الذاتي أو الثقافي ـ اللغوي أو الاقتصادي، وأنه يجب أن تصبح مجرد قطاع إداري للدولة المركزية الروسية (مثلما كان الأمر عليه إلى حد ما في الإمبراطورية القيصرية أو في الاتحاد السوفياتي). إلا أن أوكرانيا من الناحية الاستراتيجية يجب أن تكون إسقاطاً لموسكو في الجنوب والغرب (وإن كان الحديث الأكثر تفصيلاً حول النماذج الممكنة لإعادة تركيب البناء سيجري في الفصل المخصص للغرب).

إن الثابت الأساسي المطلق للسياسة الروسية على شواطىء البحر الأسود هو السَيطرة الشاملة وغير المحدَّدة بأي شيء لموسكو على مجموع امتداد ذلك الشاطىء من الأراضي الأوكرانية وحتى الأراضي الأبخازية. وبإمكاننا أن نفتت هذه المنطقة قدر ما نريد وفقاً للمظهر الاتنو ـ ثقافي، ومع الأخذ بالاعتبار الاستقلال الاتني والمذهبي لروس القرم، وللتتر والكازاك والأبخازيين والجورجيين، على أن يتم ذلك كله إزاء السيطرة المطلقة لموسكو على الوضع العسكري والسياسي. وهذه القطاعات يجب أن تُبعد بصفة جذرية عن النفوذ التالاسوكراتي، القادم من الغرب أو من تركيا (أو حتى من اليونان). إن الشاطىء الشمالي للبحر الأسود يجب أن يكون أوراسياً بصفة استثنائية وأن يخضع لموسكو بصفة مركزية.

4 ـ 5 بين البحر الأسود وقزوين

يتكون القوقاز من مستويين جيوبولتيكيين: القوقاز الشمالي وأراضي ثلاث جمهوريات قوقازية ـ جورجيا، أرمينيا وأذربيجان. وتتلصق بشدة بهذا القطاع جميع مساحات الأراضي الروسية من تاغانروغ حتى آستراخان، أي جميع الأراضي الروسية المنبسطة بين البحرين الأسود وقزوين وتدخل فيها أيضاً، وعلى صورة الإسفين، أراضي كلميكيا.

هذه المنطقة تمثل بمجموعها عقدة استراتيجية على غاية من الأهمية، لأن الشعوب التي تسكنها، تتميز بدنياميكية اجتماعية هائلة وبتقاليد جيوبولتيكية عريقة جداً، ثم إن المنطقة تتاخم مباشرة تركيا الأطلسية، التي تهيمن استراتيجياً بدورها على المنطقة المتاخمة والتي تنتمي من وجهة نظر التضاريس، للمدى الوحيد وهو كتلة القوقاز الجبلية.

وهذه واحدة من أضعف نقاط المدى الجيوبولتيكي الروسي، وليس من قبيل الصدفة أن تكون هذه الأراضي بالذات، من الناحية التقليدية مسرح عمليات حربية طاحنة بين روسيا الـheartland وبلدان الـrimland ـ تركيا وإيران. إن السيطرة على القوقاز تفتح، لدى أول اقتراب منه، بوابةً على «البحار الدافئة» وإن أي زحزحة للحدود (مهما ضؤل شأنها) نحو الجنوب (أو نحو الشمال) تعد نصراً أو هزيمة لمجموع القوى القارية، التيلوروكراتية.

إن الطبقات العمودية الثلاث لمجموع هذه المنطقة ـ الأراضي الروسية،

القوقاز الشمالي الداخل في روسيا، ثم القوقاز لوحده ـ تملك تواصلاً محتملاً نحو مسافة أبعد إلى الجنوب أيضاً. وهذا الشريط الإضافي، المحتمل والواقع خارج حدود لا روسيا فقط بل ومجموعة الدول المستقلة يتكون من أذربيجان الجنوبية (الواقعة على أراضي إيران) والبقع الشمالية من تركيا والمأهولة إلى حد كبير بالأكراد والأرمن. وهذه المنطقة كلها تمثل مشكلة اتنو ـ ثقافية لتركيا وإيران مثلها مثل الاتنوسات القوقازية الداخلة (أو التي دخلت) في كيان روسيا. وعليه فهناك جميع المنطلقات الأساسية الموضوعية لتحقيق زيادة النفوذ القاري في أعماق الأراضي القوقازية.

وهكذا فبين البحر الأسود وقزوين تتميّز أربعة مستويات أو طبقات تفترض نظرة متباينة من جانب المركز.

الطبقة الأولى، وهي روسية صرفة، ينبغي ربطها وإلى الحدود القصوى بتوجه عرضاني، وإقامة تركيب قوي يضم روستوف على الدون ـ فولفوغراد ـ استراخان، وهذه هي الحلقة الأقوى على المدى الروسي ككل لأنها بالنسبة للشمال تعتمد على القسم الأوسط من روسيا. فإذا ما اتجهنا أكثر إلى الشمال، فهي تعتمد على أرخانغلسك، الميناء الشمالي الأهم والعاصمة المحتملة «ولشبه المنحرف الشمالي». ونظراً للقرب النسبي للمسافات من الجزء المركزي الأوروبي بناءً على الكثافة الديموغرافية للسكان وللتطور التقني فإن مثلث روستوف على الدون ـ فولفوغراد ـ استراخان يمثل المخفر الأمامي الأهم لروسيا على الجنوب. إنه نوع من استبدال المركز الأوراسي نفسه بمركز ثان مرتبط عن طريق المساحة المتصيلة بالآماد العميقة. ولهذا بالذات ينبغي أن تكون هذه المنطقة النواة الجيوبولتيكية لكامل الاستراتيجية الأوراسية في القوقاز، وينبغي لتحقيق ذلك، تدعيمها تقنياً واستراتيجياً وعقلياً. ويستحسن أن تقام في هذا المكان منطقة متراصة خاصة تتكامل فيما بينها إدارياً وسياسياً.

وإزاء ذلك فثمة بعض المشاكل التي تبرز مرتبطة بالمناطق الشمالية في كلميكيا إلا أنها في الوقت نفسه ضعيفة الكثافة من ناحية الاستيطان. ومن العقلاني إدخال هذه المناطق السهبية الشمالية في الشريط التكاملي بـ«مطّها» من الناحية الجيوبولتيكية مطاً مستقيماً بين روستوف على الدون وفولفوغراد. وبهذه الطريقة تعاد الصياغة الجديدة جغرافياً وجيوبولتيكياً لحدود خازاريا القديمة التي سيطرت

على هذه المنطقة بأسرها في بداية الألف الأولى. ويمكن اشتراطياً تسمية هذا التَشكل الجيوبولتيكي «بالمثلث الخزري».

لدى الانتقال من المنطقة الروسية الصرفة «للمثلث الخزري» والتي يجب أن تتبع المنطق العرضاني (الأفقي) على الرغم من أنها وثيقة الاتصال بالشمال وبالمركز (موسكو) نفسه يغير خط التكامل طابعه بصورة جذرية. فشمال القوقاز بكامله وكل ما يمتد إلى جنوبه يجب أن يخضع بصفة استثنائية للتوجه وفقاً لخطوط الطول. والمراكز الاستراتيجية «للمثلث الخزري» يجب أن تطوّر سلاسل جيوبولتيكية مستقلة، ممتدة بصفة صارمة نحو الجنوب. ومن روستوف عبر كراسنودار نحو مايكوب، سوخومي وباطومي. من ستافروبول إلى كيسلوفودسك، نالتشيك، أورجانيكيدزي، تسخينفال، وتبليسي. من استراخان إلى ماخاتشكالا.

إن أي ترسيم عرضاني لحدود المناطق الاتنية في ما وراء القوقاز ينبغي دعمه، أما التكامل على أساس خطوط الطول ـ فعلى العكس من ذلك يجب تعويقه. فمن المهم مثلاً العمل، بكل الوسائل، على قطع الشيشان الانفصالية الفعالة عن داغستان (واينغوشيتيا) بإغلاق المنفذ على بحر قزوين. فإذا تركنا للشيشان جورجيا الممتدة في الجنوب فقط كان ممكناً السيطرة عليها جيوبولتيكياً من جميع الأرجاء وتصبح إدارتها ممكنة من طرق جورجيا الأرثوذوكسية. كما وينبغي ربط داغستان وانغوشيتيا جزئياً بجورجيا وهو ما يمكن أن يؤدي إلى إيجاد منطقة قوقازية شمالية ذات حكم ذاتي، متطورة اقتصادياً إلا أنها، من الناحية الاستراتيجية خاضعة خضوعاً كلياً لروسيا وذات توجه أوراسي. ويمكن للإعادة المشتركة لتقسيم شمال القوقاز أن تحل أيضاً المشكلة الاوسيتينيّة، لأن التشكيلات الاتنية الجديدة (أوسيتيا الموحدة مثلاً) يمكن أن تفقد معنى التشكيلات القومية ـ الحكومية إذا ما اكتسبت معنى إتنياً وثقافياً ولغوياً ودينياً. واتباعاً لمنطق خطوط الطول نفسه من المهم أيضاً ربط أبخازيا بروسيا.

هذه الخطوات موجهة جميعاً نحو تحقيق هدف جيوبولتيكي واحد هو تدعيم المجمع الأوراسي التيلّوروكراتي وتهيئة انتصاره الكوني في المبارزة مع الأطلسية. ولهذا يمكن تسمية هذه الخطة بـ«النظام الجيوبولتيكي الجديد في القوقاز» وهو يفترض الإقلاع عن النظرية التقليدية إلى التشكيلات السياسية كـ«دول ـ أمم» أي تشكيلات إدارية مرسّخة ذات حدود دائمة وبنية سلطوية مكتملة. و«النظام

الجيوبولتيكي الجديد في القوقاز» يفترض إعادة التقسيم الشاملة للوقائع السياسية القائمة حالياً، والانتقال من أنموذج العلاقات المتبادلة بين الدولة ـ الدولة أو الأمة ـ الأمة إلى النظام الجيوبولتيكي المجرد، نظام المركز ـ الأطراف حيث يجب أن تتحدد بنية الأطراف لا وفق التعددية السياسية بل وفق التعددية الاتنية ـ الثقافية.

ويمكن تطبيق هذا من خلال خطة إقامة «الفيدرالية القوقازية» التي يمكن أن تتضمن في داخلها جمهوريات قوقازية ثلاثاً من مجموعة الدول المستقلة مثلما تتضمن أيضاً تشكيلات ذات استقلال ذاتي داخل روسيا. وبهذا يكون المركز قد تنازل لمجموع هذه المنطقة عن الاكتفاء الذاتي الثقافي ـ الاقتصادي ولكن يكون قد ضمن المركزية الاستراتيجية في حدودها القصوى. ومن شأن ذلك أن يؤدي إلى نظام مرن حتى أقصى الحدود، يقوم لا على العنف والاحتلال وصب التنوع القوقازي الكثير في قالب واحد بل على وعي وحدة المصير القاري وروحه الجماعية.

وتلعب دوراً جيوبولتيكياً خاصاً أرمينيا التي تمثل الحلف التقليدي والمأمون بالنسبة لروسيا في القوقاز. وأرمينيا هي القاعدة الاستراتيجية الأهم من أجل الحيلولة دون التوسع التركي نحو الشمال والشرق، نحو مناطق العالم التركي في آسيا الوسطى. وعلى العكس من ذلك تكتسب أرمينيا، في الأفق الجيوبولتيكي الهجومي، أهميتها كجماعة اتنو ـ ثقافية تتواصل بصورة لا تتوقف نحو الجنوب، نحو أراضي تركيا حيث يمتد قسم كبير من أرمينيا القديمة وحيث يقوم قدْسها الرئيس ـ جبل أرارات. والقرابة العرقية واللغوية تربط الأرمن بالأكراد أيضاً، بعامل إتني مهم آخر يمكن استخدامه لإحداث هزات جيوبولتيكية داخل تركيا. زد على ذلك أن من المهم جداً فتح معبر من اليابسة يخترق القوقاز بكامله ويربط أرمينيا ربطاً محكماً بـ«المثلث الخزري».

وتكتسب أرمينيا أهميتها بمعنى آخر أيضاً. فبالتأسيس على القرابة التاريخية والاتنية مع إيران يمكن لأرمينيا أن تكون واحدة من الحلقات البالغة الأهمية من أجل نشر الدافع الأوراسي من المركز إلى الـrimland الإيراني. وهذا ما يعني إقامة محور موسكو ـ يريفان ـ طهران.

ونحو إيران (لا نحو تركيا بأي حال من الأحوال) ينبغي ربط توجه أذربيجان

أيضاً، وذلك بالتوكيد على الشيعية، وعلى القرابة الاتنية مع أذربيجان الجنوبية الإيرانية وعلى الروابط التاريخية. وعلى هذا فإن الشعاع الاستراتيجي الأهم موسكو ـ طهران عبر يريڤان يمكن أن يثنى بشعاع موسكو ـ باكو ـ طهران ليشكل معيّناً يتناظر إلى حد بعيد مع المعيّن البلقاني. وثمة، على العموم، عدد كبير من المتشابهات الجيوبولتيكية بين البلقان والقوقاز. والأهم: أنه في هذا الموضع بالذات يتجلى وبأوضح صورة عمل القانون الجيوبولتيكي الأعظم ـ **العمليات العرضانية تثير نزاعات مرعبة والعلاقات الطولانية تؤدي إلى الاستقرار والثبات.** ويلاقي هذا أفصح تعبير له في الحرب اليوغوسلافية وفي النزاع الأرمني ـ الأذربيجاني حول ناغورني كاراباخ. ومشكلة كاراباخ نفسها شبيهة في بعض صورها بمشكلة مكدونيا. ولهذا فعلى موسكو لضمان استقرار المنطقة كلها أن تقيم أكثر الصلات مباشرة مع كاراباخ لتجعل من هذه البقعة نقطة التوازن في مجموع النظام الجيوبولتيكي القوقازي ومن أجل ذلك يجب أن تتخذ المفاوضات الكاراباخية، في صورتها الأفضل، أربعة أطراف: أذربيجان، أرمينيا، روسيا وإيران مع استبعاد كافة المشاركين الأطلسيين الذين لا جدوى من حضورهم السياسي في المنطقة بسبب تصورات جيوبولتيكية.

4 ـ 6 النظام الجيوبولتيكي الجديد في آسيا الوسطى

درجت العادة على اعتبار آسيا الوسطى كتلة هائلة من اليابسة الأوراسية تمتد من السهوب الكازاخية الشمالية وحتى شطآن البحر العربي. وهذه المنطقة تنبسط من الجمهوريات السوفياتية في آسيا الوسطى عبر سلسلة كوبيتداغ والبامير جنوباً حتى إيران السهلية وإلى الجنوب ـ الشرق نحو أفغانستان. وآسيا الوسطى هي المدى الجيوبولتيكي الذي يمكنه، أسرع من كل ما سواه، أن يوصل الـ heartland إلى الهدف المنشود ـ إلى المحيط الهادي. وإذا تمكنت موسكو من الفوز في حرب الخنادق مع التالاسوكراتية في هذا الاتجاه لتم بذلك، وبصورة آلية، حل عدد كبير من المسائل الموازية ـ التكامل مع معسكر الهند القاري، والدعم الاستراتيجي لإيران ضد تركيا، شق ممر مستقيم كامل نحو الشرق الأدنى وما إلى ذلك. وهذا كله ما يجعل هذه المنطقة مركزية في مسألة إعادة التركيب الجيوبولتيكية للجنوب الأوراسي.

ولْنشر إلى أن آسيا الوسطى تُقسم بسلسلة من الجبال لا من الناحية السياسية والجيوبولتيكية فقط بل ومن الناحية العرقية أيضاً. فالمنطقة السوفياتية السابقة من آسيا الوسطى (باستثناء طاجيكستان) مأهولة بالترك ـ السنة، ورثاء طوران، والكثيرون منهم لا يزالون يعطون الأفضلية لحياة الترحل وتربية المواشي. أما آسيا الوسطى «غير السوفياتية» ـ إيران وافغانستان (بل وحتى باكستان القريبة منها إتنو ـ ثقافياً فمأهولة بالهند أوروبيين المستقرين. وعلى هذا فإن الوحدة الجيوبولتيكية تتخذ حدوداً عرضية واضحة الملامح).

وهذه المنطقة تقسم إلى ثلاثة مناطق:

1 ـ كازاخستان الوسطى (جنوبي خط عرض 50) إذ تتوضع في شمالها الأراضي الداخلة في «**الشرق** الروسي»؛

2 ـ تركمانيا وأوزبكستان الصحراويتان وقيرغيزيا الجبلية (وهذه أرض طورانية صرفة)؛

3 ـ إيران ـ افغانستان ـ الباكستان ـ الهند (وهي إيران بالمعنى الواسع ـ «أريانا» ـ «أرض الآريين»).

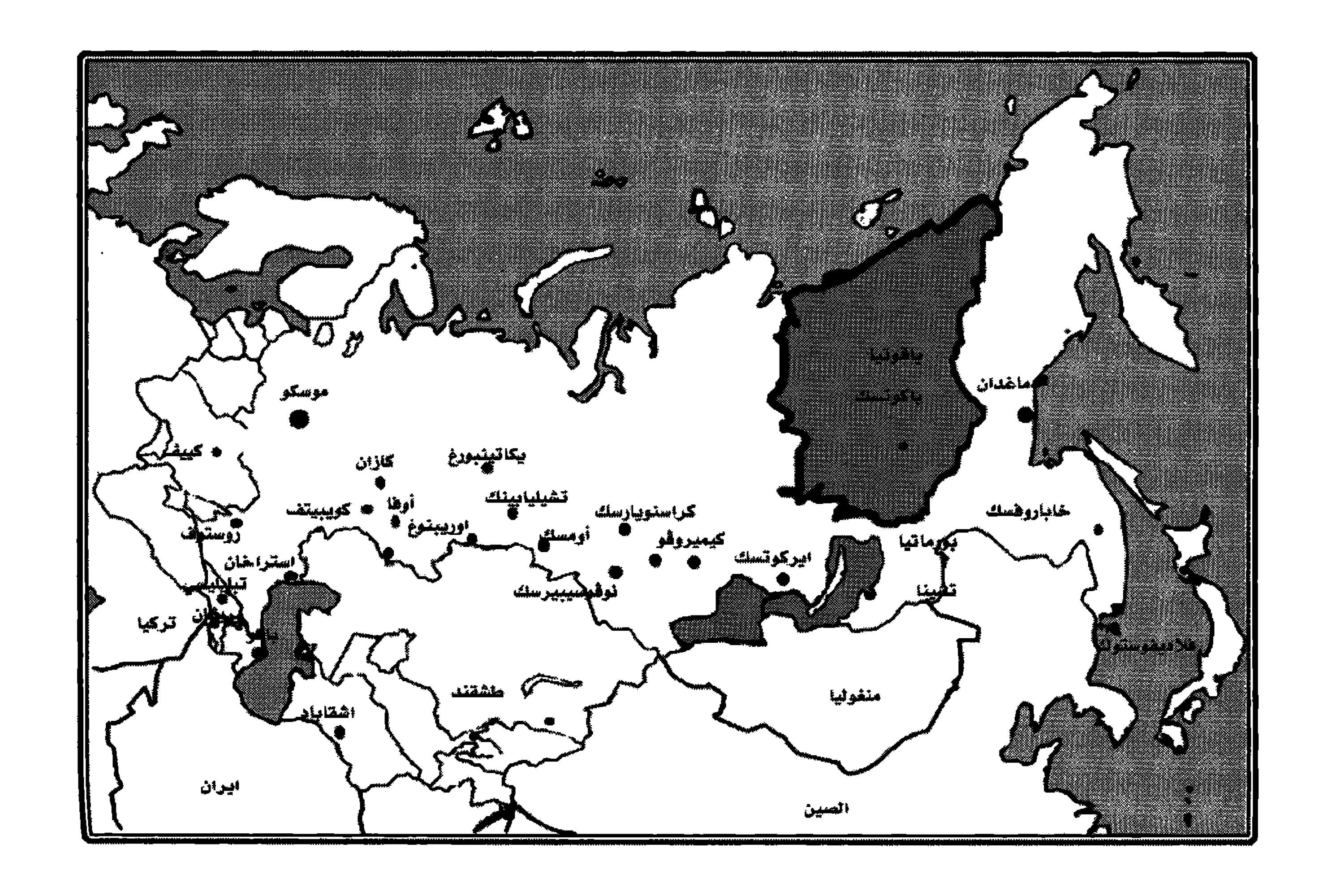
والنظام الأوراسي الجديد في آسيا الوسطى يقوم على أساس ربط جميع هذه الأراضي من الشمال إلى الجنوب بمحور جيوبولتيكي استراتيجي قوي ومن المهم، على نحو ما هو الأمر دوماً في حالات مشابهة، تنظيم المدى بصفة استثنائية، وفق الاتجاه الطولاني لتعزيز التقارب الطويل الأمد بين المناطق المنفصلة.

بدءاً من الشمال يدور الحديث حول ربط مجموع كازاخستان مع الأورال الروسي الجنوبي وسيبيريا الغربية. وهذا الربط ينبغي أن يخدم التركيبة الحاملة لمجموع المنطقة الآسيوسطوية. وفي التكامل المنهجي والمتأمّل لكازاخستان مع المعسكر القاري المشترك مع روسيا يثوي أساس السياسة الأوراسية كلها. وأهم نقطة في ذلك كله ومنذ البداية مهمة الوقف، وبصفة صارمة، لأي نفوذ لتركيا في هذه المنطقة وتعويق أية مشاريع للتكامل «الطوراني» ينطلق من تركيا الأطلسية، ويفترض تطويراً جيوبولتيكياً عرضانياً محضاً لآسيا الوسطى «السوفياتية» السابقة المواجهة للشمال الهندأوروبي (روسيا) وللجنوب الهندأوروبي (إيران، أفغانستان،

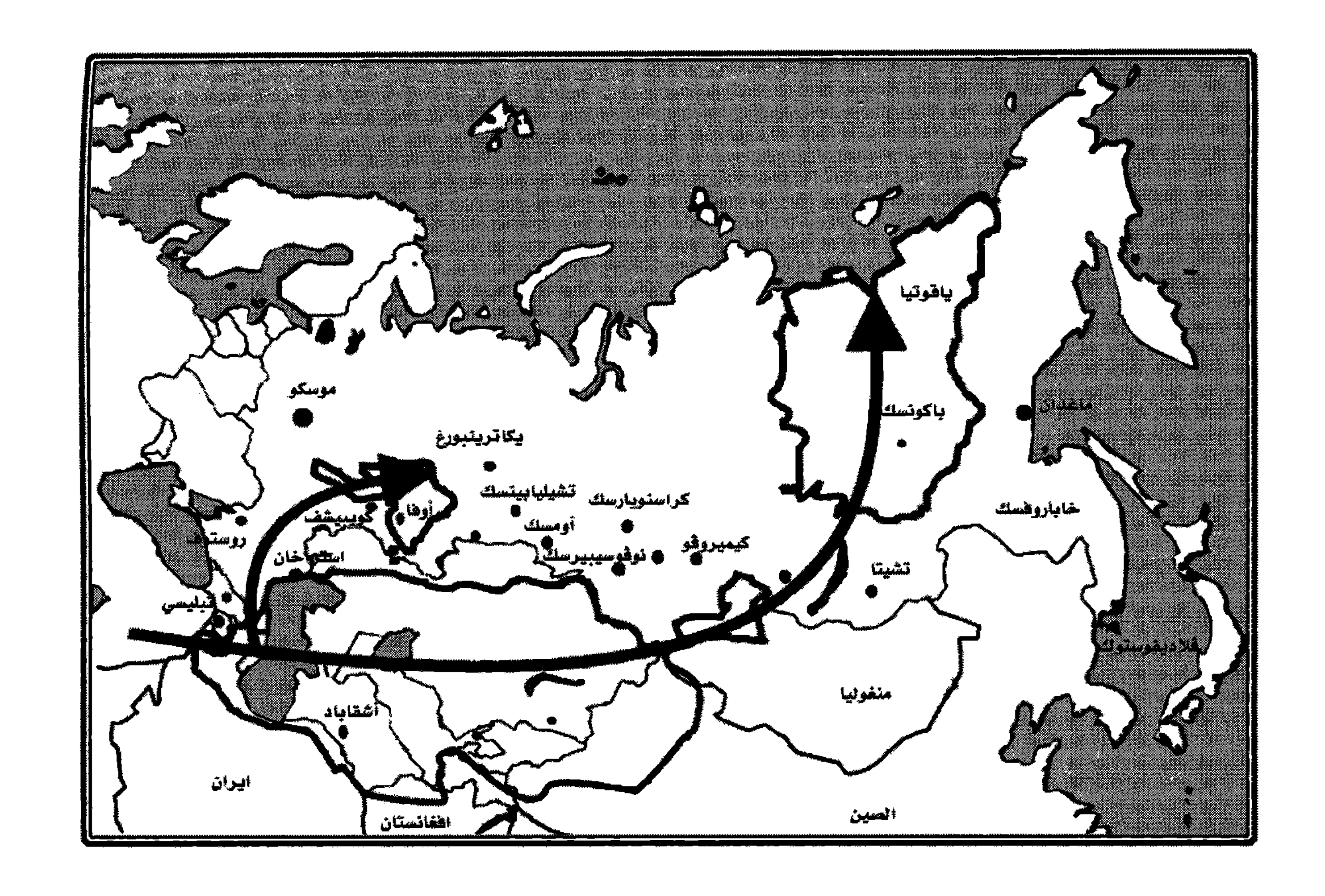
باكستان، الهند). إن التكامل الطوراني هو التركيب المباشر للأوراسية الجيوبولتيكية ويتلخص في تشطير القوى التيلوروكراتية إلى مكونات ثلاثة ـ الغربي (روسيا الأوروبية)، الشرقي (سيبيريا الجنوبية والشرق الأقصى الروسيان) والجنوبي (إيران، أفغانستان، الباكستان). والمطلوب من هذه «الطورانية» شق التحالف العرقي والجيوبولتيكي بين الغابة والسهب والذي منح نقطة البداية للدولة الروسية ولأتنوس روسيا الكبرى، أما بالنسبة لإيران وأفغانستان فهو يمزق الوحدة الدينية للعالم الإسلامي قطعاً. وانطلاقاً من ذلك يجب على الـheartland أن يعلن على تركيا وعلى حَمَلَة «البانتوركية» حرب خنادق جيوبولتيكية شرسة تكون إيران الإسلامية الآرية فيها حليف روسيا الأهم. يجب أن «تمطّ» آسيا الوسطى مطّاً عمودياً بين واقعين هندأوروبيين عالميين ـ الروس والفرس. وينبغي التطلع، إزاء ذلك، وبكل الوسائل إلى استخلاص التقاليد الثقافية المحلية ذات الاستقلال الذاتي في مجموع المدى التركي ودعم القوى الجهوية في المقاطعات ذات الاستقلال الذاتي ـ وتعميق المماحكات بين الأفخاذ، القبائل، «الأولوسات(*)» وما إلى ذلك. وفي كل مكان من هذه المنطقة ينبغي العمل على إقفال المناطق، الدوائر، المجمعات الصناعية، الدورات الاقتصادية ـ النقاط الاستراتيجية فوق الأراضي لصالح مناطق واقعة خارج المنطقة التركية أو جعلها في اتجاه عمودي الخطوط. فكاراكالباكيا ـ الواقعة غربي أوزبكستان يجب، على سبيل المثال ـ أن تتكامل لا في الاتجاه الشرقي (بخارى، سمرقند، طشقند) بل في الاتجاه الشمالي (كازاخستان) والجنوبي (تركمانيا). ووفقاً لهذا المبدأ يجب إعادة تركيب المناطق الحدودية بين أوزبكستان وطاجكستان ـ فسمرقند ووادي فرغانة مرتبطان تاريخياً وإتنياً بالأراضي الطاجيكية بدرجة لا تقل عن ارتباطهما بالأراضي الأوزبيكية وينطبق الأمر نفسه على قرغيزيا الجنوبية.

والمفصّلة الجيوبولتيكية لمجموع الاستراتيجية الجيوبولتيكية الآسيوسطوية للتيلوروكراتية يجب أن تكون طاجيكستان. فهذه المنطقة تجمع في داخلها الجوانب الأهم لمجموع الـ«Drang nach Swden» «الاندفاع» الروسي «نحو

(*) الأولوس: تجمع قبلي يستقل بمنطقة محدّدة تقع تحت سيطرة الخان أو الرئيس، لدى شعوب آسيا المركزية والوسطى وسيبيريا. (المترجم).



موسكو
كييف
كازان
أوفا
كويبيتف
روستوف
استراخان
تركيا
ايران
طشقند
اشقاباد
أومسك
كراسنويارسك
كيميروفو
ايركوتسك
منغوليا
الصين
ياقوتيا
ماغدان
خاباروفسك



ياقوتيا
موسكو
ياكوتسك
ماغدان
يكاترينبورغ
تشيليابينسك
كراسنويارسك
أوفا
خاباروفسك
أومسك
روستوف
كيمبروفو
نوفوسيبيرسك
تشيتا
تبليسي
منغوليا
أشقاباد
ايران
الصين
افغانستان

الجنوب». والطاجيك مسلمون ـ هندأوروبيو الأصل، قريبون إتنياً من الإيرانيين والأفغان. أي إنهم يمثلون في هذه المنطقة جزءاً من العالم «الإيراني». وبالإضافة إلى ذلك دخلت طاجيكستان في نطاق روسيا والاتحاد السوفياتي أي إنها تكاملت مع النظام الجيوبولتيكي الأوراسي القاري. ولهذا فإن مصير الصغد العريقة، هذه البلاد الصغيرة المرتفعة الجبال ترمز إلى نجاح (أو إخفاق) فرض نظام أوراسي جديد في آسيا الوسطى.

لا ينبغي أن تؤخذ الحدود الواقعية بين طاجيكستان وأفغانستان على أنها خط صارم. فهي ليست معطى تاريخياً ـ بل مهمة جيوبولتيكية، فقد كان من مصالح الـheartland على العموم إزالة أية تقييدات مشدّدة ـ مهما كانت، بنقل الحدود الاستراتيجية إلى مسافة بعيدة جنوباً وإعادة ترتيب كامل المنطقة البينية على أساس الحدود الاتنو ـ ثقافية، القبلية والجهوية. ليس لأفغانستان تقاليد نظام حكومي مركزي متكامل. فهي مأهولة بعدد كبير من القبائل الرحل والمستقرة (البشتون، الطاجيك والأوزبيك وسواهم) يربط بينها الدين (الإسلام) أكثر مما يربط بينها نظام الحكم أو السياسة. ولهذا فإن العودة الجيوبولتيكية لروسيا إلى أفغانستان أمر لا مفر منه وقد حدّدته الجغرافيا نفسها مسبقاً. والشيء الضروري الوحيد ـ الاعتماد في ذلك لا على القوة العسكرية بقدر ما هو الاعتماد على الاستراتيجية الجيوبولتيكية المدروسة، على إعداد التحالف الاستراتيجي الطوعي والواعي من قبل الطرفين والذي تستدعيه ضرورات المواجهة المشتركة للتالاسوكراتية «القوى الغرب»، «للأطلسية» والتي تقرّب بصورة آلية بين الروس والمسلمين، وتلعب طاجيكستان في هذه العملية دور القاعدة الرئيسية كما أن أراضيها تصبح المختبر الجيولوجي الذي يلتقي فيه دافعان متكافئان ـ الدافع الإسلامي **للجنوب** الأوراسي الهنداوروبي والدافع الجيوبولتيكي الروسي المنطلق من الـheartland من الشمال. وهنا، في طاجكستان ـ في دوشانبيه أو مدينة أخرى يجب أن يتم إعداد الاستراتيجية الروسية ـ الإسلامية المشتركة لإعادة ترتيب «طوران» الأكثر تطرفاً نحو الشمال. وهذه الأرض مدعوة لصياغة قرار العصر حول إقامة الأوراسيا الجديدة والتي يؤسَّس فيها بصفة نهائية لا عودة فيها لموضوع التركيب الناجز بين السهب والغابة الشمالية من جهة وبين ذلك السهب نفسه (طوران) وإيران من جهة أخرى.

وعلى هذا فمن المنطقي أن يمدَّ خط آخر من المركز الأوراسي: موسكو ـ

دوشانبيه ـ كابول ـ طهران يتكون على طوله واقع جيوبولتيكي لم يعرف له مثيل من قبل.

هناك قسم من طاجيكستان ـ هو باداخْشان الجبلية ـ وتقع غير بعيد عن الباكستان والهند اللتين تلتقيان عند نقطة واحدة تقريباً مع الصين (سينتزيان). وبغض النظر عن أن هذه المناطق تكاد تكون غير سالكة بسبب وقوعها على ارتفاعات شديدة في جبال البامير، فإن لمنطقة باداخشان الجبلية معنى جيوبولتيكياً عميقاً. وهي مأهولة بالإسماعيليين، الفرقة الإسلامية التي تعد تعبيراً عن الشيعية الأكثر تطرفاً أي عن الصيغة الأكثر هندأوروبية (من وجهة النظر الروحية) في الإسلام. والإسماعيليون الباداخشانيون منتشرون بالقرب من مناطق باكستان، وهذه الدولة (على الرغم من أنها سنية رسمياً) تشكل في المنظور الاتني هنوداً اعتنقوا الإسلام. ويشير هذا إلى أن ما هو أقرب إليهم دون شك التقاليد الهندية التي إذا لم تكن شيعية علنية فهي «شيعية سرّية» في إطار هذا الدين. وغير بعيد تقع كشمير الهندية، المأهولة أيضاً بالهنود المسلمين وأتباع شيفا. والمسلمون ـ الأويغور ـ يستوطنون أيضاً منطقة سينتزيان في الصين. ولهذا فإن الخصوصية الدينية لباداخشان ووضعها الاستراتيجي يمكّنان الـheartland من المشاركة بفعالية في حل المشاكل الجيوبولتيكية الأهم التي تتلاقى، على فكرة ـ في هذه المنطقة: ـ الحروبُ الباكستانية ـ الهندية، الانفصالية الأويغورية الإسلامية المحتملة في الصين، النضال التحرري ـ الوطني في التيبت، حركة السيخ في منطقة البنجاب الواقعة على مسافة غير بعيدة نحو الجنوب. وجميع خيوط هذه العقدة الحرجة في آسيا تتلاقى في طاجكستان، وبكلمة أدق في باداخشان. ومن هنا يطرح نفسه بنفسه المحور الإضافي المستقل موسكو ـ هوروغ (عاصمة باداخشان). وبما أن ارتباط باداخشان ببقية طاجكستان ليس قوياً جداً (التناقضات الاتنو ـ دينية والقبلية)، فعلى موسكو، زيادة على ذلك، أن تخص هذه الجهة بواقع جيوبولتيكي منفصل ـ على نحو ما كان الأمر في مكدونيا وكاراباخ، لأن المعنى الاستراتيجي لهوروغ مركزي بالنسبة لمنطقة ضخمة لا تتجاوز أبعاد طاجكستان فحسب بل ومجموع آسيا الوسطى.

مجموع هذه المنطقة المعقدة يجب إعادة ترتيبه من خلال التأثير الأكثر فعالية «للمحور الجغرافي للتاريخ» ـ روسيا ـ وعلى أساس الأنموذج التيلّوروكراتي، أي

خلافاً لتلك البرامج التي تتضمن عناصر أطلسية تالاسوكراتية في هذا الخصوص. ومن المعلوم أن إنجلترا بالذات قد دعمت حركة المسلمين الهنود الانفصالية التي أدت إلى انفصال الباكستان. والنزاعات الهندو ـ باكستانية مفيدة بالنسبة للأطلسيين لأنها تسمح لهم بتعزيز تأثيرهم السياسي والاقتصادي في كلا المنطقتين باستخدام التناقضات الجيوبولتيكية وجعل المنطقة بأسرها مرتبطة بالحضور العسكري ـ الاستراتيجي للأمريكان والإنكليز. وفي اللحظة الراهنة تدخل الباكستان والهند والصين بثبات في الـrimland الذي تسيطر عليه التالاسوكراتية. والدور الجيوبولتيكي لطاجيكستان وباداخشان يتمثل في التغيير الجذري لمثل هذا التوضع للأشياء، وإقامة النظام الأوراسي للتكامل القاري في مجموع هذه المنطقة. وإلى هذا فإن مما هو بالغ الأهمية في النطاق الإيديولوجي الأخذ بعين الاعتبار أدق اللوينات الاتنو ـ دينية والثقافية ـ اللغوية أما على الصعيد العسكري ـ الاستراتيجي فمن الضروري التطلع إلى المركزية الصارمة التي لا بديل عنها.

وفي المعنى السياسي يقدم كل من العداء للأمركة لدى إيران الأصولية، و «حيادية» الهند الصارمة الأسس الجادة لنجاح الاستراتيجية الأوراسية. أما ما تبقى فيرتبط بالإرادة الجيوبولتيكية لموسكو، ولروسيا ـ الأوراسية على نطاق واسع.

4 ـ 7 The fall of china(*)

الصين هي الجار الجيوبولتيكي الأكثر خطورة على روسيا في الجنوب. ودورها يتشابه في بعض وجوهه مع دور تركيا. ولكن إذا كانت تركيا عضو الناتو بصورة علنية، وكان دورها الاستراتيجي واضحاً، فالأمر أكثر تعقيداً بالنسبة للصين.

كانت جيوبولتيكية الصين مزدوجة منذ البداية، إذ كانت تنتسب من جهة إلى الـrimland «المنطقة الساحلية» من الخليج الهادي (من جهته الشرقية) ومن جهة أخرى ـ لم تغْدُ تالاسوكراتية في أي يوم، بل، على العكس من ذلك كانت تتوجه دوماً إلى البدئيات القارية. ولهذا يوجد ثمة تقليد سياسي ثابت يسمّي الصين بـ «الإمبراطورية المتوسطة»، وهذا المصطلح يصف بالذات التشكلات القارية

(*) (بالانجليزية) ـ سقوط الصين. (المترجم).

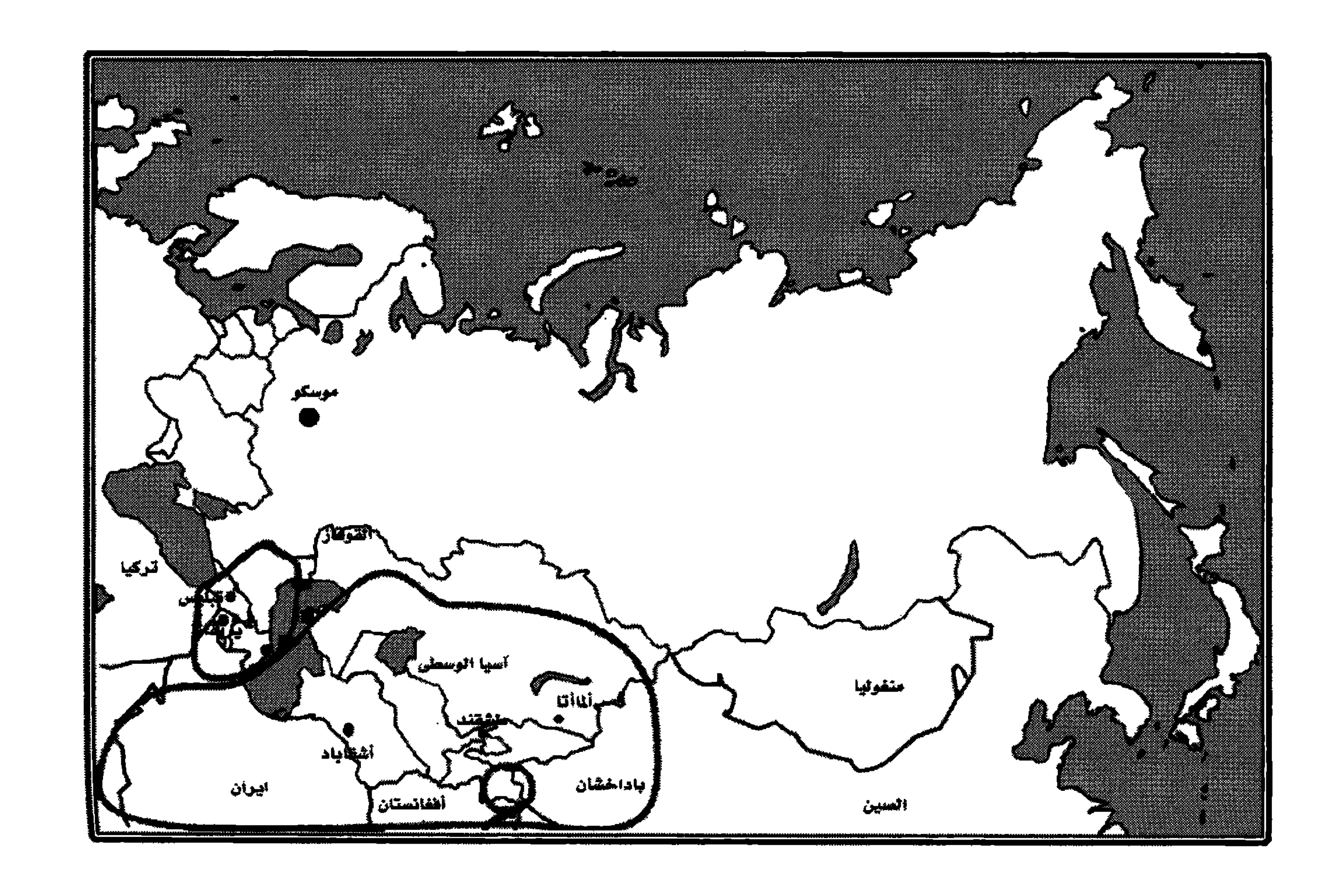
التيلوروكراتية. والصين مفصولة، فوق ذلك، عن المحيط الهادي بشبه جزيرة الهند الصَينية التي يستقر فوقها عنقود من الدول ذات التوجه التالاسوكراتي المكشوف.

خلال مسيرة إعمار (استعمار) الغرب للشرق تحولت الصين إلى شبه مستعمرة ذات حكومة عملية موالية للإنجليز ـ الجيل الأخير من أباطرة أسرة تسين(*). ومن بداية القرن التاسع عشر وحتى 1949 (انتصار الحزب الشيوعي الصيني على الغومندان(**). كانت جيوبولتيكية الصين تتبع التقاليد الأطلسية الصرفة (وإزاء ذلك لم تكن الصين تتصرف كتالاسوكراتيا مستقلة بل كقاعدة ساحلية أوراسية للغرب). وغيّر انتصار الحزب الشيوعي من وضع الأمور وخلال فترة قصيرة (1849 ـ 1958) استبدلت الصين توجهها بسياسة أوراسية موالية لروسيا. بيد أن الخط الأوراسي، وبفعل التقاليد التاريخية، لم يلبث أن استبعد وفضلت الصين «الاكتفاء الذاتي» وخيم انتظار اللحظة التي يضعف فيها التوجه الأوراسي إلى درجة تظهر فيها الأطلسية المحتملة للصين وهويتها الجيوبولتيكية كـrimland واضحة العيان. وقد حدث ذلك في منتصف السبعينيات عندما بدأت الصين مفاوضاتها الفعالة مع ممثلي «اللجنة الثلاثية» العالمية وكان معناه دخول الصين الجديد في بنية الجيوبولتيكا الأطلسية.

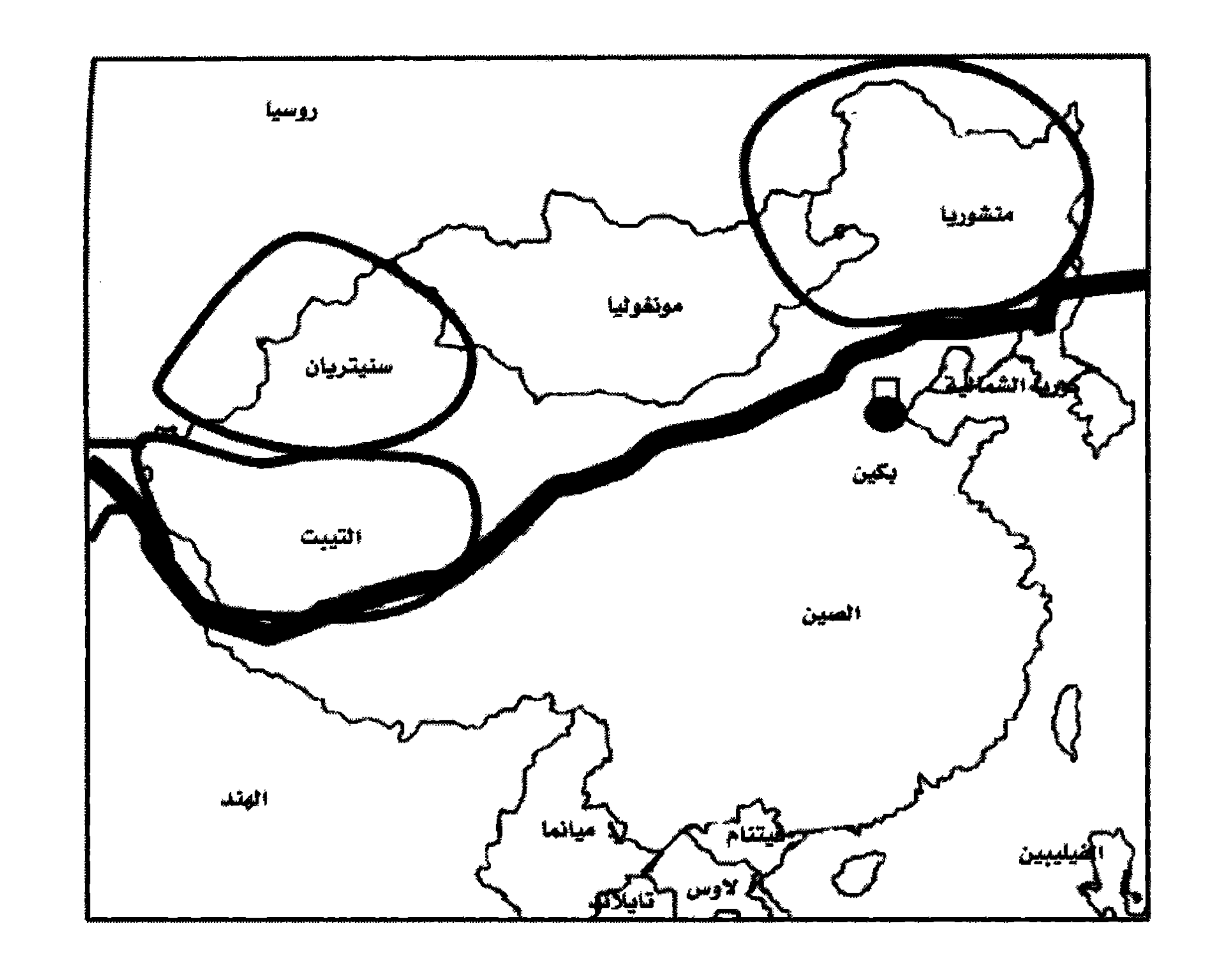
ومع التسليم بإمكانية أن تعود الصين في ظروف معينة إلى طريقة التحالف الأوراسي، فلا ينبغي الركون إلى ذلك بصفة خاصة، فالعلاقات مع الغرب أكثر إجداء من الناحية النفعية البحتة على الصين من العلاقات مع روسيا التي لن تستطيع المساعدة على التطوير التقني لهذه البلاد، ثم إن مثل هذه «الصداقة» لن تؤدي إلا إلى تقييد حرية المناورات الجيوبولتيكية للصين في الشرق الأقصى ومنغوليا وسيبيريا الجنوبية. يضاف إلى هذا أن النمو الديموغرافي في الصين يطرح أمام هذه البلاد مشكلة «الأراضي الحرة»، وأراضي كازاخستان وسيبيريا (شبه

(*) تسين: أسرة إمبراطورية منشوريّة حكمت الصين بين 1644 ـ 1911 نتيجة الاحتلال المنجوري للبلاد. أطاحت بعرشها ثورة 1911 ـ 1913 البورجوازية في الصين (المترجم).

(**) الغومندان: (الحزب الوطني). حزب سياسي أسس في الصين بين 1912 ـ 1927. لعب دوراً تقدمياً ثم تحول إلى حزب بورجوازي إقطاعي حاكم يرتبط بالإمبريالية الأجنبية. تمّ إسقاطه سنة 1949.



موسكو
القوقاز
تركيا
آسيا الوسطى
ألماآتا
طشقند
أشقاباد
ايران
أفغانستان
باداخشان
منغوليا
الصين


روسيا
منشوريا
مونغوليا
سنيتريان
التيبت
كوريا الشمالية
بكين
الصين
الهند
ميانما
فيتنام
لاوس
تايلاند
الفيليبين

الخالية من السكان) تبدو في هذا المنظور مغرية حتى أقصى الحدود.

والصين خطر على روسيا بسببين ـ بكونها قاعدة جيوبولتيكية للأطلسية وبحد ذاتها كبلد ذي كثافة ديموغرافية مرتفعة يبحث عن «أراضي لا يملكها أحد». وأما الـheartland، ففي هذه الحالة أو تلك أمام خطر مصيري يقبع في مكان على غاية من الخطورة. فالصين تشغل الأراضي الواقعة جنوبي الـLenaland.

وللصين، فضلاً عن ذلك، خاصية اتنية ـ ثقافية مقفلة ـ ولم تساهم قط خلال المراحل المنظورة تاريخياً في البناء الأوراسي القاري.

كل هذه التصورات ـ بغض النظر عن الملموسية السياسية . . . تجعل من الصين عدواً جيوبولتيكياً محتملاً لروسيا في **الجنوب** وفي **الشرق** وهذا ما ينبغي الاعتراف به كبدهية جيوبولتيكية. ولهذا تتحدد مهمة روسيا الجيوبولتيكية المتعلقة بالقطاع الشرقي نفسه من الحزام «الداخلي» الجنوبي في أن توسع منطقة تأثير هذا القطاع حتى الحدود القصوى نحو الجنوب بإقامة «منطقة حدودية» على أوسع مدى ممكن. ويتوجب على الأوراسيا في المستقبل المنظور أن تبسط نفوذها حتى الهند الصينية. لكن التوصل إلى ذلك عن طريق التحالف الذي يعود بالنفع على الجانبين أمر مستحيل من الناحية العملية. وفي هذا يكمن اختلاف الصين المبدئي عن آسيا الإسلامية (باستثناء تركيا) والهند. فإذا كان الحلف الأوراسي مع القطاعات الجنوبية الأخرى في الأوراسيا يجب أن يقوم على أساس احتساب المصالح المتبادلة أي أن يكون نتيجة للاتحاد الواعي والطوعي المؤسس على وعي عمومية الرسالة الجيوبولتيكية، فإن الحديث في الحالة الصينية يدور حول ضغط جيوبولتيكي قسري بالقوة حول تخريب اللاتكامل الترابي، حول تفتيت وتقسيم الحدود السياسية ـ الإدارية للدولة. ومثل هذه النظرية تنطبق على تركيا. فالصين وتركيا ـ عدوان جيوبولتيكيان محتملان. والعراق وإيران، وأفغانستان والباكستان والهند وكوريا وفيتنام واليابان ـ حلفاء جيوبولتيكيون محتملون. وهذا ما يفترض تطبيق استراتيجيتين جيوبولتيكيتين مختلفتين. ففي حالة الأعداء ينبغي التطلع إلى إنزال الضرر، وإجلاء وحدة الأهداف الجيوبولتيكية في حالة الحلفاء ويمكننا الآن وبسهولة تبيان أفضليات «الجيوبولتيكا الداخلية» لروسيا فوق مساحة تمتد من باداخشان حتى فلاديفوستوك.

الأنموذج الأساسي هنا هو فصل الأراضي الصينية الشمالية عن الأراضي الأكثر توضعاً نحو الجنوب. والتحليل الجيوبولتيكي يقدم على الفور أسساً جديدة لذلك. فالشمال الغربي للصين يتفق مع سينتزيان، البلد العريق والذي يتسم بتاريخ طويل من الاستقلال الذاتي السياسي. فمن الناحية التاريخية قامت هنا دول كثيرة حلت إحداها محل الأخرى. وهذه الأراضي مأهولة، فوق ذلك، بالأويْغور - الاتنوس التركي الذي يدين بالإسلام. والصينيون يفرضون سيطرتهم على هذه المناطق عن طريق الضغط المباشر بالقوة وبالاستعمار المباشر ومن خلال اضطهاد السكان وخنق جميع محاولاتهم في الدفاع عن استقلالهم الذاتي الديني والاتني. وكانت الأفكار المتعلقة بضم سينتزيان إلى روسيا حاضرةً لدى الأباطرة الروس في إطار مشروع إعمار سيبيريا. وتنبغي العودة إلى ذلك الخط. وإلى الجنوب من سينتزيان تنبسط كون لون والتيبت حيث نواجه بوضع مشابه فالتيبت بلاد قائمة بذاتها، سكانها من نوع خاص وديانة خاصة وتقاليد سياسية واتنية عريقة جداً وسلطة بكين في هذه المنطقة مصطنعة أيضاً وتقوم على القهر المباشر كما هو الأمر في سينتزيان. وروسيا جيوبولتيكياً مهتمة اهتماماً مباشراً بالدعم المباشر للانفصالية في هذه المناطق وببدء النضال الوطني التحرري ضد الصين في هذه الأصقاع. ويمكن لجميع هذه المناطق أن تنتمي بصورة هارمونية إلى الفيدرالية القارية الأوراسية فلا الجغرافيا تربطها بالأطلسية ولا التاريخ. ويتوجب على سينتزيان والتيبت الدخول في حزام التيلوروكراتية. وسيكون ذلك الحل الجيوبولتيكي الأكثر إيجابية ويؤمن حماية موثوقة لروسيا حتى في حال رفض الصين التخلي عن مشاريعها الجيوبولتيكية المعادية للأوراسية. فبدون سينتزيان والتيبت يصبح الاندفاع الجيوبولتيكي المحتمل للصين في كازاخستان وسيبيريا الغربية أمراً مستحيلاً. وهكذا لا يغدو التحرير الشامل لهذه الأراضي من السيطرة الصينية فقط بل والمراحلُ الأولى من زعزعة الاستقرار في هذه المناطق انتصاراً لروسيا.

وإلى الشرق بعد ذلك يلي قطاع منغوليا - حليف روسيا الاستراتيجي. ومن المهم التصرّف بطريقة وقائية والحيلولة دون إمكانية تقوية العامل الموالي للصين في السياسة المنغولية. فالسهوب والصحارى المنغولية تقدم حماية ممتازة لسيبيريا الجنوبية من الصين، ويتوجب إزاء ذلك تفعيل روابط منغوليا مع سينتزيان والتيبت،

من أجل توفير المنطلقات الأساسية لخلق تكوّن جديد للمنطقة بكاملها ضمن التوجه نحو الزحزحة التدريجية للصين ونفوذها الجيوبولتيكي. ولتحقيق هذه الغاية يمكن طرح مشروع الفيدرالية المنغولية ـ التيبتية التي يمكن أن تنضم إليها أيضاً بورياتيا، توڤا، خاكاسْيا وجمهورية الألتاي. فوحدة التقليد اللامي لهذه الشعوب تمثل بالنسبة لموسكو وسيلة مهمة من أجل تطبيق الاستراتيجية الجيوبولتيكية المضادة للصين.

والمنطقة الأخيرة للحزام الجنوبي هي منشوريا ـ المنطقة الممتدة إلى شمال شرق الصين، حيث نواجه أيضاً بحلقة جيوبولتيكية ضعيفة (بالنسبة للصين). فعلى هذه الأراضي قامت أيضاً دول عريقة لها تقاليد الاستقلال السياسي. وحتى في القرن العشرين أعادت اليابان من جديد الدولة المنشورية وعاصمتها في خاربين، فكانت الجسر القاري لدخول اليابان إلى الصين. أما بالنسبة لروسيا فقيام دولة ذات سياسة خاصة في منشوريا أمر مرغوب إلى أعلى الدرجات. وبما أن اليابان تدخل في عداد الحلفاء الجيوبولتيكيين المحتملين للأوراسيا فبالإمكان توحيد الجهود في هذه المسألة.

التيبت ـ سينتزيان ـ منغوليا ـ منشوريا تمثل معاً حزام الأمان بالنسبة لروسيا. والمهمة الأساسية في هذه المنطقة جعْل هذه الأراضي تحت سيطرة الـheartland، باستخدام حلفاء روسيا الجيوبولتيكيين المحتملين ـ الهند واليابان، بالإضافة إلى السكان المحليين الذين يعانون من تحكم بكين، وبالنسبة للصين نفسها يمثل هذا الحزام الجسر الاستراتيجي «للوثبة» المحتملة «نحو الشمال»، نحو كازاخستان وسيبيريا. إنها الأراضي المتلاصقة من جهة الجنوب بالـLenaland التي ستدور حولها، بصورة لا مفر منها مجابهة جيوبولتيكية قتالية للقوى القيادية العالمية. ويجب على روسيا أن تنتزع هذا الجسر من الصين وأن تقذف بها نحو الجنوب وأن تعرض عليها كتعويض جيوبولتيكي تطوراً وفق محور الشمال ـ الجنوب في الاتجاه الجنوبي ـ نحو الهند الصينية (باستثناء ڤيتنام) نحو الفيليبين، أندونيسيا وأوستراليا.

4 ـ 8 من البلقان إلى منشوريا

على روسيا أن تضغط باتجاه **الجنوب** على مجموع المدى الممتد من شبه جزيرة البلقان وحتى الشمال الشرقي للصين. وهذا الشريط بكامله يمثل، من

الناحية الاستراتيجية، منطقة مهمة بالنسبة لأمن روسيا. والشعوب التي تستوطن القطاعات المختلفة من هذه الأراضي متنوعة إتنياً ودينياً وثقافياً. إلا أنها جميعاً وبلا استثناء تملك العناصر التي تقربها من المعادلة الجيوبولتيكية للـheartland. الأرثوذوكسية بالنسبة للبعض والانتماء التاريخي لدولة واحدة ـ بالنسبة للبعض الآخر، والتقارب الاتني والعرقي ـ بالنسبة للبعض الثالث ـ والعدو المشترك ـ بالنسبة للرابع والحسابات النفعية ـ للخامس. إن هذا التنوع الذي يتسم به **الجنوب** يملي ضرورة إيجاد الحد الأقصى من الجيوبولتيكية المرنة ومنطقية الحجة البالغة التطور التي تؤسس لضرورات إقامة الروابط والأحلاف وما إلى ذلك. وليس ثمة بين المقاييس ما يمكن أن يكون الأفضل، فلا ينبغي التعويل على عامل واحد دون سواه من عوامل ـ الاتنوس، الدين، العرق، التاريخ، المنافع وما إلى ذلك. وفي كل حالة محدّدة ينبغي سلوك مسلك مختلف. أما المقياس الأعلى فيبقى الجيوبولتيكا وقوانينها والتي يمكن أن تطوع لنفسها جميع التصورات الأخرى، لا أن تتحول إلى مجرد أداة للسياسة الخارجية (أو الداخلية) تقوم على أساس بعض المبادىء المستقلة المنفصلة. وفي هذه الحالة دون سواها يمكن للأوراسيا أن تحقق استقرارها وأن تضمن روسيا بثقة أمنها القاري وتؤدي رسالتها التيلوروكراتية.

تهديد الغرب

5 ـ 1 غَرْبان

مشكلة تنظيم المدى المكاني غربي الأوراسيا هي الموضوع الذي يمثل قاعدة مجموع الجيوبولتيكا كعلم. فأوروبا الغربية ـ rimland الأوراسيا، الـrimland الأكثر اكتمالاً وتجانساً والمتبلورة الهوية من الناحية التاريخية. أما بالنسبة لروسيا نفسها كـheartland فالغرب في عمومه هو العدو الكوني الأهم ـ إنه ذلك القطاع من «الحضارة الساحلية» الذي أخذ على عاتقه مهمة التالاسوكراتية المكتملة وطابق مصيره التاريخي مع البحر. وكانت إنجلترا في طليعة تلك العملية لكن جميع الدول الأوروبية الأخرى التي رفعت شعار التصنيع، التطوير التقني والمعايير القيمية «للبناء التجاري»، دخلت عاجلاً أو آجلاً في هذه المجموعة التالاسوكراتية.

وفي مسيرة التكوّن التاريخي للّوحة الجغرافية النهائية للغرب انتقلت الأولوية من جزيرة إنجلترا إلى قارة أمريكا وبخاصة الولايات المتحدة. وحلف الناتو الذي تسيطر عليه، وبهذا صارت الولايات المتحدة التجسيد الأقصى للتالاسوكراتية في مظهرها الاستراتيجي، الإيديولوجي، الاقتصادي والثقافي.

هذا التثبيت الجيوبولتيكي النهائي للقوى العالمية ينقل قطب الأطلسية والتالاسوكراتيا إلى ما وراء الأطلسي، إلى القارة الأمريكية. أما أوروبا نفسها (حتى الغربية بما في ذلك إنجلترا) فتتحول من مركز للتالاسوكراتية إلى «منطقة عازلة»، «حزام ساحلي»، «تابع استراتيجي» للولايات المتحدة. وهذا النقل للمحور التالاسوكراتي إلى ما وراء المحيط يبدل إلى حد ما التشكل الجيوبولتيكي. فإذا

كانت أوروبا (إنجلترا وفرنسا) منذ مئة سنة الخصم الأول لروسيا فإن هذه المنطقة فقدت بعد الحرب العالمية الثانية أهميتها الاستراتيجية المستقلة بعد أن تحولت إلى مستعمرة استراتيجية للولايات المتحدة. ويتطابق هذا التحول بصفة صارمة مع تلك «النظرة من جهة البحر» والتي تَسِمُ العلاقة الاستعمارية الأنموذجية التي تربط أي تالاسوكراتية باليابسة. وإذا كان للطبيعة «الساحلية» لأوروبا في السابق طابع محتمل يفعّله التشكل الجيوبولتيكي الخاص ـ «جزيرة انجلترا»، فإن هذا يتطابق الآن بدقة على اللوحة الفاعلة لتوزع القوى. ـ فالولايات المتحدة والواقع الجيوبولتيكي الذي خرج من أوروبا وكأنه إسقاط مصطنع لها، أصبحا قطباً مستقلاً على الإطلاق ـ غرباً بالمعنى المطلق للكلمة ـ حول أوروبا من متروبول إلى مستعمرة. ويدخل هذا كله في تطابق كامل مع المنطق الكلاسيكي للجيوبولتيكية التالاسّوكراتية.

وعلى هذا فإن المشكلة الجيوبولتيكية للغرب الكوني في أبعد معانيها تنقسم بالنسبة لروسيا إلى مكونين: ـ غرب كأمريكا، وغرب كأوروبا. وهذان الواقعان يحملان من وجهة النظر الجيوبولتيكية، معنىً مختلفاً. فالغرب كأمريكا هو خصم روسيا الجيوبولتيكي الشمولي، قطب التقليد المباشر المناهض للأوراسية، أركان حرب الأطلسية ومركزها. وحرب الخنادق الجيوبولتيكية مع أمريكا كانت ولا تزال جوهر الجيوبولتيكا الأوراسية بكاملها، بدايةً من منتصف القرن العشرين عندما صار دور الولايات المتحدة واضحاً. وموقف الـheartland واضح بهذا الخصوص ـ لا بد من مواجهة الجيوبولتيكا الأطلسية للولايات المتحدة على كافة الأصعدة وفي جميع أنحاء الأرض في محاولة لإضعاف العدو حتى الحد الأقصى، لفضحه خلقياً، خداعه ثم الانتصار عليه في نهاية المطاف، ومما يتسم بأهمية خاصة في هذا الصدد بث الفوضى الجيوبولتيكية في الواقع الأمريكي الداخلي عن طريق التشجيع، وبكل الطرق، للانفصالية والنزاعات الاتنية والاجتماعية والعنصرية والمناصرة، بفعالية، لجميع حركات المخالفة في الرأي ـ الفئات المتطرفة، العنصرية، الطائفية التي تزعزع الاستقرار في العمليات السياسية الداخلية في الولايات المتحدة. وفي الوقت نفسه فإن ماله معناه مناصرة الميول الانعزالية في السياسة الأمريكية، أطروحات تلك الأوساط (كثيراً ما تكون تلك الأوساط الجمهورية ـ اليمينيّة) التي ترى أن على الولايات المتحدة أن تقتصر على مشاكلها الداخلية الخاصة. ومثل هذا الوضع مجزٍ بالنسبة لروسيا إلى أعلى درجة حتى ولو

تحققت «الانعزالية» في إطار ردّة الفعل الأولية لمبدأ مونرو ـ أي إذا ما قَصَرت الولايات المتحدة نفوذها على الأمريكتين. وهذا لا يعني على الإطلاق أن على الأوراسيا أن تكف إزاء ذلك عن زعزعة استقرار عالم أمريكا اللاتينية في محاولة إخراج بعض المناطق من تحت السيطرة الأمريكية. فجميع مستويات الضغط الجيوبولتيكي يجب أن تعمل في وقت واحد مثلما كانت سياسة الأطلسية المعادية للأوراسية «ترعى» في وقت واحد عمليات انهيار الحلف الاستراتيجي (حلف وارسو) والوحدة الحكومية (الاتحاد السوفياتي) والتفتيت الاتنو ـ ترابي المقبل تحت مظهر إضفاء الصفات الجوهرية على روسيا عاملة بذلك على انهيارها المطرد حتى تدميرها الكامل. ويتوجب على الـheartland أن يدفع للـSea Power بنفس العملة. وهذا التوازن منطقي وله أساس. وكل هذا يمثل المهمة المركزية «للجيوبولتيكية الخارجية» لروسيا نحو الولايات المتحدة، ولهذا فإن التحليل الأكثر تفصيلاً يخرج عن إطار هذه الدراسة.

الواقع الثاني يسمى أيضاً بـ مصطلح «الغرب» ويحمل معنى آخر. وهو أوروبا التي تغير معناها الجيوبولتيكي تغيُّراً حاداً خلال السنوات العشر الأخيرة. ولما كانت أوروبا بصفة تقليدية المتروبول بالنسبة للأجزاء الأخرى من الكون وجدت نفسها لأول مرة في وضع المستعمرة ـ الاستراتيجية، الثقافية، الاقتصادية والسياسية وما إلى ذلك. والاستعمار الأمريكي يختلف عن صيغ الاستعمارية العلنية والقاسية لكن يبقى على حاله في مبناه. وأوروبا في الحالة الراهنة لا تملك جيوبولتيكيتها الخاصة ولا إرادتها الجغرافية الخاصة، وتتلخص مهمتها في كونها قاعدة مساعدة للولايات المتحدة الأمريكية في الأوراسيا وبؤرة لنزاع أكثر احتمالاً مع الأوراسيا. وهذا الوضع يودي بصورة آلية إلى أن يغدو الخط المعادي للأمريكيين البديل الجيوبولتيكي المشترك للدول الأوروبية بتوحيدها ضمن مشروع واحد لم يسبق له أن وجد من قبل وتوحّد أوروبا في ماستريخت(*) بعد الإشارة

(*) ماستريخت: مدينة في هولندة تم الاتفاق فيها سنة 1991 بين رؤساء حكومات 12 عضواً في المجموعة الأوروبية على معاهدة تزيد من تدعيم الاتحاد الأوروبي، وتم توقيعها سنة 1992 وبموجبها تحولت المجموعة الأوروبية إلى وحدة في الاقتصاد والنقد فضلاً عن التوافق السياسي (المترجم).

الأولى إلى ظهور أوروبا جسداً مستقلاً متكاملاً يتطلع إلى أن يعيد لنفسه الأهمية التاريخية والاستقلال الجيوبولتيكي. فأوروبا لا تريد أن تكون روسية ولا أمريكية. وبعد انتهاء «الحرب الباردة» تجلت هذه الرغبة بكل حجمها.

والآن يطرح نفسه السؤال التالي: ما هي، في الخطوط العريضة، علاقة الأوراسيا بشبه جزيرتها الغربية؟

الأوراسيا، من وجهة النظر الجيوبولتيكية البحتة مهتمة بصريح العبارة بإخراج أوروبا من تحت سيطرة الأطلسية، الولايات المتحدة، تلك هي المهمة الأولى. يجب أن يكون لروسيا حدود بحرية في الغرب، وهذا هو الثابت الاستراتيجي لتطور الأوراسيا الجيوبولتيكي. فغياب هذه الحدود بالذات ووجود خط بري بدلاً منها يخترق أوروبا من وسطها، بطريقة قسرية ومفتعلة، أدّيا في نهاية المطاف إلى الخسارة الجيوبولتيكية للاتحاد السوفياتي. وعليه فالمهمة ـ عدم تكرار الأخطاء وإصلاح الوضع. ولا يمكن للأوراسيا أن تتحرر من الـSea Power إلا عندما تصبح المحيطات حدودها الاستراتيجية في الشمال والشرق والجنوب والغرب ـ مثلما هي الحال بالنسبة لأمريكا. آنذاك فقط تجري المبارزة بين الحضارات وفق شروط متكافئة.

ولهذا فأمام روسيا مخرجان ـ إما الاحتلال العسكري لأوروبا، وإما تلك الصورة من إعادة ترتيب المدى الأوروبي التي تجعل هذا القطاع الجيوبولتيكي حليفاً موثوقاً لموسكو محتفظاً بحريته واستقلاله واكتفائه الذاتيين. والخيار الأول بعيد عن الواقعية إلى درجة أنه لا يستحق مناقشته بجدية. أما الخيار الثاني فمعقد، لكنه قابل للتطبيق، ذلك أن نصف القرن الذي قضته أوروبا في وضعية المستعمرة الأمريكية ترك أثراً جاداً في الوعي الأوروبي.

لا يمكن لأوروبا الصديقة أن تظهر كصديق استراتيجي لروسيا إلا عندما تكون موحدة وإلا سيجد الخصم الأطلسي عدداً كبيراً من الوسائل لفرض التفتيت والانقسام على المعسكر الأوروبي باختلاق نزاع شبيه بالحربين العالميتين. ولهذا يتوجب على موسكو أن تبذل قصارى ما في وسعها لتحقيق الوحدة الأوروبية وذلك بدعمها الدول الأوروبية الوسطى وألمانيا بالدرجة الأولى. فتحالف ألمانيا مع فرنسا ـ محور باريس ـ برلين (مشروع ديغول) يمثل العمود الفقري الذي يقام حوله جسم أوروبا وفقاً لما هو أقرب إلى المنطق. وفي ألمانيا وفرنسا تقليد

سياسي ثابت معاد للأطلسية (لدى التيارات السياسية اليمينية منها واليسارية). وإذا بقي هذا التقليد لوقت ما طي الاحتمال والكتمان فإنه في لحظة محدَّدة سيعبّر عن نفسه بأعلى صوته، وعلى موسكو أن تتوجه إلى هذا الخط الآن، ودون انتظار للتطور النهائي للأحداث.

مهمة موسكو ـ تخليص أوروبا من سيطرة الولايات المتحدة (الناتو)، العمل على توحيدها، وتعزيز العلاقات التكاملية مع أوروبا الوسطى تحت شعار المحور السياسي الخارجي الأساسي موسكو ـ برلين. الأوراسيا في حاجة إلى أوروبا الاتحادية الصديقة أما من وجهة النظر العسكرية فإنّها، لفترة طويلة لن تمثل في حدود ذاتها (بدون الولايات المتحدة) خطراً جاداً، بينما يمكن للتعاون الاقتصادي مع أوروبا المحايدة أن يحل العدد الأكبر من المشاكل السياسية لروسيا وآسيا ـ بمبادلته بالموارد الأولية والشراكة العسكرية ـ الاستراتيجية.

وانطلاقاً من هذه المهمة الجيوبولتيكية الخارجية، يَحْسن أيضاً تحليل وضع روسيا السياسي الداخلي في مناطقها الغربية أيضاً.

5 ـ 2 تدمير «النطاق الصحي»

المعادلة الأساسية لتحليل جيوبولتيكية «الغرب الروسي» هي مبدأ: «ما هو أوروبي ـ لأوروبا وما هو روسي ـ لروسيا». وهنا ينبغي التصرف على نحو ما كان الأمر عليه بالنسبة للعالم الإسلامي ـ فالحدود الجديدة لا مفر منها، وبعض المناطق يجب إعادة تقسيمها، إلا أن الأهم في جميع الحالات إقامة تشكلات ودّية ـ محايدة في الغرب تتمتع بحرية إتنو۔ ثقافية، اقتصادية واجتماعية قصوى لكنها ذات ارتباط استراتيجي بموسكو. والمهمة في حدها الأقصى ـ «فنلدة» أوروبا بكاملها، ولكن ينبغي البدء بإعادة ترتيب الآماد الممتدة متاخمة لروسيا بصفة مباشرة.

وعلى الفور تبرز هنا مشكلة: «النطاق الصحي» المعقدة. فالجيوبولتيكيون الأطلسيون يعون بصورة ممتازة خطورة اتحاد روسيا مع أوروبا (وبخاصة مع ألمانيا) ويحاولون بطريقة تقليدية تعكير ذلك. ومنهج التالاسوكراتية الأكثر فعالية هو «النطاق الصحي» أي إقامة شريط من عدة دول حدودية معادية للجارين الشرقي والغربي وترتبط ارتباطاً مباشراً بالقطب الأطلسي. وفي دور مثل هذا «العازل الصحي» تظهر بولندا بصفة تقليدية ودول شرق أوروبا الممتدة جنوباً ـ

تشيكوسلوفاكيا، رومانيا وما إليها. وكانت فكرة مثل هذا «النطاق» قد أعدت من قبلَ الجيوبولتيكي ماكيندر وطبقت بصورة ناجحة في الحياة في بداية القرن وقبل الحرب العالمية الثانية. وقد تم تحقيق الهدف في الحالتين ـ فقد نشب النزاع بين الدولتين القاريتين روسيا وألمانيا وبنتيجته أخذت الانتصارات الاستراتيجية تنتقل إلى الأطلسيين، وأمريكا مدينة بمكانتها على رأس **الغرب** بالذات لهاتين الحربين اللتين أغرقتا أوروبا بالدماء وأضعفتا بالذات ألمانيا وروسيا (عدوّي الأطلسيين الأهم).

ويبدو أن مثل هذا «النطاق الصحي» سيبرز أيضاً الآن وقد تمت صياغته من شعوب ودول صغيرة، حاقدة ولا مسؤولة تاريخياً، ذات مطالب متهوّسة وارتباط عبودي بالغرب التالاسوّكراتي.

يتناول الحديث ظهور شريط جيوبولتيكي بين البلطيق والبحر الأسود يتكون من دول عاجزة عن أن تدخل أوروبا كعنصر مكوّن كامل الأهلية لكنها مدفوعة بشدة عن موسكو والأوراسيا. وأدعياء عضوية «النطاق الصحي» الجديد هم شعوب البلطيق (الليتوانيون، اللاتفيون ـ الاستونيون)، بولندا (بما فيها بروسيا الغربية) وروسيا البيضاء (الأقلية الكاثوليكية المعادية للأوراسية تتجمع حول هذه الفكرة في هيئة لوبي)، أوكرانيا (وبالذات الغربية منها، الأونياتية ـ الكاثوليكية) المجر ورومانيا (أيضاً تحت تأثير الأونياتيين) وتشيخيا وسلوفاكيا. ومن الواضح في هذا المقام أن الحديث في كل مكان يدور حول القطاع الكاثوليكي في أوروبا الشرقية والذي ينتمي تقليدياً لتأثير الغرب، ونحن نتعامل هنا مع نفس تلك الدول التي عملت في التاريخ الجيوبولتيكي أكثر من مرة عتلاتٍ لتدمير التشكيلات القارية ـ الإمبراطورية الروسية، الإمبراطورية النمساوية المجرية، ومنذ فترة قريبة الاتحاد السوفياتي.

ومهمة الأوراسيا أن يزال هذا النطاق. وهذا في مصلحة أوروبا وروسيا. فهذه التشكّلات ليست ثابتة، إذا ما نظرنا إليها كتشكلات حكومية، وهي متناقضة إتنياً وطائفياً، غير ناضجة استراتيجياً واقتصادياً وتفتقر إلى الموارد. وبكلمة أخرى فلا معنى لهذه الدول الزائفة إلا كمناطق استراتيجية تؤازرها الأطلسية بطريقة مفتعلة وفي كل مكان تتوفر العوامل التي تشدها إلى الأوراسيا (إما الارثوذوكسية، وإما وعي القرابة السلافية، أو وجود السكان الروس، أو التقارب التاريخي، أو عدة عوامل مجتمعة معاً وإلى ما هنالك) بيد أن ثمة عوامل متناقضة تقربها أيضاً من الغرب (الكاثوليكية، الاونياتية، الغربة الاتنية، وتقاليد الاستقلال السياسي وما إلى ذلك)

وما دامت هذه التشكلات تمثل كلاً متكاملاً فلا يمكنها أن تفضل أي واحد من التوجهين، ولهذا بالذات تُصْبح بالمعنى الدقيق للكلمة «نطاقاً صحياً» فتكاملها مع الشرق تعوّقه بعض العناصر، والتكامل مع الغرب ـ عناصر أخرى. وهذا هو مصدر ذلك اللااستقرار الداخلي والخارجي الذي تثيره هذه الدول، وذاك ما تُحسن التالاسوكراتيا استغلاله، ويمثل العقبة الدائمة على طريق الجيوبولتيكا الأوراسية والحلف القاري.

والطريق الأوحد للتخلص من «النطاق الصحي» هو إعادة التقسيم الكامل للتشكلات الحكومية الجديدة على أساس العوامل الجيوبولتيكية الصرفة. وليس من الضروري أن يعني ذلك، وبصورة آلية، ضم الأراضي إلى دول أخرى. فقد يتناول الحديث إقامة فيدراليات أو عدة دول مكان هذه الدول، ويكون توجهها الجيوبولتيكي واحداً. وسيكون من السهل تكامل التشكلات غير الكبيرة والموحدة اتنياً، ثقافياً وطائفياً في أحلاف جيوبولتيكية كبرى ولدى توفر العلاقات الاتحادية القوية بين روسيا وأوروبا لن تفهم الحدود الجديدة على أنها العتبة الأصلية، القطيعة. وفضلاً عن ذلك فإن انعدام «النطاق الصحي» هو وحده القادر على جعل هذه العلاقات الأوروبية المشتركة طبيعية، وعلى تحويل المدى «من دوبلن إلى فلاديڤوستوك» إلى منطقة تعاضد أوراسي وتعاون وشراكة استراتيجية.

5 ـ 3 فيدرالية البلطيق

فلنتدارس بصفة أكثر تفصيلاً كامل الحزام الغربي اللصيق بروسيا. المدى المكاني بمجموعه يقسم إلى عدة قطاعات. فإلى المنطقة المتطرفة نحو الشمال يمتد الحزام السكانديناڤي، الممتد من النرويج وحتى فنلندة. أما بالنسبة لفنلندة فكنا قد درسنا المشروع الجيوبولتيكي العام في الفصل المخصص **للشمال** وسنتناول بالحديث هنا بناء التشكل الكاريلو ـ فنلندي الاتنو ـ ترابي ذي الاستقلال الذاتي الثقافي في حدوده القصوى ولكن ذي التكامل الاستراتيجي مع المعسكر الأوراسي. وتعود النرويج والسويد وجمهوريات البلطيق أيضاً إلى سياق جيوبولتيكي آخر ـ أكثر اتساعاً من الإشكالية الكاريلو ـ فنلندية.

ونصطدم هنا بمشكلة أكثر عمومية ـ هي جيوبولتيكية البلطيق وسكانديناڤيا. ولعل الأبعث على الراحة في هذه الحالة اقتفاء خطى الجيوبولتيكي السويدي

رودولف تشيلّين (صاحب مصطلح «الجيوبولتيكا») والنظر إلى المنطقة البلطيقية بأسْرها على أنها الامتداد الشمالي لأوروبا الوسطى المتكونة حول ألمانيا. ويرى تشيلّين بأنه لا يمكن أن يكون للجيوبولتيكا السكاندينافية أي تطور آخر إلا التوحد الاستراتيجي مع ألمانيا والمؤسس على الجماعية الاتنية، الثقافية، والجغرافية. إلا أن العنصر الرابط لكل هذا التركيب يجب أن تكون بروسيا ـ الدولة الألمانية مع هيمنة الطائفة البروتستانتية، المشتركة بالنسبة للسكاندينافيين. فالحلف البروتستانتي ـ السكاندينافي يجب أن يكون الامتداد الشمالي لبروسيا، لبرلين. ولهذا لا يمكن لمجموع هذا المدى المكاني وقد بدأ يعي نفسه كلاً متكاملاً أن يستغني عن إعادة البناء الجيوبولتيكي للوحدة الروسية. وبروسيا لم تعد موجودة الآن، وقد قسمت أراضيها بين ألمانيا وبولندة وروسيا. وبناء عليه ينتفي المنطلق الأساسي لإقامة فيدرالية البلطيق المحايدة سياسياً والصديقة لموسكو. ومن هنا تنبثق الاستحالة العملية لتنظيم المنطقة الحالية متوافقة مع المبادىء الأوراسية.

وعلى المستوى النظري المجرد يمكن حل المسألة على مرحلتين: 1 ـ يتم إنشاء مجال مكاني اتنو ـ طائفي جديد ضمن حدود بروسيا التاريخية، يكون المبادران إليه موسكو وبرلين. ومن هنا ينطلق ولاء الشخصية المحورية المذكورة لروسيا، التي تمنح الحياة لهذا التشكيل بالتنازل عن جزء من الأراضي البروسية التي تم الحصول عليها خلال مسيرة الحرب العالمية الثانية (منطقة كالييننغراد).

2 ـ تبدأ حول بروسيا عملية التوحد الاستراتيجي لدول البلطيق في معسكر واحد. وتدخل المعسكر النرويج، السويد، ألمانيا، استونيا، فنلندة ـ كاريليا، الدانمرك، وربما هولندة. ويُنتدب وضع خاص لبولندة، ليتوانيا ولاتفيا. ويكون الشرط اللازم خروج كافة الدول من حلف الناتو وإقامة منطقة منزوعة السلاح في البلطيق. وفي الأفق المنظور تنتقل السيادة الاستراتيجية إلى موسكو والقوات المسلحة في أوروبا «المحايدة» أي إلى المجمع الدفاعي الأوراسي.

نقطة الضعف الوحيدة في هذا النظام هما بولندة وليتوانيا حيث الغلبة للطائفة الكاثوليكية. وقد كانت هذه الأراضي بؤرة الانطلاق الأساسية للجيوبولتيكا التالاسوكراتية الموجهة ضد الأوراسيا وضد إمكانية إقامة الحلف القاري. وعلاوة على ذلك يوجد في التاريخ حادثة الاستقلالية الذاتية للإمارة البولندية ـ الليتوانية حتى إن المؤرخين (وشبنغلر بصفة خاصة) تحدثوا عن وجود «حضارة بلطيقية»

خاصة تتفق جغرافياً في خطوطها العريضة، مع الحدود التاريخية لبولندة وليتوانيا. إلا أن بعض الشروط التاريخية المحددة حالت دون نمو هذه الحضارة حتى تكتسب صورتها النهائية وجعلتها «مجهضة» (مصطلح شبنغلر). وينبغي الاعتراف بأن هذه المشكلة لا تملك في عمومها حلاً إيجابياً لأنها تصاغ بالطريقة التالية: إما أن يوجد المدى المكاني البولندي ـ الليتواني كواقع جيوبولتيكي مستقل (وتغدو إذ ذاك عائقاً لا يمكن إزاحته في طريق الوحدة البلطيقية الموالية للأوراسيا ومحورها في بروسيا)، وإما أن تتكامل أجزاؤه في أحلاف جيوبولتيكية أخرى بينما يفتت هو ويخنق وهو جنين. إن أي تكامل على أساس كاثوليكي في هذه المنطقة سيعود بالتوتر على **الشرق** (موسكو) وعلى **الشمال** (عالم سكاندينافيا البروتستانتي). وعلى **الغرب** (ألمانيا). وعليه فإن الشريك الجيوبولتيكي الأهم للأوراسيا في بولندة وليتوانيا يجب أن يكون القوى التي تؤكد على التوجه غير الكاثوليكي لسياسة هاتين الدولتين ـ أنصار «الاشتراكية ـ الديموقراطية»، «العلمانية»، «الوثنيون الجدد»، «المستعرقون(*)»، الأوساط الدينية البروتستانتية والارثوذوكسية والأقليات الاتنية. وفضلاً عن ذلك فإن التوتر الإتني في العلاقات البولندية ـ الليتوانية يعدّ عنصراً ثميناً إلى درجة خارقة للعادة يجب استخدامه وتعميقه في حدود الممكن.

وإذا كانت إعادة بروسيا تحل الجزء الأكبر من المشاكل مع بولندة ـ التي لا يتبقى لها في مثل هذه الحالة إلا طريق نحو الجنوب (إذ إن المنطقة البلطيقية ستغدو آنذاك تحت السيطرة الألمانية ـ الروسية)، فالوضع مع ليتوانيا أكثر تعقيداً لأنها الجزء الأكثر توضعاً نحو الشمال من العالم الكاثوليكي ولها خط ساحلي طويل على البلطيق وتفصل الأراضي الروسية عن النهاية الشمالية لأوروبا الوسطى دون أن تنتمي لهذا العالم أو ذاك. ومن الواضح أن الجيوبولتيكيين الأطلسيين لن يتأخروا عن استخدام هذا الظرف وسيحاولون جعل ليتوانيا بالذات سبب النزاع والعقبة الأساسية في إعادة ترتيب أوروبا. ولا يمكن الحد من الآثار السلبية للتوضع الجيوبولتيكي لليتوانيا بالنسبة للمشروع الأوراسي إلا بصفة جزئية وذلك بتدعيم الوحدة الاستراتيجية لهذه المنطقة كلها ومن خلال محاولة إقفالها من الشمال الغربي عبر الحلقة السويدية ـ الدانمركية.

(*) المستعرقون: المؤمنون بأفضلية عرق على آخر وبأن عرقهم أسمى من سائر الأعراق (المترجم).

5 ـ 4 الكاثوليك ـ السلاف يدخلون أوروبا الوسطى

عند الهبوط جنوباً نجد أنفسنا في المنطقة السلافية ـ الكاثوليكية أو الأونياتية التي تمتد من بولندة عبر بيلوروسيا الغربية وأوكرانيا الغربية، ڤولين، غاليتسيا، سلوڤاكيا حتى كرواتيا وسلوڤينيا غربي شبه جزيرة البلقان. وتقترب جيوبولتيكياً من هذه المنطقة المجر، النمسا وباڤاريا والمأهولة طبقاً لذلك بالكاثوليك المجريين والألمان. كما إن الكنيسة الأونياتية موجودة أيضاً في رومانيا الأرثوذكسية. وهذا المدى السلاڤي في غالبيته، وعلى الرغم من قرابته الأتنية والعرقية من روسيا، لم يتذاوب في أي يوم من الأيام مع الدولتية الشرقية السلاڤية ولا في مستوى أضعف من ذلك، ـ مع امبراطورية موسكو الأوراسية. فالقرابة الأتنية في هذه الحالة ليست الأساس الكافي للتكامل الجيوبولتيكي وازدواجية هذا العامل فرّخت، من الناحية التاريخية، نزاعات وحروباً بين روسيا (أوروبا بصيغة أوسع) وأعاقت التنظيم العضوي وغير المتناقض للمجموع الجيوبولتيكي في أوروبا المركزية.

تكونت الشعوب الكاثوليكية ذات الثقافة السلاڤية ضمن حدود امبراطورية النمسا والمجر ولم تظهر المماحكات الإتنية مع هذه الإمبراطورية، والتي أدت إلى انهيارها، إلا عندما ضيعت ڤيينا نفسها تصوّرها الخاص حول رسالتها الجيوبولتيكية الإمبراطورية ما فوق القومية واتجهت إلى التماهي أكثر فأكثر مع «الجرمانية» الإتنية. ولم يكن الاستثناء الوحيد إلا بوهيميا، موراڤيا والبوسنة حيث وعت السلاڤية منذ البداية تميزها عن البداية الجرمانية ـ الكاثوليكية وهو ما لقي انعكاسه في الحروب الهوسية وفي التذمرات الداعية إلى الإصلاح، وفي طرطشات التشرذم الطائفي (في حالة الصرب ـ البوغوميل البوسنويين)(*). أما من وجهة النظر الجيوبولتيكية فهذه الشعوب تنتمي جميعاً إلى أوروبا الوسطى ويجب أن تنتظم حول مركز أوروبا الوسطى، الذي هو بصورة طبيعية ـ ألمانيا. ولن تكون الأولوية

(*) الصرب البوغوميل: البوغوميليين ـ حركة ضد الإقطاع ظهرت في البلقان في القرون العاشر ـ الرابع عشر ثم تحولت إلى طائفة دينية حتى القرن السابع عشر. تأثرت من الناحية العقائدية، بالباڤلكيانية (من باڤل اسم بولس الرسول) التي ظهرت لأول مرة في القرن السابع في بيزنطة. (المترجم).

أبداً لتأثير موسكو المباشر على هذه المناطق لأن التقارب الإتني لا يزيد على أن يؤكد الظروف الثقافية ـ التاريخية والروحية ـ الطائفية.

انطلاقاً من هذه التصورات يتوجب على روسيا أن تمتنع عن السيطرة المباشرة على بلدان أوروبا الشرقية وأن تتخلى عنها للسيطرة الألمانية. وعلى موسكو إزاء ذلك ألا تنتظر بطريقة سلبية إلى أن يحدث ذلك بصورة تلقائية بل أن تعزز العمليات العضوية في هذا النطاق لكي تصبح مع برلين المبادر والمنفذ لكل العملية، وبذلك تنجز القسم الجيوبولتيكي في حل كافة المشاكل الحساسة. وسيكون من الضروري التخلي، في سبيل ذلك عن السيطرة على بعض مناطق غرب أوكرانيا ـ غاليتسيا، وزكاراباتييه المأهولة بصورة مكثفة بالأونيات والكاثوليك. ويتعلق هذا ببعض مناطق بيلوروسيا. وبالامتناع عن السيطرة المباشرة على بعض المناطق يجب أن تحصل موسكو على بديل هو حق الوجود الاستراتيجي في أقصى الحدود الغربية لمنطقة أوروبا الوسطى بأجمعها، ويتجلى في هذا معنى إعادة الترتيب الكامل لأوروبا الشرقية ويجب أن تقدم موسكو على تمكين المدى الكاثوليكي السلافي من التكامل مع أوروبا الوسطى بقيادة برلين أي إغلاق هذه المنطقة وفق مبدأ **شمال ـ جنوب**. والشيء المهم الوحيد في ذلك استبعاد ليتوانيا من هذه المجموعة (للأسباب التي تحدثنا عنها من أجل أن يُقام الترتيب الأوروسطوي بصلابة من طرف جانبين (روسيا وألمانيا))، مع الاستثناء الشامل للغرب ـ التالاسوكراتيا ـ وإلا فإن هذا الشريط سيكتسب بمجموعه معنى معاكساً إذ يتحول إلى «نطاق صحي» (على الرغم من أنه يبنى بالذات لكي يحول دون ظهور مثل هذا «النطاق»).

5 ـ 5 توحيد بيلوروسيا وروسيا الكبرى:

تبين خارطة البنية الطائفية لأوروبا الشرقية بصورة واضحة كيف أن السكان الأرثوذوكس بمقدار حركتهم نحو الجنوب يتحركون أيضاً نحو الغرب مزاحمين للكاثوليك. فتصل بعض الأراضي الصربية حتى سواحل الأدرياتيك كما إن هناك نسبة محدَّدة من الأرثوذوكس بين الألبان (كان الكاهن الأرثوذوكسي فان نولي مؤسس ألبانيا المستقلة).

هذه الأراضي التي تقع فيها بيلوروسيا والجزء المركزي من أوكرانيا،

مولداڤيا، رومانيا، صربيا وبلغاريا، ذات طبيعة جيوبولتيكية مزدوجة. فقد تكونت الهويَة الروحية لهذه الشعوب من مقاومة الإسلام في الجنوب والكاثوليكية في الغرب، وفكرتها القومية مرتبطة ارتباطاً لا ينفصم بالأرثوذوكسية. وفي مثل هذه الحالة لا يمكن لموسكو إلا أن تكلف ألمانيا بالسيطرة الجيوبولتيكية، وبصفة كلية على المنطقة وإلا أن تعلن عن نفوذها السياسي الكامل في هذه البلدان. وبخاصة أن الأمور ليست سوّيةً تماماً في العلاقات الروسية ـ المولداڤية والروسية ـ الرومانية (بغض النظر عن أوكرانيا) وأشد علاقات روسيا التاريخية اتثاقاً هي مع صربيا، ولكن لا يمكن أن يبنى على أسس هذه العلاقات تكتيك تكامل المنطقة بأسرها، لأن لصربيا مع جيرانها الأرثوذوكسيين علاقات يشوبها أيضاً بعض التوتر. وفضلاً عن ذلك كنا قد سلطنا الضوء على اللوحة العامة للاستراتيجية الجيوبولتيكية لروسيا في البلقان في الفصل المتصل المتصل **بالجنوب**، أما هنا فيجب النظر بصفة أكثر ملموسية إلى الأراضي التي تشغلها بيلوروسيا، أوكرانيا ورومانيا (مع مولداڤيا).

أما بالنسبة لبيلوروسيا فاللوحة الجيوبولتيكية واضحة إلى حد بعيد. فباستثناء قسم غير كبير من البيلوروسيين المُبَلْنَدين (الكاثوليك والأونيات، والبولنديين أيضاً) فإن الغالبية العظمى من السكان تنتسب للمدى الروسي، وينبغي النظر إليها على أنها موضوع الأتنوس الأوراسي المركزي أي إنها «كالروس» في المعاني الدينية، الإتنية والجيوبولتيكية. والخاصية اللغوية وبعض الخصائص الإتنية والثقافية لا تبدل اللوحة العامة. ولهذا يتوجب على موسكو أن تتكامل مع بيلوروسيا بأوثق صورة ممكنة دون أن تنسى في الوقت نفسه أن تشجيع الخصوصية اللغوية والذاتية للبيلوروسيين تمثل لحظة إيجابية هامة في مجموع منظومة التكامل الأوراسي. فبالنسبة للأتنوسات المنتمية إلى دولة واحدة ينبغي التنبه إلى هذا المبدأ بنفس الصرامة التي ينظر بها إلى الشعوب الحدودية أو الجيران. والخطوة المرَضية الوحيدة في بيلوروسيا، والتي لا بد من اتخاذها من أجل تلافي الميول النابذة المدمرة هي تخصيص بند إداري خاص لبعض المناطق المأهولة بشكل مكثف بالكاثوليك والأونيات إلى حدود منحهم حداً كبيراً من الاستقلال الذاتي الكافي للدخول في المدى الأوروبي الأوسط. ومحاولة وضع بيلوروسيا بكاملها في قبضة يد السيطرة المباشرة والحازمة لموسكو ستؤدي إلى أن يكون لروسيا في تلك البلاد نفسها ومن جهة جيرانها الغربيين جمرات متوهجة لإذكاء نزاع جيوبولتيكي مرتقب،

يمكنه في هذه الحالة (وخلافاً لليتوانيا على سبيل المثال) أن يحل لصالح جميع الجهات المعنية.

ينبغي النظر إلى بيلوروسيا على أنها جزء من روسيا، ولهذا يجب تطبيق التكامل معها وفق محور **الغرب ـ الشرق** والذي يعد أولياً في جميع حالات التنظيم الداخلي للمدى المتجانس إتنياً. ويجب أن تمتد الحدود الغربية الحقيقية لروسيا على منطقة أبعد بكثير، ذلك أن الأراضي البيلوروسية تنتمي، في اللوحة الجيوبولتيكية المتكاملة، إلى المنطقة المركزية أكثر من انتسابها إلى الأطراف الغربية.

5 ـ 6 اللاّتركيب الجيوبولتيكي لأوكرانيا:

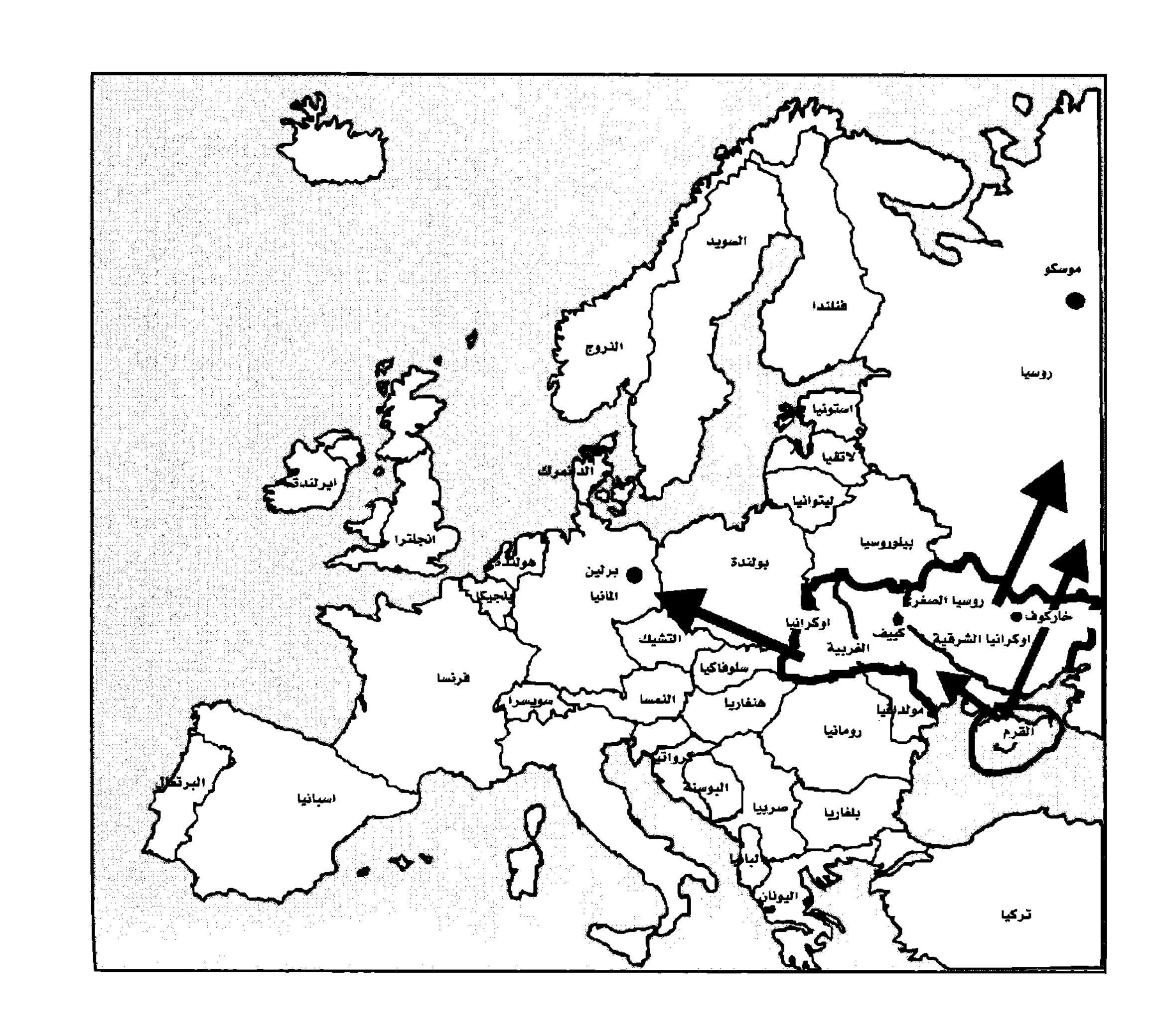
مسألة أوكرانيا أكثر تعقيداً على الرغم من أن أنموذج التركيب الجيوبولتيكي لهذه الدولة شديد التجانس. والحق إن دوراً كبيراً في هذا يلعبه البعد الجيوبولتيكي لأوكرانيا والذي يمثل تكويناً ترابياً هائلاً يفوق في حجمه عدداً من الدول الأوروبية الكبرى. والأشد فعالية في أوكرانيا، وما يصل إلى حدود لا يمكن مقارنتها، هو الروح الانفصالية والميول إلى السيادة السياسية. وأوكرانيا كدولة لا تتسم بأي معنى كوني، ولا أية فردانية جغرافية ولا استثنائية إتنية، والمغزى التاريخي لأوكرانيا متجسد في اسمها «أوكرايينا» أي «الأطراف» «الأراضي الحدودية». وفي عهد روسيا الكييڤية[*] كانت أراضي أوكرانيا الحالية مركز السلاڤيين الشرقيين الذين،

(*) روسيا الكييڤية: في النصف الثاني من القرن التاسع ظهرت لدى السلاف الشرقيين الذين كانوا موزعين في تجمعات وإمارات مختلفة ـ أول الدول ومركزها كييف. قام إيغور (حكم بين 879 وبداية القرن العاشر) بتوحيد القبائل (إيغور المتوفّى 945) وسڤياتوسلاڤ (توفي 972) بتوسيع وتدعيم الدولة وانضمت إليها كييف، نوفجورود، بْسكوف، تشيرنيغوف، بولوتسك وسواها. وفي عهد الأمير ڤلاديمير سڤياتوسلاڤيتش (حكم بين 1980 ـ 1015) تم اعتناق المسيحية على الصعيد الشعبي وصارت الديانة الرسمية للدولة. وحاول الأمراء توسيع رقعتها فقام كل من أوليغ وإيغور بحملات على تسارغورود (أي القسطنطينية) وأغار سڤياتوسلاڤ على مناطق أوكا والڤولغا وقضى على دولة الخزر سنة 965 وحاول ترسيخ وجود الدولة في مناطق الدانوب. وزادت الدولة توسعاً في عهد ياروسلاڤ الحكيم (1019 ـ 1054) ونجح ڤلاديمير مونوماخ (1113 ـ 1125) في وقف تجزئة الدولة لكنه لم يستطع القضاء عليها نهائياً فظهرت على أراضي الدولة 13 إمارة إقطاعية لم تبق لكييف إلا السيطرة الاسمية عليها ومال مركز ثقل الدولة نحو =

كانت ڤلاديمير (ثم موسكو بعد ذلك) أوكرايينهم أي «أطرافهم» الشرقية وَنوڤچوورود «أوكرايينهم» الشمالية. ولكن بمقدار تحول روسيا من دولة سلاڤية إلى امبراطورية أوراسية بدّلت المهمات الجيوبولتيكية للمراكز العظمى معانيها. وصارت موسكو عاصمة الإمبراطورية، أما كييف فتحولت إلى مركز ثانوي التقى فيها النفوذان الأوراسي والأوروسطوي. ولم يكن ثمة أي حديث عن أي نوع من تركيب الثقافات. والأقرب إلى الواقع أن الطبقات الروسية الأرثوذكسية الأكثر قدماً تعرضت للتأثير الديناميكي والأكثر «حداثة» لأوروبا الغربية، وبخاصة عبر بولندا في الغرب والنمسا والمجر في الجنوب الغربي. ومما لا شك فيه أن الثقافة واللغة الأوكرانيتين مميّزتان وفريدتان، إلا أنهما، مهما كان الأمر، مجردتان من أي معنى عالمي. فالسكان القوزاق الذين كونوا، إلى حد ملموس، الأتنوس الأوكراني، كانوا يتميّزون بالاستقلالية وبالخصوصية الإتنية، الاقتصادية والاجتماعية الخاصة، لكن هذه العناصر جميعها غير كافية للاستقلالية الجيوبولتيكية. أما الخارطة البوتامية لأوكرانيا حيث تجري الأنهار الرئيسية فيها (الدنيستر والدنيبر وغيرهما) باتجاه يوازي فيه أحدهما الآخر فتفسر التطور البطيء للدولتية الأوكرانية.

ولهذا السبب فإن وجود أوكرانيا المستقل (وبخاصة في حدودها المعاصرة) لا يمكن أن يكون ذا معنى إلا بصفتها «نطاقاً صحياً» لأن المبادىء المتناقضة وفقاً للتوجه الجيوبولتيكي لا تسمح لهذه البلاد بالانضمام كلية لا إلى المعسكر الشرقي ولا إلى المعسكر الغربي. لا إلى روسيا ـ الأوراسيا ولا إلى أوروبا الوسطى. وهذا كله يقضي على أوكرانيا بالوجود العميل وبالخدمة الجيوبولتيكية للاستراتيجية التالاسوكراتية في أوروبا. وبهذا المعنى يتشابه دور أوكرانيا مع جمهوريات البلطيق. وعلى هذا الأساس نوقش مرة وبصفة جادة مشروع إقامة «فيدرالية البحر الأسود والبلطيق» أي «النطاق الصحي» الأنموذجي ـ التشكل الجيوبولتيكي التخريبي

= روسيا الشرقية الشمالية. ومع ذلك كانت كييف النواة الأولى لوجود الدولة الروسية، وارتبطت بعلاقات مصاهرة مع كبريات الدول في عهدها: بولندة، ألمانيا فرنسا، تشيخيا، انجلترة، بيزنطة والدول السكاندينافية. وتجلى ازدهار فن العمارة فيها في بناء القصور والكنائس، كما ظهرت في عهدها أعداد من المدونات الأدبية والتاريخية بفضل انتشار الكتابة وترسخت الشخصية اللغوية السلاڤية الشرقية والتي ظهرت على أساسها شعوب نعرفها اليوم باسم روسيا الكبرى وبيلوروسيا وأوكرانيا. (المترجم).


موسكو
روسيا
فنلندا
السويد
النروج
استونيا
لاتفيا
ليتوانيا
بيلوروسيا
بولندة
برلين
المانيا
روسيا الصغرى
خاركوف
كييف
اوكرانيا الشرقية
اوكرانيا
الغربية
التشيك
سلوفاكيا
النمسا
هنغاريا
رومانيا
القرم
سويسرا
فرنسا
انجلترا
اسبانيا
البوسنة
صربيا
بلغاريا
اليونان
تركيا

الذي يعمل على تقويض الاستقرار في أوروبا الشرقية وتهيئة المنطلقات الأساسية لسلسة كاملة من النزاعات المسلحة ووجود أوكرانيا ضمن الحدود الحالية وفي وضع «الدولة ذات السيادة» الحالي شبيه بتوجيه ضربة قاصمة إلى الأمن الجيوبولتيكي لروسيا يعادل اختراق أراضيها.

ومن غير المسموح به الوجود المقبل لأوكرانيا الموحّدة ويجب أن تقسم هذه البقعة إلى عدة شرائط تتفق مع مجموعة ألوان الوقائع الجيوبولتيكية والأتنو ـ ثقافية.

1) أوكرانيا الشرقية (كل ما يمتد شرقي الدنيبر ـ من تشيرنيغوف حتى بحر آزوف) وتمثل منطقة كثيفة السكان ترْجح بينهم غالبية الأتنوس الروسي والسكان الأرثوذوكسيين من روسيا الصغرى. وهذه البقعة قريبة دون شك من روسيا وترتبط بها ثقافياً، تاريخياً، إتنياً ودينياً. وهي منطقة معمورة بشكل ممتاز، متطور تقنياً، ويمكنها أن تشكل منطقة جيوبولتيكية مستقلة ذات استقلال ذاتي واسع لكن ضمن حلف غير مشروط وعلى أشد الاتثاق على موسكو، ويفضّل هنا التكامل وفقاً لخطوط الطول، وارتباط منطقة خاركوف بالمساحات الروسية الأكثر توضّعاً نحو الشمال (مناطق بيلغورودسكايا، وكورسكايا وبريانسكايا) وتوسيع هذا التركيب باتجاه الجنوب.

2) القرم ـ وهو تشكل جيوبولتيكي خاص يتميّز تقليدياً بموازيكيته الإتنية. فأهالي روسيا الصغرى وروسيا الكبرى وتتار القرم منتشرون في القرم ضمن تكوين بالغ التعقيد ويمثلون ثلاثة دوافع جيوبولتيكية يناصب بعضها البعض العداء حتى درجة كافية. فأبناء روسيا الكبرى متوجهون بصورة مشدَّدة بالولاء لموسكو (وبصورة أكثر عدوانية من بقية أوكرانيا حتى الشرقية منها). وأبناء روسيا الصغرى(*)، على العكس من ذلك في غاية التعصب القومي. أما تتار القرم فهم متجهون أكثر نحو تركيا وعلى علاقة عدوانية كافية بروسيا. أما احتساب التوجه الجيوبولتيكي لتتار القرم فلا سبيل إلى الحديث عنه، لأن تركيا من كل النواحي، تمثل العدو الجيوبولتيكي المباشر لروسيا. ولكن من المستحيل ألاّ يؤخذ في

(*) روسيا الصغرى: الاسم الرسمي لأوكرانيا منذ منتصف القرن السابع عشر في التقارير الرسمية لروسيا القيصرية كما في الكتابات التاريخية العائدة لعهود النبلاء أو للعهد البورجوازي من تاريخ روسيا (المترجم).

الحسبان وجود التتار في القرم. والضم المباشر للقرم إلى روسيا سيثير ردة فعل موغلة في سلبيتها من طرف أهالي روسيا الصغرى وسيستدعي مشاكل تكامل شبه الجزيرة هذه في النظام الروسي عبر الأراضي الأوكرانية وهو ما يعد أمراً بعيداً عن الواقعية، كما إن التخلي عن القرم «لأوكرانيا ذات السيادة» مستحيل أيضاً ما دام سيشكل تهديداً للأمن الجيوبولتيكي لروسيا وسيولد توتراً إتنياً في القرم نفسه.

وبالأخذ في الاعتبار جميع هذه التصورات يتقدم الاستنتاج القائل بضرورة منح القرم وضعاً خاصاً وضمان أكبر حد ممكن من الاستقلال الذاتي مع السيادة الاستراتيجية المباشرة لموسكو ولكن مع احتساب المصالح الاجتماعية ـ الاقتصادية لأوكرانيا والمطالب الأتنوثقافية لتتار القرم.

3) القسم الأوسط من أوكرانيا من تشيرنيغوف وحتى أوديسا، والذي تقع كييف ضمنه، ويمثل منطقة مكتملة أخرى يسيطر فيها إتنياً اتنوس روسيا الصغرى ولغتها، لكن الطائفة المسيطرة هي الأرثوذوكسية. وهذه الروسيا الصغرى الأرثوذوكسية تمثل واقعاً جيوبولتيكياً مستقلاً يقترب ثقافياً من أوكرانيا الشرقية ويدخل دون شروط في النظام الجيوبولتيكي الأوراسي.

4) أوكرانيا الغربية وهي غير متجانسة. في الشمال ڤولين، منطقة قائمة بذاتها، جنوباً منطقة لڤوڤسكايا (غاليتسيا) وإلى الأبعد جنوباً ـ زاكارباتيه (النتوء الغربي)، وأخيراً القسم الشرقي من بيسارابيا. وجميع هذه المناطق تمثل مناطق مستقلة. وفي ڤولين يَرْجح الأونيات والكاثوليك، وتنتمي هذه المنطقة ثقافياً إلى القطاع الجيوبولتيكي الكاثوليكي من أوروبا الوسطى. واللوحة نفسها تقريباً في غاليتسيا وزاكارباتيه، على الرغم من أن هذه المناطق الأكثر تطرفاً إلى الجنوب تمثل واقعاً جيوبولتيكياً قائماً بذاته. فڤولين مرتبطة تاريخياً ببولندا أما غاليتسيا وزاكارباتيه ـ فبإمبراطورية النمسا والمجر. فالأراضي البيسارابية من أوكرانيا مأهولة بخليط سكاني حيث أبناء روسيا الصغرى وروسيا الكبرى يختلطون بالرومانيين والمولداڤيين. وهذه المنطقة أرثوذوكسية عملياً بكاملها وتمثل شريطاً أرثوذوكسيا ينطلق في صورة خط منحرف من روسيا الكبرى إلى البلقان نحو صربيا ومجموع القطاع من بيسارابيا حتى أوديسا ينبغي نسبه إلى المدى الجيوبولتيكي الأوكراني ـ الأوسط ولهذا فإن من الأكثر منطقية إدخاله في الشريط الطولاني الساحلي الأيسر لنهر الدنيبر والذي تمتد حدوده الغربية من روڤنو حتى أيڤانو ـ فرانكوفسك وفق

محور **الشمال ـ الجنوب** ثم جنوباً عبر الدنيستر إلى أوديسا في الجنوب.

وعلى هذا فإن أوكرانيا الغربية تتألف في المعنى الضيق لهذا المفهوم من ثلاث مقاطعات ـ ڤولين وغاليتسيا وزاكارباتيه. وعلى الرغم من تقارب هذه المناطق ترابياً فإنها تختلف عن بعضها تضاريسياً (فزاكارباتيه منطقة جبلية مثل سلوفاكيا) كما تتباين في تركيبها الإتني وتقاليدها السياسية. وهذه المناطق التي تؤثر اليوم بحيوية في الجو السياسي العام لأوكرانيا وتطبق بفعالية نهجاً جيوبولتيكياً معادياً لموسكو موالياً للغرب ينبغي أن تُميّز بمستوى ملموس من الاستقلال الذاتي (حتى السياسي) من أجل قطع هذه المناطق «التخريبية» عن المدى الأرثوذوكسي الأوكراني العام ـ المركزي منه والشرقي ـ والموالي في عمومه للروس. والحدود الاستراتيجية لروسيا عند خطوط العرض هذه لا يمكنها أن تكون مرتبطة بأماكن اختراق الحدود الأوكرانية ـ البولندية ولا الأوكرانية ـ المجرية، ولا الأوكرانية ـ السلوڤاكية. هذه الحدود الاستراتيجية يجب أن تمر على مسافة أبعد بكثير نحو الغرب، على الأقل على النهاية الغربية لأوروبا الوسطى، وفي أحسن الأحوال ـ عبر الأطلسي. وانطلاقاً من هذا المنظور بالذات تجري إعادة الترتيب الجيوبولتيكية لهذه المنطقة، وعلى روسيا وهي تؤدي دور المبادر إلى التحولات الجيوبولتيكية في أوروبا الشرقية وبصفة الشريك الأكبر لألمانيا، أن تؤكد بالدرجة الأولى، على شرط تخليص هذه المنطقة بكاملها من السيطرة الأطلسية وعلى أن يقام في هذا المكان مجمّع الدفاع القاري الأوراسي المتكون من التعاون العسكري ـ الاستراتيجي لروسيا وأوروبا على العموم.

وبمقدور ڤولين، غاليتسيا وزاكارباتيه أن تنشىء «الفيدرالية الأوكرانية الغربية» المشتركة التي يمكن لمستوى التكامل في داخلها أن يقام كيفياً انطلاقاً من شروط محدَّدة. والأهم هنا إقامة حدود ثقافية ـ طائفية بين أوكرانيا المركزية (أراضي كييف بالذات) وأوكرانيا الغربية لتفادي التأثير الكاثوليكي أو الأونياتي المركزي ـ الأوروبي غير المتناسق على الأراضي الأرثوذوكسية.

والعامل الأوكراني يمثل النقطة الأضعف في الحزام الروسي الغربي. وإذا كانت خطورة تدمير الاستقلالية الجيوبولتيكية للـheartland تبدو محتملة، وإذا كانت حرب خنادق من أجل نظام جيوبولتيكي أوراسي لا تضع أمامها إلا الأهداف الوقائية فإن حقيقة وجود «أوكرانيا المستقلة» تعد على المستوى الجيوبولتيكي،

إعلان حرب جيوبولتيكية على روسيا (وهذه قضية ليست من صنع أوكرانيا نفسها، بقدر ما هي من صنع الأطلسية والـSea Power). والحديث يدور لا عن أن أوكرانيا تختار بنفسها وبوعي منها دور «النطاق الصحي» الأطلسي، على الرغم من أن ذلك لا يمكنه في بعض الحالات إلا أن يكون خطوة تم وعيها، بل عن أنها من الناحية العملية، ستشرع في أداء ذلك الدور بمجرد أن تُحجب عن الدخول بفعالية في العمليات التكاملية مع موسكو، أو (على الأقل) عندما لا تتحلل إلى مكوناتها الجيوبولتيكية المتفرقة.

المشكلة الأوكرانية ـ هي المشكلة الأهم والأكثر جدية أمام موسكو. وإذا كانت مشكلتا **الشمال** وشبه المنحرف القطبي مرتبطتين بمستقبل روسيا والأوراسيا البعيد، وإذا كان إعمار سيبيريا والحرب في سبيل الـLenaland يتخذان أهميتهما من أجل المستقبل القريب، وأخيراً، إذا كانت الاستراتيجية القتالية لاعادة ترتيب **الجنوب** الآسيوي تتخذ بالنسبة لروسيا معنى عملياً لكنه وقائي ـ فإن جيوبولتيكا الغرب ومركز هذه الجيوبولتيكا ـ «المسألة الأوكرانية ـ تطالب موسكو بإجراءات جوابية فورية ما دام الحديث يدور حول تسديد ضربة استراتيجية في الوقت الحالي إلى روسيا، ضربة لا يملك «المحور الجغرافي للتاريخ» الحق في أن لا يرد عليها.

وبالأخذ في الاعتبار أن تكامل موسكو البسيط مع كييف غير ممكن ولن يقدّم النظام الجيوبولتيكي الثابت، حتى ولو أنه جرى على الرغم من أية عقبات موضوعية، فإن على موسكو أن تشارك بفعالية في إعادة ترتيب المدى الأوكراني وفق الأنموذج الجيوبولتيكي الطبيعي والمنطقي الأوحد.

5 ـ 7 رومانيا ومولداڤيا ـ التكامل وفقاً لأي قانون؟

رومانيا ومولداڤيا جزءان لمنطقة جيوبولتيكية موحّدة يقطنها اتنوس أرثوذوكسي واحد ـ أحفاد الداكيين(*) الذين يتكلمون واحدة من لغات المجموعة اللاتينية وقد تشبعوا إلى حد كبير بعناصر الوسط السلاڤي المحيط، الثقافية منها

(*) الداكيون قبائل تراقية شمالية كانت تعيش فوق الأراضي الممتدة بين شمالي الدانوب ومشارف الكاربات. تولّى ديستيبال (Decebalus) قيادتهم منذ سنة 87، وفي سنة 89 وبعد حرب مظفرة مع روما جعلها تدفع لهم التعويضات السنوية. ثم تواصلت =

واللغوية والعرقية. والتكامل بين رومانيا ومولدافيا من وجهة النظر الجيوبولتيكية أمر لا مفّر منه. ولكن على موسكو في الوقت نفسه أن تحوِّل هذا الاتحاد لصالحها، لكي تدخل هذا المدى في مدار سيادتها الاستراتيجية المباشرة. وثقافة رومانيا تمثل في مجموعها الطراز الأرثوذوكسي النموذجي الذي يربط هذه الأراضي مباشرة بالأوراسيا. والعقبة الوحيدة التي تحول دون التكامل المطلق لهذه الأراضي مع روسيا هو العامل اللغوي والقرابة الجيوبولتيكية مع المناطق الكاثوليكية. يضاف إلى هذا أن نسبة المجريين الكاثوليك والرومانيين ـ الأونيات كبيرة في باناتا غربي رومانيا.

عبر رومانيا ومولداڤيا وأوكرانيا الوسطى يمتد شريط متصل ـ تقطنه شعوب أرثوذوكسية تربط أراضي روسيا مع صربيا، قلعة أوراسيا المتقدمة في البلقان. وفي مصلحة الأوراسيا تحويل هذه المنطقة بكاملها إلى منطقة استراتيجية وثقافية موحدة ـ بلدٍ واحد من الناحية العملية. وهذا ما يطالب موسكو بأن تكون المبادرة إلى تحقيق التكامل الروماني ـ المولدافي والذي يجب أن يتحدد شعاره منذ البداية أرثوذوكسياً أوراسيا. ومن المهم بهذه المناسبة أن يقفل الأنكلاف الأرثوذوكسي الروماني من الشرق ومن الغرب من طرف شعوب أرثوذوكسية سلافية ـ الأوكرانيين والصرب ليضمنوا بذلك استمرارية التكامل الترابي لا على أساس المظهر الإتني بقدر ما هو قائم على العامل الطائفي والقرابة الثقافية. وإلى جانب ذلك فإن مثل هذا «الخلف الأرثوذوكسي» من الدنيستر وحتى الجبل الأسود، والذي ينبغي أن تكون رومانيا الموحّدة في وسطه، ينبغي أن يتكون بتعاون مع برلين التي يُقدَّم إليها الشطر المتطرف إلى الغرب في أوروبا الوسطى بداية من بروسيا مروراً بتشيخيا وسلوفاكيا حتى المجر والنمسا ثم إلى كرواتيا بعد ذلك أي إلى بحر الأدرياتيك. فإذا أضفنا إلى ذلك النتوء الشمالي من بولندا، وبروسيا الشرقية والذي يكون من نصيب ألمانيا في مناطق أكثر تطرفاً إلى الشمال فإن الاستمرار الطبيعي لروسيا نحو الغرب في منطقة البلقان سيكون منطقياً ومقبولاً دون أن يخرق التوازن

= الحرب بين 101 ـ 102 ثم 105 ـ 106 وانتهت بخضوع الداكيين لروما وانتحار زعيمهم سنة 106 وتحولت بلادهم إلى مقاطعة رومانية سميت داكيا في عهد تراجان وحتى خروج الرومان سنة 271 وتعرضت خلال ذلك للتأثير الثقافي الروماني الشديد. (المترجم).

الجيوبولتيكي لأوروبا الوسطى التي تنتسب جيوبولتيكياً إلى مجال نفوذ ألمانيا.

5 ـ 8 الشرط: التربة لا الدم

هذه الأعمال جميعاً تنبثق من اللوحة العامة للجيوبولتيكا القارية، التي تتميّز فيها بشكل واضح مناطق أوروبا الوسطى (تحت راية ألمانيا) وأوروبا الغربية بالمعنى الضيق. وليس لروسيا نقاط تماس مباشر مع أوروبا الغربية، ولهذا فإن تطبيق استراتيجية أوراسية في هذه المنطقة (التي تعد فرنسا مفتاحها الأساسي) يرتبط ببناء التركيبة الأوروبية العامة حول محور برلين ـ باريس. إلا أن العامل الأوراسي في أوروبا الغربية لا يمكن أن يكون خط موسكو المباشر. فموسكو لا تتصرف هنا إلا من خلال برلين. أما المشاعر الأوراسية القارية المعادية للأطلسية فتصوَّر هنا بمصطلح واحد، «حبّ الألمان». ويستحيل أن يطالب الفرنسيون بتعبير عن الأوراسية أفضل من «حب الألمان». لأن أوروبا الغربية تتوصل إلى إشكالية الـheartland عبر القارية الألمانية. أما روسيا في هذه الحالة فـ«تجريدية جيوبولتيكية».

لكن هذا لا يعني وجوب أن تكون روسيا بعيدة عن المشاركة في القضايا الأوروبية الغربية. فمن مصالحها إخراج أوروبا كلها من تحت النفوذ الأطلسي، وهذا يعني أن على موسكو أن تعمل على تراصف أوروبا الغربية مع أوروبا الوسطى أي مع ألمانيا.

وعلى ألمانيا نفسها إزاء ذلك أن تطرح منذ البداية المطلب الأساسي: على جميع عمليات التكامل في أوروبا الوسطى حيث السيطرة الجيوبولتيكية علانية لبرلين، بالإضافة إلى جميع التشكلات في أوروبا الغربية والتي تهدف إلى توجه الدول الأوروبية نحو ألمانيا، أن تستثني مبدأ السيطرة الإتنية للألمان في الميدان الثقافي، السياسي الطائفي، الاجتماعي أو الإيديولوجي. أوروبا يجب أن تكون أوروبية وأوروبا الوسطى أوروسطوية أي إن الخصوصية اللغوية والإتنية والروحية لشعوب أوروبا يجب أن تزدهر وأن تحظى بالتشجيع من طرف برلين التي ينبغي أن تظل صورتها، بصفة استثنائية، جيوبولتيكية واجتماعية وليست عرقية بأي صورة من الصور. وموسكو مسؤولة عن الاتنوسات الأوروسطوية الكثيرة العدد بفعل

قرابتها العرقية (السلافية) معها وفضلاً عن ذلك فإن المركزية العرقية بالذات والتعالي القومي والعرقي للألمان قد أفضيا أكثر من مرة إلى النزاعات الدامية في أوروبا، فيجب على روسيا أن تكون، طيلة إعادة الترتيب الجيوبولتيكية لأوروبا، ضامنة أن تتقاسم برلين الجيوبولتيكا والعرق «التربة والدم» لكي يجري عمداً استبعاد المآسي الشبيهة بالمغامرة الهتلرية. وأية مظاهر للقومية الألمانية في مسائل إعادة الترتيب الجيوبولتيكية لأوروبا يجب أن تسحق دون رحمة من طرف برلين نفسها؛ وجميع العمليات يجب أن تجري على أساس مراعاة «حقوق الشعب»، والاستقلال الذاتي الكامل للثقافات والأديان واللغات.

أمثال هذه المطالب يتوجب على موسكو أن تلزم بها نفسها وحلفاءها أيضاً. فالبداية الإتنية يجب أن تلاقي التشجيع والعون الفعال من طرف المركز الجيوبولتيكي فقط كواقع إيجابي وكهوية وطنية. وطبيعي أن من المستحيل توقع الاختفاء الكلي للمماحكات بين الإتنية وبروز الجوانب السلبية لإثبات الهوية القومية ولكن في مثل هذه اللحظة بالذات يجب أن يتحرك للعمل بفعالية مبدأ المركزية الجيوبولتيكية ـ حَكماً أعلى فوق الإتنيات يحسم المشاكل الداخلية منطلقاً من المصالح الحيوية والسياسية للكل الأوراسي.

وهذا المبدأ شامل بالنسبة لكافة المناطق التي ينبغي أن يطبق فيها النظام الأوراسي الجديد ـ سواء الداخلية بالنسبة لروسيا أم الخارجية. لكنْ يكتسب أهمية خاصة بالنسبة للغرب، لأوروبا، وذلك لأن المشاكل الإتنية في هذه الآماد المكانية تكمن في صلب النزاعات الأشد هَوْلاً والتي هزّت أعطاف القرن العشرين.

الباب السادس

التحليل الأوراسي

الفصل الأول **1**

جيوبولتيكا الأرثوذكسية

1 ـ 1 شرق المسكونية المسيحية وغربها

النقطة الأهم في تحديد الخاصية الجيوبولتيكية للأرثوذكسية تتلخص في أن الحديث يدور حول الكنيسة **الشرقية**. ففي حدود العالم المسيحي الذي كان، حتى اكتشاف أمريكا، يتوافق جغرافيًّا مع شمال غرب القارة الأوراسية والشرق الأدنى وشمال أفريقيا، يمكن تلمس خط حدود بين المدى الأرثوذكسي والمدى الكاثوليكي. وهذا التقسيم لا يعد، بالتأكيد صدفة تاريخية. فالعالم الأرثوذكسي يقترب روحياً ونوعياً من الشرق، بينما الكاثوليكية، ظاهرة غربية صرفة. وما دام الأمر كذلك فإن الصيغ التيولوجية نفسها والثاوية في أساس الانشقاق النهائي للكنيستين سنة 1054 يجب أن تحمل في أعماقها عناصر الطابع الجيوبولتيكي.

الجدل حول «الفيليوكوي»، أي انبثاق الروح القدس فقط من الأب أم من الأب والابن[1] يستبق في المصطلحات اللاهوتية تطور نمطي الحضارتين المسيحيتين وما بعد المسيحيتين ـ الحضارة العقلية الفردانية الغربية والغيبية ـ الجماعية الشرقية. واعتناق الغرب للتعديل على رمز نيقية للعقيدة والمتعلق بـ«الفيليكوي» ـ رسخ بصفة نهائية التوجه نحو اللاهوت العقلاني أي «التابعية» أي إثقال الواقع الإلهي بعلاقات تابعة تدرّجياً تحط من قدر الطبيعة السرية وما فوق العقلانية للثالوث المقدس.

وبصورة موازية لمسألة الفيليكوي صارت فكرة فوقية الكرسي الروماني والسلطة اللاهوتية العليا للبابا نقطة الخلاف الأهم. فكان ذلك أيضاً واحداً من آثار

«التابعية» الكاثوليكية، المتمسكة بالتراتبية الصارمة المباشرة حتى في تلك المسائل الواقعة تحت رمز الحدث الناجز بفضل عناية الروح القدس لخلاص العالم. هذا الموقف عارض معارضة مباشرة فكرة الاستقلالية اللغوية الذاتية للكنائس المحلية والحريةَ القصوى التي كانت أمراً تقليدياً بالنسبة للأرثوذوكسية في ميدان الإنجاز الروحي.

وأخيراً فإن الميدان الأهم لانقسام الكنيسة إلى شرقية وغربية كان رفض روما للتعاليم المقدسة المتعلقة بالإمبراطورية والتي لا تعد ببساطة جهازاً علمانياً إدارياً خاضعاً بصفة آلية للسلطات الكنسية حسبما أراد أن يصوّرها البابوات بل تعد جهازاً سرياً خلاصياً يشارك بفعالية في الدراما الأُخروية مثل «الحيلولة دون ظهور المسيح الدجال»، «كتاب شروح المسيحية»، «المرتفع» وهو ما جرى الحديث عنه في رسالة بولس الرسول الثانية إلى أهل تسالونيكي.

إن الحكمة العليا للحدث الإلهي (أولوية اللاهوت التمجيدي السري)، الحرية الروحية واللغوية للكنائس المحلية (والتي تسامت حتى تفاسير الرسل في يوم العنصرة)، والتعاليم المتعلقة بالدور القداسي للإمبراطورية والأباطرة (نظرية الوئام الأرثوذوكسي) ـ تلك هي النقاط الأساسية التي تحدد جوهر الأرثوذوكسية في اختلافها عن الكاثوليكية التي كانت، من الناحية الفعلية، ترفض هذه العناصر من المسيحية.

وكانت هذه الخلافات جميعاً قد لوحظت لفترة طويلة قبل القطيعة النهائية لكن تسنى الحفاظ على شكل من التوازن حتى سنة 1054. ومنذ ذلك التاريخ تحددت الثنائية الجيوبولتيكية للمسكونية المسيحية بصفة كاملة، وكل من العالمين ـ الأرثوذوكسي والكاثوليكي، سار في طريقه الخاص.

حتى سنة 1453 (تاريخ استيلاء الأتراك على القسطنطينية) كانت الكنيسة الأرثوذوكسية تتطابق جيوبولتيكياً مع مصير الإمبراطورية البيزنطية. وكان عالم الكاثوليكية يشمل أوروبا الغربية. وحتى ذلك الوقت كانت روما والقسطنطينية تمثلان «مجالين كبيرين» (إذا ما استخدمنا الاصطلاح الجيوبولتيكي)، بمصالحهما الجيوبولتيكية، السياسية، الاقتصادية والثقافية وبالجوهر اللاهوتي الموضّح بدقة، ولا يحتمل التأويل، والذي يعكس ويحدّد مسبقاً اختلاف الكنيستين بكل ما في

ذلك من قراءة المعنى العقلاني العقائدي والعلاقة المنطقية المتبادلة. لقد تأسس الغرب على اللاهوت العقلاني لتوما الأكويني، وواصل الشرق خط اللاهوت السري التمجيدي والتقسيم الكهنوتي الذكي، وتجسد ذلك كله بالصورة الأوضح في نصوص القديس الهدوئي(*) غريغوري بالاماس.

بالاماس في مواجهة توما الأكويني ـ تلك هي الصيغة اللاهوتية التي تعكس جوهر الثنائية الجيوبولتيكية للشرق المسيحي والغرب المسيحي. التأمل السري للنور اللامخلوق تواؤم السلطات والتفاسير الطقوسية للكنائس المحلية (الأرثوذوكسية) في مواجهة اللاهوت العقلاني، الإملاء البابوي في الشؤون الدنيوية للملوك الأوروبيين وهيمنة اللاتينية كلغة طقوسية مقدسة فريدة (الكاثوليكية). وأمامنا المواجهة الجيوبولتيكية بين عالمين لكل منهما توجه ثقافي مختلف، وفكرة أساسية نفسية وبناء سياسي مختلف مميّز.

تلك هي اللوحة العامة لأسس الجيوبولتيكا الأرثوذوكسية. ومن البيّن أن المهمة الأهم لبيزنطة والكنيسة الأرثوذوكسية كانت الحفاظ على تركيبها وحماية حدود تأثيرها السياسي والروحي، والدفاع عن استقلالها. وإلى جانب ذلك كان للأرثوذوكسية في هذه الحالة عدوّان جيوبولتيكيان أساسيان:

1 ـ **العالم غير المسيحي** الذي تجلى ضغطه في هجمات البرابرة على أطراف الإمبراطورية، بالإضافة إلى الضغط الجماعي من طرف الترك المسلمين.

2 ـ **عالم الغرب المسيحي** الذي لم يكن ينظر إليه ببساطة على أنه أرض «الهرطقة اللاتينية» بل وكعالم الردّة، النكوص، أرض الذين عرفوا الحقيقة والخلاص ورفضوهما.

(*) الهدوئية: (من الكلمة اليونانية hesychia ونعني الهدوء، الصمت والانقطاع)، وهي اتجاه ديني غيبي كان معروفاً في أنطاكية وبيزنطة، وهو بالمعنى الواسع ـ تعليم خلقي ـ تنسّكي يتطلع إلى تحقيق اتحاد الإنسان بالالهي عن طريق «تطهير القلب»، الدموع والتركيز الذاتي للوعي بالاضافة إلى ضبط النزعات النفسية والجسمانية وهو ما يذكر بأساليب اليوغا. نشأ هذا الاتجاه في القرون الرابع ـ السابع على يد إسحاق وإفرام السرياني وانبعث من جديد في القرنين 13 ـ 14 (لدى غريغوري السينائي ونيل سورسكي) وتطور مع تعاليم غريغوري بالاماس الدينية ـ الفلسفية. (المترجم).

في مثل هذه اللوحة الأولية والكاملة لمكان الأرثوذوكسية الجيوبولتيكي يسهل جداً تلمس جميع تلك المشاكل الجيوبولتيكية التي سوف تثير قلق الكنيسة الشرقية والدول الأرثوذوكسية على مدار قرون طويلة بعد انهيار بيزنطة. فقد اصطدم الأباطرة البيزنطيون في لحظة ما بخطر مزدوج ـ العمامة التركية والعكازة اللاتينية، وبالأخذ بعين الاعتبار خصوصة العلاقة اللاهوتية بالغرب وروما يغدو من السهل إدراك موقف أولئك الأرثوذوكس الذين قاموا باختيارهم لصالح **العمامة التركية** عندما لم يكن ثمة خيار ثالث. وعلى فكرة فإن كثيرين من الأرثوذوكس استقبلوا سقوط القسطنطينية على أنه عقاب إلهي على الخطوة الجيوبولتيكية التي اتخذتها بيزنطة عندما حاولت الاقتراب من روما على حساب اعتناقها «للفيليكوي» في ما يسمى بـ«مجمع فلورنسة» (على الرغم من أن ذلك الاعتراف قد جرى إلغاؤه لدى عودة السفراء إلى القسطنطينية).

1 ـ 2 الأرثوذوكسية بعد البيزنطية

تغيرت اللوحة الجيوبولتيكية بكاملها بعد سقوط القسطنطينية. وعلى الرغم من أن بطريرك القسطنطينية بقي رأس الكنيسة الأرثوذوكسية، فإن بنيان التركيب كله قد اختل. لنتذكر أن أحد الأركان الأساسية في الأرثوذوكسية كان التعاليم المتعلقة بالوظيفة اللاهوتية الخلاصية للإمبراطورية، وبما أن الإمبراطورية الأرثوذوكسية لم تعد موجودة، (وتبعاً لذلك لم يعد الإمبراطور الأرثوذوكسي ڤاسيليوس موجوداً) فقد اضطرت الكنيسة إلى الدخول في مرحلة جديدة، خاصة ومنطوية على حد كاف من المفارقة، من وجودها. ومنذ تلك اللحظة ينقسم العالم الأرثوذوكسي بكامله إلى قسمين ينطويان على خلافات عميقة ليس فقط من وجهة النظر الجيوبولتيكية بل واللاهوتية أيضاً.

القطاع الأول من العالم الأرثوذوكسي بعد البيزنطي تمثله تلك الكنائس التي وقعت في منطقة السيطرة السياسية للدول غير الأرثوذوكسية وبخاصة في الإمبراطورية العثمانية. ومن الناحية الإدارية دخلت هذه الكنائس إلى حين سقوط تلك الإمبراطورية فيما يسمى بنظام «الملّة» الأرثوذوكسية التي كانت تشمل الأرثوذوكس اليونان، الصرب، الرومان، الألبان، البلغار والعرب. والشخصية

العليا بين هؤلاء الأرثوذوكس كان بطريرك القسطنطينية وإن وجد إلى جانبه أيضاً بطريرك الإسكندرية (راعي الأرثوذكس اليونان والعرب في مصر) وبطريرك أنطاكية (راعي الأرثوذوكس العرب على أراضي الدول المعاصرة سوريا ـ العراق ـ لبنان). وكان بطريرك القدس يتمتع بوضع خاص تتمتع به أيضاً كنائس قبرص وجبل سيناء ذات الاستقلال الإداري، ومن الناحية الروحية كان بطريرك القسطنطينية يعد الرئيس في كافة أرجاء العالم الأرثوذوكسي على الرغم من أنه لا توجد هنا تلك التراتبية الموجودة في الكاثوليكية وكان للكنائس ذات الاستقلال الإداري نصيب كبير من الاستقلال[2]. وكان مقر البطريركية واقعاً في حي الفنار، ومن هنا تنحدر التسمية الجماعية لرجال الدين اليونان الخاضعين لذلك البطريرك ـ «الفاناريوت». ولنشر إلى أن هذا القطاع من العالم الأرثوذوكسي أخذ، بدءاً من سنة 1453، يعيش وضعاً مزدوجاً على المستويين الجيوبولتيكي واللاهوتي، لأن غياب الدولتية الأرثوذوكسية يؤثر تأثيراً مباشراً على النظرة إلى الآخرة في التاريخ السياسي الأرثوذوكسي، وهو ما يعني دخول الكنيسة في ما يشبه «بحر الردّة»، حيث لم يعد يحول شيء دون ظهور «ابن الهلاك». والامتناع القسري عن «التواؤم الأرثوذوكسي» بين السلطات يحول الكنيسة اليونانية الأرثوذوكسية (والكنائس الأخرى المرتبطة بمصيرها السياسي) إلى شيء آخر غير ما كانت عليه في البداية. وهذا يعني أن توجهاتها اللاهوتية والجيوبولتيكية تتحول، كما تتحول أيضاً طبيعتها القداسية.

والفهم الواضح للعلاقة المتبادلة بين اللاهوت والسياسة في العقيدة الأرثوذوكسية المتكاملة اضطر روسيا للوقوف على الطريق الذي تسير فيه منذ القرن الخامس عشر، والذي يرتبط أوثق الارتباط بنظرية «موسكو ـ روما الثالثة». وروسيا والكنيسة الروسية الأرثوذوكسية ـ هما القطاع الثاني في المسيحية الشرقية ما بعد البيزنطية الذي يتسم بطبيعة جيوبولتيكية بل وحتى روحية مختلفة كل الاختلاف.

ولإقامة البطريركية على الأرض الروسية وإعلان موسكو «روما الثالثة» علاقة مباشرة بالمصير الغيبي للأرثوذوكسية على نحو ما هو عليه. فبعد سقوط القسطنطينية بقيت روسيا «المجال الكبير» الجيوبولتيكي **الوحيد** الذي توجد فيه السياسة الأرثوذوكسية والكنسية الأرثوذوكسية. وتغدو روسيا وريثة بيزنطة بفعل الدوافع اللاهوتية وعلى المستوى الجيوبولتيكي. فهنا فقط تم الحفاظ على جميع

المعايير الأساسية الثلاثة التي جعلت الأرثوذوكسية ما كانت عليه خلافاً للغرب اللاتيني وللسيطرة السياسية للنظم غير المسيحية. وعليه فإلى جانب الوضع الغيبي «للعقبة دون ظهور ابن الهلاك» ورثت موسكو أيضاً مجموع اكتمال الاشكالية الجيوبولتيكية للقسطنطينية. وعلى نحو ما كان الأمر بالنسبة لبيزنطة اصطدمت روسيا بواقعين جيوبولتيكيين معاديين ـ بتلك «العكازة اللاتينية» نفسها وبتلك «العمامة التركية» نفسها. إلا أن اكتمال المسؤولية التاريخية استقر بمجموعه في هذه المرة على كاهل القياصرة الروس، والكنيسة الروسية والشعب الروسي. وحقيقةُ أن تلك المسؤولية قد نقلت إلى موسكو بعد سقوط القسطنطينية أضفت على الوضعية كلها درامية غيبية خاصة لم تنعكس فقط على نفسيات الروس خلال القرون الخمسة الأخيرة بل وعلى جوهر التوجه الجيوبولتيكي للدولة الروسية والكنيسة الروسية. وبصورة موازية لذلك تكوّن تصور الشعب الروسي «شعباً متوشّحاً باللّه».

ولكن ظهرت في الوقت نفسه مشكلة جديدة. العلاقة مع العالم الأرثوذوكسي خارج روسيا ووضعية بطريرك القسطنطينية بالنسبة لبطريرك موسكو. والمسألة أن الأرثوذوكس غير الروس وجدوا أنفسهم أمام أحد أمرين: إما الاعتراف بروسيا «سفينةً للنجاة»، «أرضاً مقدسة» جديدة «مرجعاً للمسيحية» والخضوع بالتالي لشخصية موسكو الروحية، وإما على العكس من ذلك، رفض إمكانية وجود «المملكة الأرثوذوكسية» والنظر إلى موسكو على أنها اغتصاب غير شرعي للوظيفة الغيبية البيزنطية. وطبقاً لهذا الاختيار على موسكو أيضاً أن تقيم علاقاتها مع الكنائس الأخرى. ويمكن القول إن العالم الأرثوذوكسي قد انشطر منذ هذه اللحظة شطرين يتمايزان جيوبولتيكياً **ولاهوتياً**. فمن المعلوم أن الخط المناوىء لموسكو في ميدان التأثير القسطنطيني قد انتصر، وهذا يعني أن الكهنة الفناريوت قد كيّفوا العقيدة الأرثوذوكسية مع تلك الشروط التي لا يمكن أن يدور فيها حديث حول إسقاط السياسة. وبكلمة أخرى فإن الأرثوذوكسية اليونانية قد غيّرت طبيعتها بالتحول من التعاليم الروحية ـ السياسية المتكاملة إلى مجرد عقيدة دينية للخلاص الفردي. ومن ذلك الحين صارت منافسة القسطنطينية لموسكو في جوهرها مواجهةً بين صيغتين للأرثوذوكسية ـ الصيغة الكاملة في حالة موسكو والصيغة الموجزة في حالة القسطنطينية.

وفضلاً عن ذلك فإن تغير صفة الأرثوذوكسية اليونانية قرّبها بصورة ما من خطّ روما، لأن واحداً من الأقانيم الثلاثة للخلافات العقائدية (مسألة «الكاتيخون») سقطت من تلقاء نفسها. فتقارب الفناريوت الروحي مع الفاتيكان ترافق مع تقاربهم السياسي مع الإدارة التركية، التي كان الكثيرون من اليونان الأرثوذوكس يشغلون فيها تقليدياً مناصب عالية. ومثل هذا الوجود المزدوج المقترن بالتنافس مع الكنسية الروسية على التأثير على العالم الأرثوذوكسي جَرَّد الأرثوذوكسية اليونانية عملياً من رسالتها الجيوبولتيكية المستقلة وجعلها مجرد واحد من العوامل الجيوبولتيكية الثانوية ضمن السياق اللاأرثوذوكسي العام لمكائد السلطات العثمانية والرسل البابويين.

ومهما يكن من أمر فمنذ القرن الخامس عشر صار مصطلح «جيوبولتيكا الأرثوذوكسية» يتطابق تقريباً مع مصطلح «جيوبولتيكا روسيا».

وبالإضافة إلى هذا فإن من الخطأ النظر إلى مجموع العالم الأرثوذوكسي غير الروسي على أنه خاضع لسياسة الفناريوت. ففي أجزائه المختلفة وجدت أيضاً مشاعر مناهضة اعترفت بالأولوية اللاهوتية والغيبية لروسيا الأرثوذوكسية. وتعلق ذلك بصفة خاصة بالصرب والألبان والرومان والبلغار الذين كانت الميول الجيوبولتيكية، الموالية منها لروسيا والفناريوتية، تتنافس لديهم بصفة تقليدية. وقد تجلى ذلك بزخمه الأقصى في القرن التاسع عشر عندما قامت الشعوب الأرثوذكسية الداخلة في نطاق الإمبراطورية العثمانية بمحاولات يائسة لتحقيق استقلالها الوطني والسياسي.

1 ـ 3 مرحلة بطرسبرج

ولكن بين سقوط القسطنطينية وبداية نضال شعوب البلقان الأرثوذوكسية من أجل حريتها جرى حدث ذو أهمية كبرى بالنسبة للأرثوذوكسية في معناها الواسع. والحديث يدور حول الانقسام الروسي والإصلاحات التالية له مباشرة والتي قام بها بطرس الأول. ففي تلك اللحظة طرأ تحول نوعي على وضع الأرثوذوكسية، واضطربت، منذ ذلك الحين، الأسس العقائدية للكنيسة الأرثوذوكسية والتي بقيت حوالي 200 عام وطيدة الأسس. ذلك أن نقل العاصمة من موسكو إلى سانت

بطرسبرج وإلغاء منصب البطريرك مع إنشاء السينودس كانا يعنيان أن روسيا كفت عن كونها امبراطورية أرثوذوكسية شرعية من الناحية العقائدية في المعنيين اللاهوتي والغيبي. ومن الناحية العملية كان قد تحقق الانتقال من النموذج الجيوبولتيكي الأرثوذوكسي إلى نوع شبيه بالدولة البروتستانتية. وتحولت الأرثوذوكسية الروسية منذ ذلك الحين إلى واقع مزدوج المعنى لا يتطابق على المستوى الجيوبولتيكي إلا تطابقاً جزئياً مع الدولة الروسية. ولكن إذا كانت اللحمة قد تخلخلت بصورة مكشوفة فإن المنطق العام للجيوبولتيكا الروسية واصل خطه الأولي على الرغم من أن ذلك تم على مستوى آخر لأن المصالح العلمانية والسياسية المحضة صارت بكل وضوح تتقدم على الإشكالية الدينية ـ الأخروية. وبصفة موازية لذلك كان الأنموذج الكاثوليكي التقليدي في الغرب نفسه يتراجع أيضاً ليخلي المكان للتشكلات القومية ـ السياسية الصرفة، الدول ـ القوميات، وهكذا فإن الاشكالية اللاهوتية امّحت هناك أيضاً وتراجعت إلى المرتبة الثانية أمام زحف المصالح الأكثر تطبيقية، التجارية منها والسياسية الضيقة. إلا أن الترتيب الجيوبولتيكي المحدَّد مسبقاً على أساس عقائدي في خريطة الكنائس بقي في مجموعه على حاله، هذا إذا لم نضع في الحسبان ظهور الدول البروتستانتية.

من الناحية الجيوبولتيكية تقسم البروتستانتية بصراحة إلى قطاعين ـ اللوثرية البروسية، والكالفينية الأنجلو ـ سويسرو ـ هولندية. وإلى جانب التشابه الظاهري والتزامن بين فورتي الاحتجاج على كنيسة روما فإن لكل من اللوثرية والكالفينية معنى يكاد يتعارض تعارضاً قطبياً تقريباً مع الأخرى. فالمعسكر اللوثري الذي ترسخت قواعده في الدولة البروسية كان قد تأسس عقائدياً وغيبياً على أساس انتقاد الفاتيكان من وجهة نظر تأصيل منطلقات **«العهد الجديد»**، وفي الملامح العامة كان ذاك هو الذي أنتج الدعاوى التقليدية لدى الأرثوذوكسية في حق الكاثوليكية. كانت بروسيا اللوثرية تتوضع من الناحية الجيوبولتيكية أيضاً بين روسيا الأرثوذوكسية وأوروبا الغربية الكاثوليكية. أما الكالفينية التي صارت ديانة الدولة في انجلترا (وتركت فيما بعد أثراً مهولاً على البنية السياسية للولايات المتحدة) فقد تأسست، على العكس من ذلك، على النظرة المنطلقة تحديداً من العهد الجديد وانتقاد روما انطلاقاً من هذا المنظور. فليس من قبيل الصدفة أن تنجذب الكالفينية والفرق المتحدرة منها، من الناحية الجغرافية، إلى الغرب الأقصى سواء أكان ذلك

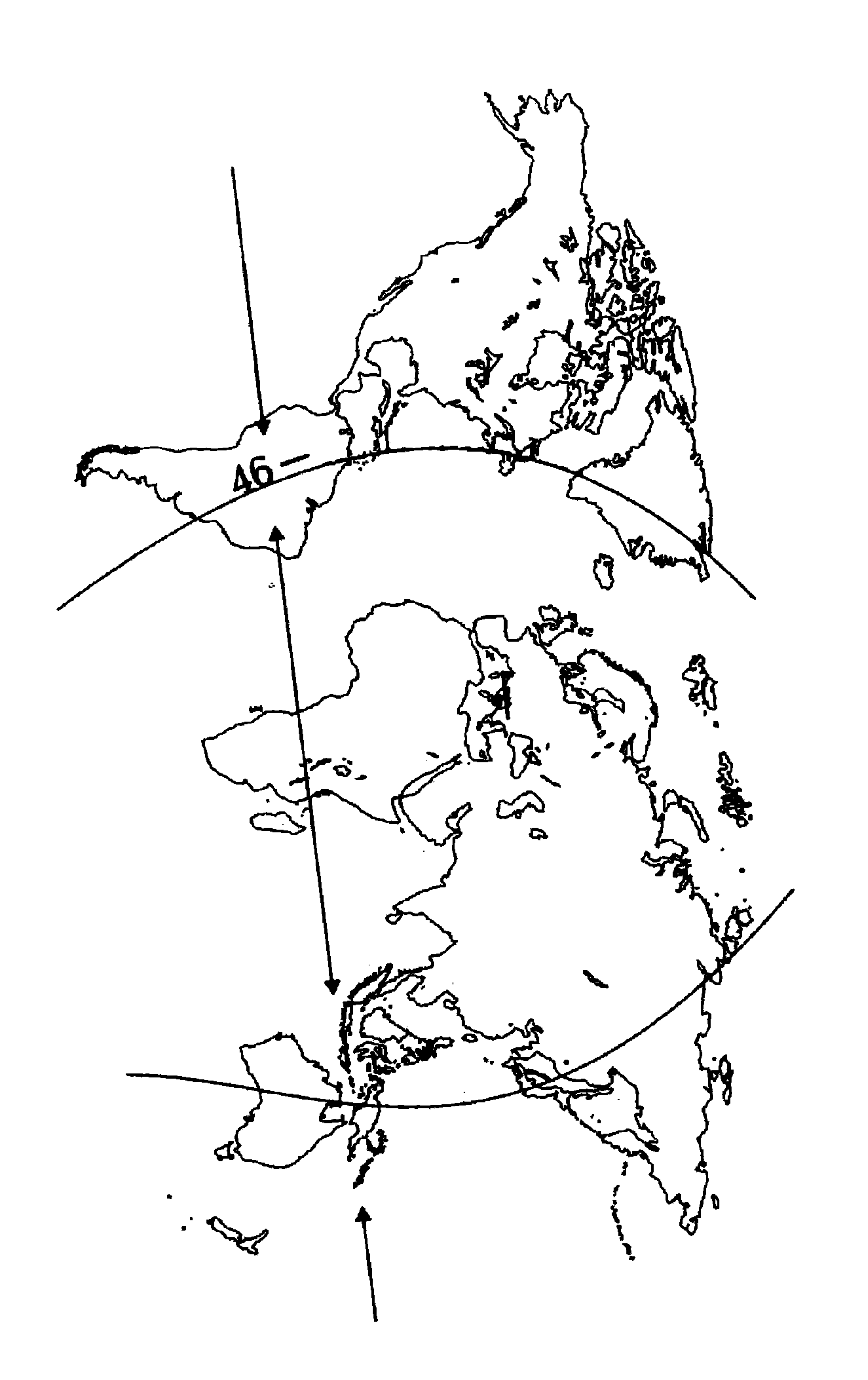
في حدود أوروبا أم على الجانب الآخر من الأطلسي.

كانت روسيا ما بعد البطرسية، روسيا أسرة رومانوف أقرب إلى النموذج البروسي بمعنى أنها بانصرافها عن العقائدية الأرثوذوكسية توقفت عند منتصف الطريق إلى الكاثوليكية التي كانت إلى جانب ذلك، تقوم بتسليم مواقعها تدريجياً للدول ـ الأمم. وكان التوتر الجيوبولتيكي الأساسي يتركز إزاء ذلك بين روسيا من جهة وبين الإمبراطورية النمساوية والإمبراطورية الإنكليزية من جهة أخرى. أما على المستوى الديني فكان ذلك مواجهة الأرثوذوكسية للكاثوليكية (النمسا) والكالفينية (انكلترا)، وقد لعبت فرنسا الحكم المطلق ثم الثورية بعد ذلك دوراً مميّزاً في ذلك كله من خلال محاولاتها نشر الأفكار الجمهورية والتنوير. ومن المهم الإشارة في هذا الصدد إلى أنه إذا كانت لروسيا بعض المصالح الجيوبولتيكية المشتركة مع النمسا (المواجهة مع تركيا على وجه الخصوص)، فإن استراتيجية انكلترا كانت من الناحية العملية مناقضة في كل شيء لاستراتيجية روسيا إلى حد دعم الإنكليز للإمبراطورية العثمانية.

ومهما يكن من أمر فإن روسيا ما بعد البطرسية قد ورثت الملامح الرئيسية للجيوبولتيكا البيزنطية على الرغم من أن الاكتمال العقائدي لـ«روما الثالثة» قد اختل. فمنذ ذلك الحين لم يعد ممكناً الحديث إلا عن التواصل المدفوع بقوة الاستمرار لما كان في يوم من الأيام طريقاً مكتملاً ومؤسَّساً من الوجهة اللاهوتية «للشعب المتوشح بالله» في التاريخ. وبصورة موازية لهذا التحول بدأت المصالح المادية والسياسية الضيقة تلعب في السياسة الخارجية دوراً أكبر فأكبر بل إن الدوافع الدينية نفسها كثيراً ما صارت تستخدم ذريعة لهذا المُدْخل السياسي أو ذاك، والمتوجه بصفة استثنائية إلى خير الدولة في سياقها العلماني.

1 ـ 4 تحرّر الشعوب الأرثوذوكسية الوطني

في القرن التاسع عشر أخذ عدد كبير من الشعوب الأرثوذوكسية ـ اليونان، الصرب، البلغار، الألبان والرومانيون ـ يتحررون بفعالية من السيطرة السياسية للأتراك. ولعب العامل الديني دوراً ملموساً في ذلك إذ تحول إلى واحد من الحوافز الأساسية في النضال الوطني التحرري.


46

وظهور الدول الأرثوذوكسية الجديدة وتدمير إمبراطورية العثمانيين كانا نتيجة عدد من العوامل الجيوبولتيكية والإيديولوجية:

1 ـ تحلل سلطة الأتراك السياسية مكّن من تنامي الشعور الوطني لدى اليونان وغيرهم من شعوب البلقان وهو ما مهد له بدوره، انتشارُ أفكار التنوير، ولعبت في ذلك دوراً كبيراً فرنسا، مهد «الأنسام الحداثية».

2 ـ قامت روسيا، كعدو جيوبولتيكي لتركيا، باستثمار الوضع بفعالية، وذلك لتقويض عدوها من الداخل، فقد ركز العملاء الروس في اليونان والبلقان جهودهم على تدعيم مطاليب الأرثوذوكس، وهو ما كان يترافق مع الضغط الجيوبولتيكي لروسيا.

3 ـ ظهرت صحوة دينية مميّزة لدى الشعوب الأرثوذوكسية، وفكرة النضال من أجل الحرية السياسية والقومية ترافقت بأحاسيس رسالوية ذات طابع لاهوتي يتعلق بالآخرة.

وفي هذه المرحلة تكونت النظم السياسية ـ الإيديولوجية، اليونان الكبرى (أو الفكرة العظمى Megale idea)، بلغاريا الكبرى، صربيا الكبرى، (مخطط تقريبي)، رومانيا الكبرى وما إلى ذلك.

1 ـ 5 Megale Idea

كان أنصار اليونان الكبرى يتطلعون إلى تخليص الأراضي اليونانية من الأتراك وإقامة «بيزنطة الجديدة» وإعادة السلطة القيصرية، «عودة بطريرك القسطنطينية إلى دوره الرئاسي في كامل العالم الأرثوذوكسي. وبنتيجة النضال المرير والانتفاضة الوطنية استطاع اليونانيون أن يستخلصوا سنة 1830 دولة مستقلة صغيرة حول البيلوبونيز والمورة، وضاعفت الحروب البلقانية سنة 1913 مساحتها من الناحية الفعلية. وإلى ذلك فإن تحقيق «الفكرة العظمى» اصطدم بالمصالح الجيوبولتيكية للشعوب الأرثوذوكسية الأخرى، لأن اليونانيين طالبوا بضم مكدونيا وتراقيا وغيرهما من الأراضي التي كان يطالب بها البلغار والصرب أيضاً. وكانت ذروة هذا المخطط تحرير القسطنطينية (استامبول) من الأتراك. إلا أن الخطة ختمت بكارثة بعد هزيمة اليونان في حربها مع تركيا أتاتورك الذي كسر اليونانيين وأجبر سكان الأناضول اليونان على النزوح الجماعي إلى الأراضي اليونانية.

ومن المهم جداً الإشارة إلى أن النضال الوطني التحرري لليونان لم يلق الترحيب ولا الإلهام من طرف الهيئة الروحية الفناريوتية ولا من بطريرك القسطنطينية، الذين كانوا متضامنين سياسياً مع الإمبراطورية العثمانية أكثر من تضامنهم مع الجيوبولتيكية الروسية أو شعوب البلقان المتطلعة إلى الحرية. وفضلاً عن ذلك كان انهيار الإمبراطورية التركية كارثة على الهيئة الروحية العليا في العالم الأرثوذكسي خارج روسيا. ولهذا أخذت القومية اليونانية و«الفكرة العظمى» على الرغم من اكتسائها بالطابع الأرثوذكسي، تتقدمان بادىء الأمر عن طريق تنظيمات سرية خاصة ماسونية الطابع لعب فيها الدورَ الأهم عملاء التأثير الروس وأنصار التنوير الفرنسي. وبكلمة أخرى فإن الفكرة الأرثوذكسية في اليونان كانت في المرحلة الحرجة من تحرير البلاد من السيطرة التركية في أيدي تركيب ديني مواز يرتبط بالدياسبورا اليونانية في روسيا وفي مناطق أخرى من البحر الأبيض المتوسط. ومما هو مثير للفضول أيضاً أن الارستقراطية اليونانية المرتبطة جينيتيكياً وسياسياً بالفناريوتية أخذت بعد انتزاع الاستقلال تتوجه في الأكثر إلى النمسا وألمانيا بينما كانت البورجوازية اليونانية، والتي ترعرعت «الفكرة العظمى» في أحضانها، النصيرة المتحمسة للاتحاد مع روسيا. وفي هذا يتضح بجلاء بعض تضامن الأرثوذكسية اليونانية الرسمية ما بعد البيزنطية مع خط الفاتيكان.

1 ـ 6 (مخطط تقريبي)

فكرة صربيا الكبرى المؤسسة على الحدث التاريخي للدولة البلقانية الكبرى، والتي أقامتها في القرن الرابع عشر أسرة نيمانيتشي، بُعثت من جديد خلال مسيرة النضال الصربي التحرري. وفي بداية الأمر حرَّر ثوار الصرب من السيطرة العثمانية بقعة صغيرة هي شومادِيّا وبدأوا بعد ذلك نضالهم من أجل إقامة دولة سلافية حرة في البلقان يسيطر عليها الصرب وأسرة حاكمة أرثوذوكسية. وبداية من 1915 توصل الصرب إلى تحقيق بعض الاستقلال، لكنه كان يحمل توجهين جيوبولتيكيين مختلفين تجسّدا في الأسرتين الصّربيّتين ـ أسرتي أوبرينوڤتش وكاراغيورغيڤتش(*). وعلى الرغم من أن آل أوبرينوڤتش كانوا أرثوذوكسيين إلا أن توجههم كان نحو

(*) أوبرينوڤتش: أسرة أمراء (بين 1815 ـ 1842 و1858 ـ 1882) ثم أسرة ملكية بين =

النمسا القريبة ولم يلعب الدور الأخير في هذه المسألة نشاط بعض الأوساط السياسية المثقفة من ڤويڤودينا، المنطقة الممتدة على مسافة أقرب إلى النمسا. أما أسرة كاراغيورغيڤتش فكانت على العكس من ذلك تميل إلى روسيا. وفي سنة 1903، وليس بدون مساعدة المكتب الروسي الخاص للخدمات، أزيحت أسرة أوبرينوڤتش وتوجهت صربيا نحو الخط الموالي لروسيا. وفي سنة 1920 وبواسطة كاراغيورغيڤتش أقيمت يوغوسلافيا، الدولة البلقانية الكبرى التي وحدت تحت شعارها الصربي كثيراً من الشعوب البلقانية بما في ذلك الكروات الكاثوليك والسلوفينيين والمكدونيين الأرثوذوكس ومسلمي البوسنة والألبان. وبالإضافة إلى ذلك وقع الكاثوليك المجريون في شمالي يوغوسلافيا تحت السيطرة الصربية. بيد أن هذه التركيبة الجيوبولتيكية بدت غير ثابتة، لأن الشعوب غير الأرثوذوكسية في يوغوسلافيا أخذت (وليس بمعزل عن مساعدة عملاء النفوذ النمساويين والأتراك) تعارض الهيمنة الإتنية للصرب والأولوية الدينية للأرثوذوكسية. واكتسبت هذه المواجهة حدة خاصة خلال الحرب العالمية الثانية عندما قامت كرواتيا والبوسنة الموالیتين لألمانيا بإبادة جماعية للصرب الأرثوذوكسيين.

1 ـ 7 رومانيا الكبرى

مشروع رومانيا الكبرى ظهر أيضاً في وسط أرثوذوكسي، وما كان الحديث يدور حول التحرير الكامل من السيطرة التركية فقط (على الرغم من أن مولدافيا وڤالاخيا ما دخلتا قط من الناحية الاسمية في عداد الإمبراطورية العثمانية) بل وأيضاً حول مقاومة سياسة الفناريوت الذين كانوا يحاولون إخضاع الكهنوت الكنسي لنفوذهم. وكانت روسيا تدعم المشاعر المعادية للترك والمعادية للفاناريوت في هذا التيار وقد ساعد على ذلك انتماء بيسارابيا المأهولة بالرومانيين إلى

= 1882 ـ 1903 في صربيا. أسسها ميلوش أوبرينوڤتش. من أشهر أعضائها ميخائيل الثالث، ميلان، وآخرهم الكسندر (1899 ـ 1903) (المترجم).

كاراغينوڤيتش: أسرة أمراء منذ 1808، وملكية منذ 1903 في صربيا ثم في مملكة الصرب والكروات والسلوڤينيين (1918 ـ 1929) ويوغوسلاڤيا (1929 ـ 1945، حكمت عملياً حتى 1941). أشهر أعضائها. المؤسس ـ كاراغيورغي. وبيوتر الأول (ملك بين 1903 ـ 1921) والكسندر الأول (ملك بين 1921 ـ 1934) وبيوتر الثاني. (المترجم).

الأراضي الروسية. وبالإضافة إلى ذلك أخذت النزعات الأونياتية تشتد في رومانيا بداية من القرن التاسع عشر. والأونياتية ـ هي فكرة خضوع الكنيسة الأرثوذوكسية للفاتيكان مع الحفاظ على الطقوس الأرثوذوكسية، إلا أن الرابح جيوبولتيكياً من هذه النظرة، في واقع الحال، وبصفة استثنائية، هو الفاتيكان وهو ما يعني أن الخاسر ـ هو الأرثوذوكسية. فليس من قبيل الصدف أن ينظر الأرثوذوكس إلى الأونياتية على أنها خطوة تكتيكية للكاثوليكية التي تعمل على توسيع نفوذها التبشيريّ، والسياسي والروحي نحو الشرق على حساب الشعوب الأرثوذوكسية. وفي رومانيا نفسها ترافقت الأونياتية التي انتشرت بصفة خاصة في ترانسلفانيا مع التقاليد الثقافية للّتْنَنَة وإعلاء شأن الجوهر الروماني لرومانيا والجذور اللاتينية للّغة وما إلى ذلك. لقد اعتمدت الأونياتية في رومانيا على النمسا الكاثوليكية، بينما لقيت الأرثوذوكسية دعمها بصورة طبيعية من طرف روسيا. ومما له دلالته أن الفناريوت الأرثوذوكس اليونانيين كانوا يطبقون في رومانيا سياسة مناصرة، من الناحية العملية، للأتراك، تناقض المصالح الجيوبولتيكية النمساوية ـ الكاثوليكية والروسية ـ الأرثوذوكسية. وفكرة رومانيا الكبرى كانت تحمل معنى أرثوذوكسياً مضمراً وتحت هذه الراية كان الرومانيون يناضلون من أجل استقلالهم الوطني. ومن المهم أن الوطنية الرومانية تحمل طابعاً معادياً بصفة علنية لليونان أما في الجو المذهبي فالأونياتية المقترنة بالتوجه نحو الثقافة اللاتينية تميل إلى روما وأوروبا الغربية ـ بينما تلتزم الأرثوذوكسية الرومانية الخط الموالي لموسكو. والطريف أنه بعد سَقْيَنَة رومانيا سنة 1948 شغل النظام الشيوعي الإلحادي، من الناحية الشكلية، مواقع الأرثوذوكسية الرومانية بصورة لا تقبل أي تأويل آخر فأخضع لذاته الطوائف الأونياتية وأوقع بالأقليات الكاثوليكية عقوبات محدَّدة.

1 ـ 8 بلغاريا الكبرى

يمكن تحديد الانطلاقة لحركة انبعاث البلقان الأرثوذوكسي والانبعاث الوطني في وقت واحد بسنة 1870 وذلك عندما أنشىء بضغط من روسيا وبدعم منها الايكزارخات(*) البلغاري الذي حدّد هدفه بتوحيد الأرثوذوكس الذين يعيشون في

(*) الايكزارخات: (من اليونانية exarchos ـ الرئيس) وتحمل معنيين، الأول: =

البلقان في حلف جيوبولتيكي معاد من الناحية السياسية للإمبراطورية العثمانية والمعارض من الناحية الروحية لبطريرك القسطنطينية ولهيمنة الفناريوت.

وبصورة متوازية مع الحصول على الاستقلال السياسي صاغت بلغاريا المشروع القومي المسمى «بلغاريا البحار الثلاثة» ويفترض توحيد مكدونيا وتراقيا والقسطنطينية. ولما كانت الأرثوذوكسية البلغارية موالية تقليدياً لروسيا فقد انحرفت في بعض لحظات التاريخ عن هذا الخط من أجل تحقيق بعض الأهداف القومية الضيقة على نحو ما فعله أونياتيو رومانيا وأسرة أوبرينوفتش الحاكمة في صربيا والارستقراطية اليونانية وبعض القوى الأوروبية ـ الشرقية الأخرى أيضاً، فإنها وقفت إلى جانب أوروبا الوسطى فكانت حليف النمسا والمجر ضد روسيا.

والطريف أنه بمقدار ما كانت تظهر أعداد أكبر من الدول الأرثوذوكسية الجديدة في البلقان كان توجهها الجيوبولتيكي يتأرجح بين روسيا والنمسا أي بين الأرثوذوكسية الروسية والكاثوليكية الرومانية. وإلى هذا فإن الذريعة الشكلية لتلك الازدواجية الثانية كانت بعض الأراضي المتنازع عليها، وبالدرجة الأولى مكدونيا. فبسبب مكدونيا كانت تظهر دوماً المماحكات بين اليونان ـ بلغاريا وصربيا وكان دعم روسيا لهذا الجانب من النزاع أو ذاك يلقي بالجانب الآخر وبطريقة آلية في أحضان النمسا.

1 ـ 9 ألبانيا الأرثوذوكسية

وفقاً للتوزع السكاني للألبانيين مرت حدود تقليدية بين العالمين البيزنطي والكاثوليكي. وفي هذا الشعب توجد أربع طوائف: الألبان السنّة (الألبان المترّكون) والألبان البكتاشيون (أعضاء الفرقة الصوفية التي تتسم، كما في بعض الحالات الاستثنائية ـ بطابع قبلي لا بطابع يقوم على المبادرة وحدها)، الألبان الكاثوليك والألبان الأرثوذوكس. وعلى الرغم من أن الألبان الأرثوذوكس يمثلون

= وحدة إدارية عسكرية في بيزنطية خلال القرنين السادس والسابع يرأسها الإيكزارخ، وكانت هذه الوحدات تشكل على أطراف الدولة، الثاني ويعني بالنسبة للكنيسة الأرثوذكسية دائرة أو منطقة تجمع عدة أسقفيات معاً وتتمتع باستقلالية خاصة، تنتشر في أوروبا الغربية، في أمريكا الجنوبية وفي أوكرانيا (المترجم).

الأقلية فإن هذه المجموعة بالذات كان في مركز النضال الوطني التحرري. ودولة ألبانيا المستقلة ظهرت بفضل الأسقف الأرثوذوكسي فان نولي(*) الذي صار أول حاكم ألباني عام 1918. وكان فان نولي نفسه نصيراً وفياً لروسيا، دعمته الأرثوذوكسية الروسية في جميع مبادراته. وقد جمع الألبان الأرثوذوكسيون تحت سيطرتهم الأمة بأسرها دون النظر إلى الطائفة، إلا أن عدوّهم ومنافسهم الأوحد لم يكن حتى الكاثوليك بقدر ما كانت طبقة الكهنوت اليونانية التي تجذّرت تقليدياً في ألبانيا! ومن جديد نواجه في المثال الألباني بالثنائية الجيوبولتيكية في العالم الأرثوذوكسي ما بعد البيزنطي حيث تتجابه المصالح الجيوبولتيكية للكنيستين اليونانية والروسية.

واحتفظ فان نولي بتوجهه الموالي لروسيا حتى بعد ثورة أكتوبر، ولهذا السبب أطيح به من طرف أحمد زوغ، الذي صار ملك ألبانيا. وخلال احتلال إيطاليا الفاشية لألبانيا أخذت السلطات الموالية للكاثوليك بمطاردة الألبان الأرثوذوكس، ولكن بعد «السَّقْيتة» حصلت الكنيسة الأرثوذوكسية من جديد على الدعم الحكومي ومن طرف السلطات الشيوعية هذه المرة. وفقط في سنة 1967 وخلال «الثورة الثقافية» وتوجهها الماوي أعلنت ألبانيا السوفياتية نفسها «أول دولة إلحادية بصفة استثنائية في العالم» وأخذت بالاضطهاد المباشر لكافة المؤمنين من أي طائفة كانوا.

1 ـ 10 اللوبّيات الجيوبولتيكية في البلدان الأرثوذوكسية

إن نظرة عامة إلى الميول الجيوبولتيكية للبلدان الأرثوذوكسية البلقانية تبرز قانوناً على جانب كبير من الأهمية. ففي كل دولة هناك اثنان على الأقل من اللوبيات الجيوبولتيكية يرتبط طابعهما ببعض الخصائص الدينية.

(*) فان نولي (Noli)، تيوفان (1882 ـ 1965) رئيس الحكومة الديموقراطية في ألبانيا بين حزيران وكانون الأول من عام 1924، والتي تم تشكليها بعد الثورة البورجوازية ـ الديموقراطية. وهو كاتب ومؤرخ، شارك في حركة التحرر الوطنية منذ 1903، عاش بين 1906 ـ 1920 في الولايات المتحدة (وكان كاهناً منذ 1908)، رجع إلى المغترب بعد 1924. له دراسات في التاريخ الألباني، وأشعار وطنية وترجمات من أدب وشكسبير، م. سرڤانتس، عمر الخيام وف. تيوتشيف، وغير ذلك (المترجم).

أولاً، يوجد في كل مكان اللوبي الموالي لروسيا والمتوجه نحو جيوبولتيكا الكَنيسة الأرثوذوكسية الروسية التي ترث بدورها (وإن كان ذلك بشيء من التحفظ) خط «موسكو ـ روما الثالثة». وهذا اللوبي موجه ضد روما وضد أي نوع من التقارب معها (ويعني أنه ضد النمسا، المجر وألمانيا الكاثوليكية، أي ضد القطاع الكاثوليكي في أوروبا الوسطى)، لكنه يقف في الوقت نفسه ضد المواقع التركية وضد المواقع الفناريوتية واضعاً نفسه بهذا المستوى أو ذاك في مواجهة بطريرك القسطنطينية. وفي بعض الحالات (كما في اليونان نفسها على سبيل المثال) يشمل هذا اللوبي ليس فقط الأوساط الأرثوذوكسية بل وأيضاً بعض الجمعيات السرية الماسونية النمط.

ثانياً: يوجد في هذه البلدان لوبي نقيض وهو، سواء أكان أرثوذوكسياً أم لم يكن، يتعاطف مع التقرّب من روما، مع التوجه نحو أوروبا الوسطى والنمسا، وفي النهاية نحو الأونياتية أو حتى الكاثوليكية.

ثالثاً: تتبقى في كل مكان آثار النفوذ التركي الذي كانت تدعمه انكلترا في هذه المنطقة وهذا يعني أن للجيوبولتيكا الأنجلو ساكسونية في هذه الحالة توجهاً جنوبياً وتعتمد على الميول الفناريوتية حتى في الأرثوذوكسية المعاصرة في دول البلقان التي كانت مرتبطة تقليدياً بالإدارة العثمانية.

وانهيار يوغوسلافيا يقدم لنا المثال على التوضع الجيوبولتيكي في البلقان. فخط الولاء للروس متجسد في موقف بلغراد وصرب البوسنة. كرواتيا وسلوفينيا تتوجهان نحو أوروبا الوسطى، أما الأنجلو ساكسون (الولايات المتحدة وانكلترا) فتؤيدان بفعالية مسلمي البوسنة وُرثاء الترك. وإزاء هذا تستيقظ من جديد مسألة مكدونيا التي يثور الجدل ثانية حولها بين صربيا، اليونان وبلغاريا. وبقوة جديدة تعرّف بنفسها المشكلة الألبانية ـ وبصفة خاصة في كوسوفو. فالمأساة الدائرة بقرب نهر الدنيبر والمشاعر المعادية للروس في رومانيا المعاصرة ومولدافيا تجبر من جديد على لفت النظر إلى اللوبي الأونياتي والموالي للكاثوليك، والذي يمكنه فقط أن يكون حاملاً للمشاعر المعادية لموسكو والاتجاهات اللاتينية في هذه المناطق.

1 ـ 11 الكنيسة الأرثوذوكسية الروسية والسوفيتيات

العلاقة بين الأرثوذوكسية والنظام السوفياتي مسألة على غاية من التعقيد.

فمن جهة توجد وجهة نظر ترى بأن العهد السوفياتي، بغض النظر عن كل شيء، قد ورث عن روسيا ما قبل الثورة خطاً جيوبولتيكياً يتطابق بصرامة في جوانبه الأهم مع جيوبولتيكية الكنيسة الروسية. ويمكننا أن نحدد ذلك اشتراطياً «بالسيرغيانية» على اسم سيرغي بطريرك موسكو الذي كان قد صاغ أطروحة مشهورة صارت نقطة انطلاق لجدالات كنسية داخلية لم تهدأ حتى في أيامنا هذه: «**إنجازاتكم ـ إنجازاتنا**» (في خطابه لنظام إ. ستالين الالحادي المعادي للكنيسة). وهذه المعادلة السيرغيانية ليست بتلك العبثية والشناعة التي يريد أن يصورها به المحافظون الأرثوذوكس. كل ما في المسألة أن الثورة البلشفية قد جرّت وراءها أمثال هذه التغييرات في حياة روسيا الكنسية التي تذهل برمزيتها. ففي وقت واحد أعيدت البطريركية، ونقلت العاصمة إلى موسكو (العودة الرمزية إلى فكرة «موسكو ـ روما الثالثة»)، الاحتياز المعجزي على أيقونة «السيّدة» في كولومينسك، مكان الإقامة الموسكوفية للقياصرة الروس، كانت تشير إلى العودة إلى المهمة الغيبية الخلاصية الاسكولاتية للسلطة القيصرية التي أعيد اعتبارها في حجمها ما فوق الطبيعي بعد مرحلة بطرسبرج التي امتدت مئتي سنة. وإلى جانب ذلك ورث البلشفيك مجموع الجيوبولتيكا الروسية وقوّوا الدولة ووسعوا حدودها. وبصورة موازية لذلك كانت تجري عملية البعث الروحي للكنيسة التي بعثت عبر الاضطهاد والآلام التي أعادت التوهج المنسي للشعور الديني وممارسة الاعتراف ومأثرة مكابدة العذاب في سبيل المسيح.

ووجهة النظر الثانية ترى في السلطة السوفياتية نقيضاً كاملاً لروسيا الأرثوذوكسية، وأما «السيرغيانية» فتراها امتثالاً تواقتياً مع المسيح الدجال والردّة. وهذه الرؤية تنفي إمكانية النظر إلى المرحلة السوفياتية على أنها امتداد لجيوبولتيكا الأرثوذوكسية. أما صاحب هذه الإيديولوجيا في أوضح صيغة لها فهو الكنيسة الأرثوذوكسية الروسية خارج الوطن والطائفة الأرثوذوكسية الكنسية الحقة، والتي تصدر مواقفها من المماهاة الغيبوية بين البلشفية وظهور المسيح الدجال. ومما يثير الفضول أن هذه النظرة ترفض الأرثوذوكسية كمقياس سياسي وتتوافق نمطياً مع موقف «الفناريوت» الذين يرفضون ضرورة ربط الكنيسة الأرثوذوكسية بالسياسة، هذا الربط الذي يعد أساس العقيدة الأرثوذوكسية المتكاملة. وفي الوقت نفسه تتوافق هذه النظرة والتعاطف مع الحركة «البيضاء» التي قامت جيوبولتيكياً على

أساس دعم الأنتانتا، الدول الأوروبية الغربية، وبخاصة الدول الانجلوساكسونية. وليس من قبيل الصدفة أن يوجد مركز الكنيسة الأرثوذكسية الروسية خارج حدود الوطن في الولايات المتحدة. فمثل هذا العداء «الأرثوذكسي» للسوفياتية و «للسيرغيانية» يتطابق مع الخط الأطلسي التقليدي بالنسبة للغرب والموجه ضد روسيا (السوفياتية، البطريركية، الحداثية، الديمقراطية وما إلى ذلك) بغض النظر عن نظامها الإيديولوجي.

1 ـ 12 خلاصة

بعد سقوط **الإمبراطورية البيزنطية** تجردت الأرثوذكسية من المهمة اللاهوتية الغيبوية التي كانت في عصر «مملكة الألف سنة» من القرن الخامس حتى الخامس عشر. أما المئتا سنة من عهد **«موسكو ـ روما الثالثة»** فيقترب من ذلك العهد «المقدس الذي يتطابق بالنسبة للوعي الأرثوذكسي مع عهد التقاليد المتكاملة. وبعد الانقسام والإصلاحات البطرسية تبدأ مرحلة قريبة من الاحتواء على معنيين، تتبع روسيا، على مداها، خطها الجيوبولتيكي السابق في ملامحه العامة، فاقدة خلال ذلك صلابتها العقائدية. والمرحلة التالية للبيزنطية تتسم بطولها بالازدواجية في إطار الأرثوذكسية نفسها حيث تقوم **الأرثوذكسية الروسية**، المرتبطة مباشرة بجيوبولتيكا الدولة الروسية، بالوقوف في وجه الخط اليوناني ـ الفناريوتي لبطريرك القسطنطينية، والذي يجسد خط الأرثوذكسية التي انقطعت بصرامة عن التطبيق السياسي وراحت تطبق مهاماً آلية في البنية العامة للنظام العثماني.

إن روسيا نفسها تقتبس التقليد البيزنطي المتعلق بالموزانة بين «العكازة اللاتينية والعمامة التركية» ومضطرة بمفردها لحماية مصالح **الأرثوذكسية** على المستويين الجيوبولتيكي والحكومي. وهذا الخط يضطر روسيا للمشاركة في السياسة البلقانية، حيث تصطدم بمجموعة من التقاليد الجيوبولتيكية المعادية بما فيها النفوذ «الفناريوتي» المعادي لروسيا.

وأخيراً فإن الجيوبولتيكا في المرحلة السوفياتية، ومهما كان في ذلك من مفارقة، تواصل الاستراتيجية الكونية العامة للدولتية الروسية موسعة آفاق هيمنة روسيا على حساب البلدان والشعوب المعادية تقليدياً للأرثوذكسية، وبالطبع لا

يمكن أن يدور الحديث هنا حول استخلاف دوغماتي للسوفيات بالنسبة **للكنيسة الأرثوذوكسية الروسية**. ولكن لا ينبغي أن ننسى أن الوضوحية العقائدية التي ضيعت خلال حكم بطرس قد تكدَّرت في مرحلة الانشقاق. وإذا ما توقفنا عند وجهة نظر «السيرغيانية» أمكننا أن ننظر إلى الإنجازات الجيوبولتيكية للدولة السوفياتية فوق العظمى والتي أخضعت نصف العالم الذي يعادي بصفة تقليدية المسيحيين الروس الأرثوذوكس ودولتنا على أنها إنجازات **للكنيسة الروسية** وللجيوبولتيكا الأرثوذوكسية. وهذه الأطروحة الأخيرة تبدو، خارج أية شكوك، مثيرة للجدل إلى حدود كبيرة، لكن بنفس المستوى من الإثارة للجدل، إذا ما تحدثنا بصرامة، تبدو مطابقةُ روسيا الرومانوفية ما بعد البطرسية بالدولة الأرثوذوكسية الحق. على الرغم من أننا في الحالتين الأولى والثانية أمام استخلاف جيوبولتيكي.

وفي الوقت الحاضر حيث لا توجد روسيا قيصرية ولا روسيا سوفياتية بل توجد بلاد على الرمق الأخير، مشوّهة، منتهبة، مباعة للغرب، لعدوّنا الأبدي، يمكننا أن نعي مجموع التاريخ الجيوبولتيكي للأرثوذوكسية بموضوعية، وبلا تحيّز وأن نستخرج ثوابته التي يجب أن نسطّرها على ألواح سلطة حكومية جديدة تحرص على أن تُسمى «روسية».

الدولة والأرض

2 ـ 1 ـ الأنواع الجيوبولتيكية الثلاثة

غالبية المناقشات المتعلقة باللوحة الجيوبولتيكية الجديدة للعالم مركزة حول أنواع سياسية ثلاثة:

1 ـ **«الدولة ـ الأمة»** (Etat Nation) أي الدولة المركزية التي تكونت تاريخياً (مثل فرنسا، إيطاليا، ألمانيا وما شابهها)؛.

2 ـ **الإقليم** وهو المدى الإداري، الإتني أو الثقافي الذي يعد جزءاً من واحدة أو عدة دول (Etat-Nation) ولكنه يتمتع في الوقت نفسه بمستوى ملموس من الاستقلال الذاتي الثقافي ـ الاقتصادي (مثل بريتاني في فرنسا، الفلاندر في بلجيكا، كاتالونيا، غاليسيا وإقليم الباسك في إسبانيا وما إلى ذلك)؛.

3 ـ **المجال الكبير** «الرابطة» أو «الجامعة» التي تجمع عدة دول ـ أمم (Etat-Nation) في حلف اقتصادي أو سياسي.

والكثيرون من «الأوروبيين»، اليساريين منهم واليمنيين يرون أن نوع «الدولة ـ الأمة» (Etat-Nation) أي الدولة المركزية التقليدية قد استهلك نفسه وأنه ينبغي التوكيد بالذات على النموذجين الاثنين الآخرين ـ على الجهوية وحتى على الاستقلالية الذاتية من جهة وعلى التوحيد القاري للأقاليم في معسكر واحد من جهة أخرى. ومن الأمور ذات الدلالة أن نلتقي هنا بوجهات نظر الأطياف السياسية القطبية، فـ «اليساريون» الجدد يرون الـ(Etat-Nation) تشكلاً «يمينياً» جداً، «شمولياً» جداً، «قمعياً» جداً و «محافظاً» جداً ويجب التخلي عنه باسم التقدم، أما

«اليمينيون الجدد»، فـ «على العكس من ذلك» ينسبون الدولة ـ الأمة (Etat-Nation) إلى المرحلة الأكثر «حداثة» والأكثر لا تقليدية من التاريخ الأوروبي، وذلك عندما تم تدمير الإمبراطورية الأوروبية التقليدية من طرف الحكم الفرنسي المطْلق، العدْمي، العلماني. وفضلاً عن ذلك يرى «اليمينيون الجدد» في الإقليمية عودة إلى التقاليد الإتنية وإلى مبدأ التعددية الاتنو ثقافية وهو ما يعد جوهر الفكر «اليميني الجديد» في مجموعه.

ومن جهة أخرى هناك صنف واسع الحضور من السياسيين الذين ـ على العكس من ذلك، يدافعون عن قيم «الدولة الأمة» (Etat-Nation) ويعود الوفاء للمركزية الحكومية لإمكانية أن يوحّد بين «اليمينيين» و «اليساريين». ولكن من يقف هذا الموقف فليسوا، كقاعدة عامة، باليمينيين «الجدد» بل «القدامى». من اليمنيين واليساريين ومن المميّز أن مناهضي الوحدة الأوروبية كانوا في فرنسا قوى سياسيّةً ثلاثاً: جبهة لوبان الوطنية (أقصى اليمين) شيوعيو مارشيه (أقصى اليسار) والاشتراكيون الوسط ذوو الاتجاهات القومية حول جان بيير شيڤينمان. ومن هنا نصل إلى أن المشاعر الإيديولوجية يمكن أن تتلاءَم في إطار المشروع الجيوبولتيكي الواحد. ومع كل ذلك فإن لكل قوة سياسية فهمها الخاص للصيغ الجذرية الثلاث للبناء الجيوبولتيكي للمجتمع المعاصر. وكان من المثير للفضول بناء تصميم يبيّن كيف تقيم القوى المختلفة في منظور إيديولوجياتها الخاصة المشاريع الثلاثة جميعاً ولزيادة الإيضاح سوف نتحدث عن المواقف المتطرفة التي تزداد اكتساء باللوينات والظلال كلما زاد الاقتراب من المركز السياسي.

2 ـ 2 إقليميّة اليمنيين واليساريين

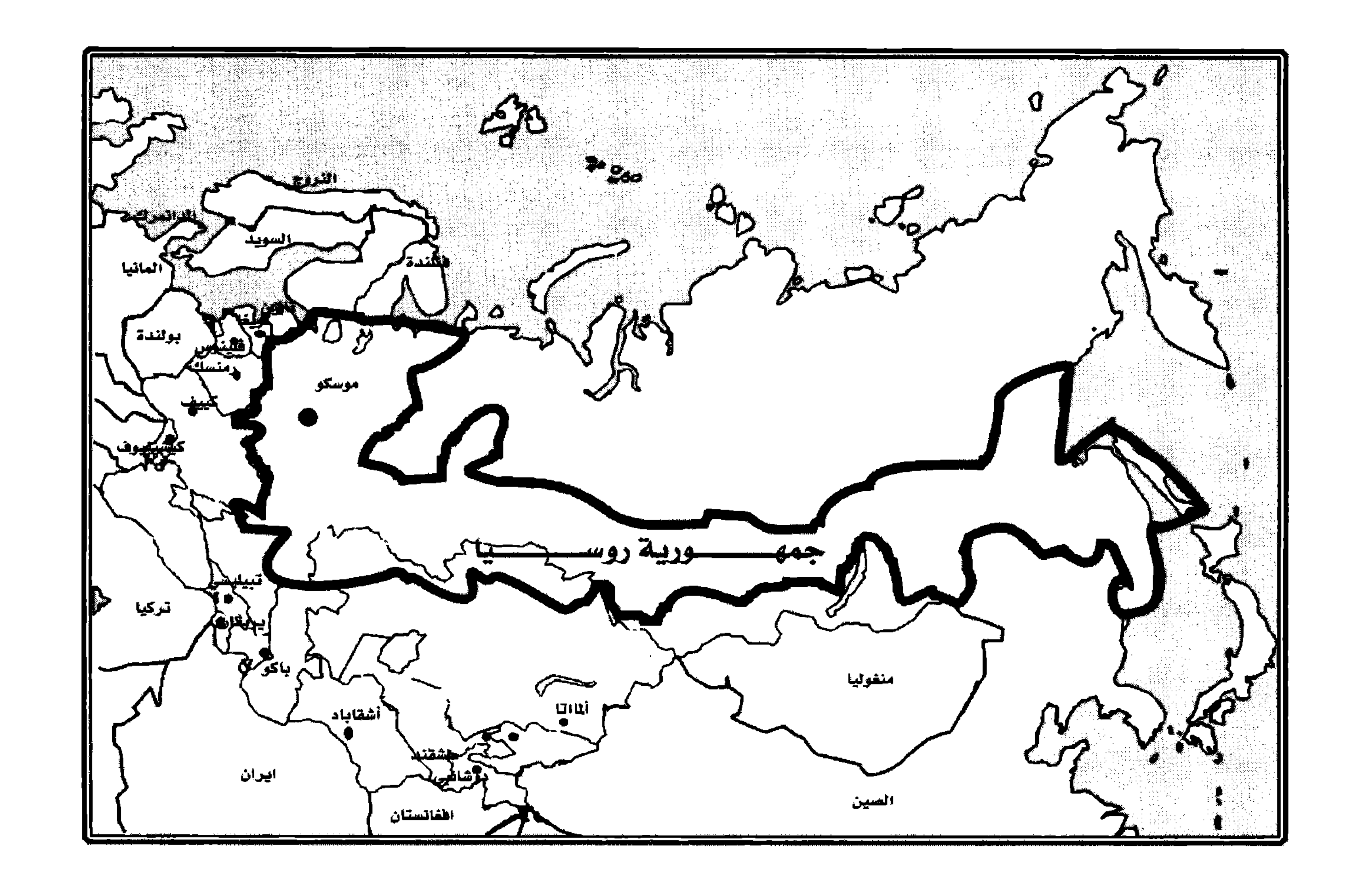
تتوجه المجموعة العامة للإيديولوجيات اليسارية نحو إضعاف تأثير الدول والبنى الإدارية والسياسية على الحياة العامة. وهذا ما يفترض مبدأ اللامركزية، والتطور التدريجي من المركز الواحد للسلطة إلى عدة مراكز فإلى أعداد كبيرة منها في المستقبل. وكان الفوضوي المشهور برودون قد عالج في حينه هذه النظرية. فاليساريون يتطلعون إلى الإضعاف ومن ثم الإلغاء التدريجي للصيغ الشمولية والتسلطية للإدارة وهذا يعني أن توجههم الجيوبولتيكي مكرس ضد الحفاظ على

الدولة التقليدية بحدودها وجهاز موظفيها وأجهزتها القمعية وما إلى ذلك. وينطلق هذا كله من توجه اليساريين الإيديولوجي الرئيسي نحو «الإنسانية»، نحو قيمة الفرد ـ النواة، وليس إلى نوع من البنى ما فوق الفردية، والتي تحد من حريته. وعلى هذا الأساس الفكري تطورت الإقليمية الأوروبية المعاصرة كتوجه ثابت نحو اللامركزية الاجتماعية الاقتصادية، نحو الكف عن مبدأ الدولة القومية الذي كان تقليدياً بالنسبة لغرب المئات السنين الأخيرة.

وهذا الاتجاه الليبرالي لليساريين يرفض كل الرفض حتى مفهوم «الدولة» نفسه ومفهوم «الأمة» نفسه كراسب تاريخي. وتواجه هذه المبادىء بفكرة «حقوق الإنسان»، «الإنسانية» والتي كفّت منذ زمن بعيد عن أن تكون شعاراً تجريدياً مشفقاً على البشر ثم تحولت إلى مجمّع إيديولوجي هجومي إلى حد بعيد ـ وموجهة بصفة علنية ضد الصيغ التقليدية للوجود الجماعي للبشر كأعضاء في أمة، شعبٍ، دولةٍ، أو عرق وما إلى ذلك. ومن هنا ينطلق توكيد اليساريين على الإقليمية، ذلك أن الاستقلالية الإدارية للأجزاء الترابية من الدول تقرّب ، وفقاً لوجهة نظرهم، المعيار القيمي من الفرد وتنزع عن الأنواع الاجتماعية الواسعة هالة الهيبة غير المشروطة ومهمة الرقابة.

ومن الواضح أن هذا الاتجاه من طرف اليساريين يعارض ايديولوجيّي الدولة ـ الأمة أي «الايتاتيين» «والناسيوناليين» والذين تمثل وحدة الشعب التاريخية والسياسية والمتجسدة في الـEtat-Nation بالذات القيمة الأسمى بالنسبة لهم. ومواجهة أنصار الدولة ـ الأمة لليبراليين ـ الإقليميين تمثل ثابتاً لنقاشات عاصفة تتعلق بالمشاريع السياسية الأساسية في جميع الدول التي تتطور فيها العمليات السياسية بفعالية وديناميكية.

بيد أن هناك «إقليمية يمينية» ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمشكلة الموروث والاتنوس. وهذه الإقليمية تنطلق من أطروحة ترى أن الدولة المركزية المعاصرة ليست إلا أداة للتسوية الثقافية والإيديولوجية بين أعضائها، وأنها قد فقدت منذ زمن بعيد مهماتها المقدسة وتحولت إلى جهاز قمعي موجه ضد التقاليد الثقافية والأخلاقية والإتنية الأصيلة. «والإقليميون اليمينيون» يرون في اللامركزية إمكانية أن تُبْعَثَ إلى حد ما الصيغةُ الطقوسية والثقافية للشعوب، والمهن التقليدية وأن تُستعاد تلك الصيغ من الإدارة والتي كانت من خصائص الحضارة التقليدية حتى هجوم



جمهورية روسيا
موسكو
النروج
السويد
المانيا
فنلندة
بولندة
كييف
تركيا
تبيليسي
باكو
أشقاباد
ايران
افغانستان
ألماتا
منغوليا
الصين

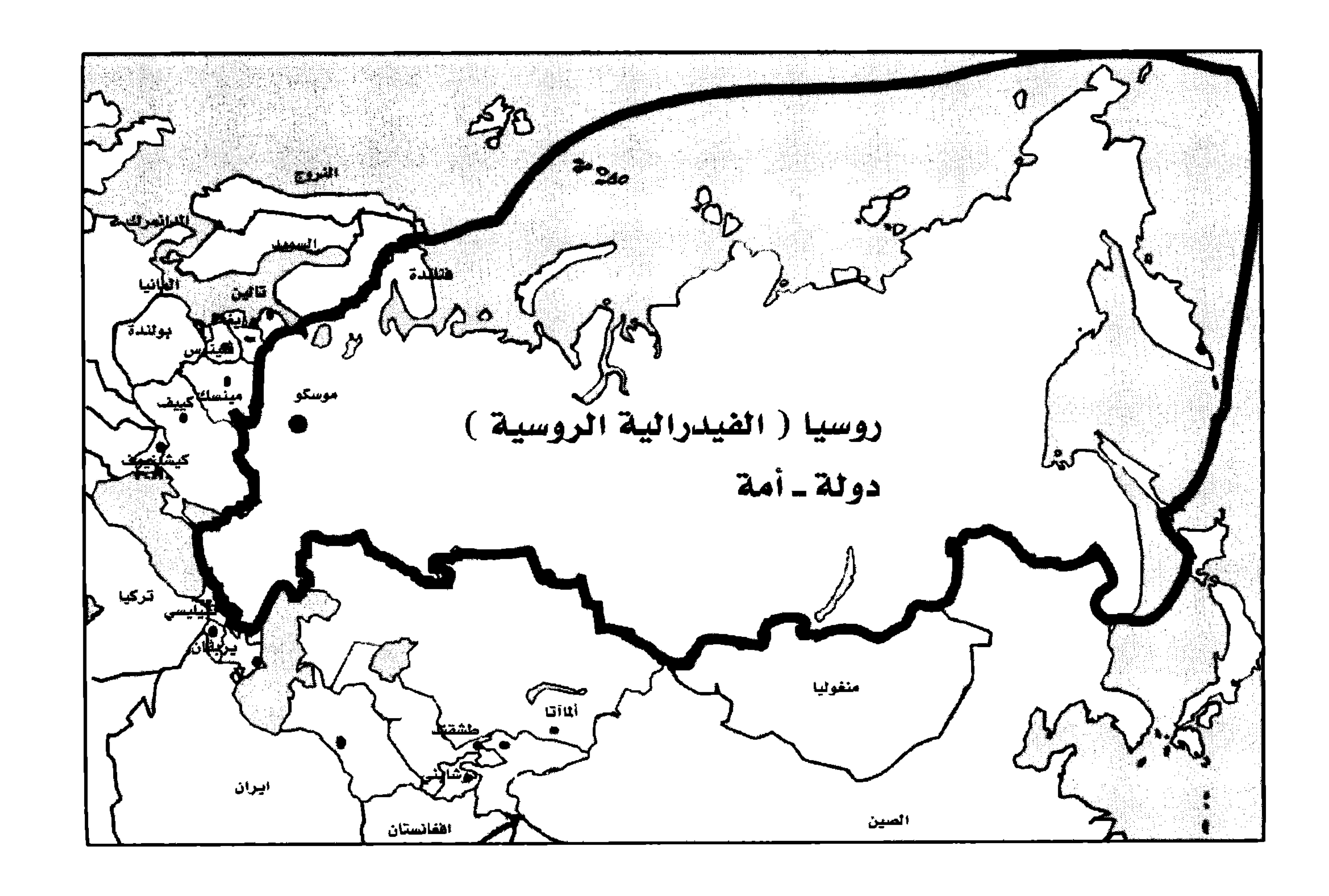
العالم المعاصر. ومن الناحية العملية تتطابق هذه «الإقليمية اليمينية» بصفة دقيقة مع مفهوم «التُّربوية». ومن الناحية المبدئية يعني اليمينيون من وراء ذلك بطريقة خفيّة شيئاً من التميّز «الفطري» الخاص بسكان الأطراف والذين يتجاوبون مع الغرباء بحرارة أكثر وتحرّج أقل من تجاوب سكان المدن الكبرى.

بهذه الكيفية يتكون الخط الجديد من التعارض السياسي: «الإقليميون الجدد» الذين كثيراً ما يستعيذون بالنقاوة الثقافية ـ العرقية، و «الايتاتيون اليساريون» الذين يرون أن الطريقة الأفضل لغرس القيم «التقدمية» و «الليبرالية» في المجتمع هي المركزية الحكومية التي تصون المجتمع من إمكانية عودة الرواسب «التي قضى عليها المجتمع».

2 ـ 3 المدى الكبير الجديد عولمة أم إمبراطورية

بالنسبة للتكامل ما فوق الدولي هناك أيضاً توزع سياسي متناقض إلى حد ما. فهناك، من جهة، «المشروع العالمي» الذي يفترض إزالة كاملة للدول التقليدية وإقامة حقل حضاري كوني يُدار من طرف مركز واحد يمكن تسميته اشتراطياً بـ «الحكومة العالمية». وهذا المشروع في أساسه هو الخاتمة المنطقية للاتجاهات الليبرالية التي تحاول تدمير جميع البنى الاجتماعية التقليدية واصطناع مجال «إنساني عام» موحد مكوّن لا من الشعوب بل من «الأفراد»، لا من الدول، بل من جمعيات تكنوقراطية ومن عمال غير مهرة. على هذه الصورة بالذات ظهرت في عيون عولميي بدايات القرن «الولايات المتحدة الأوروبية»، التي كان يحلم بها الرأسماليون ـ الليبراليون (مونيه، كودينوف ـ كاليغري وسواهما) والشيوعيون (تروتسكي وآخرون) وفيما بعد ألهمت هذه الأفكار مصممي ماستريخت وإيديولوجي «النظام العالمي الجديد».

إلا أن ثمة صيغة موازنة لهذا الأفق العولمي، تحميها القوى السياسية غير الملتزمة. والحديث يدور حول منظري الإمبراطورية الجديدة الذين يرون في الدول ـ الأمم المعاصرة نتيجةً للانهيار المأساوي للإمبراطوريات التقليدية التي لا تحسن شيئاً سوى أن تتطابق، بصفة كاملة، مع البنية القداسية الأصلية والقائمة على التعددية النوعية، على التراتبية الروحية ـ على القاعدة التعاونية والدينية. ومثل هذا


روسيا (الفيدرالية الروسية)
دولة - أمة
موسكو
النروج
السويد
فنلندا
ألمانيا
بولندة
كييف
مينسك
تركيا
ايران
افغانستان
ألماآتا
طشقند
منغوليا
الصين

الفهم «للمدى الكبير الجديد» ينبثق لا من النظرة الكمية نحو التكامل (كما هو بالنسبة للعولميين) بل من مبدأ روحي ما فوق القومي، والذي كان يمكن أن يبدو متسامياً بالنسبة للتكوينات التاريخية القائمة ويمكنه أن يجمعها معاً في تركيب مقدس أعلى. وطبقاً للظروف يتخذ «المشروع الإمبراطوري» أساساً له أما العامل الديني (المناصرون الكاثوليك لانبعاث إمبراطورية النمسا والمجر) أو العرقي (إيديولوجيو الإمبراطورية الأوروبية الموحدة بوحدة أصل الشعوب الهند أوروبية و«اليمينيون الجدد» الفرنسيون من بينهم بصفة خاصة)، أو العامل الجيوبولتيكي (نظرية البلجيكي جان تيريار) أو الثقافي (مشاريع الأوراسيين الروس).

وبناء عليه نجد هنا أيضاً قطبين أساسيين متعارضين ـ يريان واقعين جيوبولتيكيين متشابهين ولكن ضمن أفق معكوس.

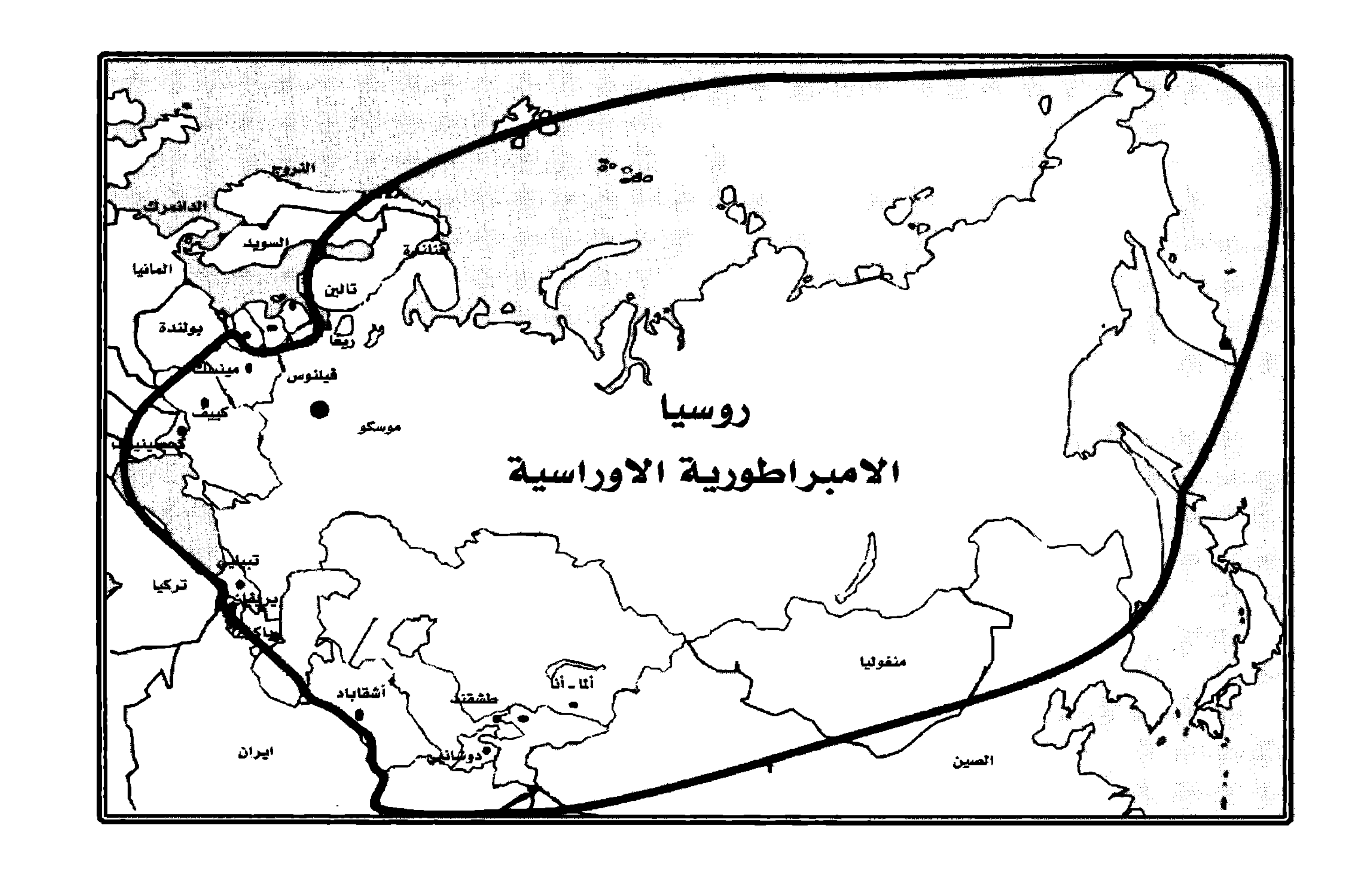
	الإقليمية	الدولة ـ الأمة	المدى الكبير
اليساريون	اللاقومية الفوضوية	الدولة التقدمية المتنورة	العولمة
اليمينيون	الإتنية التقليدية التربوية	القومية «الايتاتية»	الإمبراطورية

وهكذا فقد أبرزنا في كل واحد من المشاريع الجيوبولتيكية نظرتين متناقضتين متباينتين بصفة جذرية، وهو ما يحدد في مجموعه كافة الإمكانات الأساسية للصراع الإيديولوجي حول المشائل البدئية. وبفضل مثل هذا المخطط يمكننا تصنيف التحالفات السياسية المختلفة بين قوى يبتعد بعضها عن البعض الآخر إلى حدود كبيرة.

2 ـ 4 جيوبولتيكا روسيا

ترتبط الإشكالية العامة للبناء الجيوبولتيكي في العالم المعاصر بعلاقة مباشرة بروسيا، حيث نلتقي بنفس المشاريع الجيوبولتيكية الأساسية. فللأصناف الثلاثة ـ الإقليمية، الدولة ـ الأمة والمدى الكبير نظائر مباشرة في واقعنا الجيوبولتيكي.

تتطابق الإقليمية مع الاتجاهات الانفصالية ضمن نطاق الفيدرالية الروسية ـ سواء في الجمهوريات القومية والأقاليم أو حالة التطلع إلى الاستقلال الذاتي الكامل للتشكلات الترابية المحضة (مشاريع جمهوريتي سيبيريا والأورال وغيرهما من الجمهوريات).



روسيا
الامبراطورية الاوراسية
النروج
الدانمرك
السويد
المانيا
تالين
فنلندة
بولندة
ريغا
مينسك
فيلنوس
موسكو
كييف
تركيا
تبليسي
ايران
أشقاباد
طشقند
ألما ـ أتا
دوشانبي
منغوليا
الصين

أنموذج المركزية الحكومية ويدعو إليه أنصار المشروع الجيوبولتيكي «روسيا ضمن حدود الفيدرالية الروسية».

وأولئك الذين يدعون إلى إعادة الاتحاد السوفياتي، إعادة الإمبراطورية الروسية ضمن إطار الاتحاد السوفياتي، أو إلى إقامة الأمبراطورية الأوراسية، ينتمون إلى صنف منظري المدى الكبير الجديد.

وعلى نحو ما هو الأمر في التصميم العام فليس من الضروري إطلاقاً أن يعتنق أنصار هذا المشروع أو ذاك قناعات سياسية واحدة. يمكن أن تكون لكل مشروع شارتان قطبيتان تحددان اشتراطياً بـ «اليمينية» و «اليسارية».

فلنحاول تحديد مواقع «اليمينيين» و «اليساريين» في الحياة السياسية الروسية بالنسبة لوجوهها الجيوبولتيكية الثلاثة.

فالتوجهات الانفصالية في الجناح «الأيسر» الأكثر تطرفاً تُستخدم من قبل نفس القوى التي وقفت وراء دمار الاتحاد السوفياتي. فمن خلال اعتبارهم الدولة السوفياتبة معقلَ «الرجعية» و «الشمولية»، طرح الليبراليون الروس منذ زمن بعيد أفكار «روسيا داخل حدود القرن الرابع عشر» وما إليها، وهو ما افترض تفتيت الأراضي الروسية إلى جزيئات منفصلة وفقاً للمبدأ الإتني ووفقاً للمبدأ الجغرافي الصرف في الوقت نفسه. فوحدة الأمة الروسية وقوة «الدولة الروسية» لا تعنيان بالنسبة لهؤلاء اليساريين أية قيمة تاريخية، بل إنهم، على العكس من ذلك، يرون فيهما عقبة في طريق «التقدم» على الصعيد الإنساني العام. وهذا المشروع الإقليمي يلقى من يدافع عنه من طرف بعض الليبراليين المتطرفين الذين يرغبون بصورة علنية في انهيار الفيدرالية الروسية.

هذه الصيغة الثقافية ـ ما فوق الليبرالية تتناغم مع بعض الأفكار لدى قسم محدَّد من المعسكر المعارض، الموغل في تطرفه القومي والذي يرى بأن على الروس أن يقيموا دولة مكثفة وحيدة الإتنية، تقوم على أساس النقاء العرقي والانعزال الإتني. وتلك هي فكرة إقامة «الجمهورية الروسية». وبين الاتنوسات غير الروسية، التي تستوطن أراضي الفيدرالية الروسية ثمة مشاريع مشابهة في جوهرها لإقامة دول وحيدة القومية.

والصيغة «اليسارية» للبرنامج الوطني الحكومي ضمن حدود الفيدرالية الروسية

جسّدت القيادة الروسية بعد الغورباتشوفية التي كانت على قناعة أن من الأكثر جدوى من أجل إجراء الإصلاحات هو تطبيق الأساليب المركزية بإخضاع كافة الأقاليم الروسية لخط موسكو المتشدد. والمزكزية الحكومية تعد في مفهوم هذه القوى الوسيلة الأفضل والأسرع لتحويل واقع روسيا الاجتماعي ـ السياسي بطريقة تصل به إلى المعايير «الإنسانية العامة» «التقدمية»، أي المعايير «الغربية» «الأطلسية في حقيقة الحال . . وبشكل طبيعي يرى المركزيون «اليساريون» في الإقليمية خطراً على تحقيق أهدافهم، لأن بإمكان اللامركزية والاستقلال الذاتي للأقاليم أن يخلقا تلك النظم التي من شأنها أن تدحض منطق الصيغ الليبرالية وأن تقيم مشاريع اجتماعية سياسية بديلة (اشتراطياً «يمينية»). كما إن التوسع الإمبراطوري غير مقبول بالنسبة لهذه القوى لأن إعادة الاتحاد السوفياتي يمكن أن تجر وراءها عواقب إيديولوجية مماثلة.

كما توجد وتشتد قوة حركة الحكوميين «اليمينيين» وهؤلاء هم وطنيون سلّموا بانهيار الاتحاد السوفياتي ويرون أن خلق دولة روسية مركزية قوية من الفيدرالية الروسية يمكن أن يعزّز قضية تراص الأمة وتنظيم مدى قوي مستقل مكتف بذاته. والدولتيون «اليمينون» يرفضون الانفصالية والإمبريالية لأن تفتيت الفيدرالية الروسية يعني، في رأيهم تضييع الروس للأراضي التابعة لهم، أما التوسع الإمبراطوري فسيجيء بعدد كبير من العناصر غير القومية وسيهدد الهيمنة القومية للروس.

كما وإن بين منظري إعادة الإمبراطورية أيضاً قطبين. «فاليساريون» العولميون الروس، المتوجهون في الأساس نحو غورباتشوف واللوبي الخاص به، يرون أن من الضروري التسريع بإقامة «المجال الديمرقراطي الموحَّد» على أراضي مجموعة الدول المستقلة، وعلى نطاق أوسع أيضاً في إطار المدى الأوراسي.

وقد تجسد الفهم «اليميني» للمجال الكبير الجديد في البرامج السياسية للمعارضة المتشددة في خصومتها مع النظام. وغالبية ممثلي هذه المعارضة ـ كالشيوعيين الوطنيين والتقليديين الإمبرياليين ـ يرون بأن روسيا في إطار الفيدرالية الروسية ليست فقط تشكلاً جيوبولتيكياً غير كاف من الناحية الترابية بل وهي من الناحية المبدئية حلٌ خادع في مسألة حماية المصالح الاستراتيجية لروسيا كدولة عظمى. والأوراسية «اليمينية» تنطلق من فهم إمبراطوري للرسالة التاريخية لروسيا

التي ينبغي أن تكون إما «قارة» مستقلة مكتفية بذاتها أو أن تنحرف عن مهمتها التاريخية، والجيوبولتيكية.

وهكذا يمكننا أن نلخص جميع صور المشاريع الجيوبولتيكية المتعلقة بمستقبل الحكومية الروسية في تصميم واحد يأخذ في الحسبان التوجه الإيديولوجي لهذه القوى أو تلك.

	الجهوية الروسية	المركزية الروسية	«الأوراسية» «المدى» «المكاني الكبير»
«الإصلاحيون» «الليبراليون» «اليساريون» «الروس»	الانفصالية، الجمهوريات الإتنية	الإصلاحيات الليبرالية التابعة للمركز المتسلط «اليلتسينيّة»	«المدى الديموقراطي الموحد» «البيت الأوروبي المشترك» «لوبي غورباتشوف» «العولمية اليسارية»
المحافظون الوطنيون «اليمينيون» الروس	«الجمهورية الروسيّة»	«اليلتسينية اليمينية» «الروح الوطنية» في «الفيدرالية الروسية»	«الإمبراطورية» «الأوراسية» إعادة «الاتحاد السوفياتي»

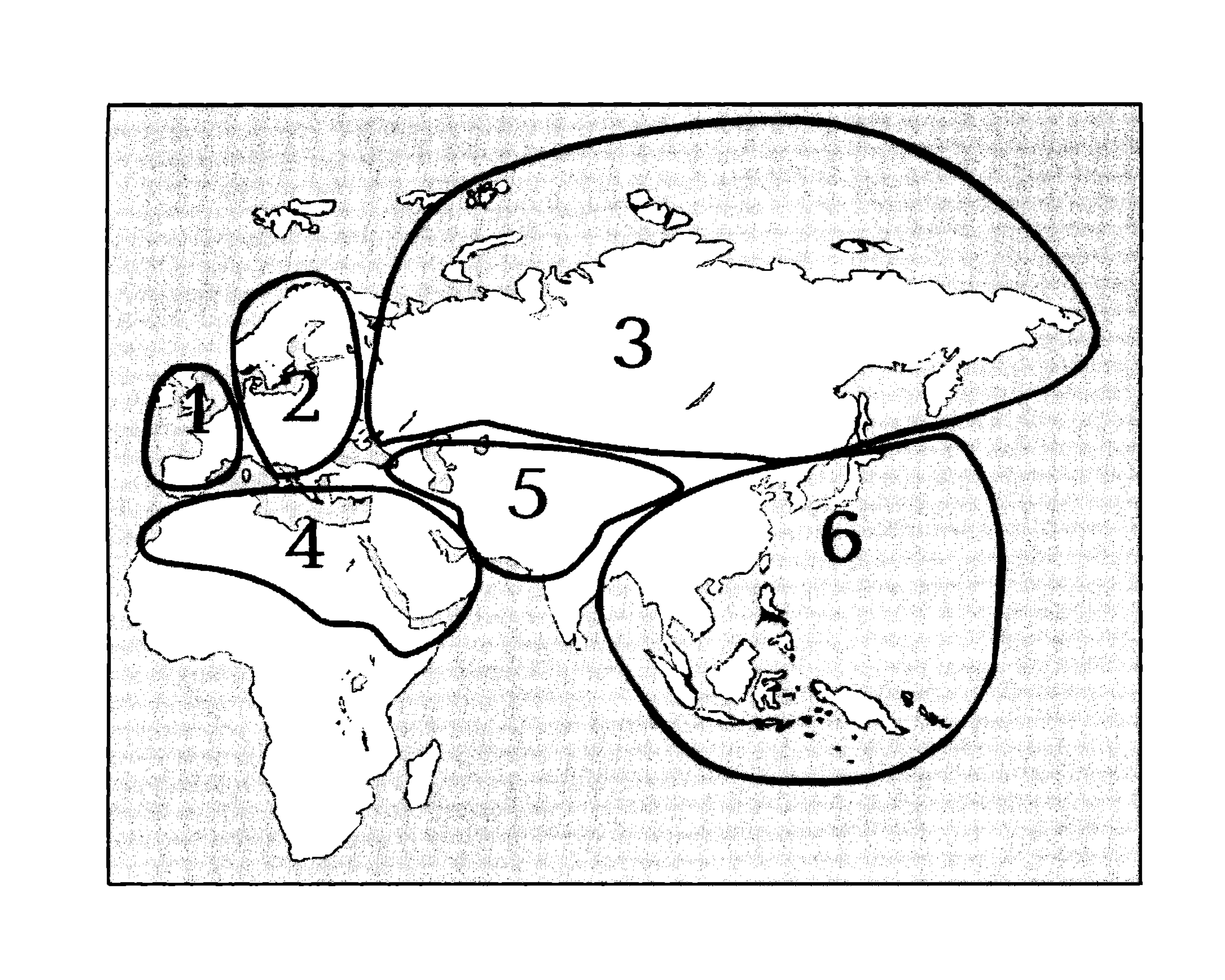
الفصل الثالث 3

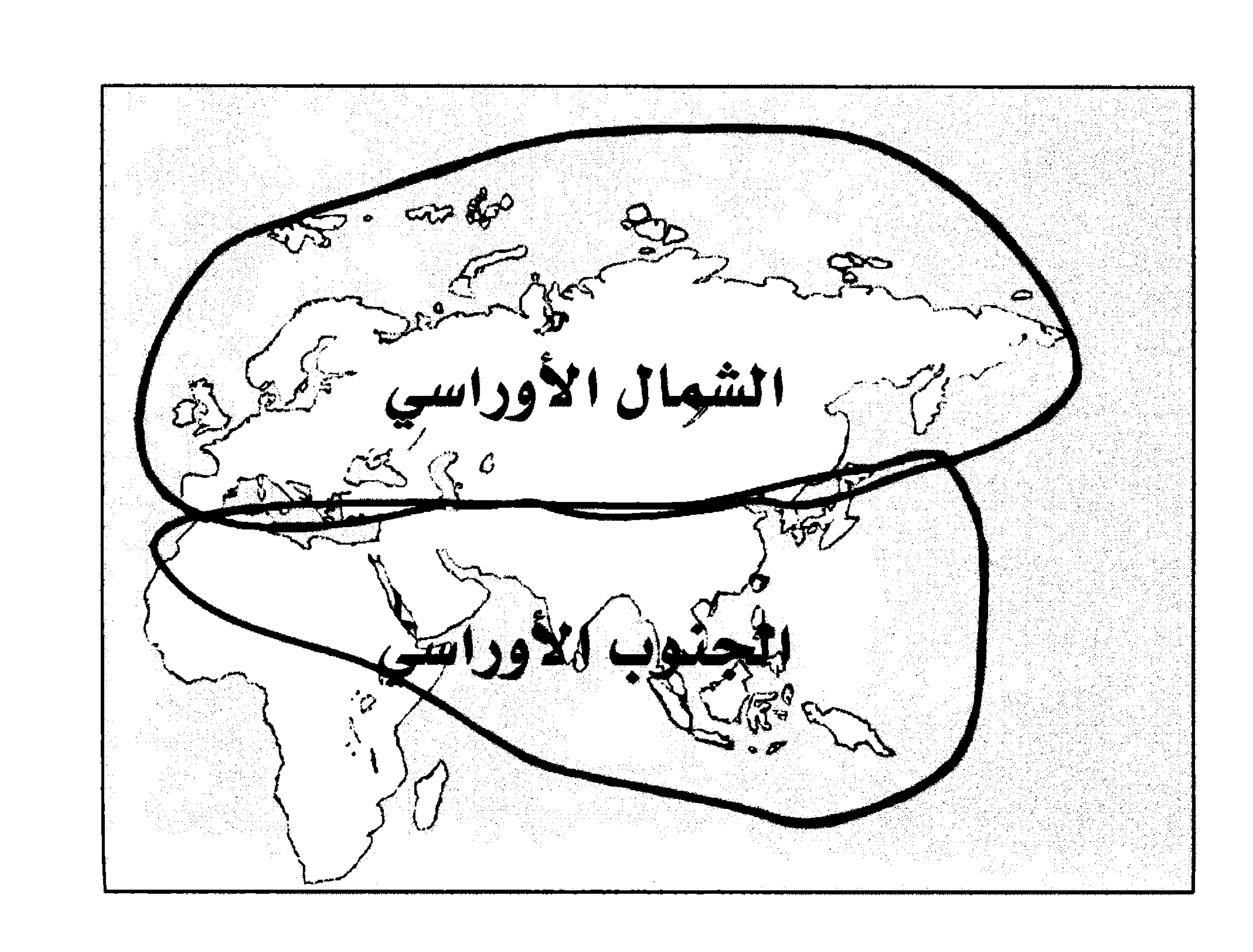
المشاكل الجيوبولتيكية في الخارج القريب

3 ـ 1 قوانين المدى الكبير

قانون الجيوبولتيكا الأساسي هو **مبدأ المدى الكبير** الذي استنبطه ماكيندر وهاوسهوفر وطوره كارل شميدت. والاستقلال الوطني للدولة لا يرتبط وفقاً لهذا المبدأ فقط بالقوة العسكرية، وبالتطور التقني والقاعدة الاقتصادية بقدر ما يرتبط باتساع أراضي هذه الدولة ومساحاتها وبمكان توضعها الجغرافي. وقد دبّج منظرو الجيوبولتيكا الكلاسيكيون مئات المجلدات ليبرهنوا على أن مشكلة الاستقلال ترتبط ارتباطاً مباشراً بالاستقلالية الجيوبولتيكية للإقليم وباكتفائه الذاتي. وعلى تلك الشعوب والدول التي تتطلع حقاً إلى الاستقلال أن تحل بالدرجة الأولى مشكلة اكتفائها الذاتي الترابي. وفي أيامنا هذه لا يمكن أن تتمتع بهذا الاكتفاء الذاتي إلا الدول البالغة الضخامة والواقعة في مناطق محمية استراتيجياً من أي هجوم محتمل استراتيجياً (عسكري، سياسي أو اقتصادي) من طرف التشكلات الدولية الأخرى.

وفي مرحلة المواجهة بين الرأسمالية والاشتراكية كانت الحاجة إلى الأحلاف والمجالات الكبرى أمراً واضحاً. ولم يكن أحد يشك في أن البلاد لا يمكن أن تكون «غير منحازة» إلا بثمن إزاحتها عن مجال الجيوبولتيكا الكونية على حساب التهميش والعزل إلى الأطراف. وفضلاً عن ذلك فإن جميع «غير المنحازين» قاموا باختيارهم لصالح هذا المعسكر أو ذاك وإن كان اختياراً أقل جذرية من اختيار أنصار الاشتراكية أو الرأسمالية. وانهيار إحدى الدولتين الأعظم يغير دون شك وبصفة جادة المدى الجيوبولتيكي للأرض. لكن مبدأ المجالات الكبرى لا يفقد بأي حال قوته ـ بل على العكس من ذلك يغدو مشروع «العولمة» الجيوبولتيكي


1
2
3
4
5
6


الشمال الأوراسي
الجنوب الأوراسي

اليوم الأكثر انتشاراً والذي يفضي مغزاه إلى تحويل كافة سطح الأرض إلى مجال كبير موَحد، تتم إدارته من المركز الأمريكي.

3 ـ 2 Pax Americana وجيوبولتيكا العولمة

مشروع المجال الأطلسي الكبير الموالي لأمريكا وإقامة الـPax Americana أو فرض «النظام العالمي الجديد» ذي «الحكومة العالمية» الواحدة ـ كل هذا في جوهره مترادفات جيوبولتيكية. ومثل هذا المخطط بالذات يُتدارس ويطبق اليوم في سياسة الغرب الدولية والولايات المتحدة بالدرجة الأولى. ومن الواضح أن المنظومة العالمية للمجال الكبير تستثني بصفة كلية أية صيغ للاستقلالية الحكومية والسياسية الأصلية بالنسبة لأي شعوب أو دول مهما كانت. والأدهى من ذلك أن العالم المزدوج القطبين قد أعطى من مستويات الحرية (السيادة) للدول الداخلة في نطاق نفوذ أحد المجالين الكبيرين ما يزيد بدرجة لا يمكن مقارنتها بما يخطط له في المشروع المعولم، وذلك على الأقل لأن المجابهة الكونية ما أجبرت فقط على خنق الدول التابعة بل وعلى رشوتها أيضاً. والمجال الكوني الكبير الوحيد لدارسي المستقبل العولميين سيعني الزوال الكامل حتى لأقل ظل من أي استقلال مهما كان طفيفاً، لأن الضغط بالقوة (العسكرية أو الاقتصادية) على «الآماد الصغرى» المفتتة المذرّاة يغدو الوسيلة الوحيدة للسيطرة (وضرورات الرشوة تنتفي من تلقاء نفسها خلف غياب المنافس الجيوبولتيكي المعادي).

والوضع العملي يطرح أمام كل دولة وكل شعب (وبخاصة أمام الحكومات والشعوب التي كانت قد دخلت في المعسكر الجيوبولتيكي المعادي للغرب الأطلسي)، خياراً ملحّاً ـ **إما التكامل ضمن مجال كبير تحت قيادة الأطلسيين، وإما إقامة مجال كبير جديد قادر على مواجهة الدولة فوق العظمى الأخيرة.** ومسألة الاستقلال الجيوبولتيكي الحقيقي ترتبط بعلاقة مباشرة بهذا الخيار، ولكن لا يمكن أن يكون ثمة أي استقلال كامل لأي شعب أو دولة في أي حالة من الحالتين. فلدى اعتناق الأنموذج العالمي يتم بصورة معروفة مسبقاً استبعاد أي استقلال لأن «الحكومة العالمية» تصبح مركز السلطة الأوحد والذي لا خيار سواه والمستقل في هذه الحالة هو فقط إمبراطورية «النظام الكوني الجديد» العالمية الزائفة. وتصبح

جميع أجزائها، وفقاً لذلك مستعمرات وإزاء تنظيم المجال الكبير الجديد نتعامل مع سيادة نسبية في إطار تشكل جيوبولتيكي كبير، لأن هذا المجال الكبير سيغدو حراً بصفة نسبية لدى تحديد الفكرة الأساسية الأيديولوجية المتعلقة برؤية العالم. وهذا يعني أن الشعوب والدول التي تدخل في هذا المعسكر يمكن أن تعوّل، على الأقل، على سيادة إتنوثقافية وعلى مشاركة مباشرة في بناء وإعداد إيديولوجية كبرى، بينما تكون الصيغة المعولمة «للنظام العالمي الجديد» قد انتهت فكرياً وتم إعدادها فتعرض على جميع شعوب الأرض كنظير استعماري للنموذج الليبرالي ـ السوقي الأمريكي.

3 ـ 3 المفارقة الروسية.

خصيصة الموقف الجيوبولتيكي الفعال في أن مبادرة دمار المجال الأوراسي الكبير والذي كان قد وجد في صيغة المعسكر الاشتراكي انطلقت من نفس مركز هذا المعسكر، من عاصمة الأوراسيا ـ موسكو. فالاتحاد السوفياتي بالذات في شخص غورباتشوف صار المبادر إلى إدخال المعسكر الأوراسي في المشروع العولمي. وأفكار «البيريسترويكا» و «التفكير الجديد» وما إلى ذلك كانت، على المستوى الجيوبولتيكي، تعني الاعتناق الكامل لأنموذج المجال الكبير والموحّد والانتقال الواعي من العالم ثنائي القطبين إلى العالم الوحيد القطب. فتم في البداية تدمير المعسكر الاشتراكي، ثم تقليص الحلف الشرقي. وتواصلت التصفية الجيوبولتيكية الذاتية بعد ذلك وأبعدت عن روسيا تلك الأقاليم التي دُرج على تسميتها اليوم «ببلاد الخارج القريب».

ومهما يكن من أمر فإن روسيا ـ كقلب الجزيرة الأوراسية، كـ heartland، استطاعت في الوضع الجيوبولتيكي الحيوي، وبصورة أفضل من جميع الأقاليم الأخرى، أن تواجه الجيوبولتيكية الأطلسية وأن تكون مركز المجال الكبير البديل. إلا أن حقيقة تصفيتها الجيوبولتيكية الذاتية قد أجبرتها على التنحى لفترة زمنية (نأمل أن تكون قصيرة) عن الأدوار المركزية في المواجهة الجيوبولتيكية. ولهذا ينبغي تدارس إمكانات أخرى لإقامة مجال كبير بديل لكي تتمكن الدول والشعوب الرافضة المشروع العولمي من اتخاذ بعض الخطوات الذاتية دون انتظار

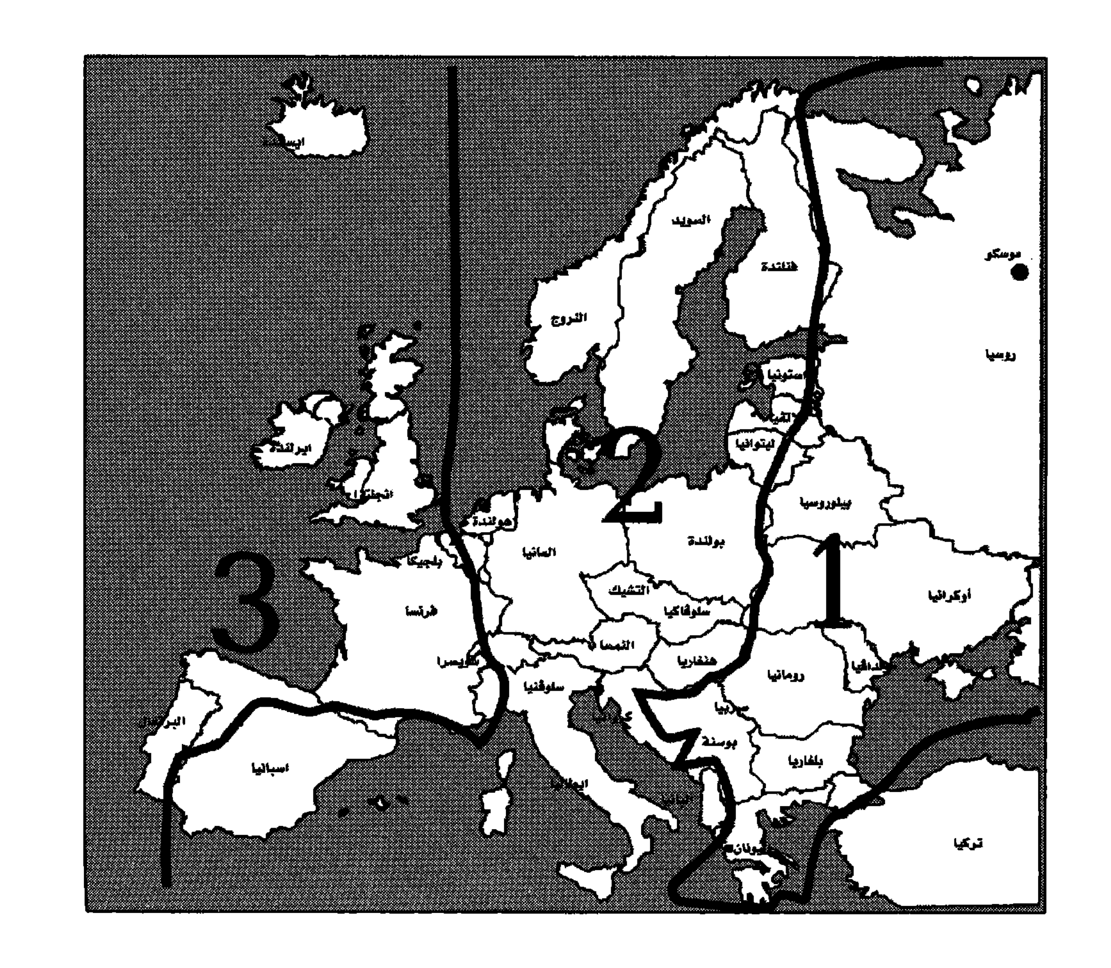
صحوة روسيا الجيوبولتيكية. (وعلى فكرة فإن من شأن هذه الخطوات أن تسرّع فقط مثل هذه الصحوة).

3 ـ 4 تبقى روسيا «محور التاريخ»

إن الاختيار الجيوبولتيكي للصيغة المناهضة للعولمة من طرف روسيا التي شلّت في غير أوانها على أية حال يجب أن يضع في الحسبان الوظيفة الاستراتيجية والجغرافية للأراضي الروسية وللشعب الروسي بالذات، وهذا يعني أن مواجهة العولميين المعاصرين، الذين يهيمنون إلى حد ما على المدى السياسي الروسي يجب ألاّ تتحول إلى كراهية لروسيا. وفضلاً عن ذلك فإن المصالح الجيوبولتيكية الجذرية للروس تتطابق ثقافياً ودينياً واقتصادياً واستراتيجياً مع أفق المدى الكبير، البديل المعادي للعولمة والمعادي للأطلسية. ولهذا السبب ستكون الميول القومية للمعارضة متضامنة بالضرورة مع جميع المشاريع المعادية للعولمة في التكامل الجيوبولتيكي خارج روسيا.

3 ـ 5 Mitteleuropa والإمبراطورية الأوروبية

أحد البدائل المحتملة **للمجال الكبير** الجديد هو أوروبا التي تضعها الأوساط السياسية والإيديولوجية المعنية في مواجهة **الغرب** ـ العالم الأنجلوساكسوني والولايات المتحدة بالدرجة الأولى. وهذه الأوروبا المعادية للغرب ليست أمراً طوباوياً محضاً، لأن هذا المشروع قد تحقق أكثر من مرة في التاريخ وإن كان ذلك قد ترافق بعدد من الأخطاء والتحريفات. ففي القرن العشرين كانت دول المحور تمثل هيكل هذه الأوروبا بالذات على الرغم من أن محبة انكلترا وكراهية فرنسا لدى بعض أوساط القيادة الألمانية (بالإضافة إلى ظروف أخرى) قد حالت دون التحقيق الكامل لهذا المشروع. وبعد الحرب العالمية الثانية قام ديغول بمثل هذه المحاولة ولسياسته تلك يعود الفضل في أن لا تكون فرنسا اليوم عضواً رسمياً في الناتو. وعلى أية حال فإن فكرة أوروبا المعادية للغرب، التقليدية، الإمبراطورية، تغدو اليوم أكثر حيوية عندما لم يعد وجود القوات الأمريكية على القارة الأوروبية مبرّراً بوجود «التهديد السوفياتي» ويتخذ طابع الاحتلال الأمريكي العلني. وأوروبا



1
2
3
موسكو
روسيا
السويد
فنلندة
النروج
استونيا
ليتوانيا
بيلوروسيا
ايرلندة
هولندة
بولندة
المانيا
بلجيكا
فرنسا
التشيك
سلوفاكيا
أوكرانيا
النمسا
هنغاريا
رومانيا
سويسرا
سلوفنيا
البرتغال
اسبانيا
بوسنة
بلغاريا
ايطاليا
تركيا

بمستوى تطورها التقني والاقتصادي تعد الخصم الجاد لأمريكا وبمضاعفة ضغط المصالح الجيوبولتيكية الطبيعية للأوروبيين من الأسفل يمكن للفئة العليا العولمية والموالية لأمريكا أن تتراجع فتبدأ أوروبا حياتها الجيوبولتيكية المستقلة. والتوجهات نحو التحرر السياسي وإلى البحث عن بديل إيديولوجي تتعاظم في أوروبا يوماً بعد يوم، وبصورة متوازية مع ذلك تتعاظم فرص إقامة **المجال الكبير** الأوروبي المستقل.

3 ـ 6 ألمانيا ـ قلب أوروبا

المجال الأوروبي الكبير ينبغي أن يتشكل حول الدولة الأكثر قارية من بين الدول الأوروبية ـ حول ألمانيا، وبكلمة أدق، حول Mittelauropa أي وسط أوروبا. والمصالح الجيوبولتيكية لألمانيا كانت من الناحية التقليدية مناقضة للتوجهات الأطلسية للغرب. وكان ذلك يمس الآفاق القارية والاستعمارية للجيوبولتيكا. وقد كانت ألمانيا دوماً معادية للغزوات الانجلوساكسونية الاستعمارية وكانت تتطلع إلى بناء حضارة قارية برية، ذات اكتفاء ذاتي، تعتمد على قيم قارية، تراتبية وترابية. وكانت الـMitteleuropa في هيئة إمبراطورية هابسبورغ(*) النمساوية ـ المجرية، الأثر الأوروبي الأخير **للإمبراطورية الرومانية العظمى**، والتي تغوص إليها جذور الحضارة الأوروبية في صورتها الحكومية ـ الاجتماعية. وإذا ما تحدثنا بدقة أكبر فقد كانت أوروبا المدى الكبير الذي يوحد أوروبا الغربية والوسطى في وحدة جيوبولتيكية واحدة. وفكرة الإمبراطورية الأوروبية مرتبطة اليوم ارتباطاً مباشراً بألمانيا وبالدول الداخلة في منطقة النفوذ الألماني.

(*) هابسبورغ (Habsburger) أسرة حكمت في النمسا (منذ 1282 بصفة دوقات، ومنذ 1453 بصفة كبار الدوقات ومنذ 1804 بصفة الأباطرة النمساويين). وعندما تم ضم تشيخيا والمجر سنة 1526 (وكان حكامها يلقبون بالملوك) وغيرها من الأراضي صار أبناء هابسبورغ حكام منطقة واسعة تضم عدداً من القوميات (يجمعها بين 1867 ـ 1918 اسم امبراطورية النمسا والمجر) كما كان أبناؤها أباطرة «الامبراطورية الجرمانية المقدسة» (بصفة متواصلة بين 1438 ـ 1806 باستثناء 1742 ـ 1745) وملوك أسبانيا 1516 ـ 1700. ومن بين أهمهم جميعاً ـ كارل الخامس، فيليب الثاني (إسباني)، ماريا تيريزا، يوسف الثاني، وفرانس يوسف الأول (المترجم).

ومن هذه المنطلقات يمكن أن نستخلص على الفور نتيجة جيوبولتيكية هامة وهي ـ **لا يمكن للتحالف الجيوبولتيكي المعادي للعولمة أن يتحقق بالنسبة لكافة دول «الخارج القريب» الغربية (كجمهوريات البلطيق وأوكرانيا ومولدافيا) إلا بدخولها في حلف أوروبا الوسطى (هذا بالطبع إذا لم يتبدل الوضع في روسيا نفسها) مع التوجه نحو ألمانيا**. وفي هذه الحالة ستتوفر أمام المناطق الغربية من الاتحاد السوفياتي فرصة أن تكون المناطق الحدودية الشرقية للمدى الكبير الأوروبي ويمكن أن تتمتع بشيء مما يشبه الاستقلال (وإن كان سيقل عما يمكن أن عليه وهي ضمن روسيا أو ضمن الحلف الأوراسي المحتمل ومركزه في روسيا المعادية للعولمة).

ويمكن للإمبراطورية الأوروبية أن تضمن لهذه المناطق حريتها الذاتية الثقافية واللغوية والاقتصادية وأن تصونها من النظام العولمي المتساوي والذي يدمر ضمن بنيته الليبرالية ـ السوقية البلوتوقراطية حتى مجرد التلميحات إلى الخلاف أو الاكتفاء الذاتي والحفاظ على الهوية القومية. بيد أنه لن يمكن الحديث عن أي نوع من الاستقلال السياسي أو الحكومي. وفضلاً عن ذلك ستبقى الإمبراطورية الألمانية مهدَّدة بخطر اشتعال النعرة القومية الألمانية وإن كان ذلك سيحمل انهيارها مثلما كانت «بانألمانية» هتلر مهددة بخطر الانهيار.

3 ـ 7 «التقرّب من أوروبا»

وهذا الأفق قريب من أوكرانيا الغربية وإستونيا لأن هاتين المنطقتين فقط تنتميان، حقيقة، من الناحيتين التاريخية والدينية إلى الثقافة الغربية وتريان أن مصالحهما الجيوبولتيكية متطابقة مع مصالح أوروبا الوسطى. أما فيما يتعلق بغير ذلك من «دول الخارج القريب» فإن بيلوروسيا والمناطق الشرقية والوسطى من أوكرانيا تنتمي سياسياً وثقافياً إلى روسيا ـ الأوراسيا، وإذا كانت ثمة أية فروق ثقافية فيمكن ردّها إلى تفاصيل خاصة لا تفترض على الإطلاق استبدال الحلف الجيوبولتيكي من **شرقي** إلى **وَسَطي** (أوروبا الوسطى)، كما يمكنه أن يحل ضمن إطار الاستقلال الذاتي الاتنو ثقافي (ولكن ليس المتعلق بالدولة!). لقد ظلت ليتوانيا تلعب من جانبها وعلى الدوام دوراً خاصاً في جيوبولتيكا أوروبا الشرقية من

خلال أدائها مهمة مزدوجة ـ فبالنسبة لروسيا كانت تتصرف على أنها حاملة الثقافة الغربيّة، أما بالنسبة لأوروبا الوسطى فكانت، على العكس من ذلك، تقدم نفسها، بالإضافة إلى بولندا، قوةً شرقية تدافع عن الاستقلال البلطيقي ـ الغربي ـ السلافي في وجه الضغط الألماني. ومن وجْهة النظر الجيوبولتيكية كانت ليتوانيا خلال المئات السنين الأخيرة تبدو ألمانية تارة وطوراً روسية، والصورة الوحيدة التي لم تظهر بها منذ زمن بعيد (ولا يمكنها أن تظهر بها) هي الوجه الليتواني؛ لأنها لا تملك المنطلقات الجيوبولتيكية الأساسية لتتطابق مع شروط السيادة التي يفرضها العصر الحاضر.

وهذا ما يمكن قوله بصفة جزئية عن لاتڤيا، على الرغم من أنها، خلافاً لليتوانيا، لم تلعب أي دور مستقل في التاريخ الجيوبولتيكي قط، إذ كانت منطقة طرفية بالنسبة للتأثيرات الجانبية في البلطيق.

أما بالنسبة لمولداڤيا فإن هذا التشكل الترابي لم يتميّز أيضاً بأية صبغة حكومية في أي يوم من الأيام، ومهما كان من أمر التقليد الحكومي السياسي المستقل لدى الرومانيين فإن هذه الصيغة تغيب عندهم بصورة كلية، كما تغيب لدى المولدافيين. إلا أن رومانيا، من الناحية التاريخية (متضمّنة بعض أراضي مولدافيا) دخلت في الحلف الجيوبولتيكي الروسي ـ الأوراسي مثلما دخلت في حلف أوروبا الوسطى (ممثلاً بالنمسا والمجر)، ولهذا فإن حَدَثاً محدَّداً من التحالف مع أوروبا الوسطى قد وجد لدى الرومانيين. على الرغم من أن أرثوذوكسية الغالبية العظمى من المولداڤيين والرومانيين تقربهم أكثر من الشرق ومن روسيا.

3 ـ 8 حدود «الحرية» والامتيازات المضيعة

إن أفق دخول البلدان الغربية التابعة «للخارج القريب» في الإمبراطورية الأوروبية وتقربها من أوروبا الوسطى يمكن أن يكون ممكناً ومبرراً من الناحية التاريخية، على الرغم من أنه في جميع الحالات (باستثناء إستونيا كأراضٍ مستعمرةٍ لمنظمة التيتون(*) مأهولة بأحفاد العاملين الصامتين والمطواعين الأوغرو ـ فنلنديين

(*) التيتون: (يعود الاسم لعدد من القبائل الألمانية القديمة)، ويتعلق هنا بفرقة دينية =

القدامى وباستثناء أوكرانيا الغربية) يبدو حلف روسيا ـ الأوراسيا الشرقي، من وجهة النظر الجيوبولتيكية، أفضل بمرات كثيرة، لأن هذه المناطق أكثر ارتباطاً من الناحية الثقافية بالشرق منها بأوروبا الوسطى. ولهذا فإن اتحاد «دول الخارج القريب» الغربية يمكن أن يكون الصورة البينية للتوجه الجيوبولتيكي المعادي للعولمة إذا ما واصلت روسيا رفضها لرسالتها التكاملية.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الدول لن تحصل على أي استقلال سياسي في حال دخولها منظومة «**الإمبراطورية الأوراسية**» المفترضة لأن المجال الكبير ـ وهو يقدم الحماية الجيوبولتيكية والاقتصادية والحربية، يطالب الخاضعين له، بدوره، بالتنازل عن الاستقلال السياسي ـ الوطني. وعن الحق في تطبيق السياسة الإيديولوجية أو الدبلوماسية الخاصة التي تسير مخالفة لمصالح الإمبراطورية. ومهما ترك ذلك من تأثير في نفوس ممثلي «القومية الصغرى» فإنه لا يمكن أن يكون مستقلاً في وضعنا إلا الدول فوق العادة، الإمبراطوريات القارية التي تؤخذ ككل موحد.

3 ـ 9 «النطاق الصحي»

للمشكلة الجيوبولتيكية «لدول الخارج القريب» أفق آخر ـ **وهو العامل الأطلسي**، الذي يتصرف بطريقة مباشرة ويفرض على هذه الدول خطوات سياسية تعود بالمنفعة على العولمة والأمركة. ولهذه المسألة عدة مستويات ـ فلنبدأ بالترتيب.

لن تكون للولايات المتحدة إمكانية السيطرة العالمية إلا في حالة انعدام وجود أي مدى كبير آخر فوق الكرة الأرضية. من هذا ينطلق الاستنتاج بأن تضع الجيوبولتيكا الأمريكية هدفها تدمير المعسكر الجيوبولتيكي القوي المحتمل وإقامة

= من الفرسان أسست في فلسطين خلال الحروب الصليبية. وبعد الانتصار على الصليبيين وإخراجهم من بلاد الشام نقلت الفرقة نشاطها بين القرن الثالث عشر و1525 إلى أرض تم انتزاعها من البروسيين والليتوڤيين والبولنديين على شواطىء البلطيق. وهزمت فرقة التيتون في معركة غروناڤال سنة 1420 فصارت سنة 1466 تابعة لبولندا. وفي سنة 1525 حوّلت ممتلكاتها في البلطيق إلى دوقية بروسيا النبيلة (المترجم).

العراقيل للحيلولة دون إقامته. ولنا في التاريخ مثال على هذه السياسة في شخص انجلترا، التي كانت تحاول دوماً إنشاء «النطاق الصحي» أو «النطاقات الصحية» في القارة. فـ «النطاق الصحي» هو أراضي دول أو شعوب تتوضع بين تشكلين جيوبولتيكيين كبيرين يمكن لاتحادهما أو دخولهما المشترك في مدى كبير أن يشكل تنافساً خطيراً على الدولة المعنية (انجلترا سابقاً ـ الولايات المتحدة حالياً). عادة ما تكون دول «النطاق الصحي» في الوقت نفسه سبباً لنشوب النزاعات بين الدولتين القاريتين وتكون استقلاليتهما الجيوبولتيكية غير ممكنة واقعياً فهما مضطرتان للبحث عن الدعم الاقتصادي والسياسي والعسكري من الخارج. وجوهر سياسة القوة الجيوبولتيكية الكبيرة الثالثة في هذا الوضع يتمثل في أن تجعل من «النطاق الصحي» منطقة توتر بين الآماد الكبرى المتقاربة عن طريق تصعيد النزاع من خلال التأثير الدبلوماسي على حكومات الدول «البينية». والصورة الأكثر جذرية «للنطاق الصحي» هي الوضع الذي تتطلع فيه الدولة «البينية» إلى الاستقلال الكامل عن الجارين القاريين وهو ما يحيلها من الناحية العملية إلى مستعمرة للدولة الكبرى الثالثة «البعيدة».

أما المثال الأشهر على «النطاق الصحي» فكان الدول المتوضعة في بدايات القرن بين روسيا وألمانيا وكانت تشرف عليها انجلترا. فقد فصلت هذه الدول بين المدى الكبير لأوروبا الوسطى والمدى الكبير لروسيا ـ الأوراسيا جاعلة من أنفسها عملاء مباشرين وطغاة في أيدي بلدان **الغرب** الأوروبي. وتكررت مثل هذه الخطوة أكثر من مرة في أوضاع أخرى أكثر محلية. والولايات المتحدة مضطرة بفعل الضرورات الجيوبولتيكية المباشرة لأن تجعل «النطاق الصحي» الأداة الأساسية لسياستها الخارجية. وفي تقرير بول ولفوفتس، مستشار الأمن القومي الأمريكي، إلى حكومة الولايات المتحدة (في نيسان 1992) تم التنصيص بصراحة حول «ضرورة الحيلولة» دون ظهور قوة استراتيجية في القارتين الأوروبية والآسيوية قادرة على مواجهة الولايات المتحدة»، وجرت الإشارة بهذا المعنى إلى أن دول «النطاق الصحي» (وبخاصة دول البلطيق) هي الأراضي الاستراتيجية البالغة الأهمية التي يستوجب الاعتداء عليها من طرف الروس رداً مسلحاً من طرف دول «الناتو» هوذا الأنموذج المثالي للمنطق الجيوبولتيكي للدولة الثالثة في منطقة المصالح المتبادلة بين ألمانيا وروسيا.

3 ـ 10 التحول من منطقة طرفية إلى مستعمرة:

يمكن التعبير عن سياسة «النطاق الصحي» بمعادلة «الاستقلال عن القريب والتبعية للبعيد». وينبغي أن ندرك جيداً إزاء ذلك أنه لا يمكن الحديث عن أي نوع من الاستقلال الحقيقي أو السيادة في مثل هذا السياق هذا على الرغم من أن «القومية الضيقة» القصيرة النظر قادرة على مستوى ضيق تفكيرها أن تساوي بين هذه «التبعية الاستعمارية للدولة الثالثة» وبين انتصارات «النضال الوطني التحرري». كما وعلينا أن ندرك أيضاً أنه بالنسبة للدول الصغيرة في عصرنا هذا الذي أحسنت إدارته بطريقة رائعة، لا يمكن أن تكون ثمة انتصارات فقط بل ولا أنه يكون أيضاً أي نضال حقيقي وحيد الروح.

و«بلدان الخارج القريب» والتي خرجت من تحت سيطرة موسكو بقوة شروط جيوبولتيكية مختلفة لعب النضال الداخلي لهذه الدول دوراً تافهاً فيها (هذا إن وجد مثل هذا النضال على العموم) تملك الآن كل الفرص لتصبح «نطاقاً صحياً»، لسياسة الولايات المتحدة العولمية في القارة، وهذا يعني تضييع ثقة جيرانها واستجلاب لعنة «الخيانة المزدوجة» على نفسها كما إنها ستتحول فضلاً عن ذلك، من **أطراف إلى مستعمرات**. أما ما الذي يجري في هذه الحالة لثقافتها فمن المخيف تصوّره. فالعولمة ستعرض عوضاً عنها البديل الاستعماري العالمي و«الكوكا ـ استعمارية» الثقافية. وسيكون «للنطاق الصحي» نُظّار من العملاء بصفة حكام، وبصفة كاملة تجرد هذه البلدان من ذاتيتها السياسية، أما أمن سكانها فسيكون دوماً تحت تهديد الجيران القاريين الذين لن يتأخروا في الانتقام.

وعلى هذا فالتحول إلى «النطاق الصحي» يعني لـ «بلدان الخارج القريب» تضييع أي نوع من الاستقلال الجيوبولتيكي فنظير إغاظة «الموسكا الصحي» «للفيل القاري» سيدفع مقابل ذلك عبوديّة سياسية وثقافية واقتصادية لدى سادة «النظام العالمي الجديد، فيما وراء البحار (يضاف إلى ذلك ردّة فعل «الفيل» المنطقية تماماً في المستقبل الأقرب).

(*) موسكا: تحريف للـ Mops (بالألمانية) وهو نوع من الكلاب المنزلية الصغيرة مدوّر الرأس أفطس الأنف ذو شعر قصير كثيف ذكره الشاعر الروسي إ. كريلوف في أشعاره الشهيرة عن الحيوان ضمن خرافة «الفيل وموسكا».

إن أفق «النطاق الصحي» بالنسبة للبلدان الغربية في «الخارج القريب» واضح. وصيغته «لا ألمانيا ولا روسيا» (أي لا أوروبا الوسطى، ولا الأوراسيا). وما دامت ألمانيا كقوة جيوبولتيكية مستقلة تمثل احتمالاً محضاً فمن الإنصاف الافتراض أن نرى وراء مفهوم «استقلال» (سيادة) البلدان الغربية في «الخارج القريب» انتقالاً إلى خدمة العولمة والأمركة. وعلى الأقل فهذه هي اللوحة الجيوبولتيكية العملية. وبكلمة أخرى فإن دول «الخارج القريب» الغربية الطامحة حقاً إلى «الاستقلال» (وليس «المقضي عليها بالتحرر» بسبب من سياسة موسكو الخيانية) ستختار وفق أقرب الاحتمالات وبطريقة واعية دور «النطاق الصحي» لخدمة الولايات المتحدة. وينطبق هذا بصفة خاصة على تلك «البلدان» التي كانت ترتبط بألمانيا بعلاقات عدائية إلى حد ما.

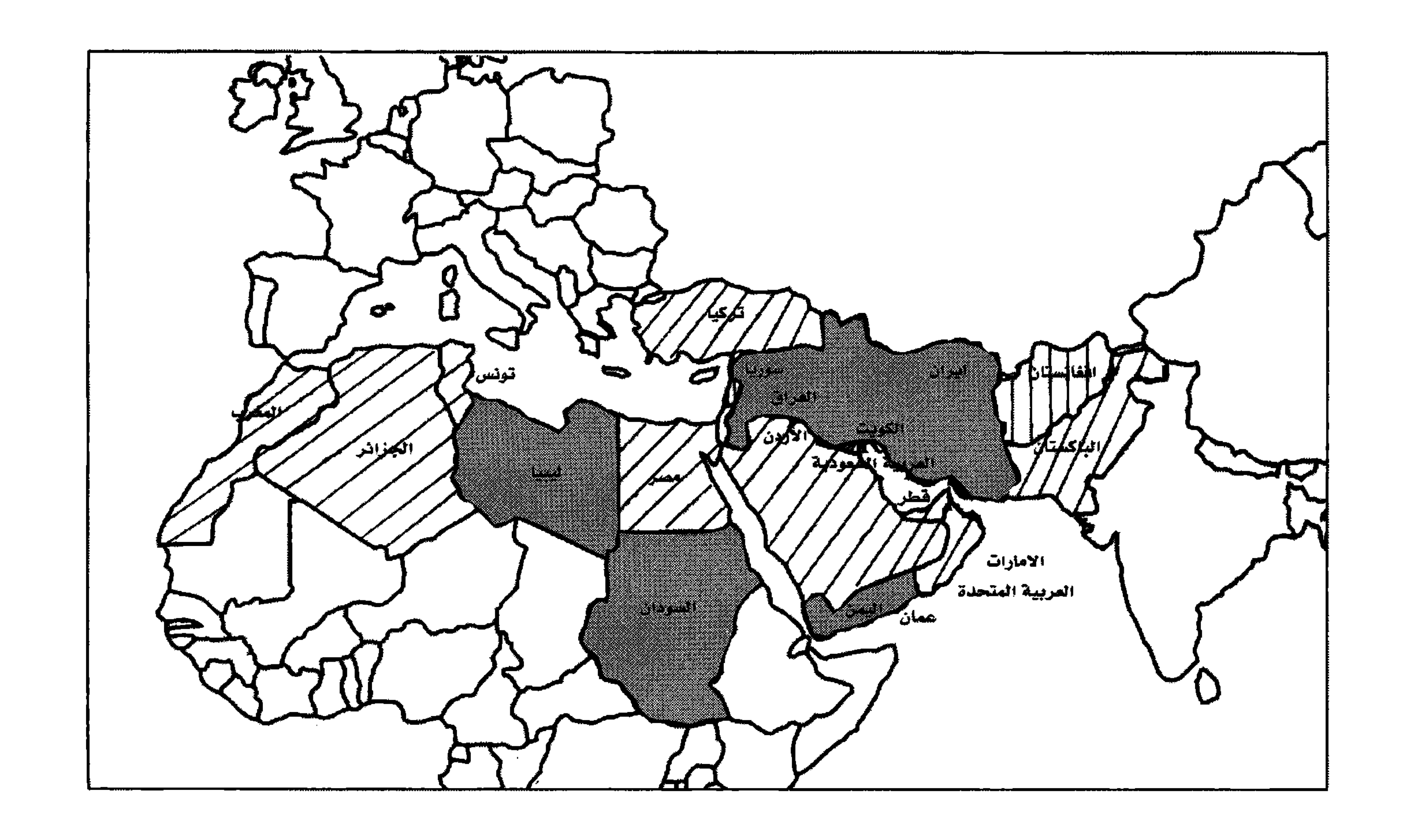
وبلدان «النطاق الصحي» التابعة «للخارج القريب» تدخل في حلف مع **الغرب** (مع **أوروبا الغربية**) متجاوزة **أوروبا الوسطى**، وليد هذا المظهر الأسطع لتوجهها الأطلسي العولمي.

ومن ناحية المبدأ ينطبق الأمر بصدق على الدول الشرقية أيضاً في «الخارج القريب». إلا أننا إذا أردنا فهم آفاقها الجيوبولتيكية بصفة وافية بالمراد فعلينا أن نقف وقفة أكثر تفصيلاً أمام قوى الشرق الجيوبولتيكية.

3 ـ 11 آسيا أمام الاختيار:

توجد في **الشرق** تلك القوى الجيوبولتيكية المحتملة التالية والتي يمكنها أن تتطلع لتكون آماداً سكانية كبرى: الصين، إيران، تركيا والعالم العربي، فلنحلل باختصار جوهر كل واحد من هذه الآماد الكبرى مطبقاً على البلدان الشرقية من «الخارج القريب».

يجدر القول إن جيوبولتيكا الصين موضوع خاص لا يمكن تغطيته ببضعة أسطر. وبما أن «الخارج القريب» من الشرق يمثل منطقة انتشار الإسلام فإن إمكانية أن يشكل مع الصين مدى كبيراً واحداً تنسحب إلى المرتبة الثانية أمام إمكانات التحالفات الجيوبولتيكية الإسلامية. وعلى أقل تقدير فتلك هي حال الأمور في اللحظة الراهنة وهو ما لا يستبعد الفعالية الحادة للعامل الصيني كعامل تكاملي في المستقبل القريب.


تركيا
تونس
سوريا
ايران
العراق
افغانستان
المغرب
الجزائر
الكويت
الأردن
الباكستان
العربية السعودية
ليبيا
مصر
قطر
الامارات
العربية المتحدة
السودان
اليمن
عمان

بالنسبة للبلدان الشرقية من «الخارج القريب»، ثمة في إطار العالم الإسلامي ثلاثة عوامل جيوبولتيكية ذات آفاق كونية ولكل واحد من هذه العوامل خصائصه الأيديولوجية المعبّر عنها بكل وضوح. وهي ـ إيران الثورية القارية ـ الإسلامية، تركيا العلمانية، الأطلسية، المتعصبة قومياً ـ فالصيغة التيوقراطية العربية «السعودية» من الإسلام. وبالطبع هناك في العالم العربي إمكانات سياسية أخرى (العراق، سوريا، ليبيا)، لكن أية واحدة منها لا تستطيع في اللحظة الراهنة أن تتطلع إلى دور المدى الكبير التكاملي بالنسبة لبلدان آسيا الوسطى. وعلى العموم فإن التوجه نحو العربية السعودية يمكن مساواته اشتراطياً وجيوبولتيكياً بالتوجه نحو «الإسلام العربي (غير الاشتراكي)».

وللبلدان الشرقية من «الخارج القريب، إمكانية تكاملات جيوبولتيكية محتملة في إطار المعسكر الآسيوي.

3 ـ 12 الآفاق القارية «للثورة الإسلامية»:

إيران اليوم بلد فريد من نوعه، يؤدي في آسيا دور أوروبا الوسطى في **الغرب** ومن الأمور المميّزة أن الإيرانيين يميّزون أنفسهم عن الغرب وعن الشرق، وهم يفهمون **الغرب** على أنه «حضارة أوروبا العولمية الفجة» و«**الشرق**» على أنه ـ الهند، الصين و«روسيا».

والإسلام الإيراني قوة ديناميكية قادرة ذات توجه معاد بشكل واضح للعولمة وذات تطلعات نحو ثورة إسلامية عالمية كونية. وفي المعنى الجيوبولتيكي تبدو إيران دولة قارية وتملك استراتيجياً واقتصادياً وأيديولوجياً كل الفرص لتكون نواة المعسكر الأوراسي الكبير.

وبمقدور توجه جمهوريات آسيا الوسطى إلى إيران (وبالدرجة الأولى أذربيجان بنفطها وكازاخستان النووية الجبارة) أن يهيء وبصورة تامة، المنطلقات الأساسية للاستقلال القاري الحق. ويمكن للتحالف الموالي لإيران أن يكون الشبيه بآسيا الوسطى (قارن آسيا الوسطى ـ أوروبا الوسطى) لأن الأحداث التاريخية والمبادىء الأيديولوجية والتجانس الثقافي ـ الديني لهذه المناطق القارية يمكن أن تكون الأساس الكافي لترسيخ مثل هذا الاتحاد وتفعيله.

ومن المهم الإشارة إلى أن **المدى الكبير** الموالي لإيران يمكن أن يتضمن أفغانستان والباكستان وهذا يفتح بدوره شريط التواصل الترابي مع طاجكستان وأوزبسكتان. أما تركمانيا فلإيران معها حدود مباشرة.

3 ـ 13 مصيدة «البانتوركية»:

وللتوجه نحو تركيا طابع مختلف تماماً «يترافق هذا التوجه عادة بـ «البانتوركية» (لأن شعوب آسيا الوسطى في «الخارج القريب» تركية في معظمها).

ظهرت تركيا كدولة في مكان الإمبراطورية العثمانية لا كامتداد بل كصورة هزلية لها. وبدلاً من البنية الإسلامية الإمبراطورية المتعددة المراكز والكثيرة القوميات أقام كمال أتاتورك الصيغة الشرقية للـEtat- Nation الفرنسية الدولة ـ الأمة، ذات البناء العلماني ـ الإلحادي الفج والقومي الضيق. فكانت تركيا الدولة الأولى في الشرق التي قطعت العلاقات مع تقاليدها الروحية والدينية والجيوبولتيكية. ومن الناحية الواقعية تمثل تركيا كعضو في الناتو اليوم ـ المخفر الأمامي الشرقي للأطلسية والعولمة ـ «النطاق الصحي» بين الشرق الآسيوي والعالم العربي. والأنموذج الجيوبولتيكي الذي تقدمه تركيا ـ هو التكامل مع العالم الغربي والحضارة العولمية الإلحادية. ولكن بما أن تركيا نفسها ـ الطامحة إلى الدخول في «أوروبا» لا تزال بعد المستعمرة «السياسية ـ الأيديولوجية» للولايات المتحدة، وليست العضو الحقيقي في المدى الكبير الأوروبي (وهو ما كان يمكن أن يفترض من الناحية النظرية مشاركة تركيا في معسكر أوروبا الوسطى) فإن التوجه نحو تركيا يعني بالنسبة لبلدان «الخارج القريب»، تكاملاً مع المشروع العولمي ضمن حقوق «النطاق الصحي» وبصفة «العزقة الاستعمارية» بين كتلة أوراسيا القارية الشرقية (مع إيران والصين والهند) وبين العالم العربي الذي يهدد بالانفجار والذي يتطلع دوماً إلى التخلص من القيادة العولمية العملية.

وطريق تركيا ـ هو طريق خدمة الدولة الأطلسية فوق العادة وتقبل الأنموذج العولمي للمدى الكوني الكبير الخاضع «للحكومة العالمية» وقد يُعترض علينا بأن خارطة «البانتوركية» التي تلعبها تركيا تحمل من الناحية الظاهرية طابعاً قومياً تقليدياً. وهذا صحيح إلى حد ما، ومشاريع «تركيا العظمى من ياقوتيا إلى

سراييفو» تناقش بحيوية في أجهزة الدعاية التركية. وتجدر الإشارة بهذا الصدد إلى أن التحول الجذري في النهج السياسي والأيديولوجي والاقتصادي لتركيا هو وحده الذي يمنح الجدية لهذه المشاريع، وهذا ما يفترض ثورة وانعطافاً في المصالح الجيوبولتيكية لا يزيد ولا ينقص عن 180 درجة. ودون استبدال مثل هذه الإمكانية علينا أن نشير إلى ضعف احتمال مثل هذا المجرى للأمور في المستقبل القريب. ولكن في الوقت نفسه يمكن لمثل هذا الأفق الذي تتم الدعاية له في الحاضر أن يؤدي إلى نتيجة جيوبولتيكية محدَّدة ـ إلى تحول الدول الشرقية في «الخارج القريب» عن إيران إلى اختيار الأنموذج العلماني الإلحادي للمجتمع، إلى التكامل التدريجي مع «نطاق صحي»، موال للأطلسية. و«البانتوركية» ذات معنى مزدوج، مثلها مثل «البانسلافية» والبانجرمانية، أي مثل جميع الأيديولوجيات التي تضع المظهر القومي فوق المصالح الجيوبولتيكية والترابية والدينية للشعوب والدول.

3 ـ 14 دولارات النفط والعولمة:

العربية السعودية قلعة الإسلام العربي والتيوقراطية الإسلامية، وهي من الناحية الأيديولوجية تمثل الأنموذج، «الوهابي» الخاص للإسلام المهيب، الأخلاقي ـ «الصافي» والقريب جداً، من الناحية النمطية، بالصيغ البروتستانتية من المسيحية. وقد استبدلت التأملية الآسيوية الشرقية والتنسُّك والحماسة المدينية هنا بالطقوس وسيطرة ما يقترب من الأخلاقية الدنيوية. ووفقاً لملاحظة الأصولي الإسلامي حيدر جمال «تمثل العربية السعودية، في وضعها الفاعل نقيضاً كاملاً لعالم «الإسلام القاري» والمصالح الجيوبولتيكية للعربية السعودية الوهابية تتفق كل الاتفاق مع صيغة معينة من المشروع العَوْلمي لأن الرفاه الاقتصادي والعسكري لهذه البلاد مؤسس على دعم الولايات المتحدة التي تحمي مصالح الأسرة الحاكمة للملوك السعوديين في المجالات العسكرية والاقتصادية. ومثال الدعم العسكري ـ الحرب ضد العراق، «والدعم» الاقتصادي يتمثل في ما يلي: فاقتصاد العربية السعودية بأسره يعود إلى النفط. والنفط العربي كله يصل إلى السوق العالمية تقليدياً عبر الأيادي الأنجلو ـ أمريكية. وتعدين المناجم الأوراسية واستثمارها يمكن من الناحية النظرية أن يمثل منافسة للسعوديين وأن يُغني الدول الأرواسية ويجعل أوروبا واليابان مستقلتين عن الولايات المتحدة. وعلى هذا فإن الولايات المتحدة

التي تدير اقتصاد أوروبا من خلال سيطرتها على النفط العربي، والملوك السعوديين الذين يقيمون اقتصادهم على دولارات النفط الأمريكية ذوو مصالح واحدة.

وقد وقفت التيوقراطية الوهابية السعودية في مرات كثيرة عقبة في وجه إقامة **المدى العربي الكبير** لأن ذلك كان يناقض مصالح الأسرة الحاكمة ومصالح الأطلسيين. ولدى السعوديين أسس أكبر للتخوف من المدى القاري الإسلامي الكبير. وإيران الثورية تعد على العموم العدو الأيديولوجي رقم 1 للسعوديين. وعلى هذا فإن المصالح الجيوبولتيكية للعربية السعودية في البلدان الشرقية من «الخارج القريب» تتعارض كليةً مع ظهور المدى الكبير الإسلامي الآسيوي. وهذا يعني أن الطريق إلى التكامل ـ العربي الإسلامي تحت الراية «الوهابية» سيبدو بالنسبة للجمهوريات العربية الإسلامية، من الناحية العملية، إقحاماً في المشروع العولمي، ولكن لا في صيغة «البانتوركية» العلمانية ـ القومية بل في الصيغة الأخلاقية التيوقراطية. وليس هذا الطريق، بمعنى من المعاني ـ إلا إقحاماً في «النطاق الصحي» بيد أن «الإغراء» في هذه الحالة ليس القومية بل العامل الديني (والمال).

وبتلخيص هذه التصورات جميعاً يمكننا القول إن للبلدان الشرقية في «الخارج القريب» طريقاً إيجابياً واحداً لإقامة المدى الكبير الجديد ـ وهو طريق **«الثورة الإسلامية»**، مع التوجه نحو طهران. فإزاء ذلك يمكن أن تحل النزاعات القومية وأن تحقق إحياء التقليد الديني والنظام الديني. أما على الصعيد الجيوبولتيكي فسيعني ذلك إقامة حلف قاري جبار، قادر كل القدرة على مواجهة المشاريع العولمية في هذه المناطق. وفضلاً عن ذلك ستستدعي الخطوات الأولى المتخذة في هذا الاتجاه تفاعلاً تسلسلياً في العالم العربي وهو ما يهدد العولميين بتضييع هيمنتهم على نطاق الأمة الإسلامية بأسرها. وفضلاً عن ذلك فإن مثل هذا التحالف الجيوبولتيكي سيوقظ بصورة لا مندوحة منها القوى المعادية للعولمة في أوروبا الوسطى (حليف إيران الطبيعي والأهم في الغرب) وفي روسيا ـ الأوراسيا.

3 ـ 15 قطبان كحدّ أدنى أو. . . «الموت»:

في الوضع الجيوبولتيكي المعاصر يرتفع السؤال في حدته الاستثنائية: إما «نظام عالمي جديد» كوني، برئاسة الولايات المتحدة، حيث تكون جميع الدول

والشعوب بلا وجود، «براغي» طيعة في الأنموذج الكوسموبولتيكي، العالمي، التكنوقراطي الإلحادي - التجاري «الديزني - لاندي» - وإما البناء الفوري للمعارضة الجيوبولتيكية للأطلسية والعولمة وتنظيم الشعوب والدول المعادية للأطلسية، التقليدية، التربوية في حلف بديل (أو عدة أحلاف). وقد بلغ الوضع درجة من التأزم اليوم حتى صار من غير المهم تقريباً بأي طريقة وتحت أي شعار يمكن أن يظهر المدى الكبير البديل، فإذا ما ظهر وإذا كان سيقف حقاً معارضاً للعولمة فإن ذلك كاف لوحده لتوسيع البدائل الجيوبولتيكية وتنويعها وتكثيرها، وذلك لمضاعفة المستويات الضمنية للحرية في إطار المعارضة للعولمة. وينبغي أن نتذكر دوماً **إن «المهمة الرئيسية** بالنسبة للولايات المتحدة، **الحيلولة دون ظهور البديل الجيوبولتيكي»** (كائناً ما كان البديل عن ذلك). ولهذ فإن من العدل تقديم الأطروحة المعادية بشكل مباشر لقوى العولمة وهي **«المهمة الأهم - إقامة البديل الجيوبولتيكي» (مهما كانت صيغته)**.

لقد بلغ الوضع اليوم مستوى من الجدية لا سبيل معه إلى الاختيار بين «الجيّد» و«الأجود». فإذا استطاعت روسيا أن تقيم استقلالها الجيوبولتيكي وأن تتجنب القيادة الأطلسية - كان أمراً رائعاً. وستتهيأ في هذه الحالة إمكانية ممتازة لبلدان «الخارج القريب» للدخول من جديد في روسيا الأوراسية التي تجردت، في هذه المرة، من السلبية الأيديولوجية للماركسية المزدوجة المعنى. وفضلاً عن ذلك فإن العودة الطوعية والواعية «للخارج القريب» الحالي ستكون ضمانة لاستقلالها الذاتي (ولكن ليس الحكومي)، الثقافي، الديني، اللغوي، الاقتصادي بل وحتى السياسي أيضاً. ويمكن أن يكون ذلك الصيغة الأبسط والأفضل. وتغدو تعرية الأهداف الاستعمارية الحقيقية للأطلسيين في هذه المرحلة الانتقالية المأساوية المنطلق الأساسي دون شك لزيادة أكبر لعدد الحلفاء والتابعين لروسيا - الأوراسيا (سواء **في الشرق** أو في **الغرب**).

فإذا لم يحدث ذلك فإن مفجر المشروع الجيوبولتيكي المعادي للعولمة وإما آسيا الوسطى الموحدة تحت شعار **«الثورة الإسلامية»**، وفي الأساس يبقى أفق الانتفاضة المعادية للعولمة في العالم العربي وفي أمريكا اللاتينية على الرغم من أن هذين **المَدَيَيْن الكبيرين** المحتملين ليسا مجهزين تماماً من الناحية العسكرية بحيث يمثلان منافسة لقوة فوق العظمى.

بالنسبة لبلدان «الخارج القريب» تبدو مشكلة **المدى الكبير** أساسية، وذات أهمية حيوية. وبناء على اختيار التوجه الجيوبولتيكي هناك يرتبط كل شيء اليوم - مستقبل الأمة، دينها، ثقافتها، حريتها، رفاهها وأمنها. والسؤال مطروح بحدّة لا تضاهى. واليوم يجب أن يعي جميع المسؤولين بأن قبول الأنموذج العولمي يعني ما لا يزيد ولا ينقص عن التدمير الكامل والنهائي لذاتيتهم، لهويتهم، للوجه التاريخي لدولهم وأممهم، ونهاية تاريخهم القومي.

آفاق الحرب الأهلية

4 ـ 1 المصالح الوطنية واللوبي العولمي:

مشكلة قيام حرب أهلية محتملة في روسيا تصبح أكثر حيوية، ومن الضروري اليوم دراسة هذه المسألة المخيفة من وجهة نظر تحليلية ومن وجهها المقابل كاندفاعات تحذيرية ومواعظ مسالمة. فأسوأ الأمور (إذا ما نشبت الحرب الأهلية في روسيا) أن يجد الإنسان نفسه غير مستعد لها على الإطلاق، ضائعاً وسط توزع معقد ومتناقض للقوى، يمكن أن يضلل أبعد الوطنيين نظراً وأكثرهم منهجية من الناحية الأيديولوجية.

في هذه المسألة كما هو الأمر في كافة الآفاق المهمة الأخرى من الوجود السياسي للأمة والدولة يلزم البدء بتذكر اللحظات المبدئية التي تحدد الخطوط العامة للوضع الجيوبولتيكي في صورته المعاصرة. والثابت الأهم لوجود الدولة والأمة هو مبدأ السيادة والاستقلال والحرية السياسية. فمطالب السيادة السياسية هي، بالذات، مرادف المصالح الوطنية. ولروسيا والشعب الروسي في سياق التاريخ السياسي للعالم مكانهما المتفرد، رسالتهما، دورهما، وإن أداءهما الحر والكامل لمهمتهما القومية ـ الدولية، يمثل المعنى الرئيسي لوجود الشعب كجماعة عضوية.

بيد أننا نعيش في عصر خاص ترتبط فيه السياسة الوطنية الداخلية ارتباطاً لا ينفصم بسياق السياسة الخارجية وربما لم يتخذ الضغط على التشكلات الوطنية ـ الدولية مثل هذه القوة والإلحاح في أي يوم من نظرية العولمة، أي ذلك التنظيم

لحياة البشر في العالم بأجمعه والذي لا يجوز إزاءه وجود التشكلات القومية ـ الحكومية ولا أي استقلال أو مصالح وطنية. ويُطلب أن تكون على رأس التجمع العالمي قيادة كوسموبولتية تدير لا المجتمعات بل عدداً حسابياً من الأفراد الذريين، وعليه فإن الخيط العولمي موجه منذ البداية **ضد** أي تشكلات وطنية ـ حكومية ومهمته الرئيسة إزالة العالم التقليدي **القديم** المقسم إلى شعوب وبلدان وبناءُ «نظام عالمي جديد» يرفض كافة صيغ التشكلات المجتمعية ـ الاجتماعية التاريخية والعضوية.

والعامل العولمي موجه بشكل طبيعي ليس ضد روسيا فقط (فالأمم والدول الأخرى تمثل أيضاً عقبة في وجهه)، ولكن روسيا بالذات، ومن خلال كونها التشكل الجيوبولتيكي الأقدر، كانت حتى فترة متأخرة القلعة الأساسية التي عوقت الانتشار التدريجي من الغرب على العالم كله، ومن الطبيعي أن النظام السوفياتي قد حمل في بعض وجوهه ملامح عولمية ويتمثل أحد مشاريع العولميين الغربيين في الادخال التدريجي «التصاعدي» للاتحاد السوفياتي في البنية الكونية «للنظام العالمي الجديد» والأقرب إلى الواقع أن نظرية التقارب الشهيرة تلك، كانت الموجه الرئيس للقوى التي بدأت البيريسترويكا. لكن الصيغة الناعمة لـ «عولمة» روسيا، لسبب من الأسباب، لم «تشتغل»، وآنذاك اتخذت السياسة العولمية بالنسبة لروسيا صيغة الضغط العدواني والنشاط التخريبي العلني. والانهيار القاسي وما فوق السريع للاتحاد السوفياتي جرَّد أنصار «التقارب» من أذرع القيادة فانتقلت السياسة العولمية نحو صيغ عدوانية مكشوفة ومبنية على كراهية الروس.

والخط العولمي عنصر يكتسب أهمية قصوى لفهم الوضع الحالي لروسيا. فإذا كان التأثير الخارجي على بلادنا يفرض فيما مضى من طرف تشكلات قومية ـ حكومية أخرى تحاول إضعاف قوة الدولة الروسية أو استمالتها إلى جانبها في هذه أو تلك من النزاعات الدولية، وإذا كان الأعداء المحتملون لروسيا (العلنيون والمستترون) هم القوى الجيوبولتيكية التي تُقايَس في بنيتها مع روسيا نفسها، فقد صار العامل الخارجي الرئيسي في اللحظة الراهنة صيغة خارجية من الضغط لا تحمل أية ملامح وطنية ـ قومية أو جيوبولتيكية واضحة وتمثل مشروعاً فوق القومي، كونياً، طوباوياً، اجتماعياً ـ سياسياً تقف من ورائه أجهزةُ تحكّم تملك قوة اقتصادية ـ سياسية جبارة. ومن الطبيعي أن العوامل السياسية الخارجية التقليدية

تواصِل عملها أيضاً (فالمشروع العولمي لم يصل بعد إلى تحققه الكامل)، لكن أهمية هذه العوامل وثقلها يشحبان بالقياس مع شمولية الضغط العولمي ويتأخران إلى المرتبة الثانية. فعلاقات روسيا مع ألمانيا واليابان أو الصين على سبيل المثال لا تبدو اليوم أمراً بين طرفين بل بين ثلاثة على الأقل ـ روسيا، الدولة الأخرى واللوبي العولمي العالمي الذي يتصرف إما مباشرة أو عبر «عملاء التأثير» في التشكلات السياسية التي تتطارح فيما بينها المشاكل التي تهم الطرفين. وإزاء ذلك تكون «القوة الثالثة» العولمة ـ في غالب الأحيان هي التي تحسم لأن وسائلها للضغط، وبناها التأثيرية أكثر تنسيقاً وتأثيراً بمقارنتها مع ما يقابلها من آليات التشكلات القومية ـ الحكومية «المهترئة».

وعلى هذا يمكننا في روسيا، سواء في السياسة الداخلية أو الخارجية، التمييز بين عنصرين مؤسسين يقفان خلف هذه القرارات أو تلك، خلف تنظيم هذه العمليات أو تلك، خلف تحديد هذه أو تلك من توجهات الحياة السياسية والاجتماعية ـ الاقتصادية في روسيا: وهي «عملاء التأثير العولميون» والمجموعات التي توجه المصالح القومية ـ الحكومية. ومن الواضح، انطلاقاً مما ذكرناه، أن كلاً من القطبين، يناقض أحدهما الآخر في الأمر الأهم: بعضهم يحاولون تتفيه سياديّة روسيا واستقلاليتها واكتفائيتها الذاتية (حتى حدود إلغائها الكامل في السياق العولمي الكوسموبولتيكي «للنظام العالمي الجديد») ويتجه الآخرون، على العكس من ذلك، نحو توكيد وتعزيز وتوسيع السيادة الوطنية، الحكومية نحو الإخراج الأعظم للأمة من البنية العولمية الكونية، المعادية، حسب تعريفهم، لوجود أي مجتمع مكتف ذاتياً وكامل الأهلية. ومن الطبيعي أنه لا يمكن لهذين القطبين أن يجتمعا أبداً في السياسة الواقعية بصفتها المجردة، وغالبية البُنى السلطوية تمثل نظماً هجينة يتعايش فيها الاتجاهان، ومع ذلك فإن هذين القطبين يحددان التوجهات الأساسية الكامنة في المواجهة الشرسة الدائمة المستترة تحت المساومات، والسذاجة، وقصر النظر أو إقصاء الممثلين الثانويين «غير المطّلعين» عن السياسة.

وهكذا فقد ميّزنا في اللوحة السياسية الحيوية لروسيا، قطبين تقابلهما وجهتا نظر متباينتان حول إمكانية قيام حرب أهلية في روسيا، وهاتان القوتان بالذات ستكونان، في نهاية المطاف، الفاعلين الرئيسين في النزاع المحتمل، الخصمين

الأساسيين، الطرفين الأساسيين على الرغم من أن مواجهتهما قد تكون مغيّبة تحت توزيع للأدوار أسرع وتيرة وأكثر تعقيداً. ومثال الحرب الأهلية الأولى في روسيا يظهر أن القوى الوطنية والمعادية للوطنية قد نشطت لا تحت راياتها الخاصة بل تحت نظام معقد ومتناقض من التوجهات الاجتماعية والسياسية والإيديولوجية التي تغطي الدوافع والاتجاهات الجيوبولتيكية الحقيقية. ولكي لا تتكرر أخطاء الماضي ينبغي، وبصورة موضوعية، تحليل الأفق المريع للحرب الأهلية الجديدة وراء الميول السياسية أو الإيديولوجية.

4 ـ 2 تنويعات توزيع القوى

فلنميّز المضامين الأساسية للحرب الأهلية في روسيا، ولنحدد القوى الفاعلة والدوافع المباشرة، ولنشر إلى تنويعاتها المحتملة.

1 ـ الصورة الأولى (والأقل احتمالاً) من صور الحرب الأهلية، والتي يمكن أن تقوم ضمن خط المواجهة بين **القوى الوطنية ـ الحكومية واللوبي العولمي**.

والحق أن مثل هذا التحديد للأدوار يمكن أن يكون الأكثر منطقية لو أخذنا في الحسبان الاستحالة الكاملة للجمع بين توجهات أولاء وهؤلاء. فالعولميون يحاولون بكل الوسائل إضعاف استقلالية روسيا، وتدمير ذاتيتها الاقتصادية ـ السياسية وجعلها مرتبطة بالمؤسسة الكوسموبولتية العالمية وتجريدها من إمكانية تأديتها لرسالتها الوطنية بصورة حرة. وعلى العكس من ذلك يحاول القوميون والدولتيون تدعيم الاكتفاء الذاتي والتوصل إلى أكبر حد من الاستقلالية السياسية والاستقلالية الاقتصادية ـ الاجتماعية. ومن الطبيعي أن الجمع بين هذين التوجهين بصفة سلمية أمرٌ غير ممكن لأن كلا منهما يناقض الآخر في كل شيء ـ في العام والخاص.

إلا أن مثل هذه الصيغة من الحرب الأهلية (الكوسموبوليتيون ضد القوميين) لا يمكنها بصفة عامة أن تكون شعبية عامة وعالمية، لأن الإيديولوجيا العولمية غير قادرة من الناحية المبدئية على أن تغذي الجماهير بمشاعر التعصب أو أن تدفع ولو بجزيئة صغيرة من السكان إلى الدفاع عن مبادئها. ومن الطبيعي أنه في الشروط السلمية يمكن للخمول واللامبالاة والسلبية العامة أن تكون عوامل مساعدة بالنسبة

للعولميين، ولكن في حال النزاع الدامي وإطلاق النار والقتل لا بد من اللجوء إلى طبقات أعمق من النفسية الإنسانية، لا بد من التعصب والفداء. والقوميون، على العكس من ذلك، يمكنهم بسهولة أن يركنوا إلى دعم الغالبية الساحقة من الشعب في حال المواجهة المسلحة المفتوحة والواسعة مع العولميين؛ هذا إذا كان النزاع سيتخذ طابعاً قومياً شاملاً وليس محصوراً ضمن مراكز يسيطر عليها العولميون بصفة صارمة.

وبكلمة أخرى فإن الحرب الأهلية وفق سيناريو «العولميين ـ والقوميين» لن تصبح على أية حال حرباً أهلية حقيقية شاملة لأنه ليس لدى العولميين، ولن يكون لهم في الصيغة الصافية ذلك الأساس السياسي الثابت الفعال المتماسك إيديولوجيا والقادر على تنظيم الجماهير لمواجهة القوميين. فلو اندلع مثل هذا النزاع لكانت نهايته سريعة ووحيدة المعنى: تغلبت القوى القومية ـ الحكومية بسرعة على اللوبي المعادي للقومية الذي يسمى بهذا الاسم، والذي يقف وجهاً لوجه مع الشعب المنتفض في سبيل فكرته الوطنية. ومن حيث المبدأ فإن من شأن مثل هذه الحرب الأهلية أن تجري بدون إراقة دماء تقريباً، وأن تكون قصيرة الأمد جداً، وأن تتم تصفية الينبوع الداخلي للتنازع بعد تدمير العولميين، أما في الحياة السياسية والاجتماعية للدولة فيمكن أن تنمو بصورة حازمة ضمن حدود المصالح الوطنية وهو ما نجده في الدول والأمم التقليدية.

لكن مما هو ضعيف الاحتمال ألاّ يدرك اللوبي العولمي وضعه الحقيقي وانتحارية مثل هذا السيناريو، مما يعني أنه سيحاول تجنب مثل هذا الانعطاف في الأحداث بأي ثمن. ولهذا السبب بالذات تبدو مثل هذه الصيغة بعيدة عن الاحتمال.

2 ـ الصورة الثانية للحرب الأهلية وتحدَّد بمعادلة: **الفيدرالية الروسية ضد واحدة (أو عدّة) من جمهوريات الخارج القريب**. ومثل هذا الوضع يمكن أن يتكون بسهولة بسبب من لا استقرار التشكلات الحكومية الجديدة فوق أراضي الاتحاد السوفياتي السابق. فهذه الدول التي لا تملك غالبيتها العظمى أية تقاليد قومية أو دولية ثابتة بأي صورة من الصور، والتي أقيمت ضمن حدود تعسفية على الإطلاق لا تتفق مع الأراضي الإتنية ولا الاجتماعية ـ الاقتصادية ولا الدينية للمجتمعات العضوية، ستكون مقحمة بصورة لا مندوحة منها في الأزمة الداخلية والخارجية العميقة. **وهي من الناحية المبدئية لن تتمكن من الحصول على أية**

استقلالية حقيقية لأن إمكاناتها الاستراتيجية لا تسمح لها بالدفاع عن استقلالها دون اللجوء إزاء ذلك إلى المساعدة الخارجية. وانهيار النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية فيها أمر محتوم ومن الطبيعي أن ذلك لا يمكن إلا أن ينعكس على علاقاتها بالسكان الروس (أو ذات التوجه الروسي) وبروسيا نفسها.

والأقرب إلى الواقع في مثل هذه الحالة أن يوجه التحدي من جانبها إلى روسيا، وهو ما ستكون الفيدرالية الروسية مضطرة إلى الرد عليه بهذا المستوى من العدوانية أو ذاك. وستحمل هذه العملية طابعاً تسلسلياً لأن انفجار النزاعات بين الإتنية أو النزاعات من أجل مساحات الأرض، والذي يمس روسيا والروس سيلقى انعكاسه حتماً في الجمهوريات السوفياتية السابقة الأخرى.

ومن البين أن مصالح الروس القومية وتوجهات اللوبي العولمي في داخل روسيا (وداخل الجمهوريات الجديدة) لن تصطدم في مثل هذه الحالة فيما بينها بصورة مباشرة وعلنية، وسيكون خصم الروس الأساسي في مثل هذه الحالة هم الجيران المباشرون. وليس من الضروري على الإطلاق أن يعمل اللوبي العالمي في مثل هذه الحالة لصالح هزيمة الفيدرالية الروسية. ومثل هذا النزاع الذي يسميه الاستراتيجيون الأمريكان بـ«حرب من الدرجة الصغرى» (أو حتى من الدرجة الوسطى!) يمكنها أن تتوافق بصورة كاملة مع مصالح اللوبي العالمي إذا كان من شأنها زعزعة استقرار الوضع الاستراتيجي والجيوبولتيكي في روسيا وفي الأوراسيا بصورة أوسع عندما يكون ذلك النزاع محلياً، متطاول الأمد ومزدوج المعنى. كما إن من غير المؤكد أن تتحقق المصالح الوطنية الروسية في مثل هذه الحالة حتى ولو جرت الحرب الأهلية تحت شعارات وطنية وقومية. فمثلما كان الأمر في أفغانستان لن يؤدي صراع روسيا المسلح مع الأقاليم المجاورة إلا إلى إضعاف النفوذ الروسي في هذه الدول وإبطال جاذبية الدافع التكاملي لدى الجيران من أجل التوحد مع روسيا في معسكر أوراسي جيوبولتيكي واحد. وفضلاً عن ذلك فإن تشابه النمط الثقافي ـ الاجتماعي بين سكان الفيدرالية الروسية وبين الجمهوريات السوفياتية السابقة سيحيل مثل هذا النزاع إلى مذبحة بين الأشقاء وإلى حرب أهلية حقيقية. أما في حال الجمهوريات السلافية (وأوكرانيا بالدرجة الأولى) فإنها ستكون، علاوة على ذلك، مأساة وطنية داخلية.

وعلى هذا فإن هذه الصيغة من الحرب الأهلية تبدو متناقضة ومزدوجة

المعني. المصالح القومية الروسية، وثبوتية السيادة الوطنية لن تطرح بالضرورة في مثل هذا التطور للأحداث، أما اللوبي العالمي الكاره للروس، فقد يصل حتى إلى تحقيق بعض المآرب إذ يحيط الفيدرالية الروسية بحزام من «حروب الدرجة الصغرى» التي تقوم بفضح الروس على المستوى الدولي وتزعزع استقرار الدولة الذي يعاني، وبغير ذلك، من الاختلال. وهذا لا يعني بالطبع أنه ليس على روسيا أن تتصرف حاميةً للروس وللشعوب الموالية للروس في الخارج القريب. ولكن يتوجب عليها وهي تؤدي ذلك كله، أن تعنى بصفة خاصة، بتوسيع نفوذها الجيوبولتيكي والاستراتيجي. وحتى لو تسنى للروس أن يربحوا من جيرانهم قطعة من الأراضي الروسية الصميمية، فقد يصبح ثمن ذلك ظهور دول معادية جديدة، يُقذف بها في معسكر أعداء روسيا الأساسيين، أي العالميين، وفي مثل هذه الحالة قد يؤجِّل التكامل الإمبراطوري الجديد، الضروري جداً بالنسبة لروسيا ـ إلى موعد غير محدَّد.

3 ـ الصيغة الثالثة، وهي شبيهة بالأولى في بنيويتها، إلا أن الحرب الأهلية في هذه الحالة قد تبدأ ضمن إطار **الفيدرالية الروسية نفسها بين الاتنوسين الروسي وغير الروسي**[3]. ويمكن للسيناريو أن يكون شبيهاً بسابقه: يتعرض السكان الروس لعدوان من طرف الأغراب في إحدى الدوائر ذات الاستقلال الذاتي أو في جمهورية داخلية، ويدفع التضامن الإتني الروس الآخرين للمشاركة في المواجهة المسلحة على قاعدة إتنية؛ وتتخذ الحرب الأهلية طابع «حرب من الدرجة الصغرى». ويكون هذا أشد خطراً على روسيا في هذه الحالة إذ قد تكون نتيجتها اختراق الوحدة الترابية للفيدرالية الروسية أو على أقل تقدير استثارة العداوة الإتنية نحو الروس من طرف الأغراب حيث يتيسَّر «خنقهم». وإزاء ذلك لا بد من استقطاب التشكلات الحكومية والقومية الأخرى للنزاع مع الروس وهو ما قد يجعل الصراع مزمناً وطويل الأمد. ومثل هذا الصراع ينقل وضع الروس من الصعيد الوطني الدولي إلى صراع إتني ضيق وهو ما يزيد من تضييق الصفة الجيوبولتيكية لروسيا التي كانت قد فقدت صفتها الإمبراطورية منذ انهيار حلف وارسو ومن بعده الاتحاد السوفياتي.

ومثل هذه الصيغة من الحرب الأهلية تتناقض بصفة عامة مع المصالح الوطنية للروس إذ يتم من الناحية الواقعية، إضفاء الصبغة القانونية على التحلل

المقبل للمدى الروسي إلى مكوناته الإتنية وهو ما سيسفّ في المستقبل المنظور بالصفة الجيوبولتيكية لشعب كان امبراطورياً إلى المستوى الإتني الصرف والذي يكاد يكون «قبلياً». أما بالنسبة للعولمة الشرسة القائمة على كراهية الروس والمتوجهة نحو تدمير الاكتفاء الذاتي القومي ـ الحكومي الروسي فستكون مثل هذه الصيغة مغرية إلى حد كبير، إذ تفترض أن تغرس في الروس لا الهوية الذاتية الدولتية بل الهوية الإتنية الضيقة وهو ما سيضيق بصورة لا مندوحة منها حجم روسيا الاستراتيجي. وثمة من جهة أخرى مجازفة بالنسبة للعولميين لأن انفجار الوعي الإتني الذاتي قد يسدد ضربة إلى «عمالة النفوذ» ومثل هذا النزاع ليس مجزياً، بأي شكل من الأشكال، بالنسبة للوطنيين الروس.

4 ـ والصيغة الرابعة تبدو أيضاً روسية داخلية لكنها لا تقوم على الانشقاق الإتني بل على **التناقضات الدينية والإدارية الترابية** إذ لا بد لسياسة موسكو المركزية في المسائل السياسية ـ الاقتصادية والاجتماعية من أن تستثير مواجهة شديدة من طرف الأقاليم التي تحاول ضمن العملية المشتركة للاّتكامل من الحصول على الحد الأعظم من الاستقلال الذاتي وهنا كما في حالة المماحكات الإتنية، يؤدي انهيار الإمبراطورية السوفياتية إلى تجريد الفكرة المركزية والتكاملية من مشروعيتها ومن وضوحيتها وجاذبيتها. وفضلاً عن ذلك تكون سياسة المركز الفعالة، وقد اكتسبت أسلوب النظام السابق، الشمولي، المتأمّر، قد تنازلت عملياً عن النصف الثاني من علاقات المركز ـ الأقاليم المرتبطة بالمساعدة والمؤازرة الاجتماعية ـ الإدارية.

والمركز يريد بدوره أن يستملك وأن يسود مثلما كان الأمر عليه في السابق، لكنه لا يستطيع الآن تقديم أي بديل مثلما كان الأمر في السابق. ومن الناحية الاقتصادية لا تجني الأقاليم شيئاً سوى الخسائر لأن حقل إمكاناتها يضيق ويرتبط بالمركز. ولكن تضاف إلى ذلك الخصوصية السياسية للأقاليم، حيث الطابع المعادي للقوميات ضمن الإصلاحات العولمية يظهر في صورة أشد مَرَضية بكثير مما هو في مدن العواصم الكوسموبولتيكية الضخمة.

الخطوات الأولى نحو انفصالية الأقاليم كانت قد اتخذت، على الرغم من أن المركز كان قد قطع تلك المحاولات. غير أن من المحتمل إلى حد بعيد أن يرغب الروس في جنوب روسيا أو في سيبيريا أو في أي مكان آخر، في لحظة ما، بإقامة دولة مستقلة، متحررة من ديكتاتورية موسكو السياسية والاقتصادية. وقد

يكون ذلك على أساس من النفعية الاقتصادية المحضة ـ فبيع الموارد الطبيعية الإقليمية أو البضائع المحلية الصنع في حركة التفاف على موسكو قد يحسّن الحالة المحلية بشكل حاد في بعض الحالات. وبإمكان «الثورة الجهوية»، من جهة أخرى، أن تطرح مهمات سياسية ـ كرفض سياسة المركز الليبرالية المتطرفة والحفاظ على الضمانات الاجتماعية وتشديد العنصر القومي في الإيديولوجية. وهذا كله ما يجعل إمكانية النزاع المدني على هذا المستوى حقيقة واقعة. وتستطيع الأقاليم في لحظة ما أن تصرَّ بكل جدية على مطالبها وهو ما يثير بشكل طبيعي معارضة المركز الذي لا يرغب في تضييع سيطرته على الأقاليم.

مثل هذه الصيغة للحرب الأهلية لا تقل عن سابقتيها تناقضاً وازدواجيةً في المعنى. ومن الناحية الواقعية فإن متطلبات الأقاليم الراغبة في الانفصال عن موسكو، مركز الإصلاحات، تحمل من ناحية أخرى بعض ملامح الوطنية والقومية، وتستجيب لمطالب الشعب، وستقوم قوى المركز العولمية، وهي تعارض الأقاليم، بالدفاع لا عن المصالح القومية بل اللاقومية، لأن سيادة الليبراليين على كامل مجموع الأراضي الروسية يعود بالدرجة الأولى، بالنفع على مصممي «النظام العالمي الجديد» بالذات. ولكن الانفصالية الإقليمية تؤدي، من جهة ثانية، إلى دمار الأراضي الروسية الحكومية وتوهن القدرة القومية المشتركة وتحضّر خطوط الانهيار في داخل الشعب الروسي الواحد. ويمكن للعولميين أن يذهبوا بكل وعي إلى خلق مثل هذا النزاع إذا ما ضعفت هيمنتهم على روسيا وفي حالة ما إذا كان انهيار الوحدة الترابية للبلاد الخطوة الأخيرة في قضية إضعاف الاكتفاء الذاتي القومي ـ الحكومي.

على القوى الوطنية أن تتصرف في هذه المسألة انطلاقاً من المنطق المعاكس. وما دامت سلطة المركز قوية فينبغي التضامن مع المطالب الجهوية بتأييد رغبتها في الاستقلال الذاتي عن المركز. ولكن ينبغي التوكيد منذ البداية على ضروريات التكامل الاستراتيجي والسياسي لجميع الأقاليم على أساس إمكانيات إعادة الإمبراطورية. وبمقدار ضمور قوة اللوبي العولمي في المركز على الوطنيين تغيير توجههم بصورة انسيابية، والإصرار على الحيلولة دون النزاع المدني ودعوة الأقاليم إلى الاتحاد.

ومهما يكن من أمر فإن الحرب الأهلية على أساس إقليمي لا يمكنها أن

تتوافق مع المصالح الوطنية مثلما كان الأمر عليه في السيناريوهين السابقين.

وينبغي التحفظ بصفة خاصة على النقطة التالية. إذ تطرح نفسها بنفسها الصيغة الخامسة للحرب الأهلية، تلك الصيغة التي تتوزع فيها القوى لا وفق المظهر الإيديولوجي القومي والترابي بل وفق المظهر الاجتماعي الاقتصادي ـ على مثال «الأثرياء الجدد» ضد «الفقراء الجدد». وبصفة مبدئية لا تستبعد مثل هذه الصيغة ويمكن أن تتشكل كل المنطلقات المؤسسة لها في المستقبل. ولكن أمام الوضع الحالي للمجتمع لا يعد العامل الاقتصادي مسيطراً على ما يبدو. فعلى الرغم من الجائحات الاقتصادية المروّعة، من الافتقار الشامل للطبقات العاملة والإثراء المبالغ فيه «للروس الجدد»، فإن المجتمع الروسي لم يصغ بعد مطاليبه في مصطلحات اقتصادية. والآفاق الجيوبولتيكية، والوطنية والإيديولوجية لا تزال أكثر حيوية وفعالية. فهي بالذات القادرة على إخراج الجماهير إلى الساحات وجعلها ترفع السلاح، والأزمة الاقتصادية هي الخلفية الرائعة للنزاع المدني، ويمكن أن تكون في حالات محدَّدة الدافع إلى الكوارث، إلا أن خطوط القوة الأساسية ستكون منطلقات أخرى غير اقتصادية. فاللجوء إلى الأمة، الاتنوس، الوطنية والحرية قادر اليوم على إضفاء النسبية على الجانب المادي من الحياة وجعلها أمراً ثانوياً. ولكن حتى في الحالة التي تكون فيها الناحية المادية رئيسية فإنها لن تستطيع، بقوة نزع الثقة عن المقولات الماركسية والاشتراكية، التعبير عن مطالبها في صيغة إيديولوجية منهجية مثيرة للحماسة. والأقرب إلى الواقع أن يكون العامل الاقتصادي في النزاعات المحتملة مقولة مرافقة لا محدِّدة.

4 ـ 3 نتائج التحليل

من المؤسف القول إن الحرب الأهلية ممكنة في روسيا. فمن الاحتمالات الضعيفة أن تحل التناقضات الجذرية بين المصالح الوطنية ـ الحكومية وبين مخططات العولميين بطريقة سلمية وودية. ومن أجل إجراء الحديث بصفة جادة حول الـ «كونسينسوس»(*) أو «المصالحة» بين هذه القوى لا بد من التدمير النهائي

(*) الكونسينسوس: التوافق العام، التفاهم على المسائل الجدلية، والمؤدي إلى صياغة القرار الموحّد (المترجم).

لذوي الاتجاهات القومية ـ الحكومية؛ (وهذا ممكن فقط بتدمير الدولة الروسية نفسها والأمة الروسية) أو القضاء على ممثلي اللوبي العالمي.

ولهذا السبب بالذات فإن إشعال حرب أهلية في روسيا أو إشعال حزام من «حروب الدرجة الصغرى» في أراضيها يمكن أن يصبح في كل لحظة المشروع الأساسي للّوبي العولمي. وليس ثمة أي شك في أن ممثلي هذا اللوبي سيحاولون بذل كل ما في وسعهم لإبقاء أنفسهم في الظل وتحت أي راية أخرى (انفصالية كانت أو مركزية).

والصيغ الثلاث للحرب الأهلية ـ الفيدرالية الروسية ضد الخارج القريب، سكان الفيدرالية الروسية ضد الغرباء، الأقاليم ضد المركز ـ غير مقبولة مبدئياً بالنسبة لجميع من تهمهم المصالح القومية ـ الحكومية لروسيا والشعب الروسي. وجميع هذه الصيغ محفوفة بخطر التصدع المقبل في مدى روسيا الجيوبولتيكي والاستراتيجي، وحتى في حالة انتقال أراض محدّدة إلى السيطرة الروسية. وبناء على ذلك يجب على الوطنيين الحيلولة بأي صورة دون الحرب الأهلية وفقاً لهذه السيناريوهات الثلاثة. هذا إذا لم نتحدث عن أن هذه الحرب **غير مجدية** من وجهة النظر الأخلاقية. وما دام الأمر كذلك فمن المنطقي القول بأن العولميين بالذات سيمدّون أيديهم لتأجيج هذا النوع من النزاعات (إذا ما بدأت بالاندلاع).

إن ما هو شبيه بالحرب الأهلية في روسيا يمكن أن يكون مجدياً بالنسبة للعولميين لأسباب عدة أخرى أيضاً. فبداية النزاع المسلح بمشاركة مباشرة من طرف الروس يمكن أن يتيح لليبيراليّ المركز:

1 ـ **طرح مبدأ سياسي** تحت ذريعة «إنقاذ الوطن» والتخلص من الأعداء السياسيين بالقوة.

2 ـ **تحميل الحرب مسؤولية الانهيار الاقتصادي** وإجبار الاقتصاد على أداء وظيفته تحت رقابة المركز المباشرة.

3 ـ **صرف الانتباه العام عن نشاط «الإصلاحيين»** الذي صار اليوم مكشوفاً إلى درجة خطرة.

4 ـ بصورة متعمدة **قطع الاتحاد الممكن في المستقبل بين الروس وبين التشكيلات القومية ـ الحكومية الأوراسية والأوروبية** تحت شعار التضامن القاري ضد هيمنة الغرب الأطلسية والمشاريع العولمية.

وهذا كله يدفع إلى الافتراض بأن حَمَلة الصيغة الشرسة من العولمية في روسيا سيلجأون، عاجلاً أم آجلاً، إلى «الحرب الأهلية» وبخاصة إذا ما كان موقف النظام الليبيرالي سيميل بصفة أكثر فأكثر إلى الاختلال، ومن المهم الإشارة في هذا السياق إلى أن «بيريسترويكا بنيوية» ستجري، في هذه الحالة، في داخل «اللوبي العولمي» بالضرورة. وقد يتصرف قسم منه تحت شعارات وطنية بل وربما تحت شعارات قومية ضيقة وشوفينية.

ومن الصعب الجزم بموعد بدء الانفجارات الأولى بالذات فهذا يتعلق بمجموعة من العوامل العفوية والمصطنعة. ولكن حتى إذا لم يحدث أي شيء مشابه لذلك خلال بعض الوقت فإن التهديد المحتمل لمثل هذا الانعطاف في الأحداث سيكون أكثر من فعال عندما لا يصبح اللوبي العولمي موجوداً في روسيا فحسب بل ويهيمن على مقابض القيادة الأهم في السلطة الحكومية ـ السياسية.

الصيغة الأولى من «الحرب الأهلية» ـ العولميون ضد القوميين ـ يمكن أن تكون قصيرة، وخالية تقريباً من الدماء ومجزية بالنسبة للوطنيين ولروسيا. وفضلاً عن ذلك فإن الصدام المباشر للأمة مع أعدائها الداخليين يمكن أن يعقد النصر للقوى القومية بالذات. ومن الناحية العملية لن تكون هذه «حرباً أهلية» فقط وبالمعنى الكامل للكلمة بل اشتعالة قصيرة لمواجهة فعالة إذا لم تقْضِ بصفة كلية على إمكانية قيام الحرب الأهلية بنتيجتها فإنها ستؤخرها إلى موعد بعيد غير محدود. ولكن من الضروري لتحقيق ذلك تحفيز اللوبي العولمي على التحرك تحت راياته الخاصة وأن تتكتل القوى الوطنية باسم المصالح الروسية القومية ـ الحكومية المعرَّفة بوضوح والمسمّاة بدقة. والقيام بذلك أمر ليس سهلاً دون شك (بل يكاد يكون مستحيلاً) فالعولميون، من جهة، ليسوا سذّجاً إلى درجة أن يتكلموا بصوت جهري عن كراهيتهم للبلاد التي ينشطون فيها وعن تطلعهم إلى تدميرها، ومن جهة أخرى فإن ممثلي القوى الوطنية ـ الحكومية كثيراً ما يكونون عاجزين عن صياغة أسس موقفهم الإيديولوجي بطريقة عقلانية ومنهجية، وبصورة موجزة ومقنعة في وقت واحد، يحول دون ذلك وفاؤُهم للقوالب التعبيرية السوفياتية ـ الشيوعية التي تجاوزها الزمن؟ حماستُهم المفرطة ومقدرتهم الضعيفة على التفكير التحليلي وتجاهل المنطلقات الأساسية للجيوبولتيكا وما إلى ذلك.

السلام المدني الأصيل لا يمكن أن يقوم على المساومة إذا كان طرفا هذه

المساومة نقيضين متجابهين في كل شيء، وما دام النظام العولمي للقيم هو المسَيطر فإن جميع أجنحته ـ اليمينية واليسارية والمركزية ـ مع كل ما فيها من اختلاف لا تضع التوجه العام تحت الشك. أجل، إن «السلام» ممكن في مثل هذا الموقف ولكن لقاء هلاك الدولة والإقصاء الجذري للقوى الوطنية عن الحوار. وإذا كان النظام الوطني ـ الحكومي للقيم هو المسيطر أمكن مناقشة البحث عن حل يقع بين الوطنيين ـ الرأسماليين، الوطنيين ـ الاشتراكيين، الوطنيين ـ الشيوعيين، الوطنيين ـ القيصريين أو الوطنيين ـ التيوقراطيين ولكن لا بد في هذه الحالة من استبعاد القوى اللاوطنية، العولمية، ذات التوجه المعادي لروسيا، عن الحوار ووضعها من الناحية الإيديولوجية، خارج القانون.

مجتمعنا حافل بالنزاع المدني المخيف، وإذا كانت لا تزال لدينا قدرة التأثير على الأحداث، القدرة على الاختيار، فيجب علينا اختيار الأهون بين الشرور.

جيوبولتيكا النزاع اليوغوسلافي

5 ـ 1 رمزية يوغوسلافيا

مما هو معروف على صعيد واسع أن يوغوسلافيا تمثل تلك البقعة الأوروبية التي تبدأ منها الأكثر جدية والأوسع مدى بين النزاعات الأوروبية. وعلى الأقل كان الأمر يبدو على هذه الشاكلة في القرن العشرين. فالبلقان ـ هو العقدة التي تلتقي فيها مصالح جميع الأحلاف الجيوبولتيكية الأوروبية الرئيسة، ولهذا فإن مصير الشعوب البلقانية يرمز إلى مصير الشعوب الأوروبية كلها. فيوغوسلافيا ـ أوروبا المصغّرة. وبين الشعوب القاطنة فيها نلتقي بالمماثلات الدقيقة للقوى القارية الكبرى.

الصرب يمثلون في البلقان روسيا الأرثوذوكسية (الأوراسيا). ويمثل الكروات والسلوفينيون ـ أوروبا الوسطى (أي ألمانيا، النمسا، إيطاليا وما إلى ذلك). المسلمون الألبان، والبوسنيون ـ بقايا الإمبراطورية العثمانية، يعني تركيا بل والعالم الإسلامي ككل. والمكدونيون، أخيراً الاتنوس الصربي البلغاري الذي يمثل رمز يوغوسلافيا الأرثوذكسية الكبرى (القائمة على أساس اتحاد الصرب وبلغاريا)، والتي لم تفلح في الظهور تاريخياً، على الرغم من قيام مشاريع صربية ـ بلغارية في بداية القرن.

5 ـ 2 القوى الأوروبية الثلاث

يمكننا القول إن خارطة أوروبا الجيوبولتيكية تنقسم في ملامحها الأكثر عمومية إلى المناطق الأساسية الثلاث:

المنطقة الأولى **هي الغرب. الغرب** القاري بالذات. والذي تمثله فرنسا والبرتغال بالدرجة الأولى. وبالمعنى الأكثر اتساعاً تنتسب إليه انجلترا والولايات المتحدة ما وراء الأطلسية، الواقعة خارج أوروبا. وعلى الرغم من إمكانية وجود تناقضات داخلية بين الغرب القاري (فرنسا) والغرب الجزيري (انجلترا) والغرب الممتد فيما وراء المحيط (أمريكا) فإن الغرب في موقفه من التشكلات الجيوبولتيكية الأوروبية الأخرى، يتصرف في أغلب الأحيان كقوة جيوبولتيكية واحدة.

المنطقة الثانية ـ أوروبا الوسطى (Mitteleuropa). وتنتسب إليها دول القوميات الجرمانية في **الإمبراطورية الرومانية المقدسة** السابقة، الأراضي السابقة للنمسا والمجر، ألمانيا، إيطاليا وما إليها. ومن الملامح المميّزة لأوروبا الوسطى المواجهة الجيوبولتيكية مع **الغرب** الأوروبي ومع **الشرق** أيضاً.

وأخيراً فالمنطقة الثالثة هي روسيا والتي تتصرف في أوروبا ليس فقط باسمها بل وباسم شعوب **الشرق** الأوراسية كافة.

وعلى العموم فقد كان بوسعنا أن نخصص أيضاً المنطقة الإسلامية الجيوبولتيكية الرابعة ـ بداية من بلدان المغرب في **الشمال الأفريقي** وحتى الباكستان والفيليبين، إلا أن هذا المعسكر الجيوبولتيكي يقع خارج أوروبا، وفضلاً عن ذلك فإن تأثيره الجيوبولتيكي على أوروبا في القرن العشرين لم يكن ملموساً إلى حد كبير، هذا على الرغم من إمكانية أن يتحول العالم الإسلامي في المستقبل من جديد (على نحو ما كان عليه الأمر في القرون الوسطى) مكوّناً مهماً في الجيوبولتيكا الأوروبية.

هذه التشكلات الأوروبية الجيوبولتيكية الثلاث تكوّن بؤر التوتر الدائمة في القارة، والتي تنعقد فوق الحدود الشريطية الدائمة التبدل بين الغرب الأوروبي وأوروبا الوسطى (Mitteleuropa) من جهة، وبين أوروبا الوسطى وروسيا ـ الأوراسية ـ من جهة أخرى.

ويمكننا، من الناحية التخطيطية، أن نتلمس عدداً من الاتحادات الجيوبولتيكية، أو على العكس من ذلك، عدداً من المواجهات، التي تشكل ثوابت السياسة الأوروبية الدولية.

يمكن **للغرب** الأوروبي أن يتصدى لمواجهة أوروبا الوسطى كأقرب جار لها من **الشرق** وقد تجسد هذا الاتجاه الجيوبولتيكي بالصورة الأكثر وضوحاً في مواجهة فرنسا (الدولة ـ الأمة) الاستبدادية وبين امبراطورية النمسا والمجر. وعبرت هذه المواجهة عن نفسها فيما بعد في النزاعات الفرنسية ـ الألمانية الكثيرة الأعداد. ومن جهة أخرى ثمة إمكانية نظرية لقيام اتحاد فرنسي ـ ألماني جيوبولتيكي، كان قد ألهم فكرته كل من فيشي(*) وديغول(**). ومن الأمور ذات الدلالة إن بإمكان **الغرب** الآن في صراعه ضد أوروبا الوسطى الدخول في حلف مع **الشرق** الأوروبي (روسيا ـ الأوراسيا) وفي حالات أخرى تغدو روسيا بالذات الخصم الجيوبولتيكي الأهم بالنسبة للغرب الأوروبي من جهة ولأوروبا الوسطى من جهة أخرى.

كما إن أوروبا الوسطى (ألمانيا) في علاقتها مع جارها الجيوبولتيكي الشرقي يمكن أن تظهر في حال مواجهة (وهو ما يعود بصورة مباشرة أو غير مباشرة بالفائدة على **الغرب** الأوروبي أو في حالة حلف (وهو ما يشكل خطراً على **الغرب**).

وأخيراً فإن الاختيارات الجيوبولتيكية الأفضل بالنسبة لروسيا في السياسة الأوروبية يمكن أن توجه نحو الأساس المعادي لألمانيا (وتغدو فرنسا وانجلترا وحتى الولايات المتحدة من الناحية المنطقية حلفاء في هذه الحالة)، أو في الاتجاه المعادي للغرب (ولا مندوحة عند ذلك من الحلف الروسي ـ الألماني).

تلك هي في الصورة التقريبية الأكثر خشونة، العوامل الجيوبولتيكية الأساسية للسياسة الأوروبية. ولا بد من وضعها جميعاً في الحسبان عند تحليل المشكلة

(*) فيشي (Vichy) مدينة في فرنسا الوسطى حملت اسم الحكومة التي تعاملت مع ألمانيا النازية بين تموز 1940 ـ آب 1944 خلال الاحتلال الألماني للأراضي الفرنسية وفيها أقامت حكومة المارشال أ. بيتان (Petain) (1856 ـ 1951) (المترجم).

(**) ديغول (De Golle) شارل (1890 ـ 1970) رئيس جمهورية فرنسا بين 1958 ـ 1969، ومنذ سنة 1940 نظم وترأس حركة المقاومة الفرنسية للاحتلال النازي لبلاده. في 1941 ترأس الجمعية الوطنية الفرنسية وبين 1944 ـ 1946 كان رئيس الحكومة المؤقتة لفرنسا. بعد الحرب أسس وترأس حزب «وحدة الشعب الفرنسي» وصار رئيس وزراء فرنسا سنة 1948، وبمبادرة منه تم إعداد دستور جديد (1958) وسّع صلاحيات رئيس الجمهورية. وفي عهده تحررت الجزائر وخرجت فرنسا من حلف الناتو. ترجمت مذكراته إلى العربية وصدرت في عدة مجلدات (المترجم).

البلقانية، لأن هذه التوجهات الثلاثة تتصادم فيما بينها في النزاع اليوغوسلافي مشكِّلة تهديداً ممكناً بحرب أوروبية جديدة كبرى.

5 ـ 3 حقيقة الكروات

دخل الكروات (مثلهم مثل السلوفينيين) بصفة تقليدية في نطاق إمبراطورية النمسا والمجر، وكانوا اتنوساً يتكامل بصفة كلية مع القطاع الكاثوليكي لأوروبا الوسطى الألمانية. وارتبط مصيرهم الجيوبولتيكي الطبيعي بهذا التكتل الأوروبي. فميل الكروات إلى ألمانيا والنمسا ليس تعسفاً انتهازياً عارضاً على الإطلاق، بل نتيجة لمنطق الوجود التاريخي لهذا الشعب. وكان سقوط إمبراطورية النمسا والمجر وانشاء يوغوسلافيا نتيجة صراع طويل الأمد قام به **الغرب** الأوروبي **ضد أوروبا الوسطى** وبهذا يُفسر الدعم البراغماتي الذي قدمه الفرنسيون للصرب. (صيغة **الغرب** مع **الشرق** ضد **أوروبا الوسطى**). وأولئك الكروات الذي رحبوا بإقامة يوغوسلافيا كانوا يسيرون، بمعنى من المعاني، ضد التقليد الجيوبولتيكي والديني الخاص بهم، وليس من قبيل الصدفة أن توجهات الغالبية بينهم، عبر المؤسسات الماسونية، كانت نحو «**شرق فرنسا العظيم**» ونحو مشاريعه الجيوبولتيكية الموجهة إلى انتصار قوى **الغرب** في أوروبا. ولدى إقامة يوغوسلافيا ووفقاً لمجموع توزع القوى خلال الحرب العالمية **الأولى**، تُستجلى سيطرة التوجه الغربي بالذات والذي استخدم بنجاح قوى الشرق (صربيا وروسيا الكبرى) ضد أوروبا الوسطى.

وعند إقامة يوغوسلافيا كان الكروات بالذات أول ضحايا هذه السياسة، فليس مستغرباً منهم أن يستقبلوا الألمان فيما بعد كمحررين (وعلى أية حال فقد كان ذلك مسلك الأوكرانيين الكاثوليك والأونيات الذين كانوا يميلون دوماً إلى دائرة التأثير الأوروسطوي)، إلا أن دعم قوى الغرب ـ فرنسا ـ للصرب (وعلى فكرة فقد تم ذلك الدعم عبر القنوات الماسونية بالدرجة الأولى) اتخذ معنى مزدوجاً، لأن الصرب أنفسهم قد غدوا بدورهم رهائن ذلك التشكل الجيوبولتيكي في البلقان، والذي ما كان يمكن الحفاظ على اكتماله إلا بطريق الهيمنة بالقوة.

ولدى الأزمة الفعالة للمعسكر الشرقي (أي في مجموع بؤرة التأثير روسيا ـ

الأوراسيا) في مرحلة البيريسترويكا طرأ بعض الضعف على القوى اليوغوسلافية المتكاملة ولم يتأخر الكروات (ومنهم السلوفينيون) في الإعلان عن اغترابهم الجيوبولتيكي بالنسبة ليوغوسلافيا الصربية التي تمّ فهمها بشكل مزدوج ـ كتشكل مصطنع أقامه **الغرب**، وكمخفر متقدم **للشرق في أوروبا الوسطى** .

وعلى هذا فإن الكروات يدافعون، على المستوى الجيوبولتيكي، عن المبدأ القائل بإبقاء أوروبا الوسطى على حالها، أي بقعة أوروبية مستقلة ذاتية موحدة الأراضي. هذا على الرغم من ضرورة الإشارة إلى أن فكرة تحويل كرواتيا إلى دولة ـ أمة (Etat-Nation) بلقانية قزمة مستقلة وحيدة الإتنية على النمط الفرنسي إنما يدس، بطريقة مقصودة، لغماً تحت الوحدة الجيوبولتيكية للمجال الأوروسطوي، والذي ليس بإمكانه أن يعيش إلا كبنية متكاملة لا كخليط كسحري من الدول الأنانية البالغة الصغر. وبكلمة أخرى فإن التوجه الجيوبولتيكي للكروات لا يمكن أن يكون كاملاً إلا في حالة توجههم ما فوق القومي، وهذا ما يفترض الحل السلمي لمشكلة الإقليمية الصربية في كرواتيا. فالتعصب القومي الكرواتي عندما يخرج عن السويّة الجيوبولتيكية إلى سوية إتنية محضة يفقد مبرره ويحوّل مدلوله إلى نقيض.

5 ـ 4 حقيقة الصرب

للأفق الجيوبولتيكي للصّرب طابع وحيد المعنى موال لروسيا، أوراسي الطابع. وصربيا عبر طابعها الديني والإتني تميل إلى روسيا، وهي امتدادها الجيوبولتيكي في جنوب أوروبا. فمصير الصربيين ومصير الروس على المستوى الجيوبولتيكي ـ واحد. ولهذا فإن على الصربيين لكي يعودوا إلى منابع رسالتهم الأوروبية أن يتجهوا بالضرورة نحو **الشرق**، نحو الأوراسيا وأن يفهموا معنى الجيوبولتيكا الروسية وأهدافها. وإلى جانب هذا فإنه لا الولاء للسلاڤية الساذجة والمصطنعة والتي كشف الفيلسوف الروسي كونستاتين ليونتيف بطريقة رائعة عن تهافتها بل بالذات مشروع الأوراسيا الكبرى ومحورها روسيا ـ البيزنطية الأرثوذوكسية الجديدة ذات البعد المسكوني ـ الكوني ـ هي بالذات التي ينبغي أن تكون نجم الهداية للجيوبولتيكا الصربية الحق. وفي هذه الحالة فقط يعود التوجه

الصربي إلى جذوره الخاصة ويكف عن لعب دور الدمية في أيدي الأطلسيين والتي لا يستخدمونها إلا في الصراع ضد أوروبا الوسطى والعالم الألماني.

في تاريخ أوروبا الجيوبولتيكي يمكننا تلمس توجّه دائم يمكن لتفسيره أن يكشف **ما الذي** يعد حلاً إيجابياً بالنسبة لصربيا. هذا التوجه هو: اتحاد **الشرق** مع أوروبا الوسطى ضد الغرب يعود دوماً بالفائدة على هذه الجهة وتلك. تماماً مثلما يعود بالفائدة على **الغرب** القاري (فرنسا) الاتحادُ مع **أوروبا الوسطى** (ألمانيا) ضد **الغرب** الجزيري وما وراء البحار (العالم الانجلوساكسوني). وبكلمة أخرى فإن الأفضلية التي تعطى **للشرق** الجيوبولتيكي (بل وحتى **الشرق** النسبي) ـ فأوروبا الوسطى، على سبيل المثال، تعد **شرقاً** بالنسبة لفرنسا، يعود دوماً بالنفع ليس فقط على **الشرق** نفسه، بل وعلى المشارك الغربي في هذا الاتحاد. وعلى العكس من ذلك فإن الاتحاد الجيوبولتيكي مع أفضلية التوجه الغربي (فرنسا مع انجلترا والولايات المتحدة ضد ألمانيا، فرنسا مع ألمانيا ضد روسيا وما إلى ذلك) يشدّ عُقَدَ نزاعات وحروب أوروبية جديدة وجديدة.

وبالأخذ بهذه التصوّرات في الحسبان يمكننا القول بأن توجه الصربيين الجيوبولتيكي ينبغي أن يتحول إلى قدوة بالنسبة للسياسة البلغارية التي كانت دوماً تجمع في ثناياها موالاة الروس وموالاة الألمان مرسّخة في **أوروبا الجنوبية** مجالاً من الاستقرار السياسي والتناسق، وهو ما مكّن وبطريقة تدريجية من أن يشق لأوروبا الوسطى طريقاً إلى الجنوب الإسلامي ومعناه أن يضع حداً لهيمنة الغرب الأطلسي في هذه المنطقة. وعلى صربيا فضلاً عن ذلك أن تعي مجموع ازدواجية المعنى في ذلك الدعم الذي قدمه لها **الغرب** في يوم ما، والثمن الذي تجلت صورته في العقوبات التي أوقعتها الدول الغربية بالصرب. وحده التوحد الجيوبولتيكي مع الدول الأرثوذوكسية الأوروبية الشرقية الأخرى (ومع بلغاريا بالدرجة الأولى) في معسكر واحد موال لروسيا، وصديق في الوقت نفسه لأوروبا الوسطى يمكنه أن يقيم في البلقان منطقة استقرار وأن يبطل استعمال مصطلح «البلقنة» المخزي.

وعلى نحو ما هو الأمر في حالة الكروات أيضاً، فإن فكرة الدولة ـ الأمة الصربية الصرف لن تحل أية مشاكل في حال ما إذا ورثت هذه الدولة الصربية عن الماسونيين الذين أقاموا يوغوسلافيا، كراهيتهم للألمان وتوجههم نحو الغرب.

5 ـ 5 حقيقة المسلمين اليوغوسلاف

يمثل مسلمو البوسنة اليوغوسلاف والألبانيون معاً العامل الجيوبولتيكي الإسلامي «العثماني» في أوروبا. ومن المهم الإشارة إلى أن تركيا التي يمكن الأحساس بنفوذها أكثر من كل شيء بين المسلمين اليوغوسلاف، تمثل في أوروبا، ودون شك المعبر عن الميول الأطلسية في أشد صورها الغربية تطرفاً. وإذا كان **الغرب** الذي حاول استخدام الشرق الأوروبي (روسيا) ضد **أوروبا الوسطى**، قد عجز عن أن يخنق بصفة نهائية التجلي الجيوبولتيكي المستقل لهذا الأقليم القاري، وكثيراً ما ووجه، على العكس من ذلك، بتوسع روسيا ـ الأوراسيا (إما عن طريق الحلف الروسي ـ الألماني وإما بطريقة مباشرة عبر إقامة حلف وارسو) فإن تركيا العلمانية الإسلامية الزائفة قد صارت الأداة المعول عليها في أيدي السياسيين الأطلسيين. وعلى مدى أوسع من ذلك، فإن التأثير الأطلسي على جيوبولتيكا الدول الإسلامية كبير إلى درجة خارقة للعادة. ولهذا فإن التحركات المعادية للصرب من طرف المسلمين اليوغوسلاف تعد مؤشراً على قيام نزاع قاري أكثر عالمية بين الأوراسيا الشمالية (روسيا ومجالها الجيوبولتيكي) وبين **الجنوب** نفسه، ما دام يتحول في هذه الحالة أداةً في أيدي الغرب الأطلسي على نحو ما كان **الشرق** الأوراسي (في صورة الصرب) ضد أوروبا الوسطى (في صورة النمسا والمجر وممثليهما من الكروات).

والمخرج المنطقي الوحيد بالنسبة لمسلمي البوسنة اليوغوسلاف وللمسلمين الألبان، التوجه نحو إيران وتبني سياستها، لأن هذه البلاد وحدها التي تطبق في الوقت الحاضر الجيوبولتيكا المتطلعة إلى الاستقلال والذاتية والتلاؤم القاري والتي تتصرف طبقاً لمنطقها الخاص مستقلةً عن مصالح الأطلسيين في هذه المنطقة. وبالتوجه نحو إيران يستطيع المسلمون اليوغوسلاف أن يحصلوا على الأفق الجيوبولتيكي المطلوب لأن إيران، المعادية بصفة جذرية للغرب، القارية، والملتزمة بالتقاليد، تعد الحليف الكامل الأهلية لجميع المعسكرات الأوروبية ذات التوجه الشرقي ـ بدءاً من روسيا ـ الأوراسيا وحتى أوروبا الوسطى. وفضلاً عن ذلك فإن من شأن توجه الآماد الأوروبية الشرقية الكبرى نحو إيران أن يبدل بشكل حاد توضع الأمور في العالم الإسلامي بكامله وأن يضعف بحدّة النفوذ الأمريكي

هناك، وهو ما لا يعد في صالح الأوروبيين فقط، بل ومن شأنه أيضاً أن يحرر الشعوَب الإسلامية من سياسة الإملاء الاقتصادي والعسكري للأطلسيين الانجلوساكسونيين.

وفقط بمثل هذا التوجه من طرف المسلمين اليوغوسلاف يمكن لوجودهم الجيوبولتيكي في أوروبا أن يصبح متناسقاً ومنطقياً خالياً من النزاعات. ويمكن القول إن مثل هذه المشكلة تنقسم إلى ثلاثة مراحل. المرحلة الأولى: تحويل توجه المسلمين من تركيا إلى إيران. المرحلة الثانية: تعزيز الاتحاد الجيوبولتيكي لأوروبا الوسطى مع إيران والعالم الإسلامي ككل. المرحلة الثالثة: الحلف الجيوبولتيكي الأوراسي بين **الشرق وأوروبا الوسطى**. وإلى جانب هذا فبالإمكان إجراء المراحل المذكورة متزامنةً وكل واحدة منها ضمن مستواها الخاص. ومن المهم هنا أن ندرك بصفة خاصة أن مشكلة الشعب البلقاني الصغير لا يمكن أن تحل جيوبولتيكياً بدون أكثر التحولات العالمية جدية. وليس لنا أن ننسى أبداً أنه من النزاعات المحلية الصغيرة في أحجامها والهائلة بمدلوليتها الرمزية، بدأت جميع الحروب العالمية.

5 ـ 6 حقيقة المكدونيين

تتجذّر المشكلة المكدونية ليوغوسلافيا المعاصرة بالذات في صميم اصطناعية «يوغوسلافيا» القائمة عملياً والتي عُدَّت، بالاسم فقط، «دولة السلافيين الجنوبيين». والمكدونيون الذين يمثلون اتنوساً وسطاً بين الصرب والبلغار ويدينون بالأرثوذوكسية، كان ينبغي أن يدخلوا جزءاً طبيعياً في يوغوسلافيا الحالية، المكونة من صربيا وبلغاريا. إلا أن وجود دولتين سلافيتين يعقوبيتي النمط في البلقان بدلاً من دولة سلافية فيدرالية «إمبراطورية» واحدة أوراسية التوجه، أدى إلى أن وجد الشعب المكدوني الصغير نفسه على الحد الفاصل بين منطقتين سياسيتين ذاتَيْ خاصية سياسية متباينة إلى حد بعيد.

ويزداد الأمر تفاقماً في اللحظة الراهنة لأن بلغاريا الحالية تشهد تنامياً للقوى اليعقوبية النمط التي أدت أكثر من مرة إلى تصادم دول البلقان الأرثوذوكسية فيما بينها وحالت دون التوجه إلى الجيوبولتيكية البيزنطية الجديدة الصحيحة لوحدها.

وقد أقحم في هذه العملية منذ البداية اللوبي الأطلسي (الكاثوليكي منه والإنكليزي) والذي لا يزال يذكّر بنفسه في بلغاريا المعاصرة وإن كان ذلك بصيغ أخرى.

وفي الحقيقة يبقى التاكتيك الغربي في هذه المنطقة على حاله التي كان عليها في بداية القرن. فيومذاك وبعد أن دمر الغرب إمبراطورية النمسا والمجر لم يسمح بإقامة التجمع السلاڤي الكبير، إذ لعب بورقة «القوميات البلقانية» ـ اليونانية، البلغارية، الصربية، الرومانية وما إلى ذلك. واليوم تسدّد قوى **الغرب** الجيوبولتيكية من جديد ضربة مزدوجة إلى أوروبا الوسطى وإلى الوحدة اليوغوسلافية وتستثير الانفصالية الكرواتية في **الغرب** والمكدونية في **الشرق**.

أما في حالة مكدونيا فمثلما هو الأمر في جميع النزاعات البلقانية الأخرى لا يمكن الوصول إلى المخرج إلا عبر العملية التكاملية العالمية لتنظيم الآماد الأوروبية الكبرى، وليس عن طريق الانفصالية المباشرة وإقامة الدول القزمية الزائفة. كما إن ضم مكدونيا إلى بلغاريا لن يحل المشكلة بأي حال من الأحوال وإنما يهيء فقط لقيام نزاع جديد لكنه في هذه المرة وبحق نزاع بين الدول، بين السلاڤيين.

5 ـ 7 أولويات الحرب اليوغوسلافية

لما كان النزاع اليوغوسلافي عميقاً في رمزيته، خارقاً في مدلوليته فإنه يطالب كل دولة وكل قوة سياسية وجيوبولتيكية أوروبية أن تحدد موقفها وأن تتبيّن أولوياتها بالنسبة لهذه المسألة. والحديث هنا لا يدور فقط حول النزوع العاطفي، الطائفي التاريخي الإتني أو السياسي لأولاء أو هؤلاء من البشر أو الشعوب أو الدول. فالحديث يدور عن مستقبل أوروبا ومستقبل الأوراسيا.

أما أنصار أولوية أوروبا الوسطى والموالون لألمانيا فقد اتخذوا الموقف المؤيد لكرواتيا. وتأسس هذا الاختيار على التحليل الجيوبولتيكي لأسباب إنشاء يوغوسلافيا، ورفض سياسة فرنسا الماسونية في وسط أوروبا، على فهم ضرورة البعث الطبيعي للمجال الأوروسطوي الموحد بعد انتهاء «مرحلة يالطا» والتي قسمت أوروبا خلالها وبطريقة مفتعلة إلى معسكرين جيوبولتيكيين لا إلى ثلاثة. وبهذا بالذات يفسَّر وجود الكثيرين من القوميين ـ الثوريين الأوروبيين بين الكروات.

لكن منطق تفضيل أوروبا الوسطى لم يضع في الحسبان واحداً من التصوّرات البالغة الأهمية. فإلى جانب الدور الأداتي **للشرق** الجيوبولتيكي لدى تنفيذ مخططات **الغرب** ضد أوروبا الوسطى توجد، وكانت توجد دوماً، الجيوبولتيكا الأوراسية الجذرية العميقة التربة لهذا **المجال الكبير**، جيوبولتيكا روسيا الأرثوذوكسية المتوجهة نحو مصالحها القارية الخاصة وفي المدى البعيد ـ نحو **الحلف المقدس** الجديد. وعندما استيقظ الوعي الذاتي الصربي بكامله خلال عملية النزاع الداخلي العنيف، وعندما استدعى دم الشعب الصربي من أغوار اللاوعي مجدداً الرسوبات القومية والروحية الجيوبولتيكية الأقدم، وعندما أصبحت عمليةً فكرةُ صربيا الكبرى، صربيا الروحية، انتهت رسالة يوغوسلافيا الأداتية وحلت محلها **الفكرة الأوراسية الكبرى**، **فكرة الشرق** .

وبينما كان الصرب يخوضون حربهم مع أوروبا الوسطى (في شخص الكروات) كان الأطلسيون يصفقون ليوغوسلافيا الفيدرالية في كل مكان من باريس إلى نيويورك أو كانوا يدمغون الكرواتية بـ «القومية الضيقة» و «بموالاة الفاشية». ولكن ما إن تجاوز الصربيون الخط المحدَّد واتخذت حربهم طابع الحرب ضد فكرة **الغرب** نفسه حتى أُعلنت صربيا العقبة الأولى في وجه إقامة «**النظام العالمي الجديد**» وأعقب ذلك تطبيق العقوبات السياسية والاقتصادية الصارمة ضدها.

ولكي يتم القيام بالخيار النهائي لا بد من الالتفات من جديد إلى القانون الجيوبولتيكي الذي سبق أن صغناه والذي لا تكون الهارمونية القارية بموجبه واقعية إلا بإقرار أولوية الشرق وباختيار الأوراسيا توجهاً إيجابياً فحتى الفكرة الإيجابية في حد ذاتها، والقائلة بـ **أوروبا المتوسطة** في مواجهتها لروسيا ـ الأوراسيا تغدو سلبية ومدمّرة مثلما تبين ذلك في الغلطة المأساوية العميقة لهتلر، الذي بدأ حربه التوسعية ضد الشرق، ضد روسيا، وهو ما عاد بالنفع فقط على المعسكر الغربي الأطلسي، فدمَّرَ ألمانيا وفرّخ بذور الأزمة في روسيا. ولهذا فإن الأفضلية الجيوبولتيكية في النزاع اليوغوسلافي يجب أن تعطى للعامل الصربي، ولكن، بصورة طبيعية ـ بمقدار ما يسير الصربيون وفق التوجه الجيوبولتيكي الأوراسي الموالي لروسيا المتطلع إلى إقامة المعسكر ـ السلافي الجنوبي القوي والمرن، والذي يعي أهمية أوروبا المتوسطة ويعين على إقامة الحلف الألماني ـ الروسي ضد الغرب. إن الكراهية الصربية للألمان مقترنة بالمحبة نحو الماسونية الفرنسية،

لن تستطيع أبداً، مهما كانت الذرائع التي تستتر وراءها، أن تقدّم الأساس لحل إيجابي للمشكلة اليوغوسلافية.

وبكلمة أخرى فإن الأفضلية الكبرى ينبغي أن تعطى للتقليديين الصربيين، المتعمقين في العقيدة الأرثوذوكسية والذين يعون تراثهم الروحي، السلافي ويتوجهون نحو وعي البنية الجيوبولتيكية الهارمونية الموالية لروسيا مع وعي التوجه المضاد للغرب، المضاد للأطلسية في وقت واحد.

ومن جهة أخرى فإن من المهم النظر باهتمام إلى مطالب الكروات وميولهم نحو منطقة **أوروبا الوسطى**، فبإمكان الكروات، مع توفر الميول المعادية للأطلسية فيهم، أن يغدوا في المستقبل قوة إيجابية داخل أوروبا.

كما وينبغي أخذ العامل البوسني بعين الاعتبار لدى نقل توجه المسلمين اليوغوسلاف من تركيا إلى إيران، وذلك لتحويل «السم إلى ترياق»، وعلى هذه القاعدة وضع حجر البداية لسياسة أوروبية جديدة تماماً في العالم الإسلامي مناوئة بصورة مباشرة للامبريالية الاقتصادية والعسكرية للولايات المتحدة في البلدان الأسيوية.

وأخيراً فبدلاً من أن يصبح المكدونيون تفاحة الشقاق بالنسبة للسلافيين الأرثوذوكس الجنوبيين فإن من واجبهم أن يكونوا بذرة الوحدة الصربية ـ البلغارية والخطوة الأولى نحو إقامة **يوغوسلافيا الكبرى** الحقيقية.

إلى هذه النتائج يؤدي التحليل الجيوبولتيكي الرصين للمشكلة اليوغوسلافية. وطبيعي أن من الصعب الاحتفاظ بالتفكير المتعقل داخل هَوْل حرب الأشقاء المريعة، فجداول الدماء لا تحرك في القلوب إلا الحقد وشهوة الانتقام. ولكن ربما تيسَّر للتحليل المتعقل البارد لوحده في بعض الأحيان، والذي يضع في حسبانه، الجذور التاريخية والقوانين الجيوبولتيكية، أن يقترح المخرج الصحيح من مأزق حرب الأشقاء الدموية، لأن التضامن العاطفي مع أولاء أو هؤلاء لن يؤدي إلا إلى لا مخرجية الكابوس الدموي ـ وبالإضافة إلى ذلك فإن مثل هذا التحليل يظهر بوضوح أن العدو الحق الذي يثير كل هذه المذبحة العرقية بين السلافيين يبقى وراء الستار مُؤْثراً أن يراقب عن بعد شعباً سلافياً يدمر شعباً سلافيا آخر ويبذر بذور الشقاق مغلقاً لسنوات طويلة إمكانية الاتحاد والسلام بين الأشقاء، مدمراً

المجال الكبير للقارة الأعظم قوةً، والمفتتة في الوقت الحاضر.

والمبادر الحقيقي للمذبحة اليوغوسلافية هو **قوى الغرب الأطلسية** التي تهتدي بشعار ـ «في معسكر الأعداء ينبغي أن نحرش بعضهم على بعض وأن نحول بكل صورة دون التوحد، دون التحالف ودون وحدة الأشقاء». وهذا ما ينبغي أن يفهمه جميع المشاركين في الحرب اليوغوسلافية المعقدة في سبيل أوروبا، وذلك لكي لا تتحول بصفة نهائية حرباً ضد أوروبا.

5 ـ 8 صربيا ـ هي روسيا

تكتسب الأحداث اليوغوسلافية أهمية إضافية لأن سيناريو حرب قارية كبرى يمكن أن تندلع في روسيا، يدور فوق أنموذج بلد بلقاني صغير. ولجميع القوى الجيوبولتيكية المشاركة في نزاع البلقان نظائرها في روسيا ولكن في أحجام مَدَوية أكبر إلى درجة لا يمكن مقارنتها. فالكروات والسلوفينيون الذين يطمحون إلى الدخول في أوروبا لهم نظراؤهم الجيوبولتيكيون ـ من الأوكرانيين على الرغم من أن قرابة هؤلاء مع روسيا الكبرى تعود بتاريخها لا لبضع عشرات من السنين بل لبضع عشرات من القرون، ولم تُعرف هنا أية مماحكات طائفية باستثناء الأونيات والأوكرانيين الكاثوليك. ومهما يكن من أمر فإننا إذا ما حكمنا وفقاً لتوجهات معينة نجد بعض قوى كييف قد بدأت «تضيق بالشرق الروسي» وتتطلع إلى التقارب مع المدى الأوروبي الذي تهيمن عليه ألمانيا اقتصادياً. ويمكن للروس وغيرهم من القوميات القاطنة في أوكرانيا أن يصبحوا رهائن السياسة «الأوروسطوية» لهذه الجمهوريات وفي هذه الحالة يصبح مصيرها شبيهاً بمصير الصرب في كرواتيا.

هذه المقارنة تكشف، بالإضافة إلى كل ما سبق، أن على روسيا، في علاقاتها الجيوبولتيكية والدبلوماسية مع أوكرانيا وبيلوروسيا أن تهتدي بفهمها الجذري لمشكلة **أوروبا الوسطى**، أي ألمانيا بالدرجة الأولى. ولكي نكون واقعيين في طرح هذه المشكلة علينا أن ننطلق في حلها لا من الشعارات الانفعالية المتعلقة بـ «وحدة الأشقاء في الدم ـ السلافيين» (أما الصورة التي تتخذها هذه الوحدة فيمكن أن نقتنع بها من خلال أنموذج المذبحة الصربية ـ الكرواتية)، بل من خلال منطق التحليل العميق للعلاقات الروسية ـ الألمانية، فلا أوكرانيا ولا حتى بولندة ـ

تمثل تشكلاً جيوبولتيكياً مستقلاً بل هما مجرد مناطق حدودية بين مجالين كبيرين ـ الأوراسية ـ روسيا وأوروبا الوسطى. وليس لنا أن ننسى أن النزاع في هذه المنطقة الحدودية يعود بفائدة خارقة للعادة على القوة الجيوبولتيكية الأخرى ـ الغرب. فليس من قبيل الصدفة أن تنظر الدبلوماسية الانجلوساكسونية دوماً إلى هذه المناطق جميعاً، من رومانيا وحتى البلطيق، على أنها «نطاق صحي» يحمي الغرب (والعالم الانجلوساكسوني بالذات) من الحلف الروسي ـ الألماني غير المرغوب فيه حتى الحدود القصوى.

والنزاع الصربي مع المسلمين شبيه بالمواجهة الروسية ـ الإسلامية الممثلة في آسيا الوسطى وفي القوقاز، وفي هذه الحالة تمثل الجمهوريات الإسلامية التي كانت داخلة في عداد الاتحاد السوفياتي منطقة نفوذ جيوبولتيكي تنافسي بين تركيا وإيران. ومثلما كان الأمر في حالة المسلمين اليوغوسلاف تظهر هذه المقارنة أن الجمهوريات المتوجهة نحو إيران ذات حظ أكبر في الانتقال إلى الهارمونية الجيوبولتيكية مع المعسكر الروسي الأساسي للقارة الأوراسية. وعلى العكس من ذلك فإن العامل الجيوبولتيكي لتركيا والذي يلعب في الوقت الحالي دور دليل السياسة الأطلسية في هذه المنطقة، مقترن بالضرورة مع الأوضاع الدراماتيكية المرتبطة بالنزاعات.

ومن خلال مثال يوغوسلافيا يتبين لنا **ما** الذي يهدد روسيا في مسيرة مشابهة للأحداث، والحقيقة القائلة بأن هذه الأحداث ستتحول حقيقة في اتجاه واحد لم تعد اليوم تثير الشك لدى أحد. والفارق فقط في السرعة التي تتزايد كلما كانت المساحة أضيق والشعوب أقل عدداً. ولكي نحول دون وقوع «يوغوسلافيا» مهولة في روسيا ـ مريعة بأبعاد مذبحتها الدامية ونتائجها فعليا قبل كل شيء أن نقدم الإجابة عن الأسئلة الجيوبولتيكية الجذرية، وأن نحدد الاستراتيجية القارية الروسية، التي يجب أن تهتدي بمعرفة التقليد السياسي الروسي وفهم المهام الجيوبولتيكية الأساسية لروسيا ـ الأوراسيا، «**للمحور** الجغرافي **للتاريخ**» . وإزاء ذلك فإن الحركة بقوة الاستمرار، والتتبع السلبي لمسيرة الأحداث القدرية، لن يكون فقط مدمراً لمجموع نظام الأمن القاري فحسب بل ومحفوفاً أيضاً بخطر هلاك البشرية بأجمعها.

من الجغرافيا المقدسة إلى الجيوبولتيكا

6 ـ 1 الجيوبولتيكا ـ «عِلْم بَيْني».

صارت النظم الجيوبولتيكية منذ زمن بعيد عاملاً بالغ الأهمية في السياسة المعاصرة. فهي تبنى على الأسس العامة التي تسمح بسهولة بتحليل وضعية أي بلد بمفرده وأية منطقة بمفردها.

والجيوبولتيكا بالمظهر الذي تبدو فيه اليوم ـ علم علماني دون شك، «دَنِس»، دنيوي. ولكن ما كان هذا العلم بالذات الوحيد بين جميع العلوم الأخرى، الذي حافظ في داخله على العلاقة الأكبر مع **الموروثات** ومع العلوم التقليدية. وقد أشار رينيه غينون إلى أن الكيمياء الحديثة هي نتيجة نزع القداسة عن علم الخيمياء التقليدية، والفيزياء المعاصرة ـ نزع القداسة عن السحر. وبمثل ذلك يمكننا القول إن الجيوبولتيكا المعاصرة ـ هي نتيجة العلمانية، نزع القداسة عن علم تقليدي آخر ـ هو الجغرافيا المقدسة. ولكن بما أن الجيوبولتيكا تلعب دوراً خاصاً بين العلوم المعاصرة وكثيراً ما ينسبونها إلى «العلوم الزائفة» فإن دناستها لا تبدو على نفس المستوى من الكمال والتعذر على الصلاح كما هو الأمر بالنسبة للكيمياء والفيزياء. ولهذا يمكننا القول إن الجيوبولتيكا تشغل وضعاً بينياً بين العلم التقليدي (الجغرافيا المقدسة .. وبين العلم الدنس).

6 ـ 2 البر والبحر

مفهومان انطلاقيان في الجيوبولتيكا ـ **البر والبحر** وهاتان العفويتان بالذات ـ

اليابسة والماء ـ مركوزتان في أساس التصور النوعي للإنسان عن المدى الأرضي. ففي معاناة البر والبحر، اليابسة والماء، يتفاعل الإنسان مع الآفاق الأساسية لوجوده. اليابسة هي الاستقرار، الكثافة، التركيز، المدى المكاني كما هو. والماء هو الحركية، الليونة، الديناميكية، الزمن.

هاتان العفويتان هما التجليان الأكثر وضوحاً للطبيعة الملموسة للعالم. وهما خارج الإنسان: كل ما هو كثيف وسائل. وهما في داخله أيضاً، الجسد والدم (والأمر نفسه على مستوى الخلية).

وعالمية معاناة الأرض والماء تولّد التصور التقليدي **لليبوسة السماوية،** فوجود المياه العليا (منبع المطر) في السماء يفترض أيضاً وجود العنصر الموازي المؤكد ـ الأرض، اليابسة، القلعة السماوية .. ومهما يكن فإن الأرض، البحر، المحيط هي الأصناف الأهم في الوجود الأرضي ولا يمكن للإنسانية ألا ترى فيها بعض الخصائص الأساسية للبناء الكوني. وهما كمصطلحين أساسيين للجيوبولتيكا يحتفظان بمعناهما بالنسبة للحضارات ذات النمط التقليدي كما هو بالنسبة للحكومات والشعوب المعاصرة والمعسكرات الإيديولوجية. أما على مستوى الظواهر الجيوبولتيكية الكونية فقد ولدت **اليابسة والبحر** مصطلحي التالاسوكراتيا والتيلّوروكراتيا، أي «القوة عن طريق البحر» و «القوة عن طريق البر».

وكل دولة وكل إمبراطورية تقيم قوتها على التطوير التفضلي لواحد من الصنفين. والإمبراطوريات تكون «تالاسوكراتية» أو «تيلوروكراتية». وتفترض الأولى وجود المتروبولات والمستعمرات ـ والثانية ـ وجود العاصمة والأطراف «على الأرض المشتركة». والأراضي في حالة «التالاسوكراتية» ليست مجمعة في مدى يابسي موحد، وهو ما يخلق عامل التقطع. والبحر ـ مكان القوة والضعف بالنسبة «للقوة التالاسوكراتية». أما «التيلوروكراتيا» فتتميزّ، على عكس ذلك، بخاصية التماسك الترابي.

إلا أن المنطق الجغرافي والكوني سرعان ما يعقّدان ما يتراءى نظاماً سهلاً لهذا التقسيم: فالثنائي «الأرض ـ البحر» يطرح لدى تطبيق عناصر كل منهما على الآخر فكرتي «الأرض البحرية» و «الماء الأرضي». والأرض البحرية ـ هي الجزيرة، أي أساس الإمبراطورية البحرية، قطب التالاسوكراتية. والماء الأرضي أو

ماء البر ـ هو الأنهار التي تحدد تطور الإمبراطورية البرية. فعلى النهر بالذات تتوضع المدن، وهذا ما يعني العاصمة أيضاً، قطب التيلوروكراتيا. وهذا التناظر يبدو رمزياً واقتصادياً وجغرافياً في وقت واحد. ومن المهم الإشارة إلى أن وضع الجزيرة **والقارة** لا يتحدد على أساس حجمها الفيزيائي بقدر ما يتم ذلك على أساس خاصية الوعي النموذجي للسكان. فجيوبولتيكا الولايات المتحدة تحمل طابعاً جزيرياً بغض النظر عن أحجام **أمريكا الشمالية** بينما تمثل اليابان الجزيرية من الناحية الجيوبولتيكية أنموذج العقلية القارية وهكذا.

وهناك نقطة أخرى ذات أهمية: فالتالاسوكراتيا مرتبطة تاريخياً بالغرب وبالمحيط الأطلسي، والتيلوروكراتيا ـ **بالشرق** والقارة الأوراسية. (ومثال اليابان الذي سلف وروده يفسّر في هذه الحالة بـ «الجاذبية» الأقوى، بتأثير الأوراسية).

صارت التالاسوكراتيا والأطلسية مترادفين قبل وقت طويل من توسع بريطانيا العظمى الاستعماري أو الفتوحات البرتغالية ـ الإسبانية. ومنذ فترة سابقة لبداية موجة الهجرات البحرية كانت شعوب **الغرب** وثقافاته قد بدأت زحفها إلى **الشرق** انطلاقاً من مراكز متوضعة على الأطلسي كما إن استيطان البحر الأبيض المتوسط تم من جبل طارق فإلى الشرق الأدنى وليس العكس. وعلى العكس من ذلك تكشف الحفريات في سيبيريا الشرقية ومنغوليا عن أن الأراضي المركزية للقارة كانت بالذات مهد الإنسانية الأوراسية.

6 ـ 3 رمزية السطح الأرضي

وبالإضافة إلى الصنفين الكونيين ـ **البر والبحر** ـ تتعامل الجيوبولتيكا مع تعاريف أكثر خصوصية. فبين الوقائع التالاسوكراتية يتم الفصل بين التشكلات البحرية والمحيطية. فحضارة البحرين الأسود والأبيض المتوسط تختلف بطبيعتها عن حضارة المحيطات أي الدول الكبرى الجزيرية والشعوب التي تستوطن شطآن المحيطات المفتوحة. وتتخذ الحضارات النهرية والبحيرية والمرتبطة بالقارات تقسيماً أكثر خصوصية.

وللتيلوروكراتية أيضاً أشكالها الخاصة بها. فيمكننا أن نميّز حضارة **السهب** وحضارة **الغابة**، حضارة **الجبال** وحضارة **الوديان**، حضارة الصحراء وحضارة

الجليد. وتنويعات السطح الأرضي تفهم ضمن الجغرافيا المقدسة كمركبات رمزية ترتبط بخصوصية الإيديولوجية الحكومية والدينية والأخلاقية لهذه الشعوب أو تلك. وحتى عندما نتناول الموضوع من خلال ديانة عالمية مسكونية فإن تجليها المحدَّد لدى هذا الشعب أو العرق أو الدولة أو ذاك لا بد وأن يخضع للتكيف طبقاً للسياق المحلي الجغرافي المقدس.

الصحارى والسهوب هي عالم الرحّل الجيوبولتيكي المصغّر. ففي الصحارى والسهوب بالذات تبلغ الاتجاهات التيلوروكراتية ذراها فعامل «الماء» قد أوصل هنا إلى حدّه الأدنى. ومن المنطقي أن تكون امبراطوريات **الصحراء والسهب** بالذات الجسر الجيوبولتيكي للتيلوروكراتيا.

ويمكننا اعتبار امبراطورية جنكيزخان. أنموذج امبراطورية السهب أما الأنموذج المميّز لامبراطورية الصحراء فيمكن اعتباره امبراطورية الخلافة العربية التي ظهرت تحت التأثير المباشر للبدو الرحل.

أما الجبال وحضارات الجبال فهي في أغلبها تشكلات قديمة مكونة من قطع. والدول الجبلية ليست فقط بعيدة عن أن تكون بؤراً للتوسع بل، وعلى العكس من ذلك تلوذ إليها ضحايا التوسع الجيوبولتيكي للقوى التيلوروكراتية الأخرى. وما قامت أي امبراطورية إلا وجعلت المناطق الجبلية مركزاً لها. من هنا يصدر اللحن الذي يتردد كثيراً في الجغرافيا المقدسة: «الجبال مسكونة بالشياطين». ومن ناحية أخرى فإن فكرة الاحتفاظ في الجبال ببقايا العروق والحضارات القديمة تتجلى في كون المراكز المقدسة للتقاليد قد توضعت ضمن الجبال دون سواها. بل ويمكن القول إن الجبال في التيلوروكراتيا تُنسب إلى نوع من السلطة الروحية.

وقد صارت الهضبة ـ أي المرتفع غير الشاهق، الذي يتوسط الجمع المنطقي بين هذين التصورين ـ الجبال كصورة كهنوتية والسهل كصورة ملكية. فالهضبة ـ رمز السلطة الملكية تشمخ فوق المستوى الدنيوي للسهب، لكنها لا تتجاوز حدود مصالح ذوي السلطان (كما هو الأمر في حالة الجبال). الهضبة مكان إقامة الملك، الدوق، الإمبراطور ولكن لا الكاهن. وجميع عواصم الإمبراطوريات التيلوروكراتية الكبرى تتوضع على هضبة أو هضاب (كثيراً ما تكون سبعة ـ بعدد الكواكب؛ أو خمسة ـ بعدد العناصر بما في ذلك الأثير، وما إلى ذلك).

والغابة في الجغرافيا المقدسة قريبة، إلى حد ما، من الجبال. ورمز الشجرة يرتبط بصلة القربى برمز الجبل (وهذا وذاك يعني مركز العالم) ولهذا تؤدي الغابة في التيلوروكراتيا مهمة جانبية أيضاً ـ فهي بالإضافة إلى ذلك «مقر الكهنة» (الدّرويْد، الڤولخڤي(*) والنسّاك) إلا أنها في الوقت نفسه «مقرّ الشياطين» أي البقايا القديمة للماضي الذي اندثر. كما إن المنطقة الغابية لا يمكن أيضاً أن تكون مركز امبراطورية قارية.

وتمثل التوندرا النظير الشمالي للسهب والصحراء ـ إلا أن طقسها البارد يجعلها من الناحية الجيوبولتيكية أقل قيمة بكثير من حيث الأهمية. وهذه «الطرفيّة» في المرتبة تصل إلى ذروتها في مناطق الجليد التي، مثلها مثل الجبال، تمثل مناطق الإيغال في القدم. ومما له مغزاه أن التقليد الشاماني لدى الاسكيمو يفترض العزلة المنفردة في جلاميد الجليد حيث يتكشف العالم الآخر لشامان المستقبل. وهكذا فإن جلاميد الجليد ـ منطقة كهنوتية، عتبة العالم الآخر.

وبالأخذ بهذه السمات الأساسية والأكثر عمومية للخارطة الجيوبولتيكية يمكننا تحديد مناطق العالم المختلفة طبعاً لخصوصيتها القداسية. وهذا المنهج يتفق أيضاً مع الخصائص المحلية للسطح الأرضي على مستوى البلد الواحد بل والأقليم الواحد. كما ويمكن أيضاً تتبع التشابه بين الايديولوجيات والتقاليد لدى الشعوب التي تبدو الأكثر تبايناً في حالة ما إذا كانت التضاريس الخارجية لموقع عيشها واحدة.

6 ـ 4 الشرق والغرب في الجغرافيا المقدسة.

في سياق الجغرافيا المقدسة تتخذ حركات العالم طابعاً نوعياً خاصاً. ففي

(*) الدّرويْد: (Druides ـ باللاتينية) كهنة الكلت القدامى. كانوا يكهنون عن طريق النظر في الأضاحي، كما كانوا ينهضون بمهمات القضاء بالإضافة إلى كونهم معلمين وأطباء ومتنبئين بما يكون.

الڤولخڤي: كهنة الطقوس ما قبل المسيحية في روسيا القديمة، والمتنبئون بالمستقبل وقراءة الطالع والنجوم. شاركوا بين القرنين العاشر والحادي عشر في التحركات الشعبية الداعية إلى التحرر من الظلم في بلادهم (المترجم).

التقاليد المختلفة وخلال المراحل المختلفة لهذه التقاليد يمكن للجغرافيا المقدسة أن تتبدل طبقاً للمراحل الدورية لتطويرها لهذا التقليد. وكثيراً ما تتبدل إزاء ذلك الوظيفة الرمزية لاتجاهات العالم. وبدون الدخول في التفاصيل يمكننا صياغة القانون الكوني الأهم للجغرافيا المقدسة مطبقاً على الشرق والغرب.

في الجغرافيا المقدسة، وعلى أساس من «الرمزية الكونية» يعد الشرق أرض الروح، أرض الجنة، أرض الكمال والفيض، «موطن» المقدس في صورته الأكمل والأسمى. وتتخذ هذه الفكرة انعكاسها بشكل خاص في الكتاب المقدس حيث يدور الحديث عن التوضع الشرقي لـ«جنّة عدن». ومثل هذا الفهم مميّز أيضاً للتقاليد الإبراهيمية الأخرى (الإسلام واليهودية)، كما بالنسبة لتقاليد كثيرة غير إبراهيمية ـ كالصينية والهندوسية والإيرانية. «**الشرق** ـ موطن الآلهة» تقول كلمة قدماء المصريين المقدسة بل إن كلمة «**الشرق**» (وهي «نيتر» بالمصرية) كانت في البداية تعني «الإله» و «**الشرق**» من وجهة نظر الطبيعة ـ المكان الذي تبزغ «تشرق» فيه الشمس، **نور العالم**، الرمز المادي للألوهية والروح.

ويتخذ **الغرب** معنى رمزياً متناقضاً بصورة مباشرة. إنه «أرض الموت»، «عالم الموتى»، «الأرض الخضراء» (حسبما أسماها قدماء المصريين). **الغرب** ـ «مملكة المغترب»، «بئر الغربة» وفق تعبير الصوفيين الإسلاميين. **الغرب** هو «نقيض ـ **الشرق** بلاد «الغروب»، السقوط، التحلل، الانتقال من الظاهر إلى الباطن، من الحياة إلى الموت، من الشبع إلى الفقر، وما إليه. **الغرب** ـ المكان الذي تغرب فيه الشمس، حيث (تسقط ـ وراء).

طبقاً لمنطق الرمزية الطبيعية الكونية هذه نظمت التقاليد القديمة «مجالها المقدس» وأقامت مراكز عبادتها ومدافنها، ومعابدها، ومبانيها، وفسّرت الخصائص الطبيعية و «الحضارية» للمناطق الجغرافية والثقافية والدولية للكرة الأرضية. وعلى هذا الأساس فإن بنية الهجرات والحروب والحملات العسكرية وموجبات الهجرة وبناء الإمبراطوريات وما إلى ذلك يتحدد وفقاً للمنطق القياسي للجغرافيا المقدسة. ووفقاً لمحور **الشرق ـ الغرب** تراصفت الشعوب والحضارات، التي اتخذت خصائص تراتبية ـ فكلما ازداد الاقتراب من **الشرق** ـ زاد الاقتراب من المقدس، من التقاليد، من الغنى الروحي. وكلما ازداد الاقتراب من الغرب، زاد الانحطاط، الانحلال وإماتة **الروح** .

ومن الطبيعي أن ذلك المنطق لم يتخذ صفة الإطلاق لكنه في الوقت نفسه ما كانَ ثانوياً ولا نسبياً ـ على حسب ما يتوهم الكثيرون من «الجهلة» بأمور الديانات والتقاليد القديمة. أما في واقع الحال فإن المنطق القداسي واقتفاء أثر الرمزية الكونية كان قد تم وعيهما وتفسيرهما لدى الشعوب القديمة بصورة أعمق بكثير مما هو دارج اليوم حتى في عالمنا المناوىء للقداسة، وعلى مستوى «اللاوعي» فإن أنماط الجغرافيا السياسية وبصفة دائمة تقريباً تبقى كاملة وتنبعث في اللحظات الأكثر أهمية وحرجاً من الهزات الإجتماعية.

وعلى هذا فإن الجغرافيا المقدسة تفرض قانون «المدى النوعي» والذي يمثل فيه الشرق «الزائد الانطولوجي» الرمزي، أما **الغرب** فيمثل «الناقص الانطولوجي».

و «**الشرق**» وفقاً للتقليد الصيني هو اليان، المبدأ المذكر، المنير، الشمسي، أما «**الغرب**» فهو ـ الاين، المبدأ المؤنث، المظلم، القمري.

6 ـ 5 الشرق والغرب في الجيوبولتيكا المعاصرة.

فلنتأمل الآن انعكاس هذا المنطق الجغرافي المقدس في الجيوبولتيكا والتي تبدو علماً شديد العصرية، لا يرصد سوى الوضع الحقيقي للأمور، تاركاً المبادىء المقدسة نفسها خلف الستار.

فالجيوبولتيكا في صيغتها الانطلاقية لدى راتسيل ـ تشيلّين وماكيندر (ثم لدى هاوسهوفر والأوراسيين الروس) كانت ترتد عن خصائص الأنماط المختلفة للحضارات والدول وفقاً لتوضعها الجغرافي. وقد ضبط علماء الجيوبولتيكا حقيقة التباين الجذري بين الدول الجزيرية والدول القارية، بين الحضارة «الغربية»، «التقدمية» و «الصيغة الثقافية» «الشرقية»، «الاستبدادية» و «العتيقة». وما دامت مسألة الروح في مفهومها الميتافيزيكي المقدس لا تطرح ألبتة في العلم المعاصر فإن علماء الجيوبولتيكا يتركونه جانباً مؤثرين تقييم الوضع من خلال مصطلحات تتجاوز في عصريتها مفاهيم «المقدس» و «الدنس»، «التقليدي» و «غير التقليدي» وما إلى ذلك.

ويرصد علماء الجيوبولتيكا الفرق المبدئي للتطور الحكومي، الثقافي والصناعي لمناطق **الشرق** ومناطق **الغرب** في القرون الأخيرة. وتظهر اللوحة في

هذه الصورة. **الغرب** هو مركز التطور «المادي» و «التقني». وعلى المستوى الثقافي ـ الإيديولوجي تهيمن فيه التوجهات الليبرالية ـ الديموقراطية والنظرة الفرديّة الإنسانية. وعلى المستوى الاقتصادي تعطى الأولوية للتجارة والتحديث التقني. وفي **الغرب** بالذات ظهرت لأول مرة نظريات «التقدم»، «الارتقاء» و «التطور الارتقائي للتاريخ» والغريبة كل الغربة عن العالم التقليدي **للشرق** (وعن تلك المراحل من تاريخ **الغرب** عندما كانت توجد فيه أيضاً التقاليد المقدسة الكاملة على نحو ما كانت الأمور عليه في العصور الوسطى بشكل خاص). والإكراه على المستوى الاجتماعي اكتسب في **الغرب** طابعاً اقتصادياً بحتاً بينما استبدل قانون الفكرة والقوة بقانون المال. وبصفة تدريجية انسكبت خاصية «أيديولوجية **الغرب**» في المعادلة الشاملة «أيديولوجية حقوق الإنسان» والتي صارت المبدأ المسيطر في المنطقة المتطرفة حتى أقصى غرب الكرة الأرضية ـ أمريكا الشمالية والولايات المتحدة بالدرجة الأولى. أما على المستوى الصناعي فتوافقت هذه الايديولوجيا مع فكرة «الدول المتطورة» ومع نظرية «السوق الحرة» «الليبرالية الاقتصادية» على المستوى الاقتصادي. ومجموع هذه الصفات مضافة إلى التوحيد الاستراتيجي العسكري البحت، لمختلف قطاعات حضارة الغرب تجتمع اليوم تحت مفهوم «الأطلسية». وفي القرن الماضي كان علماء الجيوبولتيكا يتحدثون عن «نمط الحضارة الانغلوساكسوني» أو «الديموقراطية الرأسمالية البورجوازية». وفي هذا النمط «الأطلسي» وجدت تجسيدها الأكثر صفاء معادلة «**الغرب** الجيوبولتيكي».

والشرق الجيوبولتيكي يمثل النقيض المباشر **للغرب** الجيوبولتيكي. فبدلاً من تحديث الاقتصاد تهيمن عليه الصيغ التقليدية المهترئة للصناعة ذات النمط التعاوني المنجمي (الدول النامية). وعوضاً عن الإكراه الاقتصادي غالباً ما تلجأ الدولة فيه إلى استخدام الإكراه «الخلقي» أو ببساطة الجسدي (قانون الفكرة وقانون القوة). وبدلاً عن «الديموقراطية» و «حقوق الإنسان» يميل الشرق إلى الشمولية والاشتراكية والهيبة الفردية، أي نحو الأنماط المختلفة من النظم الاجتماعية التي لا يوجد بينها إلا شيء واحد وهو غياب «الفرد»، «الإنسان» بـ «حقوقه» وبـ «قيمه الفردية» البحتة وحضور شيء لا فردي، خارج عن الإنسان ـ سواء أكان «المجتمع» أم «الأمة»، «الشعب»، «الفكرة»، «الرؤية»، «الدين»، «عبادة القائد» أو ما إلى ذلك. وقد واجه الشرق الديموقراطية الغربية الليبرالية بأكثر الأنماط اختلافاً من المجتمعات غير

الليبرالية، غير الفردية ـ بدءاً من الملوك المستبدين، وحتى التيوقراطية أو الاشتراَكية. وإلى جانب ذلك فإن الخاصية السياسية لهذا النظام أو ذاك، كانت، من وجهة النظر الجيوبولتيكية النمطية البحتة، ثانويةً بالمقارنة مع التقسيم النوعي إلى بناء «غربي» (= «فردي ـ تجاري») وبناء «شرقي» (=«لا فردي ـ قسري»). والصيغ النموذجية لمثل هذه الحضارة المعادية للغرب كانت الاتحاد السوفياتي، الصين الشيوعية، اليابان حتى سنة 1945 أو إيران الخميني.

ومما هو مثير للفضول أن رودولف تشيلّين، المؤلف الذي كان أول من استخدم مصطلح «الجيوبولتيكا» قد استعرض الفرق بين الغرب والشرق على هذه الصورة إذ كتب: «**كلمة الأمريكي النموذجية هي** «go ahead»وهي ما تعني حرفياً «إلى الأمام». وفي هذا ينعكس التفاؤل الجيوبولتيكي الداخلي والطبيعي و «تقدمية» الحضارة الأمريكية، التي تعد الصيغة النهائية للأنموذج الغربي. أما الروس فعادةً ما يرددون كلمة « ***ничего*** »(*) نِتشِڤو (وردت بالروسية في نص تشيلّين ـ المؤلف)، وينعكس في هذا ما يتسم به الشرق من «التشاؤمية»، «التأملية» «القدرية» و «التمسك بالتقاليد».

فإذا عدنا الآن إلى مقياس الجغرافيا المقدسة لوجدنا التناقض المباشر بين أولويات الجيوبولتيكا المعاصرة (مفاهيم مثل «التقدم»، «الليبرالية»، «حقوق الإنسان» و «النظام التجاري» وما إلى ذلك صارت اليوم إيجابية بالنسبة للغالبية أو بين أولويات الجغرافيا المقدسة التي تقيم أنماط الحضارة من وجهة نظر مناقضة تماماً (فمفاهيم مثل «الروح»، «التأمل» «الخضوع لقوة فوق إنسانية أو لفكرة فوق إنسانية»، «الإيديوكراتيا» وما إلى ذلك كانت في الحضارة المقدسة إيجابية تماماً وتبقى بهذه الصفة حتى الآن بالنسبة لشعوب الشرق على مستوى «لا وعيها الجماعي».) وعلى هذا فإن الجيوبولتيكا المعاصرة (باستثناء الأوراسيين الروس، وتابعي هاوسهوفر من الألمان، والأصوليين الإسلاميين) تقيم لوحة العالم بصورة مناقضة تماماً لما تراه الجغرافيا المقدسة. وإزاء ذلك فإن العِلْمين يلتقيان في توصيفهما للقوانين الجذرية للمشهد الجغرافي للحضارة.

(*) هذه الكلمة الروسية تعني «لا بأس» لا عليك، «لا تثريب» (المترجم).

6 ـ 6 الشمال المقدّس والجنوب المقدّس.

وإلى جانب الحتمية الجغرافية ـ المقدسة وفقاً لمحور **الشرق ـ الغرب** فإن مما هو على غاية الأهمية قضية محور عمودي آخر ـ محور **الشمال والجنوب** وهنا، وعلى ما هو الأمر في جميع الحالات الأخرى تكتسب مبادىء الجغرافيا المقدسة ورمزية جهات الكون وما يتطابق معهما من القارات، تناظراً مباشراً في الخارطة الجيوبولتيكية للعالم التي إما أن تتشكل بطريقة طبيعية من خلال العمليات التاريخية أو أن تبنى بصورة واعية أو مصطنعة بنتيجة المسالك الموجهة لقادة هذه التشكيلات الجيوبولتيكية أو تلك. والفرق بين «المصطنع» والطبيعي نسبي جداً من وجهة نظر «التقليدية التكاملية» لأن التقليد ما عرف قط شيئاً مشابهاً للثنائية الكارتيزيانية(*) أو الكانتية التي تفصل بصرامة بين «الذاتي» و «الموضوعي» («الحادث» و «الاسمي»). ولهذا فإن الحتمية القداسية **للشمال أو الجنوب** ليست مجرد عامل فيزيائي، طبيعي، أو ترابي ـ مناخي (أي «موضوعي») أو مجرد «فكرة» أو «تصور» ولّدته عقول هؤلاء أو أولاء من الأفراد (أي شيء «ذاتي») بل هي شيء ثالث يتجاوز القطب الموضوعي والذاتي معاً. فيمكن القول إن الشمال المقدس، النموذج البدئي للشمال يتشعب في التاريخ إلى سطح ترابي طبيعي شمالي من جهة وإلى فكرة الشمال «النورديزم» من جهة أخرى.

إن الطبقة البدئية الأقدم للتقليد تفرض أولوية **الشمال** على **الجنوب** فرمزية الشمال ذات علاقة بالنبع، بالجنة النوردية الأولى، والتي منها تستمد الحضارة الإنسانية كلها بدايتها. والنصوص الإيرانية القديمة والزرادشتية تتحدث عن البلاد الشمالية «آريانا ڤايذْجا» وعاصمتها «ڤارا» والتي أُخرج منها الآريون القدماء بفعل التجمد الذي سلّطه عليهم أهريمان، روح الشر وعدو أهورامزدا المشرق. والڤيد القدماء يتحدثون أيضاً عن بلاد **الشمال** كوطن أول للهندوس، وعن **سڤيتادڤيب**،

(*) الكارتيزيانية: اتجاه في الفلسفة الطبيعية في القرنين السابع عشر والثامن عشر، يعود بمنبعه إلى أفكار (Descartes ـ ديكارت)، رينيه (1596 ـ 1650) واسمه باللاتينية Cartesius ومنه جاءت تسمية الكارتيزيانية. وتقول هذه الفلسفة بالثنائية أي تقسيم العالم الفكري إلى جوهرين ـ موثوقية الوعي (أنا أفكر فأنا إذن موجود) ونظرية الأفكار الفطرية (المترجم).

الأرض البيضاء، الممتدة في أقصى الشمال.

وقد تحدث اليونانيون القدماء عن هيبيربوريا، الجزيرة الشمالية وعاصمتها تولا. وعُدَّت تلك الأرض موطن الإله أبولون مرسل النور. وفي كثير من التقاليد الأخرى يمكن أن نتلمس آثار الرمزية النوردية الأقدم والتي كثيراً ما طواها النسيان وصارت فتاتاً. أما الفكرة الأساسية المرتبطة تقليدياً **بالشمال** فهي فكرة المركز، **القطب الراسخ**، نقطة **الأبدية**، والتي لا يدور حولها المدى فقط بل والزمن، الدورة. الشمال هو الأرض التي لا تغيب فيها الشمس حتى في الليل، مدى النور، النور الأبدي. وكل تقليد مقدس يوقر **المركز**، **الوسط**، النقطة التي تلتقي عندها النقائض، المكان الرمزي الذي لا يخضع لقوانين الانتروبيا(*) الكونية. إنه المركز الذي يرمز له **الصليب المعقوف** (الذي يؤكد السكون وسرمدية **المركز** وحركة وتبدل الأطراف)، والذي يسمى في كل تقليد بطريقة خاصة إلا أنه على الدوام كان يرتبط مباشرة أو بصورة غير مباشرة برمز **الشمال**. ولهذا يمكننا القول بأن جميع التقاليد المقدسة ما هي إلا إسقاطات للتقليد **البريموردياالي الشمالي الواحد** تم تكييفها مع هذه أو تلك من الشروط التاريخية. **الشمال** هو تلك الجهة من العالم اختارها **اللوغوس** الأول من أجل أن يتجلى في التاريخ ولم يزد كل تجل من تجلياته التالية على أن أعاد الرمزية القطبية ـ الفردوسية الأولى.

والجغرافيا المقدسة تربط **الشمال** بالروح، بالنور، بالطّهر، بالكمال، بالوحدة، بالأبدية.

أما الجنوب فيرمز إلى شيء مختلف كل الاختلاف ـ إنه المادية، الظلمة، الاختلاط، الحرمان، الكثرة، الغوص في تيار الزمن والتحول. وحتى من وجهة نظر الطبيعة فإن في المناطق القطبية **نهاراً** طويلاً واحداً يمتد نصف عام **وليلاً** واحداً طويلاً يمتد نصف عام. إنهما **نهار وليل** الآلهة والأبطال والملائكة. حتى إن التقاليد التي اضمحلت ذكرت هذه الجهة المقدسة الروحية الخارقة للطبيعة من **الشمال** وعدت المناطق الشمالية موطن «الأرواح» و «قوى العالم الآخر». **أما في الجنوب فالنهار والليل** يفتتان إلى عدد كبير من الأيام البشرية، وتضيع الرمزية

(*) الأنتروبيا: عامل رياضي يعتبر مقياساً للطاقة غير المستفادة في نظام دينامي حراري (المترجم).

الأولى للهيبيربوريا ويغدو استذكاره عامل «ثقافة»، و «مأثورات». ويُربط **الجنوب** في العادة بالثقافة أي بذلك الجانب من النشاط الإنساني الذي يكتسب فيه **اللامرئي والروحي الخالص** ملامحه المادية المخشوشنة ـ المرئية. **الجنوب** مملكة المادة، الحياة، البيولوجيا، والغرائز. **الجنوب يفكّك** طهارة التقليد، لكنه يحتفظ بآثارها في صورة اكتسبت ماديّتها».

ثنائية **الشمال ـ الجنوب** لا تؤدي في الجغرافيا المقدسة إلى التناقض المجرد بين **الخير والشر**. إنها أقرب إلى أن تكون تناقض الفكرة الروحية وتجسّدها المادي الفظ. وفي الحالة العادية وإزاء اعتراف **الجنوب** بأولوية **الشمال** تقوم بين هاتين الجهتين من جهات العالم علاقات متناغمة ـ **الشمال** ـ يلهم **الجنوب**، والرسل النورديون يهبون الجنوبيين التقليد، ويوطدون أسس الحضارات المقدسة. فإذا ما رفض الجنوب الاعتراف بأولوية الشمال بدأ التنازع المقدس، «حرب القارات»، هذا وإن الجنوب بالذات، من وجهة نظر التقليد، هو المسؤول عن هذا النزاع بتخطّيه حدود القوانين المقدسة. ففي «الرامايانا» على سبيل المثال تعد جزيرة لانْكا الجنوبية موطن الشياطين الذين خطفوا سيتا زوجة راما وأعلنوا الحرب على الشمال القاري من العاصمة آيدوهيا.

ومن المهم الإشارة في هذا الصدد إلى أن محور **الشمال ـ الجنوب** في الجغرافيا المقدسة يرجح في الأهمية على محور **الشرق ـ الغرب** ولكنه لما كان أكثر أهمية فإنه يُربط بالأدوار الأقدم من تاريخ الأحقاب فالحرب العظمى بين الشمال والجنوب، بين هيبيربوريا وهوندواندا (أرض **الجنوب** الباليو قديمة) تعود إلى عهود «ما قبل الطوفان». وتغدو في دورات الأحقاب الأخيرة أكثر سرية ـ ملفوفة بالغموض. ثم تتلاشى نفس قارات **الشمال والجنوب** الباليو قديمة نفسها. وتنتقل راية التنازع إلى الشرق والغرب.

استبدال محور الشمال ـ **الجنوب** العمودي بمحور **الشرق والغرب** الأفقي أمر مميّز بالنسبة للمراحل الأخيرة من دورة الأحقاب، ومع ذلك فهو يحتفظ بالرابطة المنطقية والرمزية بين هذين الثنائيين الجغرافيين ـ المقدسين. فثنائي **الشمال ـ الجنوب** أي **الروح ـ المادة، السرمدية الزمن** يجري إسقاطه على ثنائي الشرق ـ الغرب (أي **الأصالة والدنس، والمنبع والغروب. والشرق** هو الإسقاط الأفقي **للشمال** نحو الأسفل **والغرب** إسقاط **الجنوب** نحو الأعلى). ومن هذا النقل للمعاني

المقدسة يمكننا أن نحصل بسهولة على بنية الرؤية القارية، المميّزة بالنسبة **للموروث** .

6 ـ 7 أهل الشمال.

يتحدد الشمال المقدس بالنمط البشري الذي يمكنه أن يتخذ تجسده البيولوجي العرقي، ولكن يمكنه أن لا يتخذه. وجوهر «النوردية» يتميّز بقدرة الإنسان على ردّ كل تجسيد بيولوجي، عرقي إلى صورته البدئية، إلى فكرته. وهذه الخاصية لا تمثل تطويراً بسيطاً لبداية عقلانية. وعلى عكس ذلك فإن «العقل المحض» الكارتيزياني والكانتي هو العاجز عن استبعاد «الحدود الدقيقة» بين «الحادث» و «الاسمي» بطريقة طبيعية، إلا أن هذه الخاصية بالذات تثوي في أساس التفكير «النوردي» فإنسان الشمال ـ ليس مجرد «آري» أبيض أو هند أوروبي بالدم واللسان والثقافة. إنسان **الشمال** هو النمط الجوهري لمخلوق اختص بالحدس المباشر للمقدس. والكوسموس بالنسبة له ـ نسيج من الرموز يشير كل واحد منها إلى مبدأ أوّلي روحي خفي عن العين. إنسان **الشمال** ـ هو «الإنسان الشمسي» Sonnenmensch، الذي لا يستهلك الطاقة كالمخلوق الأسود، بل الذي ينتجها، الذي يفجر من داخل روحه تيارات الخلق والنور والقوة والحكمة.

اختفت الحضارة النوردية الصرفة باختفاء الهيبيربوريا، إلا أن رسلها بالذات أرسوا أسس جميع التقاليد الموجودة. و «عرق» **المعلّمين** النوردي هذا بالذات الذي كان يقف عند منابع الديانات والثقافات لشعوب جميع القارات وجميع ألوان البشرة. فيمكن العثور على آثار العبادة الهيبيربورية عند هنود أمريكا الشمالية والسلافيين القدماء وعند مؤسسي الحضارة الصينية، عند السكان الأوائل في المحيط الهادي ولدى الجرمان الشقر الشعور، ولدى الشامانات السود في أفريقيا الغربية ولدى الأزديك حمر البشرة والمنغول البارزي الوجنات. فليس ثمة شعب على وجه الأرض لا يملك أسطورة عن «الإنسان الشمسي Sonnenmensch الذكاء الروحي الأصيل ما فوق العقلاني، **واللوغوس** الإلهي والقدرة على النفاذ **عبر** العالم إلى روحه السرية ـ تلك هي الصفات المحدَّدة **للشمال** وحيثما توجد **الطهارة المقدسة والحكمة** يوجد الشمال غير مرئي ـ بغض النظر عن النقطة الزمانية أو المكانية التي نكون فيها.

6 ـ 8 أهل الجنوب.

إنسان الجنوب، هو النمط الهوندواندي ـ النقيض المباشر للنمط «النوردي». وإنسان الجنوب يعيش في وسط النتائج، التجليات الثنائية، فهو ينزل في الكوسموس الذي **يجلّه** ولكن لا **يفهمه**. فهو ينحني أمام الخارجي ولكن لا الداخلي. وهو بكل حرص يحتفظ بآثار الروحانية وتجسّدها في الوسط المادي ولكنه عاجز عن الانتقال من الرامز إلى المرموز. وإنسان الجنوب يعيش بالشهوات والاندفاعات وهو يضع الروحي أعلى من الروحاني (الذي بكل بساطة لا يعرفه) ويحترم **الحياة** على أنها المرحلة الأعلى. ويتسم إنسان الجنوب بعبادة **الأم الكبرى**، المادة، التي تولد التنوع الكبير للصيغ. حضارة **الجنوب** هي حضارة **القمر** الذي يستمد ضوءه من **الشمس** (الشمال) فيحتفظ به ويرسله لبعض الوقت، لكنه بصفة دورية يفقد الاتصال معه (الأهِلّة) **إنسان الجنوب** ـ Mondmensch.

وعندما يدخل أهل **الجنوب** في انسجام مع أهل **الشمال** أي يعترفون بقدرهم وبتفوقهم النمطي (لا العرقي) تسود الهارمونيا الحضارية. وعندما يتطلعون إلى ترئيس علاقتهم القدمية نحو الواقع يظهر النمط الثقافي المشوّه والذي يمكن تحديده عموماً **بعبادة الأوثان، بالفيتيشية أو الوثنية** (بالمعنى السلبي المهين لهذا المصطلح).

وكما هو الأمر في حالة الباليوقارّات فإن الأنماط الشمالية والجنوبية ما وجدت إلا في العهود السحيقة التقدم. فقد واجه أهل **الشمال** وأهل **الجنوب** أحدهما الآخر في العهود الأولى. وفيما بعد تغلغلت شعوب شمالية بكاملها في الأراضي الجنوبية فأقامت الحضارات «النوردية» الواضحة التعبير ـ إيران القديمة، الهند. ومن ناحية أخرى تغلغل الجنوبيون أحياناً مسافات بعيدة إلى الشمال حاملين معهم طرازهم الثقافي ـ الفنلنديون، الأسكيمو، والتشوكتشي وسواهم. ثم أخذ الصفاء الأول للبانوراما الجغرافية المقدسة يكبو بالتدريج. ولكن وبغض النظر عن كل شيء فإن الثنائية النمطية «لأهل **الشمال**» و«أهل **الجنوب**» ظلت باقية عبر جميع العصور وجميع الأحقاب ولكن لا كنزاع **خارجي** بين حضارتين مختلفتين بل كنزاع **داخلي** في إطار الحضارة الواحدة نفسها. وبداية من لحظة ما من التاريخ المقدس يواجه نمط **الشمال** ونمط **الجنوب** أحدهما الآخر في كل مكان بغض النظر عن مكان معين فوق الكوكب الأرضي.

6 ـ 9 الشمال والجنوب في الشرق والغرب

كان يمكن لنمط أهل **الشمال** أن يتم اسقاطه على الجنوب وعلى **الشرق** وعلى **الغرب**. ففي **الجنوب** ولّد **نور الشمال الحضارات الميتافيزيكية** الشبيهة بالهندية والإيرانية والصينية والتي حافظت في وضعية الجنوب «المحافظ» فترة طويلة على الكشف الذي ائتُمنت عليه. إلا أن بساطة الرمزية الشمالية ووضوحها تحولا هنا إلى شباك معقدة ومتنوعة من المقولات والطقوس والعبادات المقدسة. بيد أننا كلما ابتعدنا **جنوباً** كلما تضاءلت آثار **الشمال** والموتيفات «النوردية» في الميثولوجيا والطقوس تبقى لدى سكان جزر المحيط الهادي وأفريقيا الجنوبية في صيغة مجزوءة مستحاثة بل ومشوّهة.

في **الشرق** يتجلى **الشمال مجتمعاً تقليدياً كلاسيكياً** قائماً على تفوق ما فوق الفردي على الفردي، حيث يمّحي «الإنساني» و«العقلاني» أمام وجه المبدأ ما فوق الإنساني وما فوق القومي. وإذا كان الجنوبي يسم الحضارة بميسم «الثبوتية» فإن **الشرق** يحدد قداستها وأصالتها وضمانتها الرئيسة هي **نور الشمال**.

في **الغرب** يتجلى **الشمال** في المجتمعات البطولية، حيث من خصائص **الغرب** كغرب الميل إلى التفتيت، إلى الفردية والعقلنة قد تغلب على نفسه، والفرد عندما صار **بطلاً** خرج عن الأطر الضيقة للشخصية «الإنسانية ـ الإنسانية إلى ما فوق الحد»، وتم تشخيص **الشمال في الغرب** بشخصية هرقل الرمزية الذي يحرر، من جهة بروميثيوس (توجُّه «إنساني»، مصارع للآلهة، غربي محض)، ومن جهة أخرى يساعد زيوس والآلهة في الانتصار على العمالقة المتمردين (أي إنه يعمل لصالح الأعراف المقدسة **والنظام** الروحي).

وعلى العكس من ذلك يتم إسقاط **الجنوب** على كافة التوجهات الثلاثة مباشرة وبطريقة معاكسة. فهو في **الشمال** يطرح تأثير «القدم» و«الركود الثقافي» حتى تكتسب التقاليد «النوردية» الشمالية نفسها بتأثير العناصر الجنوبية «الباليو آسيوية»، «الفنلندية» و«الأسكيموسية» طابع «عبادة الأوثان» و«الفيتيشية». (وهذا مميّز بصفة خاصة للحضارات الجرمانية ـ السكاندينافية في «عصر السكالد»)(*).

(*) السّكالد: الشعراء في النرويج وإيسلندا بين القرنين التاسع ـ الثالث عشر. كانوا =

في **الشرق** تجسدت قوى **الجنوب** في **المجتمعات الاستبدادية** حيث اللامبالاة الشرقية الطبيعية والعادلة نحو الفردي تتحول إلى رفض للفرد ما فوق البشري. وكافة صور الشمولية في **الشرق** تربط نمطياً وعرقياً **بالجنوب**.

وأخيراً ففي **الغرب** يتجسد **الجنوب في صيغ الفردية اللامتناهية في فظاظتها وماديتها** وذلك عندما تصل الفرديات «النووية» حتى أقاصي حدود تعبيرها المعادي للبطولية من خلال ركوعها أمام «العجل الذهبي» للكومفورت والمتعة الأنانية. ومن البيّن أن مثل هذا الجمع بين التوجهين الجيوبولتيكيين المقدسين هو بالذات الذي يعطي النمط الأكثر تنفيراً للحضارة لأنه يتضمن توجهين يتوضع أحدهما فوق الآخر ـ وكل منهما سلبي في ذاته ـ **الجنوبي** عمودياً **والغربي** أفقياً.

6 ـ 10 من القارات إلى ما وراء القارات

إذا كان الشمال الرمزي يتطابق في المستقبل المنظور مع الآفاق الإيجابية للجغرافيا المقدسة والجنوب ـ مع الآفاق السلبية، ففي اللوحة الجيوبولتيكية المعاصرة يصبح كل شيء أكثر تعقيداً وحتى معكوساً في بعض الحدود. فالجيوبولتيكا المعاصرة تحت مصطلح **الشمال والجنوب** تفهم صفات كاملة أخرى غير الجغرافيا المقدسة.

أولاً: فقارة **الشمال** القديمة ـ الهيبيربوريا لم تعد منذ عدد كبير من آلاف السنين موجودة على المستوى الفيزيائي، وهي تبقى واقعاً روحياً تتجه النظرة الروحية نحوه.

ثانياً: أن العرق النوردي القديم، عرق «المعلمين البيض» الذين جاؤوا من القطب في العصر البريموردياليّ لا يتفق إطلاقاً مع ما درج اليوم على تسميته «بالعرق الأبيض» بالاستناد فقط إلى الخصائص الفيزيائية، إلى لون البشرة وما إلى ذلك. إن شمال الموروث وسكانه الأول «السكان النورديون الأصليون» لم تعد منذ زمن بعيد تمثل واقعاً تاريخياً ـ جغرافياً محدّداً. وتشير كافة الشواهد إلى أن آخر بقايا هذه الثقافة

= ينظمون الأغاني في الموضوعات الشعبية والبطولية وأشعار الهجاء لمحاربة المثالب البشرية. بقيت أشعارهم في صيغ نتف مجزوءة في الآثار الأدبية العائدة للقرن الثالث عشر. أشهرهم السكالد الأيرلندي إيغيل سكالاّغريمسون (القرن العاشر) (المترجم).

البريموردىالية قد اختفت من الواقع الفيزيائي منذ بضع آلاف من السنين.

وعلى هذا فإن **الشمال** في **الموروث** ـ واقع ما وراء التاريخ وما وراء الجغرافيا. والشيء نفسه يمكن قوله حول «العرق الهيبيربوري» ـ فهو «عرق» لا بالمعنى البيولوجي بل بالمعنى الروحي الميتافيزيكي الصرف. (وموضوع «الأعراق الميتافيزيكية» لقي تطويراً مفصلاً في أعمال يوليوس إيڤولا»).

كما إن قارة **الجنوب وجنوب التراث** ما عادت، على العموم، موجودة منذ غابر الزمن في صورتها الصافية، والأمر نفسه يتعلق بسكانها الأوائل الغابرين. ومنذ فترة ما صارت الكرة الأرضية بكاملها من الناحية العملية «**جنوباً**» إذ ضاق تأثير المركز القطبي الأولي ورسله على العالم. وأعراق **الجنوب** المعاصرة تمثل خلاصة الاختلاطات الكثيرة العدد مع عروق **الشمال**، ولون البشرة كف منذ زمن بعيد عن أن يكون المظهر المميّز الرئيسي للانتماء إلى هذا «العرق الميتافيزيكي» أو ذاك.

وبكلمة أخرى فإن اللوحة الجيوبولتيكية المعاصرة لا تملك إلا القليل مما يجمعها مع الرؤية المبدئية للعالم في قطاعه ما فوق التاريخي، ما فوق الزماني. فالقارات ومن عليها من السكان ابتعدت في عصرنا عن تلك الصّور البدئية التي كانت مطابقة لها في العصور البريموردىالية. ولهذا فإن بين القارات الحقيقية والعروق الحقيقية (كوقائع للجيوبولتيكا المعاصرة) من جهة وبين ما وراء القارات وما وراء العروق (كوقائع للجغرافيا التقليدية المقدسة) من جهة أخرى توجد لا الفروق، بل وما يشبه التطابق العكسي تقريباً.

6 ـ 11 وهْم «الشمال الغني»

غالباً ما تستخدم الجيوبولتيكا المعاصرة مفهوم «**الشمال**» مقترناً بصفة «الغني» ـ «**الشمال** الغني» بالإضافة إلى «**الشمال** المتطور». وتحت هذا يجري فهم مجموع الحضارة الغربية التي تولي اهتماماً أساسياً لتطوير الجانبين المادي والاقتصادي من الحياة. و«**الشمال** الغني» غني لا لأنه أوفر ذكاءً أو أوفر عقلانية وروحانية من «**الجنوب**» بل لأنه يبني نظامه العام وفق مبدأ الحد الأقصى من المنفعة المادية، التي يمكن استخلاصها من قدرات المجتمع والطبيعة، من استغلال الموارد الإنسانية والطبيعية. و«**الشمال** الغني» مرتبط ارتباطاً عنصرياً بتلك الشعوب ذات

اللون الأبيض للبشرة، وهذه الخاصية مكنونة في أساس التشكيلات المختلفة «للعنصرية» الغربية (والأنجلوساكسونية بصفة خاصة) بصورة مكشوفة أو مستترة. وانجازات «**الشمال** الغني» في الميدان المادي أدخلت في المبدأ السياسي بل و«العنصري» وبالذات في تلك البلدان التي كانت تقف في طليعة التطور الصناعي، التقني والاقتصادي ـ أي انجلترا، هولندة وفي فترة متأخرة ألمانيا والولايات المتحدة. وفي هذه الحالة جُعل الرفاه المادي والكمي مساوياً للمعيار النوعي، وعلى هذه القاعدة تم تطوير أشد الخرافات فظاظة حول «همجية»، «بدائية»، «تخلف» و«لاإنسانية» الشعوب الجنوبية (أي التي لا تنتمي إلى «**الشمال** الغني») ومثل هذه «العنصرية الاقتصادية» تجلت في هيئة أكثر وضوحاً في الحروب الاستعمارية الأنجلوساكسونية، وفيما بعد دخلت صوره المزوّقة في الآفاق الأكثر فظاظة وتناقضاً من الإيديولوجيا الوطنية ـ الاشتراكية. وهكذا فكثيراً ما جنح الإيديولوجيون النازيون إلى خلط التخمينات الغامضة المتعلقة «بالنوردية الروحية» و«العرق الروحي الآري» بالعنصرية الفظّة، المركانتيلية، البيولوجية التجارية الإنكليزية الطراز. (وعلى فكرة فإن الاستبدال لصفات الجغرافيا المقدسة بصفات التطور المادي ـ التقني كان يمثل بالذات الجانب الأكثر سلبية من جوانب الوطنية ـ الاشتراكية والذي أودى بها في النهاية إلى الإفلاس السياسي والنظري بل وحتى العسكري) ولكن حتى بعد انهيار **الرايخ الثالث** لم ينته هذا الطراز من عنصرية «**الشمال** الغني» إلى الزوال من الحياة السياسية. بيد أن حامليه صاروا، بالدرجة الأولى، الولايات المتحدة ومشاركوها الأطلسيون في أوروبا الغربية. وبالطبع لا يقع التشديد في الأطروحات العالمية الأكثر حداثة، والمتعلقة بـ«**الشمال** الغني» على مسألة الصفاء البيولوجي والعرقي، ومع ذلك فـ«**الشمال**» الغني، في علاقته مع البلدان المتخلفة والنامية في العالم الثالث لا يزال يستعرض فوقيته «العنصرية» المميزة بالنسبة للاستعماريين ـ الإنكليز مثلما هي مميّزة لمتعصبي الوطنية الاشتراكية الألمان من خط روزنبرغ.

وفي واقع الحال يعني «**الشمال** الغني» من الناحية الجيوبولتيكية تلك الدول التي انتصرت فيها القوى المناوئة بصفة مباشرة **للتراث**، قوى الكم، المادية، الإلحاد، الاضمحلال الروحي والتحلل الروحي. «الغني» شيء يختلف جذرياً عن «النوردية الروحية» عن «الروح الهيبيربورية». فجوهر **الشمال** في الجغرافيا المقدسة

ـ هو سمو الروح على المادة والانتصار النهائي **والشامل للنور والعدالة والصفاء** على ظلمة الحياة الحيوانية، على استبداد الأهواء الفردية ودنس الأنانية المنحطة. وعلى العكس من ذلك يعني «**الشمال** الغني» الرفاه المادي المحض، المتعة، المجتمع الاستهلاكي، الجنة المصطنعة الكاذبة الخالية من المشاكل بالنسبة لأولئك الذين نعتهم نيتشه «بآخر البشر». لقد ترافق التقدم المادي للحضارة التقنية بتخلف روحي مريع للثقافة المقدسة الحق، ولهذا، فمن وجهة **نظر التقليد** لا يمكن أن يعد «ثراء» **الشمال** «المتطور» المعاصر معيار التفوق الأصيل على «الفقر» المادي والتخلف التقني «**للجنوب** البدائي».

وفضلاً عن هذا كثيراً ما يكون «فقر» **الجنوب** على المستوى المادي مرتبطاً بالحفاظ في أقاليمه الجنوبية على الصيغ المقدسة حقاً للحضارة، وهذا يعني أن ثراءً روحياً يستتر وراء هذا «الفقر». وعلى الأقل فإن حضارتين مقدستين لا تزالان تواصلان وجودهما في أراضي الجنوب حتى هذا اليوم، على الرغم من كل محاولات «الشمال الغني» (والعدواني) فرض معاييره وطرق تطويره على الجميع. وهذان هما ـ الهند الهندوسية والعالم الإسلامي. أما بالنسبة لتقاليد الشرق الأقصى فثمة وجهات نظر متباينة، لأن بعضهم يرون حتى تحت ستار الخطابية «الماركسية» و«الماويّة» بعض المبادىء التقليدية التي كانت دوماً محدّدة للحضارة الصينية المقدسة. ومهما يكن من أمر فحتى تلك المناطق الجنوبية المأهولة بشعوب تحتفظ بولائها للتقاليد المقدسة القديمة نصف المنسية فهي على أية حال إذا ما قورنت «بالشمال الغني» الذي أضفي عليه الإلحاد والمادية حتى النهاية القصوى تبدو شعوباً «روحية»، «صحية» و«طبيعية» بينما يبدو «**الشمال** الغني» من وجهة النظر الروحية «غير سوي» على الإطلاق، و«مريض».

6 ـ 12 مفارقة «العالم الثالث»

في المخططات العالمية يبدو «**الجنوب** الفقير» من الناحية الواقعية رمزاً. «للعالم **الثالث**» وقد سمي هذا العالم بـ«الثالث» في مرحلة الحرب الباردة، وهذا المفهوم نفسه كان يفترض أن «العالمين» الأوَّلين ـ الرأسمالي المتطور والسوفياتي الأقل تطوراً ـ هما الأكثر أهمية ورجحاناً، بالنسبة للجيوبولتيكا الكونية ـ من جميع المناطق المتبقية. ومن

الناحية المبدئية يحمل مصطلح «العالم **الثالث**» مفهوماً تحقيرياً فمن منطق نظرة «**الشمال** الغني» النفعية نفسها يسوّي مثل هذا التعريف دول «العالم **الثالث**» بالقواعد «السائبة» من المصادر الطبيعية والبشرية والتي لا يَحْسُنَ إلا إخضاعها واستغلالها واستخدامها في مصالح من يفعل ذلك. وإذا كان ذلك «**الشمال** الغني» يلعب بمهارة على الخصائص السياسية ـ الإيديولوجية والدينية «**للجنوب** الفقير» محاولاً أن يلحق بخدمة مصالحه المادية والاقتصادية البحتة تلك القوى والبُنى التي تتفوق بإمكاناتها الروحية كثيراً على المستوى الروحاني «**للشمال**» نفسه، وكان «**الجنوب**» دوماً يحقق النجاح في ذلك لأن نفس لحظة التطور الدورية في حضارتنا تيسّر الطريق للتوجهات الشذوذية غير السوية والمناقضة للطبيعة (فنحن طبقاً **للتقليد** نقع الآن في المرحلة الأخيرة من «العصر المظلم»، الكالي يوغي). فالهندوسية والكونفوشيوسية، والإسلام والتقاليد الأصيلة القديمة للشعوب «التي لم يعرف لها مثيل» ما كانت بالنسبة لغزاة «الشمال الغني» الماديين إلا عقبات دون تحقيق الأهداف، إلا أنها كثيراً ما استخدمت آفاقاً مختلفة للتراث من أجل التوصل إلى أهدافها التجارية ـ باللعب على التناقضات والخصائص الدينية أو المشاكل القومية. وما كان مثل هذا الاستخدام النفعي للتراث في أهداف لا تقليدية إلا شراً كبيراً يتجاوز الرفض المباشر للتقليد برمته، فأشد أنواع الفظاعةِ ـ جَعْل العظيم يعمل في خدمة التافه.

وفي واقع الحال فإن «الجنوب الفقير» «فقير» على المستوى المادي بفعل توجهه الروحي المميّز الذي يخصص دوماً للمكوِّنات المادية للوجود حيزاً ثانوياً قليل الأهمية. وفي الملامح العامة حافظ **الجنوب** الجيوبولتيكي في عصرنا هذا على علاقة تقليدية صرفة بموضوعات العالم الخارجي ـ علاقة هادئة، محيّدة ولا مبالية في نهاية المطاف ـ وفي تناقض مباشر مع الهوس المادي «**للشمال** الغني» على الرغم من جنونه المادي والمتعي. وأهل «**الجنوب** الفقير في الحالة العادية، وهم يعيشون التقليد فإنهم حتى الآن يعيشون بصورة أكثر كمالاً وعمقاً بل وأكثر **بذخاً** لأن مشاركتهم الفعالية في التقليد المقدس تضفي على **كافة** آفاق حياتهم الخاصة ذلك المغزى، وتلك الحرارة وذلك التشبّع الذي حرم منه، ومنذ زمن بعيد، ممثلو «**الشمال** الغني»، الممزقون بالعصبية، بالرعب المادي والفراغ الداخلي، وبالخلو الكامل للوجود والذي لا يمثل إلا مشكالاً رخواً من لويحات لماعة فارغة من المضمون.

كان بوسعنا القول إنّ العلاقة بين **الشمال والجنوب** في الأزمنة الأولى كانت مناقضَة بصورة كلية للعلاقة بينهما في عصرنا الحاضر، لأن الجنوب بالذات لا يزال يحافظ اليوم على علاقاته مع **الموروث** بينما ضيعها الشمال بصفة نهائية. ومع كل ذلك فإن هذه الفرضية لا تغطي بصورة تامة كمال اللوحة الحقيقية، لأن **الموروث** الحقيقي لا يمكنه أن يسمح باتخاذ مثل هذا المسلك المهين نحوه والذي يمارسه «**الشمال** الغني» الإلحادي ـ العدواني نحو «العالم **الثالث**» والمسألة أن **التقليد** لا يبقى في **الجنوب** إلا بقوة الاستمرار وبشكل مجزوء مفتت. إنه سيشغل موقفاً سلبياً ولا يقاوم إلا من خلال الدفاع عن نفسه. ولهذا لا ينتقل الشمال الروحي في نهاية الأيام إلى **الجنوب** بصفة كاملة، ففي **الجنوب** فقط تتجمع وتحفظ الدوافع الروحية التي جاءت في يوم ما من **الشمال** المقدس. وبصفة مبدئية لا يمكن للمبادرة التقليدية الفعالة أن تنطلق من **الجنوب**. وعلى العكس من ذلك استطاع «**الشمال**» العولمي «**الغني**» أن يعزز تأثيره الضار على الكرة الأرضية إلى درجة كبيرة بفضل نفس خاصية المناطق الشمالية المهيأة للفعالية. لقد كان **الشمال** ولا يزال موطن القوة على العموم ولهذا تملك المبادرات الجيوبولتيكية القادمة من الشمال فعالية حقيقية.

يملك «**الجنوب** الفقير» اليوم كافة الأفضليات الروحية أمام «الشمال الغني» لكن إزاء ذلك لا يمكن أن يكون البديل الجاد للعدوانية الدنسة من طرف «**الشمال** الغني» ولا يمكنه أن يطرح المشروع الجيوبولتيكي الجذري القادر على خرق اللوحة المَرَضية للمدى الكوني المعاصر.

6 ـ 13 دور «العالم الثاني»

في اللوحة الجيوبولتيكية الثنائية القطبين ـ إلى جانب «الشمال الغني» ـ «الجنوب الفقير» دوماً مرافق إضافي مستقل بمعناه وعلى غاية من الأهمية، وهو «العالم الثاني». ودُرج على أن يفهم من «العالم الثاني» المعسكر الاشتراكي الذي تكامل بالنظام السوفياتي. ولم يكن هذا «العالم الثاني» **شمالاً** غنياً بحق وصدق لأن بواعث روحية معينة كانت بشكل خفي تترك أثرها على الإيديولوجيا المادية اسمياً، للاشتراكية السوفياتية، ولا كان عالماً **ثالثاً** بحق وصدق، لأن التوجه نحو

التطور المادي، و«التقدم» وغير ذلك من المبادىء الدنسة كانت تستقر في أساس النظام السوفياتي. ثم إن الاتحاد السوفياتي الأوراسي كان يتوضع من الناحية الجيوبولتيكية على أراضي «آسيا الفقيرة» مثلما كان على أراضي أوروبا «المتحضرة» إلى حد ما. وخلال العهد الاشتراكي كان الحزام الأرضي «**للشمال** الغني» مقطوعاً شرقي الأوراسيا، معقداً بذلك شفافية العلاقات الجيوبولتيكية المتبادلة وفق محور **الشمال ـ الجنوب**.

نهاية «العالم الثاني» كحضارة خاصة تفترض بالنسبة للآماد الأوراسية للاتحاد السوفياتي السابق أحد خيارين ـ إما أن تتكامل مع «**الشمال** الغني» (الذي يمثله الغرب والولايات المتحدة) وإما أن تنزلق نحو «الجنوب الفقير»، أي تتحول إلى «عالم **ثالث**». ومن الممكن أيضاً طرح احتمال تساومي ينصرف بموجب جزء من المناطق إلى «الشمال» وآخر إلى «**الجنوب**» ومثلما كان الأمر خلال القرون الأخيرة كانت المبادرة الخاصة بتقسيم الأراضي الجيوبولتيكية في هذه العملية تعود إلى «**الشمال** الغني» الذي كان، ومن خلال استخدامه الصفيق لمفارقات نظرية «العالم الثاني» نفسها، يرسم خطوط الحدود الجيوبولتيكية الجديدة ويعيد توزيع مناطق النفوذ. ولا تعني العوامل القومية والاقتصادية والدينية بالنسبة للعولميين إلا وسائل لخدمة نشاطهم المنحط، المبرر عميقاً بالدوافع المادية، فليس عجيباً أن تستخدم كثيراً إلى جانب الخطابية «الإنسانية» الكاذبة وبصورة علنية تقريباً حجج «عنصرية» كرست لتوحي للروس بعقدة «الغطرسة» البيضاء نحو الجنوبيين الآسيويين والقوقازيين. وقد نيطت بذلك عملية عكسية ـ هي أن يترافق القذف النهائي بالأراضي الجنوبية «للعالم الثاني» إلى **الجنوب** الفقير باللعب على الميول الأصولية، على انجذاب الناس إلى **التقليد**، إلى انبعاث الدين.

إن «العالم الثاني» من خلال انهياره، يتفتت وفقاً لخط «**التقليد**» (النمط الجنوبي، اللاعقلاني، المحافظ) ـ والخط «**المعادي للتقليد**» (النمط الشمالي الفعال، الحداثي والمادي). وهذه الثنائية التي لم تلاحظ إلا اليوم لكنها ستغدو في المستقبل العاجل ظاهرة مسيطرة للجيوبولتيكا الأوراسية، وسيحددها توسع الفهم الكوني للعالم ضمن مصطلحي «**الشمال** الغني» ـ «**الجنوب** الفقير». ومحاولة إنقاذ المجال الكبير السوفياتي السابق، محاولة مجرد الحفاظ على «العالم الثاني» ككيان مستقل يتأرجح على الحدود بين الشمال والجنوب (في المفهوم المعاصر المحض)

لا يمكن أن تكلل بالنجاح حتى توضع موضع الشك نفس النظرية الأساسية للجيوبولَتيكا المعاصرة والتي تم فهمها ووعيها في صيغتها الواقعية، بمعزل عن كافة التصريحات الخداعة ذات الطابع الإنساني والاقتصادي.

«العالم الثاني» يتلاشى. ولم يعد له مكان في اللوحة الجيوبولتيكية المعاصرة. وفي الوقت نفسه يتنامى ضغط «**الشمال** الغني» على «**الجنوب** الفقير» الذي يبقى وجهاً لوجه أمام ماديّة الحضارة التكنوقراطية مع غياب المسافة البينية التي كانت قائمة حتى الآن ـ مسافة «العالم الثاني». ثمة مصير آخر غير التصديع الشامل وفق القواعد التي يمليها «**الشمال** الغني»، وهو ليس ممكناً بالنسبة «للعالم الثاني» إلا عبر الامتناع الجذري عن المنطق الكوني لقطب **الشمال ـ الجنوب** وقد أُخذ في أساسه العالمي.

6 ـ 14 مشروع «بعث الشمال» .

«الشمال» العولمي الغني يضفي الصفة الكونية على سيطرته على الكرة الأرضية عبر تصديعه «العالم الثاني» وتدميره. وهذا ما يسمى في الجيوبولتيكا المعاصرة بـ «النظام العالمي الجديد. فالقوى الفاعلة المعادية للتقليد تعزز انتصارها على المقاومة السلبية للمناطق الجنوبية بفعل التخلف الاقتصادي للمحافظين على التقليد وحمايته في صيغه المتخلفة. وطاقات «العالم الثاني» الجيوبولتيكية الضمنية أمام الخيار التالي: إما أن تتراصف ضمن نظام «الشريط الشمالي المتحضر» وتلقي بعيداً بارتباطاتها بالتاريخ المقدس (مشروع العولمة اليسارية) أو أن تتحول إلى أرض محتلة مع السماح لها ببعث جزئي لبعض عناصر التراث (مشروع العولمة اليمينية). في هذا الاتجاه بالذات تسير الأحداث اليوم وسوف تسير في المستقبل القريب.

وكشروع بديل يمكن، من الناحية النظرية، صياغة طريق آخر للتحولات الجيوبولتيكية قائم على نبذ منطق العولمة **الشمال ـ الجنوب** والعودة إلى روح الجغرافيا الصميمية المقدسة إلى الحدود الممكنة في نهاية العصر المظلم. وهذا مشروع «**العودة العظمى**» أو بمصطلح آخر «**الحرب الكبرى بين القارات**» .

ومؤدّى هذا المشروع في خطوطه العامة هو:

1 ـ **«الشمال الغني» يواجه لا «الجنوب الفقير» بل «الشمال الفقير». «الشمال الفقير»** ـ هو المثال الأمثل المقدس للعودة إلى المنابع النوردية للحضارة. ويبدو هذا الشمال «فقيراً» لأنه أقيم على التنسكية الشمولية، على الوفاء الجذري لقيم التراث العليا، على التضحية الصادقة بالمادي في سبيل الروحي. و «**الشمال** الفقير» لا يوجد جغرافياً إلا على أراضي روسيا التي تعد في جوهرها «عالماً **ثانياً**» ظل من الوجهة الاجتماعية ـ السياسية يقاوم، حتى اللحظة الأخيرة، القبول النهائي لحضارة العولمة في صيغها الأشد «عدوانية». والأراضي الأوراسية الشمالية في روسيا ـ هي الأراضي الكونية الوحيدة التي لم يستثمرها «الشمال الغني» حتى النهاية، والمأهولة بشعوب تقليدية وتشكّل الـterra incognita(*) للعالم المعاصر. وطريق «الشمال الفقير» يعني بالنسبة لروسيا رفض الانتظام في الشريط العولمي، ورفض تجميد التقاليد الخاصة أو الهبوط بها إلى الحد الفولكلوري للذخيرة الإتنية ـ الدينية. يجب أن يكون «**الشمال** الفقير» روحياً، عقلانياً، فعالاً وهجومياً. وفي مقاطعات أخرى من «**الشمال** الغني» يمكن تطبيق معارضة «**الشمال** الفقير»، وهو ما يمكن أن يتجلى في التخريب الجذري الذي تقوم به النخبة الغربية المثقفة ضمن النهج المؤسس لـ«حضارة البيّاعين» وفي الانتفاضة ضد عالم المال وفي سبيل القيم العريقة والخالدة للروح والعدالة والتضحية. و «**الشمال** الفقير» يبدأ حربه الجيوبولتيكية والايديولوجية مع «**الشمال** الغني» رافضاً مشاريعه، مفجراً مخططاته من الداخل ومن الخارج، مدمراً تأثيريته التي لا يأيتها الباطل، محطماً آلياته الاجتماعية ـ السياسية.

2 ـ **«الجنوب الفقير» غير قادر بصفته المستقلة على التصدى «للشمال الغني» يدخل في حلف جذري مع «الشمال الفقير» (الأوراسي) ويبدأ صراعاً تحررياً ضد الديكتاتورية «الشمالية»** . ومن المهم توجيه ضربة لممثلي ايديولوجية «**الجنوب** الغني» أي لتلك القوات التي تنادي، وهي تعمل لصالح «**الشمال** الغني» بـ«التطوير» و «التقدم» و «عولمة» البلدان التقليدية وهو ما سيعني من الناحية العملية الانصراف الأكبر عن بقايا التقليد المقدس.

3 ـ **«الشمال الفقير» للشرق الأوراسي إلى جانب «الجنوب الغني» الممتد**

(*) terra incognita (باللاتينية) ـ الأرض المجهولة (المترجم).

حول الكرة الأرضية بكاملها يركز قواه في الصراع ضد الشمال الغني للغرب الأطلَسي . وإزاء ذلك يوضع من الناحية الايديولوجية وإلى الأبد، حد للتصورات الفجة للعنصرية الانجلوساكسونية ولتمجيد «الحضارة التقنية للشعوب البيضاء» وما يرافقها من الدعاية العولمية (عبر آلين دي بينوا عن هذه الفكرة في تسميته لكتابه الشهير «العالم الثالث وأوروبا: متحدون في الصراع» «L'Europe, Tiers-monde meme-combat»، ومن الطبيعي أن الحديث فيه عن «أوروبا الروحية» ـ عن أوروبا الشعوب والتقاليد (لا عن أوروبا البياعين الماسترختية). إن عقلانية **الشمال** المقدس الأصيل وفعاليته وروحانيته تعيد تقاليد **الجنوب** إلى منبعها النوردي وتسمو بـ«الجنوبيين» إلى الثورة العالمية ضد العدو الجيوبولتيكي الطبيعي. وبهذا تكتسب مقاومة «الجنوبيين» السلبية نقطة اعتماد في رسالة «الشماليين» الكونية الذين يرفضون رفضاً جذرياً الفرع الثابت والفاسق لتلك الشعوب البيضاء التي سارت في طريق التقدم التقني والتطور المادي. وتتفجر الثورة الجيوبولتيكية العالمية ما فوق العرقية وما فوق القومية والقائمة على أساس التضامن الجذري «للعالم **الثالث**» مع ذلك الجزء من «العالم **الثاني**»، والذي يرفض مشروع «**الشمال** الغني».

الباب السابع

نصوص علماء الجيوبولتيكا الكلاسيكيين

المحور الجغرافي للتاريخ[1]

عندما يود أحد المؤرخين في المستقبل البعيد البحث في الأزمنة التي نعيشها الآن وفي تقديمها بصورة ملخصة على نحو ما نقوم به اليوم بصدد الأسر الحاكمة في مصر القديمة، فإن ما هو شديد الاحتمال أن يسمّي السنوات الأربعمئة الأخيرة بـ«عصر كولومبوس»، وسيقول إنه انتهى بُعيد سنة 1900. ومما صار أمراً مشتركاً في عصرنا الحاضر تناول الدراسات الجغرافية على أنها أمر مفروغ منه من الناحية العملية. كما ويُعد من الصواب أيضاً الانتهاء بالجغرافيا وبصفة استثنائية إلى العرض المدقق والتركيب الفلسفي. وعلى مدى أربعمئة عام اتخذت المواضع على الخارطة الجغرافية ارتسامات صحيحة ودقيقة إلى حد كاف بل وحتى في مناطق القطبين كليهما قَلّصت رحلات نانسن وسكوت(*) إلى حدّ كبير إمكانات تحقيق اكتشافات جديدة أو خارقة للعادة. وإلى هذا فإن بداية القرن العشرين تصنّف على أنها نهاية عصر تاريخي عظيم؛ وعلى فكرة فإن هذا لا يتعلق فقط بإنجازات ذلك

(*) نانسن، فريتوف (1861 ـ 1930) مكتشف نرويجي. قام بدراسة القطب الشمالي. في سنة 1888 كان أول من قطع غرينلاند على الزلاجات وفي 1893 ـ 1896 ترأس رحلة علمية على باخرة «فرام» (معناها: إلى الأمام) لدراسة القطب الشمالي. وفي 1914 ـ 1918 كان مبعوث الأمم المتحدة لشؤون أسرى الحرب. فاز بجائزة نوبل للسلام (1922) (المترجم).

سكوت روبرت (1868 ـ 1912) مكتشف إنجليزي ترأس بين 1901 ـ 1904 بعثة اكتشفت شبه جزيرة إدوارد السابع، وبين 1911 ـ 1912 بعثة ثانية اكتشفت القطب الجنوبي (بعد تأخر 33 يوماً عن اكتشاف النرويجي ر. آموندسون للقطب) وفي رحلة العودة توفي سكوت ورفاقه في عاصفة ثلجية (المترجم).

العصر مهما بلغ من عظمتها. لقد سار المبشر، والغازي، والصناعي، وعامل المنجم وأخيراً المهندس حرفياً على خطا الرحالة، وهذا ما يحملنا على القول بكل ثقة إن العالم كان حتى أقاصي أطرافه قد تم اكتشافه قبل أن نشرع في الحديث عن استيطانه. فمن الصعب العثور في أوروبا، أمريكا الشمالية والجنوبية، في أفريقيا أو أوستراليا على ذلك المكان الذي يمكن أن تضرب في أرضه الأوتاد إعلاناً عن الحق في استملاك ذلك القطاع. ذلك يمكن أن يتحقق فقط في مسيرة حرب بين دول متحضرة ونصف متحضرة. وحتى في آسيا يمكننا، وبالكاد أن نكون شهوداً على الفصول الأخيرة من المسرحية التي بدأها خيالة يرماك(*) والقوزاق وبحّارة ڤاسكو دي غاما. ويمكننا، للمقارنة، أن نواجه عصر كولومبوس بالعصور السابقة مستعرضين، بصفة الملمح المميّز لها، توسع أوروبا التي ما لقيت من الناحية العملية أيّة مقاومة بينما حشرت المسيحية القروسطوية ضمن إطار منطقة صغيرة وكانت تحت تهديد الهجوم الخارجي للبرابرة. وبداية من هذا اليوم وما بعده سنكون مضطرين، بالنسبة للعهد ما بعد الكولومبي، إلى التعامل مع نظام سياسي مغلق، ومما هو شديد الاحتمال أن يكون لهذا النظام أبعاد عالمية. فبدلاً من أن ينتشر كل انفجار للقوى الاجتماعية في المجال المجهول المحيط وفي فوضى البربرية ـ سرعان ما يرتد صدى قوياً من الطرف المقابل من الكرة الأرضية، وهذا ما سيفضي بالنتيجة إلى أن تؤول كافة العناصر الضعيفة في الجهاز السياسي والاقتصادي للأرض إلى الدمار. وثمة فرق كبير بين أن تسقط القذيفة في حفرة وبين أن تسقط في مجال مغلق وسط الهياكل القاسية لمبنى كبير أو سفينة. ومما هو جائز أن يصرف حتى الفهم الجزئي لهذه الحقيقة اهتمام الشخصيات الحكومية عن التوسع الترابي وأن يجبرهم على التركيز على الصراع في سبيل إبداع يتم الاتفاق عليه.

لهذا يتراءى لي بأننا في السنوات العشر الحالية نجد أنفسنا، ولأول مرة، في الوضع الذي نتمكن فيه من إقامة الصلة، بقدر معين من التحديد، بين التعميمات

(*) يرماك تيموفيبڤتش (؟ ـ 1585)، فارس من القوزاق، بدأ استيطان سيبيريا بحملته التي دخل بها تلك الأصقاع الشمالية حوالي سنة 1585. قتل في معركة مع الخان كوتشوم. ويرماك أحد أبطال الأغاني الشعبية الروسية (المترجم).

الجغرافية والتاريخية. وبمقدورنا لأول مرّة من أن نتلمس بعض الأحجام الفعلية بالنسبة للأحداث الجارية على الصعيد العالمي، وأن نوضح المعادلة التي تعبر بهذه الصفة أو تلك عن آفاق معينة في الاشتراطية الجغرافية للتاريخ العالمي. وإذا ما أسعدنا الحظ فستكتسب هذه المعادلة قيمة عملية ـ ويغدو ممكناً بمساعدتها حساب آفاق تطور بعض القوى المتنافسة في الحياة السياسية الدولية الحالية. والعبارة المشهورة والقائلة بأن الإمبراطورية تنتشر باتجاه الغرب ليست إلا محاولة تجريبية من هذا القبيل. ولهذا فإنني أود اليوم أن أصف تلك الملامح الفيزيائية المميّزة للعالم، والتي ترتبط، في رأيي، ارتباطاً وثيقاً بالنشاط الإنساني وأن أستعرض بعض مراحل التاريخ الأساسية، المتصلة بها اتصالاً عضوياً، وذلك حتى عندما لم تكن بعد معروفة بالنسبة للجغرافيا. وأنا لا أهدف على الإطلاق إلى مناقشة هذا العامل أو ذاك ولا أن أدرس الجغرافيا الإقليمية، بل أقرب ما أصبو إليه أن أبسط تاريخ الإنسانية كجزء من حياة الكيان العالمي. وأعترف بأن ليس في مقدوري التوصل إلا إلى وجه واحد من وجوه الحقيقة كما إنني لا أعاني من الرغبة في الاستغراق كلياً في المادية. فالمبادرة يبديها الإنسان لا الطبيعة، بيد أن الطبيعة بالذات هي التي تحقق الرقابة إلى حد بعيد. واهتمامي منصب بالدرجة الأولى على ميدان دراسة العامل الطبيعي العام أكثر منه على ميدان أسباب التاريخ العام. ومما هو جلي للعيان أن أقصى ما يمكن عقد الأمل عليه هو الاقتراب الأولي من الحقيقة ولهذا السبب فإنني بكل طواعية أتقبل جميع ملاحظات منتقديّ.

كان البروفيسور الراحل فريمان يقول إن التاريخ الوحيد الذي يستحق الدراسة هو تاريخ عروق البحر الأبيض المتوسط وأوروبا. وهذا إلى حد ما صحيح بالطبع، ولكن بين هذه العروق بالذات ولدت الأفكار المؤدية إلى أن يغدو أحفاد اليونان والرومان المسيطرين على العالم كله. إلا أن مثل هذا التحديد لا بد له في سياق لا يقل أهمية، من أن يزحم الفكرة. والأفكار التي تكوّن الأمة كنقيض لجمهور بسيط من الكائنات البشرية، يتم اعتناقها في العادة تحت ضغط كارثة جماعية أو عند الضرورة المشتركة لمقاومة قوة خارجية. ففكرة انكلترا كانت قد أدخلت في دول غيبتارهيا من طرف الغزاة الدانمركيين والنورمان، وفكرة فرنسا فرضها الهون على الفرانك والغوت والرومان الذين كانوا يتجادلون فيما بينهم في

المعركة بالقرب من شالون. ثم فيما بعد أيام حرب المئة عام(*) مع انجلترا، وفكرة المسيحية انبثقت من الاضطهاد في الإمبراطورية الرومانية وأُوصلت إلى خاتمتها المنطقية في مرحلة الحروب الصليبية. ولم يتم اعتناق فكرة الولايات المتحدة الأمريكية ـ مع مشاركةِ وطنيةِ المستعمرين المحلية ـ إلا أيام حرب الاستقلال الطويلة؛ وقد تم قبول الإمبراطورية الألمانية، وبدون رغبة مع ذلك، في ألمانيا الجنوبية بعد صراعها مع فرنسا المتحالفة مع ألمانيا الشمالية. وذاك الذي أستطيع وصفه كتصور أدبي للتاريخ، يمكن أن يُسقط على غير إرادة منه، الحركات الابتدائية والتي لعب ضغطها دوره الباعث الموقظ في الجو الذي غرست فيه الأفكار الكبرى. شخصية ما تثير الاشمئزاز تؤدي وظيفة اجتماعية مهمة في توحيد أعدائها حتى إن أوروبا ما تمكنت من إقامة حضارتها إلا بفضل ضغط البرابرة الخارجيين. ولهذا السبب أطلب منكم أن تنظروا إلى أوروبا وإلى التاريخ الأوروبي على أنهما ظاهرة خاضعة لآسيا وتاريخها، لأن الحضارة الأوروبية إلى حد كبير نتيجةُ الصراع الأبدي ضد الهجمات الآسيوية.

والتناقض الأهم الذي نلاحظه على الخارطة السياسية لأوروبا المعاصرة ـ هو التناقض الذي تمثله الآماد الشاسعة لروسيا التي تشغل نصف هذه القارة من جهة ومجموعة المساحات الأصغر حجماً والتي تشغلها الدول الأوروبية الغربية ـ من جهة أخرى. ومن الطبيعي أن ثمة، من وجهة النظر الفيزيائية، تناقضاً مشابهاً أيضاً بين وهاد الشرق غير المحروثة وبين ثروات الجبال والوديان والجزر وأشباه الجزر التي تمثل في مجموعها القسم المتبقي من هذه المنطقة من الكرة الأرضية. وقد

(*) حرب المئة عام (1337 ـ 1453) بين إنجلترا وفرنسا. كان سببها حرص انجلترا على الاحتفاظ بالأراضي التي كانت لها شمالي فرنسا منذ القرن الثاني عشر، وكان السبب المباشر دعاوى الملك الانجليزي إدوارد الثالث، وهو حفيد الملك الفرنسي فيليب الرابع، بأحقيته في عرش فرنسا. بدأت الحرب بانتصارات الإنجليز في معارك عديدة انتهت بصلح بريتان (1360) الذي ثبّت حق انجلترا في الاحتفاظ بالقسم الأكبر من الأراضي الفرنسية ثم تمّ إجلاؤهم في سبعينيات القرن الرابع عشر عن كامل التراب الفرنسي تقريباً. وبالتعاون مع البورغونيين تمكن الإنجليز بعد ذلك من احتلال الشمال الفرنسي بعد معركة ازينكور (1415). ثم كانت الثورة الشعبية في فرنسا بقيادة جان دارك واستطاعت أن تفك الحصار عن أورليان (1422). وانتهت الحرب بالإجلاء النهائي للأنجليز عن بوردو (1453) ولم يبق لهم في الأراضي الفرنسية غير كاليه (حتى سنة 1558) (المترجم).

يتراءى لكم للوهلة الأولى أن في هذه الحقائق المعروفة تتضح أمامكم تلك العلاقة البالغة الوضوح بين الوسط الطبيعي والتنظيم السياسي والتي بالكاد تستحق الحديث عنها، وبخاصة إذا ما أشرنا إلى أن الشتاء البارد في السهل الروسي يقابل الصيف الحار، وعلى هذا فإن شروط الوجود البشري تحمل رتابة إضافية إلى الحياة. ومع كل هذا فإن عدداً من الخرائط التاريخية التي يتضمنها أطلس أوكسفورد ـ على سبيل المثال، يظهر لنا أن التلاقي الفج للقسم الأوروبي من روسيا مع السهل الأوروبي الشرقي ليس أمراً عابراً، ولم يحدث هذا خلال المئة سنة الأخيرة، وإن الأزمنة الأقدم عرفت هنا توجهاً مخالفاً تماماً في التوحد السياسي. مجموعتان من الدول تولتا في العادة تقاسم هذه البلاد في نظامين سياسيين شمالي وجنوبي. ذلك أن الخرائط الجغرافية لا تعكس تلك الخصوصية الطبيعية التي بقيت حتى الأحقاب المتأخرة تتحكم في تنقلات الإنسان وتوزعه فوق الأراضي الروسية. عندما ينسحب الغطاء الثلجي من هذه السهول الواسعة بصورة تدريجية نحو الشمال تحل محله الأمطار التي تزداد قوة في شهري أيار وحزيران بصفة خاصة على شطآن البحر الأسود بينما لا تهطل في منطقة البلطيق والبحر الأبيض إلا في تموز وآب على الأكثر. وفي الجنوب يهيمن صيف طويل جاف. وبنتيجة هذا النظام المناخي صارت المناطق الشمالية والشمالية الغربية مغطاة بغابات نادراً ما تتخلل أدغالها البحيرات والمستنقعات بينما يمثل جنوبها وجنوبها الشرقي سهوباً عشبية لا نهاية لها وحيث لا يمكن رؤية الأشجار إلا على ضفاف الأنهار. والخط الفاصل بين هاتين المنطقتين يتجه بانحراف قطري نحو الشمال الشرقي بادئاً من الطرف الشمالي للكاربات ومنتهياً عند المناطق الجنوبية للأورال أكثر منه عند جزئها الشمالي. وخارج حدود روسيا تنطلق حدود هذه الغابات الشاسعة نحو الغرب مخترقة بصفة تقريبية قلب البرزخ الأوروبي الذي يعادل عرضه (أي مجموع المسافة بين بحري البلطيق والأسود) 800 ميل. ومن خلفه ـ على المساحة الأوروبية المتبقية تغطي الغابات سهول ألمانيا إلى الشمال بينما تشكل السهوب في الجنوب حوض ترانسلفانيا الكبير عند الكاربات وتمتد حتى الدانوب ـ هناك حيث تتماوج الحقول الرومانية وحتى البوابة الحديدية(*) والمنطقة السهبية المنفصلة والمعروفة بين

(*) البوابة الحديدية: مضيق على نهر الدانوب على الحدود بين يوغسلافيا ورومانيا. يقع =

السكان المحليين باسم «بوشتا» والتي تستغل بفعالية في أيامنا هذه قد شغلت السهل المجري، وتؤطره سلسلة الجبال الكارباتية والألبيّة الغابيّة. أما في غربي روسيا، وباستثناء الشمال القاصي، فإن استئصال الغابة وتجفيف المستنقعات واستصلاح الأراضي غير المستصلحة قد حدد منذ فترة غير بعيدة نسبياً طابع السطح الأرضي وقضى على ذلك التفاوت الذي كان شديد البروز فيما سبق.

ظهرت روسيا وبولندة على مساحات مغطاة بالغابات. وبالإضافة إلى هذا كانت تتوجه عبر السهوب إلى هذا المكان، من النقاط المنفصلة والمجهولة في آسيا، ونحو بوتقة شكلتها جبال الأورال وبحر قزوين منذ القرن الخامس وحتى السادس عشر، زحوف لا نهاية لها من البداة الطورانيين: من الهون، الآفار، البولغار، الماديار، الخزر، البيتشينيغ، الكومان، المنغول والكالميك. وخلال حكم أتيلا(*) تجذر الهون في مركز البوشتا والجُزَيْرات «الدانوبية» الأكثر تباعداً في السهوب، ومن هناك كانوا يشنون غاراتهم على الشمال والغرب والجنوب على سكان أوروبا المستقرين. والقسم الأكبر من التاريخ المعاصر يمكن أن يكتب كهوامش على التغيرات التي حدثت بطريقة مباشرة أو غير مباشرة نتيجة لهذه الغارات. ومما هو محتمل كل الاحتمال أن الإنجل والساكس قد أجبروا في هذه المرحلة بالذات على عبور البحر وإقامة انجلترا على الجزر البريطانية. ولأول مرة وجد الفرانك والغوت وسكان الأطراف الرومانية أنفسهم مجبرين على الوقوف كتفاً إلى كتف في ساح المعركة قرب شالون يحدوهم هدف مشترك هو الحرب ضد الآسيويين، وبهذه الطريقة أقاموا فرنسا المعاصرة بطريقة لا إرادية. وبنتيجة تدمير أكفيليا وبادْوا أقيمت فينيسيا، بل وإن البابوية مدينة بهيبتها المهولة لوساطة البابا ليف الناجحة خلال لقائه مع أتيلا في ميلانو. تلك كانت النتيجة التي أحدثها جمهور من الخيالة الذين لا يعرفون الرحمة ولا يملكون أي تصور عن الحضارة

= في منطقة جردان الممتدة بين الجبال على نهر الدانوب بطول 120 ك.م وعرض يصل إلى 150 متراً (المترجم).

(*) أتّيلا (؟ ـ 1453) كان منذ سنة 434 قائد قبائل الهون التي قامت بزحوفها المدمرة على القسم الشرقي من الامبراطورية الرومانية (في سنوات 443، 447، 448) وبلاد الغال وشمالي إيطاليا (454) وحقق اتحاد الهون في عهده أعلى درجات قوته (المترجم).

والذين أغرقوا السهول غير الخاضعة لحُكْم ـ تلك كانت ضربة هوت بها المطرقة الآسَيوية بحرية على آماد غير مأهولة. ثم جاء الآقار بعد الهون. ومن خلال الصراع معهم أقيمت النمسا، وبنتيجة حملات شارلمان الكبير(*) تم تدعيم ڤيينا. ثم جاء الماديار وبفضل هجماتهم التي لا تتوقف من داخل معسكراتهم السهبية المقامة على أراضي المجر ضاعفوا من أهمية النقطة النمساوية المتقدمة، وبذلك نقلوا البؤرة من ألمانيا إلى الشرق نحو حدود هذه المملكة. وقد تحول البولغار إلى طبقة حاكمة في الأراضي الممتدة جنوبي الدانوب، فطبعوا اسمهم على خارطة العالم على الرغم من أن لغتهم ذابت في لغة رعاياهم السلافيين. ولعل الأطول مدة والأشد تأثيراً في السهوب الروسية كان توضّع الخزر الذين عاصروا حركة السراسين(**) العظمى: وكان الجغرافيون العرب يعرّفون قزوين ببحر الخزر. ولكن في نهاية المطاف دخلت جحافل جديدة من منغوليا، وعلى مدى مئتي سنة ظلت الأراضي الروسية الممتدة في الغابات شمالي المناطق المشار إليها تدفع الجزية للخانات المغول أو «للسهب»، وعلى هذا ففي هذه المرحلة بالذات تم تعويق تقدم روسيا وتشويهه بينما كانت بقية أوروبا تتقدم بخطى سريعة إلى الأمام.

وتجدر الإشارة أيضاً إلى أن الأنهار المنطلقة من هذه الغابات إلى البحرين الأسود وقزوين تجري معارضةً لمجموع الطريق السهبي للرحّل وأنه بين الفينة والفينة وعلى طول مجاري هذه الأنهار ـ كانت تدور تحركات عابرة مواجهةً لزحوف هؤلاء الخيالة. فمبشرو الكنيسة اليونانية اتجهوا صعداً عبر الدنيبر حتى كييف على نحو ما قام به الڤارياغ الشماليون قبل فترة قصيرة عندما انحدروا في

(*) شارلمان الكبير (عن الاسم اللاتيني Carolus magnus) (742 ـ 814)، فرنسي من أسرة الكارولنجيين، ملك منذ 768 وامبراطور منذ 800. أدت فتوحاته إلى إنشاء امبراطورية كبرى في أوروبا وكان من سياسته إخضاع الكنيسة وتطبيق الإصلاحات في الجيش والقضاء. وأعانت هذه الإجراءات على إقامة العلاقات الإقطاعية في أوروبا الغربية. هناك سفارات ودية بينه وبين الخليفة العباسي هارون الرشيد. تقاسم أحفاده الثلاثة الامبراطورية من بعده بموجبه اتفاقية ڤردان (سنة 843) (المترجم).

(**) السراسين: وتعني العرب وأحياناً المسلمين. وعلى الرغم من أن بعض المصادر الأوروبية تنسب «السراسين» إلى «كلمة» «الشرقيين» العربية، فإن مضمونها غير بريء من التحامل والاستهانة (المترجم).

النهر نفسه في طريقهم إلى القسطنطينية. إلا أن قبيلة الغوت الجرمانية كانت قد ظهرت قبل ذلك ولفترة قصيرة على شطآن الدنيبر منطلقة عبر أوروبا من شطآن البلطيق في نفس الاتجاه الجنوبي ـ لكن ما هذا كله إلا لوحات عابرة وهي مع ذلك لا تلغي إمكانية التعميمات الواسعة. فعلى مدار عشرة قرون خرجت بضع موجات من الخيالة ـ الرحل من آسيا عبر الممر العريض بين الأورال وقزوين فقطعت الآماد المفتوحة لجنوب روسيا واتخذت مكان إقامتها الدائم في المجر فوصلت بهذا إلى حبة قلب أوروبا حاملة بذلك إلى تاريخ الشعوب المجاورة لهؤلاء الخيالة لحظة المواجهة المؤكدة: ذاك ما كان بالنسبة للروس وللجرمان والفرنسيين والإيطاليين واليونان البيزنطيين. وكونهم أثاروا ردّة فعل صحيّة وقوية بدلاً من المعارضة المدمرة في وجه الاستبدادية المنتشرة على نطاق واسع، صار أمراً ممكناً يعود الفضل فيه إلى أن حركية دولتهم كانت مشروطة بالسهب نفسه وكانت تتلاشى بصفة مؤكدة عند ظهور الجبال أو الغابات من حولهم.

مثل هذه الحركية للدولة كانت أيضاً من خصائص البحارة الڤايكنغ(*). فبعد انحدارهم من سكاندينافيا إلى شاطىء أوروبا الجنوبي والشمالي كانوا يرشحون إلى أراضيها مستخدمين الطرق النهرية لذلك. إلا أن مجال تحركاتهم كان محدوداً فما كانت سلطتهم، إذا ما تم قول الحق، تمتد إلا إلى المناطق الملاصقة مباشرة للماء. وعلى هذا فإن سكان أوروبا المستقرين كانوا يجدون أنفسهم محصورين بالكلابات بين الآسيويين الرحل من الشرق وقراصنة البحار المنقضين من الجهات الثلاث. وبفضل طبيعتهم ما كان أي جانب من هذين الجانبين بقادر على أن يقهر الجانب الآخر، ولهذا تركوا أثراً تحريضياً. وتنبغي الإشارة إلى أن التأثير التكويني للسكاندينافيين كان يقف في الدرجة الثانية بعد التأثير المشابه له من طرف الرحل، فبفضلهم بالذات بدأت انجلترا وفرنسا طريقهما الطويل نحو الوحدة الذاتية، بينما سقطت إيطاليا الموحدة تحت ضرباتهم. لقد كان بمقدور روما في الماضي البعيد

(*) الڤايكنغ ـ السكاندينافيون القدماء؛ قاموا بحملات بحرية في أوروبا بهدف التجارة والنهب والاحتلال بين نهاية القرن الثامن والحادي عشر. سمّوهم بالڤارياغ في روسيا وبالنورمان في أوروبا. احتلوا شمالي شرق انكلترا في القرن التاسع وشمال فرنسا (نورمانديا) في العاشر وبلغوا حتى شمال أمريكا (المترجم).

أن توحد سكانها باستخدام الطرق لهذه الغاية، إلا أن الطرق الرومانية كانت قد آلت آنذاك إلى الإنهيار ولم يجر تبديلها حتى القرن الثامن عشر.

ويبدو أن حملة الهون نفسها لم تكن الأولى في هذه السلسلة «الآسيوية». فمن المرجح أن الصقالبة، الذين كانوا وفق أحاديث هوميروس وهيرودوت يتغذون بحليب الخيل، كانوا يمارسون نمط الحياة نفسه وينتمون إلى نفس العرق الذي ينتمي إليه أهل السهب المتأخرون. فالعناصر الكلتية في مسميات الأنهار ـ الدون، الدونتس، الدنيبر، الدنيستر والدانوب يحتمل أن تكون مفاهيم محدّدة لدى أناس متشابهين في العادات وإن لم ينتموا إلى عرق واحد. بيد أنه ليس ثمة ما يشير إلى أن الكلتيين جاؤوا من الغابات الشمالية كما فعل غوت وڤارياغ الأزمنة التالية. ومع ذلك فإن شطراً هائلا ممن يسميهم الانتروبولوجيون بالبراهيكيفال ممن دُفعوا باتجاه الغرب من آسيا البراهيكيفالية عبروا أوروبا الوسطى حتى فرنسا قد توطن، وفق ما هو محتمل، بين المجموعات الشمالية، الغربية والجنوبية من السكان الدوليهوكيفاليين(*)، ومن المحتمل جداً أن يكون منحدراً من آسيا.

هذا بينما يبدو تأثير آسيا على أوروبا غير ملموس حتى اللحظة التي نبدأ فيها الحديث عن الاختراق المنغولي للقرن الخامس عشر، والحق أن من المرغوب فيه قبل أن نبدأ بتحليل الوقائع المتعلقة بهذا في مجموعه، أن نبدّل وجهة نظرنا «الأوروبية» بكيفية تسمح لنا بتصور «العالم القديم» بكل تكامله. وما دامت كمية الأمطار ترتبط بالبحر فإن وسط الكتل الأرضية الكبرى، جاف من الناحية المناخية إلى حد ملموس. ولهذا ليس مما يثير الاستغراب أن يكون ثلثا سكان الكرة الأرضية متركزين في مناطق غير واسعة نسبياً وممتدة على أطراف القارات الكبرى ـ بجوار المحيط الأطلسي في أوروبا، وبقرب المحيطين الهندي والهادي في الهند والصين، وعبر مجموع الشمال الأفريقي وحتى جزيرة العرب يمتد شريط عريض من الأراضي غير المأهولة بسبب انعدام الأمطار من الناحية العملية. وعلى نفس الشاكلة كانت أفريقيا الوسطى والجنوبية خلال الشطر الأكبر من تاريخيهما

(*) البراهيكيفالي والدوليهوكيفالي: (من اليونانية Kephale: الرأس) ـ مصطلحان انتروبولوجيان يحدّدان عرض الرأس البشري بالنسبة لطوله ففي الأول تكون نسبة العرض إلى الطول 81٪ أما في الثاني فهي أقل من 75٪ (المترجم).

مقطوعتين أيضاً عن أوروبا وعن آسيا انقطاع أمريكا عن أوستراليا. وفي الواقع فإن الحدود الجنوبية لأوروبا كانت ولا تزال الصحراء الكبرى أكثر منها البحر الأبيض المتوسط ما دامت هذه الصحراء بالذات هي التي تفصل البيض عن السود. والأراضي الهائلة في الأورو ـ آسيا والواقعة على هذه الحالة بين المحيط والصحراء تضم 000 21000 ميل مربع أي نصف مجموع الأراضي في الكرة الأرضية إذا ما أسقطنا من حساباتنا الصحراء الكبرى وجزيرة العرب. وهناك عدد كبير من المناطق الصحراوية المتفرقة والمتبعثرة على مجموع مساحة آسيا، من الشام وفارس في الشمال الشرقي باتجاه منغوريا إلا أننا لا نجد بينها تلك الصحاري التي يمكن مقارنتها بالصحراء الكبرى. ومن ناحية أخرى تتميّز الأورو ـ آسيا بتوزع ممتاز لمجاري الأنهار. وعلى القسم الأعظم من الشمال والوسط كانت هذه الأنهار، من الناحية العملية، عديمة الفائدة بالنسبة لأهداف التواصل الإنساني مع العالم الخارجي. فالڤولغا وأوكس وياكسارت تصب في بحيرات مالحة؟ ويصب أوب، يينيسي ولينا ـ في المحيط البارد الشمالي. في العالم ستة أنهار كبرى. وفي هذه المناطق عدد كبير من الأنهار التي، على الرغم من كونها أصغر إلا أنها ذات أهمية كبرى مثل نهري تاريم وهيلموند اللذين لا يصبّان أيضاً في المحيط. وعلى هذا فإن مركز الأورو ـ آسيا المرقش بنُقيطات الصحراء، هو في مجموعه أرض سهبية تمثل مراعي واسعة وإن كانت في الأكثر شحيحة، وحيث لم يعد هناك ولو عدد من الواحات المروية بالأنهار، بيد أن من الضروري التأكيد مرةً أخرى على أن أراضيها بمجموعها ليست مخترقة مع ذلك بالطرق المائية المنطلقة إلى المحيط. وبكلمة أخرى فإننا في هذه المنطقة الواسعة أمام كافة الشروط الملائمة لتثبيت عدد قليل جداً، ولكن ذي أهمية ملموسة، من السكان الرحل المتنقلين على الخيل والجمال. أما في الشمال فمملكتهم مقيدة بشريط عريض من الغابات والمستنقعات المجاورة للقطبية، حيث الطقس باستثناء الأطراف الغربية والشرقية، بالغ القسوة بالنسبة لتطوير المستوطنات الزراعية. والغابات في الشرق تصل حتى شطآن المحيط الهادي على طول نهر آمور، نحو منغوريا. والأمر نفسه في الغرب أيضاً، ففي أوروبا ما قبل التاريخ كانت الغابات تشغل الأراضي الأساسية. والسهوب التي قيدت على هذا الأساس من الشمال ـ الشرقي، ومن الشمال والشمال ـ الغربي، تنبسط دون انقطاع على امتداد 4000 ميل من البوشتا المجرية وحتى الغوبي

(الصحراء) الصغرى في منغوريا، وباستثناء الجزء المتطرف نحو الغرب لا تعبرها الأنهار الجارية نحو المحيط الذي يمكنها بلوغه. ولهذا فبوسعنا ألا نلقي بالاً إلى الجهود غير البعيدة العهد والموجهة إلى تطوير التجارة في مصبي نهري أوب وينيسي. وفي أوروبا، وسيبيريا الغربية وتركمانستان الغربية ينبسط السهب على مستوى البحر بل وأدنى من مستواه في بعض الأماكن. وهو عند مسافة أبعد نحو الشرق، في منغوليا، يمتد في صورة نجود، إلا أن الانتقال من مستوى إلى آخر فوق المناطق السهلية المنخفضة العارية من الأراضي المركزية الجافة لا يمثل مصاعب تذكر.

والجحافل التي تهاطلت في نهاية المطاف على أوروبا في منتصف القرن الرابع عشر كانت تحشد قواها على مسافة 3000 ميل منها، في سهوب منغوليا العليا. وألوان الدمار التي تم إحداثها على مدار عدد من السنين في بولندة، سيليزيا، مورافيا، المجر، كرواتيا وصربيا، كانت، مع ذلك، النتائج الأبعد مدى والأسرع زوالاً للاجتياح الكبير الذي قام به رحّالة الشرق والذي يرتبط باسم جنكيزخان. وبينما كانت القبيلة الذهبية تحتل سهب كيبتشاك من بحر الآرال عبر الممر الواصل بين هضبة الآرال وبحر قزوين حتى مشارف الكاربات كانت فرقة أخرى تنحدر نحو الجنوب ـ الغربي بين بحر قزوين وهيندوكوش نحو فارس، ما بين النهرين وحتى الشام لتقيم دولة إيلخان. وفيما بعد كانت فرقة أخرى قد هاجمت الصين الشمالية واستولت على الصين. وكانت الهند ومانغي أو الصين الجنوبية محصنة لوقت محدود بحاجز جبال التيبت الممتاز والذي ما كان لأي شيء في العالم أن يقارن بتأثيره، اللهم إلا إذا أخذنا في الحسبان الصحراء الكبرى والجلاميد القطبية. لكن تلك العقبة لم تلبث أن ذلّلت فيما بعد أيام ماركو بولو بالنسبة لمانغي وأيام تيمورلنك بالنسبة للهند. وحدث أن جميع الأصقاع المأهولة من العالم القديم قد ذاقت على جلودها عاجلاً أم آجلاً، في تلك الحالة الشهيرة، والتي أُحسن وصفها، الجبروتَ التوسعي للدولة السريعة الحركة والتي ولدت في الآماد السهبية. فروسيا وفارس والهند أو الصين إما قامت بدفع الجزية أو اعترفت بالأسرة المنغولية الحاكمة. بل إن دولة الترك التي كانت حديثة الولاية في آسيا الصغرى عانت مرارة تلك العبودية على مدى نصف قرن.

وعلى نحو ما كان الأمر في أوروبا فإن المدونات المتعلقة بالاجتياحات

الأقدم عهداً قد حفظت فوق أراض أخرى مجاورة للأورو ـ آسيا. وأكثر من مرة خضعت الصين لغزاة من الشمال، والهند لغزاة من الشمال الغربي. وعلى أقل تقدير فإن هجوماً واحداً على أراضي فارس لعب دوراً مميّزاً في تاريخ الحضارة الغربية. فقبل ثلاثمئة أو أربعمئة سنة قبل دخول المنغول كان الترك السلاجقة الذين برزوا من منطقة آسيا الصغرى قد انداحوا هنا فوق مساحات هائلة يمكننا اشتراطياً أن نسميها المنطقة المنبسطة بين خمسة بحار ـ قزوين، الأسود، المتوسط، الأحمر والخليج الفارسي. فقد توضعوا في كرمان، هادامان، وآسيا الصغرى وقضوا على سيطرة السراسين في بغداد ودمشق. وظهرت ضرورة إنزال العقوبة بهم على مسلكهم نحو الحجاج المتجهين إلى القدس، وهوذا السبب الذي جعل العالم المسيحي يشن سلسلة كاملة من الحملات العسكرية المعروفة باسم الصليبية المشترك. وعلى الرغم من أنه لم يتسن للأوروبيين تحقيق المهمات المطروحة فإن تلك الأحداث قد هزت أوروبا ووحّدتها، وهو ما يمكننا بحق أن نعتبره بداية التاريخ الحديث. وكان ذلك مثالاً آخر على تحرك أوروبا التي حفزتها ضرورة ردّة الفعل العكسية على الضغط الموجه إليها من وسط آسيا نفسه.

إن مفهوم الأورو ـ آسيا الذي نتحصل عليه بهذه الطريقة يعني الأراضي الواسعة المزنّرة بالجليد من الشمال والمخترقة في كل مكان بالأنهار والتي تشغل مساحة 000 21000 ميل مربع أي ما يزيد بثلاثة أضعاف على أمريكا الشمالية التي تعدّ مناطقها الوسطى والشمالية 9000000 ميل مربع وما يزيد على ضعف مساحة أوروبا. إلا أنها خالية من الطرق المائية المُرْضية المؤدية إلى المحيط ـ على الرغم من أنها من جهة أخرى، ملائمة عموماً، باستثناء الغابات المجاورة للقطب، لتحرك أي نوع من الرحّل. وإلى الغرب والجنوب والشرق من هذه المنطقة تتوضع المناطق الحدودية في صورة هلال عريض، وهي ملائمة للملاحة البحرية. وطبقاً للبنية الطبيعية فإن عدد هذه المناطق يعادل أربعاً، ومما لا يقل أهمية عن ذلك كونها تتطابق مع آفاق انتشار الديانات الكبرى الأربع ـ البوذية، البراهمانية، الإسلام والمسيحية. والأولى والثانية تنتشران في منطقة الرياح الموسمية وتتجه إحداهما نحو المحيط الهادي والأخرى ـ نحو الهندي. أما الرابعة، أوروبا فتروى بالأمطار القادمة من الغرب، من الأطلسي. وهذه المناطق الثلاث التي تشكل معاً أقل من سبعة ملايين ميل مربّع يستوطنها ما يربو عن مليار نسمة وبكلمة أخرى، ثلثي

سكان الكرة الأرضية. أما المنطقة الثالثة، المتطابقة مع منطقة البحار الخمسة، منطقَة الشرق الأوسط حسبما يسمونها في العادة، فتعاني في الغالب، من نقص الرطوبة بسبب قربها من أفريقيا وهي، باستثناء الواحات ضعيفة الكثافة السكانية. وإلى حد ما فهي تتضمن أربعاً من المناطق الحدودية ومن المنطقة الوسطى للأورو ـ آسيا. وهذه المنطقة محرومة من الغابات وقد غطي سطحها بالصحارى ولهذا فإنها ملائمة تماماً لنشاط الرحل، وتظهر فيها ملامح المنطقة الحدودية إذ إن الخلجان البحرية والأنهار المنصبة في المحيطات تجعلها مطروقة بالنسبة للدول البحرية وتيسر لها بسط سيطرتها على البحر. هوذا السبب الذي مكّن من الظهور الدوري في هذا المكان لإمبراطوريات تنتسب إلى النمط «الحدودي» والتي شكل السكان الزراعيون في الواحات الكبرى بمصر وبابل، عمودها الفقري. وكانت، فضلاً عن ذلك، مرتبطة بخطوط بحرية مع العالم المتحضر للبحر الأبيض المتوسط والهند. ولكن وعلى نحو ما هو منتظر الحدوث وقعت هذه الإمبراطوريات في منطقة مهاجر لم تكن معروفة حتى الآن، أقام بعضها الصقالبة، والترك، والمنغول القادمون من آسيا الوسطى، وكان بعضها نتيجة جهود شعوب البحر الأبيض المتوسط ممن رغبوا في أن يضعوا أيديهم على الطرق الأرضية الممتدة من المحيط الغربي إلى الشرقي. وهذا المكان ـ هو الحلقة الأضعف بالنسبة لتلك الحضارات المبكرة إذ أن برزخ السويس الذي قسم الدول البحرية الكبرى إلى غربية وشرقية وصحارى فارس الجافة الممتدة من آسيا الوسطى وحتى الخليج الفارسي قدما الإمكانية الدائمة لتجمعات الرحل للوصول إلى شاطىء المحيط الذي كان يفصل بين الهند والصين من جهة ومن جهة أخرى كان يفصلهما معاً عن عالم البحر الأبيض المتوسط. وفي كل مرة عانت واحات مصر والشام وبابل من الانحطاط كان سكان السهوب يتحصلون على إمكانية استخدام السهول المسطحة لإيران مخافر أمامية يسددون منها ضرباتهم عبر البنجاب إلى الهند مباشرة وعبر الشام إلى مصر وعبر جسر البوسفور المدمَّر والدّردنيل إلى المجر. وعلى الطريق المباشر نحو أوروبا الداخلية كانت تقف فيينا التي تتصدى لغارات الرحل كأولئك الذين قدموا بطريق مباشر من السهوب الروسية أو من تسللوا بطريق ملتوية تمتد إلى الجنوب من البحرين الأسود وقزوين.

وهكذا فقد استعرضنا الفرق الواضح بين السيطرة السراسينية والتركية على الشرق الأوسط. كان السراسينيون فرعاً من العرق السامي، أقواماً استوطنوا حوضي النيل والفرات والواحات الصغيرة في جنوب آسيا. وباستخدامهم للإمكانيتين اللتين قدمتهما لهما هذه الأرض ـ الخيل والجمال من جهة والسفن من الجهة الأخرى أقاموا امبراطورية عظمى. وفي مراحل تاريخية مختلفة كان أسطولهم يسيطر على البحر الأبيض المتوسط حتى إسبانيا، وعلى المحيط الهندي أيضاً حتى جزر الملايو. ومن هذه الوجهة النظر الاستراتيجية المركزية، من الموقف القائم بين المحيطين الغربي والشرقي، حاولوا أن يستولوا على كافة المناطق الحدودية في العالم القديم، وبذلك كرروا الإسكندر المكدوني بكيفية ما وسبقوا نابليون. بل وتمكنوا من تهديد السهوب. لكن الحضارة السراسينية دمرها الأتراك، الوثنيون ـ الطورانيون البعيدون بعداً كاملاً عن جزيرة العرب، عن أوروبا والهند والصين والذين كانوا يعيشون في حبة قلب آسيا.

كان الانتقال على سطح المحيط المنافس الطبيعي للانتقال على الجمال والخيل وهو المعمول به في دواخل القارة. وعلى أساس استصلاح الأنهار المحيطية بالذات أقيمت المرحلة البوتامية من الحضارة الصينية على يان تسزي(*)، الهندية على الغانج(**)، البابلية على الفرات، المصرية على النيل. وعلى قاعدة استطلاح البحر الأبيض المتوسط أقيم ما يسمى بالمرحلة «البحرية» من الحضارة، حضارة اليونان والرومان. وما تمكن السراسين والفايكنغ من إدارة شواطىء

(*) يانتسي (معناه النهر العميق) نهر في الصين طوله 5800 ك م، 2850 منها صالحة للملاحة. أطول نهر في الأوراسيا. مساحة سريره: مليون وثمانمئة وثمانية آلاف كيلو متر مربع. يبدأ من التيبت. ويصب في بحر الصين الشرقي. من أهم المدن الواقعة عليه تشونتسين، أوهان، نانكين وشانغهاي (المترجم).

(**) الغانج (غانجا) نهر في الهند وبنغلاديش. طوله 2700 ك م. مساحة سريره مليون ومئة وعشرين ألف كيلومتر مربع. ينبع من الهيمالايا، يمر بسهل الغانج ويرويه ويصب في خليج البنغال. من أهم روافده: جامنا، سون، دار مودار من اليمين وغوماتي، غانداك وكوسي ـ من اليسار، أهم المدن الواقعة عليه الله آباد، ڤاراناسي، وبانتا كما يقع ميناء كلكوتا على دلتا مصبه في البحر. والغانج في الأساطير الهندية نهر سماوي نزل إلى الأرض فصار الغانج، يجله الهندوس ويحجون إليه وتقام طقوس الحج بخاصة عند منابعه بالقرب من مدينتي خاردڤا ـ وڤاراناسي حيث يرفده نهر جامنا (المترجم).

المحيطات إلا بفضل قدراتهم على الإبحار.

تتمثل النتيجة الأهم لاكتشاف طريق الهند حول رأس الرجاء الصالح في أنها تربط الملاحة الساحلية غربي الأوراسيا وشرقها ولو بطريقة تقريبية، وبذلك تحيّد وإلى درجة ما، التفوق الاستراتيجي للوضعية المركزية التي كان يحتلها أهل السهوب بالضغط عليهم من المؤخرة. والثورة التي بدأها كبار البحارة من جيل كولومبوس أعطت للعالم المسيحي حركية لا اعتيادية واسعة وإن لم تبلغ المستوى المطلوب. فالمحيط الوحيد والممتد الذي يطوق الأراضي المقسّمة والجزيرية، هو بلا شك ذلك الشريط الجغرافي الذي ضمن المستوى الأعلى من تركيز السيطرة على البحر وفي مجموع نظرية الاستراتيجية العسكرية البحرية المعاصرة، وهو ما كتب عنه الكابتن ماهان والسيد سبنسر ويلكينسون بكل تفصيل. والنتيجة السياسية لذلك كله تتلخص في تبدل العلاقات بين أوروبا وآسيا. ولا ينبغي أن ننسى أن أوروبا كانت في منتصف القرن، محصورة بين الرمال المستحيلة العبور في الجنوب، المحيط المجهول في الغرب، الجليد أو الغابات اللانهائية في الشمال والشمال الشرقي بينما كانت تهددها حركية الرحل غير المعتادة في الشرق والجنوب الشرقي. وها هي ذي الآن وقد تسامت على العالم بعد أن بلغت البحار الثمانية والثلاثين وغيرها من الأراضي وبسطت سلطانها حول الدول الأوراسية القارية التي كانت حتى الآن تهدد وجودها نفسه. وعلى الأراضي الحرة التي اكتشفت وسط الآماد المائية أقيمت أوروبات جديدة. وما كانت بريطانيا وسكاندينافيا بالنسبة للأوروبيين في الماضي تصير إليه الآن أمريكا وأوستراليا، بل وإلى حد ما أفريقيا عبر الصحراء والتي تتجاور الآن مع الأورو ـ آسيا. وتمثل بريطانيا، كندا، الولايات المتحدة، أفريقيا الجنوبية، أوستراليا واليابان طوقاً مميزاً يتكون من قواعد جزيرية مخصصة للتجارة وللقوى البحرية التي لا تطالها دول الأورو ـ آسيا البرية.

ومع كل هذا يواصل الآخرون وجودهم، وقد أكدت الأحداث الأخيرة أهميتهم، وبينما غطت الشعوب «البحرية» في أوروبا الغربية وجه المحيط بسفنها، وتوجهت إلى الأراضي البعيدة وفرضت، بهذه الطريقة أو تلك، إتاواتها على سكان ضفاف البحار في آسيا، قامت روسيا بتنظيم الكازاك، ولدى خروجها من غاباتها الشمالية بسطت سيطرتها على السهوب بوضع رحالتها الوطنيين في مواجهة

الرحّل ـ التتار. وعصر التيودورات(*) الذي رأى انفتاح أوروبا الغربية على الآماد البحرية شهد أيضاً تحرّك الدولة الروسية من موسكو باتجاه سيبيريا. إن وثبة الخيالة عبر آسيا بطولها كان حدثاً، وكان الحدث في الوقت نفسه محفوفاً بالتبعات السياسية، مثلما كان اجتياز رأس الرجاء الصالح، على الرغم من أن هذين الحدثين بقيا زمناً طويلاً لا يرتبط أحدهما بالآخر.

وربما يتمثل التطابق الأكثر إثارة للانطباع في التاريخ في كون التوسع البري والبحري لأوروبا قد واصل بمعنى من المعاني المواجهة القديمة بين اليونان والرومان. وما كان لعدة إخفاقات في هذا الميدان أن تحمل من التبعات ما حمله إخفاق محاولة روما في جعل الرومان لاتيناً. وقد كان التوتون متحضرين وتلقوا المسيحية عن الرومان، أما السلافيون ـ فعن اليونان. وفيما بعد كان الرومانو ـ توتون بالذات هم الذين خاضوا البحار؛ وكان اليونان ـ السلافيون هم الذين انطلقوا خبباً في السهوب وطوّعوا الشعوب الطورانية. وهكذا اختلفت الدول البرية المعاصرة عن البحرية حتى في منبع مثلها العليا لا في شروطها المادية وحركيتها[2].

وعلى أثر القوزاق ظهرت على خشبة المسرح روسيا التي ودعت بهدوء وحدتها التي كانت تعيشها في غابات الشمال. والتبدل الآخر ذو الأهمية الداخلية الخارقة للعادة، والذي حدث في أوروبا في القرن الماضي كان هجرة الفلاحين الروس إلى الجنوب، وهكذا فإذا كانت المستوطنات الزراعية تنتهي في الماضي عند الحدود مع الغابات فإن مركز سكان روسيا الأوروبية بكاملها ينبسط جنوبي هذه الحدود وسط حقول القمح التي حلت محل السهوب التي كانت قائمة هناك أو باتجاه أكثر غرباً. وبهذه الطريقة بالذات ظهرت مدينة أوديسا ذات الأهمية الخارقة والتي نمت بسرعة أمريكية صرفة.

منذ جيل واحد كان يتراءى لنا أن الباخرة وقناة السويس قد ضاعفتا من حركية الدول البحرية بالمقارنة مع الدول البرية. وكانت الطرق الحديدية تلعب، بالدرجة الأولى دور التابع في التجارة البحرية. إلا أن السكك الحديدية العابرة

(*) التيودور: أسرة ملكية في انجلترا، تسلمت العرش بين 1485 ـ 1603 ملوكها: هنري السابع، هنري الثامن، إدوارد السادس، ماري الأولى، إليزابيت الأولى (المترجم).

للقارات تبدل اليوم حالة الدول البرية، فهي لا تعمل في أي مكان بفعالية أكبر مما هي عليه في المناطق المركزية المغلقة من الأورو ـ آسيا، والتي يستحيل العثور في آمادها الواسعة على أي جذع شجرة أو حجر ملائم لبناء هذه السكك. السكك الحديدية تجترح في السهوب معجزات لم تعرف من قبل لأنها حلت بطريقة مباشرة محل الحصان والجمل، ولهذا فإن المرحلة الضرورية للتطور ـ الطرق، قد طبقت هنا.

وليس علينا عند دراسة الحالة مع التجارة أن ننسى أن الطرق البحرية، على الرغم من كونها رخيصة نسبياً، فإنها تقذف بالبضاعة عبر أربع مراحل ـ المصنع ـ المنتج، ترسانة المرسل، ترسانة المتلقي ومستودع البيع بالمفرق، هذا بينما تؤدي سكة الحديد القاريّة مباشرة من المصنع ـ المنتج إلى مستودع المستورد. وعلى هذا فإن التجارة البحرية البينية تؤدي، فضلاً عن الشروط المتساوية الأخرى، إلى إقامة منطقة تسلل حول القارات التي رسمت حدودها الداخلية بصورة فظة، بخط، تكون تكلفة عمليات النقل البحري والحديدي الأربع على طوله من الشاطىء المجاور معادلة لكلفة عمليتين مضافة إلى النقل عن طريق سكة الحديد القارية.

تنطلق السكك الحديدية الروسية على امتداد 6000 ميل من فيربالّين غرباً إلى ڤلاديڤوستوك شرقاً. والجيش الروسي في منشوريا يعد شاهداً بديعاً على القدرة الحركية البرية، بينما تقدم بريطانيا في جنوب أفريقيا الشاهد على الدولة البحرية. ومن الطبيعي أن الخط الحديدي عبر سيبيريا يظل مثلما كان خط الاتصال الوحيد والبعيد عن الأمان، ولكن لن يمر قرن واحد إلا وتكون آسيا قد غطيت بشبكة من السكك الحديدية. وأبعاد المساحات الترابية في الإمبراطورية الروسية ومنغوليا ضخمة جداً وإمكاناتها بالنسبة لحجم السكان، الحبوب، والقطن، والوقود، والمعادن عالية إلى درجة أنه لا بد وأن ينفتح هنا ودون شك عالمها الاقتصادي المهول الذي قد يكون بعيداً إلى حد ما لكنه فوق طاقة التجارة البحرية.

وعندما نلقي بنظرة سريعة على التوجهات الأساسية للتاريخ، ألا نرى بكل وضوح الثبوتية في الميدان الجغرافي؟ ألا تبدو منطقة محورية في السياسة العالمية هذه الرقعة الواسعة من الأورو ـ آسيا العصيّة على المراكب البحرية لكنها كانت في القديم سهلة المنال بالنسبة للرحل، المنطقة التي ينبغي أن تغطي اليوم بشبكة من السكك الحديدية؟ لقد توفرت هنا ولا تزال تتوفر الشروط الواعدة كثيراً (وإن كانت

مقيدة بعامل محدَّد) من أجل تطوير الدول العسكرية والصناعية. روسيا تحل محل الإمبراطورية المنغولية وضغطُها على فنلندة، سكاندينافيا، بولندة، تركيا، فارس، الهند والصين حل محل غارات السهوبيين التي كانت تنطلق من مركز واحد. وتحتل روسيا في هذا العالم موقعاً استراتيجياً مركزياً كالموقع المخصص لألمانيا في أوروبا. وبإمكانها أن تسدد الضربات وأن تستقبلها في الوقت نفسه من كافة الاتجاهات باستثناء الشمال. والتطور النهائي لحركيتها والمرتبط بالسكك الحديدية ليس إلا مسألة وقت. ولن تبدل أي ثورة اجتماعية علاقاتها بالحدود الجغرافية الكبرى لوجودها. ومن خلال الفهم الواعي لقوتهم تخلّى حكامُ روسيا عن الألاسكا، فمن الناحية الواقعية يبدو أن عدم استملاك أية أراض ما وراء البحار ـ قاعدة بالنسبة للسياسة الروسية مثلما أن بسط الحكم على الآماد البحرية ـ قاعدة بالنسبة لبريطانيا.

خارج حدود هذه المنطقة المحورية يوجد هلال داخلي كبير يضم ألمانيا، النمسا، تركيا، الهند والصين وهلال خارجي ـ بريطانيا، أفريقيا الجنوبية، أوستراليا، الولايات المتحدة، كندا واليابان. وفي الحالة الأخيرة للتوازن لا تتكافأ الدولة المحورية، روسيا مع دول الأطراف. ويمكن أن تقوم فرنسا هنا بدور الوزن المقابل. وقد صارت الولايات المتحدة حديثاً دولة شرقية. وهي تؤثر على توازن القوى لا بطريقة مباشرة بل عبر روسيا وليس ثمة أي شكوك في أنها ستبني قناة بناما لتيسّر ضخ موارد الميسيسيبي والأطلسي في المحيط الهادي. ومن وجهة النظر هذه ينبغي البحث عن خط الفعل الواقعي بين الشرق والغرب في الأطلسي بالذات[3].

إن الإخلال بتوازن القوى لصالح الدولة المحورية، والمتمثل في توسعها على حساب الأراضي الحدودية للأورو ـ آسيا، يسمح باستخدام الموارد القارية التي لا تحيط بها الأبصار، من أجل بناء الأسطول. وبفضل ذلك ستبرز قريباً أمام عيوننا إمبراطورية عالمية. ويمكن لذلك أن يتحقق إذا ما رغبت ألمانيا في الانضمام إلى روسيا كحليف. هوذا السبب الذي يجعل التهديد بقيام مثل هذا الحلف لا بد وأن يدفع بفرنسا إلى أحضان الدول البحرية، وعند ذلك تشكل فرنسا، إيطاليا، مصر، الهند وكوريا تلك الوحدة القوية التي يقوم الأسطول فيها بدعم الجيش وهو ما يجبر حلفاء المحور في نهاية المطاف على تعزيز قواهم البرية

لصرفهم عن تركيز كل قواهم في البحار. وإذا قمنا بإجراء مقارنة أكثر تواضعاً فإنه يشابه ما كان يقوم به ويلينغتون خلال العمليات القتالية من قاعدة تورّيس فيرداس. ثم ألم تتمكن الهند في نهاية المطاف من أن تلعب الدور نفسه في نظام الإمبراطورية البريطانية؟ ثم أليست هذه هي الفكرة الكامنة في أساس منظومة المستر آميري الذي كان يقول بأن جبهة العمليات القتالية تمتد بالنسبة لبريطانيا من رأس الرجاء الصالح عبر الهند وحتى اليابان.

إن تطوير الإمكانات المهولة لأمريكا الجنوبية يمكن أن يترك تأثيره الحاسم على هذا النظام. ذلك أن بإمكانها تعزيز مواقف الولايات المتحدة من جهة، ومن جهة أخرى يمكن لألمانيا بالطبع أن تقوم بتحد فعال لمبدأ مونرو بمقدور تلك الإمكانيات أن تقطع توجه برلين عما كنت قد وصفته بسياسة المحور. والتراكيب الجهوية للدول الكبرى لا معنى لها هنا. وأفترض أنها من وجهة النظر الجغرافية تقدّم بما يشبه الدوران الدائري حول دولتها الخاصة والتي تبدو عظيمة دوماً بهذه الصورة أو تلك، لكنها تملك قدرة حركية محدودة بالمقارنة مع الدول الحدودية أو الجزيرية المحيطة.

أتكلم عن هذا كله كجغرافي. أما التوازن الحقيقي للثورة السياسية في كل لحظة محدّدة، فهو من جهة، نتيجة للشروط الجغرافية (بالإضافة إلى الاقتصادية والاستراتيجية) ومن جهة أخرى نتيجة التعداد النسبي للسكان، الشجاعة، التزويد والتنظيم لدى الشعوب المتنافسة. فإذا ما احتسبنا بدقة تعداد هذا كله أمكننا أن نتنبأ مسبقاً بنتيجة المباراة دون اللجوء إلى قوة السلاح. والمؤشرات الجغرافية أكثر استعمالاً في الحسابات وأكثر ديمومة من المؤشرات البشرية. وهذا هو السبب الذي يجعلنا نأمل بالوصول إلى المعادلة التي يمكن تطبيقها بدرجة متكافئة على التاريخ الماضي وعلى السياسة الحاضرة. لقد كانت الحركات الاجتماعية تحمل في كافة العصور وإلى حد تقريبي الملامح الفيزيائية نفسها، ذلك لأنني أرتاب في أن يكون الجفاف المتعاظم للطقس، هذا إذا تمت البرهنة عليه، قد بدّل في زمن تاريخي الوسط المحيط في آسيا وأفريقيا. وحركة الإمبراطورية نحو الغرب تبدو لي أقرب إلى أن تكون دورة قصيرة الأمد للدول الحدودية حول الزاويتين الجنوبية الغربية والغربية من المنطقة المحورية. إن المشاكل المتعلقة بالشرق الأدنى، والأوسط، والأقصى ترتبط بالتوازن غير الثابت بين الدول الداخلية والخارجية

وتلك الأجزاء من الهلال الحدودي حيث لا تؤخذ الدول المحلية المتوضعة هناك تقريباً في الحسبان.

وفي الختام لا بد من الإشارة إلى أن استبدال سيطرة روسيا بأي شكل آخر من أشكال السيطرة القارية الداخلية لن يؤدي إلى تقليص أهمية هذا الموقف المحوري. فلو قام الصينيون، على سبيل المثال، بمساعدة اليابان بضرب الإمبراطورية الروسية واحتلوا أراضيها لخلقوا خطراً أصفر على الحرية العالمية وذلك بإضافة الآماد البحرية إلى موارد القارة العظمى ولحققوا بهذه الطريقة أفضلية لم يصل إليها حتى الآن المالك الروسي لهذه المنطقة المحورية.

الأسس الجغرافية والجيوبولتيكية للأوراسيا[4]

لروسيا عدد من الأسباب يفوق بكثير ما لدى الصين من الأسباب التي تسمح بتسميتها دولة متوسطة («تشجون ـ غو» بالصينية). وكلما تقادم الزمن ـ ازدادت هذه الأسس بروزاً. فليست أوروبا بالنسبة لروسيا إلا شبه جزيرة من البر القديم تمتد إلى الغرب من حدودها. أما روسيا نفسها فتشغل في ذلك البر مجاله الأساسي، جذعه. وإلى هذا فإن المساحة المشتركة للدول الأوروبية معاً تقترب من 5 ملايين كيلو متر مربع. أما مساحة روسيا في حدود الاتحاد السوفياتي المعاصر على الأقل فتربو بصفة خاصة على الـ20 مليون كيلو متر مربع. (على الخصوص إذا أضفنا إليها أراضي جمهوريتي منغوليا وتوڤا الشعبيتين ـ واللتين كانتا «منغوليا الخارجية»، «وإقليم ريان خوي» والموجودتان في اللحظة الراهنة في وضعية جزئي الاتحاد السوفياتي من الناحية العملية).

في نهايات القرن التاسع عشر ـ وبداية القرن العشرين كان الروس ينسون الآماد الممتدة خلف الأورال إلا في استثناء نادر (وأحد الذين تذكروها كان العالم الكيميائي الروسي العبقري د. إ. مندلييف). أما اليوم فقد حلت أزمنة جديدة «فمجمَّع أورالو ـ كوزنيتسكي» بمجموعه، بأفرانه العالية، ومناجم فحمه، ومدنه الجديدة، وتضم كل منها ـ مئة أو مئتي ألف ساكن ـ يقام **وراء الأورال**. وهناك أيضاً يقيمون «التوركسيب»، ولم يسبق لانتشار الثقافة الروسية أن سرى بمثل هذا الاتساع والعفوية كما سرى في الجزء الآخر من زاأوراليه[*] ـ في ما يسمى «جمهوريات آسيا الوسطى» (تركمانيا، طاجيكستان، أوزبكستان وقرغيزيا). وينبعث

(*) زاأوراليه: (بالروسية) ـ ما وراء الأورال (المترجم).

هنا جذع الأراضي الروسية ـ «من عَقْرَبَي نيغوريلي وحتى محطة سوتشان». وللأوراسيين نصيب من الفضل في منعطف الأحداث هذا. ومعه تتكشف بصورة بالغة الوضوح طبيعة العالم الروسي، **كعالم مركزي** للبر القديم. وكانت هناك لحظات بدا فيها أن بين الأطراف الغربية ـ أوروبا التي كانت تنسب إليها روسيا ما قبل الأورال («روسيا الأوروبية» لدى الجغرافيين القدماء) وآسيا (الصين، الهند وإيران) يمتد الفراغ. والتكوين الأوراسي للواقع الروسي الحالي يملأ هذا الفراغ بنبض الحياة الحية. ومنذ نهاية القرن التاسع عشر كان الطريق المباشر من أوروبا إلى الصين واليابان يمتد عبر روسيا (سكة الحديد السيبيرية العظمى). وتشير الجغرافيا بقدر كامل من انتفاء الشك إلى أن الطرق ينبغي ألاّ تمد بطريقة أخرى من أوروبا (الشمالية على أية حال) إلى إيران، الهند، والهند الصينية. وهذه الإمكانات لم تتحقق على أرض الواقع حتى الوقت الحاضر والسكة الحديدية عبر الفارسية والتي تخترق فارس متجهة من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي والمتصلة بشبكة الخطوط الحديدية التابعة للهند البريطانية ولأوروبا أيضاً (ما وراء القوقاز والقرم وأوكرانيا) كانت وشيكة التحقيق قبيل الحرب العالمية. أما في العصر الحاضر وبفعل الظروف السياسية فقد تراجعت إلى ميدان المشاريع العديمة الأسس. وليس ثمة ربط بين سكك حديد تركستان الروسية («جمهوريات آسيا الوسطى») والهند كما لا يوجد توجه لشبكة سكك الحديد الروسية نحو مركز الترانزيت الأوروبية ـ الهندية. ولكن مثل هذه الحركة ستصبح حقيقة واقعة عاجلاً أم آجلاً سواء أكان ذلك في صيغة طرق سكك حديد أو خطوط سيارات أو خطوط جوية. وبالنسبة لهذه الأخيرة فإن للمسافات الأقصر التي تقدمها روسيا أهمية كبرى خاصة. وكلما زاد الوزن الذي تكتسبه الاتصالات الجوية مضافاً إلى ما يتسم به هذا النوع من المواصلات من الرغبة في **الطيران المباشر** ازداد وضوحاً دور روسيا ـ الأوراسيا كـ «عالم متوسط» ويمكن للخطوط العابرة للقطب أن تضاعف من قوة هذا الدور. ففي الشمال الأقصى تبدو روسيا على مسافات هائلة جاراً لأمريكا. وبافتتاح الخطوط عبر القطبية أو بكلمة أدق فوق القطب ـ تصبح حلقة وصل بين **آسيا وأمريكا الشمالية**.

ويجري الحديث في المقالات التالية حول رغبة الأوراسيين في تقديم التوليفة الروحية للبدايات الشرقية والغربية. ومن المهم الإشارة هنا إلى تلك التطابقات التي

يبديها **ميدان الجيوبولتيكا** لهذه الرغبة. فروسيا ـ الأوراسيا هي مركز العالم القديم. أبعدوا هذا المركز ـ وإذا كل أجزائه المتبقية، وكل هذا النظام من الأطراف البرية (أوروبا، آسيا الصغرى، إيران، الهند، الهند الصينية ـ الصين، واليابان) ـ تتحول إلى ما يشبه «المبنى المبدَّد». هذا العالم الممتد من حدود أوروبا وإلى الشمال من آسيا «الكلاسيكية» يشكل تلك الحلقة التي تؤلف بينها جميعاً في وحدة متماسكة. وهذا ما نراه في الواقع المعاصر، وهو ما سيغدو أكثر حضوراً في المستقبل. والدور الرابط والموحّد «للعالم المتوسط» ينعكس أيضاً في التاريخ. فعلى مدى عدد من آلاف السنين كان الرجحان السياسي في العالم الأوراسي يعود للرحَّل. وبعد أن شغل هؤلاء المساحة من أوروبا الأمامية وحتى حدود الصين متلصّقين في الوقت نفسه بآسيا الصغرى وإيران والهند كان الرحّل وسطاء بين عوالم متبعثرة من عوالم الثقافات المستمرة والتي لا تزال في حالتها الانطلاقية الأولى. ونضيف إلى أن العلاقات بين إيران والصين لم تكن وثيقة خلال التاريخ مثلما كانت في عصر السيادة المنغولية (القرون ـ الثاني عشر والرابع عشر) وقبل ثلاثة عشر ـ أربعة عشر قرناً من ذلك وبصفة استثنائية وفقط في العالم الأوراسي المترحل تقاطعت إشعاعات الحضارتين الهيلينية والصينية حسبما أظهرت الحفريات الأحدث في منغوليا. والعالم الروسي مدعو بقوة الحقائق التي لا تُدحض إلى لعب الدور الموحِّد في نطاق العالم القديم. وفقط بمقدار ما تؤدي روسيا ـ الأوراسيا رسالتها هذه يمكنها أن تدور وتدور في كلٍّ متكامل عضوي كلّ مجموعة الثقافات المختلفة في البر القديم وتزال المواجهة ويزال التناقض بين الشرق والغرب. وهذا الشرط لم يجر وعيه بصفة كافية بعد في عصرنا إلا أن العلاقات المعبّر عنها من خلاله تكمن في طبيعة الأشياء. فمهام التوحيد هي بالدرجة الأولى **مهام إبداع ثقافي**. وفي صيغة الثقافة الروسية نبتت في مركز العالم القديم قوة تاريخية مستقلة جديدة لتؤدي الدور التوحيدي والتوفيقي فلا يمكنها أن تحقق مهمتها إلا بالتفاعل مع ثقافات جميع الشعوب المحيطة. وفي هذا السياق تكتسب ثقافات الشرق بالنسبة لها نفس الأهمية التي تكتسبها ثقافات الغرب. في مثل هذا التوجه **في وقت واحد وبوتيرة واحدة** نحو الشرق ونحو الغرب ـ تتجلى خاصية الثقافة الروسية والجيوبولتيكا الروسية. فهاتان بالنسبة لروسيا ـ جبهتاها المتكافئتان ـ الغربية والجنوبية ـ الشرقية ـ يمكن ويجب أن يكون حقلاً روسيا على الأغلب.

فلنعد الآن إلى مظاهر ذات نظام جغرافي محض. فبالمقارنة مع «الجذع» الروسي، تمثل أوروبا وآسيا بدرجة واحدة أطراف العالم القديم. وأوروبا إلى جانب ذلك، ومن وجهة النظر الروسية ـ الأوراسية ـ كل ما يمتد **إلى الغرب** من السهل الروسي، وآسيا ـ كل ما يمتد إلى الجنوب **والجنوب الشرقي** منها، حسبما يقال. أما روسيا نفسها فليست آسيا ولا أوروبا ـ هوذا المنطلق الجيوبولتيكي الأساسي للأوراسيين. ولهذا ليس ثمة روسيا «أوروبية» ولا «آسيوية» بل ثمة أجزاء منها ممتدة إلى الغرب وإلى الشرق من الينيسي وهكذا. ويواصل الأوراسيون قولهم: روسيا ليست آسيا ولا أوروبا لكنها عالم جغرافي خاص. فبم يتميّز هذا العالم عن أوروبا وآسيا؟ تتميّز الأطراف الغربية، الجنوبية، والجنوبية ـ الشرقية من البر القديم بوفرة الخلجان والرؤوس لشطآنها مثلما تتميّز بتنوع شكل تضاريسها. وهذا ما لا يمكن قوله عن «الجذع» الأساسي الذي يكوّن، حسبما سبق، روسيا الأوراسيا.

وهو يتألف بالدرجة الأولى من ثلاثة سهول «البيلوموري» القوقازي، السيبيري الغربي، والتركستاني، ثم من المناطق الممتدة إلى شرقية (بما في ذلك من بلدان جبلية قليلة الارتفاع ـ إلى الشرق من نهر الينيسي) والتكوين الإقليمي للأطراف الغربية والجنوبية من اليابسة تتميز بملامح «موزاييكة ـ دقيقة» وبعيدة عن البساطة. فالأماكن الغابية في حالتها الطبيعية تستبدل هنا في تتابعها الغريب، من جهة بالمناطق السهبية والصحراوية، ومن جهة أخرى بمناطق التوندرا (على الجبال العالية). وهذا «الموزاييك» يقابل في السهول المتوسطة من العالم القديم بتوضع المناطق البسيط نسبياً، والشبيه بـ«العَلَم». وبهذا التشبيه الأخير نشير إلى تلك الخاصية، وهي أنه عندما ينقل إلى الخارطة يذكر بخطوط عَلَم قسم وفق خطوط أفقية. وفي الاتجاه من الجنوب إلى الشمال تحل الصحراء والسهب والغابة والتوندرا، أحدها محل الآخر. وكل واحدة من هذه المناطق تشكل شريطاً عرضانيا متراصاً. والتعضي العرضاني العام للعالم الروسي يزداد وضوحاً فوق ذلك بغلبة التوضع العرضاني لامتداد السلاسل الجبلية التي تطوق هذه السهول المشار إليها من الجنوب. سلسلة جبال القرم، السلسلة القوقازية وكوبيتداغ، باراباميز، هيندوكوش، سلاسل تيان شان الأساسية، السلاسل على الأطراف الشمالية من التيبت، أين شان في منطقة سور الصين العظيم. والأخيرة من بين السلاسل التي

ذكرناها، من الجنوب السهل المرتفع الذي تشغله صحراء غوبي وهي ترتبط بسهل تركسَتان عبر بوابة جونغار.

في البنية الإقليمية لليابسة في العالم القديم يمكن ملاحظة ملامح التناظر الشرقي ـ الغربي الطريف والذي ينعكس في كون توضع الظواهر في طرفه الشرقي شبيه بتوضعها في الطرف الغربي ويتميّز عن طابع الظواهر في القسم الأوسط من اليابسة. كما أن الطرفين الشرقي والغربي من اليابسة (الشرق الأقصى وأوروبا) بين درجتي عرض 35 و60 شمالاً تبدو في حالتها الطبيعية مناطق غابية. فالغابات الشمالية تتجاور هنا مباشرة وتتداخل تدريجياً في غابات النباتات الجنوبية. ولا نلاحظ أي شبيه بذلك في العالم المتوسط. وغابات النباتات الجنوبية لا تتوفر فيه إلا ضمن مناطق طوقه الجبلي (القرم ـ القوقاز ـ تركستان). وهي لا تتلاصق في أي مكان بغابات النباتات الشمالية أو المتأثرة برياح الشمال، فهي مفصولة عنها بشريط سهبي ـ صحراوي متراص. وعلى هذا يمكن تعريف الجزء المتوسط من العالم القديم بأنه منطقة شريط سهبي وصحراوي يمتد خطاً غير متقطع من الكاربات إلى خينغان يؤخذ مع إطاره الجبلي (في الجنوب) والمناطق الممتدة إلى شماليه (المناطق الغابية والتوندرا) والأوراسيون يسمّون هذا العالم بالأوراسيا في المعنى الدقيق للكلمة (Eurasis sensu stricto) وينبغي تمييزها عن «أوراسيا» القديمة لـ أ. فون هومبلدت التي تشمل كل اليابسة القديمة (Eurasis sensu latiore).

الحدود الغربية للأوراسيا تمر بعتبة البحر الأسود ـ والبلطيق أي في المنطقة التي تضيق فيها اليابسة (بين البحرين البلطيق والأسود). عبر هذه العتبة وفي الاتجاه العام من الشمال ـ الغرب إلى الجنوب الشرق، تمر مجموعة من الحدود النباتية ـ الجغرافية ذات الدلالة، كالحدود الشرقية المكونة من السد ـ الجبلي والزان والقطيفة طويلة الزئبر، وكل واحدة منها تبدأ على ضفاف بحر البلطيق وتنتهي بعد ذلك على ضفاف البحر الأسود. وإلى الغرب من الحدود المشار إليها يتسم انفساح المنطقة الغابية على مجموع الامتداد من الشمال إلى الجنوب بطابع اللاانقطاع. وإلى الشرق منها يبدأ التعضي إلى منطقة غابية، في الشمال وإلى سهبية في الجنوب. وهذا الحد يمكن أن نعدّه الحدود الغربية للأوراسيا أي إن حدودها مع آسيا في الشرق الأقصى تتناهى في خطوط طول اضمحلال الشريط السهبي المتراص لدى اقترابها من المحيط الهادي أي في خطوط طول خينغان.

العالم الأوراسي عالم «النظام الدوري» للمناطق والمتناظر في الوقت نفسه. حدود المناطق الأوراسية الأساسية مؤقتة بدقة ملموسة مع استمرار الفصول المناخية المحدّدة. فالحدود الجنوبية للتوندرا ـ على سبيل المثال ـ تقابل الخط الذي يصل النقاط ذات الرطوبة النسبية السنوية المتوسطة عند الساعة الواحدة ظهراً حوالي 79,5٪ (للرطوبة النسبية عند **الواحدة ظهراً** أهمية كبرى خاصة بالنسبة لحياة النبات والتربة). والحدود الجنوبية للمنطقة الغابية تمتد بامتداد الخط الذي يصل بين نقاط تصل رطوبتها النسبية إلى 67,5٪ ومع الحدود الجنوبية للسّهب (عند تلاصقها مع الصحراء) تتفق رطوبة نسبية مماثلة عند الساعة الواحدة ظهراً بمقدار 55,5٪ وهي في كل مكان بالصحراء أدنى من هذا الحجم. ويلفت النظر في هذا المكان تساوي التقطعات التي تشمل المناطق الغابية والسهبية. ويمكن التأكد من مثل هذا التطابق ومثل هذا التوزع الإيقاعي للتقطعات بواسطة مظاهر أخرى (انظر كتابنا «خصائص روسيا الجغرافية»، الجزء الأول، براغ، 1927) وهذا ما يطرح الأسس للحديث عن «النظام الدوري للمناطق في روسيا ـ الأوراسيا»، وهو أيضاً نظام تناظري ولكن لا بمفهوم التناظرات ـ الشرقية ـ الغربية التي تحدثنا عنها فيما سبق بل في مفهوم التناظرات الجنوبية ـ الشمالية. لا غابيّة الشمال (التوندرا) تقابلها لا غابية الجنوب (السهب) ووجود الكالسيوم ونسبة الدُّبال في التربة من الأجزاء المتوسطة من منطقة الأراضي السوداء تتضاءل بصورة متناظرة نحو الشمال ونحو الجنوب. والتوزع التناظري للمظاهر يلاحظ بطابع لون التّربَتَيْن. وهو يبلغ في حدوده القصوى في تلك الأجزاء الوسطية من المنطقة الأفقية ويتضاءل بالاتجاه نحو الشمال ونحو الجنوب (الانتقال من اللوينات البنيَّة إلى المبيضة) في الأسس الرملية والحجرية ـ من الحدود بين المنطقة الغابية والسهبية تفترقان تناظرياً: الجزر السهبية نحو الشمال والغابات «الجزيرية» نحو الجنوب. وهذه الظاهرة يعرّفها العلم الروسي بـ «ما فوق المنطقية» والقطع السهبية في المنطقة الغابية يمكن وصفها بظاهرة «حاملة الجنوب» أما الغابات الجزيرية في السهب فهي ظواهر «حاملة الشمال». والتكوينات حاملات الجنوب في المنطقة الغابية تقابل التكوينات حاملات الشمال في السهب.

لم تتجسد تدرجية الانتقالات ضمن إطار النظام الإقليمي، و«دوريتها» و«تناظريتها» في الوقت نفسه في أي مكان من العالم القديم بالوضوح الذي

تجسدت به في سهول روسيا ـ الأوراسيا.

للعالم الروسي نظام جغرافي **بالغ الشفافية**. والأورال في هذه التركيبة لا يملك على الإطلاق ذلك الدور المحدَّد والفاصل الذي هيأته له (ولا تزال تهيئه)، الڤامبوكا(*) الجغرافية. «فالأورال بفضل خصائصه الأوروغرافية(**) والجيوبولتيكية، لا يحجم فقط عن أن يكون فاصلاً، بل هو على العكس من ذلك، يربط، وبالصورة الأشد اتثاقاً، بين روسيا ما قبل الأورال وما بعد الأورال»، مؤكداً مرة أخرى على أنهما مجتمعان جغرافيا ويشكلان قارة الأوراسيا الواحدة التي لا تتجزأ. فالتوندرا ـ كمنطقة عرضانية ـ تمتد إلى الغرب وإلى الشرق من الأورال. والغابة تنتشر في هذه الجهة وفي تلك والأمر لا يختلف بالنسبة للسهب وللصحراء (وهذه الأخيرة تزنّر التتمة الجنوبية للأورال ـ الموغوجاري من الشرق إلى الغرب). ولا نلاحظ عند تخوم الأورال تبدلاً ملموساً في الوضع الجغرافي. والأكثر توكيداً على ذلك هو الحد الجغرافي «ما بين البحار» أي المدى المكاني بين البحرين الأسود والبلطيق من جهة، وبين بحر البلطيق وضفاف النرويج الشمالية ـ من جهة أخرى.

وبنية روسيا ـ الأوراسيا الجغرافية الخاصة البالغة الوضوح والبسيطة في الوقت ذاته ترتبط بعدد من الشروط الجيوبولتيكية الأهم.

إن طبيعة العالم الأوراسي ذات حد أدنى من الملاءمة لأي نوع من «الانفصالية» ـ السياسة منها والثقافية أو الاقتصادية. والبنية «الموزاييكية» ذات التكوينات الجزئية لأوروبا وآسيا تساعد على قيام عوالم صغيرة معزولة مغلقة. فهنا تتوفر الأسس المادية لوجود دول صغرى وأنماط ثقافية خاصة لكل مدينة أو ضاحية، ومناطق اقتصادية ذات تنوع اقتصادي كبير فوق مساحة ضيقة. والأمر يختلف كلية في الأرواسيا. فالمنطقة التي فصّلت على نطاق واسع والخاصة

(*) ڤامبوكا: أوبرا ساخرة تعرّض باشتراطية العروض المسرحية وتقاليدها البالية. وضع موسيقاها ف. إيرينبورغ وعرضت في بطرسبرج سنة 1909 ثم صارت الكلمة تطلق على كل ما يمثل الاصطناعي والمفتعل على المسرح (المترجم).

(**) الأوروغرافيا: قسم من الفيزياء الجغرافية يدرس سطح الأرض (من اليونانية أوروس ـ جبل ـ غرافو ـ أكتب) (المترجم).

بتوضع المناطق «الشبيه بالعلم» لا تشجع على أي شيء من هذا القبيل. فالسهول التي لا تنتهي تعوِّد على اتساع الأفق، وعلى جسامة التكوينات الجيوبولتيكية. وفي إطار هذه السهوب ومن خلال التنقل فوق هذه الأصقاع وفي إطار الغابات ـ وعبر مياه الأنهار والبحيرات الكثيرة هنا، كان الإنسان في هجرة دائمة، يبدّل مكان إقامته دون توقف. فدخلت العناصر الإتنية والثقافية في تبادل متسارع، في تلاقح واختلاط. وأحياناً ما كانت الحياة ممكنة في أوروبا وآسيا من خلال مصالح كل مجرس(*) **لوحده**. أما في الأوراسيا فإذا ما حدث ذلك ففي المفهوم التاريخي لآونة بالغة القصر. في شمالي الأوراسيا مئات آلاف الكيلومترات المربعة من الغابات ليس منها كيلومتر واحد محروث، فكيف لسكان هذه الآماد أن يعيشوا بدون التواصل مع المناطق الأبعد نحو الجنوب؟ وفي الجنوب وعلى آماد لا تقل اتساعاً تنبسط السهوب الصالحة للرعي وإلى حد ما للزراعة، وإزاء ذلك فعلى مدى أعداد كبيرة من آلاف الكيلومترات لا توجد شجرة واحدة فكيف لسكان هذه الأصقاع أن يعيشوا بدون التفاعل الاقتصادي مع الشمال؟ إن طبيعة الأوراسيا تملي على الناس ضرورة التوحد السياسي والثقافي والاقتصادي بصورة أكبر بكثير مما نلاحظهم في أوروبا وآسيا. وليس عبثا أن ينشأ في حدود السهوب والصحارى الأوراسية بالذات ذلك النمط «الموحد»، نمط حياة الرحل ـ على مدى وجوده المعيشي بأكمله: من المجر إلى منشوريا وعلى كامل مسيرة التاريخ من الصقالبة وحتى المغول المعاصرين. وليس عبثاً أن تتوالد في صقاع الأوراسيا أمثال تلك التجارب التوحدية السياسية كالصقالبية، والهونية، والمنغولية (القرنان الثالث عشر ـ الرابع عشر) وغيرها. وما كانت هذه المحاولات تشمل السهب والصحراء فحسب بل والمنطقة الغابية الممتدة إلى شماليها والمنطقة الأبعد جنوبيها (الزنّار الجبلي» من الأوراسيا. فليس عبثاً أن ترفرف على الأوراسيا روح «أخوة الشعوب» الخاصة التي تمتد بجذورها في التواصلات العريقة والانصهارات الثقافية بين شعوب الأعراق الأشد تباعداً ـ من الجرماني (غوت القرم) والسلافي وحتى التونغوزي ـ

(*) على الرغم من غرابة التعبير بالعربية فقد آثرنا الإبقاء عليه في الروسية بالدقة المطلوبة. والمجرس: البرج المخصص للجرس فوق مبنى الكنيسة أو بجانبها، ورأى «من مجرسه» تعبير روسي يعني من وجهة نظره الشخصية الضيقة (المترجم).

المنشوري، عبر حلقات الشعوب الفنلندية، التركية والمنغولية. و«أخوة الشعوب» هذه تتجسد هنا من خلال غياب المواجهة بين الأعراق «العليا» و«الدنيا». وإن التجاذبات المتبادلة هنا أقوى من المنفّرات، وإنّ من السهل هنا أن تستيقظ «**إرادة العمل المشترك**». وما تاريخ الأوراسيا من فصوله الأولى وحتى الأخيرة إلا شاهد متواصل على ذلك. وقد تبنت روسيا هذا التقليد في إنجازها التاريخي الأساسي. ففي القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ضللوا بعض الأحيان بـ«الغربنة» المتعمدة التي كانت تطالب الروس بأن يحسّوا أنفسهم «أوروبيين» (وهو ما لم يكونوه في واقع الحال) وأن يعاملوا الشعوب الأوراسية الأخرى على أنها «آسيوية» أو «عرق أدنى» وهذا التفسير ما أوصل روسيا إلى أي شيء سوى المآسي كالمغامرة الروسية في الشرق الأقصى(*) عند بداية القرن العشرين)، وينبغي أن نعقد الأمل على أن يكون الوعي الروسي قد تخلص في الوقت الحاضر وإلى النهاية من هذا التصوّر وأن يكون أتباع «الغربنة» الروسية الذين لا يزالون يختبئون في المهجر قد جردوا من أي أهمية تاريخية. فبالتخلص من الغربنة المتعمدة فقط ينفتح الطريق إلى الأخوة الحق للشعوب الأوراسية: السلافية، الفنلندية، التركية، المنغولية وسواها.

وقبل ذلك لعبت الأوراسيا الدور التوحيدي في العالم القديم. وعلى روسيا المعاصرة، وقد تبنت هذا التقليد، أن تكف بحزم، وبلا عودة، عن الأساليب السابقة للتوحّد، والعائدة لعهد مهترىء تم التخلص منه - أساليب العنف والحرب. العمل يدور اليوم حول طرق الإبداع الثقافي، حول الإلهام، حول الاستنارة، والتعاون. وعن هذا كله يتحدث الأوراسيون. وعلى الرغم من كافة وسائل الاتصال المعاصرة، فإلى حدود بعيدة لا يزال كل شعب من شعوب أوروبا وآسيا يجلس في قفصه الصغير وتعيش هذه الشعوب وفق مصالح المجرس، «مهد التطور» الأوراسي يدعو بخصائصه المميّزة إلى العمل المشترك. وعلى رسالة الشعوب الأوراسية - أن تجتذب بمثالها الشعوب الأخرى إلى هذه الدروب.

(*) الأغلب أنّ ب. سافيتسكي قد أراد بذلك الحرب الروسية - اليابانية (1904 - 1905) بهدف السيطرة على شمال شرق الصين وكوريا. انتهت الحرب بهزيمة روسيا وبمعاهدة بورتسموث سنة 1905 وقربت اندلاع ثورة 1905 - 1907 في البلاد (المترجم).

وآنذاك يمكن أن تكون أيضاً نافعة للعمل الكوني كله صلات القرابة الاتنوغرافية تلك والتي يرتبط بها عدد من الشعوب الأوراسية مع بعض الأمم خارج الأوراسية: روابط الروس الهندأوروبية، علاقات الترك الأوراسيين مع آسيا الصغرى وإيران، نقاط التواصل القائمة بين المنغول الأوراسيين وكلها يمكن أن تحمل الفائدة لصالح بناء ثقافة عضوية جديدة **للعالم** الذي، وإن كان **قديماً**، لكنه لا يزال (نؤمن بذلك) فتياً يعد بمستقبل عظيم.

الشيوعيّة فوق الإنسانيّة
(رسالة إلى قارىء ألماني)[5]

سيستخدم التاريخ المعاصر في المستقبل مفهوم الدولة لا ذات المساحة المعينة بل القارية. ولقد كنت عامي 1962 ـ 1963 قد صورت في كتابي «أوروبا ـ امبراطورية الأربعمئة مليون نسمة» بكثير من التفصيل طرق إنشاء أوروبا «من دوبلين إلى بخارست». ولما كنت شاهداً على ما يسمى بـ«الحملة الصليبية» 1941 ـ 1945 فقد أكدت سنة 1963 أن على أوروبا هذه أن تتجنب، بأي ثمن، النزاع مع الشرق بل والأكثر من ذلك ألاّ تكن له العداوة.

إن تسارع مسيرة التاريخ يضطرني منذ اليوم إلى القول بأن الحديث الآن ينبغي أن يتناول لا التعايش السلمي بين أوروبا الغربية والاتحاد السوفياتي بل إقامة أوروبا الموحدة من ڤلاديفوستوك إلى دوبلن. وينبغي إدراك أن روسيا تنتمي إلى عداد الدول الأوروبية، وأنها الدولة الأوروبية الوحيدة المستقلة عن الإمبراطورية الأمريكية.

إن تفكيرنا التاريخي يجب أن ينصرف عن نمط الايديولوجية السائدة في الاتحاد السوفياتي الحالي. والشيوعية الماركسية ـ ليست أمراً مرعباً بل أمرٌ غبي. وعلى هذه الايديولوجية أن تزول تحت ضغط الحقائق. وهي ستزول إذ إن القيادة السوفياتية ستدرك في يوم يبدو أنه لم يعد بعيداً إن الضعف المزمن لاقتصاد الاتحاد السوفياتي مشروط بالذات بالعقائد الماركسية الجامدة. وإذا كانت القيادة السوفياتية حريصة على البقاء في السلطة ـ ويرتبط هذا بمسألة هل يبقى الاتحاد السوفياتي على قيد الحياة ـ فعليها أن تقوم بانعطاف باتجاه «النمط التاريخي

للتفكير» وأن تتخلص من العقائدية التي تميل بها إلى الضعف.

إن الحد الذي يمر عبر خط لوبيك ـ صوفيا لا يزال تُرهة تاريخية. فهو بطريقة محتومة، يذكر بتقسيم ألمانيا في منتصف القرن السابع عشر بين الدول البروتستانتية والكاثوليكية، والذي بدايةً من أيام ريشيليو ومازاريني(*) أتاح لفرنسا تأخير تشكيل الرايخ الثاني لمدة 250 عاماً.

ومثلما مكنت اتفاقية وستفال(**) فرنسا من التدخل في أمور ألمانيا فإن مؤتمر يالطا سمح للولايات المتحدة بالتدخل في شؤون أوروبا. وبعض الألمان مستعدون اليوم للخضوع للأمريكيين دون اعتراض. هذا ليس جديراً إلا بالازدراء. وها هي ذي بون تفرغ قصرية مكتب الحكومة منذ 30 عاماً. وبالإضافة إلى ذلك يلاحظ في ألمانيا المعاصرة اتجاهان: الميل إلى الحياد من جهة وإلى القومية من جهة أخرى.

فلنناقش في البداية مسألة القومية الألمانية. لم تدمر ألمانيا سنة 1945. وفي الموقف الدرامي اكتسبت رجولتها طابعاً شكسبيرياً. وكفاءتها العسكرية لا تقبل

(*) ريشيليو، أرمان (1585 ـ 1642) كاردينال منذ 1622، ومنذ 1624 رئيس المجلس الاستشاري الملكي في فرنسا، وهو ما يعني من الناحية العملية، حاكم البلاد. عزّز أسس الملكية المطلقة، وأجرى عدداً من الإصلاحات الإدارية والمالية والعسكرية، وقضى على الحركات المناوئة للإقطاع، والاضطرابات الشعبية وأدخل فرنسا في حرب الثلاثين عاماً (المترجم).

مازاريني، جوليو (1602 ـ 1661) كاردينال منذ 1641، الوزير الأول في فرنسا منذ 1643. إيطالي المولد، خاض حرباً ضد الحركة الغروندية (1648 ـ 1653) التي كانت تناوىء الحكم الاستبدادي وحكومة مازاريتي وتنادي بإلغاء الإقطاع، واستطاع بسط سيطرة فرنسا السياسية على أوروبا.

(**) صلح وستفال. وستفاليا بقعة تاريخية كانت موطن الوستفال، الفرع الغربي من السّاكس، بين نهري الراين وفيزر في ألمانيا. أعدت في مونستير وأوسنابروك بوستفاليا (1648) معاهدتا صلح أنهتا حرب الثلاثين عاماً (1616 ـ 1648) بين الدول الأوروبية [البروتستانتية والكاثوليكية حسبما أشار جان تيريار] وبموجبهما وضعت السويد يدها على منابع جميع الأنهار القابلة للملاحة في شمال ألمانيا تقريباً ووضعت فرنسا يدها على قسم من الألزاس؛ أما الأمراء الألمان فتم الاعتراف لكل منهم عملياً بالاستقلال والسيادة فوق أراضيه وهو ما رسّخ تفتت ألمانيا إلى إمارات ودويلات صغيرة خلال مرحلة طويلة من التاريخ (المترجم).

الجدل. وفي حزيران من 1940 فرّت الطبقة الحاكمة الفرنسية من باريس دون أن تنظر خلفها. وفي نيسان 1945 راحت القيادة الألمانية تتهاوى صريعة في شوارع برلين. ألمانيا لم تدمر سنة 1945 بل سحقت. بصفة نهائية. وعلى مدى 12 سنة فقط وجدت ألمانيا كدولة متكونة واحدة بينما كانت انجلترا وفرنسا وإسبانيا بهذه الصورة على مدار قرون. ولكن إذا سحقت ألمانيا سنة 1945 فإنها هي التي طمحت إلى ذلك. ذلك أن هتلر أراد إقامة أوروبا الجرمانية. وكانت فكرة أوروبا «الأوروبية» فوق مستوى إدراكه. ذلك الإنسان الذي كان خارقاً للعادة في أمور كثيرة أبدى قصر نظر مطلق في هذه المسألة. ولما كان ريفياً، وليد أوروبا الوسطى، فقد بدا عاجزاً عن تقدير الأهمية العظمى للبحر الأبيض المتوسط بالنسبة للجيواستراتيجية، ولم يكن فضلاً عن ذلك، قادراً على السمو حتى فكرة أن بإمكان الشعوب الأخرى أيضاً أن تكون ذات خصال خارقة. واحتقاره للإنسان الروسي، للسلافي، كان السبب في سوء تقييمه لشجاعة الجندي الروسي. وكانت دعاية غوبلز تصور الروس على أنهم مزيج مثير للريبة من التتر والمغول والكالميك. كما أن دائرة التصوير في قسم الدعاية والمصورون السينمائيون في جبهة «PK» كانت تسعى إلى أن ينافس بعضها بعضاً في هذا المضمار.

أكتب اليوم على مجلة «Revue militaire sovietique» (مجلة الجيش السوفياتي) ويظهر الجنود السوفيات فيها، على عكس منشورات الدعاية الغوبلزية «بوجوه جذابة، كوجوه أبنائنا تماماً»: طوالاً، ذوي شعور شقراء مقصوصة و«نظرة مرحة». لم يكن الدكتور غوبلز يقول لنا بأنهم أحفاد الڤارياغ. أولئك الڤارياغ الذين كان يمكن أن يدخلوا، دون أي عائق، في فرقة الـ«SS» وهم يستجيبون تماماً للمواصفات العرقية التي على أساسها كان يتم اختيار المرشحين للدخول في الفرق الخاصة من الرايخ الثالث.

المشاهد الرخيصة تتبدل بتبدل النظام السياسي والمرحلة التاريخية. وإجمالي قسم تل أبيب ـ واشنطن للدعاية يصور الجيش السوفياتي جيشاً لا يقوم بأي شيء في أفغانستان سوى أعمال الاغتصاب والحرائق وتقتيل الأطفال والنساء والشيوخ دون سواهم.

عايشت في صباي بصفة حادة المحاولة الفاشلة للتقارب الفرنسي ـ الألماني في سنتي 1940 ـ 1942. فعند استقبال الأميرال دارلان(*) في بيرتيخفادين في الـ14 من أيار 1941 كان هتلر لا يزال واقعاً تحت انطباع فرار هيس إلى انكلترا (11 أيار 1941). وهتلر لم يكن كبير القلب، لم يكن قادراً على قبول أن ينتهي النزاع الفرنسي ـ الألماني بدون مهزوم وبأن تسلم فرنسا من الدمار، تلك الفرنسا التي كانت لا تزال تملك المستعمرات الأفريقية والمتوسطية بشكل خاص وتملك أسطولاً كاملاً. وبالتحالف مع فرنسا كان بمقدور هتلر، بعد عبوره سوريا أن يحتل العراق، وبذلك ينزل الهزيمة بانكلترا في البحر المتوسط. وكان على الأسطول الإنكليزي آنذاك أن يخرج من البحر المتوسط. «كان كل شيء ممكناً» في اليوم التالي لمجزرة المرسى الكبير في الثالث من حزيران سنة 1940. عندما نكّل الأسطول الإنكليزي ببحارة الأميرال جانسول العزّل. في الأسبوع التالي لتلك الأحداث كان يمكن لهتلر أن يجتذب فرنسا إلى الحرب ضد انكلترا. لكنه كان ينبغي أن يكون ذا قلب كبير وأن يفكر بطريقة أوروبية. لم يكن هتلر أوروبياً عظيماً. لم يكن إلاّ ألمانياً عظيماً.

عشت ذلك كله وكابدته. لقد شاركت في الأحداث ولكن لا إلى جانب ألمانيا بل إلى جانب التيار الوطني ـ الاشتراكي. الكثيرون منا أصيبوا آنذاك بخيبة الأمل وأحس بعضهم بأنهم قد استغفلوا. ومع كل ذلك رحنا جميعاً نحارب إلى جانب الرايخ وقد بذل كثير من زملائي حياتهم في سبيل ذلك: بعضهم سقط في الجبهة الشرقية وأُطلق الرصاص على الآخرين فور انتهاء الحرب في أيار سنة 1945. وبفضل محامين ذوي تأثير قدّرت لي النجاة بثلاث سنين من السجن الاعتيادي وهو ما كاد يعادل الهدية. وقد استنتجت من هذه القصة كلها أن القومية التي تخضع المهزوم وتستغله وتذله إنما تحمل ضرراً كبيراً. لم يكن هتلر قادراً على الارتفاع إلى مستوى القومية الموحِّدة.

(*) دارلان، جان لوي (1881 ـ 1942) أميرال فرنسي (من 1939). كان قائد القوات البحرية الفرنسية في الحرب العالمية الثانية، شارك بين 1941 ـ 1942 في «حكومة فيشي» وترأس قيادة قواتها (1941 ـ 1942) وفي سنة 1942 دخل في اتفاقية مع الحلفاء الذين نزلوا في كانون الأول 1942 في الشمال الأفريقي. قتله أحد القوميين الفرنسيين (المترجم).

لقد تحملت القوميتان الألمانية والفرنسية غير قليل من المآسي والأضرار. ولهذا فإن علينا أن نقمع بدون شفقة وباسم المصالح الأوروبية أيّ تجلّ للقومية الألمانية مهما كان زهيداً.

ليس لألمانيا ما تشكو منه على أنها تعرضت للهزيمة عام 1945.

إنها سارت بنفسها إلى ذلك بإذلالها البولنديين والروس واحتقارها الفرنسيين.

وقد أخطأت ألمانيا الهتلرية عندما اختارت إيطاليا موسوليني حليفاً لها. كلفها هذا التحالف سلسلة كاملة من الحماقات والأخطاء. كان موسوليني يقاوم أي تقارب لفرنسا مع إيطاليا. ولهذا السبب بالذات أخطأت ألمانيا، وبصفة خاصة عدد من النازيين ـ محبي الإنكليز، في اختيار العدو. لقد فهم رودولف هيس(*) خطأً وبصورة حرفية جداً نظرية الجنرال هاوسهوفر وكان هيس ضابطاً عنده إبان الحرب العالمية الأولى 1914 ـ 1918. وفي حرب 1940 لم تكن فرنسا القارية عدو ألمانيا الذي لا يرحم بل انجلترا البحرية. انجلترا بالذات وعلى مدى خمسة قرون هي العدو الأساسي والرئيسي لأوروبا.

في سنة 1945 تكبد الرايخ الثالث هزيمة كاملة. ولكن هذه الحرب لم تخسرها ألمانيا لوحدها. بل خسرناها جميعاً. في البداية أخرج الهولنديون من مستعمراتهم. ومن بعد ذلك أخرجت فرنسا وانجلترا ثم بلجيكا. وبعد التضييع المخزي للجزائر سنة 1962 كفت فرنسا بصفة نهائية عن وجودها كدولة عظمى مستقلة. لقد خسرنا جميعاً هذه الحرب. ومنذ نهاية 1941 أخذ الإنكليز بإزاحة الفرنسيين عن بلدان الشرق الأوسط (سوريا) وانتقاماً لذلك ساعد الفرنسيون الصهاينة على إخراج الإنكليز من فلسطين. وحتى قبل سنة 1945 حاول الإنكليز والفرنسيون تجريد إيطاليا من مستعمراتها الأفريقية. وأخيراً في سنة 1960 وبأمر من واشنطن غادر البلجيكيون الكونغو، أغنى دولة في كل أفريقيا. ونزاعاتنا الوطنية أفضت إلى هلاك أوروبا بأسرها أو في أفضل الأحوال، إلى وجود أوروبا المتعددة

(*) هيس رودولف (ولد سنة 1894) أحد كبار قادة الفاشية الألمانية. منذ 1925 كان أمين سر هتلر. وصار نائبه في الحزب منذ 1933 لكنه سنة 1941 طار إلى بريطانيا باقتراح وقف الحرب فاعتقل وحكمت عليه محكمة نورنبرغ بالسجن مدى الحياة (المترجم).

القوميات. وقد آن الأوان الوقت لإنشاء أوروبا الموحدة القارية، المتعددة القوميات، أوروبا العظمى «من ڤلاديڤوستوك إلى دوبلن».

بالجمع بين تصورات هاوسهوفر الجيوبولتيكية الواضحة وقوة الجيش السوفياتي يجب القيام بالتوجه من الشرق إلى الغرب، بمحاولة تحقيق ما لم ينجح هتلر في إنجازه عندما سار من الغرب إلى الشرق. ويجب تخليص الشيوعية من عجزها المشروط بالدوغماتيات الماركسية واللينينية. الشيوعية ذات النمط السوفياتي يجب أن تُطهّر من الماركسية، أن يُسار بها نحو الكمال، يجب إخضاعها لتغيير فجائي.

من الضروري إيجاد تركيب من الشيوعية اللاماركسية مع الوطنية ـ الاشتراكية غير العنصرية. أنا ضد الشيوعية العاجزة، ولكنني مع الفعالة. وفي هذا بالذات تتجسد الوطنية ـ الاشتراكية. وهذا التركيب يجب أن يعكس الفهم العبقري لامبراطورية الاسكندر الكبير وقيصر: فالإمبراطورية هي القومية التكاملية، المرنة. المهزوم يغدو شريكاً، عَوْناً، وفي النهاية من أبناء الوطن. وأتحدث هنا عن «الشيوعية الإمبراطورية»، عن «روما جديدةٍ» أو «بروسيا عظمى»، عن امبراطورية تغدو تعبيراً عن دولة ذات بنية وظيفية كاملة، عن امبراطورية يُمنح حق الانضمام إليها لا لكل دولة.

ولا تستثنى إزاء ذلك خطورة ظهور القومية الروسية الكلاسيكية التي تكون وسيلة ضغط على الشعوب الأخرى واستغلالها. إذا كان الاتحاد السوفياتي سيحاول أن يفرض علينا أوروبا ذات النمط الروسي فستخفق هذه المحاولة بصورة أسرع من إخفاق محاولة ألمانيا الهتلرية. أما إذا كان الاتحاد السوفياتي سيسعى، على العكس من ذلك إلى استخدام مبادىء القومية «السوفياتية» ذات النمط الإمبراطوري، القومية التكاملية، فستكون أمامه حظوظ أكبر من النجاح. ومفهوما «روسيا العظمى» و«الإمبراطورية السوفياتية» يعكسان تصورين معارضين وبالذات مفهومي القومية الضاغطة والقومية المكملة. والقومية الضاغطة تفرّخ وتدعّم وتزيد من حدة الشعور القومي لدى الدول المجاورة. فهي بنفسها تفرّخ أعاديها، أضدادها. وفي حالة فشل التصفية العنصرية التي مارستها فإنّ مثل هذه القومية محكومة بالفشل بقوة التناقض الضمني المتمركز في داخلها.

وبالنسبة للغالبية العظمى من الناس فإن استبدال القومية «الترّابية» (الضاغطة) بمفهوم القومية الإمبراطورية «القارية» عملية عقلية صعبة إذا لم تكن مستحيلة.

القومية الضاغطة تذكر بالخيار التطوري، الذي سارت عليه المفصليات فهي تعمل وفق برنامج معطى بطريقة صارمة وقد وضع نهايته بنفسه. وخلافاً لها تذكّر القومية التكاملية، التي تعكس «الفهم الإمبراطوري»، بالفقريات، فمن الناحية النظرية يبدو انتشارها الترابي بلا حدود. وسواء أكان الأمر على المستوى الأعلى من التصور أم على المستوى الأدنى من الايديولوجيا فإن اختيار المفصليات كنقيض لاختيار الفقريات يمكن أن نجد له نظيراً في عدد كبير من الميادين: بدءاً من الدين حتى تشكل القوميات، بما في ذلك صياغة النظريات السياسية. فالديانة اليهودية القائمة على التأول العرقي تشارك المفصليات مصيرها. فلم تحظ، من وجهة النظر الديموغرافية، إلا بانتشار محدود. وفي مقابل ذلك حظيت الديانتان المسيحية والإسلامية اللتان لم تتحددا بمعايير عرقية ولا لغوية بانتشار غير محدود.

كما سار توسع ألمانيا الهتلرية المصفّدة بالحدود العرقية، اللغوية في طريق المفصليات أيضاً، فانتهت بعسر الهضم المميت ـ بالعجز عن هضم 200 مليون من السلافيين. كما ينبغي حشر «ديروليد»ات الأمس و«ديبريه»(*)ات اليوم بالإضافة إلى من يتنفسون على موضة الخوذة ذات الأكواز أو موضة الصليب المعقوف في طبقة المفصليات. وجميعهم مضغوطون بدروع أيديولوجياتهم القاسية. أما بالنسبة للقومية الأوروبية فإنها شبيهة بتطور الفقريات. فهي نوع من النظم المفتوحة، تتسم بالمرونة والقدرة التكاملية. ويتطلب فهمها مستوى من التفكير بعيداً عن مدارك أغلبية «القوميين الاعتياديين».

ونقترب هنا من مسألة المحاولة المعروفة لتحييد، «فنلدة» ألمانيا.

الحياة لا ترحم الضعفاء. وهذا ما يمكن قوله عن التاريخ. فأوروبا المعاصرة التي مزقها إرباً القوميون الضيقو الجبين (الفرنسيون، الألمان، الإنكليز ومن جر

(*) الأقرب أن المؤلف يقصد به «ديبريه» Debré، ميشيل (ولد عام 1912) أحد مؤسسي الأحزاب الفرنسية: وحدة الشعب الفرنسي، اتحاد الديموقراطيين من أجل الجمهورية، ومن 1976 ـ وحدة الدفاع عن الجمهورية. منذ 1958 تولى الوزارة عدة مرات وصار بين 1959 ـ 1962 رئيساً للوزارة في فرنسا (المترجم).

جرْهم) تبدو ميدان معركة محتمل. وهي في هذا تتشابه مع ألمانيا منتصف القرن السابع عشر. ومثلما تحدثوا في الأيام الماضية عن «الألمانيات ـ الدمى» التي يجذبها ريشيليو أو مازاريني بالخيط، فبالإمكان الحديث اليوم عن «الأوروبات» التي تتحكم بها واشنطن.

إن جميع من يقبلون بالسيطرة الأمريكية في أوروبا (وبخاصة في ألمانيا الغربية، حيث تتخذ السيطرة طابعاً علنياً بصفة مطلقة) والمستعدين للتوجه نحو «فنلدة» أوروبا الغربية يمكن أن نسميهم مازوشيين من التاريخ. وفي سنة 1840 عندما كان أفضل ممثلي ألمانيا يناضلون في سبيل وحدة الرايخ الثاني رفع هؤلاء المازوشيون فضائل صلح ويستفال (مخطط الاتفاقية لمئتي سنة) فقد مجّد نكرةٌ اسمها كريستوف غاك التفاهة التاريخية لألمانيا. وهذا النمط من التافهين، الذين يقبلون بشراء السلْم بالخصاء التاريخي، ليس جديداً على الإطلاق.

ينبغي البحث اليوم عن التقارب مع الاتحاد السوفياتي. وفي البداية يجب إجراء المفاوضات حول التقارب، ثم حول الوحدة، ثم حول التذاوب معه. والحديث يتناول المفاوضات العلنية بصورة مطلقة. لسنا في حاجة إلى مصالحة بين القط والفأر.

ويجب أن تحصل ألمانيا على حق المساواة والكرامة في إطار أوروبا الغربية. ومن الضروري التخلص، إزاء ذلك، من المقولات اليهودية ـ الأمريكية حول «الشعب المذنب» والخطيئة الأولى لدى الألمان. فذاك هذيان توراتي. وصورة ألمانيا اللاإنسانية تغذّى بصفة شاملة بمساعدة كافة وسائل الإعلام الجماعية في فرنسا، انجلترا، بلجيكا، هولندة وإيطاليا. وتهدف هذه الدعاية إلى فصل أوروبا الغربية، والحيلولة دون توحدها بالضغط على الجروح القديمة.

لقد أُوصلت القوات المسلحة لألمانيا الغربية، البوندسڤير اليوم إلى مستوى المشاة الاستعماريين (كالسينغاليين في حرب 1914 ـ 1918) للولايات المتحدة.

وعلى ألمانيا الحالية أن تتحلّى بالشجاعة لكي تطرد الأرواح الشريرة من داخلها ولكي تقول لنفسها إن القومية الاشتراكية تنتسب بصفة نهائية إلى مخلفات الماضي. وعلى أية حال فقد اقترف هتلر من الجرائم ما لا يزيد عما اقترفه أولئك الذين لطخوا أياديهم بالدماء، عندما قصفوا هامبورغ بالقنابل أو عندما دمروا

درسدن سنة 1945 دون هدف. هذا إذا لم نتحدث عن 1500 من النساء والأطفال والشيوخ الأبرياء الذين قتلوا منذ فترة قصيرة في لبنان(*). على كل إنسان أن يكون مسؤولاً عن تصرفاته، ولكن في النهاية سيأتي اليوم الذي تصبح فيه هذه التصرفات مادة لا للسياسيين بل للمؤرخين. وقد جاء هذا اليوم بالنسبة لألمانيا. وعلى وجه التقريب توفي جميع من شاركوا في حرب 1939 ـ 1945. ولا ينبغي للجيل الجديد من الألمان أن يتحمل تركة هتلر. ومن جهة ليس على ألمانيا أن تنزع عنها بصفة نهائية مسؤولية جرائم الحرب، ومن جهة أخرى ـ فإن من حقها اليوم أن تطالب بمبدأ توقيت التقادم بالنسبة لها. فليس من واجب ألمانيا أن تقبل أكثر بدورها كربيبة للسوق المشتركة أو الناتو. الربيبة التي أبواها بالتبنّي «مرعبان».

على أوروبا الغربية أن تطمح إلى الحياد المسلح وأن تبتعد عن الحياد غير المسلح. فالمازوشيون والسذّج والخصيان فقط يمكن أن يصفقوا لمثل هذا الحياد. وعلى أوروبا أن تطرد بعيداً الـ 400000 جندي أمريكي الموزعين على أراضيها. وخطر الحرب يستتر في الوجود العسكري الأمريكي في أوروبا. ويمكن للبنتاغون الخاضع للمكتب الحكومي الذي يحمي دولة إسرائيل أن يلعب لعبة «البوكر الذري» في أوروبا رداً على أعمال الاتحاد السوفياتي في البحر المتوسط أو في أي مكان آخر من العالم.

وإذا ما وجد السلاح الذري في أيدي الأوروبيين (بمن فيهم الألمان الغربيين بالطبع)، فإن الاتحاد السوفياتي سيتعرّض، إلى حد من المجازفة، للصراع الذري بنسبة أقل بكثير مما لو كان هذا السلام في أيدي الأمريكيين الموزعين في أوروبا. فأوروبا هي أرض المعركة الأبدية ـ حقل التجارب. ويوجد هنا ما يستحق التأمل. فقد ذقنا فظائع الحرب سواء في روسيا 1941 ـ 1943 أو على أرضنا في 1943 ـ 1945. وهنا يعرفون ما هي الحرب ولا يتخذون قرارها إلا في الحالات القصوى. أما في واشنطن، عاصمة البلاد التي لم تظهر على سواحلها منذ قرنين تقريباً أي سفينة دفاعية صغيرة، فلا يعرفون ما هي الحرب.

(*) المرجّح أن المقصود بذلك هم ضحايا مذبحة صبرا وشاتيلا «الذين قتلوا منذ فترة قصيرة في لبنان» في أيلول من سنة 1982 وهو الأقرب إلى التاريخ المذكور في المرجع رقم 5 بين مراجع الباب السابع من هذا الكتاب. (المترجم)

على أوروبا أن تضع في أساس سياستها إقامة حلف مع الشرق، حلف مشروط بتصورات جيوبولتيكية. فأوروبا الممتدة من الغرب إلى الشرق لا يمكنها أن تتوقف عند خط لوبيك ـ صوفيا. وفي الوقت نفسه لا يمكن للسوڤيات العظام القادمين من الشرق إلى الغرب أن يتوقفوا عند هذا الحد المرسوم بطريقة مفتعلة. ومستقبلنا البعيد يمكن قراءته على الخارطة الجغرافية. والحدود الممتدة على طول خط لوبيك ـ صوفيا هو خط دفاعي، وعلى غاية من قابلية الاختراق في حالة حدوث حرب كر وفرّ. ووجود مثل هذه الحدود على مستوى كبير من الخطر من وجهة النظر الجيوستراتيجية. وحمايتها على غاية من الصعوبة. وبهذا بالذات تفسر الأهمية التي يضفيها الاتحاد السوفياتي على الأسلحة الكلاسيكية و«جناح» لوبيك ـ صوفيا يمثل نقطة الضعف الوحيدة في الدفاعات السوفياتية عند المشارف البعيدة. فالاتحاد السوفياتي محمي حماية جيدة من كافة الجهات بفضل مناخه (من الشمال) وآماده البعيدة من الجنوب. وإذا ما عبرنا بلغة العلم العسكري الكلاسيكي أمكننا مقارنة الجيش الأمريكي المرابط في ألمانيا الغربية بجيش سوفياتي واحد يقف في كندا بين مونتريال وڤينّيبيغ. وفي هذه الحالة الافتراضية تكون القطعة الرئيسية للقوى البرية الأمريكية متوضعة بين مينيابوليس وبوسطن.

والشطآن «الطبيعية» للاتحاد السوفياتي (في مقابل الحدود) هي جزر الكناري، جزر الآزور، إيرلندة، وإيسلندة، ترتبط أيضاً بأوروبا الغربية.

لا يمكن تصور أمة «مثقفة» أو متطورة اقتصادياً بدون التشديد على الأمة «القوية سياسياً». فمنذ 1648 وحتى 1870 كانت ألمانيا أنموذج الأمة «المثقفة»، وكانت تشتهر بخزفها وموسيقييها. وإلى جانب ذلك كانت ميدان معركة لكل من يريد. فلا أمة بلا جيش، ولا جيش اليوم بدون سلاح ذري. وهذه الدول من أمثال انجلترا وفرنسا لن تعد، بعد فقدانها مستعمراتها، إلا **صوراً هزلية** لدول عظمى وليس ثمة اليوم أي وزن دولي لأمة يقل عدد سكانها عن 200 ـ 300 مليون نسمة. والتاريخ يخيّرنا بين أمرين:

1) الاتحاد السوفياتي يحتل أوروبا الغربية أو يكون عليه أن يفعل ذلك ضمن حرب وقائية.

2) يتم النجاح في تجنب الحرب، وتكون أوروبا الغربية، وقد تخلصت من عملاء واشنطن السياسيين، متجهة إلى التحالف السياسي مع الشرق.

التعاون، فالشراكة، فالاتحاد وأخيراً الوحدة. وألمانيا التي تقف اليوم بإحدى رجليها في الغرب، وبالأخرى في الشرق، يمكنها أن تكون أفضل من يقوم بدور الوسيط.

توجد في ألمانيا حركة قومية يسارية التوجه ظهرت في برلين الغربية خلال فترة الاستراحة بين الهابيننغ وأمسية مع تعاطي المخدرات، وقد فرغ الأب براندت من تموين بلاده وعِرْقه. وبوسعنا أن نتسلّى الآن بالخيالات الرومانسية لنجله بيتر. وتحويل البوندسفير إلى «الجيش الوطني الشعبي» على النمط اليوغسلافي - مَضْحكة حقيقية. فحتى في حالة التوحّد (وأنا أسمح بمثل هذه الفرضية) لما صارت ألمانيا سوى دويلة قزمية مثلما هي فرنسا ميتران وانجلترا تاتشر المتباهيتين بـ «استقلالهما» عن الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي والصين. والشبان المساكين المتطلعون إلى بيتر براندت يريدون أن يعيدوا أزمان ألمانيا الرومانسية حتى سنة 1848، ألمانيا ما قبل فخته، وفي سنة 1982 لا يعود الحديث يدور فقط حول ألمانيا «ميدان المعركة» بل حول مجموع أوروبا - «ميدان المعركة».

إن الحرب الدينية بين «الشيوعية الماركسية» وبين «المقرطة» تعمي أبصار الغالبية من هؤلاء الناس، وهذا العمى يحول بينهم وبين وعي الواقع الجيوبولتيكي. ولكي لا تغدو أوروبا «أرض المعركة» ينبغي نقل اتجاه الهجوم السوفياتي الممكن نحو جبل طارق، دوبلن والدار البيضاء. ينبغي البحث عن الاتفاق مع الاتحاد السوفياتي ووضع أسس التعاون الفعال منذ الآن. وميدانَ الحرب الممطوطة يجب أن يكون جزء من أفريقيا بين خطي عرض 20 شمالاً و20 جنوباً. وحتى فيما لو أخليت هاتان المنطقتان بصفة جزئية فلن ينعكس كثيراً على مستقبل البشرية.

ولكي نتفادى دمار أوروبا يجب علينا أن نتوجه نحو التعاون الوثيق مع الاتحاد السوفياتي لا نحو الخديعة التي عرضها هتلر على الفرنسيين في 1940 - 1942. على أوروبا الغربية والاتحاد السوفياتي أن يستحدثا «وحدة مصير» تمليها الجغرافيا، زواجاً محسوباً، زواجاً بالإكراه.

وعلى الاتحاد السوفياتي وأوروبا أن يصوغا، وبالسرعة الممكنة، نوعاً من الثقل المقابل لمبدأ مونرو، ومبدأ مونرو الخاص بنا ينبغي أن يكون شعار «. . .

ولا جندي واحد، لا جنديّ أمريكي واحد على البحر الأبيض المتوسط». والمشاكل الأوروبية يجب أن تحل من طرف الأوروبيين أنفسهم. والروس ـ أوروبيون مثلهم مثل الألمان ـ الفرنسيين، الإنكليز وغيرهم من الشعوب الأوروبية.

ويجب علينا أن نرغم الأمريكيين على الخروج من أوروبا ليس فقط لأسباب جيوبولتيكية. فوجودهم في أوروبا يمكن مقارنته باحتلال القرطاجيين لصقلية على مقربة من الجمهورية الرومانية. وبالبقاء في أوروبا وتضخيم مخاطر نشوب الحرب لا يستطيع الأمريكيون أن يسيطروا على أزمة مجتمعهم الذي لا يزال في طور البداية ونحن نجازف بخطر العدوى منهم. وأزمة المجتمع هذه مشروطة بانهيار ثلاثة ميادين.

1) البناء التقني الاقتصادي.

2) السياسة المبنية على القناعة والديماغوجية، وبكلمة واحدة «المقرطة».

3) الثقافة المستوطنة.

فالبنية التقنية الاقتصادية تمثل انعكاس العالم المادي، عالم العلم، العقلانية والنبوءة. والميدان الثاني، ميدان السياسة لا يخضع لأي تحليل منطقي، لأي نظرة عقلانية. وهنا تسيطر حجة القناعة (في الميدان الأول تسيطر البرهنة المنطقية ـ التجريبية). أما ما يتعلق بالثقافة فمن الأقرب إلى الواقع ردّها اليوم إلى عالم الطب النفسي. على الأقل في الولايات المتحدة. والنظام الشمولي وحده قادر على فرض التوازن بين هذه الميادين الثلاثة.

منذ زمن بعيد كان يجب إدخال مصطلح العقلانية في السياسة. وفي دراستي القادمة «الإمبراطورية الأورو ـ سوفياتية» سأكرس فصلاً كاملاً لمسألة ما إذا كان ينبغي أن تبنى السياسة، ما وراء السياسة، على القوة أم على المتعة (الإشباع).

لقد قامت أمريكا الشمالية باختيارها النهائي لصالح المتعة، وسياستها موجهة، في مجموعها، نحو «وسائل المتعة»، ومثل هذا الخيار يمكن أن يؤدي بالإنسانية إلى المأزق. ويتبقى أن يتعقل الشيوعيون وأن يفهموهم فيم تتجسد الميتابولتيكا، الموجهة إلى وسائل «الفِعْل» أو بكلمة أخرى، إلى وسائل القوة.

لقد أثبت هوبس(*) أن الحرية تستند على القوة. وفي عصرنا الحاضر، عصر الثوَرة التقنية يمكننا أن نضيف إلى هذا أن القوة تخدم المعرفة (البحوث الكونية، الدراسات الأساسية في حقل الفيزياء)، والمعرفة تَهَبُ القوة.

وإذا ما أردنا صنع الـhomo novus(**) كان علينا أن نطرح خياراً بين القوة والمتعة. كان حلم ماركس إعطاء كلّ وفق حاجته، ومن السهل في أيامنا هذه تحقيق ذلك، فالتوصل إلى الوفرة ـ ليس سوى مشكلة تخطيط وإرادة. ويتطلب حلها ما لا يزيد عن ربع قرن، ويمكن لهذه الوفرة أن تؤدي إما إلى ظهور مجتمع النمط التمتعي والمحكوم عليه بالانهيار (الولايات المتحدة) وإما إلى تحويل الإنسان العادي إلى homo novus.

لم يزد هكسلي وأورويل عن أن أشارا إلى الجانب السلبي الممكن من «العالم الرائع الجديد» أما الناحية الإيجابية فبقيت مجهولة بالنسبة لنا.

تذكروا أيضاً نبوءة كيستلر: «**الأطروحة ـ المنتصرون، النقيض ـ المهزومون؛ التركيب ـ يغدو المنتصرون والمهزومون المواطنين المتآزرين في الوطن الأوراسي العملاق الجديد**».

ولكنت حولتها إلى ما يلي: «**الأطروحة ـ الوطنية ـ الاشتراكية العِرْقية، النقيض ـ الشيوعية الماركسية؛ التركيب ـ الوطنية ـ البولشفية الأوروبية العظمى، وبكلمة أخرى، الشيوعية النخبوية الإمبراطورية التي رفضت ماركس كأيديولوجي وهتلر كقومي محدود قصير النظر...**».

(*) هوبس (Hobbs) توماس (1588 ـ 1679) فيلسوف انجليزي. أول من صاغ النظام المتكامل للمادية الآلية. الهندسة والميكانيك بالنسبة له ـ النظامان الأكمل للتفكير العلمي. والطبيعة اجتماع لأجسام متجاذبة تتفاوت فيما بينها بالحجم وبالشكل والتوضع والحركة (التحول). من أهم مؤلفاته: «عن الجسد»، «عن الإنسان»، «عن المواطن» (المترجم).

(*) Homo novus باللاتينية، الإنسان الجديد. استخدمها الرومان لأول مرة بمعنى الإنسان الذي خرج من الأوساط الدنيا وتوصل إلى موقع رفيع يضمن له الشهرة والمال. والمؤلف يفاضل من خلاله بين الإنسان المتطلع إلى القوة أو ذاك المتطلع إلى المتعة. والطريف أن مصطلح «الروس الجدد» قد تردد في هذا الكتاب أكثر من مرة ليشير إلى من توصلوا فجأة إلى وبطرق غير مشروعة إلى الثراء (المترجم).

كانت الوطنية ـ الاشتراكية مدرسة رائعة للتأثير، ذلك التأثير نفسه الذي تفتقر إليه الشيوعية الماركسية.

على الشيوعية الاعتيادية أن تصنع طفلاً يولد منه نجل خارق للعادة، نوع من «الغول المَوهوب». الشيوعية ما فوق الإنسانية.

وكان كستلر منذ عام 1941 قد عرف من يجب أن يصبح أباه.

التوتر الكوني بين الشرق والغرب والمواجهة بين الأرض والبحر[6]

المواجهة بين **الشرق والغرب** والواضحة كل الوضوح في وقتنا الحاضر، تتضمن في ذاتها تناقضات مختلفة الأنواع: المصالح الاقتصادية، الاختلافات النوعية بين النخب الحاكمة واستحالة الجمع بين الأسس الثقافية المؤسسة. وهذه التناقضات تتنامى جميعاً بينما يدعم بعضها بعضاً. إلا أن الارتباط بين التوترات الاقتصادية والسوسيولوجية والروحية تجلى في كافة الحروب العظمى من التاريخ الإنساني. وتتمثل خصوصية التناقض المعاصر في أن ذلك التوتر صار عالمياً ويشمل الكرة الأرضية بكاملها. ولهذا فإن من الضروري بشكل مطلق تدبّر ذلك المكنون التاريخي والجيوبولتيكي الذي تقوم على أساسه هذه المواجهة المتوترة.

كلامنا يتناول تناقضية **الشرق والغرب**. ومن الواضح إزاء ذلك أن الكلام لا يمكن أن يدور حول الاختلافات الجغرافية فقط. وفي مسيرة بحثنا سندرس بصفة شاملة ذلك النوع من التناقض الذي يجري حوله الحديث، وسنبين أن ثمة نمطين مختلفين من المواجهة المتوترة: التاريخية ـ الديالكتيكية والسكونية ـ القطبية.

مواجهة **الشرق والغرب** ليست مواجهة قطبية. فللأرض قطباها **الشمالي والجنوبي** وليس لها قطب **شرقي ولا غربي**. وفي ظروف كرتنا الأرضية لا تبدو المواجهة الجغرافية بين **الغرب والشرق** أمراً راسخاً أو سكونياً، إنها مجرد علاقة ديناميكية ترتبط بـ«تناقص الضوء» اليومي. ففي المعنى الجغرافي تبدو الولايات المتحدة **غرباً** بالنسبة لأوروبا، وبالنسبة لأمريكا تبدو الصين وروسيا **غرباً** أما بالنسبة للصين وروسيا **فالغرب هو أوروبا**، وفي المعنى الجغرافي المحض تغيب الأقطاب

الدقيقة، وبناء على ذلك فانطلاقاً من الجغرافيا لوحدها يستحيل استحالة مطلقة أن يُفهم بصورة واقعية ذلك التوتر العدائي الكوني القائم بين **الشرق والغرب** وإدراك بنيته المؤسسة له.

(1)

يمكن السير في طريق استقصاء الخاصية التاريخية، الثقافية والأخلاقية **للشرق** الحالي **والغرب** الحالي والتوصل، بهذه الطريقة إلى استخلاص عدد كامل من النقائض ذات الأهمية الخارقة دون شك، وبودي هنا أن أستخدم مصطلحاً طرحه الجغرافي جون غوتمان للاستخدام وذلك في دراسته المتألقة «La politique des etats et leur geographie»[7]: ـ وهو مفهوم الأيقونوغرافيا الإقليمية (أيقونوغرافية المدى) ـ iconographie regionale. فلوحات العالم وتصوراته المختلفة، والتي تظهر نتيجة للديانات والتقاليد المتنوعة والماضي التاريخي المختلف والأنماط الاجتماعية المتباينة تشكل مجالات ذات استقلالية ذاتية. وبهذا المعنى تنتسب إلى أيقونوغرافية المجال المعيّن لا اللوحات وإبداعات فن النحت فقط بل وجميع الصيغ المرئية للحياة الاجتماعية والخاصة أيضاً. ومنذ فترة قصيرة أشار لويس دييس ديل كورّال إلى المعنى الجوهري للفن في هذا الخصوص، وذلك في كتابه «اختطاف أوروبا» والذي يمكن تسميته موسوعة الأيقونوغرافيا الأوروبية. وقد درس كارلوس أوليبرو الفارق بين فهم الشكل في هذه الأقاليم الثقافية أو تلك وبخاصة في مجال تركيبة السلطة وبنية الدولة. وفي مفهوم «**إيقونوغرافية المدى**» يمكن أن ندخل إلى جانب الأشكال المختلفة للحياة الاجتماعية وجميع الصيغ النموذجية يتجلى الوجود الإنساني ونظم التضمينات المميّزة واللغة المرموزة للعواطف والأفكار في الصورة التي تبدو مميزة لأراضي معينة ذات الثقافة الخاصة التي لا تتكرر.

وإلى هنا تنتسب صور الماضي، والأساطير مثلها مثل جميع الرموز والتابو متوضعة طبوغرافياً في مجال محدّد، وبقوة ذلك فقط اكتسبت واقعها التاريخي.

(*) الساغات. (ج ساغا باللغة الإيسلندية القديمة) قصص قديمة لم يحدَّد مؤلفوها. تجمع إلى المادة التاريخية واللوحات النفسية حيوية العرض الواقعي وتجسيد البطولة. وهناك ساغات تاريخية مثل «هايمسكرينغدا» للشاعر السكالْد الإيسلندي سنورّي ستورلوسون (1178 ـ 1241) تتناول ملوك النرويج وتاريخ بلادهم حتى سنة 1778 (المترجم).

ويتحدث غوتمان في هذا الخصوص عن «**تداول الإيقونوغرافيات**» أي عن التأثير الديناميكي للثقافات بعضها على البعض الآخر، مع امتداد الزمن. وعلى هذا فبدلاً من نظرية «تداول النّخب» الشهيرة لباريتو تدخل نظرية «تداول الإيقونوغرافيات» التي لا تقل شهرة.

واستخدام كلمة (ومفهوم) «الإيقونوغرافيا» يبدو لي في هذه الحالة دقيقاً ومثمراً لأن ذلك المصطلح يبيّن، قبل كل شيء، وبالصورة الأدق، جوهر المواجهة بين **الشرق والغرب** فالعلاقة بالصورة والأيقونة تكشف الخصائص الجوهرية **للشرق والغرب** في مقاييسهما الأبعد غوراً:

فالشرق يظهر من الناحية التقليدية عدواً للتصاوير واللوحات والأيقونات البصرية. أما **الغرب** فيظهر على العكس من ذلك، حصناً لاحترام رسم الأيقونات وللفن التصويري بصفة أوسع.

وعندما يتناول الحديث الصراع ضد الأيقونات أو حظر تصوير الرب فإن المثقف الأوروبي يتذكر أحداثاً من تاريخ بيزنطة، الصراع حول الهرطقة المعارضة لرسم الأيقونات في عهد الملك ليف (717 ـ 741) ومن الاعتراف برسم الأيقونات من طرف شارلمان الكبير، ويتوارد إلى ذاكرته أيضاً حظر تصوير الرب **في العهد القديم** وفي الإسلام. وقد أوغل البعض بعيداً في هذا الصدد حتى إنهم يكتشفون هذا التناقض البدئي بين التعبيرين الكلامي والبصري، والذي يفضي بدوره إلى تناقض أكثر عمومية بين السمع والبصر، بين السمعية والبصرية؛ وعلى فكرة فالكلمة والسمع يتماهيان مع **الشرق** والتصوير والبصر ـ مع **الغرب**.

واستخدام مصطلح «الأيقونوغرافيا» في معناه الشامل الذي سلفت الإشارة إليه يجب أن يحمينا من أمثال هذه التبسيطات. ففي الواقع لا يوجد مثل ذلك المكان الجغرافي الذي ينعدم فيه المقياس البصري للواقع، والشخص والصورة، والأيقونة، والأيقونوغرافيا موجودة في كل مكان. ولهذا بالذات يمكن وجود الاتجاه المضاد، القيمة الرافضة للصورة البصرية. أي الصراع ضد الايقونة في أوسع معانيه. ومشكلة الصراع ضد الأيقونة لا تقتصر مطلقاً على بيزنطة أو الإسلام. فالغرب أيضاً يعرف من الروح المعادية للأيقونة صيغاً عديدة وعدائية إلى حد بعيد.

فالويكليفيون(*) والهوسيون، والبابتيون والبوريتانيون(**) والحداثيون الدينيون والعقلانيون الأفظاظ ـ جميع هذه التيارات المعادية للايقونوغرافيا ظهرت وتطورت في الغرب بالذات. وهذا النزاع. هذا الجدال الأساسي في التاريخ العالمي بلغ مداه الكوني في مرحلة الكشوفات الجغرافية العظمى واستعمار العالم الجديد، أما من الناحية المظهرية فقد تجلى في الصراع بين صيغتين مذهبيتين ـ الكاثوليكية الرومانية والبروتستانتية الشمالية، خطي الجزويت والكالفينيين(***). فلنحاول دراسة الأفق

(*) الويكليفيون: أنصار اتجاه ويكليف (Wiclif) جون (1330 ـ 1384) وهو مصلح انجليزي، منظّر مذهب البورغيرية، من أوائل من طالبوا بتحويل أراضي الكنيسة للأغراض الدنيوية، رفض ضرورة وجود البابوية وعدد من الطقوس الكنسية والأسرار (المترجم).

(**) الهوسيون: أنصار المصلح التشيكي هوس (Hus) ،يان (1371 ـ 1415) ولد في هوسنتيس جنوب تشيخيا ودرس في براغ ثم صار فيها عميداً لكلية الفنون فرئيساً للجامعة. وقف ضد صكوك الغفران ثم ضد امتيازات رجال الدين ونادى بالعودة بالمسيحية إلى منابعها البسيطة الأولى، وانتهى الأمر بالحكم عليه بالإعدام حرقاً، وهو ما أثار حركة شعبية واسعة تحولت إلى حرب تحررية شعبية ضد الكنيسة وامتيازات الإقطاع والسلطات الألمانية الحاكمة (1419 ـ 1437) (المترجم).

البابتيون: أتباع البابتية، المعمدانيون اشتق اسمها من لفظ «أعمدك بالماء» باليونانية. ظهرت في بداية القرن السابع عشر ونادت بتبسيط الطقوس الدينية، يعيش معظم البابتيين في الولايات المتحدة الأمريكية (المترجم).

البوريتانيون: الطهرانيون (من اللاتينية المتأخرة Puritas وتعني الطهارة)، أتباع الكالڤينية في انجلترا في القرنين السادس عشر والسابع عشر. أرادوا تعميق الإصلاح الكنسي الذي قامت به الكنيسة الانغليكانية ووقفوا ضد الحكم المطلق، وأدى تنوع الاتجاهات لديهم إلى ظهور تيارات منها المعتدل ومنها الجذري المتطرف (المترجم).

(***) الجزويت: اليسوعيون فرقة اسمها باللاتينية Socitas Jesu (جمعية يسوع) أسسها ايغناتي لويلا سنة 1534 في باريس، التزمت بالخط الكنسي الكاثوليكي الصارم وصارت الأداة الأساسية للوقوف في وجه التجديد. لم يقتصر نشاط أعضائها على أوروبا بل انتشروا في الهند واليابان والصين والفيليبين، وبين 1610 ـ 1768 كانت هناك «حكومة الجزويت» في الباراغواي. من مبادىء الفرقة المركزية الصارمة، طاعة الصغار للكبار، هيبة الرئيس المطلقة والحزم المتشدد في التطبيق (المترجم).

الكالڤينية: اتجاه ديني وضع أساسه (Calvin، كالڤين) جان، (1509 ـ 1564) فرنسي أهم مؤلفاته «دعائم الديانة المسيحية» صار منذ 1541 حاكماً على جنيف، فكانت في عهده أحد المراكز الأولى لما سمي بالإصلاح الديني، تميّز بالتديّن الشديد. ومن جنيف =

الأيقونوغرافي لهذا الصراع الذي سينتهي بنا إلى فهم أعمق لمعناه.

كان مغزى الريكونكويستا(*) ينحصر في استعادة الأراضي فوق شبه الجزيرة الإيبيرية بغية التمجيد الحر لصورة **أم الله الطاهرة**، وقد كتبت ذات مرة أن البحارة الإسبان وكونكويستادور(**) العالم الجديد كانوا يرون في إنجازاتهم التاريخية رمز إعلاء صورة العذراء أم الله في كل مكان. وقد فهمني بعض القراء فهماً معكوساً حتى إن أحد المؤلفين الكاثوليك كتب بهذه المناسبة «شميدت يتحدث عن مختلف إكسسوارات الكونكيستا(***) المسيحية **والتي لا يمكنها إلاّ أن تضلل القارىء**. بالنسبة لي أيقونة مريم العذراء - ليست «مختلف الإكسسوارات المسيحية» وبالإضافة إلى ذلك فإن تمجيد أيقونة العذراء يحمل بالنسبة لي معنى عظيماً جداً، وهو ما يغدو أكثر مفهومية إذا ما أخذنا بالحسبان التصورات التي سلفت الإشارة إليها والمرتبطة بعلاقة الصورة البصرية، الأيقونة بجوهر التقليد الغربي. وأتصدى للافتراض بأن جميع الحروب الإقليمية في أوروبا القرنين السادس عشر - السابع عشر بما في ذلك حرب الثلاثين عاماً فوق الأراضي الألمانية كانت في حقيقتها حرباً لصالح وضد التمجيد الكاثوليكي في القرون الوسطى **لمريم العذراء**. فهل يجوز في هذا السياق أن نعد صراع البوريتان الإنكليز ضد الأيقونات ظاهرة شرقية، وتوقير الأيقونات من طرف الكاثوليك الباڤاريين والإسبان والبولنديين - علامة طبيعتهم الروحية الغربية؟ في المناقشات البيزنطية حول بدعة الصراع ضد الأيقونة طرحت مقولة **التثليث** المسيحية على المستوى اللاهوتي وتمثلت المسألة

= أخذت تعاليم الكاڤينية بالانتشار في فرنسا وهولندا وسكوتلندة ثم في انجلترا فـ «العالم الجديد» من مبادئها عقيدة «المصير المقرر سابقاً» أو مذهب الجبرية القائل بأن الله يصطفي أولياءه (المترجم).

(*) الريكونكيستا: (Reconquista، من riconquistar بالاسبانية، استردّ، استعاد) حرب الاسترداد (المترجم).

(**) كونكويستادور (conquistodor بالاسبانية)، المغامرون الاسبان الذين كانوا يتوجهون إلى أمريكا بعد اكتشافها لاحتلال الأراضي الجديدة. ترافق نشاطهم (كما في حملات ف. بيسارو وإ. كورتيس) بإفناء السكان الأصليين أو استعبادهم (المترجم).

(***) الكونكيستا (conquista بالاسبانية) مصطلح يستخدم في الأدب التاريخي، ويتعلق بمرحلة احتلال المكسيك، وأمريكا الوسطى والجنوبية من قبل الاسبان والبرتغاليين في نهايات القرنين الخامس عشر والسادس عشر (المترجم).

الروحية في صعوبة الجمع التصويري الأيقوني بين الأحادية الإلهية والتثليث ضمن الإلهي. ومع ذلك فمن غير الصحيح المطابقة المجردة بين عقيدة **التثليث والغرب** دون سواه وبين الوحدانية التجريدية ـ **والشرق**. ومن الطبيعي أن مثل هذا التطابق كان كاملاً تقريباً في لحظات معينة من التاريخ. وقد أكمل الرهبان الفرانك **الرمز** المسيحي **لعقيدة الغرب** بالمعادلة التي ينبثق **الروح القدس** بموجبها لا من الأب فقط بل ومن الابن، واستياء البطاركة اليونان من الـ Filioque أدى إلى الانشقاق بين **الكنيستين الغربية والشرقية**[8]، وانطلاقاً من ذلك كان يمكن القول بأن الـ Filioque كمسلك الغرب ضد **الشرق**، إلا أن هذا يُدحض بالتعاليم الخاصة المتعلقة **بالتثليث وأم الله لآباء الكنيسة السريان** ومن جهة أخرى بنظرات الأريان الغربيين الذين رفضوا على العموم الطبيعة **الإلهية للمسيح**. وبهذه الصورة لا يغدو الاختلاف المؤثر المتعلق بتصوير الأيقونات بين **الشرق والغرب** في مسألة التثليث على تلك الدرجة من اللامشروطية والإطلاق.

والأيقونوغرافيا التقليدية ليست سكونية، وتقتحمها دوماً وقائع جديدة، كاقتحام التقنية الصناعي على سبيل المثال. كما إن التحليل النفسي المعاصر يمكن النظر إليه أيضاً على أنه تجسيد لاتجاه معاد للأيقونة. وقد قام المحلل النفساني الإسباني خوان خوسيه لوبيس ايبور بدراسة على غاية من الطرافة في هذا المضمار منطلقاً من نظرتنا الفن التشكيلي الأيقونية لهذه المسألة. وفضلاً عن ذلك فإن التصوير المعاصر بأجمعه ـ التجريدي منه وما لا يزال يحتفظ ببقايا المادية ـ يحمل في ثناياه، من الناحية العملية، دمار الفهم التقليدي للصورة، للتشكيل البصري، للأيقونة. والمظاهر الثلاثة جميعاً ـ التقنية، التحليل النفسي والفن التشكيلي المعاصر ـ مرتبطة فيما بينها. فإذا ما قمنا بدراسة مثل هذه العلاقة المتبادلة من خلال مقارنتها مع المواجهة الفعلية بين الشرق والغرب أمكننا التوصل إلى نتائج مثيرة مذهلة. والعقبة الوحيدة في هذا السبيل هي استحالة مماهاة الشرق بصفة حادة مع الصراع ضد الأيقونة، والغرب ـ مع تمجيد الأيقونة. ولكي نعي حتى النهاية بنية الثنائية العالمية ـ **الغرب ـ الشرق** يتعين علينا الانطلاق من معايير أخرى.

(2)

المؤسسة للعناصر: **الأرض والماء، اليابسة والبحر**.

وما نسميه اليوم **بالشرق** يمثل كتلة متراصة من اليابسة القاسية: روسيا ـ الصين، الهند ـ قطعة مهولة من اليابسة، **«أرض متوسطة»**(9) حسبما أسماها الجغرافي الإنكليزي العظيم سير هيلفورد ماكيندر، وما نسميه اليوم **بالغرب** هو واحد من المحيطات العالمية، نصف الكرة الأرضية، يتوضع فيه المحيطان الأطلسي والهادي، والمواجهة بين العالمين البحري والقاري ـ تلك هي الحقيقة الكونية الثاوية في أساس تفسير الثنائية الحضارية التي تولد دوماً التوتر الكوني وتحفز عملية التاريخ بكاملها.

في لحظات الذورة من التاريخ الإنساني تصب الصدامات بين الدول المتحاربة في حروب بين عفوية **البحر** وعفوية **البر**. وهذا ما لاحظه مؤرخو حرب سبارطة وأثينا، روما وقرطاج. إلا أن الأمور اقتصرت، حتى وقت معين، على منطقة البحر الأبيض المتوسط. فلم يكن البشر قد عرفوا بعد الآماد المهولة، المحيطات العظمى، والنزاعات الكونية. ونشير على الفور إلى أن علينا أن نضع فارقا تصورياً بين عفوية **البحر** وعفوية **المحيط**. وبالطبع هناك متوازيات جزئية والكثيرون يستشهدون في هذا الخصوص بقطعة مشهورة من التقريع الأول لديموسفين(*) (38 ـ 41). أما أنا فلا أشارك أفلاطون كلماته التي تقطر سماً عندما قال عن اليونانيين **«هؤلاء يقبعون على شاطىء البحر المتوسط، كالضفادع»**.

ومع كل ذلك فبين الحضارة البحرية التي تبدو حضارة ضمن اليابسة والحضارة المحيطية فرق ملموس. فذلك التوتر بين **الشرق والغرب**. وذلك الطرح الكوني لمشكلة النزاع واللذان يميّزان مرحلتنا في التاريخ ليس لها ما يماثلهما في الماضي. ولا تكتسب المواجهة **بين البر والبحر (كمحيط)** حجمها الكوني ـ التاريخي النهائي إلا عندما تصل الإنسانية إلى استثمار الكرة الأرضية بكاملها.

توضّح الطابع الكوني لأول مرة إبان حرب انجلترا على فرنسا الثورية

(*) ديموسفين (32 ـ 322) خطيب يوناني أثيني. قائد المجموعة الديموقراطية المناوئة للمكدونيين. كان يدعو قومه إلى النضال في وجه السياسة الاحتلالية للملك المكدوني فيليب الثاني، وخطبه في هذا الموضوع تسمى «الفليبيات» «التقريعات» فاستطاع أن يقيم تحالف المدن اليونانية. فلما خضعت اليونان لمكدونيا قتل نفسه بالسم (المترجم).

ونابليون. والحق إن التقسيم إلى **بر وبحر**، إلى **شرق وغرب** لم يتضح بعد على نحو ما هو اليوم. فقد هزم نابليون في نهاية المطاف لا من طرف انجلترا بل من طرف القاريات: روسيا، النمسا، وبروسيا. ونوموس[10] الأرض كان لا يزال يتجسد آنذاك في التوازن بين قوى البر والبحر. فما كان للبحر بمفرده أن يتوصل بقواه الذاتية إلى النصر الحاسم. وفي سنة 1812 وعندما بلغ الصراع أوجه أعلنت الولايات المتحدة الحرب لا على نابليون بل على انجلترا. وحصل تقارب آنذاك بين أمريكا وروسيا، وحاولت الدولتان، وكانتا فتيتين بعد، أن تبقيا مسافة بينهما وبين كل من نابليون وانجلترا. والتناقض بين **الأرض والبحر**، وبين **الشرق والغرب** لم يكن بعد قد تبلور في صور مواجهة العفويتين، وهو ما لم يكن يتحقق إلا لحظة عقد التحالف الشمالي الأطلسي سنة 1949.

ولكن منذ أيام نابليون كانت قد اتضحت بصورة جلية إلى حد ما مشروعية النزاع السياسي الذي حدّده اختلاف العفويتين الحضاريتين، أي ذلك النزاع الذي لم يكن أمامه مناص من الاختيار بين البر والبحر. وفي تموز من سنة 1812 عندما كان نابليون يقترب من موسكو ألّف غوتة مدحيةً موجهة في الظاهر إلى ماريا لويزا وفي الواقع إلى زوجها ـ الأمبراطور الفرنسي «هناك حيث تتبلبل خواطر آلاف الرجال، هناك يحسم الأمور جميعاً رجل واحد (نابليون) ويواصل الشاعر الألماني وقد وضع في حسابه الأفق الكوني للمواجهة بين البر والبحر».

«هناك حيث يتم التفكير بكدر قروناً من الزمان
هو (نابليون) يتجاهلها بصافي ضيائه الفكري.
لقد تلاشى كل ما هو تافه
فلا وزن هنا إلا **للبر والبحر**».

(Worueber trueb Jahrhunderte gesonnen
Er ueberieht's im hellsten Geisteslicht
Das Kleinliche ist alles weggeronnen
Nur Meer und Erde haben hier Gewicht»).

كان غوته نصيراً لنابليون. وبالنسبة له كان ذلك جانب اليابسة. الأرض لكن نابليون يتماهى أيضاً مع **الغرب**. وكان الغرب آنذاك يابسة وليس **بحراً** بأي صفة. وكان الشاعر الألماني يأمل بكل صدق في أن يبقى الغرب تجسيداً للقوة القارية

البرية وأن ينتزع نابليون، مثل الاسكندر الجديد الأراضي الشاطئية من قوى **البحر** وعندَ ذاك **تمارس اليابسة حقوقها**.

وهكذا فإن غوته، الممثل الأنموذجي للغرب، قد قام صيف 1812 باختياره **لصالح اليابسة الأرض ضد البحر**. وبالطبع فإنه تمشياً مع رؤاه الفكرية كان يفهم المواجهة بين **الأرض والبحر** على أنها توتر سكوني قطبي لا كلحظة تاريخية ديالكتيكية لا تتكرر. ومما له أهمية بالغة في هذا الصدد الفرق بين القطبية السكونية والديالكتيكية التاريخية، التي تحدثنا عنها في مستهل مقالنا.

(3)

غوته كان يفكر عبر مصطلحات القطبية السكونية، بيد أن التوتر القطبي يختلف اختلافاً ملموساً عن التوتر التاريخي ـ الديالكتيكي. وسكونية التوتر القطبي تفترض وجود التزامنية، الديمومة التي يشكل التفاعل المتبادل بين الأقطاب المتواجهة إزاءها البنية الثابتة التي تبقى واحدة من حيث الجوهر أمام كافة التبدلات الخارجية التي تنطلق من المواقف التاريخية المحدّدة. وهذا ضرب من العودة الأبدية.

والنظرة التاريخية المحدّدة تدرس، على عكس ذلك، سلسلة التفاعل المنطقي والتاريخي المتبادل بين ملموسية السؤال المحدَّد والإجابة عليه. والسؤال والإجابة عليه يقدمان ديالكتيكية المحدَّد تاريخياً ويؤطران بنية المواقف والمراحل التاريخية. ولا ينبغي لكل هذه الديالكتيكية أن تتماهى بالضرورة مع المنطق الهيغلي للمفاهيم أو مع القانونية الجبرية للمسيرة الطبيعية للأحداث.

بيد أن ما يهمنا هنا هو دراسة بنية الثنائية الكونية القائمة بصفة محدَّدة في عالمنا (لا النظرية العامة للعملية التاريخية). إن التفكير التاريخي تفكير عبر حالات تاريخية منفردة تجري لمرة واحدة وبناء عليه، عبر حقائق أحادية المرة. وجميع المتوازيات التاريخية لا تخدم إلا التعرف الأفضل على هذه الفرادة، وإلا فإنها تتحول إلى ما لا يزيد عن كونها عناصر وظيفية ميتة لنظام تجريدي لا وجود له في الحياة الواقعية. فمن العبث واللاواقعية استنتاج افتراضات من هذا النوع: فماذا كان ليجري لو اتخذت الأحداث مساراً آخر غير الذي اتخذته في التاريخ الواقعي. مثلاً ماذا لو أن السراسين انتصروا في المعركة قرب بواتييه؟ ماذا لو لم يخسر نابليون الحرب في معركة واترلو؟ وماذا لو لم يكن شتاء الـ 41 ـ 42 بمثل تلك البرودة؟، هذه الافتراضات الخرقاء، التي يمكن أن نلتقي بها حتى لدى مشاهير

المؤرخين، عبثية لأنها غيبّتْ بصفة مطلقة فردانية ولا تكرار أية حادثة تاريخية. إن بنية التوتر القطبي فعالة دوماً، خالدة كالعودة الأبدية.

أما الحقيقة التاريخية، فعلى العكس من ذلك، ليست حقيقة إلا مرة واحدة، بل ولا يمكنها أن تكون حقيقية أكثر من مرة واحدة لأن تاريخيتها كامنة في فرادتها بالذات. وفرادة الحقيقة التاريخية تمثل واحداً من قطاعات الأنطولوجيا حسبما عبّر ڤالتر ڤارناخ. وديالكتيكية السؤال والردّ التي يجري حولها الحديث الآن في محاولتنا لتفسير حقيقة التاريخ لا تضعف بأي شكل ولا تُبطل مزايا فرادة الحدث التاريخي. إنها، على العكس من ذلك، لا تزيد عن أن تقوي هذه الفرادة ما دام الحديث يتناول الإجابة المحدَّدة التي لا تتكرر على سؤال محدّد لا يتكرر أيضاً.

لو أن المواجهة بين **اليابسة والبحر** والمجسدة في الثنائية الكونية المعاصرة، كانت قطبية سكونياً بصفة استثنائية، أي مقحمة في سلسلة التوازن الطبيعي والعودة الأبدية، لكانت جزءاً من عملية طبيعية محضة. العفويات في الطبيعة تنقسم وتتوحد، تختلط وتتفرق. ويحل بعضها محلها بعض في دورة التحولات التي لا تتوقف والتي تكشف صوراً وأشكالاً جديدة وجديدة لجوهر التوتر القطبي المتشابه. ولو أفضى الأمر فقط إلى مثل هذه الثنائية السكونية الطبيعية لكان التناقض الفعال بين **الشرق والغرب** مجرد شكل خاص من أشكال تعبير الدورة الأبدية للنخب العليا، مشكلة الأيقونوغرافيات. والعودة الأبدية والتحول الأبدي لا يعرف الحقيقة الخاصة، ولا الوضعية التي لا تتكرر، ولا اللحظة التاريخية. إن المواجهة السكونية ـ القطبية تنفي اللاتكرارية التاريخية. لكن الأمر يختلف عن ذلك في التاريخ المحدّد. ففي مراحل محدّدة تظهر شعوب ومجموعات فعّالة، جبارة، يحتلون الأرض ويتقاسمونها في عملية اتفاقيات ودية أو حروب ويتصرفون فوق أملاكهم، يرعون القطعان وما إلى ذلك ومن هنا ينبثق نوموس الأرض وهو محكوم بـ **هنا والآن** الفريدتين أما التوتر بين العناصر والتي نتحدث عنها بين اليابسة والبحر فلا يزيد على أن يولد السباق الطبيعي الموضوعي الذي يتوضح فيه ذلك **النوموس** .

إذا أخذنا **الأرض والبحر** (والمخلوقات التي تقطنهما) كعنصرين طبيعيين بصفة استثنائية ـ من الواضح أنهما عاجزان من تلقاء ذاتيهما عن أن يولدا المواجهة العدائية التي تحمل مغزى حوادثياً تاريخياً. وسكان **البحر** وسكان **البر** لا يمكن أن

يكونوا بطبيعتهم أعداء على الإطلاق. يحدث أن تلتهم الحيوانات فوق الأرضية الحَيوانات البحرية ولكن من السخف الحديث في هذه الحالة عن عداء ما. فالأسماك نفسها غالباً ما يلتهم بعضها بعضاً والكبيرة، بصفة خاصة، تلتهم الصغيرة. بل إن سكان **اليابسة** يتصرفون نحو بعضهم بعضاً بما لا يَفْضُل كثيراً عن هذا. ولهذا لا يجوز القول بوجود عداء طبيعي بين **اليابسة و البحر** . والأقرب إلى الواقع أن هاتين العفويتين موجودتان في حالة طبيعية محضة بصفة لا تبالي إحداهما بالأخرى ودون أن ترتبط بها على الإطلاق وإلى درجة تجعل من السخف الحديث عن علاقة خاصة أو ناشطة مكثفة كالعداء. كل مخلوق يقيم في عفويته الخاصة والدب لا يعادي بطبيعته الحوت، كما إن الحوت لا يعلن الحرب على الدب. حتى إن الكواسر البحرية والبرية تعلم بدقة صارمة حدود سكناها وأبعادها. فالدب لا يعتدي على ممتلكات الأسد أو النمر، بل إن أشد الوحوش شجاعة تعرف حدودها وتحاول تجنب الصدامات المقيتة. وأولئك الذين يطرحون على سبيل المثال العداء الطبيعي في علاقة القطط مع الكلاب إنما يقدّمون شاهداً إضافياً على أن هذه العدوانية الفطرية تختلف بحدة عن العداء الإنساني. فعندما ينبح الكلب على القط أو يفح القط في وجه الكلب فالنزاع بينهما يتضمن معنى مخالفاً للعداء بين البشر. ويتمثل الفارق الأهم في كون البشر، خلافاً للحيوانات، قادرون على إنكار وجود الخاصة الإنسانية نفسها لدى أعدائهم. أما الحيوانات ـ فلا. إن وجود الكلب من الناحية الروحية والخلقية لا يضع القط تحت التساؤل والعكس.

بيد أن ما يحمل مغزاه هو أن الخرافات المأخوذة من حياة الحيوان تستعرض بالصورة الأشد بروزاً المواقف والعلاقات الإنسانية بصفة مميّزة. وعلى العموم فمن وجهة النظر الفلسفية تكتسب مسألة الخرافات على ألسنة الحيوان طرافة في حد ذاتها. فبنقل المواقف السياسية الإنسانية حصراً إلى عالم الحيوان، إنما نسقط عليها المسحة الأسطورية، ونفسرها. ونجرّدها من الأستار الإيديولوجية والخطابية. وبالذات ولكون العلاقات بين الحيوانات تحمل مغزى منافياً تماماً لما هو بين البشر ـ فإن هذا التناول المجازي ـ والذي يتصرف البشر إزاءه كوحوش، والوحوش كبشر ويسمح باكتشاف ما كان حتى الآن خافياً عبر الإعراض الواعي عن التحليل المباشر والمتوازن. والتقمّص في إهاب وحش يغترب بالإنسان عن الإنساني، لكن عبر مثل هذا الاغتراب فقط يعود الإنساني أكثر وضوحاً وبروزاً. على هذا الأساس

يقوم المغزى السياسي للخرافات حول الحيوانات (وهو ما لن نتوقف أمامه بعد الآن).

قد يتراءى عند نقل ثنائية **اليابسة والبحر** إلى الصعيد الإنساني أن الحديث ينبغي أن يتناول النزاعات بين أهل **البحر** والنزاعات البرية بين أهل البر. لكن الأمر يختلف في واقع الحال عن ذلك بدءاً من اللحظة التي يبلغ التوتر الكوني التاريخي فيها مستوى معيناً من الحرج. فالبشر، خلافاً للحيوانات، والبشر **فقط** ـ قادرون على خوض الحرب بين شعوب البر وشعوب البحر. وعندما يبلغ العداء ذروته العليا تغطي العمليات القتالية جميع المناطق الممكنة وتنبسط الحرب من الجانبين على **البر** كما على **البحر** .ويضطر كل من الجانبين لمطاردة عدوّه في أعماقه العفوية المعادية. وعندما تتم السيطرة على العفوية الثالثة والفضائية ـ ينقل النزاع إليها وتغدو الحرب حرباً فضائية. لكن الموضوعات المؤسسة للنزاع لا تفقد صفتها ولهذا يبدو لي أن من المعقول الحديث عن المواجهة بين عنصر **الأرض** وعنصر **البحر** . فعندما تقترب المواجهة الكونية ـ التاريخية من ذروتها يستنفر كلا الجانبين كافة قواه المادية والروحية والنفسية وحتى حدودها القصوى. وتنتشر المعركة آنذاك على كافة المجالات المجاورة للأطراف المتحاربة. والفرق الطبيعي العفوي بين **البر والبحر** يتحول في هذه الحالة حرباً حقيقية بين هذين العنصرين.

تتسم الحرب بين البشر بتوتر خاص يفوق أضعافاً التوتر المميّز بالنسبة للعداء في مملكة الطبيعة. فجميع آفاق الطبيعة تتعالى، تكتسب بعداً فائقاً (أو متسامياً، كيفما كان). وهذا البعد الإضافي يمكن أن يسمّى روحياً أو لنتذكر كلمة رامبو «Le combat spirituel est aussi brutal que la bataille des hommes»[11] ومهما يكن من أمر فإن العداء بين البشر يمكن أن يبلغ درجة خارقة للعادة. وهذا المستوى الأعلى من العداء يتكشف بصورة واضحة في الحروب الأهلية حيث يجرَّم العدو ـ خلقياً وحقوقياً وإيديولوجياً إلى درجة أن يغدو من الناحية العملية خارج كل القوانين الإنسانية. وفي هذا يعرِّف بنفسه عنصر خاص بالإنسان دون غيره، عنصر فوق الطبيعي، متجاوز للحدود بالنسبة لقياسه الطبيعي، وهذا العنصر يولد توتراً خارقاً للعادة ويحوّل القطبية الطبيعية إلى ديالكتيك تاريخي محدَّد.

وكلمة «**ديالكتيك**» تعبر هنا عن تلك الصفة الخاصة (المميّزة للبشرية فقط) والتي تختلف جذرياً عن كافة الصيغ الطبيعية للقطبية. وكلمة «**ديالكتيك**» تشير إلى

تركيبة «**السؤال ـ الجواب**» والتي تستطيع وحدها أن تصف بالطريقة الملائمة الوضعية التاريخية أو الواقعة التاريخية. والوضعية التاريخية لا يمكن أن تفهم إلا كتحد مطروح أمام الإنسان وجوابه على هذا التحدي. وكل مسلك تاريخي هو جواب الإنسان على سؤال طرحه التاريخ. إن كل كلمة إنسانية ـ جواب. وكل جواب يكتسب معناه من خلال السؤال الذي يُطلب الرد عليه، وتبقى الكلمة فارغة من المعنى بالنسبة لمن لا يعرف السؤال. أما معنى السؤال فيكمن، بدوره، في تلك الوضعية المحدَّدة التي طرح بها.

ويذكرّ هذا بـ «منطق السؤال ـ الجواب» (Question - Answer Logic) لـ ر. ج. كولنغوود، وإننا، في واقع الحال، نعنيه بالذات. فبالتفكير عن طريق مصطلحي «السؤال ـ الجواب» حاول كالّينغوود تحديد المعنى الجوهري للتاريخ. وقد أنجز ذلك بدقة رائعة، لأن المصطلح المعطى كان يعني ذروة الطريق الفلسفي نحو التخلص من مذهب الإيجابية الوضعية الخاص العلمي بالنسبة للطبيعيات والخارج عن التاريخ. كان تدبير كولنغوود رائعاً، إلا أن العالم الإنكليزي كان أشد تأثراً بالتعريف الإنكليزي للعلم، والمميّز بالنسبة للقرن التاسع عشر، من أن يتجاوز التفسير النفسي ـ الفرداني لمشكلة «السؤال الجواب». وهذا العامل بالذات هو وحده الذي يمكن أن يفسر نوبات الكراهية للألمان، المَرَضية، المشوبة بالتعقيد والتي أفسدت إلى حدود بعيدة مؤلَّفه الأخير «The New Leviathan»[12] إلا أن المأثرة العظمى لـ «منطق السؤال ـ الجواب» تبقى دون شك. ولكن لا بد من الإشارة بصفة خاصة إلى أن السؤال يطرح هنا لا من طرف إنسان منفصل أو مجموعة من البشر كما أنه لا يؤخذ بطريقة عبثية على الإطلاق من طرف مؤرخ يدرس الماضي، بل من طرف التاريخ نفسه الذي يتكون في مداه النوعي من الأسئلة والأجوبة. والسؤال ـ هو في ذاته الحدث التاريخي الذي ينساب منه عبر الإجابة الإنسانية المحدَّدة، الحدثُ التالي. وبالضبط عند المستوى الذي يتقبل البشر فيه تحدي التاريخ وسؤاله، وبالمستوى الذي يحاولون فيه الردّ عليها بعلاقاتهم وتصرّفاتهم، بهذا المستوى يستعرضون قدرتهم على المشاركة الحافلة بالمجازفة في التاريخ وبناء على ذلك يعرضون أنفسهم لحُكْمه. وبكلمة واحدة: فإنهم ينتقلون من الوضعية الطبيعية إلى الوضعية التاريخية.

قام أرنولد توينبي(*) بتطوير منطق «السؤال ـ الجواب» (Question answer logic) إلى صيغته الثقافية ـ التاريخية (تركيب التحدي ـ الاستجابة)[13] (Challenge - response - structure) . لقد طور توينبي نظرية «السؤال» حتى مفهوم التحدي ونظرية «الجواب» ـ حتى «الاستجابة»، وكانت هذه مرحلة على غاية من الأهمية في إيضاح الخاصة الجوهرية للتاريخي إذ يتميّز هنا بوضوح لا التوتر السكوني ـ القطبي ـ الطبيعي ـ الذي تم تحليله من طرف مدارس الفكر اللاتاريخية ـ الفردانية ـ النفسية، الطبيعية العلمية ـ بل التوتر الذي تم فهمه ديالكتيكياً. ويشعّب توينبي، على أساس من منهجه ـ أكثر من عشرين ثقافة من الثقافات أو الحضارات العليا التي أقيمت كل واحدة منها على إجابة تاريخية محدّدة، استجابة البشر على السؤال الذي طرحه التاريخ ـ على التحدي الذي قدمه. ففي حالة مصر على سبيل المثال تلخّص التحدي في الخصيصة الطبيعية لوادي النيل في الارتباط بالنهر وفي التهديد الدائم للحملات المعادية. وكان استصلاح أراضي وادي النيل وتنظيمها. والاحتماء من التأثيرات البربرية الخارجية والحضارة المصرية القائمة على هذا الأساس بعباداتها للآلهة، وأسرها الملكية والأهرامات والفن المقدس ـ كل ذلك كان الإجابة المحدّدة على التحدي المطروح.

من هذه المقاربة اكتسبت منهجية المعرفة الكثير مما هو بالغ الأهمية، إذ غدا ممكناً منذ ذلك الحين دراسة البنية الديالكتيكية لكل وضعية تاريخية، لكن توينبي نفسه لم يكن قادراً على تجنب الخطأ المميّز الذي أساء كثيراً إلى نظريته. فعندما يشرع في عرض آلية التفاعل المتبادل فيما بين الحضارات والثقافات العشرين التي ميّزها، يتقدم في تحليله الجانب الأكثر جوهرية في التاريخي، بنيةُ التاريخ نفسه ـ

(*) توينبي (Toynbee) أرنولد (1889 ـ 1975)، مؤرخ عالم اجتماع انكليزي. قال بنظرية دورة الحضارات المحلية التي تحل إحداها محل الأخرى والتي تعيش كل منها مرحلة الظهور والنمو والنضج ثم التفسخ، أما محرّكها الأساسي فهو «النخبة المبدعة» التي تجتذب خلفها الغالبية الخاملة. أما صورة التقدم الإنساني فتتمثل له في الكمال الروحي الذي سيتم الوصول إليه عبر الانتقال من المعتقدات الأولى الساذجة إلى ديانات كونية تنتهي إلى ديانة الكون الواحدة في المستقبل. كما رأى أن خلاص الغرب من التناقضات والنزاعات يمكن أن يتم بتجدده الروحي ووقف ضد الأوساط الموغلة في تحجرها ورجعيتها. أهم أعماله «دراسات في التاريخ» المجلدات 1 ـ 12 (1934 ـ 1961) (المترجم).

الأحادية الفريدة لكل وضعية تاريخية وحلها. فلا توجد أية قوانين عامة للتاريخ العالمي. هذه المحاولة التجريدية لإخضاع التاريخ الحي للقوانين الجافة أو للاحتمالية الإحصائية في داخل النظام الوظيفي الضيق خاطئة من جذورها.

ونحن نتعامل في الواقع مع حالات أحادية محدّدة. والحالة المحدَّدة لمرحلتنا الحاضرة توصف بأن مواجهة **الشرق والغرب** اتسمت فيها بطابع الثنائية الكونية، العداء الكوني. وعندما نحاول تفسير طبيعة التوتر الديالكتيكي الذي أفرزته هذه الثنائية لا نتطلع إلى استخلاص القانون المشترك ولا الاحتمالية الإحصائية، ناهيك عن إقامة نظام ما. وعندما نستخدم كلمة «الديالكتيك» أو «الديالكتيكي» نتعرض لمخاطرة ألاّ نُفهم بطريقة صحيحة أو أن نُنسب إلى المدرسة الهيغلية الضيقة. والأمر ليس على هذه الشاكلة. فديالكتيك هيغل التاريخي يمكّن في واقع الحال، من تفسير أحادية الحدث التاريخي وفرادته، وهو ما نلمسه على الأقل من عبارة هيغل القائلة بأن أنسنة ابن الله هي الحدث المركزي في التاريخ الإنساني بطوله. ويتضح من هذا أن التاريخ لم يكن بالنسبة لهيغل بكل بساطة سلسلة من القوانين الموضوعية بل وامتلك أيضاً البعد الذاتي للمشاركة الفعالة. إلا أن الفرادة التاريخية كثيراً ما تضيع في التصنيف الهيغلي العام ويذوب الحدث التاريخي المحدّد في العملية العقلية الوحيدة الوتيرة. وهذه الملاحظة كافية لكي نستعرض فهمنا لمصطلح «الديالكتيك»، ولنتدارك التنسيب الآلي إلى المدرسة الهيغلية وهو ما يعدّ أمراً مميّزاً بالنسبة للنمط الآلي «التقني» لفكر معاصرينا.

وإلى جانب الفهم الخاطىء لحقيقة الديالكتيك التاريخي المميّز بالنسبة لمدرسة هيغل ككل، ينبغي الاحتراس أيضاً من الهوس النموذجي للقرن التاسع عشر بصياغة السُّنن واكتشاف القوانين. ومن الناحية العملية تعرّض لهذا المرض جميع علماء الاجتماع والمؤرخين الغربيين، باستثناء ألِكسيس دي توكويل. لقد غطى مطلب استنباط قانون شامل للتطور من كل حالة تاريخية محدَّدة الكشوفات التاريخية، وحتى لدى الأوفر بصيرة بين مفكري القرن الماضي، بحجاب من التعميمات الضبابية يكاد يصعب اختراقه.

كان حَمْل الحقيقة التاريخية المحدّدة على قانون إنساني عام الثمنَ الذي استعاض القرن التاسع عشر به عن نظريته الوضعية العلمية ـ الطبيعية. فلم يكن

العلماء بقادرين بكل بساطة ـ على أن يتصوروا حقيقة ما خارج القانونية الوظيفية المشتركة المحسوبة والمقيسة بدقة. فأوغست كونت(*) ـ مؤرخ العصر الذي أوتي حدساً عبقرياً ـ حدَّد بصواب ماهية عصره إذ قدّمها نتيجةً لتطور من ثلاث مراحل: من اللاهوت عبر الميتافيزيكا إلى الإيجابية (الوضعية). تلك كانت ملاحظة صحيحة على الإطلاق وكأنما قد حددت الخطوة الأحادية المتكونة في لحظات ثلاث، والتي حققها الفكر الغربي منذ القرن الثالث عشر حتى التاسع عشر. لكن الوضعي أوغست كونت لم يتمكن بنفسه من الإيمان بصواب المبدأ الذي صاغه بنفسه إلا بعد أن صرّح بأن قانون المراحل الثلاث ينسحب على البشرية بأسرها وعلى تاريخها بطوله. وقد وضع كارل ماركس بدوره تشخيصاً دقيقاً جداً لتوضع الأمور ذاك، والذي كان مميّزاً بالنسبة للمرحلة الثانية من الثورة الصناعية في منتصف القرن التاسع عشر في أوروبا الوسطى والشرقية؛ إلا أن المصيبة في كونه رفع تصوراته إلى مستوى العقيدة التاريخية الشمولية ونادى بالمبدأ المبسط حول «الصراع الطبقي»، بينما لم يتناول الحديث في واقع الحال، إلا لحظة محدّدة من الثورة التقنية ـ الصناعية، ارتبطت باختراع السكك الحديدية، وبالتلغراف والآلة البخارية. وقد حدّد أوزوالد شبينغلر في القرن العشرين أهمية اكتشافه إلى حدود بعيدة ـ بالنسبة للتوازيات التاريخية العميقة بين المرحلة الحاضرة ومرحلة الحرب الأهلية الرومانية ومرحلة القياصرة ـ بأن أقام على ذلك الأساس نظريته الشاملة حول الأوساط الثقافية وبناء على ذلك قتل العصب التاريخي الصرف في مجموع دراسته.

(4)

التصنيع والتطور التقني يمثلان اليوم مصير كرتنا الأرضية. فلنحاول تحديد السؤال التاريخي الأحادي، التحدي الكبير والجواب والتي أفرزتها جميعاً الثورة

(*) كونت (conte) أوغست (1789 ـ 1857) فيلسوف فرنسي. أول من أرسى قواعد الفلسفة الوضعية في السوسيولوجيا البورجوازية، رأى في الوضعية خطاً متوسطاً بين المذهب التجريبي (الاختباري) والغيبية، والعلم في رأيه، لا يدرس الجواهر بل الظواهر فقط. كما إنه طرح النظرية المثالية المتعلقة بالمراحل الثلاث للتطور العقلي للإنسانية (اللاهوتية، الميتافيزيكية فالوضعية أو العلمية) وهي نفسها المراحل التي تحدّد تطور المجتمع. وضع تصنيفاً للعلوم يعتمد على درجة قلة حضور التجريد في كل منها (المترجم).

الصناعية ـ التقنية في القرن الماضي. ولنبعد إزاء ذلك كافة الاستنتاجات السطحية التيَ تجرنا إلى النظم المجازفة للاشتراطية السببية ـ التاريخية. وقد فرَّعنا من المفهوم العام للتوتر التوترَ الديالكتيكي المجرد المتميّز عن القطبية ـ السكونية، إلا أن هذه التوترية الديالكتيكية لا ينبغي أن تفهم على أنها ثمرة مَرَضية للمدرسة الهيغلية والنظرات الطبيعة العلمية أو النظريات المعيارية. كما إن معادلة توينبي المتعلقة بـ «التحدي ـ الاستجابة» يجب ألاّ تستخدم أيضاً إلا كأداة، ذلك أننا في حاجة بالدرجة الأولى، إلى أن نفهم بشكل صحيح الحقيقة الأحادية العملية للثنائية الكونية الحالية بين الشرق والغرب.

وسيساعدنا هنا نص أرنولد توينبي لعام 1953 والذي يحمل العنوان المعبّر: «The World and the West» (العالم والغرب)[14]. وقد أثار هذا المؤلَّف نقداً عنيفاً وجدلاً نؤثر أن نمرّ به صامتين، فلا يهمنا هنا إلا مواجهة الأرض وتوينبي يتحدث عن عصرنا ويميّز فيه الغرب كخاصية منفصلة تواجه بقية العالم بأسره.

الغرب يبدو له عدوانياً دأب على مدى أربعة قرون ونصف تحقيق توسيع قوته الصناعية ـ التقنية نحو الشرق في توجهات أساسية أربعة ـ روسيا، العالم الإسلامي، الهند وآسيا الشرقية. ويبدو أن ما هو شديد الأهمية بالنسبة لتوينبي أن هذه العدوانية قد تحققت عبر التقنية المتحرّرة من معايير التقليد المسيحي (enfesselte Technik) والحقيقة القائلة بأن الشرق الحالي قد صار يستخدم التقنية على نطاق واسع تعني بالنسبة لتوينبي بداية حمايته الذاتية الفعالة في وجه الغرب. والحق أن الجزويت قاموا في القرن السابع عشر بمحاولة التبشير بالدين المسيحي بين الهندوس والصينيين لا كديانة للغرب بل كديانة عالمية تنتسب بسوية واحدة إلى جميع البشر. ويرى توينبي أن هذه المحاولة قد باءت لسوء الحظ، بالفشل بسبب الاختلافات العقائدية بين البعثات الكاثوليكية المختلفة وشبكة الجزويت التبشيرية القائمة على المركزية. أما مغزى ثورة أكتوبر الشيوعية فيتمثل، وفقاً لتوينبي، يكون الشرق صار يتسلح بالتقنية الأوروبية المحررة من الديانة المسيحية. ويسمي توينبي هذه التقنية بـ «**جزيئة من الثقافة الأوروبية انفرطت منها عند نهاية القرن السادس عشر**». فلنتَنبّه إلى هذه الصيغة البالغة الأهمية والمطلقة الدقة.

ولنوضح الآن في ضوء «منطق السؤال ـ الجواب» ما الذي كانه ذلك التحدي وتلك الاستجابة اللذان تجليا تاريخياً في عصرنا عبر الوثبة الصناعية ـ التقنية.

مم تنحدر الثورة الصناعية؟ ردّاً على أي سؤال تكون؟ ما منابعها وما موطنها، ما بدايتها، وما دوافعها؟ إنها تنحدر من جزيرة انجلترا وتؤرخ بالقرن الثامن عشر. فلنردد على مسامع الجميع التواريخ الشهيرة: 1735 (أول فرن على الفحم الحجري)، 1740 (أول فولاذ مسبوك)، 1768 (أول آلة بخارية)، 1769 (أول مصنع حديث في نوتينغهام)، 1770 (أول آلة للغزل)، 1786 (أول ماكنة آلية للنسيج)، 1825 (أول قاطرة بخارية). الثورة الصناعية العظمى تنحدر من جزيرة انجلترا التي صارت بداية من القرن التاسع عشر الدولة الصناعية الرئيسة في العالم. هذه الظاهرة التاريخية الفذة التي ينبغي علينا أن نأخذها دوماً في الحسبان كانت قد لفتت نظر عالم الاجتماع الألماني لورينس فون شتاين سنة 1842 فكتب في هذا الصدد:

«بصورة عجيبة وبطريقة مفاجئة تماماً، في الوقت الذي تنتشر فيه في فرنسا أفكار الحرية والمساواة تظهر في انجلترا أول الآلات. وينفتح معها عصر جديد كل الجدة من أجل العالم كله فيما يخص مسائل الرفاهية، الإنتاج، الاستهلاك والتجارة. صارت الآلات القوة الثورية ـ الحقيقية في العالم المادي، ومن هذا العالم المادي الخاضع لها بدأت تبسط جبروتها في الأعماق، في كافة أنحاء العالم الروحي».

«بصورة عجيبة وبطريقة مفاجئة تماماً» وفوق ذلك «ففي انجلترا» بالذات! تسمع في هذه الكلمات الدهشة المتعطشة إلى المعرفة لدى الألماني الشاب، وفي باريس يدرك لوي فيليب أن الثورة السياسية الزاحفة بداية من سنة 1789 على كافة أرجاء القارة الأوروبية ليست إلا الظاهرة الأيديولوجية المصاحبة الشاحبة بالمقارنة مع الثورة الصناعية المنداحة من انجلترا والتي تمثل في ذاتها قوة ثورية حقة. هكذا ولدت تلك العبارة الرائعة التي أوردناها منذ قليل من فصل تحت عنوان رائع «البروليتاريا». في ذلك النص ولأول مرة يرد في الحوار الأوروبي التفسير العملي لمشكلة الاختلاف الأساسي بين قوة العمل والمُلكية.

وهكذا فإن الثورة الصناعية تنحدر من انجلترا القرن الثامن عشر. فما الوضعية التاريخية التي كانت سائدة على تلك الجزيرة في ذلك الوقت؟ بداية من القرن السادس عشر كانت انجلترا جزيرة انفصلت عن القارة الأوروبية وقامت بالخطوات الأولى نحو الوجود البحري المجرد. وهذا، من وجهة النظر التاريخية

ما يبدو الأهم بالنسبة لنا. فكل ما تبقّى ليس إلا بناء فوقياً تركيبياً أعلى. ومهما كانَ الحدث الخارجي الذي يقع عليه اختيارنا بصفته الخطوة النهائية نحو الوجود البحري المجرد ـ استيلاء كرومويل(*) على جامايكا سنة 1655، الإبعاد النهائي لأسرة ستيوارت(**) سنة 1688 أم الصلح الأوروبي في أوتريخت(***) سنة 1713 فإن الأهم ما يلي:

واحد من الشعوب الأوروبية كفًّ بداية من لحظة معينة عن أن تكون الجزيرة التي يعيش فوقها، جزءاً من اليابسة الأوروبية الواقعة على مسافة ما ووعاها كقاعدة للوجود البحري المجرد وللسيطرة البحرية على المحيط العالمي. وبدءاً من القرن السادس عشر دخلت انجلترا عصر الكشوفات الجغرافية العظمى وأخذت تنتزع المستعمرات من البرتغال واسبانيا وفرنسا وهولندة. وقد حققت الانتصار على جميع منافسيها الأوروبيين لا بقوة التفوق الخلقي أو التفوق في ميدان القوة بل فقط وبالذات بفعل أنها قامت بالخطوة الحازمة، التي لا رجعة فيها، للانتقال من**الأرض** الثابتة نحو **البحر** المفتوح، وفي هذه الحالة ضمن انتزاع المستعمرات اليابسية الرقابة على الآماد البحرية.

(*) كرومويل (Cromwell)، أوليفر (1599 ـ 1658) أحد كبار شخصيات الثورة البورجوازية الانجليزية في القرن السابع عشر، انتخب سنة 1640 عضواً في البرلمان. كان أحد المؤسسين الكبار للجيش البرلماني الذي حقق النصر على الجيش الملكي في الحربين الأهليتين 1642 ـ 1646 و1648. وباعتماده على الجيش أخرج مناوئيه من البرلمان وشجع على إعدام الملك وإعلان الجمهورية (1649) التي كانت السلطة مركزة فيها بأيدي أنصاره. صار منذ 1650 القائد الأعلى للجيش. قضى على حركة الليڤيلير والديغير وعلى الحركتين التحرريتين في إيرلندا وسكوتلندا، وأقر سنة 1653 نظام الديكتاتورية العسكرية ـ البروتيكتورات (المترجم).

(**) ستيوارت (Sruart) أسرة انجليزية حاكمة في سكوتلندا (بين 1371 ـ 1714) وفي انجلترا (1306 ـ 1349، 1660 ـ 1714) من أشهر شخصياتها ماري ستيوارت، ياكوب الأول (ياكوب السادس في سكوتلندا)، كارل الأول، كارل الثاني، وياكوب الثاني (المترجم).

(***) صلح أوتريخت 1713 ـ التسمية العامة لعدد من اتفاقيات السلام التي عقدت في مدينة أوتريخت (في هولندا) الاتفاقية الفرنسية ـ الانجليزية، الفرنسية ـ الهولندية، الفرنسية ـ البروسية، والتي اختتمت (مضافة إلى اتفاقية راشتات للسلام 1714) حروب الدول الاستعمارية من أجل اقتسام التركة الاسبانية (المترجم).

ذاك كان الرد الأحادي التاريخي الذي لا يتكرر على تحد يماثله في أحاديته وتاريخيته وبكونه لا يتكرر، على التحدي العظيم لعصر الكشوفات الجغرافية الأوروبية. ولأول مرة ظهر في تاريخ الإنسانية المعروف بالنسبة لنا، ظهر التحدي المرتبط لا ببعض الأنهار أو الشواطىء المحدَّدة أو البحار الواقعة ضمن اليابسة، لأول مرة اتخذ التحدي طابعاً أرضياً، كونياً. وغالبية الشعوب الأوروبية وعت ذلك التحدي ضمن المصطلحات البريّة ـ القارية. فقد أقام الإسبان امبراطوريتهم الهائلة وراء البحار، وبقيت مع ذلك برية في جوهرها وقد بنيت على أبعاد قارية واسعة. وابتعد الروس عن موسكو وانتزعوا بلاداً مهولة المساحة ـ سيبيريا. وعلى الرغم من الإنجازات العجيبة للبرتغال في الملاحة البحرية فلم يقيّض لهم أن ينتقلوا إلى الوجود البحري المجرد حتى إن لويزيادا «لكاموينيس»(*) الملحمة البطولية المتعلقة بعرض الكشوفات البرتغالية تتحدث عن المحيط الهندي في حقيقة الأمر مثلما يتحدث اينياس ڤرجيل(**) عن البحر الأبيض المتوسط. وكان الهولنديون أول من اقتحموا مجال المغامرات البحرية الكونية وبقوا فترة طويلة في الطليعة. لكن قاعدتهم كانت في غاية الضعف، وتجذّرهم في سياسة الدول القارية بعيد الأغوار، وبعد عقد الصلح في أوتريخت سنة 1713 كانت هولندة قد قيدت نهائياً إلى اليابسة ودخل الفرنسيون حرب مئتي عام مع انجلترا وخسروها في نهاية المطاف. ولم

(*) كاموينيس Camones، لويس دي (1524 ـ 1580) أفضل ممثل للأدب البرتغالي في عصر النهضة. يجمع بين الشاعرية الحزينة، وصف مشاعر الحب الصادقة وبين فوضى العالم. نظم السونيت والأهاجي والمسرحيات، لكن اشتهر بصفة خاصة بالمطولة الشعرية «لويزيادا» التي نظمها في عشرة أناشيد (سنة 1572)، يتحدث فيها عن رحلة فاسكو داغاما البحرية إلى الهند، واحتلالها من طرف البرتغاليين. وعلى الرغم من الإطار الميثولوجي للمطولة فهي حافلة بحيوية الوصف وشاعرية اللوحات وبطلها الحقيقي هو الشعب البرتغالي الذي مجّد الشاعر شجاعته وحيويته وبطولته، وهو ما حول المطولة الشعرية إلى ملحمة وطنية برتغالية أصيلة.

(**) ڤرجيل Vergilius، مارون (70 ـ 19 ق.م) شاعر روماني. من أعماله «الرعويات» (42 ـ 38ق.م) هيوركيتا (36 ـ 29ق.م) وملحمة «الإلياذة» الشهيرة وتروي مغامرات البطل الطروادي إينياس الذي خرج ـ بنداء من الآلهة من طروادة إلى قرطاج ومنها إلى إيطاليا ليبني روما. وتعد ذروة الأدب الروماني القديم، وتتناغم مع قضايا ومعتقدات العالم القديم، وهي تسقط صورة مثالية على الامبراطورية الرومانية القديمة (المترجم).

تكن القارة الأوروبية تهم انكلترا بصفة خاصة (The least hampered by the continent) فانتقلت بصفة نهائية وناجحة إلى الوجود البحري. وهذا ما كوّن الأسس المباشرة للثورة الصناعية.

فالجزيرة التي كانت أوروبية ذات يوم ألقت بعيداً بلوحة العالم البرية التقليدية، وأخذت بصفة منهجية تنظر إلى العالم من موقف **البحر واليابسة** كأرض طبيعية لحياة الإنسان تحولت إلى شيء آخر، إلى شاطىء ينبسط نحو أعماق المجالات القارية نحو الـ back land. ومنذ القرن الخامس عشر أيام عذراء أورليان(*) كان الفرسان يأخذون الأسلاب في المعارك الشريفة. وحتى القرن السادس عشر كان الإنكليز رعاة أغنام يبيعون الأصواف في فلاندريا حيث يصنعون منها الأقمشة. وهذا الشعب تحول إلى أمة من «مُحْدِثي الرغوة في البحار» وأقام لا الإمبراطورية البحرية فقط بل والمحيطية العالمية. وكفت الجزيرة عن أن تكون قطعة من **اليابسة** متوضعة لوحدها وتحولت إلى **سفينة** ثابتة على مرساتها بقرب القارة. وبدلاً من **نوموس الأرض** القاري العتيق ظهر نوموس جديد يتضمن في بنيته الآماد التي تمت السيطرة عليها من البحر المفتوح، ويفصل في الوقت نفسه البحر المفتوح عن الكتلة القارية ويواجه آماد البحر بآماد اليابسة ليقيم التوازن بمساعدة السيطرة على **البر** من جهة **البحر**.

وما انفرط من الثقافة الأوروبية في القرن السادس عشر لم يكن، على عكس ما جاء به توينبي **«جزيئة تقنية»** بل شيء مغاير تماماً. لقد انفرطت الجزيرة الأوروبية عن القارة الأوروبية، وعالم البحر الجديد المسمى بالجزيرة وقف ضد عالم **اليابسة**، والسلام (Frieden, peace) على الأرض صار شبيهاً بالميزان في يديه. كان ذلك تعبيراً عن الجواب المحدَّد على تحدي المحيط العالمي الذي انفتح. وعلى جزيرة انجلترا هذه والتي قبلت التحدي وقامت بخطوتها الحاسمة

(*) عذراء أورليان ـ جان دارك (حوالي 1412 ـ 1431) بطلة قومية فرنسية. من أسرة فلاّحية. خلال حرب المئة عام (1337 ـ 1453) مع انجلترا قادت نضال الشعب الفرنسي ضد المحتلين الانجليز، وفي سنة 1429 حررت مدينة أورليان من الحصار. وقعت سنة 1430 في أسر البورغونديين فسلموها للإنجليز الذين أعلنوها ساحرةً وبعد محكمة صورية أحرقوها. وفي سنة 1920 رسمتها الكنيسة الكاثوليكية قديسة (المترجم).

نحو الوجود البحري ظهرت الآلات الأولى بصورة مفاجئة.

(5)

السفينة أساس الوجود البحري للبشر، كما إن **البيت** ـ أساس وجودهم البري. **والسفينة والبيت** ليسا نقيضين في مفهوم التوتر السكوني القطبي، وهما يمثلان ردوداً مختلفة على تحديات التاريخ المختلفة. **والسفينة والبيت** يصنعان بمساعدة الوسائل التقنية إلا أن الفرق الوحيد بينهما يتمثل في أن **السفينة** وسيلة الانتقال التقنية المصطنعة بصفة مطلقة، أقيمت على أساس سيطرة الإنسان الشاملة على الطبيعة. **فالبحر** يمثل نمطاً من الوسط الطبيعي يختلف جذرياً عن **اليابسة** فالبحر أكثر اغتراباً وعدوانية. ووفقاً للرواية التوراتية تلقى الإنسان وسطه المعيشي عبر انفصال **الأرض** عن **البحر** وبقي البحر مقترناً بالخطر والشر. وهنا نحيل القارىء إلى هوامش الفصل الأول من «**سفر التكوين**» في المجلد الثالث من «العقيدة الكنسية» لكارل بارت. ونؤكد فقط على أنه للتخلص من الرعب الديني القديم أمام البحر كان على الإنسانية أن تبذل جهوداً كبيرة. والجهد التقني الذي اتخذ من أجل ذلك التخلص يختلف بشكل جوهري عن أي جهد تقني آخر ـ فالإنسان الذي يغامر بالانطلاق في رحلة بحرية ـ كلمة «قرصان» كان تعني في بدايتها من يجرؤ على مثل هذه المجازفة ـ . كان عليه أن يحمل ـ وفقاً لكلمات الشاعر ـ «درعاً ثلاثياً على صدره (aes triplex circa pectus) . .» إنه خلاص الإنسان من المقاومة العفوية للطبيعة، والذي يمثل جوهر النشاط الثقافي أو الحضاري، يختلف بحدة في حالة بناء السفينة أو ترويض **البحر** وفي حالة تربية القطيع وإقامة المساكن على **الأرض** .

إن مركز ونواة الوجود البري مع كافة معاييره المحدّدة ـ هو المسكن، الملكية، الزواج، الميراث وما إلى ذلك ـ وهذا بمجموعه **البيت** وجميع هذه المعايير المحددة تنبثق من خاصية الوجود البري وبخاصة من الزراعة. والمؤسسة الحقوقية الأساسية، الملكية، Dominium ـ تلقت تسميتها من **البيت** ـ الـDomus، وهذا ما يراه ويعلمه جميع المحامين. بيد أن عدداً كبيراً من المحامين لا يعرفون أن كلمة Bauer الألمانية Paganus (فلاح) تنحدر لا بطريقة مباشرة من كلمة Asker bau (الفلاحة) بل من كلمة «Bau»، «Gebaude»، «aedificium» أي «مبنى» «بناء»

«بيت» وكانت في أصلها الأول تعني الإنسان، مالك البيت. وهكذا ففي مركز الوجود البري يقف **البيت** وفي مركز الوجود البحري تعوم **السفينة** . فالبيت ـ هو السَّكَن، والسفينة ـ هي الحركة. ولهذا فإن **للسفينة** وسطها المختلف وأفقها المختلف. والذين يعيشون في السفينة يوجدون ضمن علاقات مغايرة سواء فيما بينهم أو مع الوسط المحيط بهم. وعلاقتهم بالطبيعية وبالحيوانات تختلف اختلافاً كلياً عن علاقات أهل اليابسة فالإنسان الأرضي يدجّن الوحوش ـ الأفيال، الجمال، الخيل، الكلاب، القطط، الحمير، الماعز، وكل «ما في ملك يده» ـ ويجعلها حيوانات أليفة. الأسماك لا يمكن تدجينها ـ يمكن فقط صيدها وتناولها. لا يمكنها أن تكون أليفة لأن فكرة البيت نفسها غريبة على البحر.

ولكي نصوغ تمايزاً لا قرار له بين الوجودين البري والبحري قدمنا مثالاً ثقافياً ـ تاريخياً. ونحاول فيما يلي إيجاد الرد على سؤال ما الذي جعل الثورة الصناعية بما تتسم بهٰ من إطلاق الوثبة التقنية (entfesselte Technik) تولد ضمن شروط الوجود البحري. الوجود البري ومركزه **البيت** ينظر إلى التقنية نظرة تختلف تماماً عن الوجود البحري ومركزه **السفينة** . إن إضفاء صفة الإطلاق على التقدم التقني ومطابقة أي نوع من التقدم مع التقدم التقني بصفة استثنائية، وبكلمة مختصرة فإن ما يتم فهمه تحت تعبير «الوثبة التقنية المنطلقة»، «التقنية المحرّرة» ـ كل ذاك كان يمكن أن يتولد وأن ينمو ويترعرع فقط على أساس الوجود البحري، في مناخ الوجود البحري. وبكون جزيرة انجلترا قبلت تحدي المحيط البحري المفتوح وأوصلت الانتقال إلى الوجود البحري الصرف حتى ذروته المنطقية، فبذلك قدمت الجواب التاريخي على السؤال الذي طرحه عهد الكشوفات الجغرافية العظمى. وكان ذلك في الوقت ذاته مقدمة الثورة الصناعية وبداية العصر الذي نعيش جميعاً إشكاليتَه اليوم.

نحن نتحدث بصفة محدَّدة عن الثورة الصناعية التي تمثل مصيرنا المشترك اليوم. وما كان لهذه الثورة أن تتحقق في أي مكان ولا في أي زمان إلا في انجلترا القرن الثامن عشر. الثورة الصناعية تعني بالذات تحرير التقدم التقني، ويغدو هذا التحرير مفهوماً فقط بالانطلاق من خاصية الوجود البحري الذي كان فيه، إلى حد ما، عقلانياً وضرورياً. لقد تم التوصل إلى الكشوفات التقنية في كافة الأزمنة وفي كافة البلدان. والموهبة التقنية لدى الإنكليز لا تعلو على موهبة

الشعوب الأخرى. والحديث يدور حول الطريقة التي يتم فيها استخدام الكشف التقني وضمن أية أبعاد؟ وبكلمة أخرى ضمن أي نظام من المعايير يوضع هذا الكشف. ضمن شروط الوجود البحري تتحقق الكشوفات التقنية بصورة أسهل وأكثر حرية، لأنها ليست مضطرة بالضرورة إلى أن تنتظم في البنية الثابتة للمعايير المميّزة للوجود البري. لقد اخترع الصينيون البارود، وما كانوا بأي حال أغبى من الأوروبيين الذين اخترعوه أيضاً. ولكن ضمن شروط الوجود البري الصرف المغلق لصين تلك العهود أدى ذلك إلى استخدامه بصفة تامة في التسلية والألعاب النارية. أما في أوروبا فالأمر نفسه أوصل إلى كشوفات الفريد نوبل وتابعيه. والإنكليز الذين حققوا في القرن الثامن عشر جميع كشوفاتهم المشهورة التي جرت من بعدها الثورة الصناعية، أفران الفحم الحجري، صناعة الفولاذ المسبوك، الآلة البخارية ـ آلة الغزل وما إلى ذلك ـ ما كانوا أوفر عبقرية من الشعوب الأخرى والعصور الأخرى، ممن عاشوا وفق الأعراف البريّة وممن حققوا اكتشافات مماثلة مستقلين عن الإنكليز. الكشوفات التقنية ليست كشوفات للروح الأعلى الخفيّ. الزمن هو الذي يمليها إلى حد بعيد. ولكن إذا كانت تترك للنسيان أو يتم تطويرها ـ فهذا يرتبط أمره بذلك السياق الإنساني الذي تحققت فيه. وسأعبر بطريقة أكثر تحديداً: لا يمكن للكشوفات التقنية المكنونة في أساس الثورة الصناعية أن تؤدي إلى الثورة الصناعية إلا حيثُ تُتخذ الخطوة الحاسمة نحو الوجود البحري.

صار الانتقال إلى الوجود البحري الصرف يحمل في ثناياه وفي آثاره المباشرة تحرير التقنية كقوة مستقلة مكتفية بذاتها. وأي تطوير للتقنية في المراحل السابقة من الوجود البري لم يُفْضِ قط إلى مبدأ **التقنية المُطْلقة**. وعلينا أن نؤكد إزاء ذلك على أن الأشكال الشاطئية من الثقافات والمرتبطة من بينها بالبحار الداخلية لا تعني بعد الانتقال إلى الوجود البحري الصرف. فقط بعد تطويع **المحيط** تصبح **السفينة** النقيض الحقيقي **للبيت**. والإيمان غير المشروط بالتقدم والمفهوم كتقدم تقني، يمثل المظهر الصحيح لتحقيق الانتقال إلى الوجود البحري. ففي المدى اللامتناهي تاريخياً، اجتماعياً، وخلقياً للوجود البحري يظهر التفاعل التسلسلي لدورةٍ لا ضفاف لها من الاكتشافات. والحديث لا يدور حول الفروق بين الشعوب المترحلة والمستقرة بل حول التناقض بين **البر والبحر** ـ العفويتين المتواجهتين للوجود الإنساني، ولهذا فإن من الخطأ الحديث عن «المترحّلين البحريين» من خلال

سلكهم في صف واحد مع المترحّلين على الخيل، الجمال وما شاكلها. وليس صحيحاً نقل الشروط البرية إلى عفوية البحر. فالمدى الحياتي للبشرية في مغزاه ما فوق الطبيعي يتباين تبايناً جذرياً وبكل المعايير ـ الخارجية والداخلية ـ تبعاً لما إذا كان الحديث يدور حول الوجود البري أو الوجود البحري. ومهما كانت المواقف التي ننطلق منها في نظرتنا إلى هذا التباين ـ **من البحر إلى البر** أم من **البر إلى البحر** ـ فإنه يتجلى في حقل حضاري وثقافي مغاير تماماً في تركيبته؛ ويجب أن نشير هنا إلى أن الثقافة من تلقاء نفسها تنتسب في حدودها الأكبر إلى **البر**، أما الحضارة فإلى **البحر**[15] والنظرة الحياتية البحرية موجهة توجهاً تقني التشكل ـ بينما النظرة البرية ـ اجتماعية التشكل.

الظاهرتان الأهم في القرن التاسع عشر يمكن إنارتهما بضوء جديد بمساعدة نظرية خاصية الوجود البحري. والحديث يتناول الاقتصاد السياسي الكلاسيكي عند نهاية القرن الثامن عشر ـ بداية التاسع عشر والماركسية. فبمقدار تطور الثورة الصناعية كانت اللاضفافية المكتشفة تحفز خطوات وخطوات جديدة في طريق التطور التقني المنعتق. وما كان يسمى بالاقتصاد السياسي الكلاسيكي كان تركيباً ذهنياً عالياً، تمت صياغته على قاعدة المرحلة الأولى من الثورة الصناعية. وبدورها أقامت الماركسية تعليمها على هذا التركيب الخارق للعادة من الاقتصاد السياسي الكلاسيكي. فطوَّره وأعد تركيباً ذهنياً فوق العادة للمرحلة الثانية من الثورة الصناعية. وفي هذه الخاصية أُخذت الماركسية لتتسلح بها النخبة العليا من الثوريين الروس المحترفين، الذين تأتّى لهم تحقيق الثورة سنة 1917 في الإمبراطورية الروسية ونقل التركيب المزدوج الخارق للعادة إلى شروط بلادهم الزراعية. وفي ذلك كله ما تناول الحديث التحقيق العلمي للتعاليم البحتة والتطبيق المنطقي للقوانين الموضوعية للتطور التاريخي. تطرق الحديث إلى أن البلاد الزراعية المتخلفة صناعياً تعاني من ضرورة التسلح بالتقنية الصناعية المعاصرة، وإلا فقد هُيّء لها دور الفريسة بالنسبة للدول العظمى الأخرى المتطورة صناعياً. وعلى هذا تحولت الماركسية من البناء الأيديولوجي الفوقي للمرحلة الثانية من الثورة الصناعية إلى أداة تطبيقية من أجل التخلص من اللاحماية الصناعية ـ التقنية لبلاد شاسعة الأبعاد، وأيضاً لإقصاء النخبة القديمة التي لم تحقق النجاح، بصورة واضحة، في إنجاز المهمة التاريخية.

إلا أن الإيصال المنهجي لمبادىء الاقتصاد السياسي الكلاسيكي حتى نهايتها المنطقية ما كان إلا جانباً واحداً من التعاليم الماركسية. وقد بقيت جذور الماركسية هيغلية. ففي «أسس فلسفة الحقوق» وفي المقطع 243 يكمن مغزى القضية برمّتها. وهذا ـ موضوع مشهور. هذا المقطع يصور ديالكتيكية المجتمع البورجوازي الذي ينمو دون معوّقات وفق قوانينه الخاصة. ويؤكد على أن «**هذا المجتمع يحمل في نفسه وبصورة محتومة النمو المطّرد لقهر الشعب وترسيخ التصنيع**». ويفترض هيغل أن «هذا المجتمع» «مع كل ثرائه لن يكون أبداً على درجة كافية من الثراء أي إنه انطلاقاً من إمكاناته الداخلية لن يتمكن أبداً من الحيلولة دون تزايد الفقر وتفاقم عدد السكان المحرومين». وإزاء ذلك يستشهد هيغل علانيةً بانجلترا تلك الأيام مثالاً. ففي المقطع 246 يواصل قوله:

«وفقاً لهذا الديالكتيك يضطر المجتمع البورجوازي المحدَّد إلى الخروج عن حدوده لكي يبحث بين الشعوب الأخرى، المتخلفة إما في مستوى تطور وسائلها الصناعية، أو في مهاراتها التقنية عن مستهلكين لمنتوجه، وبالتالي عن موارد العيش من أجل وجوده الخاص»[16].

تلك هي المقاطع الشهيرة 243 ـ 246 من «أسس فلسفة الحقوق» الهيغلية والتي لقيت تطوّرها النهائي في الماركسية ولكن، وحسبما أعلم، لم يلفت أحد نظره إلى المعنى البالغ العمق للمقطع 247 التالي مباشرة للمقطع الذي استشهدنا به. وفيه تتأكد المواجهة الأساسية بين **البر والبحر**. وعَرْض هذا المقطع الـ 247 يمكن أن يكون ذا قيمة وأهمية لا تقلان عن عرض المقاطع 243 ـ 246 في الماركسية. وهنا يتأكد ارتباط التطور الصناعي بالوجود البحري. وهذا المقطع الـ 247 يتضمن الجملة الحاسمة التالية:

«ومثلما أن الشرط الأول للزواج هو الأرض الثابتة، **اليابسة**، فإن العفوية التي تُحيي الصناعة حتى الحدود القصوى هي **البحر**».

وهنا أقطع عرض أفكاري وأترك للقراء المنتبهين إمكانية أن يروا فيه بداية استعراض المقطع 247 من «أسس فلسفة الحقوق» لهيغل مثلما أن عرض المقطع 243 ـ 246 صنع الماركسية.

تحليلنا يولد سؤالاً أساسياً وخطراً جديداً معه. ومن تلقاء نفسها تتوثب

الرغبة لتطرح المشكلة التالية: ما هو التحدي الفعلي للتاريخ؟ وعلى الفور يظهر الإغراء الخطير للرد على هذا السؤال بالطريقة القديمة التي كانت ملائمة وصحيحة في المرحلة السابقة. من طبائع البشر التمسك بما كان قد أثبت صحته وفعاليته فيما مضى. وهم يرفضون بصفة جذرية أن يفهموا أن الجواب الجديد على السؤال الجديد لا يمكنه من جانب الإنسانية أن يكون إلا مجرد افتراض، وافتراض أعمى في غالب الأحوال، على نحو ما كان الأمر في حالة رحلة كولومبوس. لدى الإنسان متطلب يستحيل كبته وهو الوقوف من التجربة التاريخية الأخيرة، زمنياً وكأنها أمر سرمدي. فعندما قمنا، نحن الألمان، سنة 1914 باقتحام فرنسا، تهيأ لنا أن الأحداث ستتطور منذ هذه اللحظة مثلما تطورت في 1870 ـ 1871 وحتى تحقيق النصر الحاسم. وعندما قام الفرنسيون المحاصرون بالتسلل من باريس سنة 1870 ـ 1871 كانوا على ثقة من أن كل شيء سيسير وفق سيناريو الثورة المظفرة سنة 1792. وعندما أعلن ستيمسون كاتب الدولة في الولايات المتحدة مبدأه الشهير، مبدأ ستيمسون سنة 1932 كان يرى أن الوضع القائم على العموم يذكر بصورة مضخمة بسنة 1861 وبداية حرب الاستقلال.

الإحساس بالتاريخ يجب أن يحمينا من أمثال هذه الأخطاء. ومما يحمل المفارقة أن تلك البلدان بالذات والتي أوغلت أكثر من سواها في طريق التقنية المنعتقة يسود رأي يقول بأن الاختراق يبدأ منذ الآن، وبعون الوسائل التقنية لبلوغ آماد جديدة لا نهاية لها في الفضاء الكوني. وبالمقارنة مع هذا الاختراق في الكون سيبدو الاختراق الذي تواصل خمسمئة عام لعصر الكشوفات الجغرافية والتقنية العظمى مجرد قُصيصة لا قيمة لها من الزمن. ويخطط الناس لشن هجوم على الستراتوسفير ولرحلات جوية إلى القمر. إن كوكبنا نفسه، الأرض، يتحول تدريجياً إلى مركبة فضائية تسبح في المدى الكوني.

مثل هذا الرأي يبدو لي ترديداً لجواب قديم، تطويراً لذلك الجواب الذى قُدّم في يوم ما على تحدي المحيط العالمي الذي انفتح. وينظر الناس إلى تحدي يومنا الحالي على أنه استعادة مضخمة لاكتشاف أمريكا. هذا مفهوم من الناحية النفسية، كما يمكن القول. فعند ذلك أخذت تتكشف قارات الأرض ومحيطاتها الجديدة. أما اليوم فلا فضاء خارجي يُفتح ولا أسمع أي تحد كوني. هذا ولن نتحدث عن الصحون الطائرة. يمكن للتقنية المحرَّرة أن تنشب أسنانها، وقدر ما

يحلو لها، وبكل هياج في الكون ولن يتمخض عن ذلك تحد تاريخي جديد ناهيك عن الرد على مثل ذلك التحدي. ومن الطبيعي أن التقنية المنعتقة تولد دافع قوة خرافياً ورغبة في التغلب عليه. لكن هذا الدافع شيء آخر غير التحدي. صحيح إن التقنية الحالية تولد متطلبات مصطنعة لكن هذا لا يعني سوى أنها قادرة في أفضل الحالات على أن تقدم في الدرجة العليا الإجابة المصطنعة على السؤال الذي قدمته نفسها بالطريقة المصطنعة نفسها.

إن هذا التطوير ما فوق المعاصر للعالم القديم يبدو، من وجهة نظر التاريخ بالذات، غير تاريخي، وزاخراً بالمفارقات. وبالمناسبة فطبيعي تماماً الوضع الذي كان فيه المنتصر في العهد السابق يصرف اهتمامه عن التحدي الجديد للتاريخ. وكيف للمنتصر أن يفهم أن انتصاره حقيقة أحادية؟ من الذي يعلمه ذلك؟ وقد توصلت إلى الاستنتاج التالي: إنه لجيد الآن أن نمتنع عن تقديم رد قديم على السؤال الجديد. وأنه لأمر كبير أن نعي العالم الجديد بغير صورة «العالم الجديد» التي كانت سائدة بالأمس. شخصياً أرى التحدي الجديد لا في ذلك الجانب من الستراتوسفير. ألاحظ أن التقنية المحررة أقرب إلى أنها تحدد آفاق البشر من كونها تفتح أمامهم الآفاق الجديدة. التقنية المعاصرة ضرورية ونافعة. لكنها اليوم بعيدة جداً عن أن تكون رداً على أي تحد مهما كان. إنها لا تزيد عن أن تشبع المتطلبات التي تولّدها بنفسها إلى حد ما. وفيما تبقى فهي نفسها توضع اليوم تحت التساؤل وهذا يعني إنها بسبب ذلك بالذات لا يمكن أن تكون رداً. الجميع يتكلمون عن أن التقنية الحديثة جعلت أرضنا صغيرة إلى درجة مضحكة. والآماد الجديدة التي سينبثق منها التحدي الجديد يجب بسبب ذلك أن تكون **على** أرضنا لا خارجها في الكوسموس المفتوح. وذاك الذي يكون أول من يقدَّر له ترويض التقنية المحرّرة سيكون أقرب إلى أن يقدّم الرد على التحدي المطروح الآن من ذاك الذي يحاول بمساعدتها أن يترجل على **القمر أو المريخ**. إن تطويع التقنية المحرَّرة ـ مأثرة هرقل الجديد. من هذا الميدان ينتهي إلى مسمعي التحدي الجديد، تحدي الحاضر.

(ترجمة المؤلف عن الألمانية)

بديلاً عن الخاتمة

سفر رؤيا العفويات
من الجيوبولتيكا إلى فلسفة التاريخ
خواطر حول نظرية العناصر
لكارل شميدت

1 ـ 1 العفويات الحضارية اثنتان فقط:

ارتباط البنية الحضارية بهيمنة هذه أو تلك من العفويتين ـ البر والبحر ـ يمثل محور نظرية كارل شميدت والجانب الأوفر قوة وإثارة للانطباع فيها. ومن المهم أن نؤكد إزاء ذلك، أن الحديث لا يدور، ببساطة حول التطبيق التجريدي للنظرية المقدسة للعناصر الـ 4 على التحليل الثقافي ـ التاريخي بل حول تشظية ثنائية التاريخي الأساسي (وليس الطبيعي فقط) لعفويتي ـ **البر والبحر**، **الأرض والماء**، وإلى هذا فإن هذه الثنائية لا تغدو في حقيقة الحال عاملاً تاريخياً عندما توعى وتمارس عقلياً من طرف المجتمع البشري. ولكي نوضح ما تعنيه بالذات سنشير إلى غياب الإشارة إلى العفوية النارية وفلسفتها وتحليلها الثقافي والحضاري لدى شميدت (وسيدور الحديث عن هذا لاحقاً)، أما بالنسبة للعفوية الهوائية، المرتبطة بعصر الملاحة الجوية فشميدت يؤكد على أنها لم تولّد «نوموسها» الخاص، أنموذجها الحضاري الخاص، لأنها استمرار تاريخي للمحَرك التاريخي الذي فرضته حضارة البحر. إن الأيروكراتيا، والأثيروكراتيا الأكثر فعالية أي المراحل الهوائية العائمة والفضائية من تطور التقنية لم تثر أمثال تلك التبدلات الشاملة في مسيرة التاريخ الإنساني كالتي جاء بها اكتشاف المحيط العالمي وتحدّيه.

إن الحدس العبقري لدى شميدت قد ألهمه بصحّة بالغة أن الكون لا يحمل في داخله لا التحدي الحقيقي ولا الرد التاريخي. أما الدراسات الكونية ضمن شروط «الأثيروكراتيا» فتستعرض احتضار الحضارة التكنوقراطية التي تستعبد ولكن لا تحرر. ويبدو للوهلة الأولى أن مثل هذه النظرة إلى الديالكتيك التاريخي للعفويات عند شميدت، إذا ما أخذنا بالحسبان مشاعره المعادية ضمناً للتلاسوكراتية، يجب أن تصبح قاعدة لمبدأ محافظ صرف ذي مكنون أيكولوجي مؤكد. ويظهر الإغراء بفهم الكلمات الختامية من مقالته حول «التوتر الكوني بين **الشرق والغرب** على هذه الصورة:

«الآماد الجديدة التي سينبثق منها التحدي الجديد بسبب ذلك أن تكون **على** أرضنا لا خارجها في الكوسموس المفتوح».

على هذه الكيفية يتصرف في أغلب الأحيان أتباع شميدت، آخذين في الحسبان نظراته المحافظة في السياسة. ولكن من شأن ذلك أن يكون، حسب رأينا، على درجة مبالغ فيها من التبسيط. فإذا لم يكن التحدي الجديد سوى العودة إلى التوجه القاري بعد العصر الثوري لهيمنة «التقنية المحرَّرة» والحضارة الأطلسية ـ حتى بسبب الخوف أمام الكارثة التقنية والأيكولوجية، فإن التوتر الروحي للديالكتيك التاريخي يفقد بُعده الدراماتيكي ويغدو على حدّ التقريب دورة طبيعية تتطابق مع ذلك التوتر السكوني ـ القطبي والذي، من أجل التغلب عليه، أسس التاريخ البشري بأسره، حسبما يرى شميدت. يجب أن تحل الثنائية الحضارية البر ـ البحر بطريقة مغايرة.

يميل شميدت إلى اعتبار الانتقال نحو الأيروكراتيا، ومن ثم إلى الأثيروكراتيا مجرد تطور طبيعي لاستراتيجة **البحر** لا إشارات إلى مراحل ثورية جديدة. وعلى هذا يمكن القول إن عفوية **الماء** في توسعها الشمولي الذي يتحقق بالضبط على حساب **اليابسة** والمدى الخاضعين لها تقليدياً إنما تضع في خدمتها العفويتين الأخريين ـ الجو والأثير (الفراغ). وبكلمة أخرى فإن عفوية البحر المائية تظهر نفسها عبر عفويتي الجو والأثير الخاضعتين مواصلة توجهها الحضاري نحو التمييع، ونذكر بهذه المناسبة بأن هذا الاتجاه بالذات هو الذي ولّد ديالكتيكية «الوجود البحري» التاريخية مع ما يرتبط به من تحرير التقنية ومراحل الثورة الصناعية.

كيف تُفسَّر في مثل هذه الحالة الإنجازات في أجواء الملاحة الجوية والكوسموسية والتي حققتها دولة بريّة فوق العظمى كالاتحاد السوفياتي ـ التعبير الكوني الأخير زمانياً عن البهيموت الجيوبولتيكي، عن قوى الكتل القارية والنوموس الأرضي؟ بهذه الطريقة على وجه الدقة حسبما فسر شميدت نفسه بعبقرية، الوظيفة التاريخية للماركسية في روسيا: تلك كانت التسلح الذهني لعقيدة الثورة الصناعية الثانية لدى النخبة البديلة، التي استطاعت، بطريقة إرادية وواعية، أن تحول بلاداً برية عتيقة إلى حصن صناعي تقني عملاق، تمكن، على مدى 70 سنة من أن يواجه الضغط الكثير الخطط للحضارة البحرية. كان استخدام المعسكر **الشرقي**. للأيروكراتيا والأثيروكراتيا استمراراً للاستراتيجية الماركسية بالنسبة للثورة الصناعية من أجل مقاومة حضارة **الغرب** البورجوازية.

وهكذا فإن عضواً واحداً من الثنائية التاريخية ـ **البحر** قد تضمن في داخله العفويات الأخرى في عملية توكيده الكوني. وإذا كانت هذه العملية خلال كتابة شميدت لمقالته «التوتر الكوني» سنة 1959 لا تزال في مرحلتها الجنينية فعند الثمانينيات صارت شفافة ومرئية بالنسبة للجميع. لقد طوّع البحرُ **الجو والكوسموس**.

ونقترب هنا من النقطة الأهم في التاريخ الحديث والتي تعد محك الغالبية الساحقة من الأيديولوجيات والنظريات الاجتماعية ـ السياسية التي عدّت مقبولة حتى اللحظة الأكثر تأخراً.

ونقصد بذلك انهيار المعسكر **الشرقي** والبيريسترويكا.

1 ـ 2 ملموسية الطوفان المسكوني:

يعد هذا الحدث أساسياً لاختبار صحة آراء كارل شميدت. ومن خلال التأمل عبر مصطلحاته يمكن وصف هذا الحدث بالصورة التالية.

إن نهاية المعسكر **الشرقي** الذي جسد خلال عصرنا التوجه الكوني **للبر** المواجه **للبحر** تعني نهاية تلك المرحلة التاريخية التي كان ممكناً فيها الاستخدام الفاعل للتركيبة الذهنية التي لخصت المرحلة الثانية من الثورة الصناعية من أجل المنافسة الكونية مع حضارة **البحر**، مع **الغرب** ومع العالم الذي ربط مصيره

بالتطوير اللامحدود للتقنية المحررة. وبكلمة أخرى كان ذاك خاتمة صلاحية الماركسية. فقوى **البر** فقدت الذهنية الدفاعية التي بقيت فعالة إلى أن تبدلت بصفة نهائية ولا رجعة فيها تلك الشروط الخاصة بالرد الذي قدمه ماركس على التحدي المعاصر له في التاريخ الأوروبي.

وأحد تفسيرات انهيار المعسكر السوفياتي هو تخلفه في ميدان المنافسة التقنية، وإلى جانب هذا فإن اللحظة الأهم في ذلك التخلف كانت استحالة الرد بصورة ملائمة على برنامج التسلّح الاستراتيجي الأمريكي. وبكلمة أخرى فقد فاز البحر في المبارزة التكنولوجية على **البر** في مجال الأثيروكراتيا ـ التقنيات العالية المرتبطة بالاختراعات الاستراتيجية في ميدان الكونيات.

فما الذي يعنيه ذلك من وجهة نظر جدلية التاريخ؟

الأول: **البحر**، الذي أنجب دافع الوثبة التقنية ثم الحضارة التقنية فيما بعد، حقق الانتصار على **البر** مع ذلك. على الرغم من أن هذا قد استعار في الوقت المناسب وبطريقة فاعلة التقنية الذهنية الأحدث (بالنسبة لعصرها) من البحر نفسه. وقد تطابقت هذه العملية زمنياً بصفة صارمة مع نهاية المرحلة الثانية من الثورة الصناعية. وعلى المستوى النظري أخذ ذلك يتوضح من بداية السبعينيات متزامناً مع الانحطاط السريع للشيوعية والاشتراكية في أوروبا. أما من الناحية العملية فقد كانت النقاط قد وضعت على حروف البيريسترويكا. كانت المرحلة الثالثة من الثورة الصناعية تتطلب، على الأقل. ماركساً جديداً وماركسية جديدة. وكان يمكن للفاشية الأوروبية أن تكونهما لكن تلك المحاولة بدت جهيضة، لأن ألمانيا منيت ـ على الصعيد النظري وفي المخطط المادي ـ بهزيمة من طرف دولة برية كبرى أوفر منطقية من الناحية الحضارية (الاتحاد السوفياتي) مدعومة في هذه الحالة من طرف البحر (على نحو ما تكرر مرات عديدة في التاريخ ـ منذ نابليون وحتى الحربين العالميتين الأولى والثانية). ولم يكن ثمة ماركس جديد، ويبدو أنه ما كان له وما ينبغي له أن يكون.

الثاني: انهيار المعسكر **الشرقي** يعني عولمة البحر، الذي ينتقل من دون الحكم والمراقب إلى دور الأوتوقراطي (المستبد). إنه العولمة، التكامل الحضاري للكرة الأرضية برعاية **الغرب**. وفي اللغة الدينية ثمة اسم واحد لهذا الحدث، إنه

الطوفان العالمي، نهاية نوموس **الأرض** والهيمنة العالمية لنوموس **البحر**. فلنتذكر أيضاً في سفر الرؤيا الوحش، الخارج بالذات من **البحر**[1]. وهذا ما يجر وراءه الانتقال النهائي من عصر مواجهة العفويتين إلى عصر اخضاع إحدى العفويتين للأخرى المعادية لها. ويمكن القول إن هذه بداية «العالم الشمولي». لوياثان يقهر بهيموت، **الحوت**، **الدبّ**. انتصار موبي ديك[*] على **الدب الروسي**.

الثالث: العفويات المتبقية خاضعة منذ الآن لعفوية **البحر** اليابسة الخاضعة (العدو المنهزم، الـHostis) و**الهواء والأثير** (الحليفان الطبيعيان، المتضامنان مع الديالكتيكية المائية، الـAmicus) ـ تمثل اللوينات الفكرية للبحر، العفويات المساعدة للسفينة الكونية، للجزيرة العالمية، للـWorld Island (في مصطلحات سبيكمان لا ماكندر). إنه عصر الـOne World، المجتمع ما بعد الصناعي، عصر الإعلام الكوني والأتمتة. وهو ما يسمى بلغة أكثر الأحاسيس طليعية لدى ماركس بـ«الهيمنة الواقعية لرأس المال»[2]، زمن اختفاء الايديولوجيات، زمن ما بعد الحداثة، و«نهاية التاريخ».

تحدّي **المحيط** الذي تم اكتشافه، التحدي الذي قبله الأنجلو ساكسون، من أعطوا ردّهم المتمثل في الوثبة التقنو ـ صناعية، انسكب في الحضارة الغربية المعاصرة، أخضع العالم بأسره واكتسب شكلاً نهائياً في الأوتوقراطية الكونية لأمريكا، نفس تلك القارة، والتي باكتشاف كولومبس لها، ابتدأ «العالم المعاصر». وقد ختم هذا التحدي تجليه التاريخي في انهيار المعسكر **الشرقي**، في البيريسترويكا وسقوط الاتحاد السوفياتي. والتقنية المحررة (entfesselte Technik) تغلبت على كافة العقبات الخارجية. فسلطان البحر مطلقٌ منذ الآن. تتجسد في سيطرة **الغرب** التقنوقراطي، في الأولوية الاستراتيجية للولايات المتحدة، هيمنة

(*) موبي ديك: حوت، بطل رواية الكاتب الأمريكي ميلفيل (Melville)، جيرمان، (1819 ـ 1891). وللمؤلف كتابات في السيرة الذاتية وقصص حول البحار، تتحدث عن سمو أخلاق وتقاليد الشعوب المتخلفة بالمقارنة مع مستعمريهم، قصة «أومو» 1848. أما روايته «موبي ديك» (قصة صراع بين الحوت العظيم موبي ديك والصياد القبطان العظيم آهابا في عفوية البحر الفسيحة) فتتضمن معنى المغامرة وتصور النضال الرومانسي الدائم للإدارة والعقل الإنسانيين ضد «الشر الكوني». وللكاتب أيضاً أشعار دينية فلسفية ونقد ساخر كما في مجموعة «تيموليون» 1891 (المترجم).

رأس المال الجاري، في التجريف الشامل للبنى القيمية التقليدية. أما الملكية والإرث والزواج، والمسكن فكل ذلك فقد معناه الذي كان له في عصر الوجود البري في عصر نوموس الأرض.

1 ـ 3 العنصر الذي غُيّب عن الأنظار

على الرغم من أن شميدت قد تحدث عن فردانية الأحداث التاريخية، مؤثراً تجنب أي صيغ من الجبريّة والترتيب فإنه، لكونه مسيحياً، ما استطاع بالكاد إنكار وجود **نهاية** للتاريخ، ووجود شيء من اللاهوت بناء على ذلك. وتخليه عن غائية هيغل أو ماركس لا يعني رفضه الغائية على العموم. وهو كمفكر شريف على الإطلاق (يتفق مع هايدغر في هذا المعنى) لا يرغب في أن يقيّد ـ لا بالنسبة لذاته ولا بالنسبة للآخرين ـ البداهة الحرة للحقيقة إذ كان يؤمن بأن في هذا تتجسد الكرامة الإنسانية العليا والحرية العقلية واللتان تتم ممارستهما، في نهاية المطاف، في السياسة (das Politiche) وفي القرار (die Entscheidung) وفي جميع استدلالات شميدت العقلية يحضر بشكل مُضْمر إيمانٌ بالأخرويات، طبيعي بالنسبة لمسيحي: فهو يؤكد على قراءة **العهد الجديد** المتجسد في شموليته الكونية، كما إن من السهل الإحساس بإشارات تنتمي إلى سفر الرؤيا في علاقة شميدت بـ«التقنية المنعتقة» وفي الوجود البحري.

والواضح أن شميدت قد وعى التوازن بين السرد التوراتي لخلق **الأرض**، نتيجة لانحسار الماء ـ وتلك الوضعية العملية التي تمثل شيئاً عكسياً ـ هجوم الوجود البحري على الأرضي أو الإغراق الرمزي **للأرض بالماء**. ومن المهم في ذلك أن التوجه التالاسّوكراتي الدائم في التاريخ لا يصل إلى الحالة المحيطية إلا في العصر الحاضر حيث يتخذ بعده الأقصى. وإن أشعّة التالاسوكراتيا المحيطية باتجاه الستراتوسفير والكوسموس إنما تستعرض أبعاد انتصارها المهولة.

ولكن ينبثق سؤال مشروع يعود إلى الماضي: لماذا نوموس **الأرض**، **اليابسة** صار أمّ الوجود الإنساني خلال آلاف السنين من **التقليد**؟ ثم لماذا سقطت بنية النوموس التقليدي وهي على هذه الدرجة من الرسوخ ولم تنتكس بارتدادات بوتاميّة (نهرية) ولا تالاسوكراتية محدودة ولا ناجمة عن الرحَّل، سقطت في نهاية المطاف ضحية عفوية **المحيط** الفوضوية.

في معرض التوكيد على وجود **الماء** قبل **اليابسة** يلمح **سفر التكوين** إلى شيء من أولوية **الفوضى** بمقارنتها مع النظام. كما إن الأساطير الهندأوروبية تؤكد ذلك في مجموعة كبيرة من الموضوعات. ويمكن إلى حد ما الافتراض (كما هو الأمر في التقليد المُحْكم)، بأن **الأرض** ـ ماءٌ مكثّف، أما في مصطلحات الجغرافيا **فالأرض** ـ قاع **المحيط** المتحرر من **الماء**، لكن هذه النظرية التي تم اقتناصها من الفوضى، ذلك النوموس، **اليابسة**، **القارة**، **Heartland** ماكندر، **ميتغارد** الجرمان القدماء، قلعة **النظام**، **البوليس** التاريخية ليست سبب النوموس التقليدي بل نتيجة تأثير تحولي، أثر لما فوق الطبيعة مثبت في الطبيعة، بَصْمة ذاك الذي يمكن تسميته منبع **التاريخ**. والكلمة الروسية التي تعني الأرض الراسخة، das feste Land, die Erde تسمح لنا بالاقتراب من هذه القوة السرية. إنّها كلمة ***Суша*** (سوشا) ومن الناحية الايتيمولوجية تتضمن إشارة إلى طبيعة اليبوسة غير الموجودة في اللغات الأخرى(*). وهذه الخاصية تثير بدورها تداعياً مع الدفء، الحرّ **والنار**، مع ذلك العنصر الخامس المنسي، العضوية الخامسة، التي كانت مأنوسة بالنسبة للتصانيف الكلاسيكية القديمة، ولكنها لسبب ما مغيبة في تحليل شميدت الحضاري والتاريخي.

وهنا سنتذكر هيراقليط الذي على خلاف فاليس الميليتي وسواه من الفلاسفة ـ التالاسوكراتيين رسخ النظرية الثورية حول انحدار **الكون** من **النار**. **والنار** ـ دون شك، عنصر فائق بالنسبة لعفويات الوسط الأرضي. فإذا كانت **الأرض**، **الماء والهواء** داخليةً بالنسبة لكرتنا الأرضية وسكانها، بل وحتى الخواء الكوني المحيط بالستراتوسفير يمكن أن ينظر إليه على أنه خلاصة داخلية بالنسبة للوسط (الأثير) فإن **النار الدفء والنور** تأتي إلينا من **الخارج** من النجم القرباني المتألق، الشمس العظمى. العناصر الاعتيادية ـ عفويات البشر. **النار** ـ عفوية **الآلهة**، جوهر **السماوات** الروحية. وقطبية **النار** بالنسبة لكافة العناصر الأخرى لا تُدْرج في تلك الصورة السكونية الطبيعية المحضة والتي شعّبها شميدت بعدالة عندما تحدث عن التوتر الطبيعي القائم بين **البر والبحر**، والذي ميّزه بكل دقة عن التوتر المميّز لديالكتيك التاريخ البشري. والحق إن التوتر الذي تثيره **النار** يمثل جوهر

(*) أما في العربية فـ «اليابسة» هي الترجمة الحرفية للكلمة الروسية المذكورة (المترجم).

الديالكتيك. وإذا كان ممكناً التسليم مع فاليس بالنسبة لمصدر **الطبيعة** فإن هرقليط وحده المحق بالنسبة لمصدر **التاريخ**. وهدية التيتان بروميثيوس للبشر، النار الإلهية وقد أُنزلت إلى الأرض، هي الموضوع السرّي الرئيس للديالكتيكية التاريخية، agent invisible للخيميائيين، الوليد الفلسفي لذلك الهرقليط نفسه، وهو ينشر عبر العصور والأحقاب مضمون روحه الشمسية، غنوصيته السماوية.

النار الفائقة تبدد المياه الأولى، لتظهر **اليابسة**. **النار** المتسامية تمجَّد من طرف أهل الأرض على أنها المبدأ الأهم ـ فيُحلّونها صدر البيت (الموقد المقدس)، وسط **معبدهم** (المذبح المقدس) وسط جسدهم (تمجيد القلب) وسط عالمهم (الشمس، واهبة اتجاهات المكان ومقاييس الزمان). والنوموس البري **للأرض** ـ ثمرة التأثير المتسامي **للنار** فبالنظام البري ردّت الإنسانية على تحدي الخارق، وبذلك دخلت باب التاريخ، تسامت على الطبيعة وعاشت ذاتها. **البيت** هو الرد على **الشمس**. واليابسة وحضارتها ـ ثمرة **النار** وقد تم وعيها عقلانياً.

وما دامت العلاقة بين **النار والأرض** فلم يعد ثمة من تحد. وتوازنت التالاسوكراتيا مع التيلوركراتيا وكانت فيستا الرومانية تحطم بكل انتصار قرطاج المولودة من الرغوة في كل مرة تطاولت فيها هذه على عالمية رسالة فيستا الحضارية الثقافية. وعندما انطفأت النار المقدسة في بيوت البشر، في قلوب البشر، في معابدهم تصاعد زئير لوياثان الأسطوري. **واليابسة** وقد ضيعت معناها، مركزها، جبروتها، قضي عليها منذ ذلك الحين بأن تخسر المبارزة الأخروية مع **البحر**.

صارت البيريسترويكا وهلاك **البهيموت** أمراً محتوماً في اللحظة التي صار فيها **التقليد** محافظاً، وعندما حجب الرد المعطى على تحدي **النار** الفائقة بنفسه السؤال بصفة نهائية، وعندما كف نوموس الأرض عن ضبط معاييره مع نوموس **السماء**. وما التاريخ البشري بأسره في نهاية المطاف إلا فصلة موسيقية بين **الومضة الأولى** للنجمة السحرية وبين الطوفان الكوني.

1 ـ 4 الأيقونة واليابسة

طريفة جداً ملاحظات شميدت حول الأيقونوغرافيا وتعميماته حول علاقة **الصورة بالغرب**. ولهذا علاقة مباشرة بعفوية النار، إذ إن المقدرة البصرية ـ عنصر القياس الضوئي للواقع هو بدوره واحدٌ من آفاق النار (إلى جانب الحرارة). فإذا

قبلنا بالعلاقة التوالدية بين **اليابسة والشمس**، والتي كنا قد كشفنا عنها، تبدو مَفهومةً أيضاً الأيقونة، الصورة البصرية المقدسة، بنوموس **الأرض**. ومن الطبيعي أن السكونية المَدَوية، الثبوتية، وتنظيم البيئة تتوق جميعها ومن تلقاء نفسها إلى أن تلقى تعبيرها في الصورة ـ الرمز، الهيروغليف، اللوحة. وكأنما تلتقط من الواقع الجاري قطعة يتم تغيّرها إلى **الصورة**، إلى **الأيقونة** إلى شيء دائم. وكأنما يستعاد في ذلك سر انحدار **اليابسة** الأولى من كتلة الفوضى المائية. فمن خلال **الأيقونة** يذكّر نوموس الأرض دوماً بمنبعه، وبهذا المعنى يكون الركوع أمام الأيقونات واستعمال التصوير على العموم في الواقع المظهر الواضح على الوجود التقليدي، الأرضي، القاري.

هذا التصور يعيننا على تطوير تلك الملاحظات التي قال بها شميدت والمتعلقة برسالة إسبانيا التاريخية. إسبانيا الكاثوليكية التي كانت تغرس فوق جميع الأراضي المحتلة وجه العذراء الطاهرة، كانت تؤدي الرسالة الخارقة للأهميّة لتحييد **المحيط** (وتحديه) عن طريق **النار**. وقد كانت هذه العملية الكونية شبيهة بصورة من الصور بالوظيفة التاريخية للماركسية في روسيا: ففي الحالتين تم قبول التحدي من أجل تحييد آثاره المهلكة بالنسبة لنوموس **الأرض** والعمل على تحويل السم إلى ترياق. وخسارة المعركة البحرية من قبل إسبانيا أمام القراصنة الإنكليز كانت محفوفة بعواقب كونية مخيفة. فعلى الجزيرة ما وراء الأطلسية كان الأنجلو ساكسون يزرعون بذور تلك الحضارة **الرؤيوية** التي قضي عليها بأن تجسد لوياثان في كل جبروته الأُخروي النهائي. ومن الرغوة ظهرت **القارة السفينة** التي تفوقت بكل المعايير على أصلها الأوروبي البدئي. وقد كتب على ذلك الهولة عند مَوْلده إطفاء النار المقدسة، تحطيم **الصورة**، وأن يفرض على الكرة الأرضية «نظامه العالمي الجديد». ومن الطبيعي أن التصور الحياتي المسيطر لدى ذلك المسخ المهول هو أفكار البروتستانتية ـ الطهرانيون، المعمدانيون، المورمون، وما إلى ذلك ـ والذين يتميّزون بدرجة متناهية من مهاجمة التماثيل وتحطيمها، والتحديث الكنسي والبغضاء. إن الغيريليا(*) اللاتينو ـ أمريكية المقضي عليها والتي أسست

(*) الغيريليا (من الاسبانية guerrilla من guerra الحرب) وتطلق على حرب الأنصار في إسبانيا وأمريكا اللاتينية.

على خليط من الماركسية (كذا!) واللاهوت الكاثوليكي للتحرير (كذا!) ـ هو ذا كل ما تبقى اليوم من الخطى السياسية الكونية الطموحة للكونكويستادور ـ الإسبان من أجل دحر الطوفان الكوني.

ولكن هل تنبثق هنا صعوبة نظرية لم يناقشها شميدت حتى النهاية. والقضية أنه سيشير إلى عادة المطابقة بين الصورة البصرية وتمجيد الأيقونة ـ مع **الغرب**، بين رفض الصورة وتحطيم التماثيل ـ مع **الشرق**. ويسوق شميدت نفسه عدة أمثلة تدحض الصحة الافرادية لمثل هذه المطابقة. فلنتحدث عن هذا بشيء من التفصيل. وبخاصة أن هذا يمسّ بصورة حميمية المشكلة الأهم بالنسبة لنا ـ المغزى التاريخي لروسيا ورسالتها.

1 ـ 5 Hostis et Amicus مُطْلقان ـ صور في الزمان والمكان

نتعامل هنا مع قضية كان مغزاها الميتافيزيكي قد نوقش في كتابنا الآخر «مسرحية الأوراسيا الدينية»، فصل «لا وعي الأوراسيا» والحديث يدور حول مطابقة الأوروبيين **لتقليدهم مع الغرب** مطابقة نموذجية. وغالباً ما يدور الحديث ببساطة، لا عن الغرب بل عن الشمال الغربي بل حتى قد يتم التذاوب بين ثلاثة مفاهيم جغرافية ـ **الغرب، الشمال** الغربي، الشمال. وهذا ما يواجه **بالجنوب، الجنوب** الشرقي **والشرق**، وكلها على الأغلب تتذاوب أيضاً في لوحة حضارية واحدة متمثلة في السطح الثقافي السامي **للشرق الأدنى** وهو الأكثر وضوحاً بالنسبة لأوروبا من الناحية التاريخية. وغالباً ما تستخلص هذه النظرة من التراث الروماني وأحياناً من التراث المسيحي.

إلا أن الحديث يدور في واقع الحال حول وهم بَصَري يدين الأوروبيون به للجغرافيا. وقد استطاع ذوو العقول الأعمق غوراً من غيرهم ـ ورينيه غينون بالدرجة الأولى ـ أن يبتعدوا عن هذا الخلط وأن ينظروا إلى الأشياء من موقع آخر أكثر ملاءمة. فقد أشار رينيه غينون بكل إنصاف إلى أن قارة الأوراسيا تمثل من وجهة نظر الجغرافيا الواقعية (والمقدسة) كتلة مهولة من **البرّ** ليست أوروبا فيه إلا رأساً غربياً، شبه جزيرة ترنو بأبصارها نحو الأطلسي. أما الشعوب الهندأوروبية فتعيش فوق مجموع اليابسة فيه ـ من هندوستان عبر إيران وروسيا وحتى أوروبا.

والهند الآرية تحفظ ذكرى الأساطير الأكثر قدماً للعرق الأبيض وتصوراته العقلية، أما المسيحية الأرثوذوكسية فتنتشر بعيداً وراء الأورال وحتى المحيط الهادي فتشغل مساحة تربو في حجمها على مساحة أوروبا. وبالمناسبة فإن التضييق التاريخي والقوالب الفكرية المقحمة لا يسمحان للأوروبيين على العموم بالنظر إلى الثقافة الأرثوذوكسية لروسيا على أنها تقليد مسيحي جدير بكل الثقة عُهد به إلى شعب هندأوروبي أبيض. ومما له دلالته في سياقنا هذا أن التسمية «اليونانية» «أيقونة» قد بقيت بالذات في روسيا الأرثوذوكسية تطبيقاً على الصورة المقدسة، وفضلاً عن ذلك فإن الأيقونة الروسية بالذات تحتفظ بالتقليد المسيحي الخالص الذي تلاشى عملياً في **الغرب**.

في معرض تقييمه لكتاب البروفيسور الألماني هيرمان فيرت «أصل البشرية»[3] أشار رينيه غينون إلى ضرورة تمييز أمثال هذه المفاهيم كالمناطق شمالي الأطلسية (الشمالية ـ الغربية) والهيبيربورية (الشمالية) والأطلسية (الغربية).

وفي الواقع فإن عبادة النار ونوموس **الأرض** البري الذي درسه شميدت بكل اهتمام يمثلان على العموم الخاصية المميّزة للشعوب الهندأوروبية البيضاء التي انحدرت إلى الأوراسيا من **الشمال** وانتشرت في جميع أصقاعها من **الغرب** إلى **الشرق** ومن الشرق إلى **الغرب**. وحيث يوجد الهندأوروبيون توجد **الأيقونة**، التصوير المقدس، عبادة **النار والنور**، الأساطير المتعلقة بالشمس، التدرّجية التقليدية وذكرى **الهيبيربوريا**. وتكثر الصور المقدسة في الهند. أما في إيران فحتى بعد اعتناق الإسلام ـ والإسلام يحظر بأشد الطرق تصوير البشر والحيوانات ـ ازدهر فن المينياتور والتصوير الحقيقي. وفي روسيا الأرثوذوكسية مجدت لا الأيقونات فقط بل ورسامو الأيقونات، أما الهدوئية الأرثوذوكسية، مقولة **النور غير المخلوق** فكانت خطاً حياتياً مركزياً في **الكنيسة الروسية**. **والأيقونة** هي الخاصية التي لا يمكن انتزاعها بالنسبة للهندأوروبيين ويجب أن تتطابق بالذات مع **الشمال** الهيبيربوري، الوطن الأول السحيق القدم لنوموس **الأرض** الطبيعي التقليدي البري.

النفور من التصوير وتحطيم التماثيل ليسا من خصائص الشرق بقدر ما هو من خصائص **الجنوب**. وهذا تواز جغرافي طبيعي إذا ما أخذنا بعين الحسبان منابع الهندأوروبيين. فإذا كان عرق الشمال يركع للنار والصورة فعرق **الجنوب** المناظر له يركع لنقيض النار (الماء مثلاً) ونقيض الأيقونة (الصوت مثلاً)، ومن الطريف أن

غينون نفسه ينسب هذه الثنائية الثقافية إلى الاستقرار والترحل: فالاستقرار يقترن لديه بشخصية قابيل التوراتية، بالصورة البصرية وبالزمن بينما يرتبط الترحل بهابيل، بالشفوية والمكان[4]. وهذا ما يدوّن بطريقة رائعة في ثنائية العناصر التي ناقشها شميدت. فالوجود البحري (على الرغم من أنه يشترك مع الترحل) يمثل ذلك التطور الخارق السرعة للبداوة والذي يدخل في خاصية جديدة بمجرد أن ينتهي الطريق من الترحل البري عبر الملاحة في البحار القارية وحتى الخروج الحاسم إلى **المحيط** المفتوح.

وهناك جزئية أخرى على مستوى بالغ من الطرافة: فغينون يؤكد على أن التقليد السامي تقليد ليس شرقياً بل أطلسي، غربي وهو في الوقت ذاته بدويّ. وتوافقاً مع هذا التقليد تأتي هذه العلاقة الإيجابية بالرعي - هابيل في الرواية التوراتية. وفضلاً عن ذلك يشير غينون إلى تلك الحقيقة وهي أنه لبناء معبد سليمان تم استدعاء المهندس الأكبر من بين الغرباء، ويبرهن على أن الحديث كان يدور حول ممثل للتقاليد الهندأوروبية لأن مميّزاتها كانت ترسيخ العمارة المقدسة، أي بناء ذلك البيت الذي يثوي، وفقاً لشميدت في أساس نوموس **الأرض** - بينما كان للساميين، الرحّل تركيب اجتماعي قداسي آخر.

وأخيراً، فبالنسبة للشرق، يؤكد غينون على أن هذه الجهة من العالم مرتبطة أكثر من كل جهاته الأخرى بالتقاليد، بثبوتية الطّرز البدئية القداسية وبالوفاء للأصول. وفي كتابه «**الشرق والغرب**» طور بصورة مفصلة تلك الأطروحة. ويمكن القول بأن غينون في الوقت نفسه يربط **الشرق بالشمال** إذ يعدّه الوريث التاريخي للتقليد النوردي البدئي. وعلى فكرة فبالنسبة لتطابق تصورات عالم الشمال وعالم الشرق يمكن أن نلتقي بمقاطع رائعة لدى هنري كوربان المتخصص المعاصر الأفضل في التقاليد الإيرانية ومترجم السهروردي العظيم.

وهكذا فلنجمل نتائج ملاحظاتنا. يتطابق الشمال مع التقاليد الهندأوروبية، الاستقرار، تمجيد النار والصورة. وفضلاً عن ذلك **فالشمال** مرتبط قداسياً **بالشرق** أيضاً. وينبغي أخذ هذين التوجهين بالذات على أنهما انطلاقيان في مسألة تاريخ تطور نوموس **الأرض** وخطوط قوته المركزية. وعلى هذا فإن الدفاع عن تمجيد الأيقونة في التاريخ ليس تقليداً غربياً بل شمالي أو شرقي. وهذا الخط مميّز بالنسبة لأوروبا بكاملها - من الهند وحتى ايرلندة. وهو يتفق مع المسار التاريخي

لنور الشمال Nordlicht ومع الشعوب والثقافات التي تظهر بصفة حاملات لهذا **النور**. إنها سبارطة الدورية، روما الإمبراطورية، إيران الزرادشتية، الهند الڤيدية، بيزنطة، روسيا الأرثوذوكسية، ايرلندة، وإسبانيا الكاثوليكيتان، وهذا معسكر نوموس **الأرض**.

وعلى القطب المقابل من التاريخ يظهر، وطبقاً لذلك الجنوب بمعية الغرب (!) الرُّحل الساميون، محطّمو التماثيل، أجنّة التالاسوكراتيا والحضارة التجارية والوثبة التقنية. ومن شأن غينون أن يسمي هذا المعسكر بـ«المنطلقات الأولى للحضارة المعادية للعقلانية» و«بُناة المحاكاة الساخرة العظمى». كما يجدر أن نذكّر بالفكرة التي عرضها غينون في «مملكة الكمّ» بالنسبة للتذاوب **الأُخروي لبيضة العالم**، «انحلالها» وهو ما يتوافق بدقة من حيث الترتيب الزمني أو من الناحية النمطية مع انتصار **البحر** الذي درسه شميدت. كما إن غينون يربط هذا الانحلال، على نحو ما فعل شميدت، بالتقدم التقني، بالايديولوجية الليبرالية والحضارة الغربية **للعهد الجديد**. لقد أثار العالم الأنجلوساكسوني في العموم النفور العميق والتحفز في نفسه.

وأخيراً فإن دور العامل السامي ـ الغربي والترحّلي وفقاً لغينون والجنوبي، إذا ما قيّمنا انتشار الساميين من مواقع الأوراسيا، والمقترن بالتجارة والتبادل الحر المميّز لكافة التالاّسوكراتيات (قرطاج ضد روما)، القائم عند منابع الرأسمالية (التي انتقدها ماركس مثلما انتقدها زومبارت) المعادي للأيقونة والمعادي لكل ما هو هندأوروبي في المسائل الدينية (اليهودية والإسلام)، المتضامن مع الحركة البروتستانتية في صيغتها الكالڤينية (انتشار الكالڤينية في هولندة، انجلترا، وفيما بعد في أمريكا ـ الدول البحرية في الغالب) والفاعل، أخيراً وبصفة خاصة، في قضية تدمير نوموس الأرض، ذلك النوموس التقليدي بالنسبة لأوروبا (وهو ما كتب عنه شميدت أكثر من مرة) ـ يضع النقطة الأخيرة في سلسلة التطابقات.

الشمال + **الشرق**، الأيقونة، الهندأوروبيون، **النار**، **البيت**. الاستقرار، **التقليد واليابسة**. هذه قوى نوموس **الأرض**، أنصار الثقافة والنظام، المجيبون على تحدي **النار** الفائقة بمجموعات من التقاليد الآرية، حتى المسيحية.

الجنوب + **الغرب**، محاربة التماثيل، الشعوب السامية، **الماء السفينة**

الترحّل، الحداثة والبحر. هذه قوى رفض **لأرض**، حملة الانحلال، الطاقات الأخروية للفوضى العقلانية، نوموس **البحر**. لقد ردّوا على تحدي **المحيط** بوقوفهم إلى جانبه ضد **الأرض**، وضد القضية البروميثيوسية النارية الأقدم، التي تكاد تكون منسية، والتي سبقت نوموس **الأرض** وكامل **التاريخ** الإنساني.

1 ـ 6 نوموس النار

نهاية المعسكر **الشرقي** تعني الانتصار النهائي لنوموس **البحر**. وكل محاولات التصدي لمنطقه وتركيبته بمساعدة وسائله التقنية أثبتت عجزها. إسبانيا خسرت المعركة على السفن، والمقاومة الاقتصادية ـ الصناعية، الاستراتيجية والمذهبية لنوموس **البحر** من طرف الوطنية الاشتراكية الألمانية (1933 ـ 1945) والتي ألهمها إلى حد ما مشروع هاوسهوفر الأوراسي تم سحقها بمقدرة وخبث، الغرب الذي استخدم الاتحاد السوفياتي لتحقيق هذه المآرب؛ المنافسة التقنية مع احتساب دروس الماركسية، المنافسة التي استطالت أكثر من سواها، ثم تضييعها في الستينيات، الثمانينيات، من طرف دول حلف وارسو متوازياً مع نهاية المرحلة الثانية من الثورة الصناعية والانتقال إلى المجتمع ما بعد الصناعي. دورة التاريخ البشري بلغت خاتمتها باختراقها قطبي الطبيعة السكونيين وهذا ما أحاطنا به علماً أمريكي يحمل كنية يابانية.

بمقدورنا إثبات الهزيمة المطلقة **لليابسة، البهيموت**، الأوراسيا، نوموس **الأرض**. ومن الطبيعي أن نوموس **الأرض** نفسها ما كان سوى أثر لحل قامت به الإنسانية لقضية مفتوحة طرحت أمامها قضية الوجود، لكن لا قضية جوهره. بالصيغة الخارجية للإجابة، ولكن ليس بالعفوية النارية التي ولدت **الإجابة** الهيبيربورية: لم تعد **الأرض** قادرة أكثر على الرد على تحدي نوموس البحر الذي صار كونياً ووحيداً. لقد أغرقت بالمياه، وعبر الفجاج ذُوّب **نظامها** في البيضة العالمية. نهاية الثورة الصناعية جرّدت من المجد ما كان يمكنه بالتقنية المحرَّرة (entfesselte Technik) أن يدخل المنافسة على مستواها. والمرحلة الأثيروقراطية من التالاسّوكراتية المطلقة، نظرة تلقى على **الأرض** من الكوسموس، تجعل كافة المخلوقات التي تمور فوقها ـ متماثلة من الناحية المبدئية ـ قيمتها براغماتية بصفة

صارمة تساوي مقدار ما تحمله من منفعة. الحياة محسوبة وفقاً لمكافئها المالي من رأس المال المسيطر واقعياً. الهندسة الجينية تفرّخ الكتاكيت والبشر ـ المهرّجين مثلما استنبطوا بالأمس الآلة البخارية أو آلة النسيج واخترقت التقنيةُ الإنسانيةَ حتى بلغت اللبّ. كان يمكن أن يكون لشميدت بارق من الأمل عام 1959 وأن يتبدل فجأة كل شيء. وعند نهاية القرن لم يتبق ثمة أي أمل.

انتصار **الماء** استوعب في داخله وبطريقة تمت بصلة إلى سفر الرؤيا، جميع العفويات وكافة الصيغ التاريخية التي تمكن لا من تبريرها ببساطة، بل من تحويلها بكيميائه الحضارية الجيوبولتيكية الهازلة. الذهب (المال) المذيب العالمي والإبداعية التقنية لقوى البحر حوّلا الإنسانية إلى كتلة بيولوجية خاضعة للسيطرة لكن بقي الشيء الذي لا يخضع لهذه العملية الكونية.

النار:

هي بالذات وقد تطهرت من الشوائب الطبيعية والاجتماعية السياسية، التي شابتها خلال مسيرتها عبر التاريخ ـ توجد الآن في وضع ممتاز بالمقارنة مع الحالة التساومية التي كانت فيها، عندما لم تكن إلا نوموساً **للأرض** نظاماً **لليابسة** . الآن فقط يتكشف،وبكل حجمه التاريخي، ذاك الذي طرح **عليه** ذلك التحدي. وتحت السؤال يقف الإنسان، لا أكثر ولا أقل. إلى أي مستوى كان تاريخياً؟ في أي مستوى كان طبيعياً؟ وإلى أي درجة استسلم للعفويات، التي تكوّن نسيجه الطبيعي (حتى عقلانيته البصيرة)؟ إلى أي درجة استطاع الحفاظ على وفائه للرائز المتسامي الخفي؟ وكم فيه من **النار** في نهاية المطاف؟ أم إنه بكامله مكوّن من **الماء** فقط؟.

المفاهيم والمصطلحات الأهم في الجيوبولتيكا

الاكتفاء الذاتي: إمكانية استمرار الوجود الثابت للنظم: الاقتصادي، الاجتماعي ـ الطاقي والبيئي من حساب الموارد الداخلية وحدها. ويستعرض تاريخ الحضارات أن المستوى الأدنى المطلوب لتحقيق الاكتفاء الذاتي للنظم الاجتماعية في ارتفاع مستمر. وبالنسبة للجيوبولتيكا يبدو عادلاً القانون الذي صاغه جان تيريار والقائل «من المدن ـ الدول، عبر الدول ـ المساحات إلى الدول ـ القارات» انظر قانون المُتوالية في المدى المكاني. وشرط التفعيل الناشط لنظم الاكتفاء الذاتي في الوضع المعاصر هو العمليات التكاملية الواسعة على الصعيد القاري. وبنوعية الاكتفاء الذاتي الواقعي يرتبط ارتباطاً مباشراً مفهوم «سيادة» الدولة، المجتمع والمعسكر الاستراتيجي.

عملاء التأثير الجيوبولتيكيون: الشخصيات والمجموعات العاملة على تشكيل اللوبيات المتعلقة بالمشاريع الجيوبولتيكية. ونشاطهم مشروع ضمن المناطق البيئية (الـ rimland). أما طرح المشاريع من طرف نظام جيوبولتيكي مضاد، بديلاً لهذه المشاريع فيعدّ شكلاً من أشكال النشاط التخريبي أو التجسسي. وخلافاً للجاسوسية الكلاسيكية تبدو هوية العمالة الجيوبولتيكية أكثر تعقيداً إذ تطبق هنا معايير نغلو على مستوى صلاحيات الخدمات الاعتيادية الخاصة.

استراتيجية الأناكوندا: خط الأطلسية الجيولتيكي، الموجه نحو سلخ أكبر مساحة عن الأوراسيا بغية تعويق توسعها الجيوبولتيكي.

الأطلسية: وتمت بصلة القربى إلى **مصطلحات الماء، والبحر التالاسوكراتيا والـ Sea Power**، مصطلح جيوبولتيكي معقد، يجمع في داخله تاريخياً ـ القطاع الغربي من الحضارة الإنسانية، استراتيجيًا ـ اتحاد البلدان الغربية التي تسيطر فيها الأيديولوجية الليبيرالية ـ الديموقراطية، عسكرياً ـ استراتيجياً ـ الدول المشاركة في الناتو، اجتماعياً ـ التوجه نحو «**النظام التجاري**» «وقيم السوق» (الأنموذج ـ

الولايات المتحدة الأمريكية). مضاد **للأوراسيا**.

الأيروكراتيا: من اليونانية «السلطة عن طريق الجو». مرافق قوة للاستراتيجية المعتمدة على تطويع المدى الجوي واستخدامه في أهداف **التوسع الجيوبولتيكي**. وخلافاً لتطور الملاحة البحرية فإن تطور الملاحة الجوية لم يولّد نوموسه الخاص، فبقي مجرد تطوير للمبدأ التالاسوكراتي.

البهيموت: بالعبرية القديمة «وحش»، «الوحش القاري» (في التوراة) المصطلح لشميدت وهو نفس **القارة**، **القارية**، **الأوراسيا**.

المنطقة الشاطئية الـ rimland: مجال جيوبولتيكي بَيْني، يقع بين قطبين جيوبولتيكيين أساسيين ـ بين الأوراسيا والأطلسية. انظر **rimland**. الأراضي التي تدور فوقها مواجهة معقدة، متعددة المستويات مثلما تدور لعبة كبرى من أجل السيطرة عليها. انظر **اللعبة الكبرى**.

نادي بيلديربيرغ: منظمة دولية سريّة عَوْلمية (انظر العولمة). مهمتها ـ التنسيق بين المجموعات الأوليغارشية في الدول المختلفة (السياسة، الاقتصاد، وسائل الإعلام الجماهيري، وما إلى ذلك) من أجل إقرار «النظام العالمي الجديد» أنشىء عام 1954 في شهر أيار (29 ـ 31) في مدينة أوستربيك الهولندية في فندق بيلديربيرغ. وفي الجلسات السرية لنادي بيلديربيرغ يشارك رؤساء الجمهوريات والحكومات، قادة الأحزاب والحركات، ويوحّد بينهم المشروع العولمي المشترك ـ إقرار «الحكومة العالمية». وغالبية الناشطين في بيلديربيرغ هم نفس شخصيات الفئة النخبوية في C.F.R (انظر **مجلس العلاقات الدولية**) واللجنة الثلاثية (انظر **اللجنة الثلاثية**).

برلين: العاصمة الاستراتيجية الطبيعية لأوروبا الوسطى.

العالم الثنائي القطبين: (الثنائية القطبية أو القطبية المزدوجة)، البناء الجيوبولتيكي الطبيعي الذي يعكس الثنائية الجيوبولتيكية الأساسية ـ على الصعيد الكوني ـ **التالاسوكراتيا** في مواجهة **التيلوروكراتيا**.

الحلف: اتحاد عدة دول، يبدّل قليلاً الصفة الاستراتيجية والجيوبولتيكية لهذه الدول حتى يرتفع بها إلى مستوى أعلى من النشاط العالمي. ووفقاً لقانون «المتوالية في المدى المكاني» فإن قيام التحالفات ـ عملية لا مفرّ منها.

الشمال الغني: نفس الأطلسية، الغرب والعالم الليبيرالي ـ الديموقراطي.

اللعبة الكبرى: المواجهة بين الأوراسيا والأطلسية. نفس مصطلح **الحرب الكبرى بين القارات**.

الاكتفاء الذاتي للمجالات الكبرى: نظرية الاقتصادي الألماني فريدريخ ليست التي تربط التطور الاقتصادي بالعامل الترابي والديموغرافي. وترى أن التطور الاقتصادي للدول الداخلة في الوسط السوقي لا يمكن أن يكون فعالاً إلا عندما يتحقق ضمن نظام المراحل البينية والتي على مداها تسيطر الدولة على عملية الإصلاحات مشجعة بطريقة مفتعلة تطوير المؤسسات الصناعية والتجارية. ويمكن أن يتحقق ذلك فقط في إطار الاتحاد الجمركي الواسع. انظر **الاتحاد الجمركي** وقد طور الاقتصادي الأمريكي كينْس نظرية مشابهة. انظر **نظرية الانعزالية الاقتصادية**.

الحرب الكبرى بين القارات: المواجهة التاريخية وما وراء التاريخية بين الأوراسية والأطلسية. عنوان دراسة صدرت في روسيا وعرضت فيها لأول مرة وبطريقة مبسّطة الأسس الأولى للمنهج الجيوبولتيكي. وهي نفس **اللعبة الكبرى**.

المجال الكبير (Grossraum): المصطلح لشميدت. اتحاد عدة دول كبرى في تشكل استراتيجي موحد. وظهور المجالات الكبرى أمر اشترطته نظرية «متوالية المدى المكاني».

الهلال الخارجي (أو الهلال الجزيري): المصطلح لماكيندر، ويعني مجموعة الأراضي الداخلة في منطقة التأثير **التالاسوكراتي**. أجزاء القارات والجزر المنجذبة نحو «**الوجود البحري**». أيضاً المنطقة الخاضعة استراتيجياً **للأطلسية** بصفة كلية.

البحر الداخلي (mare internum ـ باللاتينية) مصطلح يعني المجال المائي الواقع ضمن حجم قاري تيلوروكراتي، ولهذا لا يعد حدوداً استراتيجية أو ثقافية.

المحيط الداخلي: مصطلح يعني أيضاً ما يعنيه «**البحر الداخلي**». ولكن على المستوى العالمي. ومثله «**المحيط المتوسط**».

الهلال الداخلي: [أو الهلال القاري أو الـ rimland] ـ المصطلح لماكيندر، ويعني الأراضي الشاطئية من الأوراسيا، والواقعة بين «**الهلال الخارجي**» **والمنطقة المركزية**».

المحور الداخلي: سمةٌ للرابطة الجيوبولتيكية مع الأطراف في داخل مجال

استراتيجي واحد. انظر أيضاً الشعاع الجيوبولتيكي والجُزَيء **الجيوبولتيكي**.

الماء (أو البحر): مصطلح خاص يعني «التالاسوكراتية» عَمِل شميدت بصفة خاصة على دراسة (das Meer) وهو الـ Sea, Sea power. لدى ماهان.

الشرق: وهو أيضاً **الأوراسيا**، **العالم الثاني**.

العدو (hostis - باللاتينية) - المصطلح لشميدت. مفهوم سياسي محض، يعني مجموع تشكلات خارجية حكومية، اجتماعية، أخلاقية، أو دينية تقف عند المنطلقات المعارضة لمواقف العاصمة الاستراتيجية. لا يعاني من عبء أخلاقي - ويمكنه من الناحية الديناميكية أن ينتقل إلى تشكلات مختلفة سمة متنقلة. انظر الصديق.

المقياس المؤقت: تصور عن الزمن المحوري - الأنموذج المتزامن، التاريخوية. المنطلق التأسيسي للنظرة العلمية الفلسفية، المنهجية ضمن شروط **العصر الجديد** . وهيمنة المقياس المؤقت التي لا بديل لها تنتهي بترك مكانها لمقياس المدى المكاني. انظر **مقياس المدى المكاني**.

العالم الثاني: تسمية المعسكر الاشتراكي في مرحلة «الحرب الباردة». صارت بعد نهاية «الحرب الباردة» تعني الأوراسيا.

المحور الجغرافي للتاريخ (أو «المنطقة المركزية، أو الـheart land) - المصطلح لماكيندر ويعني الأراضي الأوراسية ضمن القارية، والتي تدور حولها ديناميكية التطور التاريخي في المدى المكاني. تتطابق مع أراضي روسيا.

الجيوبولتيكا: العلم الذي عرضت موضوعاته الأساسية في هذا الكتاب.

الثنائية الجيوبولتيكية: الأساس الأول للجيوبولتيكا والذي يرى أن محرك العملية التاريخية هو المواجهة بين التالاسوكراتية والتيلوروكراتية.

الشعاع الجيوبولتيكي: طيف التأثير بالقوة (التأثير الاقتصادي الاستراتيجي الثقافي، التدابيري، الإداري وما إلى ذلك) من طرف القطب الجيوبولتيكي على مناطق الأطراف. والمشهد السياسي الواقعي في الوضع الإحصائي يتعامل مع الأجزاء الجيوبولتيكية. ومن المعمول به في الجيوبولتيكا الحديث عن الإشعاعات كعملية دينامية مفتوحة لنبض يتواصل باستمرار.

الجزيء الجيوبولتيكي: مجموعة علاقات العاصمة الاستراتيجية (أو القطب الجيوبولتيكي) بالمناطق الجهوية الطرفية والتي يتم النظر إليها في لحظة تاريخية محدّدة دون احتساب الديناميكية العامة للعمليات السياسية. انظر أيضاً **الشعاع الجيوبولتيكي**.

الجيواستراتيجيا: العناصر العسكرية للتحليل الجيوبولتيكي.

الجيوايكونوميكا: تعددية النظم الاقتصادية الكبرى وفق الارتباط بالمدى المكاني والمظهر الحضاري. ويستعرض ثلاث مناطق أساسية، الأمريكية، الأوروبية والباسيفيكية. وإقامة المنطقة الجيوايكونومية الرابعة ـ المنطقة الأوراسية هو المطلب الاستراتيجي الأساسي لروسيا. انظر **المنطقة الرابعة**.

الدولة ـ الأمة: الدولة العلمانية ذات المركزية الشديدة الوضوح. تَشَكُّل سياسي، تؤدي الصيغ الحكومية فيه إلى ولادة الأتنوس وحضارته. تتميّز عن التشكل الإتني (القبيلة، الشعب) وعن الإمبراطورية.

الحدود: تشتمل الجيوبولتيكا على نوعين من الحدود: الخط الحدودي والشريط الحدودي. فالخط الحدودي هو الحدود البحرية، والشريط الحدودي ـ الحدود البرية. ومهمة المعسكر الجيوبولتيكي المتطلع إلى التأثير على المستوى الكوني، أن يصل بالخطوط الحدودية إلى أقصى مداها بالنسبة له وأن يقلصها حتى المستوى الأدنى بالنسبة لمنافسه. والعكس أيضاً.

الديموبولتيكا: المصطلح لتشيلّين. تأثير المعايير الديموغرافية على بنية الدولة. لم يحقق انتشاراً واسعاً.

الحزام المتقطّع: المصطلح لكوين. المناطق الشاطئية المهشّمة ذات التوجه المتبدل، غير المحدّد. والقادرة على أن تنقلب نحو القارة التيلّوروكراتية أو نحو البحر التالاسوكراتي.

الصديق: (amicus ـ باللاتينية) ـ المصطلح لشميدت. مفهوم سياسي محض، يعني مجموعة التشكلات الخارجية، الحكومية، الاجتماعية، الإتنية، أو الدينية والتي تقف عند المنطلقات المتطابقة مع منطلقات العاصمة الاستراتيجية. لا يعاني من عبء أخلاقي. ويمكنه من الناحية الديناميكية أن يتنقل بين التشكلات المختلفة. سمة متنقلة. انظر **العدو**.

الأوراسية: مفهوم جيوبولتيكي معقد، يتضمن في داخله: تاريخياً ـ القطاع الشرقي من الحضارة الإنسانية، استراتجياً ـ الحلف الفاعل أو الحلف المحتمل للدول والأمم التي ترفض الاعتراف بواقع الأيديولوجية الليبيرالـ ـ ديموقراطية، استراتيجياً ـ التحالف العسكري الفاعل أو المحتمل بين البلدان الشرقية «التيلوروكراتية»، اجتماعياً ـ السير على هدي «الأيديوكراتيا»، الدولة الاجتماعية، البناء الاقتصادي غير الرأسمالي.

الأوراسيا: وهي **القارة الـ** heartland، اليابسة، الأرض، التيلوروكراتيا وبمعنى أكثر تحديداً هي روسيا الجيوبولتيكية.

العالم الواحد (One World ـ بالإنكليزية) ـ انظر **العولمة**.

المدي الحيوي: المصطلح لهاوسهوفر، المساحة الترابية الصغرى التي تسمح للشعب بالتوصل إلى تحقيق مطامحه التاريخية والسياسية.

الغرب: مرادف **التالاسوكراتيا، الأطلسية**.

الأرض: (أو **اليابسة**) مصطلح خاص في الجيوبولتيكا يعني «التيلوروكراتيا» وقد قام كارل شميدت بصفة خاصة بتطوير نظرية الأرض das Land.

الإيديوكراتيا: ـ من اليونانية. «سلطة الأفكار، المُثُل»، المصطلح للأوراسيَّيْن الروسيين (ن. تروبتسكوي، ب. ساڤيتسكي». يواجه بمصطلحات «سلطة المادة»، «نظام السوق» و«**البناء التجاري**». كما إن التراتبية في المجتمع وتحفيز العمل ينطلقان في الأيديوكراتيا من مبادىء لا اقتصادية.

الإمبراطورية: تَشكُّل فوق الدولي، يوحد بين عدد من الشعوب والبلدان تحت شعار فكرة شمولية ـ دينية، أو أخلاقية أو ذات طابع إيديولوجي.

التكامل: يعني في الجيوبولتيكا صيغاً كثيرة الأعداد من اتحادات عدد من القطاعات ذات المدى المكاني. ويمكن أن يتحقق التكامل على أساس التوسع العسكري أو بطريقة سلمية. وهناك عدة طرق للتكامل الجيوبولتيكي ـ الاقتصادي، الثقافي اللغوي، الاستراتيجي، السياسي الديني وما إلى ذلك. وكلها يمكن أن تؤدي إلى النتيجة النهائية الواحدة زيادة حجم التكتل الاستراتيجي أو في المدى المكاني.

الرأسمالية، الليبيرال ـ رأسمالية: بناء اقتصادي يهيمن على ما وراء الحضارة

الأطلسية. يعتمد على أساس «التجارة الحرة» و«الأنانية الاقتصادية». وهذه المقاربة الليبيرال ـ رأسمالية تطرح ضمن شروط النظام العالمي الجديد بناء وحيداً لا بديل له. وهو التعبير الاقتصادي عن الأطلسية والعولمة. معاكس للاشتراكية. انظر **الاشتراكية**.

المستعمَرة: أراض تخضع لقوة مفصولة عنها بالمدى المائي. ينظر إليها على أنها قاعدة مؤقتة وخارجية، معزولة عن المدى الجيوبولتيكي العام للمتروبول. عكس **الأطراف**.

نهاية التاريخ: المصطلح لفوكوياما. أطروحة معولمة تتعلق بالانتصار الشامل للتالاسوكراتيا والأنموذج الليبيرالي ـ الديموقراطي على الأرض كلها. انظر **العولمة، العالم الواحد**.

الثورة المحافظة: انظر **الطريق الثالث**.

القارة: **الأوراسيا، اليابسة**، المبدأ **التيلوروكراتي**.

القارية: مرادف الأوراسية في السياق الاستراتيجي الضيق. مفهوم قريب من مفهوم **اليابسة، الأرض**. والمدرسة القارية في الجيوبولتيكا هي الوحيدة في روسيا، والمهيمنة في ألمانيا، والموجودة في فرنسا وغير الممكنة في البلدان الأنجلوساكسونية. معاكسة **للأطلسية**.

الكراتوبولتيكا: المصطلح لتشيلّين. رؤية الدولة من وجهة نظر إمكاناتها في مضمار القوة. لم يحقق انتشاراً واسعاً.

لوياثان: بالعبرية القديمة« «الوحش البحري» (في التوارة) المصطلح لشميدت. ويعني أيضاً **الأطلسية البحر**.

الليبيرالية: نظرة إلى العالم تجمع بين المكوّنات اليسارية في ميدان السياسة (الحدّ الأدنى من الإنسانية، الفردية، المساواة الإتنية والثقافية) واليمينية في ميدان الاقتصاد (السوق، الخصخصة، الملكية الخاصة، الرأسمالية). الإيديولوجيا الحاكمة في المعسكر الأطلسي. والتعبير السياسي عن الليبيرالية هو الليبيرالية ـ الديموقراطية.

الليبيرالية ـ الديموقراطية: الإيديولوجية المسيطرة في القطاع الأطلسي، وتعدّ في الغرب معيار «الصحة السياسية» و«المركزية» وهي في الآماد الأوراسية تظهر في

صورة الجمع المتطرف بين أقصى العناصر اليمينية وأقصى العناصر اليسارية. انظر **الليبيرالية، الطريق الثالث، الثورة المحافظة**.

التوسع وفقاً لخطوط الطول: (التوسع وفق محور شمال ـ جنوب) توسيع ميدان التأثير (العسكري، الاستراتيجي، الثقافي أو الاقتصادي) وفق خط الطول. وهو أيضاً **التوسع الطولاني**، الشرط الأساسي للاستقرار الترابي والاستراتيجي للدولة.

التكامل وفقاً لخطوط الطول: (التكامل وفق محور شمال ـ جنوب) ربط القطاعات المدوية المتفرقة لتصبح كلاً واحداً وفقاً لخطوط الطول (أيضاً **التكامل** الطولاني). وهو إيجابي في حالة السيطرة المؤكدة على المناطق الشمالية والمركزية. وسلبي عندما يشتمل الشمال أو المركز على تشكلات يكون ولاؤها **للعاصمة الاستراتيجية** مثيراً للشك أو ضعيفاً.

بؤرة التطور: المصطلح لساڤيتسكي: وهو نفس المدى المكاني النوعي، أو ببساطة المدى المكاني (بمعناه الجيوبولتيكي).

ما وراء الحضارة: التوحيد الذهني بين عدة حضارات في كتلة واحدة على أساس مظاهر محدَّدة مشتركة. والأطلسية والأوراسية تجسدان مثالين لما وراء الحضارات.

الجيوبولتيكا الدنيا: نظام تطبيقي يستعير من الجيوبولتيكا الأصلية بعض المصطلحات والمنهج لكنه يغفل الثنائية الجيوبولتيكية الأساسية.

الجزيرة العالمية: المصطلح لماكيندر. أطلقه على **الأوراسيا** والمحور الجغرافي للتاريخ. وقد غيّر هذا المفهوم معناه بصفة جذرية لدى سبيكمان وصار يعني مجموع المناطق **التالاسوكراتية** (مناطق **الهلال الخارجي**) ونظراً لهذه القراءة المغايرة يُفضّل عدم استخدام المصطلح على نطاق واسع درءاً للالتباس في المعنى.

العالم المتعدد الأقطاب: تصور نظري صرف بالنسبة للمرحلة المعاصرة يفترض تحقيق وجود عدد من المجالات الكبرى. يمكن وجوده فقط بعد التخلص من **العالم وحيد القطب**.

العولمة: من الفرنسية «monde» «العالم». إيديولوجية خاصة تفترض تذاوب جميع الدول والشعوب في تشكل كوني واحد مع إقامة «الحكومة العالمية» وإزالة

الحدود العرقية ـ الدينية ـ الإتنية، القومية والثقافية. انظر **مجلس العلاقات الدولية** (CFR). اللجنة الثلاثية، ونادي بيلديربيرغ.

البحر: نفس معنى **التالاسوكراتيا**، **الماء**.

موسكو: العاصمة الاستراتيجية الطبيعية **للأوراسيا**. أساس المحاور الخاصة بكل **تكامل قاري**. **انظر الأوراسيا**.

مركزية موسكو: الخط الجيوبولتيكي لتطور نظام الدولة الروسي. مرادف للأوراسية المنهجية.

الناتو: حلف شمالي الأطلسي. الأداة العسكرية ـ الاستراتيجية للأطلسية. في السنوات الأخيرة يتخذ مفهومه المستقل كشخصية تحضيرية على حساب احتضار مؤسسات القانون الدولي، وكانت قد بنيت في المراحل السابقة من التاريخ السياسي (كمنظمة الأمم المتحدة مثلاً).

الأطلسية الجديدة: الصورة المعاصرة من الأطلسية، التي ترفض العولمة (حتى في صورتها اليمينية) كمشروع سابق لأوانه ومستحيل التطبيق في الظروف المعطاة، وترى أنه بدلاً من **العالم الواحد** سيجري **صدام الحضارات**.

النظام الجديد: مشروع إعادة التنظيم الجيوبولتيكية على صعيد واسع.

النظام العالمي الجديد: هو نفس العولمة ومشاريع إقامة **الحكومة العالمية**.

النوموس: المصطلح لشميدت. المبدأ المؤسس لتنظيم أي مدى مكاني (جغرافي ـ اجتماعي، سياسي اقتصادي أو ثقافي وما إلى ذلك). مرادف لمصطلح «نظام» «قانون» «تكوين». **نوموس اليابسة** = **التيلوروكراتيا**، **نوموس الماء (أو البحر)** = **التالاسوكراتيا**.

المجتمع: نتيجة لانهيار التشكلات الجماعية القبلية. يختلف عن الجماعة القبلية بكونه ينقسم مبدئياً إلى أعضاء مفردين منفصلين (الأفراد).

الجماعة القبلية: الصيغة الطبيعية لوجود البشر المرتبطين بروابط عضوية. تقف معارضة **للمجتمع** الذي تسيطر فيه أعراف الاتفاق المنعقد بين الأفراد. المجتمع ينظّمه **الموروث**.

النار: عنصر يرمز إلى الروح الطاهر. مبدأ سام.

العالم الوحيد القطب: أنموذج جيوبولتيكي، تكوَّن بعد سقوط الاتحاد السوفياتي في «الحرب الباردة» والقطب الوحيد المهيمن هو الأطلسية والولايات المتحدة.

المحور: التحالف الجيوبولتيكي بين اثنتين أو أكثر من **العواصم الجيوبولتيكية**.

الفدائي: المصطلح لشميدت. الشخصية الرمزية للمدافع عن «نوموس» اليابسة في حال انتصار القوة الجيوبولتيكية المضادة.

الاندفاعية: المصطلح لغوميليوف. الطاقة الداخلية للإتنوس، القوة الدافعة للنتاج الثقافي، السياسي والجيوبولتيكي.

الأطراف: الآماد المكانية والأراضي التي ليس لها توجه جيوبولتيكي مستقل، مبعدة عن **العاصمة الاستراتيجية** التي تصل منها القرارات الجيوبولتيكية الأساسية إلى الأطراف.

الجغرافية السياسية: المصطلح لراتسيل ـ ويعني ما دُرج على تسميته بعد تشيلّين بـ «الجيوبولتيكا».

البوسيبيليزم: من الفرنسية possible «الممكن». المصطلح لڤيدال دي لا بلانش. يقصد به ضبط تحديد اللوينات في معنى الحتمية الجغرافية العائدة، إلى حد ما، لخصائص الجغرافيا. وتفترض نظرية البوسيبيليزم أن المدى المكاني لا يحدِّد التاريخ لكنه يقرِّبنا إلى هذا أو ذاك من تيّاراته.

ما بعد الحداثة: التسمية العامة للخاصية الجديدة للوجود الاجتماعي، الذي حل عند حدود القرن الحادي والعشرين محل المنطلقات الأساسية **للعصر الجديد**. والمصطلح يستخدم بصورة أكبر في آفاق علمي الثقافة والاجتماع. وبصفة تدريجية أخذ مفهومه يتسع وينسحب على جميع الميادين الأخرى، وبعض ملامح ما بعد الحداثة هي من خصائص الجيوبولتيكا ومنهجها. انظر **المقياس المؤقت، مقياس المدى المكاني**.

الجيوبولتيكا التطبيقية: المصطلح للاكوست. تطبيق الوسائل الجيوبولتيكية على المشاكل الصغرى ذات المستوى الجهوي بدون احتساب المبادىء المؤسسة لذلك. ومثلها **الجيوبولتيكا الدنيا**.

الضاحية: الأراضي الطرفية الداخلة في بناء التشكل الجيوبولتيكي الأساسي

والتي ينظر إليها على أنها جزء لا يتجزأ من الكل العضوي. عكس **المستعمرة**.

مقياس المدى المكاني: تصور حول النظرة المتزامنة لتفسير الواقع. عناصر مقياس المدى المكاني مميّزة للمجتمعات التقليدية وللصيغ المختلفة من النماذج الغنوصية السائدة في هذه المجتمعات مثلما هي مميّزة أيضاً لأحدث مناهج ما بعد الحداثة. الجيوبولتيكا تتعامل في الأغلب مع مقياس المدى المكاني. انظر **المقياس المؤقت**.

قانون متوالية المدى المكاني: صاغه جان تيريار وهو «من المدن ـ الدول عبر الدول ـ المساحات إلى الدول ـ القارات». والديناميكية الجغرافية للتاريخ السياسي تؤدي دون رحمة إلى تضخيم أبعاد التشكلات الاجتماعية الدنيا. انظر أيضاً «**المجال الحيوي**».

مغزى المدى: المصطلح لراتسيل. نظام التقديرات التاريخية المسبقة وقد صيغ في مدى نوعي. انظر **المدى**.

المدى: مفهوم الجيوبولتيكا الأساسي. وهو مقولة نوعية لا كمية. وطبيعة المدى تحدد مسبقاً طبيعة التاريخ (والسياسي بالدرجة الأولى). ذاك هو المنطلق الأساسي للجيوبولتيكا كعلم.

الجهوية: التوجه نحو الاستقلالية الذاتية **للآماد المكانية في الأطراف** له عدة أشكال ـ الاقتصادي، الثقافي، السياسي، والاستراتيجي.

الجغرافيا المقدسة: مجموعة التصورات عن المدى النوعي لدى القدماء. وتهتدي الجيوبولتيكا المعاصرة بمثل هذا الفهم النمطي **للمدى المكاني** إلا أنها تعبر عن ذلك بصيغة عقلانية علمية طبيعية.

النطاق الصحي: التشكلات الجيوبولتيكية المصطنعة العاملة على إشاعة اللااستقرار في الدولتين الكبريين المتجاورتين القادرتين على تكوين حلف جاد قادر بدوره على أن يمثل خطراً بالنسبة لطرف ثالث. وهو خطوة كلاسيكية في استراتيجية الأطلسيين في مواجهتهم للتكامل القاري في الأوراسيا.

الشمال: في الجغرافيا المقدسة (ولدى دويبلير أيضاً) رمز الروح والنظام المثالي. مرادف في الجيوبولتيكا المعاصرة لمفهوم **الشمال الغني** أي الأطلسية والليبيرالية، وهو ما يعدّ أمراً مخالفاً بصورة كلية للتعريف السابق.

مجلس العلاقات الدولية (CFR) منظمة عولمية نافذة، تعين وتراقب الكادرات القيادية ضمن النخبة السياسية للولايات المتحدة. تتصرف على أساس فوق حزبيّ إذ تختار الأعضاء من بين «الديموقراطين» ومن بين «الجمهوريين». تكونت سنة 1921 من طرف مجموعة من مصرفيي أسرة روكفلر. وهدف الـ CFR وفقاً لكلمات أحد أعضائها، كيرول كويغلي، العمل على «إلغاء الحدود القومية وإقامة الدولة العالمية» (المأساة والأمل) وقد كتب كويغلي عن مهمات الـ CFR ـ أمام قوى الرأسمالية المالية هدف بعيد ـ إقامة النظام العالمي للسيطرة المالية في أيد خاصة بحيث يكون قادراً على توجيه كافة العمليات السياسية والاقتصادية في العالم. وهذا النظام يجب أن يقام وفق المبدأ الإقطاعي حول المصارف العالمية المركزية التي تتفق سراً فيما بينها خلال اللقاءات والمؤتمرات السرية». ومنذ 1922 تصدر الـ CFR مجلة «Foreign Affairs». انظر أيضاً اللجنة **الثلاثية ونادي بيلديربيرغ**.

الاشتراكية: البناء الاقتصادي الذي تميل إليه الأوراسيا ميلاً عضوياً. وله صيغتان ـ الماركسية الديماغوجية وطيف عريض من النظريات الاشتراكية **للطريق الثالث** . وبفعل الاستنفاذ التاريخي للماركسية العقائدية يجب أن يبنى تطور الاقتصاد الأوراسي على نظريات متباينة الصيغة من اشتراكية **الطريق الثالث** . وهي تفترض الطابع الجماعي، التعاوني، الاجتماعي للبناء الاقتصادي نقيض الرأسمالية: انظر الرأسمالية.

السوسيوبولتيكا: المصطلح لتشيلّين. دراسة الآفاق الاجتماعية للدولة.

المحيط المتوسط: (Midland Ocean) المصطلح لسبيكمان. المحيط الأطلسي إذا ما نظرنا إلى أمريكا الشمالية وأوروبا على أنهما مدى جيوبولتيكي واحد.

أوروبا الوسطى: مدى بيني يمتد بين روسيا والشاطىء الأطلسي لأوروبا. ينظر إليه تقليدياً على أنه منطقة خاضعة للتأثير الألماني على الغالب.

صدام الحضارات: المصطلح لهنتينغتون. نظرية ديمومة النزاعات على المستوى الحضاري واستحالة استبعادها.

العاصمة الاستراتيجية: (القطب الجيوبولتيكي أو مصدر الشعاع

الجيوبولتيكي) مركز التكامل الجيوبولتيكي والتفعيل الناشط للعملية الجيوبولتيكية الواسعة الأبعاد. أما العلاقات بين العواصم الاستراتيجية فتنهض بها **المحاور** الجيوبولتيكية.

اليابسة: انظر **الأرض**.

التالاسوكراتيا: من اليونانية «السلطة عن طريق البحر» أو «القوة البحرية». من خصائص الدول والأمم مع هيمنة الملاحة البحرية.

الاتحاد الجمركي: اتحاد تكتل من الدول المتقاربة في مظاهرها الاستراتيجية، الإتنية، الثقافية، الدينية أو غيرها في مدى تجاري، اقتصادي مع غياب الحواجز الاقتصادية الداخلية. انظر **الاكتفاء الذاتي للمجالات الكبرى**.

التيلوروكراتيا: من اليونانية «السيطرة عن طريق البر» أو «القوة البرية» من خصائص الدول الكبرى ذات التوجه الجيوبولتيكي على اليابسة انظر **الأوراسيا، الـ** heartland، الإيديوكراتيا.

طوكيو: العاصمة الاستراتيجية الطبيعية للمدى الباسيفيكي.

البناء التجاري: نمط المجتمع الذي تنطلق فيه التراتبية وحوافز العمل من مبادىء اقتصادية. نظام السوق، الليبيرالية ـ الديموقراطية. عكس **الأيديوكراتيا**.

العالم الثالث: التسمية العامة للدول الضعيفة النمو، والتي تنتمي في غالبيتها إلى مناطق **الجنوب** الجيوبولتيكي.

الطريق الثالث: الثورة المحافظة. الإيديولوجيا العضوية للقطاع الأوراسي. (الاقتصاد اليساري+ السياسة اليمينية) وهي مفهوم انطلاقي لتحديد «الصحة السياسية» و«المركزية» في الأوراسيا. مناقض لليبيرالية. انظر **الليبيرالية، الليبيرالية ـ الديموقراطية**.

اللجنة الثلاثية (Trilateral, Trilateral comission) ـ منظمة عالمية معولمة ضخمة (انظر العولمة)؛ هيئة الأركان الاستراتيجية للتخطيط الحضاري للغرب. النواة التنظيمية للأطلسية. الهدف إقامة «النظام العالمي الجديد» و«الحكومة العالمية» تحت راية الولايات المتحدة، إدارة العالم عن طريق مجموعة من بين الأوليغارشية المالية. أسسها ممثلو العلاقات الدولية في الـCFR الأمريكي (انظر **مجلس العلاقات الدولية)** سنة 1973. ويرى ممثلو اللجنة الثلاثية أن «النظام العالمي

الجديد» ينبغي أن يؤسس على حيتان ثلاثة ـ على التوحيد بين الأوليغارشية المالية ـ السياسية في أمريكا ـ أوروبا ومنطقة الباسفيكي. ومنذ منتصف السبعينيات تقوم اللجنة الثلاثية بالتعامل المتبادل مع المنظمات السوفياتية (معهد الدراسات المنهجية للأكاديمي غويشياني) وبالإعداد الذهني لقاعدة «البيريسترويكا» و«الإصلاحات». وفي الوقت الحاضر تتعامل بفعالية مع السياسيين الديموقراطيين في روسيا، مع صندوق ـ غورباتشوف. انظر أيضاً **نادي بيلديربيرغ**.

طوران: المناطق الشمالية ـ الشرقية من القارة الأوراسية ـ الآماد السهبية في الأوراسيا.

الأصولية، التكاملية: الميول السوسيولوجية المعاصرة المتجسدة في التوجه نحو العودة المصطنعة للمجتمعات إلى قيم النظم التقليدية السابقة **للعصر الحديث**. وهي مميّزة للبلدان الإسلامية بصفة خاصة. وللأصولية الإسلامية صيغتان ـ السعودية والإيرانية. تتناقضان من حيث التوجهات الجيوبولتيكية. فالوهابية السعودية ـ أداة للأطلسية، أما الأصولية الإيرانية والموالية لإيران (الشيعة+ الصوفية) فتجسد عاملاً أوراسياً معادياً للأطلسية. وفي إطار الحضارة المسيحية تمثل الأصولية البروتستانتية عنصراً أطلسياً متطرفاً، والأصولية الأرثوذوكسية (وبخاصة ذات الطقوس السلفية وذات التعاليم الدينية الموحدة) عنصر أوراسي. ونجد تعددية مشابهة لدى المتدينين اليهود، فالحسيديّة والدوائر القبّالية تميل إلى المقياس الأوراسي. أما الميتناغيد والحاخاميون اليهود البسطاء ـ فإلى المقياس الأطلسي.

النظرة الحضارية: تطبيق النماذج المكثفة المجمعة التي تأخذ بالحسبان مجموعة العوامل أثناء التخطيط الاستراتيجي والتحليل الشامل. أسست الجيوبولتيكا على النظرة الحضارية.

المنطقة الرابعة: الاتحاد الجمركي الاقتصادي المحتمل الذي يجمع الدول الأوراسية الكبرى القارية مع المحور في روسيا. وبناؤه ـ هو المهمة الرئيسة للجيوبولتيكا الأوراسية مطبقة على الوسط الاقتصادي . انظر **الجيوبولتيكا**.

الثقب الأسود: المجال الأوراسي في نظريات الأطلسيين المعاصرين الجيوبولتيكية. المصطلح لزبيغنيف بجيزينسكي، الاستراتيجي الأكبر في المراكز

العولمية. (الـ CFR واللجنة الثلاثية وما إلى ذلك).

التكامل العرضاني: (التكامل وفق خطوط العرض) النقطة الأضعف والأكثر تعقيداً في ربط المجالات الجيوبولتيكية الخاضعة لسيطرة المركز. ويجب أن تتحقق بالحد الأقصى من الوسائل السلمية والدبلوماسية. أسست على الضم التدريجي للأقاليم المختلفة إلى الجزء المركزي عبر التدرجية في المدى المكاني للقطاعات الأكثر ولاء للمركز.

التوسع العرضاني: (التوسع وفقاً لخطوط العرض) اتجاه جيوبولتيكي عدواني، استراتيجية جيوبولتيكية هجومية الطابع. حافلة على الدوام تقريباً بالنزاعات المسلحة، ولا تطبق إلا بعد انتهاء التوسع وفق خطوط الطول.

نظرية الانعزالية الاقتصادية: مقولة الاقتصادي الأمريكي الكبير ج.م. كينْس. هي الشبيه العصري المحدَّث لنظرية الاكتفاء الذاتي للمجالات الكبرى لفريدريخ ليست. انظر **الاكتفاء الذاتي للمجالات الكبرى**. كينس كان يرى أن المشهد الاقتصادي للعالم يجب أن يجسد لا سوقاً ليبرالية متواصلة بل نظاماً من جزر اقتصادية تتمتع باستقلالية اقتصادية نسبية. ومن هنا جاءت تسمية النظرية (بـ «الـ insula» وهي باللاتينية «الجزيرة»). وكان الليبيرالي ف. فون هيك أشد خصوم كيْنس تطرفاً.

الأيكوبولتيكا: المصطلح لتشيلّين. النظرة إلى الدولة على أنها قوة اقتصادية. لم يحقق انتشاراً واسعاً.

الأثيروكراتيا: من اليونانية «السلطة عن طريق الطبقات ما فوق الأثير». هيمنة السلاح الكوسموسي. تطور للاتجاهات التالاسوكراتية والأيروكراتية.

الجنوب: هو في الجغرافيا المقدسة مناطق الفوضى، التداخل والانحلال. في الجيوبولتيكا المعاصرة هو العالم الثالث، الدول الضعيفة النمو، التي لم تتجذر فيها المبادىء الليبيرالية ـ الديموقراطية.

السلاح النووي: العامل الاستراتيجي الحربي، الذي تأسست عليه اللوحة الكراتوبولتيكية للعالم الثنائي القطب. كراتوبولتيكياً كان التعادل النووي ضمانة لنظام يالطا. انظر **صلح يالطا**. واحتفاظ روسيا بقدراتها النووية ضمانة لانبعاثها الجيوبولتيكي وواحد من العوامل الأهم لتحقيق المشروع الأوراسي.

صلح يالطا، يالطا: ـ على مستوى الحق الدولي ـ إقرار ذلك التوازن في القوى للقدرات الجيوبولتيكة، والذي تشكل بعد انتصار الحلفاء على دول المحور (ألمانيا الهتلرية، إيطاليا الفاشية وما إلى ذلك). وهو يمثل أنموذج العالم الثنائي القطب مع وضوح التعبير عن الفكرة الأساسية (الاشتراكية، الرأسمالية). وفي العصر الحاضر تميل بنية يالطا الكونية إلى التحلّل بطريقة متسارعة تاركة المجال «للنظام العالمي الجديد» (انظر **النظام العالمي الجديد**)، مع الهمينة الوحيدة القطب للأطلسية (انظر الأطلسية) والعولمة (انظر **العولمة**).

الـ Heartland: من الإنكليزية الأرض ـ القلب؛ انظر **المحور الجغرافي للتاريخ**. المصطلح لماكيندر.

الـ Hinterland من الألمانية: «الأرض الخلفية». الأراضي الممتدة في أعماق القارة عن الخطوط الشاطئية. المصطلح من خصائص التحليل **التالاسوكراتي** للمدى.

Jus Publicun Europeum: باللاتينية: «القانون الأوروبي العام» الجرد التاريخي للترتيبات القانونية التي نظمت العلاقات بين الدول في أوروبا.

Jus Publicum Euroasiaticum: باللاتينية «القانون الأوراسي العام» مشروع قانون دولي يمكن أن ينظم العلاقات بين البلدان والشعوب الأوراسية على أساس الاعتراف بأفضلية القيم **التيلوروكراتية** القارية.

Lenaland: بالإنكليزية ـ «الأراضي المجاورة لحوض نهر اللينا» المصطلح لماكيندر. يعني جميع الأراضي الأوراسية الشمالية الممتدة شرقي نهر الينيسي حتى شطآن المحيط الهادي. وكان ماكيندر في دراساته الأخيرة قد أولى هذه المنطقة اهتماماً خاصاً وعدّها أراضي لا تنتسب لمناطق تأثير **التيلوروكراتية بل التالاسوكراتية**.

Linkage: المصطلح لكيسنجر. استراتيجية أطلسية تهدف إلى ضم الحزام المتقطع من الأوراسيا للأراضي المتواصلة الخاضعة للغرب.

Mitteleuropa: بالألمانية **أوروبا الوسطى**.

One World: التصور العولمي للعالم الواحد. انظر أيضاً **نهاية التاريخ**.

Pax Americana: باللاتينية العالَم على الطريقة الأمريكية، نفس معنى **الأطلسية**.

Pax Euroasiatica : باللاتينية: العالم على الطريقة الأوراسية نفس معنى **الأوراسية**.

Pax Persica : باللاتينية العالم على الطريقة الفارسية. مشروع إعادة التشكيل الجيوبولتيكي لآسيا الوسطى تحت راية إيران مع التحالف مع روسيا.

الـ Rimland : بالإنكليزية «الأراضي الشاطئية» انظر **الهلال الداخلي**. المصطلح لماكيندر.

الهوامش ومراجع الكتاب

المدخل:

1) أشار كارك كورش إلى التشابه الواضح بين الجيوبولتيكا والماركسية سنة 1943، وذلك في كتابه «النظرات التاريخية لعلماء الجيوبولتيكا». (. . . .) تتسم المادية الجديدة لعلماء الجيوبولتيكا بنفس الطابع النقدي الفعال والمثالي (المعنى التقليدي للكلمة) الذي اتسمت به ما تسمى بمادية ماركس التاريخية في مراحلها الأولى. . . . ومثلما تطمح الماركسية اليوم إلى أن تحقق السيطرة الواعية على الحياة الاقتصادية في المجتمع، هكذا يمكن أن تعرّف «الهاوسهوفرية» الحالية بأنها محاولة السيطرة السياسية على المجال المكاني» أخذ المقتطف من : New Essays. 6T. 1943 ص 8 ـ 17.

الباب الأول

(1) См. Friedrich Ratzel, "Politische Geographie", 1887, "Einleitung".
(2) См. Ibidem
(3) См. Friedrich Ratzel "Ueber die Gesetze des raeumlicher Wachstum der Staaten", 1901
(4) См. Friedrich Ratzel "Das Meer als Quelle der Voelkergroesse", 1900
(5) См. Rudolf Kjellen "Die Staat als Lebensform", 1916
(6) См. Ibidem
(7) См. Ibidem
(8) См. Friedrich Naumann "Mitteleuropa", 1915
(9) Halford Mackinder "Geographical Pivot of History" in "Geograghical Journal", 1904. Русский перевод в ж-ле "Элементы. Евразийское обозрение", 1996, №7, стр. 26 —31
(10) H.Mackinder "Democratic ideals and reality", New York, 1919
(11) См. стр. 31 в "Элементы", №7, op. cit.
(12) См. стр. 31 в "Элементы", № 7, op.cit.
(13) См. H.M."Democratic ideals and reality", op. cit.
(14) См. Halford Mackinder "The Round Planet and the winning of the Peace", 1943
(15) См. Ibidem
(16) См. H.M."Democratic ideals and reality", op. cit.
(17) См. Alfred Mahan "The influence of Sea Power in history" (1660 — 1783)", 1890; на русском А.Мэхэн "Влияние морской силы на историю (1660-1783)", М.-Л., 1941
(18) См. Alfred Mahan "The influence of sea power upon the French revolution and empire (1793 — 1812)", Boston,1892; А.Мэхэн "Влияние морской силы на Французскую Революцию и Империю (1793 - 1812)", М.-Л., 1940
(19) См.Alfred Mahan "The Interest of America in Sea Power", 1897
(20) Alfred Mahan "Problem of Asia and its effects upon international politics",1900
(21) См. Alfred Mahan " The Sea Power in its relations to the war", Boston, 1905
(22) См. Alfred Mahan "The influence of Sea Power in history (1660 — 1783)", op. cit.
(23) Ibidem

[24]См. Albert K.Weinberg "Manifest Destiny", Baltimore, 1935
[25] См. Halford Mackinder "Geographical Pivot of History", op. cit.
[26] См.Alfred Mahan "The Interest of America in Sea Power", op. cit.
[27] Vidal de la Blache "Tableau de la Geographie de la France", Paris, 1903
[28] См. Vidal de la Blache "Principes de geographie humaine", Paris, 1921
[29] Nicholas Spykman "Geography of peace", 1942
[30] Ibidem
[31]N. Spykman "America's Strategy in World Politics"(1942)
[32] Op. cit.
[33] Karl Haushofer "Dai Nihon", Munich,1913
[34] Karl Haushofer "Kontinentalblocke:Mitteleuropa — Eurasia —Japon" in "Ausgewaehlte Texte zur Geopolitik", Boppard am Rhein, 1979; по-русски в "Элементы"№7, op. cit, стр.32-36
[35] Carl Schmitt "Der Nomos der Erde" , Koeln, 1950
[36] Carl Schmitt "Land und Meer", Leipzig, 1942
[37] Carl Schmitt "Politische Theologie", Munchen-Leipzig, 1922
[38] Carl Schmitt "Das Begriff des Politischen", Berlin-Grunewald, 1928; по-русски Карл Шмитт "Понятие политического" в "Вопросы Социологии", Москва, 1992, том 1, №1
[39] Carl Schmitt "Theodor Daueblers "Nordlicht". Drei Studien ueber die Elemente, den Geiste und die Aktualitaet des Werkes", Muenchen, 1916
[40] Carl Schmitt "Der Nomos der Erde", op. cit.
[41] Carl Schmitt "Die planetarische Spannung zwischen Ost und West", 1959 in "Schmittiana— III" von prof. Piet Tommissen, Brussel, 1991; по-русски см. Карл Шмитт "Планетарная напряженность между Востоком и Западом" в "Элементы", 1997, № 8
[42] Carl Schmitt "Raum und Grossraum im Volkerrecht", 1940; цит. по Julien Freund "Les lignes de force de la pensee politique de Carl Schmitt" dans "Nouvelle Ecole", № 44,Paris, 1987
[43] Ibidem
[44] Carl Schmitt "Staatliche Souveraenitaet und freies Meer" in "Das Reich und Europa", Leipzig, 1941
[45] Петр Савицкий "Географические и геополитические основы евразийства" в "Элементы" № 3, стр. 51-54
[46] П.Н. Савицкий "Степь и Оседлость" в "На Путях: Утверждение евразийцев", Берлин, 1922, стр. 341-356
[47] Ibidem

(48) Ibidem

(49) П.Н.Савицкий "Географический обзор России-Евразии" в сборнике "Мир России — Евразия", 1926, стр. 219 — 232

(50) Ibidem

(51) Ibidem

الباب الثاني

(1) D.W.Meinig "Heartland and Rimland in Eurasian History" in "West Politics Quarterly", IX, 1956 pp. 553-569

(2) Ibidem

(3) W.Kirk "Geographical Pivot of History", Leicaster Universal Press, 1965

(4) S.B. Cohen "Geography and Politics in a divided world", New York, 1963

(5) Ibidem

(6) Colin S. Gray "The Geopolitics of the Nuclear Era", N.Y., 1977

(7) Samuel Huntington "Clash of civilisations" in "Foreign Affairs", summer 1993, стр. 22-49

(8) Ibidem стр. 25

(9) Ibidem стр. 39

(10) Ibidem стр. 49

(11) Цит. по Paul-Marie de la Gorce "Washington et la Maitrise du Monde", "Monde Diplomatique" 1992, апрель 1992 № 457.

(12) Jack Attali "Lignes d'horizon", Paris. 1990

(13) См. Prof. Carlo Santoro "Progetto di ricarca multifunzionale 1994 - 1995 — I nuovi poli geopolitici", Milano

(14) Yves Lacoste "Dictionnaire Geopolitique", Paris, 1986

(15) Andre Siegfried "Tableau politique de la France de l'Ouest sous la Troisieme Republique", Paris, 1913

(16) Alain de Benoist "Les idess a l'endroit", Paris, 1979

(17) Jean Thiriart "L'Empire Eurosovietique de Vladivistok jusque Dublin", Brussell, 1988

(18) Jordis von Lohausen "Mut zur Macht. Denken in Kontinenten", Berg, 1978

(19) Ibidem

(20) Jean Parvulesco "Galaxie GRU", Paris, 1991

(21) Robert Steukers "La Russie, L'Europe et L'Occident" dans "Orientation" № 4 nov.-dec. 1983

(22) Carlo Terracciano "Nel Fiume della Storia" in "Orion", Milano, №№ 22 — 30, 1986 — 1987

(23) Л.Гумилев “Этногенез и биосфера земли “. Ленинград. 1990

(24) Francoise Thome “Eurasisme et Neo-Eurasisme” dans “Commentaire”, ete 1994, № 66.

الباب السادس

1) نذكّر بأن الأرثوذوكس يرون أن الروح القدس ينبثق عن الأب فقط (وإن كان يصدر بالابن) بينما يؤكد الكاثوليك على أنه من الابن أيضاً، وfilioque باللاتينية تعني «ومن الابن».

2) ينبغي النظر بصورة منفصلة إلى الكنيسة الأرثوذوكسية الجورجية التي احتفظت باستقلالها النسبي عن الأتراك.

3) نشير إلى أن هذا نصٌّ كان قد كتب في كانون الأول سنة 1993 أي قبل عام واحد من حرب الشيشان.

الباب السابع

(1) Halford Mackinder “Geographical Pivot of History” in “Geograghical Journal”, 1904.

2) تعرض هذا التصريح للنقد خلال النقاش الذي دار عقب قراءة التقرير. وعند إعادة النظر في هذا المقطع أراه مع ذلك مبرَّراً في منطلقه. فحتى اليوناني البيزنطي كان يمكن أن يكون غير ما هو عليه لو أن روما أخضعت مجموع اليونان القديمة. ومما لا شك فيه أن المُثل التي يدور حولها الحديث أقرب إلى البيزنطية منها إلى الهيلينية. لكنها رومانية لم تكن وهذا مؤكَّد (ملاحظة المؤلف).

3) تم دحض أطروحة ماكيندر خلال أقرب السنوات التي تلتها. فخلال الحرب العالمية الثانية أي بعد ما لا يزيد عن عشر سنوات أكدت الولايات المتحدة الأمريكية نفسها دولةً غربية أطلسيةً تتعارض مع قطاع الجيوبولتيكا الشرقي، الأوراسي، القاري والباسيفيكي. والخط الفاصل بين الشرق والغرب يمر بصرامة عبر المحيط الهادي وليس عبر الأطلسي بأية صورة. (المؤلف).

(4) ГАРФ фонд П.Н.Савицкого № 5783 (ред.)

5) كانون الأول 1982. نص هذه الرسالة سلّم إلى أ. دوغين من طرف المؤلف مباشرة سنة 1992. (التحرير).

(6) Carl Schmitt "Die planetarische Spannung zwischen Ost und West", 1959 in "Schmittiana— III" von prof. Piet Tommissen, Brussel, 1991 (ред.)

7) «سياسة الدول وجغرافيتها» (بالفرنسية)، الناشر.

8) يرى الكاثوليكي شميدت أن الـ Filique لا تزيد على أن تؤكد تثليث الإله وتعزز التوجه الأيقونوغرافي للعقيدة المسيحية، بينما يبدو له رفض هذا التجديد في **الكنيسة الأرثوذوكسية** تعبيراً عن محاربة الأيقونات ذات الروح المستمدة من العهد القديم. وهذه أطروحة خاطئة كل الخطأ، تدحضها حتى تلك الملاحظات التاريخية ومنها الانتشار الشامل للأيقونات وتمجيدها بين الشعوب الأرثوذوكسية، وبصفة خاصة في روسيا حيث لا تزال الأيقونة تلعب دورها الكلاسيكي في التطبيق الديني والتي ما لعبت دوراً يماثله في مراحل انتشار الكاثوليكية في أوروبا. وفضلاً عن ذلك كان إدخال الـ Filique بصفة خاصة تعبيراً عن تلك الوحدانية التجريدية واللاهوت العقلاني واللذين لا يشتركان في أي شيء مع فرض اكتمال التثليث وأسبقية الصورة. لمزيد من التفصيل في هذا الخصوص انظر أ.دوغين «ميتافيزيكية البشارة» (المؤلف).

9) استخدم ماكيندر في البداية مصطلح «Pivot area» المنطقة المحورية، وفيما بعد مصطلح Heartland «الأرض القلبية» (المؤلف).

10) النوموس خاصية أساسية بالنسبة لكارل شميدت ومحور نظريته في التاريخ والحق والجيوبولتيكا. يُسمي دراسته الأهم «Der Nomos der Erde». والنوموس في اليونانية verbum occasionalis من فعل nomein الذي يعني أخذ امتلك، اقتسم وزّع، بنى وما إلى ذلك، ومن الناحية الإيتمولوجية يطابقه الفعل الألماني nehmen و Nahme أي «أخذ» و«مأخوذ» وقريب في النسب من كلمة Nahme أي الاسم. وأقرب ما يعكس هذه الفكرة في اللغة الروسية كلمة "**иметь**" والكلمة السلافية القديمة "**имать**" «أخذ» ومنها "**имя**" «الاسم»، "**имущество**" الملكية "**имение**" الممتلكات، ومنها "**поднимать**"- رفع - "**перенимать**" قَبَس - "**отнимать**" انتزع، وحتى "**понимать**" فهم (قارن

saisir الفرنسية أمسك ـ التقط، أخذ، فهم) وهي قريبة بشكل ما من معاني مفردات "делить" ، قسم، "надел" قسمة نصيب، "доля"حصة، نصيب (بمعنى الملكية والمصير). وفكرة النوموس ـ فكرة البنية المضبوطة المميّزة بالنسبة لخاصية التنظيم التاريخي الإنساني للمجتمع، والأسرة، التراب، الحق، وما إلى ذلك، ويمكن ربط مفهوم «النوموس» عند شميدت بمفهوم «البنية» عند البنيويين الفرنسيين، وليس لنا في هذه الحالة استثناء أن يكون الانتحال مباشراً (من طرف الفرنسيين بالطبع) ومعروفة حقيقة التأثير الملموس الذي تركه شميدت على الهيغلي الأوروبي الأعظم الكسندر كوجيف والذي كان بدوره أستاذاً لماركوزي (المؤلف).

11) «الحرب الروحية قاسية كقسوة الحرب البشرية» (بالفرنسية).

12) كان يمكن لشميدت بدوره أن يتهم بكراهية الروس القائمة على خرافات مماثلة (في الحساب الأعظم) في تهافتها وتنحدر من مصدر آخر. من انتمائه الطائفي للكاثوليكية وإضفائه صفة الإطلاق الجيوبولتيكي على أوروبا الوسطى. وكان أرمين ميلير في كتابه المتألق «الثورة المحافظة في ألمانيا 1918 ـ 1932» قد بيّن بطريقة مقنعة أن التوزيع الجيوبولتيكي لأوروبا إلى مناطق ثلاث ـ أوروبا الغربية (انجلترا وفرنسا)، أوروبا الوسطى (ألمانيا والنمسا)، أوروبا الشرقية (روسيا) ـ أن يعتمد على أساس التقييمات الثقافية للجيران القاطنين هذه المناطق الثلاث. فالألمان بالنسبة للأنجليز والفرنسيين برابرة خرجوا لتوهم من الغابات، «هوْن» أحفاد أتيلا المتوحشون. وأمثال هؤلاء البرابرة بالنسبة للألمان هم الروس. أما بالنسبة للروس فالألمان الذين يبدون للفرنسيين والإنكليز برابرة ـ هم أشخاص آليون، حَمَلة للحضارة والثقافة الغربية المصفّاة (أي أوروبيون كلاسيكيون مبالغ في أوروبيتهم) بينما يتهم الألمان الفرنسيين والإنكليز بانعدام الحيوية والإلهام التاريخي. وعلى فكرة فإن هذا التنميط الجيوبولتيكي للأتنوسات الأوروبية قد حدد مسبقاً التصور عن «الشعوب الفتيّة» (الذي استقاه الثوريون الألمان المحافظون عن دستويفسكي) الذي كان يقْصر هذه الصفة على الروس والألمان. وبكلمة أخرى فإن مآخذ البربرية كان يمكن أن تُفهم من زاوية إيجابية أيضاً على نحو ما كان مفهوماً في المعسكر المحب للروس (والبروسي منه على الأغلب، البروتستانتي منه والوثني) ضمن الثورة **المحافظة في ألمانيا**، التي كان يعود إليها آرثور موللر ڤان دين بروك، أوسوالد شبينغلر وبخاصة إيرنست نيكيش والوطنيون البلشفيك. ولكن

بغض النظر عن البغضاء نحو الروس فشميدت جدير بإجلال الروس، وبدراستهم له، وعلى نحو ما فعله نفسه، وهو الألماني الشديد التعصب، إذ يصفح بكل بساطة وفي سبيل الخدمات العقلية عن بغضاء الإنكليزي كولّينغوود للألمان (المؤلف).

13) لا توجد في الروسية كلمتان تعبران عن المصطلحين الإنكليزيين «answer» و «response». ونحن نترجمهما في هذا السياق بـ «الجواب» و«الاستجابة» فالمصطلحان يعنيان «الرد» وعلى فكرة فلا وجود لمثل هذا التفريق في الألمانية أيضاً بحيث إن شميدت يستخدم في نصه المصطلح الإنكليزي «response» في كل مرة يشير فيها إلى توينبي ويستخدم الكلمة الألمانية «Antwort» عندما يعني كالينغوود ضمناً. ووجود المصطلحين في اللغة الإنكليزية نفسها لا يفسر بالانقسام الدلالي بل بالازدواجية الرومانية (response) للكلمة الجرمانية (answer) وفيما بعد آثرنا في الترجمة الروسية نقل الكلمتين بـ «الاستجابة»، لكي لا نثقل النص مصطلحياً (وبخاصة أننا استعرضنا اصطناعية هذا الفرق) فـ response كرد استجابة على تحدي التاريخ في ميدان أكثر تجرداً من التصورات الطبيعية العلمية والتي لم تتحرر منها تصوّرات كالينغوود حتى النهاية. وعلى فكرة فإن شميدت نفسه يشرع باستخدام المصطلحين كمترادفين مختاراً هذا المصطلح أو ذاك وفقاً لتصورات أسلوبية الطابع. والأمر نفسه يمكن قوله حول المصطلحين «السؤال» و«التحدي». question وchallenge. وفي هذه الحالة يفضل شميدت بصورة واحدة تقريباً كلمة «تحدٍ» التي يترجمها مرة بـ Ruf Anruf، الألمانية وتارة يتركها في صيغتها الإنكليزية الأولى challenge وفي الأدبيات الفلسفية الروسية درجت ترجمة هذا المصطلح دوماً بـ «التحدّي» (المؤلف).

14) هذه الصيغة «The World and the West» (والتصور الجيوبولتيكي المتضمن فيها) يتداعى بصورة واضحة مع دراسة صموئيل هنتينغتون «Clash of civilisations» والذي تتخذ إحدى فصلاته عنوان «The West and the Rest». والمحافظ الأمريكي هنتينغتون، يخضع كما هو واضح لتأثير توينبي ومن البين أنه يعد نفسه امتداداً له (المؤلف).

15) إشارة واضحة إلى أوسوالد شبينغلر الذي واجه بين الحضارة والثقافة.

16) من هذه الأطروحة نستنبط بكل بساطة اللحظات الأساسية للنظرية اللينينية «**الامبريالية كأعلى مراحل تطور الرأسمالية**» والمبادىء المؤسسة لنظرية «**أوتوقراطية المجالات الكبرى**» (وبصفة أوسع «القومية الاقتصادية») لفريدريخ ليست. ومما يثير الفضول أن الثوريين المحافظين الألمان من الناحية العملية قد استنبطوا من تطوير أطروحات ليست نفس الاستنتاجات التي استنبطها لينين من هيغل وماركس. وفي الحالتين كان الحديث يتناول النضال الكوني المعادي للامبريالية في سبيل «حقوق الشعوب» ضد الاستعمار الأنجلو ساكسوني التالاسوكراتي. وعلى فكرة فقد كان كارل شميدت المنظر الرئيسي لـ «حقوق الشعوب، أما الاستخدام الجيوبولتيكي لهذا المبدأ وتطويره فمن سمات هاوسهوفر (المؤلف).

بديلاً عن الخاتمة

1) من المستطرف دراسة المغزى الجيوبولتيكي لرمزية «النبي الكذاب» أو «الوحش الآخر». وقد جاء في سفر الرؤيا ما يلي: «ورأيت وحشاً آخر طالعاً من الأرض» (رؤيا 13 ـ 11) أي إن هذا الوحش الآخر ينتمي إلى اليابسة. ولكن يتم التوكيد في الموضع نفسه على أنه «يعمل بكل سلطان الوحش الأول» (رؤيا 13 ـ 12). وبكلمة أخرى فالحديث يدور حول «روح اليابسة»، الذي انتقل إلى جانب عفوية البحر، إلى جهة لوياثان وكما إن «الوحش الطالع من البحر» يمثل الشيطان ـ التنين وهو بديله (أي إن الأطلسية هي التعبير التاريخي عن الشر الكوني) فإن «الوحش الآخر» أو «النبي الكذاب» هو بدوره ممثل «الوحش الخارج من البحر» أي بديله. فاللوبي الأطلسي في الدول الكبرى فوق اليابسة يؤدي هذه المهمة بالذات.

(2) См. Жан-Марк Вивенза “От формальной доминации капитала к его реальной доминации”, “Элементы” N 7.
(3) См. ж-л “Милый Ангел” N 1, Москва, 1991
(4) См. Рене Генон “Царство количества и знаки времени”, Москва, 1994.

فهرس عام

ـ أ ـ

ـ ث ـ

- ج -

- ح -

- خ -

ـ ذ ـ

ـ ر ـ

- ش -

- ض -

- ط -

- ظ -

- ع -

ـ ل ـ

- م -

ـ ن ـ

المحتويات

الباب الثاني
النظريات والمدارس الجيوبولتيكية المعاصرة
(النصف الثاني من القرن العشرين)

الباب الثالث
روسيا والمدى

الباب الرابع
مستقبل روسيا الجيوبولتيكي

الباب الخامس

الجيوبولتيكا الداخلية لروسيا

الباب السادس
التحليل الأوراسي

الباب السابع
نصوص علماء الجيوبولتيكا الكلاسيكيين

الباب الثامن
بديلاً عن الخاتمة

الكسندر

الجيـ

مستقبل

ترجمة وتقديم

الدكتور عماد ح

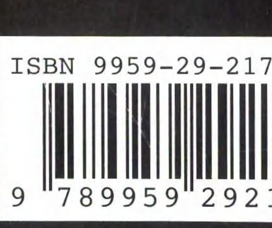
الكسندر دوغين

أسس الجيوبوليتيكا



لتيكا.
يخها.
عملية.

تادها
يخية
ف من
شعوب،
ير إلى
صوص
ى ذلك
ب وقد
لتيكا.
ى مبنى
سيبنى
العنف


ISBN 9959-29-217
9 789959 2921